



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد خيضر - بسكرة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الاجتماعية

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:

عنوان الأطروحة

الفكر التربوي عند مالك بن نبي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع

تخصص: علم الاجتماع التربوية

إشراف

أ.د. نور الدين زمام

إعداد الطالب

العابد ميهوب

أعضاء لجنة المناقشة

الصفة	الجامعة	اسم ولقب الأستاذ
رئيسا	جامعة بسكرة	أ.د. الطاهر الإبراهيمي
مشرفا ومقررا	جامعة بسكرة	أ.د. نور الدين زمام
عضوا مناقشا	جامعة سطيف 2	د. الطاهر سعود
عضوا مناقشا	جامعة بسكرة	د. أحمد فريجة
عضوا مناقشا	جامعة سطيف 2	د. عبد العزيز بوشعير
عضوا مناقشا	جامعة سطيف 2	د. بلقاسم نويصر

السنة الجامعية: 2014/2013



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد خيضر - بسكرة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الاجتماعية

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:

عنوان الأطروحة

الفكر التربوي عند مالك بن نبي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع

تخصص: علم الاجتماع التربوية

إشراف

أ.د. نور الدين زمام

إعداد الطالب

العابد ميهوب

أعضاء لجنة المناقشة

الصفة	الجامعة	اسم ولقب الأستاذ
رئيسا	جامعة بسكرة	أ.د. الطاهر الإبراهيمي
مشرفا ومقررا	جامعة بسكرة	أ.د. نور الدين زمام
عضوا مناقشا	جامعة سطيف 2	د. الطاهر سعود
عضوا مناقشا	جامعة بسكرة	د. أحمد فريجة
عضوا مناقشا	جامعة سطيف 2	د. عبد العزيز بوشعير
عضوا مناقشا	جامعة سطيف 2	د. بلقاسم نويصر

السنة الجامعية: 2014/2013





إهداء

يسعدني أن أهدي هذا العمل إلى من أعتبهم كثيرا وقدّموا

لي يد المساعدة وتوفير الظروف المناسبة:

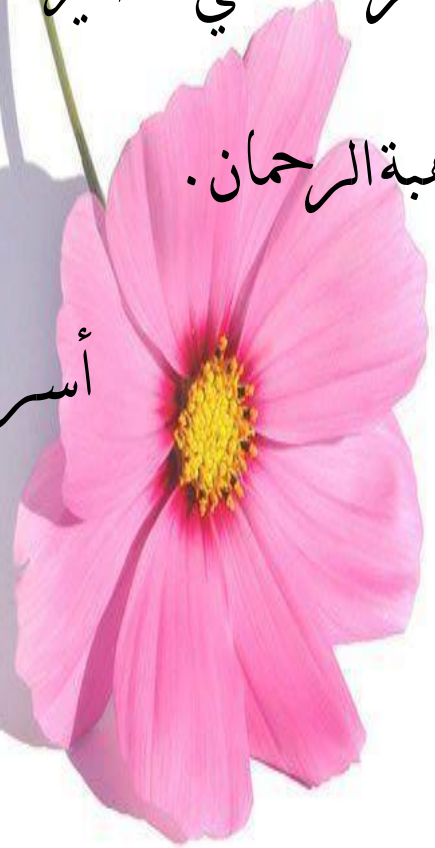
أفراد عائلتي الصغيرة: زوجتي وولدي إبراهيم و حورية

هبة الرحمان .

أسرتي الكبيرة: الوالدين الكريمين .

إلى كل الأصدقاء والنزملاء .

"ميهوب العابد"



شكر و تقدير

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " لا يشكر الله، من لا يشكر الناس". انطلاقا من الحديث النبوي الشريف، يسعدني أن أتقدم إلى الفاضل: الأستاذ الدكتور نورالدين زمام بجزيل الشكر و وافر الامتنان على موافقته و إشرافه على هذا العمل.

والشكر موصول كذلك إلى كافة أساتذة قسم علم الاجتماع بجامعة بسكرة وإلى كل الأصدقاء الذين قدّموا لي يد المساعدة، على إتمام هذا العمل وإخراجه على هذا الشكل. فلهم مني خالص الشكر و العرفان.

ميهوب العابد

جدول المحتويات :

أ	جدول المحتويات
ج	الشكر و التقدير
ح	الملخص اللغة العربية
ي	الملخص باللغة الإنجليزية
ط	المقدمة
23 . 1	الفصل الأول : الإطار المنهجي و المفهومي للدراسة.
2	1. مشكلة البحث.
4	2 . أهمية الموضوع.
6	3 - أسباب اختيار الموضوع.
7	4. أهداف الموضوع.
8	5 . تساؤلات الدراسة.
09	6 . مفاهيم الدراسة.
22	7 . المنهج المتبع في البحث.
22	9 . حدود الدراسة.
23	10 . الدراسات السابقة.
96 . 42	الفصل الثاني: مالك بن نبي و تكوينه الفكري
43	تمهيد:
44	1 . المحطات التي مرّ بها مالك بن نبي في حياته من 1905 إلى 1973.

66	2 . العوامل المؤثرة في التكوين الفكري لمالك بن نبي :
83	3 . العوامل الثقافية و الفكرية.
91	4 . مؤلفاته.
96	استخلاصات
143 . 97	الفصل الثالث: طبيعة الفكر التربوي عند مالك بن نبي
98	تمهيد
99	1 . الإنسان:
108	2 . المجتمع :
124	3 . العلم و المعرفة:
140	استخلاصات
193 . 142	الفصل الرابع: البعد التربوي لنظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي
143	تمهيد
144	1 . الحضارة:
156	2 . الحضارة عند مالك بن نبي.
160	3 . محورية الإنسان في التغيير الحضاري
162	4 . الدورة الحضارية عند مالك بن نبي
168	5 . عناصر الحضارة
174	6 . محاور الحضارة
184	7 . البعد التربوي للدورة الحضارة عن مالك بن نبي

190	8 . دور الإرادة و الإمكان الحضاريين في بناء الحضارة
194	استخلاصات
273 . 194	الفصل الخامس: التربية عند مالك بن نبي: المفهوم . الأهداف . الأبعاد
195	تمهيد:
196	1 . في ماهية التربية عند مالك بن نبي :
225	2 . أهداف التربية عند مالك بن نبي .
256	3 . أبعاد التربية عند مالك بن نبي
272	إستخلاصات
334 . 274	الفصل السادس: التربية الاجتماعية: المفهوم . الشروط . القواعد . المبادئ . الأسس . الأبعاد.
275	تمهيد
276	1 . التربية الاجتماعية: التعريف و الموضوع
278	2 . الشروط الأولية للتربية الاجتماعية
281	3 . قواعد التربية الاجتماعية
284	4 . مبادئ التربية الاجتماعية
287	5 . أسس التربية الاجتماعية
289	6 . التربية الاجتماعية كعملية تحضر
294	7 . أبعاد تشكيل التربية الاجتماعية
334	استخلاصات

386 . 335	الفصل السابع: التربية الأخلاقية و علاقتها ببناء الدورة الحضارة.
336	تمهيد
337	1 . مفهوم الأخلاق
339	2 . الأخلاق عند مالك بن نبي
342	3 . دور الأخلاق في بناء الحضارة عند مالك بن نبي
355	4 . علاقة الأخلاق بالبناء الحضاري
373	5 . أهمية الأخلاق في بناء الحضارة عند مالك بن نبي
385	استخلاصات
416 . 387	الفصل الثامن: البعد التربوي للمشروع التنموي عند مالك بن نبي :
388	تمهيد:
389	1 . أسباب التخلف في فكر مالك بن نبي
392	2 . مظاهر التخلف
395	3 . مقومات النهوض التنموي
402	4 . ركائز التنمية عند مالك بن نبي
408	5 . رهانات التنمية
412	استخلاصات
417	الخاتمة و تقييم النتائج
428	المراجع و المصادر

الملخص:

من العسير الحديث عن جهاذة الفكر التربوي المعاصر دون الخوض في ذكر المفكر مالك بن نبي، الذي وضع أساسا منهجية و تربوية لمشروع حضاري كبير، متجاوزا في ذلك الكثير من المقاربات في عصره، التي حاولت إصلاح الفرد والمجتمع ، فقد بدأ مالك بن نبي التعبير عن فكره وتحليله من خلال رؤيته للعالم الإسلامي بأنه ليس كيانا معزولا عن بقية العالم و قادرا على موصله تطوره بدون تأثير، بل أن العالم الإسلامي موجود في الدراما الإنسانية بصفيته شاهدا و فاعلا، و يفرض عليه هذا الوجود المزدوج أن يوفق بين حياته المادية و الروحية و مصير الإنسانية.لذا وجب علينا أن يعرف نفسه، و يعرف و بالقيم التي يحملها و القيم التي تشكل الرصيد الإنساني.

و هذه الأطروحة لتميط اللثام عن كثير من القضايا التربوية التي حاول من خلالها مالك بن نبي أن يصلح بها الفرد و المجتمع، بغية إنشاء حضارة. فقد كان الفكر التربوي أحد أهم القضايا التي من خلالها يتم بناء المشروع الحضاري المنشود. وكان تساؤل الدراسة هو: ماهي القضايا التربوية التي طرحها مالك بن نبي في جل كتاباته و التي شكّلت فكر هي التربوي من خلال البحث في مجموعة من المحاور تتمثل في البعد التربوي للدورة الحضارية، والبحث في ماهية التربية و التربية الاجتماعية و مشاكل و الحلول التي ترتبط بالإنسان في المجال التنموي، مرورا بالتربية الأخلاقية التي شكّلت عند مالك بن نبي محور التربية و قاعدة الحضارة.

وقد تم الاعتماد في هذه الدراسة على المنهج التحليلي الاستنباطي كخطوة أولى، الذي من خلال الأول قمنا بكشف المتغيرات ذات العلاقة بالتربية و الثقافة والحضارة، ثم تحليل ذلك وفق النسق (بن نبي) الذي يتشكل من نسق مضمّر يتحدد من خلال الإنسان و الثقافة، و التربية و المنهج الذي يؤدي بدوره إلى قيام الحضارة.

.وقد خلصنا في النهاية إلى مجموعة من النتائج نوجزها في النقاط التالية "

أخذ مفهوم التربية عند مالك بن نبي معنى التثقيف، أنها "عملية تثقيف متواصلة"، وأخذ صيغ و دلالات و معاني و مضامين مختلفة و متباينة، عبرت في مرة عن وضع اجتماعي تكيفه مع سياقاته و دلالاته المتجددة.

. تعتبر مقارنة مالك بن نبي التتموية واحدة من أفضل المداخل النظرية التي عالجت التتمية من كل جوانبها الإنسانية و الاجتماعية و الثقافية و النفسية، و عملية تشخيص لواقع متخلف، بدأ مالك بن نبي في تفكيك آليات العجز و القصور على المستوى النفسي و الاجتماعي متجاوزا في ذلك الكثير من الدراسات العربية و الغربية.

. يؤكد الباحث على مركزية نظرية الدورة الحضارة في المشروع التربوي عند مالك بن نبي بوصفها الإطار الكلي المفسر لظاهرة البناء و السقوط الحضاري، فقد شكّلت هذه النظرية منظورا حضاريا متميزا حاول سبر غور الظاهرة الحضارية، و من ثم اكتشاف السنن التي تتحكم في ظاهرة الحضارات نهوضا و نكوصا.

. انضبط المشروع الحضاري عند مالك بن نبي بخطوات منهجية دقيقة و صارمة، واضحة الأبعاد و الخطوات، في إطار منظومة تعبيرية شكّلت في محصلتها النهائية وحدة عضوية متكاملة، إذ انطلق مشروعه من استقراء الواقع التاريخي؛ بغرض كشف العلل التي أثّرت في الأداء الحضاري للأمة، ثم اتجه إلى تشخيص الواقع الراهن؛ بهدف الإحاطة الكلية بالأسباب التي تعطلّ الأمة الإسلامية عن الاستئناف الحضاري.

و جود علاقة و صلة قوية بين الأخلاق و الحضارة، كان لا بد من توظيف القيم و الأخلاق في بناء الحضارة و اعتبارها عاملا جوهريا يسهم في بقائها و نمائها. فإن وراء كل تقدّم و مدنية قيم أخلاقية و روحية من شأنها أن تشدّ قوام هذ التقدم و تجعله متماسكا وتحفظه من الزيغ و الانحراف.

Abstract :

It is hard to talk about the masters of modern educational thinkers without referring to Malek ben Nabi thought, who put methodic and educational foundations for a great civilised project, going past many of approaches in his time, and through his vision to The Islamic world which is considered in relation with the world ..and expresses it in his thought. The Islamic world in his opinion is existed as an actor in human drama and as eyewitness also. It is an underdeveloped world it needs a development and a good education.

From this point, we have presented our these in order to show the Educational thought in Malek ben Nabi thought. which contains many some educational issues and problems according to him and their relation with civilisation since the education plays a great role in the societies and persons life ; therefore we have discussed this problem that we have introduced as follow : what are the educational cases that Malek ben Nabi had put forth in his books, and built his Educational thought ?. In order to answer this question and discuss this problem we have taken some themes concerning the educational insight for the civilisation cycle, and looking for the nature of education , social education also the problems and their solutions that are linked with men passing through moral education which is considered as a base of civilisation.

The used method for this study is the analytical method to analysis the content of general conceptions and Malek ben Nabi system, then to discover the variables which are connected with culture, education and civilisation through man and method.

In the last, we have ended to some results like :

- Malek ben Nabi takes the synonym of education as a continuing cultivation process and takes different contexts and meanings to express the social situation.
- The developed approach in his thought is the best way to understand the problem of development and civilisation especially in the third world countries by disassembling the mechanism of deficiency on the social and psychological levels
 - Focusing on the centralism of civilisation cycle theory in the educational project, and discovering the causes of declining and building civilisation
 - His method is disciplined by precise and clear methodic steps.

مقدمة

شكّلت فكرة الحضارة محو اهتمام الكثير من المؤرخين و المفكرين والمصلحين، وقد كان مالك بن نبي أحد هؤلاء المفكرين الذين شغلتهم هذه القضية، إذ احتلت عنده مكانة مركزية، ولذلك نجد كتبه جميعا قد صدرت تحت عنوان ثابت هو "مشكلات الحضارة". وقد عمل على دراستها من زوايا مختلفة، فأحاط بجميع جوانبها التاريخية والنفسية والوظيفية باعتبارها ظاهرة كونية، فكانت كل مشكلة شعب في تحليلاته هي في جوهرها مشكلة حضارته، يقول مالك بن نبي (لا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها).

و ترتبط بالحضارة و الثقافة بمفهوم آخر هو مفهوم التربية التي تعد مسألة في غاية الأهمية في التجديد و البناء الحضاريين، إلا أنه لم يقتصر في تحديدها على جانبها المدرسي الأكاديمي التعليمي، ولكنها كوسيلة عامة وكمنهج منظم للتنقيف و التغيير و التجديد الحضاري. فالتربية كعملية إنسانية تكاملية مستمرة لا يحدها إطار زمني أو مكاني معين، تمس كافة مناحي الحياة، فهي الأساس الذي تتبني عليه حياة الإنسان باعتبارها مرقب يعالج أمراض النفس و مطباتها، و أمراض المجتمع و مشاكله، لذا ظهرت أهمية التربية في تنمية الأمم و تطورها الاجتماعي و الاقتصادي و تطوير قدراتها الذاتية على مجابهة التحديات الحضارية التي تعترضها .

وقد أجريت العديد من الدراسات و الأبحاث حول مالك بن نبي إلا أن أفكاره التربوية مازالت لم تُكشف بعد بالشكل الذي ييسر استخدامها كأساس للتنظير التربوي و علاج مشاكل التربية، لأنها لم يطرحها بالشكل المتخصص في التربية ليتمكن استيعابها، وإنما جاءت كعملية للإنسان و كروح للحضارة في شكل فكرة دينية تنطلق من الإنسان صوب الفضاءات الأرحب للتقدم و التطور، لذا جاءت عملية الكشف عن أفكاره و تنظيمها و تحليلها و صياغتها على شكل منظور متكامل، لتناول المشكلة التربوية مهمة شاقة، لأن النسق الفكري عند مالك بن نبي ينطلق من الإنسان الى المجتمع الى تكوين الحضارة انطلاقا من خلق الإنسان المكيف من خلال الطاقة الحيوية، التي اعتبرها مرجع أساسي لصياغة منظوره المنهجي لتناول مشكلات الإنسان والمجتمع و الحضارة.

و تكمن أهمية دراسة الفكر التربوي عند مالك بن نبي في كونه واحد من أساطين الفكر الحضاري في العالم العربي و الإسلامي و الذي ترجمت أعماله للكثير من اللغات في أوروبا و آسيا، الشيء الذي جعله يتبوأ مكانة مرموقة بين المفكرين العالميين، لأن مالك بن نبي لم يكن ينظر للمسلمين وحدهم، بل كان يكتب للإنسانية

جمعاء. ففكره لم يكن جامدا ، يعتمد في تحليله على متغيرات ظاهرة للعيان، بل كان يفكك و يعيد البناء كرة ثانية، بعيد عن كل تعصب.

و قد قمنا بتقسيم الدراسة إلى تسعة فصول للإجابة عن تساؤلات الدراسة:

فقد تناولنا في **الفصل الأول** الإطار المنهجي للدراسة، حيث تطرقنا إلى مشكلة البحث المدروسة، ثم تساؤلات الدراسة، و التي تمحورت حول السؤال العام، ثم بَررنا أسباب اختيار الموضوع من الناحية الذاتية الشخصية، و من الناحية الموضوعية. ثم الأهمية العلمية و العملية للموضوع و أهدافه، منتقلين إلى المنهج الذي وجه هذه الدراسة، فحدود الدراسة ممثلة في التربية و الثقافة و الحضارة، ثم المفاهيم العامة للدراسة، و ثم التعريف الإجرائي للبحث. ثم الهيكل العام للبحث، ثم قَدّمنا في هذا الفصل بالدراسات السابقة، و طرق في عرضها و استخلاص نتائجها.

أما **الفصل الثاني** و فتطرقنا فيه للعوامل التربوية و الاجتماعية و الثقافية المؤثرة في التكوين الفكري لمالك بن نبي، مررنا من خلال هذا الفصل على ثلاثة محور رأيناها تكفي لشرح هذا العنوان و هي: المحطّات التي مرّ بها مالك بن نبي من سنة 1905 إلى 1973، وقسمناها إلى محاور أربعة تمثلت في رحلاته و تنقلاته من الجزائر إلى فرنسا ثم إلى مصر، ثم قفوله راجعا إلى الجزائر. ثم في المحور الثاني تكلمنا فيه عن العوامل المؤثرة في تكوينه الفكري كالعوامل التربوية و الاجتماعية و الثقافية و الفكرية.

أما **الفصل الثالث**. جاء ليكون تأسيسيا لطبيعة الفكر التربوي عند مالك بن نبي، من خلالها ألقينا الضوء على ثلاثة محاور رئيسية، و هي الإنسان و المجتمع و العلم و المعرفة، أي كيف نظر مالك بن نبي للإنسان من مختلف زواياه، و بكل أبعاده، فالمجتمع عند مالك بن نبي هو كتنظيم اجتماعي يتميز بالحركة و الاستمرارية من خلال وجود فكرة دينية و له غاية و هي بناء الإنسان الكامل المضطلع بالحضارة، ثم وضعنا فيه أنواع المجتمعات (الطبيعية

و التاريخية) ثم عالجتنا فيه أسباب انهيار المجتمع من خلال بروز التقاف الغريزة على الإنسان، فيذوي خلق التوتر، الذي بدوره يؤدي إلى تفكك عرى المجتمع من خلال فقدانه لشبكة علاقاته الاجتماعية. ثم تكلمنا عن العلم و المعرفة عند مالك بن نبي و استجلينا خلالها طبيعة العلم من الناحية الإستمولوجية و علاقتها بالجانب التربوي الديني و بالغاية من وجود الإنسان على الأرض. ثم مراحل المعرفة و أبعادها

و تناولنا **الفصل الرابع**. فقد تناولنا فيه البعد التربية لنظرية الدورة الحضارة عند مالك بن نبي، تناولنا تعريف الحضارة في الإصلاح الغربي، ثم عند العلماء المسلمين، ثم في الفكر الإسلامي الحديث، ثم في جزئية أخرى تطرقنا إلى الحضارة عند مالك بن نبي من خلال ماهية الحضارة و تعريفاتها و تموقعاتها و تمفصلاتها المعرفية، ثم محورية الإنسان في التغيير الحضاري، ثم الدورة الحضارية، عناصرها و محاورها، ثم تكلمنا عن البعد التربوي لنظرية الحضارية عند مالك بن نبي، ثم دور الإرادة و الإمكان الحضاري في بناء إنسان الحضارة.

أما في **الفصل الخامس** فقد تطرقنا إلى التربية عند مالك بن نبي، المفهوم، الأهداف، الأبعاد، و الذي عرّجنا فيه على جملة من التعاريف للتربية حسب صياغتها ثم للعمليات التفاعلية بين الإنسان و المجتمع، من خلال بناء بعض السلوكات كالطاقة الحيوية، توجيهه الفعالية و الذوق الجمالي، الحق و الواجب، وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية.

ثم أهداف التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي ممثلة في الأهداف الدينية الروحية و الأخلاقية المعرفية، و الأهداف الاجتماعية و الاقتصادية، ثم أبعاد التربية، ممثلة في بعدها الفني و النفسي، و البعد الجمالي، و البعد العملي.

و تطرقنا في **الفصل السادس** إلى التربية الاجتماعية: المفهوم، الشروط، القواعد، المبادئ، الأسس، الأبعاد. تطرقنا فيه إلى تعريف التربية الاجتماعية، ثم الشروط الأولية للتربية الاجتماعية، ثم قواعدها، ثم مبادئها من خلال الفعالية التغييرية و بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، ثم أسس التربية، ثم تطرقنا إلى أبعاد تشكيل التربية الاجتماعية، على مستوى الفرد و المجتمع و الثقافة.

أما في **الفصل السابع** فقد تطرقنا إلى التربية الأخلاقية و علاقتها ببناء الحضارة. و تطرقنا فيه إلى مفهوم الأخلاق في شتى المدارس، ثم عند مالك بن نبي، و دورها في بناء الحضارة من خلال الفكرة الدينية و الدور الاجتماعي للدين، ثم الدين و دوره في بناء العلاقة الاجتماعية ثم الضمير الأخلاقي و الأسس الأخلاقية للحضارة، ثم تكلمنا عن علاقة و أهمية الأخلاق بالبناء الحضاري، من خلال دور القيم في بناء الإنسان و معالجة الباثولوجيا الاجتماعية و صحة الضمير.

و تناولنا في **الفصل الثامن** إلى البعد التربوي للمشروع التنموي عند مالك بن نبي، و فيه تطرقنا إلى جملة من قضايا التشخيصية لأسباب و مظاهر التخلف و الذي حصرها في مجموعة من الأسباب النفسية و الاجتماعية، ثم أسباب و مقومات النهوض الذي قدّم فيه جملة من الحلول على مستوى الفرد و المجتمع و الأخلاق و الاقتصاد، و كل ذلك ربطها بالجانب الإرادي و الأخلاقي، ثم أسس لقواعد التنمية ممثلة في الإنسان و التراب والزمن، ثم رهانات التنمية على الصعيد الداخلي و الخارجي.

و في نهاية الدراسة قمنا بتقديم خاتمة و النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الفصل الأول:

الإطار المنهجي و المفهومي للدراسة

المحتويات:

- 1 . مشكلة البحث .
- 2 . أهمية الموضوع .
- 3 . أسباب اختيار الموضوع .
- 4 . أهداف الموضوع .
- 5 . تساؤلات الدراسة .
- 6 . مفاهيم الدراسة .
- 7 . المنهج المتبع في البحث .
- 8 . حدود الدراسة .
- 9 . الدراسات السابقة .

1: مشكلة البحث:

من المفاهيم التي شكّلت حضورا واسعا في أدبيات الفكر التربوي المعاصر مفهوم المشروع الحضاري، الذي عبّر في كثير من المحاولات على تحدي الواقع تارة، و التطلع إلى المستقبل تارة أخرى، في محاولة منه لبلورة و تحديد مكوناته المعرفية و الثقافية، و قد ارتبط ارتباطا وثيقاً بطبيعة المرحلة و السياقات السوسيوثقافية التي شكّلت واقعا اجتماعيا تمّشده في ملامح و مضامين كتابات المفكرين الذين تطلّعوا إلى قراءة و دراسة الواقع الاجتماعي و التربوي و النفسي الذي اختزن أفكارا و قضايا شكّلت مسارته و اتجاهاته و تمفصلاته التربوية.

و أخذ الفكري التربوي عدّة مسارات تنظيرية تتفاوت و تختلف مناهجها و أهدافها و أساليبها في قراءة الواقع الذي كرّسه الاستعمار من جهة، و إغراءات الحداثة و التطور من جهة أخرى. فقد أخذت هذه التيارات الإصلاحية في العالم العربي و الإسلامي على يد المصلحين الأوائل تقدما في الرؤى و الأفكار في ميادين الاجتماع و السياسة و القانون والدستور، بالمقارنة مع الفكر الإسلامي السابق، إذ ارتبط بواقع المجتمع والدولة، هذا الارتباط بالواقع جعل من جهودهم الإصلاحية تختبر الكثير من الأفكار و المفاهيم و النظريات لتأخذ دورتها الحيوية في إطار التفاعل مع الواقع. وقد تعلّق بمضامين الفكر التربوي العالمي قديمه وحديثه، في آفاقه وتطلعاته، أساليبه وأهدافه، ولا يعني ذلك الارتباط الالتزام الحرفي للمحتوى التربوي العالمي الذي تختلف إرشاداته و توجيهاته و أهدافه و تراكماته النظرية عن طبيعة و بناء المجتمع العربي، و إنما تعني التفاعل مع الآخر و استثمار إنجازاته و تراثه و تجاربه و آرائه التي تقع في خانة المنجز الإنساني، بحيث يتحول هذا المجهود التربوي و التفاعل صوب إنضاج التجربة و تعديل المسار و تغيير الاجتهادات و الآراء المحلية المختلفة.

و إذا كان الفكر التربوي في طبيعته هو أداة الحضارة و وسيلتها في تخليد ذاتها و ضمان انسيابها و تناقلها بين الأجيال، فإنه لا يلغي فعل التربية في الحضارة، لكنه يرسم دور هذا الفعل و يحدد مداه. فهو فكرة راسخة بان منطلق الإصلاح توجيه تربوي، وإيمان بان التربية هي لبنة أساسية لتكوين ابستمولوجي وسوسيلولوجي، و هي عملية موعلة من الماضي مستمرة في الحاضر، مشرّبة تعانق تطلعات المستقبل، لذا لم تخل أي أمة

من الأمم الماضية و لم يبخل منظروها من آراء و أفكار و نظريات تربوية تحاول أن تؤسس لواقع جديد و بناء مجتمع من خلال اجتهاداتهم، لذا أصبح البحث في الفكر التربوي حقلًا معرفيًا يشمل كل بناءات المجتمع بمختلف مستوياته (السياسة و البيداغوجية و التربية و الاجتماع و التاريخ و الاقتصاد و التنشئة الاجتماعية). ذلك أن التربية فعل و مشروع مجتمعي يطمح إلى التنشئة الفرد على قيم المواطنة و التنمية المعرفية و التمكين بالكفايات سلوكيا، قيميا ووجدانيا. وقد كانت غايات التربية ملتحمة بالسياق الاجتماعي بأشكاله المختلفة. و تظلع بوظيفتها التربوية المنبثقة من الواقع المشخص بسائر تعقيداته. و كل محاولة لفرض صيغ جديدة على الواقع المحلي، مهما يكن نجاحها و موضوعيتها في مجتمعاتها هي محاولة تُفرغ الفلسفة التربوية من مضمونها الفعال. والمشكلة الحقة ليست في تصور غايات سامية شاملة غير قابلة للنقد، و إنما المشكلة هي وضع غايات قابلة للتطبيق. والمشكلة، ليست أن نتصور غايات معينة تصورا ذهنيا، بل هي أن نقوى على منحها محتوى ذو صدى واقعي، وأن نجذرنا فيه، و منه تستمد حياتها وقابليتها للعتاء و قدرتها على الانقلاب إلى عمل.

ما أن شقت العلوم الطبيعية المختلفة طريقها العلمي القائم على البحث و التقصي قرب نهاية القرن العشرين، فافتتحت بها العلوم الاجتماعية، فاتخذت من مناهجها مثلا يحتذى في الموضوعية والمنطقية العلمية، و التسلسل في الخطوات و بهذا السبيل العلمي و صلت العلوم الطبيعية و الاجتماعية إلى وفرة من الحقائق. و صبّت الكثير منها في مجرى سلس فياض متدفق منسجم لفهم الإنسان بكل أبعاده. فانعكست هذه الحقائق في التربية، فاتضح أمامها مفهوم الإنسان بطريقة علمية، وطرقت من مجال شرحه جميع المفاهيم و الآراء الجزئية التي أخطأت فهمه. كما هيأت الدراسات العلمية للمجتمع و للثقافة طريقا واضحا لفهم طبيعة الإنسان و المجتمع، و طبيعة الثقافة فيه فهما علميا مبنيا على التكامل و الشمول و الاتساق. ولما كانت التربية إحدى المقومات الرئيسية للبناء الاجتماعي فقد عكس ذلك كله في فهم متكامل " لطبيعة التربية" فأصبحت عملية متكاملة، شاملة، متفاعلة، و متسقة، تشمل الحياة كلها بأبعادها الزمنية الثلاث: الماضي والحاضر و المستقبل، كما تشمل الفرد و المجتمع، وتشمل عناصر الثقافة المتكاملة، كما تتكامل عناصرها الداخلية، مع عناصر المجتمع و أنظمتها المختلفة.

و بذلك أصبح للتربية مفهوما شاملا يتعدى نقل المعرفة من المعلم الى التلميذ، الى أهداف متكاملة لتشمل أهدافا فكرية و خلقية و اقتصادية و سياسية. فلقد أصبحت تستهدف تنمية التفكير الإنساني ليكتسب النشء مهارات التفكير الجيد في نواحي الحياة المختلفة، بدء من تكوين الصلات الاجتماعية داخل المجتمع الى المشاركة السياسية في إطار الديمقراطية الى بناء اقتصاد قوى و الانضمام الى التكتلات الدولية و الإقليمية.

و كان من الإسهامات التربوية التي أخذت حيزا كبيرا في الدراسة و البحث، من بين مفكري العالم العربي الإسلامي في منتصف القرن الماضي تلك التي قدّمها المفكر مالك بن نبي بأسلوب علمي و تحليل دقيق و الموسومة عموما بـ: "مشكلات الحضارة" التي اعتنى فيها بفكرة جوهرية و هي إبراز مشكلة التخلف و اقتراح الحلول و الآليات لنهوضه و التخلص من أزمته الى حدود بناء الحضارة. و قد تعرّض الى التحدي الكبير الذي يواجهه العرب و المسلمين منذ أن هاجمهم جحافل الاستعمار و كرّست التخلف في كامل مظاهره حتى بعد الاستقلال، فهبّت الشعوب ومعها الحكومات تبذل الجهود في سبيل التغيير و البناء، إلا أن انعكاسات الظاهرة الكولونيالية الاستعمارية و تأثيراتها السلبية بقيت مستمرة على الأمة اقتصاديا و ثقافيا و سياسيا. و إذا كانت أزمة أي أمة و أي مجتمع . كما يقول ابن نبي في كتابه ميلاد مجتمع . هي في جوهرها أزمة حضارته، و هو إطار يراه أكثر شمولا من المنظورات الجزئية التي تختزل الأزمة في مظاهرها الخارجية دون الخوص في أبعادها الثقافية والحضارية، فالتربية عنده ليست: "مجموعة من القواعد و المفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع على عالم الأشخاص، و عالم الأفكار، على عالم الأشياء. ليست هي من إنتاج المتعلمين في بحار العلوم، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم دون أن يلمّوا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيرا كانت أم شراً... بل هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، و كيف يكوّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ".

و قد قام الفكرة المحورية عند مالك بن نبي على " الفكرة الدينية " كإيديولوجيا كاملة متكاملة لصياغة مشروع إنساني حضاري، و من ثم فإنه يجد فيها معينا و موردا و مصدرا خصبا لبناء منظوماته في تناسق و تكامل و تعاون، لبناء ممارساته العلمية و خبراته التعليمية، لبناء وسائله و منطلقاته التربوية، التي تحتك بالواقع الاجتماعي، ليكون أكثر تقدماً

و استيعابا للتجارب الإنسانية. ذلك لأن الفكرة الدينية هي النظرية المتكاملة التي يتحدد ضمنها أهداف المجتمع و قيمه و مثله العليا و تطلعاته المستقبلية، و أهداف التربية هي الانعكاس الطبيعي لأهداف المجتمع كما توضحه أيديولوجيته و هي التي تترجم الأهداف إلى أنماط سلوكية في البشر، وهم بالتالي القوى التي ستقود و تمارس جميع الأعمال، و الأدوار، و العمليات الاجتماعية في المجتمع.

فقد أخذت التربية عند مالك بن نبي عدة أبعاد، فقد شكّلت ظروفه السوسيوثقافية جزء هاماً من فكره التربوي فقد تقلّب في عدة مناصب، و درس في الكثير من المدارس و زار العديد من المدن و عاش في عدة دول، فقد كانت تجربة أنضجته في الكثير من المناحي قدّم من خلالها خلاصة جهد و روى، و قد تصور التربية في الكثير من كتاباته كأبعاد اجتماعية و أخلاقية يقوم بها السلوك و ينهض بها المجتمع، و تتأسس من خلالها الحضارة في بعدها تربوي. و من هذا المنطلق يتبلور في ذهننا السؤال الرئيسي لهاته الدراسة هو:

ماهي القضايا التربوية التي طرحها مالك بن نبي في كتاباته و التي شكّلت في أغلبها فكره التربوي ؟

2 . أهمية الموضوع:

رغم تنبيه الكثير من الباحثين على أهمية دراسة آراء مالك بن نبي التربوية ، فإن الدراسات التي أجريت في هذا الموضوع قليلة جدا بالنظر إلى ضخامة إنتاج مالك بن نبي و ما كتبه في مجال الحضارة والثقافة و النهضة، مما يعد حافزا في حد ذاته للاهتمام بالجانب التربوي و التعليمي في فكره.

و مما يعزز أهمية هذا البحث أن الرجل أعطى نظرية دقيقة في الثقافة و التربية و التغيير الاجتماعي، بالإضافة الى ممارسة التعليم و التدريس في باريس، و رجل لمحة تقلد منصب مدير التعليم العالي ثم وزيرا له في الجزائر بعد الاستقلال. مما يجعل لفكره التربوي أهمية خاصة في هذا المجال ، فهو لم يقتصر على تقديم الأفكار و طرح الآراء وإنما كان يمارس و يطبق آراؤه في مجال الكتابة و المحاضرات و التعليم كونه مديرا للتعليم العالي، الأمر الذي يعطي لأفكاره التربوية بعدا و عمقا في المعالجة من جهة، و يجعلها معبرة عن الواقع السوسيوثقافي و الاقتصادي الذي عاشه من جهة أخرى.

و استنادا إلى ما تقدّم يمكن أقول بأن مالك بن نبي يحتل مكانة مرموقة . إن لم تكن الصدارة - بين المفكرين التربويين الذين أثروا الفكر التربوي الإسلامي بالعديد من الآراء و الأفكار الجيدة، التي ساهمت في ربط التغير بالثقافة و الثقافة بالتربية، والتربية بالحضارة. وكرسّ التربية كثقافة لتغيير الإنسان المسلم الذي ينهض بأعباء الحضارة.

وقد أملت هذه الحقائق اعتبارات معينة شدّت اهتمام الباحث الى دراسة الفكر التربوي عند المفكر الجزائري مالك بن نبي يمكن بلورتها فيما يلي :

أولاً: أن مالك بن نبي احتل مكانة بارزة في أبحاث الدارسين التي كشفت عن جوانب عديدة من فكره، نظرا لتأثيره الواضح في فكر عصره و حتى وقتنا الحاضر .

ثانياً: أن فكره التربوي لم يدرس تلك الدراسة المتكاملة التي توضح أبعاده الكاملة في إطار شامل متكامل.

ثالثاً: أن مالك بن نبي يعتبر علما بارزا من أعلام التربية والحضارة، أدى دورا مهما، و واضحا في الفكر التربوي الإسلامي في عصره، و لا يقل أهمية عن أي مفكر من مفكري التربية و الحضارة المعاصرين .

رابعاً: أن دراسة الأفكار و الآراء التربوية عند مالك بن نبي شيء مهم و ضروري، للكشف عن أصول لممارسات ما زالت تعيش في مجالات الحياة العامة فضلا عن مجال التربية و التعليم، مما يعني أهمية دراسة القديم و تحليله، لأنه يكشف عن الواقع و يضع أيدينا عن مكامن القوة و جوانب الضعف فيه.

خامساً: إن محاولة تفسير الواقع التربوي المعاصر ضمن إطار الفكر التربوي الإسلامي أمر تفرضه ضرورات البحث التربوي المعاصر، في محاولة للتعرف على استجابة التربية الإسلامية لحاجات مجتمعتها و حل مشكلاته، و هو أمر قد تحقق بعض أهدافه دراسة الفكر التربوي عند مالك بن نبي .

سادساً: إن فكر مالك بن نبي يحتوي على جوانب أصيلة تعكس الروح الإسلامية العربية، الذي نفتقده في كثير من جوانب حياتنا، و مما يعكس ذلك الاهتمام التناول الواضح و البين لقضايا الثقافة و الحضارة، و دور الإنسان ما قبل الموحدين في نشر العلم و تنمية المعرفة و بناء الإنسان و صيانة المجتمع .

سابعاً: أن دراسة الفكر التربوي عند مالك بن نبي نعني التواصل و التأصيل و تأكيد الوعي الفكري و التربوي، كذلك يجب دراسة هذا الفكر في اجتهاداته و منطلقاته التي تركز على

أصول دينيا الحنيف، و ثقافتنا و حضارتنا و طبيعة شخصيتنا سواء ما اتصل منه بالماضي أو بالحاضر " فإذا كانت الطبيعة تصنع النوع، فإن التاريخ يصنع المجتمع " **ثامنا:** أن مثل هكذا دراسة عمل مطلوب لغربلة التراث الإسلامي و تنقيته من الشوائب التي علقت به، و تأكيد الصحيح منه و بلورته، لا بهدف التعرف عليه فقط، بل من أجل دمج و مزجه في الواقع المعاش.

تاسعا: أن لكل حضارة فكريا و ثقافة و ألفاظ و مصطلحات معينة، و نحن - العرب و المسلمين . أشد ما نكون اليوم في حاجة الى ألفاظ و مصطلحات حضارتنا و ثقافتنا الإسلامية خاصة الفكر التربوي منها، و هذا ما نصبو إليه من خلال دراسة الفكر التربوي عند مالك بن نبي .

عاشرا: أن كثيرا من مشكلاتنا التربوية المعاصرة يمكن أن نجد لها وجهات نظر عربية إسلامية أصيلة، مثل بناء النظرية التربوية، أسس فلسفة الحضارة، نظرية الثقافة، إستراتيجية التغيير الاجتماعي و علاقتها بالبعد التربوي، كيفية إعداد الإنسان المسلم، العلاقة بين الإسلام و الديمقراطية، أبعاد التكتل الأفرو- آسيوي و الكومنولث الإسلامي، و نظرية التغيير الاجتماعي، و ضرورة تأسيس علم اجتماع خاص بما بعد الاستقلال. و مما سبق تتضح أهمية دراسة الفكر التربوي، و ما قدّمه من أفكار و آراء و اجتهادات تمثل روح عصره و مشاكله، باعتبارها مثلا بارزا للفكر التربوي الإسلامي في تفاعله مع واقعه، و معالجة مشاكل عصره الحضارية.

3 . أسباب اختيار الموضوع :

3.1 : أسباب ذاتية:

- النقاشات مع الزملاء في المواضيع الفكرية و خاصة مالك بن نبي.
- الإعجاب بالمفكر الموسوعي الذي تناول في كتبه معظم التخصصات العلمية الشيء الذي حفزنا الى القراءة و البحث.
- في فكره الكثير من الحلول للقضايا العالقة في العالم العربي و الإسلامي، خاصة بعد الثورات و الاحتجاجات التي رافقتها فوضى عارمة، و في شتى المجالات.

3 . 2 : أسباب موضوعية:

- نقص الموضوع التربوية عموما في الدراسات التي تناولت فكر مالك بن نبي، و طغيان المواضيع ذات بالثقافة و الحضارة، و البناء الحضاري، و فلسفة التربية.
- سد ثغرة و وضع لبنة في البناء الفكري في كثير من قضايا التربية و الثقافة و الحضارة.
- تناول النسق " البننابوي " من جانب النظرة التكاملية و الشمولية في الطرح يعد إضافة علمية في مواضيع التربية في العالم العربي الإسلامي.
- إبراز شخصية لم تحض بالقدر الكافي من الدراسات الأكاديمية و لم تسترعي اهتمام الباحثين الجزائريين و طلبة الجامعات على الخصوص.
- تكامل الطرح عند مالك بن نبي جعل البحث عن المجهود التربوي يختفي إلا بالرجوع إلى التعاريف الإجرائية للثقافة و الحضارة.
- إن تطبيق فكر مالك بن نبي لا يستدعي في البداية مؤسسات و تنظيمات، بل هو مشروع شخصي ينطلق من الإنسان إلى الثقافة إلى التربية إلى الحضارة.
- الحاجة الماسة في هذا الظرف العصيب إلى مفكري الأمة، لتأسيس وحدة في الطرح و المنهج و الهدف للخروج الآمن من المأزق، ذلك أن فكر بن نبي يدخل ضمن إطار علم الاجتماع التطبيقي.

4 . أهداف الموضوع:

- تتمثل أهداف دراسة الفكر التربوي عند مالك بن نبي في النقاط التالية:
- أولاً:** إن الهدف الرئيسي لهذا البحث هو إبراز مكانة المفكر مالك بن نبي في الفكر الإسلامي و العربي عامة، و الفكر التربوي خاصة.
- ثانياً :** العمل على إبراز الخطوط العريضة التي تضمّنتها أفكار مالك بن نبي التربوية و الفكرية، لترجع إليها علماء الاجتماع عموماً، و التربية خاصة لتستفيد منها، و تصحح العثرات و الأخطاء التي تعترض المسيرة التنموية و النهضوية. ذلك أن أي أمة لا تستطيع أن تترسم طريق المستقبل و تبينه إلا بالرجوع إلى إسهامات علمائه و مفكرها و نخبها فتستضيء بأفكارهم و تسترشد بأرائهم.
- ثالثاً:** كما تهدف الدراسة للكشف عن أبعاد التربية عند مالك بن نبي و البحث عن مضامينها الاجتماعية و الأخلاقية، و عن البعد التربوي لنظرية الدورة الحضارية.

رابعاً: تهدف الدراسة الى توضيح الكيفية التي واجه بها مالك بن نبي تردي الأوضاع الاجتماعية و الثقافية و التربوية التي فرضها الاستعمار على كافة مناحي الحياة و كيفية إسهام الرؤية التنموية في تشخيص الواقع المتردي بداية من الإنسان إلى قيام الحضارة.

خامساً: الوقوف على الظروف الشخصية التي مرّ بها مالك بن نبي، وأثرت في فكره التربوي.

سادساً: فهم طبيعة الفكر التربوي مالك بن نبي و نظرتة للإنسان و المجتمع و المعرفة و العلم.

سابعاً: معرفة البعد التربوي للدورة الحضارية، و طبيعة التربية الاجتماعية و الأخلاقية.

5 . تساؤلات الدراسة:

يتمثل التساؤل الرئيس للدراسة فيما يلي: ماهي القضايا التربوية التي طرحها مالك بن نبي في كتاباته و التي شكّلت في أغلبها فكره التربوي ؟

و يتفرع عن هذا السؤال الرئيسي التساؤلات الفرعية التالية:

أولاً: ماهي الظروف الشخصية التي عاشها مالك بن نبي و أثرت في فكره التربوي ؟

ثانياً: ما طبيعة الفكر التربوي عند مالك بن نبي؟ و كيف نظر إلى كل من الإنسان و المجتمع و العلم و المعرفة ؟

ثالثاً: ماهي الأبعاد التربوية لنظرية الحضارة عند مالك بن نبي ؟ و ما محورية الإنسان في هذه العملية ؟ و ما هي عناصر الحضارة و محاورها؟ و كيف تلعبه الإرادة و الإمكان الحضاريين دورها في بناء الحضارة ؟

رابعاً: ماهو مفهوم التربية عند مالك بن نبي و ماهي أهدافها و أبعادها؟

خامساً: ماهي القواعد و الأسس التي تقوم عليها التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي؟ و ماهي شروطها و أبعادها؟

سادساً: ماهو دور و أهمية الأخلاق في بناء الحضارة عند مالك بن نبي؟ و ماهي الأسس الأخلاقية للحضارة؟

سابعاً: كيف تصور مالك بن نبي العلاقة التي تربط الأخلاق بالحضارة؟ و ماهي الأسس الأخلاقية للحضارة عند مالك بن نبي؟ و ماهي أهميتها و دورها في بناء إنسان الحضارة؟

ثامناً: كيف تشكّل المنظور التنموي من الزاوية التربوية عند مالك بن نبي؟ ما هي مظاهر وأسباب التخلف؟ وكيف تصور مالك بن نبي مقومات النهوض التربوي؟ وماهي ركائز التنمية؟

6 . مفاهيم الدراسة:

6 - 1: الفكر: يمكن أن نعرّف الفكر بأنّه: إمعان النظر والتأمل في الأشياء الحسيّة والمعنويّة من أجل الوصول إلى حقيقتها.

أولاً: الحسيّة: مثل أن نمعن النظر لمعرفة أسباب صدأ عنصر الحديد.

ثانياً: مثل أن نمعن النظر لمعرفة أسباب سقوط الدول والإمبراطوريات. ويغلب أن يُطلق على عمليّة إمعان النظر إسم (التّفكير)، وعلى نتائج هذه العملية اسم (الفكر).¹

6 - 1 - 1: التفكير: وقد وردت عدة تعريفات للتفكير منها ما يشير إلي انه سلسلة

من النشاطات العقلية غير المرئية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمس بحثاً عن معني في الموقف أو الخبرة. ومن العلماء من يري أن التفكير مفهوم افتراضي يشير الى عملية داخلية تعزي إلى نشاط ذهني معرفي تفاعلي انتقائي قصدي موجه نحو مسألة ما، أو اتخاذ قرار معين، أو إشباع رغبة في العلم، أو إيجاد معني أو إجابة عن سؤال معين ويتطور التفكير لدي الفرد تبعاً لظروفه البيئية المحيطة. ومن خلال التعريفين يتضح أن التفكير:

أولاً: مفهوم مجرد، لأن النشاطات التي يقوم بها دماغ الإنسان عند التفكير غير مرئية وغير ملموسة، وما يشاهده الإنسان عند ملاحظة إنسان آخر يمارس التفكير ماهي إلا نواتج فعل التفكير سواء أكانت حركية أو مكتوبة أو منطوقة.

ثانياً: كما أن التفكير عملية ذهنية نشطة ومتواصلة يقوم بها الإنسان مادام عقله سليماً، وعلي وجه الخصوص حين يتعرض لمشكلة أو حين يرغب في تحقيق مكسب ويتأثر كل ذلك بثقافة الإنسان وخبراته ومحيطه الذي يعيش فيه.²

6 . 1 . 2: الفكر الإسلامي: هو واحد من المصطلحات الحديثة، التي لم ترد في كتب السابقين كمصطلح يدل على مُحدّد ، و قد شاع هذا الاصطلاح للدلالة على " كلّ ما أنتج

¹ . بسام جرار، الفكر الإسلامي، ط 2، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، البيرة، فلسطين، 2006، ص15.

² . محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ط1، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2006 ص.40.

فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه و تعالى و العالم و الإنسان ، و الذي يُعبّر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامّة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدةً ، و شريعةً و سلوكاً.¹

6 . 1 . 1 : الفكر الإسلامي عند محمد البهي: هو المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الإسلام في مصادره الأصلية: القرآن و السنة الصحيحة و هو:

أولاً : إما تفقها و استنباطاً لأحكام دينية في صلة الإنسان بخالقه في العبادة، أو في صلة الإنسان بالإنسان في المعاملات، أو لمعالجة أحداث جدّت ، لم تعرف بذاتها في تاريخ الجماعة الإسلامية أو تبرير لتصرفات خاصة صدرت و تمت، أو تصدر تحت تأثير عوامل أخرى.

ثانياً: و إما توفيقاً بين مبادئ الدين و تعاليمه من جانب، و فكر أجنبي دخلت الجماعة الإسلامية من جانب آخر، بعد أن قبلت هذه الفكر كمصدر آخر للتوجيه.

ثالثاً: أو دفاعاً عن العقائد التي وردت فيه، أو رداً لعقائد أخرى مناوئة لها، حاولت أن تحتل منزلة في الحياة الإسلامية العامة، لسبب أو لأخر. الى غير ذلك من الدوافع و الأسباب التي تدعو الى أعمال الفكر في المحافظة على الطابع الإسلامي كما يراد له أن يكون أو يبقى ذا صبغة إسلامية.²

6 . 1 . 1 : الفكر التربوي الإسلامي: جملة من المفاهيم و الآراء و التصورات و المبادئ التربوية المستمدة من الكتاب و السنة و الاجتهاد الموافقة لروح الإسلام من خلال أعمال العقل.³

6 . 1 . 5 : الفكر الإسلامي الحديث: هو فكر اعتنى بإشكالية النهوض و التقدم و التنمية في العالم العربي الإسلامي، وأظهر تقدماً في مجال الأفكار و في الرؤى التي عبّر عنها في

¹ . محسن عبد الحميد، مرجع سابق، ص.45

² . محمد البهي، الفكر الإسلامي في تطوره، ط1، دار الفكر، مصر الجديدة، 1971، ص7

³ . أبو دف محمود خليل، "معالم الفكر التربوي عند السيد قطب من خلال تفسيره في ضلال القرآن" مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، مجلة محكمة تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، يونيو، 2003، ص11.

مبادئ الاجتماع و السياسة و القانون و الدستور، و ارتبط بواقع المجتمع و الدولة بصورة وثيقة.¹

6 . 1 . 1 . 6: الفكر الإسلامي المعاصر: هو الفكر الذي تمحورت إشكاليته الأساسية حول الهوية و مقتضياتها و أساليب و وسائل حفظها، وأحاطت به ظروف من الانكماش و الانغلاق، و كان ارتباطه بالواقع هامشياً و يفتقد للقدرة الحقيقية للتأثير عليه. تعامل مع بعض القضايا و الأفكار بصورة جدلية و سجالية.²

6 . 1 . 1 . 6: الفكر التربوي: هو النتاج الرمزي للمعالجة العقلية الذي يقوم بها الفرد عند تحليل قضية نظرية أو ممارسة عقلية أو مشروع إصلاحى أو تقنية تربوية أو طريقة تدريس أو نظام تنفيذي.³

و هو: ما أبدعته العقول البشرية من فلاسفة ومفكرين عبر التاريخ فيما يخص مجال التعلم الإنساني وتنمية الشخصية وشحذ قدراتها ويتضمن النظريات والمفاهيم والآراء التي وجهت عملية تربية الإنسان.

6 . 2: التربية: (Education)

يرد لفظ التربية من حيث الأصل اللغوي إلى ثلاثة جذور:

الأول: (رب): من قولهم رببته: متنته، و رببته: دهنته و أصلحته، و رببها: نماها و زادها و أتمها و أصلحها، و ربّه يرّبّه: يكفل بأمره، و ربّاه تربية: أحسن القيام عليه و وليه حتى يفارق الطفولة، و أربّ بالمكان: لزمه و أقام به فلم يبرحه .

الثاني: (رب و): من قولهم: ربا الشيء يربو ربواً: زاد و نما، و ربوت في بني فلان ربواً و ربواً: نشأت فيهم، و رببتُ فلانا أرببّه تربية: أي غذوته و هذا لكل ينمي كالولد و الزرع و نحوه .

¹ . زكي الميلاد، الفكر الإسلامي تطورات و مساراته المعاصرة، ط1، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان،

2001، ص 22

² . زكي الميلاد، المرجع السابق، ص.ص 22،25 .

³ . نخلة وهبة، رعب السؤال، أزمة الفكر التربوي " أنا أسأل..إذا .. أنا أفكر، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، ط1، بيروت،

لبنان، 2001، ص119

الثالث: (رب ي): من قولهم: رَبَّيْتُ رِبَاءً وَ رَبِيًّا، وَ رَبَّيْتُ أُرْبِي رِبًّا وَ معناه أيضا نشأت فيهم.¹

و يتبن أن مفهوم التربية لغة يقصد به:

أ/ إصلاح الفرد و تنشئته . و الجماعة التابعة له . حتى يبلغ درجة الاعتماد على نفسه و الاستغناء عن غيره.

ب/ التنشئة على الصلاح ، مع التكفل بحسن القيام به، و التدرج عليه.

ج / المداومة و عدم الانقطاع المتضمن للنماء و الزيادة، مع الحفظ و الرعاية.

و ذلك في كل ما يتعلق بالإنسان من جوانبه المتعددة: الروح و القلب و العقل و الجسد.

6 . 2 . 1: تعريف التربية عند دوركايم (Durkheim): هي العمل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم تتضح بعد من أجل الحياة الاجتماعية. إن هدفها أن تثير لدى الطفل و تنمي عنده طائفة من الأحوال الجسدية و الفكرية و الخلقية التي يتطلبها منه المجتمع السياسي، في جملته، و تتطلبها البيئة الخاصة التي يعد لها، بوجه خاص.²

6 . 2 . 2: التربية في التصور الإسلامي: هي عملية متشعبة، ذات نظم و أساليب متكاملة، نابعة من التصور الإسلامي للكون و الإنسان و الحياة، تهدف إلى تربية الإنسان، و إيصاله - شيئاً فشيئاً - إلى درجة كماله التي تمكنه من القيام بواجبات الخلافة في الأرض، عن طريق إعمارها، و ترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.³ التعلم: هو تغير في الأداء أو تعديل في السلوك ثابت نسبياً عن طريق الخبرة و المران، و هذا التعديل يحدث أثناء إشباع الفرد لدوافعه و بلوغ أهدافه.

6 . 2 . 3: التربية عند مالك بن نبي: (Malik ben Nabi) التربية عند مالك بن نبي هي " عملية تثقيف متواصلة"، و تتمثل هذه العملية في: في ذلك المحتوى النفسي الذي يتأسس على تركيب عناصر الثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد. (إنسان ما قبل و ما بعد الموحدين). و تأخذ التربية من خلال تعريفها بعدين أساسيين هما:

¹ . ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط10، الجزء الخامس، دار صادر، تونس، 2003، ص 119.

² . غي أفانزيني، الجمود و التجديد في التربية المدرسية، تر: عبد الله عبد الدائم، بيروت، دار العلم للملايين، 1981، ص41.

³ . أحمد مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، ط3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979، ص 218 .

أولاً: التربية عملية تثقيف: يعطيها معنى (المنهج) الذي تتشكّل من خلاله وحدة الثقافة التي تعكس حضارة المجتمع.

ثانياً: التربية عملية متواصلة: و هذا يبعد بها أن تكون ظرفية متعلقة بمرحلة من مراحل الحياة أو حقبة تاريخية معينة، بل هي عملية ديناميكية (غير استاتيكية) متطورة مع تطور المجتمع آخذة في الاعتبار كل ما ينتج عن هذا التطور من تغيير و تحوّل على كافة الأصعدة.¹

6 . 2 . 4 : التعليم (Didacticisme)

أولاً: هو عملية نقل المعارف و المعلومات من المعلم إلى المتعلم في موقف يكون فيه للمدرس و الدور الأكثر تأثيراً، في حين يقتصر دور التلميذ على الإصغاء و الحفظ و التسميع. و تخدم الطرق الإلقائية مثل المحاضرة و الشرح و الوصف و التفسير هذا المفهوم للتعليم.

ثانياً: التعليم هو عملية تسهيل تفاعل المتعلم مع بيئته بهدف تحقيق النمو المعرفي، و ذلك من خلال ما يقوم به من بحث و تحليل و تركيب و قياس و اكتشاف.

6- 3: الحضارة (Civilization) هناك تداخل واضح و خلط في فهم معنى الحضارة، و هذا بسبب التباين الفكري و التاريخي للحضارات المختلفة، مما يكون له تبعات مختلفة حين تناول هذا اللفظ و مراميه و أطره و ملابساته، خاصة تلك المتعلقة بـ " الحضارة " و " المدنية " و " الثقافة " التي كثيراً ما ترد في أدبيات الفلسفة و الاجتماع و التاريخ.

6. 3 . 1: تعريف الحضارة لغوياً: و في الجانب اللغوي يقول " المعجم الوسيط": (الحضارة)- بكسر الحاء و فتحها . تعني الإقامة في الحضر، و أن مظاهر الرقي العلمي و الفني والأدبي والاجتماعي في الحضر.²

و في القاموس المحيط (الحضارة) ضد فعل (غاب)، و الحاضرة و الحضارة (و يفتح) خلاف البادية.³

¹ محمد بغداد باي، التربية و الحضارة . بحث في مفهوم التربية و طبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي . ط1، عالم

الأفكار، الجزائر، 2006، ص ص 215،217.

² . المعجم الوسيط، .. مجمع اللغة العربية، ص.180.

³ . الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج2، ص.10.

و في تاج العروس (الحاضرة و الحضرة والحضر هي المدن و القرى و الريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار و مساكن الديار التي يكون لهم بها قرار).¹

6 . 3 . 2: تعريف ابن خلدون: هي " غاية العمران و نهاية لعمره" و يضيف فالحضارة لا تزيد على: "... التفنن في الترف، و استجادة أحواله، و الكلف بالصنائع، التي تؤنق من أصنافه و سائر فنونه".²

6 . 3 . 3: تعريف محمد قطب: و قد نحا بالحضارة منحى آخر، أي ما يقدم للبشرية من تصورات و مفاهيم و قيم من شأنها أن تدفعها الى تحقيق التقدم و النمو، و بالتالي الدخول في حالة " الحضارة"، حيث عرفها على أساس قيمي ومعنوي، و ليس على أساس مادي. فهو ينطلق من فكرة جوهرية تؤكد أن " الإسلام هو الحضارة"، فهي بهذا المعنى: " العبودية لله وحده و التجمع على أصرة العقيدة و استعلاء إنسانية الإنسان على المادة و سيادة القيم الإنسانية ... و حرمة الأسرة و الخلافة في الأرض على عهد الله و شرطه".³ و يرى السيد قطب أننا حين: " نرتفع بتصوراتنا و بأفكارنا و بأخلاقنا و سلوكنا ثم بواقعنا... الى مستوى الإسلام".⁴ و بهذا يعرف الحضارة على أنها: "هي ما تعطيه للبشرية من تصورات و مفاهيم و مبادئ و قيم، تصلح لقيادة البشرية و تسمح لها بالنمو و الترقى الحقيقيين، النمو و الترقى للعنصر الإنساني و للقيم الإنسانية و لحياة الإنسانية".⁵

6 - 3 - 4: تعريف أبو الأعلى المودودي: هي " تصور سليم للحياة الدنيا، و غايتها في نظام اجتماعي يقود الإنسان الى الرقي و الإخاء و الإيمان".⁶

6 . 3 . 5: تعريف رمضان البوطي: هي ثمرة التفاعل بين الإنسان و الكون و الحياة.⁷

6 . 3 . 6: تعريف محمد البهي: الإنتاج الإنساني الذي تتمثل فيه الخصائص الفكرية و الوجدانية و السلوكية و العلمية. و الخصائص الإنسانية هي التي تعبر عما يتجاوز الفردية و الأنانية، أي يقوم على العلاقات الاجتماعية".⁸

¹ . تاج العروس، م3، ص.146.

² . ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة ، الدار التونسية للنشر، (ب ط) 1984 ، ص448 .

³ . سيد قطب، معالم في الطريق، (ب ط) دار الشروق، بيروت، (ب ت) ص87 .

⁴ . سيد قطب، الإسلام و مشكلات الحضارة، ط1، دار الشروق، (ب ت) بيروت، ص. 184 .

⁵ . سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ط1، الكويت (ب ت) ص. 56 .

⁶ . أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية أسسها مبادئها، ط1، دار الأنصار، القاهرة (ب ت) ص. 4 .

⁷ . محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ط3، دار الفكر ، دمشق، 1998، ص19.

⁸ . محمد البهي، الدين و الحضارة الإنسانية، ط1، الشركة الجزائرية لنشر و التوزيع، الجزائر (ب ت)، ص50

6 . 3 . 7: تعريف كلايد كلاهون: (Clyde Clakhon) أن الحضارة تعني النتائج

التاريخي لتنظيم المعيشة، و ذلك من خلال مشاركة الجماعة.¹

6 . 3 . 8: تعريف ألبرت شفيتزر (Albert Schweitzer) الحضارة هي جماع كل تقدّم

حققه الناس و كل فرد في كل مجالات العمل، و من وجهة نظر، من حيث كون هذا التقدم

يساعد الكمال الروحي للأفراد. فهذا الأخير هو التقدم.²

6 . 3 . 9: تعريف ول ديورانت: (Will Durant) هي نظام اجتماعي يعين الإنسان

على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية،

و النظم السياسية، و التقاليد الخلقية، و متابعة العلوم و الفنون، وهي تبدأ حين ينتهي

الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما آمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع

و عوامل الإبداع و الإنشاء، و بعدئذ لا تنفك الحواجز الطبيعية تستنهضه للمضي

في طريقه إلى فهم الحياة و ازدهارها.³

6 . 3 . 10: تعريف الطيب برغوث: هي المستويات الراقية منم الإشباع المتوازن للحاجات

الإنسانية، المعرفية و الروحية أو الاجتماعية. التي تدفع بالحياة البشرية نحو المزيد

من الترقى المعرفي و الروحي و السلوكي و العمراني، و تتيح للإنسان الاستمتاع الأمثل

بخلافته في الأرض ، و تهيئة شروط تأمين هذا الاستمتاع في بقية مراحل " دورته الوجودية "

بعد ذلك ، حينما تؤول به صيرورة الحياة إلى عوالم المرحلة البرزخية ، ومنها إلى عوالم

مرحلة القيامة و الحشر و الحساب ، وانتهاء بمرحلة الخلود الفردوسي أو الجحيمي.⁴

6 - 3 - 11: تعريف مالك بن نبي: و تعني في مفهومه جملة العوامل المعنوية

و المادية التي تتيح لمجتمع ما يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية

اللازمة لتقدمه.⁵ هذا التعريف طوّر مفهوم الحضارة بإبراز :

¹ وجددي محمد فريد ،دائرة معارف القرن العشرين ، بيروت ، دار المعارف، ط3، المجلد الثامن، ص440.

² . ألبرت شفيتزر، فلسفة الحضارة،(ب ط)، مطبعة مصر، القاهرة، (ب ت) ص 35.

³ . ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الأول : نشأت الحضارة، ط3، تر: زكي نجيب محمود، القاهرة لجنة التأليف و الترجمة و

النشر 1956، ص3.

⁴ . الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، ط1، دار قرطبة للنشر و التوزيع،المحمدية، الجزائر، 2004،

ص30.

⁵ . مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة و أحمد شعيبو، دار الفكر،دمشق، سوريا، 2000 ص50

أولاً: **صفة التداخل**: و هو التداخل بين جوانبها المادية والمعنوية في صورة تكاملية لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض.

ثانياً : كظاهرة اجتماعية: أن الحضارة لا تعني تقدم و تطور طبقة أو فصيلة اجتماعية معينة كأن تكون الطبقة ثرية أو الطبقة المثقفة أو المتعلمة ، و إنما الحضارة هي ظاهرة اجتماعية شاملة ومستوعبة لكافة الطبقات و الشرائح ينتعش فيها كل فرد و يحيا حياة سعيدة في عدل و أمن و رفاه.¹

ثم يطور **مالك بن نبي** مفهوم الحضارة الى مستوى الإجرائي في مسرح الحياة الاجتماعية فيقول: "إن جملة العوامل المعنوية و المادية اللازمة لتحقيق تقدم الفرد تصبح موضوعية، و ذلك بأن تتحول الى سياسة و تشريع ، فيمثلان عالم الأفكار في هذا المجتمع على الصعيد الاجتماعي و الأخلاقي تمثيلاً مباشراً.²

6.4: المدنية (Civilisation):

يختلف الباحثون في تحديد الأصل اللغوي لمفهوم **(المدنية)** فيرجعها البعض الى **(مَدَن)** بمعنى أقام في المكان، و يرجعها الآخرون الى **(دَان)** و هي جذر مفهوم الدين، و تعني خضع و أطاع. و هي مشتقة من **(مَدَن المَدائن)** أي مصرها و بناها، و نحتوا منها فعل **(تمدن)**، و جعلوا معناها ، تخلّق بأخلاق المدن، و خرج من حالة البداوة و دخل في حالة الحضارة.³

إضافة الى ما ورد في معنى الحضارة من حيث أصل الكلمة و ما تعنيه من ارتباط بمساكن المدن و عمرانها فإنه يمكن القول بأنه: " اسم التحضير و التمدن على ما يسمى بالانجليزية **(Urbanisation)** " يعني فن تنظيم المدن ... أو كما يسميها ابن خلدون بال عمران. فقد ارتبط مفهوم **(المدنية)** عند الغرب بكلمة **(Civilisation)** التي تعني: " حالة من الرقي و التقدم في الأفراد و المجتمعات".

و ليست المدنية مجموعة من المنشآت و المباني و الطرق فحسب، كما أنها ليست مجرد تجمع من البشر في مكان جغرافي واحد، لمن المدنية عبارة عن تفاعل حقيقي بين الإنسان

¹ . زكي الميلاد، مالك بن نبي و مشكلات الحضارة، ص74.

² . _____، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص.51

³ . وجدي محمد فريد، مرجع سابق، ص553.

و الإنسان، بين الإنسان و المكان، و لا يتم هذا التفاعل في فراغ، بل تحكمه أطر فكرية و تكنولوجية تُعبّر عن صيرورة تاريخية لذلك المجتمع، و هذا المكان.¹

6 . 4 . 1: تعريف رفاهة الطهطاوي: أن للتمدن أصليين: معنوي؛ و هو التمدن في الأخلاق والعوائد و الآداب، و يعني التمدن في الدين و الشريعة، و بهذا القسم قوام الملة المتمدنة التي تسمى باسمها دينها و جنسها لتميّز عن غيرها. القسم الثاني؛ تمدن مادي و هو التقدم في المنافع العمومية.

6 . 4 . 2: تعريف أرنولد توينبي: (Arnold Toynbee) يعرف المدنية بأنها: " أصغر وحدة للدراسة التاريخية يصل إليها المرء حين يحاول فهم تاريخ بلاده".²

6 . 5: الثقافة: (Culture)

أحصى كلوكهون العام 1952 أزيد من 164 تعريفا للثقافة ابتداء من كونها سلوكا متعلّما، وحتى كونها أفكارا في العقل، أو تشبيدا منطقيا، أو رواية إحصائية، أو ميكنة الدفاع عن النفس، أو تجريدا من السلوك، أو دينا بديلا من حيث دورها في تحسين الحياة، أو طوباوية تعدّ بتحقيق الذات و إقامة التقاهم بين الجماعات . و سوف نوجزها في التعاريف التالية تماشيا مع مقتضيات البحث :

6 . 5 . 1: إدوارد تيلور: (Edward Taylor) الثقافة في معناها الإثنوغرافي بأنها: " ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة و العقائد و الفن و الأخلاق و القانون و العرف و كل القدرات و العادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هم عضو في المجتمع.

6 . 5 . 2: ماثيو أرنولد: (Matthew Arnold) الثقافة هي عملية ترقى نحو الكمال الإنساني تتم بتمثل أفضل الأفكار التي عرفها العالم و بتطوير الخصائص الإنسانية المتميزة . و يرى أن الثقافة الدينية . لكونها تعلّم الاستقامة و الانضباط . تساهم الى جانب الثقافة العلمانية . التي تبلور الحقائق الموضوعية . في ترقية الحياة الإنسانية.

6 . 5 . 3: جون ديوي: (John Dewey) الثقافة هي حصيلة التفاعل بين الإنسان و البيئة.

6 . 5 . 4 : كلايد كلوكهون: (Clyde Klokun) بأنها مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها،

¹ . منظمة المدن العربية . ندوة المدينة العربية: خصائصها و تراثها الحضاري الإسلامي، 28/02/1981، 05 مارس 1981، ص17.

² . محمد عبد الله الشفقي، أرنولد توينبي، (ب ط)الدار القومية، القاهرة، 1960 ص12.

أو هي الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه، و هي التي تحدد الأساليب الحياتية، أو هي طريقة في التفكير و الشعور و المعتقدات، إنها معلومات الجماعة البشرية مخزونه في ذاكرة أفرادها أو في الكتب أو في المواد و الأدوات .

6 . 5 . 5 : رالف لينتون (Ralph Linton) بأنها شكل متكامل من السلوك المكتسب و نتائجه ، يشترك في عناصره و ينقلها أفراد مجتمع معين .

6 . 5 . 6 : معجم ويبستر (Webster Dictionary) و قد ورد في معجم "ويبستر" الجديد الثالث أن " الثقافة " تتمثل فيما يأتي:
أولاً: فنّ الزراعة أو عملية الزراعة.

ثانياً: عملية التنمية الناتجة عن التعليم و النظام و الخبرة الاجتماعية.

ثالثاً: استتارة التذوّق و الامتياز اللانمان للممارسة الفكرية و الجمالية المتمثلة في:

- المضمون الفكري و الفني للمدنية .
- تنقية السلوك و التذوّق الفكري.
- التعرف على الفنون الجميلة و الإنسانيات و المجالات الفسيحة للعلم و تذوّقها باعتبارها نوعاً من المهارة أو المعرفة الإدارية أو التقنية أو المهنية.
- الإطار الجمالي لسلوك البشري و منتجاته المتمثلة في الفكر و الكلام و العمل المعتمد على قدرة الإنسان على التعليم، و نقل المعرفة إلى الأجيال المتتالية من خلال استعمال الأدوات و اللغو و نظم التفكير المجردة.¹

6 . 5 . 7 : تعريف معجم المجمع الفرنسي (Dictionnaire du composé français)

و قد عرّفها و ناقش مفهومها في جلسة خاصة بالمعجم بتاريخ : 29 جوان 1972 بأنها :
" تطلق بالمعنى المجرد العام في مقابل كلمة (طبيعة). فهي العبقرية الإنسانية مضافة إلى الطبيعة بغية تحرير عطاءاتها و إغنائها و تتميتها.²

6 . 5 . 8 : الثقافة في مفهوم الطيب برغوث: هي النظام العقدي و المعرفي والمنهجي والاجتماعي المتكامل.. الذي يؤسس وعي الإنسان بـ "دورته الوجودية" أولاً، و بـ "ميزانيته التسخيرية" ثانياً، و يمنحه القدرات المنهجية أو الفنية المتجددة التي تنظم عمليات تكيفه الذاتي و الاجتماعي و الحضاري و الكوني.. مع وظيفته الوجودية ثالثاً، عبر نوعية و حجم

¹ . علوي طه الصافي، تعريف الثقافة ومفهومها، مجلة الفيصل، العدد 143، ديسمبر 1988. يناير 1989، ص.ص. 7، 8.

² . جون فريمون، تلاقي الثقافات و العلاقات الدولية ، بيروت : مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 29، 1983، ص. 85.

العلاقة الاستثمارية و الوظيفية التي يقيهما مع "ميزانيته التسخيرية" في عوالم الآفاق و عوالم الأنفس و عوالم الهداية و عوالم التأييد، لمواجهة تحديات الابتلاء و التدافع و التداول والتجديد، المهيمنة على الصيرورة الاستخلافية للبشر باستمرار.¹

6 . 5 . 9: تعريف شامل للثقافة: هي أساسا نتاج إنساني للتفاعل الاجتماعي بين أفراد مجتمع من المجتمعات، و توفر أنماطا اجتماعية عامة مقبولة يستجيب الأفراد في ضوءها لحاجاتهم البيولوجية الاجتماعية، و هي تنتقل من جيل إلى جيل في المجتمع و تتراكم نتيجة هذا الانتقال، و هي محملة بالمعاني التي يعبر عنها الأفراد بلغتهم بما فيها من رموز، لذلك فهي ليست فطرية و إنما يكتسبها الفرد في سياق نموه وسط جماعة، و لهذا فهي أساس يؤثر في تكوين شخصية كل فرد ينمو وسط هذه الجماعة، و تعتمد في وجودها و استمرارها على استمرار المجتمع و إن كان هذا الوجود و هذا الاستمرار لا يتوقفان على وجود فرد بعينه أو جماعة بعينها.²

6 . 5 . 10: الثقافة عند مالك بن نبي: هي مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرسائل أولي في الوسط الذي ولد فيه، و لتكون هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه و شخصيته.³

هذا التعريف طور مفهوم الثقافة بإبراز وظيفتها و فاعليتها وربطها بالتاريخ و التربية :

أولا : معنى الثقافة في التاريخ :

" لا يمكن أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي فقد ثقافته قد فَقَدَ حتما تاريخه". فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها، بما تتضمنه من عادات متجانسة و عبقریات متقاربة و تقاليد متكاملة و أذواق متناسبة، و عواطف متشابهة. و بعبارة أخرى جامعة: (هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة).⁴

ثانيا : معنى الثقافة في التربية:

قبل أن نحدد المعنى التربوي للثقافة، كان لزاما علينا أن نحدد هدفها و ما يتطلبه من وسائل تطبيق.

¹ . الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، مرجع سابق، 2004، ص 31.

² . محمد الهادي عفيفي، التربية و التغيير الثقافي، 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1964، ص 61.

³ . _____، شروط النهضة، ترجمة كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000، ص 42.

⁴ . _____ ، المرجع السابق، ص 85 .

فالثقافة هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير و التنوع الاجتماعي و ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون أخرى. وخاصة إذا كانت هي معبر المجتمع الى التقدم و الرقي و التمدن .وهي كذلك الحاجز الذي يخفض بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر الى الهاوية.¹

6 . 5 . 11:الفعالية الاجتماعية: هي امتلاك القدرة الفكرية و المنهجية و التنفيذية المتجددة للتأثير الإيجابي المطرد في عالم الأفكار و عالم الأشخاص و عالم الأشياء، و عوالم العلاقات الاجتماعية داخليا و خارجيا. من خلال الحركة التنفيذية الهادفة المتقنة المشروعة، المؤسسة على فقه تنسيقي متقن، و على فقه متابعة دائبة، و على فقه تقويمي مستمر، مع القدرة على الاقتصاد في الجهد و القدرة على حماية دائمة للمنجز الاجتماعي الكلي و تعزيز احتياطاته و مدخراته الإستراتيجية.²

6 . 6 : التربية و علاقتها بالمفاهيم الأخرى:

6 - 6 - 1:علاقة التربية بالتغيير: يشترك التغيير مع التربية في موضوع الدراسة و هو (الإنسان) باعتباره المنشئ للحضارة، و هو نفسه الذي يتمحور حوله موضوع التغيير. و يشترك كذلك في الهدف الذي يتمثل في تربية الإنسان و تحقيق التغيير، أي تربية الإنسان بما يحقق التغيير. و لما كانت العمليتان مقصودتان (التربية و التغيير) فإنه أينما وجد التغيير وجدت التربية، وأينما وجدت التربية وجد التغيير.

إن التربية تتخذ من التغيير موضوعا و هدفا لها، و يتخذ التغيير من التربية وسيلة و منهجا لها. إذن العلاقة بين التربية و التغيير علاقة تلازمية تكاملية.³

6 . 6 . 2: التربية و التعليم: إذا كان التعليم " هو جانب جزئي من جوانب التربية يقتصر على تنمية الجانب العقلي و المعرفي أو جانب القدرة و المهارة " أي أن التعليم يمثل الجانب المتخصص في التربية الذي يتم في المؤسسات التعليمية، و هي يعرف بالتربية المقصودة. فإن التربية عملية شاملة و واسعة في مجالاتها و وظائفها و أهدافها، و هي كعملية تشمل النمو و التعلّم والتغيّر في السلوك و الاكتساب و الخبرة و التطبيع الاجتماعي و التكيف

1 . _____ ، المرجع السابق، ص. 86 .

2 . الطيب برغوث، مرجع سابق، ص12.

3 . محمد بغداد باي، مرجع سابق، ص. 146 .

النفسية و الاجتماعي و التهذيب الخُلقِي، و التنمية لقدرات الفرد و الإعداد له كي يحيا حياة كاملة في المجتمع الذي يعيش فيه.¹

و قد فرّق مالك بن نبي بين التربية و التعليم في موقفهما الاجتماعي إزاء مشكلة معينة فالعلم عنده يمثل جانبا واحدا من جوانب برنامج التربية للثقافة، و هو جانب التخصص الذي يُعني بإعداد الكوادر الفنية، أما التربية فهي أعم و أشمل ما دامت تعني بمسألة التثقيف التي لا تهدف فقط الى تنمية الجانب العقلي أو المعرفي أو جانب القدرة أو المهارة لدى الفرد، بل و أيضا الى تهذيبه أخلاقيا و تنمية ذوقه الجمالي، و إلى اكتسابه للخبرة، و هو ما يترتب عنه تغيير في سلوكيات الفرد يكون مصاحبا لنمو جوانب شخصيته المختلفة، و يظهر هذا التغيير في تكيّفه نفسيا و اجتماعيا.²

6 . 6 . 3: الثقافة و الحضارة: يميز العلماء بين الثقافة والحضارة، و يُبيّنون أن الاختلاف بينهما كميًا، وليس نوعيًا. هذا يعني أن الحضارة خاصة من الثقافة تتميز بمقدار ما تحتويه و بنمطها المعقد أو أنها عنصر أساسي في الثقافة أخذ عناية خاصة من الإنسان فقام بالتفكير فيها و بتهذيبها و تحويلها إلى وسائل لتحقيق غايات واضحة. و هي تشمل التكنولوجيا بصفة عامة.

و لا نستطيع التمييز بين مصطلح الثقافة و مصطلح الحضارة في الاستعمال الحديث في اللغة العربية، فهما مترادفان، لكن يوجد ما يفصل بينهما على أساس أن الثقافة تمثل الجانب المعنوي الروحي و الحضارة تمثل الجانب المادي و التطبيقي داخل المجتمع. و منه أن الثقافة إنتاج معرفي و عقلي، أما الحضارة فتتكوّن في المدن. لكن مالك بن نبي لا يقتصر على المعنى الفكري النظري للثقافة بل يتناول المعنى في إطار الأوضاع التي عبّر و ظهر بها العالم أجمع من جهة، و العالم الإسلامي المعاصر من جهة أخرى، فهو يراعي بدرجة كبيرة الجوانب و المعطيات العملية و الاجتماعية و التربوية و التاريخية، إذ انطلق مما وضع الباحثين في تباين بين نظراتهم، حيث يوجد من نظر إليها من الناحية النفسية الفردية، و هناك من نظر إليها من الجانب الاجتماعي فوقف هو على الجوانب

¹ . عمر محمد التومي الشيباني، الاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية، سلسلة كتاب الشعب، رقم 6، النشأة الشعبية، للنشر و التوزيع، ط1، 1997، ص274 .

² . محمد بغداد باي، مرجع سابق، ص224 .

الثلاثة: الجانب النفسي، و الجانب الاجتماعي، و جانب الصلة بين الفرد والمجتمع، فاعتبر أن قضية إنسان بشكل عام، وتجاوز في ذلك التفسير الأحادي بنظرته التركيبية الشمولية.¹

4 . 6 . 6 : التربية و الثقافة: إن العلاقة بين بينهما علاقة تلازمية تكاملية تغذيان نفس الواقع وتعيدان صياغة الفعل والمنتج، بحيث يتعذر تحقيق أحدهما دون الأخرى. فإذا كانت الثقافة تمثل المضمون الفعلي للتربية والمبرر الواقعي الحيّ لوجودها وممارستها، فإن التربية تشكّل في المقابل الأداة أو الوسيط البيداغوجي الحاسم والفعال في نقل الثقافة وجعلها خطاباً ثم ممارسة جماعية قابلة للنقل والتلقين .

وبالمقابل، فإن التربية تمثل الانعكاس والمنتج الطبيعي للثقافة؛ ويمكننا القول بأنه كلما كانت الثقافة المجتمعية أكثر عمقاً وتنوعاً، كلما كانت التربية أكثر تألقاً وأمكن قياساً. فكلا المصطلحين يغذيان بعضهما البعض.

6 . 7 : المفهوم الإجرائي للفكر التربوي في البحث :

يقصد بالفكر التربوي عند مالك بن نبي: هو مجموع الأفكار و الرؤى والملاحظات العلمية والطروحات الفكرية التي قدّمها مالك بن نبي في مجال الحضارة و التربية و الثقافة، بكل أبعادها الاجتماعية، و الأخلاقية و التنموية، يُمكن الاستفادة منها في حل قضايا ومشكلات الإنسان الحضارية، مع مراعاة أن تتم الاستفادة من الجانب الإيجابي فيها، والذي لا يتعارض بأي حالٍ مع الموروث الثقافي للأمة.

7. المنهج المتبع في البحث :

استخدم الباحث المنهج الاستنباطي (الاستدلالي). و ذلك لمناسبته لطبيعة الدراسة التحليلية.

8 . الحدود الدراسة:

تقتصر الدراسة الحالية على الجوانب التالية كمحاولة لاستخلاص جوانب الفكر التربوي عند مالك بن نبي من خلال أعمال و كتابه و خطابه:

أولاً: طبيعة الفكر التربوي عند مالك بن نبي.

ثانياً: التربية عند مالك بن نبي و أبعادها الاجتماعية و الأخلاقية .

¹ . بوبكر جيلالي، إستراتيجية البناء الحضاري، ط1، دار قرطبة لنشر و التوزيع، المحمدية الجزائر، 2011، ص.ص 54.53 .

و جاء اختيارنا لهاته القضايا نظرا لأهميتها الكبرى في العملية التربوية، حيث اهتم مالك ابن نبي حيث إهتم بها في العديد من كتاباته .

فطبيعة الفكر التربوي مالك بن نبي نحاول من خلالها تقديم صورة شاملة عن النسق الفكري و التربوي الذي بنى عليه مشروعه الحضاري، وتأسيس لفكره عموما، و كيف تأسس هذا النسق من خلال عملية التغير الاجتماعي الحقيقي الذي يهدف الى إقامة حضارة انطلاقا من الإنسان كمحور و كهدف لتلك العملية في إطار عالم (الأشياء . الأشخاص - الأفكار) الى تكوين و بناء الحضارة. مرورا بتجاوز كل سلبيات إنسان ما بعد الموحدين (اللفظية، المديح و الفخر، الجدالية و التبرير، الشيبئية و التكديس، و الرومانسية، و الذرية و الاضطراب الفكري) الى استثمار المبررات المنهجية وإستراتيجية التصميم الثقافي (التوجيه الأخلاقي، التوجيه الجمالي، التوجيه العملي، التوجيه العلمي و التقني).

أما قضية التربية في فكر مالك بن نبي فسوف نحاول أن نفردها فصلا نستقصي من خلاله مفهوما وأنواعها و أهدافها، و علاقتها بالثقافة و الحضارة.

ثم توضيح الدور التربوي لنظرية الدورة الحضارة عند مالك بن نبي.

ثم نحاول بعد ذلك دراسة التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي و أبعادها و أهداف و أسسها و مرتكزاتها الموضوعية.

ثم التربية الأخلاقية و الأسس التي تقوم عليها و دورها في البناء الحضاري.

ثم البعد التربوي للمشروع التنموي عند مالك بن نبي، وكيف ربط التنمية بالتربية، و شروطها النفسية.

9 . الدراسات السابقة:

9 . 1 : دراسات تتعلق بالفكر التربوي : (الجانب المنهجي للبحث):

9 . 1 . 1 : الدراسة الأولى: "الفكر التربوي عند الإمام السيوطي" . من إعداد الدكتور:

زكريا أحمد عبد الرحيم رابعة. كلية التربية جامعة اليرموك . أربد الأردن، ماجستير، 2000. استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. و قد جاءت تساؤلات الدراسة كالتالي:

أولاً: ماهي البيئة الاجتماعية و السياسية و الثقافية التي عاش فيها الإمام جلال الدين السيوطي و سيرته العلمية؟

ثانيا: كيف أسهم الفكر التربوي من عصر الإسلام الى عهد السيوطي على الفكر التربوي التعليمي ؟ وكيف أسهم في تنشيط حركة الفكر؟

ثالثا: كيف نظر الإمام السيوطي الى التربية و ماهي آراؤه فيها ؟

رابعا: ما مكانة التربية العقلية في فكر جلال الدين السيوطي ؟

و قد تضمن البحث أربعة فصول و هي كالتالي:

الفصل الأول: التعريف بالإمام جلال الدين السيوطي ، نشأته و سيرته العلمية، و البيئة السياسية و الاجتماعية و الثقافية التي عاش فيها، و لإبراز مكانته العلمية و مؤلفاته، و التعريف بشيوخه و تلاميذه، و الدور الذي قام به في عصره و مدى تأثيره فيه.

الفصل الثاني: تطور الفكر التربوي منذ عصر الإسلام الى عصر السيوطي، و قد اشتمل على الفكر التربوي التعليمي حتى عصر السيوطي ،ومساهمته في تنشيط حركة الفكر و تطوره.

الفصل الثالث: تناول الإمام السيوطي في التربية و آداب المعلم و المتعلم ، و التربية السلوكية، و بيان آرائه في الزهد و الورع، و تناول أسلوبه الترغيب و التهيب وأثرهما في صلاح النفس الإنسانية و أقسام المعلم و العلماء.

الفصل الرابع: تحدّث هذا الفصل عن مكانة العقل في فكر الإمام السيوطي،مركزا على التربية العقلية ،واشتمل على معنى العقل لغة اصطلاحا عند السيوطي، و احتوى على أدلة من القرآن على أهمية العقل، و إشتمل أيضا على ذم التقليد و فتح باب الاجتهاد و الحث عن العلم، و أثر بحث السيوطي العقلي في الفكر الإسلامي.

9 . 1 . 2: الدراسة الثانية: "الفكر التربوي عند البيحاني(1908 - 1972)" من إعداد الدكتور: شرف أحمد الشهاري، رسالة ماجستير، سنة 1993م. استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي التصنيفي. و قد كانت تساؤلات الدراسة متمحورة حول الأسئلة التالية:

أولا: ماهي العوامل الاجتماعية و الثقافية و التربوية التي أثرت في فكر البيحاني؟

ثانيا: ماهي المنطلقات الفكرية للبيحاني و مدى انعكاسها على فكره التربوي؟

ثالثا: ما ماهية الفكر التربوي عند البيحاني ؟ ماهي مجالاته ؟

و قد جاءت الدراسة متضمنة لثلاثة عشر فصلا موزعة كالتالي:

الفصل الأول: الإطار العام للدراسة

الفصل الثاني: عصر البيحاني والعوامل المؤثرة في فكره .

الفصل الثالث: حياة البيحاني.

الفصل الرابع: الوضع التعليمي في اليمن في عصر البيحاني.

الفصل الخامس: المنطلقات الفكرية التي استند إليها الفكر التربوي عند البيحاني .

الفصل السادس: مبادئ التربية.

الفصل السابع: الأهداف التربوية.

الفصل الثامن: مجالات التربية.

الفصل التاسع: مناهج التربية . موادها.

الفصل العاشر: أساليب التربية.

الفصل الحادي عشر: وسائط التربية.

الفصل الثاني عشر: آداب وصفات المعلم والمتعلم.

الفصل الثالث عشر: المرأة وتعليمها.

9 . 2: دراسات تتعلق بمالك بن نبي:(الجانب المعرفي للبحث).

9 . 2 . 1 الدراسات العربية:

9 . 2 . 1 . 1: الدراسة الأولى: " الأسس التربوية للتغير الاجتماعي عند مالك بن نبي":

إعداد الدكتور: " علي حسن القرشي" ماجستير: كلية التربية: جامعة عين شمس: 1403 هـ .

1983م، و قد نجح البحث في تفكيك فكر مالك بن نبي و إعادة بنائه من جديد، من خلال

الكشف عن بعض المفاهيم و القضايا التربوية التي قال بها، في مجمل كتاباته و إسهاماته

الفكرية، و التي تمحورت عنده في فكرة التغير الاجتماعي. و قد تضمنت هذه الرسالة سبعة

فصول:

الفصل الأول: الإطار العام للبحث، و فيه جاءت عناصر الفصل مرتبة على النحو التالي:

مقدمة البحث، و مشكلته، و مسلماته، و أهميته، و أهدافه، و حدوده، و منهج البحث

و خطة الدراسة.

الفصل الثاني: فقد تناول فيه عصر مالك بن نبي من حيث أوضاعه الثقافية و التعليمية

و الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية، ثم عرّف بحياة مالك بن نبي، و العوامل المؤثرة

في فكرة.

الفصل الثالث: تكلم الباحث فيه عن الاتجاهات التغييرية في العالم العربي و أسسها التربوية.

الفصل الرابع: و جاء عنوانه: التغيير الاجتماعي و أسسه التربوية العامة عند مالك بن نبي.

الفصل الخامس: ضمنه الثقافة من الوجهة التربوية و علاقتها بالتغيير الاجتماعي عنده.

الفصل السادس: و قد عرض فيه لأهم آراء مالك بن نبي في التربية الاجتماعية و عملية إعادة البناء عنده.

الفصل السابع: و قد كان فصلا تقويميا حيث تضمن تقويما لفكر مالك، و خاصة من الجانب الاجتماعي.

9 - 2 . 1 . 2: الدراسة الثانية: " مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا" إعداد الدكتور: أسعد السحمراني، دكتوراه في الدراسات الإسلامية، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات، بيروت، دار النفائس، ط1، 1404هـ . 1984م.

و قد حاول أسعد السحمراني التعريف بالمشروع الإصلاحي عند مالك بن نبي، و المتمثل في موقفه من التيارات الإصلاحية في العالم العربي الإسلامي الحديث، و جاءت هذه الدراسة مكونة من أربعة فصول:

الفصل الأول: شخصية مالك بن نبي و آثاره.

الفصل الثاني: الواقع الجزائري و إرهاصات الثورة..

الفصل الثالث: تقرير الواقع و مؤشرات المستقبل.

الفصل الرابع: الثورة الفكرية طريق الحضارة.

9 - 2 . 1 . 3: الدراسة الثالثة: " فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي . دراسة إسلامية

في ضوء الواقع المعاصر- "إعداد الدكتور: سليمان الخطيب، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1413هـ ، 1993م. و هي رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة بكلية البنات . جامعة عين شمس، العام 1988م، و قد جاء هذا البحث يتقصى وجهة الفكر الإسلامي الحديث، من خلال نموذج المفكر الجزائري مالك بن نبي، و كان هدف هذا البحث الذي انطلق من رصد الإنتاج الفكري لعطاء المسلم المعاصر، هذا الرصد الذي يطرح اليوم في رأينا على مستويين: مستوي تجاوز مرحلة التخلف الحضاري و نفيها، و مستوى تحقيق الوحدة الإسلامية و ارتباطها بالكيان الحضاري للأمة المسلمة.

و قد أفرد لهذه الدراسة سبعة فصول مرتبة كما يلي:

الفصل الأول: الفلسفة و الحضارة.

الفصل الثاني: مالك و فلاسفة الحضارة.

الفصل الثالث: دورة الحضارة.

الفصل الرابع: الدين و الأخلاق... و البناء الحضاري.

الفصل الخامس: الحضارة و الفاعلية.

الفصل السادس: رؤية مالك للحضارة الغربية.

الفصل السابع: المسلم المعاصر و أزمة الحضارة.

2.9 . 1 . 4: الدراسة الرابعة: " مالك بن نبي مفكرًا اجتماعي و رائد إصلاحي" للدكتور

محمد العبد، ط1، دار القلم دمشق، 1427هـ - 2006م. وهو بحث مقدم في إطار علماء و مفكرون معاصرون، لمحات عن حياتهم و تعريف بمؤلفاتهم. يستعرض فيه . كما يقول في مقدمة بحثه . مفكرا عميق الغور، غواص في البحث و التققيب، و الحديث عنه متشعب ذو أبعاد؛ و ذلك لغزارة إنتاجه، و لتعمقه في درس مشكلات العالم الإسلامي، و في تحليل شخصية المسلم في عصور التخلف الحضاري؛ و المفكر هو الذي يدرس و يتأمل و يقارن و يحلل المشكلة إلى أجزائها، ثم ينسق و يركب و يجتهد في إيجاد الحلول، و الفكر لا يستحق أن يكون فكرا بمعناه الصحيح إلا إذا رسم طريق الإصلاح. و قد جاءت هذه الدراسة مقسمة إلى فصلين و كل فصل مقسم إلى مجموعة من المباحث:

الفصل الأول: لمحات من حياته، و تضمن خمسة مباحث:

المبحث الأول: الجزائر تحت الاحتلال.

المبحث الثاني: مراحل حياته.

المبحث الثالث: شخصية مالك بن نبي و تكوينه الفكري.

المبحث الرابع: مناقشات و ردود.

المبحث الخامس: أهم آرائه و أفكاره في النهوض الحضاري.

الفصل الثاني: تعريف بمؤلفاته، و فيه استعرض بعض كتب مالك بن نبي و قام بتحليلها (الظاهرة القرآنية، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، فكرة كومنولث إسلامي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، المسلم في عالم الاقتصاد، بين الرشاد و التيه).

9 . 2 . 1 . 5 : الدراسة الخامسة: "مالك بن نبي و مشكلات الحضارة . دراسة تحليلية و نقدية . للدكتور: زكي الميلاد. ط1، عن دار الفكر، دمشق. دار الفكر المعاصر، بيروت، 1418هـ، 1998م". من تقديم سعيد جودت، و هو كتاب متخصص من باحث فذ، استطاع أن يستكنه فكر مالك بن نبي و يقدمه على شكل درة ثمينة و يلخصه في نظرية الثقافة، و هو صحوة تشق طريق النمو أفقياً و عمودياً، بأمس الحاجة إلى ربطها بجذورها، أي بفكر النهضة و حركة الإصلاح الإسلامي، هذا الربط هو العمق التاريخي لهذه الصحوة، و الذي يضمن أصالتها، و يرشد مسيرتها، و يحافظ على ديناميكيتها، و يوفر لها مقومات النمو و الاستمرار. و قد جاءت الدراسة في خمسة صول و ملاحق، و هي كالتالي:

الفصل الأول: أضواء على شخصية مالك بن نبي.

الفصل الثاني: نظرات حول فكر مالك بن نبي.

الفصل الثالث: مرتكزات النظرية الفكرية عند مالك بن نبي.

الفصل الرابع: مكونات القوة في فكر مالك بن نبي.

الفصل الخامس: نقد الفكر المنهجي لمالك بن نبي.

و ملاحق: و قد تضمنت:

. مقاربات في الفكر و المنهج بين إقبال و مالك بن نبي.

. مراجعة و نقد في كتاب مالك بن نبي و مشكلات الحضارة.

. مؤلفات مالك بن نبي.

. بيبليوغرافيا الأعمال الفكرية عن مالك بن نبي.

9 . 2 . 1 . 6 : الدراسة السادسة: "التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي . دراسة في بناء النظرية الاجتماعية . " للدكتورة : نورة خالد السعد، و هي رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالمملكة العربية السعودية، نوقشت العام 1997م، و قد طُبع في الدار السعودية للنشر و التوزيع، ط1، 1418هـ . 1997م، كانت هذه الدراسة تحاول إيجاد البدائل النظرية لنظرية التغيير الاجتماعي الغربية بنظرية تستمد مقوماتها من الإسلام، و تراعي خصوصية المجتمع الإسلامي، فكانت المحاولة التي قام بها مالك بن نبي التي تأتي في طليعة المفكرين الذين قاموا بدراسة الواقع المتخلف الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية منذ أن خرجت من دائرة الضوء العلمي الحضاري دراسة تحليلية تسعى لفهم أسباب التخلف من خلال سياقه التاريخي و تسعى لإيجاد الحلول للمشكلات

التي تعاني منها معظم المجتمعات الإسلامية برؤية تأخذ في اعتبارها عمومية الظاهرة و خصوصية المجتمع المسلم. و قد جاءت هذه الدراسة في ستة فصول هي:

الفصل الأول: البيئة السياسية و الاقتصادية و الثقافية في الفترة التي عاشها مالك بن نبي في الجزائر (1325 هـ . 1393 هـ، 1905م . 1973م).

الفصل الثاني: بناء النظرية الاجتماعية.

الفصل الثالث: نظريات الدورة الحضارية.

الفصل الرابع: نظرية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.

الفصل الخامس: مقارنة نظرية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي بنظريات الدورة الحضارية.

الفصل السادس: تقييم نظرية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.

9 . 2 . 1 . 7 : الدراسة السابعة: " مالك بن نبي حياته و فكره " للدكتور عبد الله بن حمد

العويسي. و هو بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الإسلامية، نوقشت بتاريخ 1406هـ، بالمملكة العربية السعودية. و قد طبع طبعته الأولى العام 2012، عن الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان. و تبرز أهمية مشكلة النهضة في العالم الإسلامي - في فكر عند العويسي - و تعظم بقدر ارتباطها بغاية الحياة، و سلوك المنهج الرشيد أو الصراط المستقيم، لذلك حرص العويسي على اختيار مالك بن نبي باعتباره يشكل مدرسة من مدارس الفكر الإسلامي المعاصر التي انتهجت نهجا مميزا في دراسة مشكلات العالم الإسلامي و تحليلها تحليلا دقيقا و عميقا، بغرض الكشف عن أصل الداء، و إيضاح طريق الدواء، مع ربط مشكلة التنمية في العالم الإسلامي بالإسلام، باعتباره المنهج الصحيح و الصالح، الذي يحقق تركيب حضارة هذا العالم من جديد، بل هو السبيل الوحيد لتحقيق الحضارة المنشودة. كما تميّز مالك بخبرته بحضارة الغرب؛ حيث مكث في أوروبا أكثر من ربع قرن، يدرس و يحلل، بالإضافة إلى تكوينه المتميز في الناحية المنهجية، و استفادته من جميع ما اطلع عليه، و توظيفه في خدمة القضية التي يعالجها، وفق ما تقتضيه قواعد الموضوعية في البحث. و قد جاء هذا البحث في قسمين، تضمن كل واحد على مجموعة من الفصول.

. القسم الأول: حياته و تكوينه الفكري، و تضمن فصلين.

. الفصل الأول: حياته و البيئات و البلدان التي عاش فيها.

. الفصل الثاني: التكوين الفكري لمالك بن نبي.

. القسم الثاني: عطاؤه الفكري و منهجه، و تضمن ثلاثة فصول.

. الفصل الثالث: الدين و الأيديولوجيا في إنتاج مالك بن نبي.

. الفصل الرابع: الثقافة و الحضارة في فكر مالك بن نبي.

. الفصل الخامس: المجتمع الإسلامي المعاصر.

9 . 2 . 1 . 8: الدراسة السابعة: " مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة "

رسالة ماجستير في العقيدة و المذاهب المعاصرة، إعداد الأستاذ:حسن موسى محمد العقبى، بالمملكة العربية السعودية، 2005م واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي في دراسته يذكر آراء وأفكار مالك بن نبي المتعلقة بالبحث، ثم يقوم بتحليلها ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية .

و قد تضمنت الدراسة أربعة أبواب، و كل فصل يحتوي على مجموعة من الفصول:

الباب الأول: مالك بن نبي عصره وحياته. ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: عصره وتأثره به.

الفصل الثاني:حياته ومولده ونشأته ووفاته . طلبه للعلم وثقافته . أعماله ومؤلفاته وأقوال العلماء فيه و مذهبه .

الباب الثاني: موقف ابن نبي من الحضارة الغربية المعاصرة والاستعمار والاستشراق. ويشتمل على ثلاثة فصول:

. الفصل الأول: موقفه من الحضارة الغربية المعاصرة.

. الفصل الثاني: موقف مالك بن نبي من الاستعمار.

. الفصل الثالث : موقف مالك بن نبي من الاستشراق.

الباب الثالث: موقف مالك بن نبي من المذاهب الفكرية المعاصر. ويشتمل على ثلاثة فصول:

. الفصل الأول: موقف مالك بن نبي من الرأسمالية.

. الفصل الثالث: موقف مالك بن نبي من الماركسية الشيوعية.

. الفصل الرابع: موقف مالك بن نبي من القومية.

الباب الرابع: موقف مالك بن نبي من الفكر الإسلامي الحديث. و يشتمل على فصلين:

. الفصل الأول:موقفه من الدعوات الإصلاحية ورجالها .

. الفصل الثاني: مستقبل الإسلام عند مالك بن نبي:

وقد جاءت نتائج الدراسة كالتالي:

- كان محباً للعلم والعلماء من الصغر، ومحباً للقراءة والثقافة حيث قرأ العديد من الكتب العلمية والثقافية.

. لقد مدحه كثير من العلماء والمفكرين أمثال الأستاذين أنور الجندي و محمود محمد شاكر وغيرهما.

. إن مفهومه للحضارة لم يكن واضحاً في دراسته، حيث أدخل فيه مفاهيم رياضية ورسومات بيانية، تظهر فيه حتمية النهج الحضاري الذي رسمه، وفي دراسته لا يفرق بين الحضارة والمدنية.

. لقد كان مالك بن نبي مقلداً لابن خلدون في مفهوم سقوط الحضارات، ولكن بذكر أسباب جديدة للدمار.

. إن ابن نبي يحلل الحضارة من خلال مفكرين غربيين أمثال كسر لنج و فرويد و نيتشه، وذلك نتيجة تأثره بالفكر الغربي بينما كل من سيد قطب وأبي الأعلى المودودي وسعيد حوى يحللون مفهوم الحضارة من خلال الإسلام.

- لقد حارب ابن نبي الاستعمار الفكري، وكتب في ذلك أكثر كتاباته، وذلك نتيجة كرهه للاستعمار الفرنسي المحتل لبلده.

. أبدع في الرد العقلي على المستشرقين، مما جعل العديد منهم يشهر إسلامه.

- لمالك بن نبي قدرة فائقة على استنباط مصطلحات خاصة به في كثير من القضايا التي يدرسها.

. كان يميل إلى طريقة عبد الحميد بن باديس السلفية التخيرية.

- قد كان له موقف واضح بالنسبة للإمام حسن البنا، واصفاً إياه بالزعيم من حيث قدرته على تحويل الآيات إلى منهج عملي حركي ، وإتباع المنهج السلفي .

- كان يعتمد في كثير من تحليلاته على العقل مستخدماً مفاهيم علم النفس والفلسفة، وقد يسرف في بعض الأحيان بالاعتماد على مفكرين مرفوضين من وجهة النظر الإسلامية مثل فرويد وغيره.

9. 2. 2 الدراسات الجزائرية:

9 - 2. 2. 1: الدراسة الأولى: "مدخل التجديد الحضاري و آفاقه العالمية (دراسة في فكر مالك بن نبي)" للدكتور: عبد العزيز برغوث، أستاذ بكلية معارف الوحي الإسلامي و العلوم الإنسانية، ط1، دار التجديد للطباعة و النشر و الترجمة، كوالالمبور، الجامعة الإسلامية بماليزيا، 2005م. و الكتاب لا يعالج النظريات و المناهج و الأدوات التحليلية المستعملة ضمن نماذج التحليل الاجتماعي المعروفة، و لكن سيحاول فقط تحديد بعض المداخل و الموضوعات الأساسية التي ينبغي للأمة أن تتوجه إلى معالجتها في إطار محاولاتها المتكررة لتجديد إنسانيتها و ثقافتها و حضارتها المعاصرة. و في هذا الإطار يعتبر مالك بن نبي من القلائل في وقته الذين فهموا نظريات التغيير الاجتماعي ضمن نسق العلوم الإنسانية الغربية الحديثة و وظّفوها لتحليل قضايا الأمة و مشكلاتها تحت تسمية (مشكلات الحضارة). و الحقيقة الماثلة أمامنا اليوم هي أن الأستاذ ابن نبي تمكّن من وضع يده على الجرح الغائر في نفسية الإنسان المسلم و ثقافته و حضارته و فكره و وعيه، لقد أظهر حيوية متميزة في مقارنة مشكلات الأمة مستفيدا من الخبرة و المعرفة الغربية الحديثة دون أن يتنازل عن منظوره الحضاري الإسلامي.

و قد جاء هذا البحث متضمنا لخمس فصول متسلسلة:

. الفصل الأول: الإطار المنهجي العام للدراسة أولويات التجديد الحضاري للأمة.

- الفصل الثاني: مدخل منظور التحليل الحضاري و وحدته الأساسية (من الحضارة إلى الحضارة العالمية).

. الفصل الثالث: مدخل الحضارة و أساسيات الفعل الحضاري.

. الفصل الرابع: مدخل الثقافة و المضمون التربوي للفعل الحضاري.

. الفصل الخامس: مدخل شبكة العلاقات الاجتماعية و فقه صناعة الحضارة و ديناميكياتها.

9. 2. 2. 2: الدراسة الثانية: "التنمية و التخلف في فكر مالك بن نبي" للدكتور:

الطاهر سعود، أستاذ بجامعة سطيف، ط1، كتاب صادر عن دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، العام 1427هـ. 2006م، قدّم له الأستاذ زكي الميلاد من السعودية، و هو كتاب اعتمد فيه صاحبه على المنهج الاستنباطي (الاستدلالي) كمحاولة لتفكيك فكر مالك بن نبي و إعادة بنائه من جديد وفق مقارنة تنموية تحاول أن تجد لنفسها مكانا ضمن

إطار النظرية العالمية لتفسير ظاهرة التخلف، و هو كتاب متخصص في نظرية التنمية جاء ليقدم في إطار علم الاجتماع التطبيقي حلولاً مستعصية لظاهرة التخلف في العالم الثالث، متجاوزة في ذلك الكثير من المقاربات التي حاولت تقديم الحلول لهذه المشكلة العويصة. و قد تضمن هذا الكتاب ثلاثة فصول جاءت على النحو التالي:

. الفصل الأول: التنظير السوسيولوجي و مشكلة التخلف و التنمية.

. الفصل الثاني: التخلف من منظور مالك بن نبي.

. الفصل الثالث: التنمية من منظور مالك بن نبي.

9 . 2 . 2 . 3: الدراسة الثالثة: " محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري

عند مالك بن نبي" للدكتور الطيب برغوث، و هو كتاب في طبعته الأولى، صادر عن دار الرياء للتنمية الفكرية، دمشق، سوريا، العام 1427هـ ، 2006 م. و هو كتاب جاء ليقدم رؤية أخرى تتمحور حول نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، و التي تعتبر محور و لب نظريته في فلسفة التاريخ و الحضارة على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة فعل ثقافي، و أن الأزمة الحضارية هي باستمرار محصلة أزمة ثقافية، و أن نجاح أية حركة نهوض حضاري ترتبط بطبيعة مشروعها الثقافي، كما يُستخلص ذلك من مجمل رؤية مالك بن نبي لفلسفة و منهج التغيير الاجتماعي و الحضاري. و الملاحظ في تفكير مالك بن نبي بصفة عامة، هو أنه يطرح موضوعاته ضمن إطار منظومي منهجي متكامل، يرتقي بهذه الموضوعات إلى مستوى النظريات المتكاملة، كما فعل في دراسته لموضوع الثقافة الذي ربطه بموضوع الحضارة كقطب تتجه إليه حركة الوعي و التدافع البشري في الأرض، و ترتبط به ارتباطاً جذرياً مطرداً. فالثقافة تنشئ الحضارة و تمنحها هويتها و ذاتيتها الإنسانية الخاصة، و الحضارة تغني الثقافة و تجدها و تدفع بها إلى آفاق السننية النمطية، و كل يؤثر في الآخر سلبياً، كذلك. و هكذا دواليك يتكاملان و يتناغم دورهما الوظيفي في حياة البشر طرداً و عكساً. فالذي يقرأ مالك بن نبي يجد نفسه يتحرك ضمن ساحة فكرية مترابطة و منظمة و متكاملة، يتداخل فيها الفكري و العقلي بالروحي و الشرعي و السلوكي و الاجتماعي و الحضاري، بشكل منهجي مطرد، لا تكلف فيه و لا تمحل و لا تحكم، لأن الرجل يستند في تفكيره و قراءاته للأحداث و الظواهر لفكر سنني يحرص باستمرار على الانفتاح على الحقيقة في كل أبعادها و ساحاتها، و لا يحصر تفكيره في مجال أو اختصاص محدد يفرضه على الحقيقة و يحاكمها، و يحكم عليها من خلاله وحده.

و قد جاءت الدراسة في فصول:

- . الفصل الأول: في الطريق على عالم مالك بن نبي.
- . الفصل الثاني: انعكاسات غياب المراجعة و التقويم على سير حركة التجديد الحضاري.
- . الفصل الثالث: مالك بن نبي و فقه المراجعة و النقد و التقويمي.
- . الفصل الرابع: مالك بن نبي و دراسة السننية الإسلامية.
- . الفصل الخامس: الآفاق الكبرى لإستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي.
- . الفصل السادس: المداخل الكبرى لإستراتيجية البناء الحضاري.
- . الفصل السابع: موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري.
- . الفصل الثامن: الدور المحوري للإسلام في حركة التغيير الحضاري.
- . الفصل التاسع: مقولات في الوعي الثقافي العالي.

9 . 2 . 2 . 4 : الدراسة الرابعة: " الصراع الحضاري في العالم الإسلامي . مدخل تحليلي

في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي - " للدكتور: شاييف عكاشة، أستاذ بجامعة تلمسان، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993. الإسلام، الاستعمار، الحضارة: محاور ثلاثة تشغل الفكر الإسلامي المعاصر. و في ضوءها حاولت أن يتتبع موقف مالك بن نبي أحد أساطين الفكر الإسلامي، و قد تمثلت هذه المتابعة في استعراض و مناقشة و تحليل مجموعة العناصر الأساسية، كموقف الاستعمار العسكري و السياسي من الإسلام و حقه عليه و الطرق و الوسائل التي استغلها في تضليل المسلمين و إبعادهم عن دينهم، و موقف المفكرين المسلمين أنفسهم من الإسلام، مراعيًا الفروق التي تفصل بينهم. وقد بدا له أن علماء الإسلام و مفكره قد انقسموا من موقفهم من الإسلام ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ظل مرتبطًا نظريًا و ليس عمليًا ببقايا الحضارة الإسلامية دون أن يتوقف عن ترديد حكيمته المشهورة: " بفضل الحضارة الإسلامية وصل الغرب إلى ما هو فيه من تحضر".

القسم الثاني: تخلص تمامًا بما يربطه بالحضارة الغربية المعاصرة، معتقدًا أن الدين (أي دين) لا علاقة له بالتحضر، و أنه مجرد مناسك روحية، تتفع الإنسان في الآخرة، و لا علاقة له بالدنيا.

القسم الثالث: فتمثله جماعة من علماء الإسلام، الذين تمثلت في منهجهم روح الموضوعية، و لذلك فَهْمُ لم يحصروا أنفسهم بين جدران ماضي الإسلام، و لم يتخلوا عنهم أيضا، كما أنهم أخذوا من الفكر الغربي ما بدا لهم مفيدا في إعادة بناء الحضارة الإسلامية.

و قد قسّم البحث إلى سبعة فصول:

. الفصل الأول: الاستعمار و الإسلام.

. الفصل الثاني: الإسلام و المسلمون.

. الفصل الثالث: مالك بن نبي و الصراع الحضاري.

. الفصل الرابع: مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي.

. الفصل الخامس: أسباب التخلف الحضاري في العالم الإسلامي.

. الفصل السادس: معالم الحضارة عند مالك بن نبي.

. الفصل السابع: التفسير الديني للحضارة عند مالك بن نبي.

9 . 2 . 2 . 5 : الدراسة الخامسة: " مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أرنولد توينبي "

للدكتورة: آمنة تشيكو، ط1، عن المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1989. قدّمت الأستاذة بحث مقارن لمفهوم الحضارة عند مفكرين بارزين، لكن كل واحد منهما ينتمي لحضارة تختلف عن الأخرى في المحتوى و المنهج و البعد الفكري، فالهدف الذي تعرض له مالك ابن نبي، لمشكلة الحضارة هو النهضة بعالم يعيش في تخلف، و كانت كتاباته موجهة بصفة خاصة إلى الشعوب التي خرجت حديثا من الاستعمار الذي خَلّف وراءه الجهل و التخلف و الفقر، و هي لا تملك شيئا واحدا ايجابيا هو الدين، و تكاد تضيعه هو الآخر في غمار الجهود المبذولة من اجل النهضة، دون أن تشترك الآراء في تحديد الأهداف و الاتجاهات. أما الظروف التي دفعت أرنولد توينبي للدراسة، هي غير الظروف التي دفعت مالك بن نبي، و بالتالي تختلف الأهداف، لقد أثارت الحرب العالمية الأولى فضلا عن كتاب " شبنغلر " في كتابه (تدهور الغرب) قلق توينبي على مصير الحضارة الغربية، فأكبّ على دراسة الحضارات السابقة للتعرف على أسباب تدهورها و فناء بعضها، و كانت ثمرة هذه الدراسة موسوعته الضخمة في التاريخ.

و خلّصت الباحثة في النهاية إلى أنه لا يمكن اعتماد كتاب توينبي حول الحضارة " كنظرية " لما تضمنته من غموض و عدم الاتساق، وكما قال "سوروكين" الذي لم يقتنع بتفسيره للتاريخ الحضاري، و لا يعتبره حضارة لأنه متهافت في مبدأين:

الأول: اعتبار " الحضارة " وحدة معقولة للدراسة التاريخية.

الثاني: اعتبار " الأدوار الحضارية من النشوء إلى النمو ثم السقوط و الانحلال أساسا لفلسفته التاريخية".

أما تفسير " مالك بن نبي " فلم يخلو من النقد أيضا، فقد كان منصبا بصفة خاصة على فكرة الدين و الحضارة، و قد ذكر مالك بن نبي نفسه هذه الملاحظة التي وجهت إليه و رغم التعديل الذي أضافه ابن نبي، بقيت هذه الفكرة غامضة لدى البعض. و يبدو أن ما كتبه مالك بن نبي حول الحضارة يمكن اعتباره نظرية لأن الأفكار التي أتى بها تبدو منسقة لا يوجد فيها تناقض أو تراجع عن فكرة معينة قد قالها من قبل كما فعل "توينبي" في موقفه من الدين في نظريته.

و قد جاء البحث مقسما إلى ثلاثة أبواب، و كل باب مقسم إلى فصول:

الباب الأول: يتناول مشكلة الحضارة متضمنا فصلين.

الفصل الأول: مفهوم الحضارة.

الفصل الثاني: أهم النظريات الحضارية.

الباب الثاني: مفهوم الحضارة عند كل من مالك بن نبي و أرنولد توينبي.

الفصل الأول: التعريف بكل من مالك بن نبي و أرنولد توينبي.

الفصل الثاني: مفهوم الحضارة عند أرنولد توينبي.

الفصل الثالث: نقد نظرية أرنولد توينبي.

الفصل الرابع: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي.

الفصل الخامس: نقد نظرية مالك بن نبي.

الباب الثالث: مقارنة بين مالك بن نبي و أرنولد توينبي حول مفهوم الحضارة.

الفصل الأول: مقارنة في المنهج.

الفصل الثاني: مقارنة في المحتوى و البعد الفكري.

9 . 2 . 2 . 6 : الدراسة السادسة: " معوقات النهضة و مقوماتها في فكر مالك بن نبي "

للأستاذ محمد لعاطف، ط1، عن دار قرطبة للنشر و التوزيع، الجزائر، 1430هـ - 2009م. و

هي مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية،

جامعة الجزائر 2007 . 2008 .

و قد استعمل الباحث المنهج التحليلي الاستنتاجي، و ذلك بتحليل أهم أفكار مالك بن نبي المتعلقة بموضوع البحث، و استخلاص المترتبة عن هذا التحليل. فلم يكن قائماً على النزعة الانفعالية التي تتجاهل الحاضر تجاهلاً تاماً بسبب الانبهار بمنجزات الغير، و غنما كان مشروعاً قائماً على التحليل العلمي العقلاني لظاهرة التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة بحيث قام في البداية بتحديد المرحلة التاريخية التي نعيشها و هي مرحلة ما بعد الحضارة. و انطلاقاً من خصوصيات هذه المرحلة حاول مالك بن نبي أن يحدد الخصائص النفسية و الفكرية و الاجتماعية لإنسان ما بعد الموحدين و التي تمثل أهم المعوقات الذاتية التي وقفت في وجه المحاولات النهضوية و منعها من تحقيق أهدافها الحضارية. و قدّم نتائج بمتعلقة بالمعوقات الذاتية و الموضوعية. و أعطى نتائج تتعلق باقتراح مشروع بديل لتجاوز هذه المعوقات نذكر منها:

- يجب على المجتمع أن يقوم بجهود تربية تغرس في ذات الفرد النزوع إلى الجماعة و التخلص من النزعة الفردانية ذات التأثير السلبي على الانسجام الاجتماعي.

- بناء شبكة علاقات اجتماعية على أساس أخلاقي مستمد من البعد الديني، و الحديث عن بنائها لا يفصل مشكلات الرجل عن مشكلات المرأة، بل لكليهما نفس الواجبات، و معاناتهما في المجتمع المتخلف واحدة، و العلاقة بينهما علاقة تكامل، لا علاقة صراع يسيطر فيها طرف على الآخر من دون وجه حق.

- ضرورة إرجاع الفاعلية الاجتماعية للعقيدة من خلال معالجة ظاهرة الانفصام المرضي الذي يعيشه المسلم المعاصر، و لعل الحل يكمن في تأسيس علم جديد يسميه بن نبي " علم تجديد الصلة بالله " وظيفته أن يشعر المسلم بوجود الله وليس أن يبرهن له على وجوده .

- تبرز أهمية العنصر الديني في تنظيم الحياة الاجتماعية بعد فشل العلم في حل المشكلات في جانبها الأخلاقي.

- يجب توظيف المعرفة العلمية كأداة للنهوض و تجاوز تلك المرحلة التي تكفي بالعلم كمظهر أو كوسيلة لكسب القوت، و فهم السنن الاجتماع هو الذي يجعلنا نتجاوز مرحلة التقليد المزدوج من خلال إبداع حلول ناجعة تتوافق مع خصوصيات المجتمع الذي يحتاج إلى علاج.

- طريق النهضة حسب مالك بن نبي يمر عبر شارع الواجبات المقدسة في ضمير كل فرد من أبناء الأمة، فالشعب الذي يريد التحضر يجب عليه أن يعمل و يجتهد في كل يوم

و في كل دقيقة و في مختلف مجالات حياته، أمّا أن يكتفي بالنوم والمطالبة بالحقوق فذلك طريق الانقراض.

- تتحقق الفعالية بالاعتماد على القدرات الذاتية و الإمكانيات المتاحة مهما كانت بساطتها لأن الحضارة في حد ذاتها ماهي إلا نتيجة ذلك التفاعل بين الإنسان و الزمن والتراب، و تتحقق بتجاوز ذهاني السهولة والاستحالة

و الاتجاه نحو طريق الواجبات، و توظيف الأفكار الدافعة التي تنشئ توترا على مستوى نفسية الفرد مما يدفعه الى مضاعفة الجهد و الإنتاج.

- يجب أن ندرك كل فكرة تودع في التربة ستتحول الى مشروع ثقافي مجسد في الميدان إن هي وجدت الأرضية الملائمة و اللحظة التاريخية المناسبة.

9 - 2 - 2 . 7: الدراسة السابعة: "مشكلة التغيير عند مالك بن نبي"، لخضر حميدي،

مشروع بحث لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، قسم الفلسفة، السنة الجامعية، 2004 - 2005 . استعمل الباحث المنهج التاريخي و المنهج التحليلي النقدي. و تمحورت تساؤلاته ما إذا كانت حركية التغيير قائمة على التغيير، فما هي الغاية لهذا التغيير؟ هل يتدخل العامل الديني في الحركية التغييرية للتاريخ و يحسم الموقف؟ كيف يمكن لهذه الحركة التغييرية أن تؤول نحو غاية تسمى حضارة؟ وقد خلص في النهاية إلى جملة من النتائج يمكن تلخيصها في النحو التالي:

- أن نحول ثقافتنا من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الإنتاج، و هذا من خلال كيفية تقديم ما عندنا للعالمية باعتبار خير أمة أخرجت للناس حتى يتأتى لنا التواصل مع التاريخ و ليس الانسحاب منه.

. قراءة التراث قراءة موضوعية، و هذا ما أشار إليه (مالك بن نبي) بقوله: تصفية عاداتنا و تقاليدنا لأن التراث ليس مجرد قراءة، و لكن تنقية و تصفية، أي أن نأخذ من التراث ما يعيننا على حاضرننا، و لعل أن هناك العديد من الأمثلة في هذا المجال فمثلا :

. التعاون و التكامل و الترابط المتمثل في عقد هذه الاتفاقيات بينها و ما ينتج عنه من تكامل اقتصادي إسلامي له تأثير في توحيد الكلمة و مبدأ العمل و ليس أدل على ذلك من مختلف الأفكار التي قدّمها (مالك بن نبي) والمتمثلة في: فكرة الأفروآسيوية، كومونولث إسلامي.

. ما تتمتع به البلاد الإسلامية من إمكانيات اقتصادية كبيرة، و من موقع إستراتيجية يعتبر السبيل الذي يجعل من العالم الإسلامي ذا شأن كبير خاصة و أن الدين الإسلامي لا يعترف بالحوازر الجغرافية أو اللون أو اللغة، و هو يمثل رابطة لا انفصام لها. العامل الاقتصادي وماله من تأثير كبير في جعل العالم الإسلامي من القوة بمكان تستطيع فيه تسيير الاقتصاد العالمي، بل و حتّى السيطرة عليه و التحكم فيه لما تتمتع به الدول الإسلامية من غنى في خيراتها الطبيعية و ثرواتها المعدنية باعتبارها من الدول المنتجة المصدرة لأنواع الوقود كالبترول و منتجاته و الغاز الطبيعي و المواد الأولية. و صفوة القول في العالم الإسلامي يزخر بالإمكانيات البشرية و المادية و لو قُدر لهذه الإمكانيات أن تنظم و تستغل الاستغلال الأمثل لأصبح هذا العالم الإسلامي ممسكا بزمام الأمور في العالم كله .

9 . 3 : مدى استثمار الدراسة لهذه الدراسات السابقة :

9 . 3 . 1 : من خلال الدراسات الأولى المتعلقة بالفكر التربوي :

أدرجنا مجموعة من الدراسات التي تحمل نفس العنوان وهي (الفكر التربوي عند...) و كنا نقصد بذلك كيف كانت خطوات البحث أو هيكل البحث عموماً، فكل هذه الدراسات عرّفت بالشخصية المدروسة ، ثم عرّجت على أهم المراحل التي مرّت بها الشخصية أو العلم المدروس والتي شكّلت فكره منه الظروف الاجتماعية و الثقافية و الفكرية و السياسية و الاقتصادية ، ثم تناولت في شقٍ منها التربية.

- و استثمارنا من هاته الدراسات عموماً هي الخطوات التي سار عليها مؤلفو هذه الكتب خاصة في الفصول: الأول و الثاني و الثالث .

- كذلك . و الحال هذا . قمنا باستثمار في المناهج التي استخدمت في هاته الدراسات فكان المنهج المستخدم في الدراسة الأولى: التاريخي، و في الدراسة الثانية إستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، أما في الدراسة الثالثة فقد استخدم الباحث المنهج:الوصفي التصنيفي.

9 . 3 . 2 : أما الدراسات الثانية المتعلقة بمالك بن نبي:

أولاً: و قد قدمنا في الأول بعض الدراسات المتخصصة التي تناولت فكر مالك بن نبي، و نقصد بذلك دراسة علي القريشي، سليمان الخطيب، نورة خالد السعد، عبد الله بن حمد

العويسي، أسعد السحمراني، محمد العبد، زكي الميلاد، و هي دراسات في مجملها قامت بتحليل فكر مالك بن نبي في ضوء التغير الاجتماعي، و فلسفة الحضارة، حيث قمنا باستخلاص زبدة ما قيل فيها، و محاولة إسقاط بعض الرؤى في دراستنا، فكل دراسة من هذه الدراسات حلت مالك بن نبي على ضوء إيديولوجيا معينة يعتقد بها صاحبها، فكانت دراسة القريشي من العراق تقترب من حدود الماركسية، و خاصة في فكرة التغير الاجتماعي. فيما كانت دراسة كل من نورة خالد السعد و عبد الله بن حمد العويسي و حسن موسى محمد العقبي و كل هؤلاء من المملكة العربية السعودية، فقد أخذت هذه الدراسات منحى عقدي في مستوى تحليل الفكرة الدينية باعتبارها المحرك الأساسي للدورة الحضارية، بالإضافة إلى مدح منهج محمد بن عبد الوهاب (الوهابية) و اعتبره منهج تغييري يبدأ بالتخلية قبل التحلية، الذي فتح الباب للكثير من الباحثين في المملكة السعودية للإطلاع على فكر مالك بن نبي، فيما لم يشرع زكي الميلاد إلى هذه كثيرا . باعتباره شيعي سعودي . فقد ركّز على المحتوى الثقافي لنظرية الدورة الحضارية، و نظرية الثقافة. فيما قدّم محمد العبد و أسعد السحمراني رؤى متعددة لفكر مالك بن نبي و بعض العوائق النفسية و الاجتماعية، بالإضافة إلى قراءة عامة في بعض كتبه لتقريب القارئ أكثر و إعطائه صورة عامة عن محتواها و مضمونها. و بتحليل بعض القضايا المتعلقة بالحضارة و الإنسان و الثقافة.

ثانياً: و فيما يتعلق بالدراسات الجزائرية فقد كانت في مجملها دراسات فلسفية تعنى بالحضارة و الثقافة، إلا أن فكر مالك بن نبي يعبر عن نسق فكري متكامل يفهم في خلال الإنسان و الثقافة و الحضارة و المنهج، و من ثمة فإن الاقتراب منه فلسفياً هو إضافة تحليلية و منهجية للكثير من الزوايا و التمفصلات الفكرية عند مالك بن نبي.

فقد كانت دراسات كل من عبد العزيز برغوث، و الطيب برغوث، تناولت مشكلة الثقافة و التجديد الحضاريين عند مالك بن نبي، و هما دراستان عميقتان حولاً من خلالها أن ينحت مفاهيم خاصة تعبر عن أصالة و جدية مالك بن نبي، فيما جاءت دراسة الطاهر سعود متخصصة تستنطق المفاهيم السوسيواقتصادية، في محاولة جادة للكشف عن معالم نظرية في التنمية خاصة بالعالم المتخلف، و مقارنة واقعية لنهوض و التقدم الاجتماعي. فيما جاءت دراسة شايف عكاشة، أمنة تشيكو حول الحضارة و الصراع الحضاري و مقارن ذلك

بالفكر الغربي متمثلاً في أرنولد توينبي، و قد حدد هذه الدراسة الرؤية و تموقع ابن نبي في خارطة الفكر العالمي.

فقد قمنا فيها باستثمار مجموعة من الدراسات حول (مالك بن نبي) والتي كانت في عمومها تتكلم عن مشكلة التغيير و النهضة و الثقافة و الحضارة، وكل . بشكل أو بآخر. عالج مختلف الزوايا التي أثارها مالك بن نبي.

. و كان استخلاصنا من خلال عرض هذه الدراسات بمنهجية موحدة أثرتنا من خلالها ماهي الإشكالات التي طرحت في هذه الدراسات، أسباب و أهمية و أهداف اختيار هذه الدراسات حول مالك بن نبي، ثم ماهي المناهج التي استعملت في هذه الدراسات: ففي الدراسة الأولى أستعمل فيها منهج: المنهج الوصفي التحليلي.

و في الدراسة الثانية أستعمل منهج: المنهج التحليلي الإستنتاجي و المنهج التاريخي و المنهج التحليلي النقدي و الاستنباطي.

أما من حيث هيكل البحث فقد قسّم كل باحث موضوع بحثه حسب مقتضيات الموضوع و تساؤلاته، و اختصاص الدراسة، و تراوحت فصول هذه الدراسة بين ستة و ثمانية فصول، بالإضافة الى المقدمة و الخاتمة.

ثمّ طرحنا النتائج المستفادة من هذه الدراسات التي في العادة يفرد لها مبحث في نهاية الفصل أو إدراجها في الخاتمة .عموما ما يمكن أن يقال في هاته الدراسات أنها حاولت الوصول الى نتائج لكن دون مناقشتها على ضوء التساؤلات و أهداف الدراسة .

الفصل الثاني

العوامل

المؤثرة في التكوين الفكري

لمالك بن نبي

المحتويات:

تمهيد

- 1 . المحطات التي مرّ بها مالك بن نبي في حياته من 1905 إلى 1973 .
- 2 . العوامل المؤثرة في التكوين الفكري لمالك بن نبي .
- 3 . العوامل الثقافية و الفكرية .
- 4 . مؤلفاته .

استخلاصات

تمهيد:

سوف نحاول في هذا الفصل أن نلح إلى عوالم مالك بن نبي، الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية و السياسية، و من خلالها نتعرف على أهم المحطات التي مرّ بها مالك بن نبي و التي كانت حافلة بالمآسي من خلال العيش في الجزائر و مواجهة الاستعمار و دسائسه، ثم سفره إلى فرنسا، ثم التطرق للمحطات الثقافية و السياسية التي شكّلت و عي مفكرنا، و نبهته للكثير من القضايا التي كان يجهلها، فكانت كل هذه المحطات اللبنة الأولى لتشكيل و عي أنتج بغزارة فكريا مازال معينه لم ينضب بعد. فمالك بن نبي الذي عاد إلى تبسه مازال يحفر في أهدود حياته تلك اللحظات الليلية التي قضاها مع زملائه و جيرانه و أسرته. ثم التطرق في هذا الفصل لأهم العوامل التي أثّرت في تكوين مالك بن نبي، و التي نراه بحق، فهو القارئ النهم و المحاضر المحاور و المفكر الهادئ الباحث عن الحقيقة في كل زاوية من زوايا الحياة. فكانت باريس بمكتباته و دورها حقا يرتاده مالك بن نبي، و كانت الصحف الباريسية لا تفارق " الصديق " أينما حل و ارتحل. ثم نحاول أن نقدم في هذا الفصل لأهم الكتب التي أنتجها مالك بن نبي طوال حياته العلمية و الفكرية بداية من باريس إلى القاهرة إلى الجزائر، و المقالات التي كتب، و المجالات كذلك. إلى أن وافته المنية.

1 . المحطات التي مرّ بها مالك بن نبي في حياته من 1905 إلى 1973:

1 . 1 : مرحلة الجزائر بلد مستعمر (1905 . 1930) :

هو مالك(صديق) بن الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي ولد في 01 جانفي 1905م الموافق لـ : 05 ذو القعدة 1323هـ بمدينة قسنطينة، هو رجل يميل في قامته إلى الطول، غير بدين، لم يكتمل الشيب في رأسه بعد، و إن كان الوقار سمته.. رقيق الحاشية، متوقد العينين يطلّ بهما من وراء نظارته الطبية. بادي الاعتناء بهندامه إن لم نقل التأنق، و قد يكون مختلفا في هذا، مع الكثيرين من أمثاله من كبار المفكرين الذين يهتمون مظهرهم . في الغالب . إذا تحدّث انفعَل هادئاً مع حديثه، و بدا كمن يلد أفكارا أو يتمخض عنها، إلا أن جوابه حاضرا دون شرود، إذ تكفيه الإطلاقة الواحدة العجلى لدى مفاجأته بسؤال ما حتّى يرفع وجهه إليك ثانية و يعطيك الجواب الفاصل. يستخلص المعنى الكبير، من المشهد الصغير، بل يستخلص القانون العام من المحادثة العادية... إن الجالس إليه يحس مباشرة بأنه أمام مفكر كبير شمولي النظرة، واسع التجربة، عالمي الثقافة، يشرف على الأمور و المشكلات إشرافا، يطلّ عليها من شاهق و لا ينظر إليها من جانب أو من تحت.. و هكذا يتاح له أن يحلّل و يركّب، و أن يحيط بالكليات و الجزئيات معا، و أن يربط الأسباب بالنتائج و أن يعطيك في النهاية الحكم السديد، و الرأي الناضج العميق الذي لا تحسّ معه بأية سطحية أو ابتسار.¹

ارتحلت عائلته الى مدينة تبسة، ثم لحق بها بعد أن مكث عند أقاربه في قسنطينة ردحا من الزمن، و قد نشأ مالك بن نبي في عائلة محافظة، متمسكة بدينها وتقاليدها تعيش على شظف العيش و ضيقا ماليا شديدا، الشيء الذي ترك عمه يكفله في قسنطينة، ثم اضطرت زوجة عمه أن تعيده الى والديه في تبسة بعد وفاة عمه الأكبر الذي تبناه منذ أمد بعيد". لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر، إذ مات عمي الأكبر في قسنطينة، و كان قد تبناني منذ أمد بعيد، مما جعل زوجته تعيدني الى أهلي في تبسة على الرغم مما خلف ذلك من أسى في نفسها وفي نفسي. لقد فعلت ذلك لأن مواردها لم تعد تسمح لها بإعالتني".²

¹ . إبراهيم العاصي، الحقيقة و المال . آخر حوار لمالك بن نبي، ط1، دار عالم الأفكار، بيروت، لبنان، 2003، ص7

² . مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، دمشق، ط2، 1984، ص18.

و كان جده لأبيه الخضر فر الى ليبيا إبان دخول الاستعمار الفرنسي الى قسنطينة، و أخذ معه كل ما يملك من مال بعد أن باع ما بحوزته من أملاك العائلة و في هذا يقول بن نبي: كنت في السادسة أو السابعة من عمري، و كان وضع عائلتي قد ساء مادياً، فجددي لأبي باع كل ما تبقى بحوزته من أملاك العائلة، و قد هجر الجزائر المستعمرة ليلجأ إلى طرابلس الغرب، فقد هاجر مع الموجة الأولى من الهجرة التي اجتاحت حوالي عام 1908م مدناً كثيرة قسنطينة و تلمسان، تعبيرا عن رفض أهالي البلاد معايشة المستعمرين، و الذي يعد البذرة الأولى لكثير من الأحداث السياسية التي جرت فيما بعد، و خصوصا لذلك الشعور بضرورة مقاومة المستعمر الذي تفجر في أول تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1954.¹

و في وسط فقر مدقع و واقع اجتماعي هش عاش الطفل مالك بن نبي حياة بسيطة كغيره من أبناء الجزائر العميقة، و قد جالس جدته لأمه يسمع عنها مواظب عن العمل الصالح و ثوابه و عمل السوء و ما ينجر عليه من عقاب، إنه نموذج للضبط الاجتماعي التقليدي و التربية بالقصة السائدة في الأسر العربية الإسلامية التي مازالت تنضح بقيم التنشئة الاجتماعية كالصبر و النماء و العطاء. و في كنف جدة صالحة، لا تتفك تحدته عن الخير و الشر، و تغذيه بالقيم المعنوية، بدأ التشكل التربوي الأول لابن نبي. فجدته لعبت دور المربي الأول الذي صاغ رؤيته الأولية نحو القيم الأخلاقية، كما أن إدخاله الكتابات لتعليم القرآن وضع في تكوينه شعورا دينيا معينا، بالإضافة الى أن الوسط الجزائري العام هو وسط محافظ يحرص على أداء شعائره فكان أن اعتاد مالك بن نبي التردد على المسجد منذ وقت مبكر من حياته.²

و في مدينة تبسة أصبح مالك يعيش حياة جديدة تختلف عن تلك التي كان يعيشها في قسنطينة من حيث العناصر و المؤثرات، ففي هذه المدينة تختلف وسائل اللعب فهي أقل رقة و أناقة و رفاهية، فيقول في وصف هذه الواقع الجديد: في تبسة تختلف وسائل اللعب عنها في قسنطينة، فأطفال مدينتي الأولى قسنطينة أكثر رفاهية و بالتالي كانت لعبهم أكثر

¹ . المرجع سابق، ص 16.

² . زكي الميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1998. ص 57.

أناقة و رقة، فالصغار منهم يتلهون بلعب صغيرة صنعت محليا من خشب ملون، فهي أشبه ما تكون بتلك الصناديق الرخيصة التي كانت تحملها عرائس قبائل تبسة ضمن جهازها.¹ عاش مالك بن نبي في مدينة تبسة ظروفًا عسيرة، حيث كان أبوه عاطلا عن العمل، و كانت أمه تعمل دون كلل لتسد كل ما يريده الطفل من نفقات المدرسة إنه التثبيت بالرصيد التاريخي الأصل، و بهذه التقاليد، وهذه الروح استطاعت البلاد أن تعود لصياغة تاريخها من جديد² وسرعان ما انفرج الوضع و تحسنت الأحوال المعيشية لأسرته بعد أن تقلد أبوه منصبا بسيطا في الإدارة المحلية بتبسة، فأرسل الى المدرسة الحكومية (الفرنسية) و أرسل في الوقت نفسه الى الكتاتيب لتعلم القرآن الكريم، و كان الفارق كبيرا في طرق التعليم بين المدرستين، مما جعل مالك يضج من الأساليب التقليدية في التعليم المسجدي مما جعله يتغيب كثيرا عنها فتعرض على إثرها للعقاب المزدوج من قبل المعلم و الأب الذي كان يعمل في سلك القضاء الإسلامي، و هذا ما زاده ابتعادا عنها، و اقتنع الوالد أخيرا بأن يستمر الطفل في المدرسة الحكومية، و ينقطع عن المدرسة القديمة، لكن هذين الخطين: المدرسة الفرنسية و المدرسة القرآنية سوف تستمران معه في المدرسة الإعدادية و ما بعدها. و في قسنطينة دخل المدرسة الفرنسية و تحصل على المنحة للدراسة الثانوية، و كان فرحه عظيما حيث عاد ليعيش في المدينة التي أحبها كثيرا منذ صباه، و في هذا الصدد يبوح مالك بن نبي بدواخله عن ما يكنه في نفسه عن هذه المدينة في الواقع منذ أمد بعيد كنت أتمنى العودة الى قسنطينة. ومن ثم فكلما مرت العربة تحت شبابيك مدرستي، و كما تناهى الى سمعي وقع سوط السائق يهوي على رؤوس خيوله ذات الصفين كنت أنتهد بأسى، لقد كان عجاج غبارها المنبعث و هي تتركه وراءها، و في رواحها المتأخر على طريق قسنطينة، و غدوها عندما ألقي بها و أنا عائد من المدرسة، يسلمني الى أحلامي، و بصورة عامة لقد ولدت و في نفسي ذلك المزاج الذي وصفه بدقة مؤلف كتاب (رجال الإسفار).³

1. _____، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 2.

2. _____، المرجع السابق، ص 20.

3. _____، المرجع السابق، ص 31.

و في هذه المدينة شاهد مالك بن نبي معالم الحضارة كالشوارع الممتدة و الواجهات الزجاجية و المكتبات الكبرى و دور النشر و الصحف، و بعد أن أتم دراسته العادية، حيث تحصل على الشهادة الابتدائية بدرجة جيد، حيث دخل الثانوية بقسنطينة، إلا أنه حرم من المنحة التي أعطيت له نتيجة السياسة الانتقائية الاستعمارية التي تُفضل أبناء المعمرين على الأهالي.¹ و هذا الأمر أجبره على الالتحاق في قسنطينة بمتابعة دروسه في المرحلة التكميلية في مدرسة "في مدرسة سيدي الجلي" هذه المتوسطة التي تحضر خلال عام أو عامين المترشحون للدخول الى المدرسة أو معهد المعلمين أو ليكونوا مساعدي أطباء..

لقد كان مالك بن نبي شغوفاً بالمطالعة و الثقافة في هذه الفترة، فإلى جانب تعلمه في المدرسة الفرنسية، تلقى دروساً في العربية على يد " الشيخ عبد المجيد" رفقة زميله من تبسة نجح مثله في المنحة، كما تأثر بالمدرسة الثانوية بالسيد "مارتن Martin" الذي طهمه بالمفاهيم اللغوية، و غرس فيه ملكة التعبير و تذوقه، و حُبب إليه المطالعة. هذا الازدواجية في الدراسة كونا في عقله خطين حددا فيما بعد ميولاته الفكرية. و في هذه المرحلة بدأت أفكاره تتشكل و آفاقه تتسع عن طريق القراءات الكثيرة و المشاهدات الشخصية " كما أن سنتي (1921 . 1922) كانتا مليئتين بأخبار مصطفى كمال أتاتورك، و عصمت إينونو، فكان الشرق قديمه و حديثه يشده إليه ... أما مشاعره الإنمائية فكانت تتجه نحو رجل الإصلاح المعروف الشيخ " عبد الحميد بن باديس " خاصة و قد زرع هذا الميل في نفسه منذ أن كان صغيراً و هو يراه يعبر أو يقف في الشارع يحدث الناس.² كما تميز سلوكه في هذه المرحلة بالميل الى الصمت و إثارة الوحدة على الاجتماع، لكن إحساسه بآلام الواقع الذي فرضته الظروف الاستعمارية كان كبيراً، لذا حين نشبت ثورة الريف اندفع يشارك رفاقه كتابة و لصق النداءات المناوئة للمستعمر المحتل.

و تعد المرحلة التي قضاها مالك بن نبي في الثانوية بقسنطينة أبرز الفترات التي حددت اتجاهه الثقافي و حياته الفكرية ليس بتأثير أستاذه فقط، بل كان يختار لنفسه من القراءات المتنوعة و الكثيرة، ففي هذه الفترة تعرّف على مشاكل العالم الإسلامي من خلال النزر

¹ . _____، المرجع السابق، ص 42 .

² . علي القرشي، التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغير في المجتمع المسلم المعاصر. القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط1،

1989، ص 32 .

اليسير من الكتب و المجالات التي تصل الجزائر. فقرأ صحيفة(النجاح) و غرف من مناهل الأدب العربي، ففي إحدى المقاهي قسنطينة كان الصالون الأدبي يزوده بفرص الإطلاع على شعراء الجاهلية، وشعراء العصر الأموي والعصر العباسي، و كذلك شعراء المدرسة الحديثة كحافظ إبراهيم، و أحمد شوقي، و معروف الرصافي، و إيليا أبو ماضي، و طالع (أم القرى) للكواكبي، و مقدمة ابن خلدون مترجمة الى الفرنسية، و لكن أكثر ما أثر فيه . كما يذكر. كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا، و (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده¹ يقول: "أنا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري منذ تلك الفترة، كانت هذه الكتب تصحح مزاجي، و حالت دون انجرافي في الرومنطيقية، لقد أصبت هكذا عددا لا بأس به من المؤثرات الموجهة و المعدلة أو المحركة"².

و قد اتجه مالك بن نبي بعد ذلك الى دراسة الكثير من الأعمال العلمية و الأدبية و المتمثلة في (الإسلام بين الحوت و الدب) لأوحيين يونغ، و (في ظلال الإسلام الدافئة) لإيزابيل هارت، و جريدة (الإنسانية) التي يصدرها الحزب الشيوعي، و قرأ كتاب (كيف تفكر) للمصلح التربوي جون ديوي، و مجلة الأخبار الأدبية و مجلة كونفيرانسيا التي اكتشف فيها الكاتب الهندي (رابندرانت طاغور)، و عرف خلالها (رابليه) و (فيكتور هيجو) و في الحياة العامة المتعلقة بالشأن الجزائري الداخلي فقد بدأ الحديث يدور بين الطلبة عن الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر و جريدة (الإقدام) التي يدافع فيها عن الشعب الجزائري و الفلاح الجزائري، فطلاب المدرسة الذين يعدون أنفسهم لدراسة القضاء الشرعي يشعرون بأنهم حملة رسالة قومية، و مع قراءته الواسعة في هذه الفترة المبكرة من حياته كان يُسقط كل شيء يقرؤه أو يسمعه على أحداث بلده، و على مستقبل الإسلام" كانت روعي قوة منبهة تقود كل ما يقع أمام بصري الى اهتمام مركزي، و كان الإسلام هو ذلك الاهتمام"³.

و الشيء الجديد الذي لاحظته الطالب هو البداية الواعية للحركة الإصلاحية و المتمثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي يقودها الشيخ عبد الحميد بن باديس، و محمد البشير الإبراهيمي و الشيخ العربي التبسي، و الطيب العقبي، و مبارك الميلّي و محمد أمين

1 . محمد العبد، مالك بن نبي مفكر اجتماعي و رائد إصلاحي، ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، ص، ص:25.26 .

2 . _____، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص.66.

3 . _____، المرجع سابق، ص.66.

العمودي. و بدأت الناس في قسنطينة يلتفون حول هذه الحركة التغييرية الجديدة، و يتركون أماكن اللهو والمقاهي و يكوّنون صداقات بينهم على أساس الفكرة و الأخوة." كان منظر الشيخ (بن باديس) عند مروره أمام مقهى بن يمينة في طريقة الى مكتبه قد بدأ يثير اهتمامنا. فكثير من أفكارنا و آرائنا تتصل بشخصيته أكثر من اتصالها بالشيخ (بن موهوب) الذي كان أول من زرعها في نفوسنا. ربما كان ذلك لأن الشيخ بن باديس قد بدأ في ناظرينا خارج الإطار الاستعماري".¹

و رغم هذا الإعجاب بالشيخ عبد الحميد بن باديس، لكن مالك بن نبي لم يتصل به، و لم يتلمذ على يديه "لم أكن حتى ذلك حين قد جالسته في حديث. و إذا عدت الى أعماق نفسي ففي ذلك العصر كان في نظري لا يمثل الإصلاح، إنما يمثله الشيخ العقبي. و لم أعترف بخطئي حول هذه النقطة إلا بعد ربع قرن من الزمان. حينما تفحصت شعوري حول الموضوع. حينئذ تبين لي أن السبب يكمن في مجموعة من الأحكام الاجتماعية المسبقة و في تنشئة غير كافية في الروح الإسلامي. فأحكامي المسبقة ربما أورتنتنيها طفولتي في عائلة فقيرة في قسنطينة، و زرعت لا شعوريا في نفسي نوعا من الغيرة و الحسد حيال العائلات الكبيرة، و التي كان الشيخ العربي ينتمي الى واحدة منها. أما الخطأ في حكمي فمرده على ما أعتقد أثر البيئة التبسية في نفسي. فتبسة بسبب حياتها الخشنة منحنتي نوعا من التعالي على كل شكل من الحياة المرفهة".²

و من المظاهر التي عكرت عليه زما ليس بالقصير والتي لاحظها في مدينة قسنطينة هي تحسن أوضاع الجالية اليهودية بسبب دعم السياسة الكولونيالية لهم من خلال قانون كريميو الذي أعطاهم الجنسية الفرنسية و حقوق المواطن الفرنسي، كما زاد عدد الأوروبيين في مدينة (تبسة) التي سلمت في البداية من هذا الوجود لقربها من البادية و لأنّ تربتها لا تستهوي المستعمر الأوروبي. و يصور مالك مأساة تبسة تصويرا دقيقا: "و كنت أحس بالمأساة بصورة قوية في تبسة أيضا و خاصة في زيارتي الأخيرة في عطلة الصيف، حينما رأيت آخر واحد من عائلة (بن شريف) العريقة يغادر دار العائلة القديم في ساحة(الكنيسة)،

1 . _____ ، المرجع السابق، ص.131.

2 . _____ ، المرجع السابق، ص.131.

ليستأجر غرفة صغيرة في حي المسلخ القذر، يطل بابها على الشارع فيتخذ قسما منها لتعليم القرآن لأطفال الحي و آخر لسكنه".¹

و استمر في الانتساب الى المدرسة الإكمالية بقسنطينة الى أن تخرج منها كعون إداري و ذلك العام 1925 م. فقرر نتيجة لظروفه المادية الصعبة الهجرة لأول مرة الى فرنسا رفقة صديقه (قاواو) بعد أن وصل إليها زملاؤه من قبل، و التحقوا بوظائف كتابية في مختلف المؤسسات التجارية، فقرر مالك بن نبي أن يبيع أدوات النوم التي يملكها و لو بسعر منخفض، من اجل أن يفتح بابا له في فرنسا بعد أن كانت الأبواب موصدة. فكان تفكيره الأساسي أن يجعل من باريس معبرا لاكتشاف عالم آخر، فكانت عوالم الاكتشاف و المغامرة تبعث في نفسه الحماسة و تفتح له آفاق التطلع الى غد أفضل، كان عمره آنذاك عشرون سنة حين رأى البحر لأول مرة و هو يطل على (سكيكدة Philippeville) ذلك الصباح، فيقول مالك عن هذه الرحلة: " و هاهو البحر الذي حمل على أمواجه الغزاة و المغامرين يحملنا أنا و صديقي (قاواو) مثقلين بما يعمر أنفسنا من آمال و أوهام و قلق. و كلما ابتعدت الشواطئ الجزائرية عن أعيننا فقدنا شيئا من ذلك الاطمئنان و تلك الثقة، و لكن حماستنا للسفر و رغبتنا فيه كانت أقوى من تلك الطوارئ".²

و عند وصوله الى "مارسيليا" و رؤيته رثيا العين حجم الفقر و البؤس الذي يعيشه الجزائريين و أكتشف من خلاله الصورة الأخرى للاستعمار، و من ثم اتجه الى مدينة" ليون " بعد أن باع معطفه ليوفر أجرة القطار. و في هذه المدينة بعد أن وصلها مع صديقه " قاواو"، و تعرف على بعض الجزائريين الذين يحملون هموم الوطن و غربة الواقع، في شوارع " لورت Lorette " و مقاهي الجزائريين التي تعج بلاعبي أحجار الديرينو و في صبيحة اليوم التالي . يقول ابن نبي: " كنا أنا و الوالد في السابعة أمام باب مصنع الإسمنت. كان رئيس الورشة شهما، في سيماه جمال العامل الفرنسي، فسرعان ما أقنعته بأن ولدا لا يستطيع العيش بدون عمل لا ينبغي أن نتركه بحجة أنه دون السن المطلوب، و هكذا أصبح لرفيقنا عمل مثلنا لكنه أقل وطأة. بيد أن رئيس الورشة قد وضعنا أنا و قاواو في مركز نغبط عليه

1. _____، المرجع السابق، ص 113.

2. _____، المرجع السابق، ص 142.

نسبياً، كان عملنا يقضي بأن ننقل أكياس التربة متسلقين سقالة إلى كوة تعلو أربعة أمتار أو خمسة، فكان عليّ أن أحفظ توازني، أنا أحمل على ظهري كيساً يزن خمسين كيلوغراماً".¹

فتجشم مالك بن نبي عناء التعب في النهار، و عقصات البق ليلاً في الفندق الحقير، و من ثم بدأ يفكر في المغادرة الى باريس بعد أن عرف بابن بلدته "تبسة" العامل في مصانع نيكولا Nicolas للجنة الذي التحق به لوحده بعد أن بعث له تذكرة سفر واحدة. و عمل معه في نفس المصنع، لقد كان العمل مضنياً و شاقاً، و كانت نفسه الأبية ترفض هذا الوضع و كان يردد في نفسه: متى أقبل على المطهر؟ و لم يتجاوز عمله في هذا المصنع أسبوعاً واحداً حتى بعث ببناء الاستغاثة إلى أسرته في الجزائر لكي يبعثوا له دراهم العودة ليقل راجعاً، فيحدثنا مالك بن نبي قائلاً: لم أعرف من باريس غير الأرصفة الفارغة الممتلئة من معمل (نيكولا)، و من بعيد كنت أرى برج (أيفل) و عليه اسم (سيتروين) بحروف مضيئة، حتى أنني لم أزر جامع باريس الذي دشّن حديثاً، و لكي أستطيع أن أحدث أصدقائي في تبسة عن باريس فقد عزمت ليلة رحيلي عنها أن أذهب الى ساحة (الأوبرا) بالمترو. عدت الى الجزائر حاملاً معي السؤال: ما العمل؟ ذلك السؤال دفعني الى المغامرة البائسة عشتها مع (قاواو)."²

و ما أن عاد مالك الى مدينته من فرنسا حتى استقبلته عائلته استقبال الولد المتفوق، و بدأت الحياة تدب من جديد في عروقه، استعاد الذكريات الماضية و مقهى (باهي) مع أصدقائه. و في تلك الأثناء بدأت ثورة الريف المغربي في قمة اشتدادها في الصحافة و النفوس بعد أن أطلق نداء الحرب من منابر تبسة العام 1925م، و كان مالك قد كتب بيان و علقه على باب الجامع الذي كان دويه عنيفا في ضمير الإدارة الفرنسية التي استجوبت كل طلبة العلم، أنصاف العلماء في المدينة.

كان مالك مازال متردداً بين مطامحه الكبيرة و القديمة المكتنزة في نفسه منذ الصغر و التي يحدث بها نفسه بين الفينة و الأخرى و المتمثلة في (تجارة كبرى) في السودان أو (مزرعة في أستراليا) و بين قبول عن طيب خاطر وظيفة عدل في المحكمة الشرعية التي تشترط في العادة سن الثانية و العشرون، و التي وقف له النائب العام بالمرصاد فيها. و كان في تلك

1 . _____، المرجع السابق ، ، ص15.

2 . _____، المرجع السابق، ص156.

الأيام قد سيطرة الجالية اليهودية على واقع الحياة في مدينة تبسة من خلال وكالات السيارات، و الشركات التجارية الكبرى لتصدير الحبوب و الصوف و كذلك البنوك، بالإضافة الى المقاهي الكبرى التي كانت بيد الفرنسيين. حتى أن مالك بن نبي في جلساته الخاصة مع أصدقائه يصرح: " أنه عصر المرأة و اليهود و الدولار... ربما في ذلك الوقت غير انطباع لكنني أعلم اليوم أنه كان عنصرا أساسيا في توجيه فكري الذي أمسك و ربما بصورة غامضة بمشكلة الحضارة تتدرج تحتها سائر هذه الظواهر. أنا اليوم أرى المرأة و اليهود و الدولار يشكلون الأقاليم الثلاثة للقرن العشرين".¹

كان مالك منزعا من هذا الواقع المرير الذي فرض عليه طقوسه و نواميسه، كان من جهة أقرانه من الفرنسيين و اليهود و الذين هم أقل منه سنا قد وجدوا لأنفسهم مكانا في السوق، و من جهة أخرى بدأ اليأس يدب إلى نفسه شيئا فشيئا من خلال الأيام المتشابهة التي جعلته يقضيها في البيت أحيانا، وعند (باهي) يستمع الى الأقاويص و الأسطوانات الشرقية و في الحمام عباس لبعض الألعاب التقليدية. و سرعان ما لجلجت في ذهنه فكرة و هو أن يتطوع بدون أجر مع زميل له يشغل وظيفة عدل في محكمة تبسة حتى ينتشل نفسه من العدم و البطالة، و يستفيد من الخبرة المهنية، فقد أصبح يرافق أعضاء المحكمة . بعد أن تم اعتماده معاونا متطوعا . من أجل تنفيذ الأحكام في الريف التبسي. و هنا بدأت احتكاكات مالك بن نبي بعمق المجتمع و بالبساطة التي صقلتها القرون في حياة الفلاح الجزائري التي اكتسبت نمطها عبر القرون سالمة من الاضطراب و لم تفقد قيمتها الاجتماعية في أي ظرف من الظروف. فكان الفلاحون يلحون على(سي الجودي) باش عدل محكمة تبسة و مالك بن نبي باحتساء القهوة أو تناول طعام الغذاء و الحديث عن أسعار الغنم قبل الشروع في العمل الإداري و تنفيذ الأحكام يقول مالك معلقا عن موقف الفلاح الجزائري الذي يفرق بين الجانب الإنساني و ما هو متعلق بالجانب العملي لأعضاء المحكمة: " الرجل لم يغير لهجته و تعامله معنا. و إنني الآن أعلم أن المسلم قد احتفظ بقيمه في سائر مدن الحياة. و أعلم أنه حتى في ظروف حياة الفلاح الخشنة. فالإسلام قد صقل الإنسان في شروط أقرب ما تكون الى أخلاق الحضارة".²

1 . _____ ، مذكرات شاهد القرن، ص 163 .

2 . _____ ، المرجع السابق، ص.ص. 160.162 .

و في تلك الأثناء أنشئ أول نادي في مدينة تبسة يتحلق رواده على (الشيخ العربي التبسي) للاعتراف من معين العلم، وكان مالك يراقب الوضع من بعيد فكان يرى أن حلقات الرقص شهدت فراغا كبيرا، و الحانات فقدت روادها و متعاطيها. و ظهر أن روحا جديدة تسري في عروق المواطنين بعد أن شرعوا في بناء مسجد غير خاضع لرقابة الإدارة " لقد بدأت الروح الاجتماعية تتجلى في تبسة. و هاهو المجتمع الجزائري الجديد قد ولد . فالمجتمع ليس كلمة تقال بل هو حقيقة ذات خصائص محددة، بها يكون المجتمع أو لا يكون. و أدياء الثقافة الذين أطلقهم الاستعمار في السوق الجزائرية و الذين احتكروا بفضلهم وسائل التعبير قد شوّهوا الأفكار الأكثر بداهة و بساطة. فانقلت البلاد من قيادة (المقدم) الحاكم في الزاوية، و القبيلة الخاضعة لسلطة الحاكم عبر (القائد) إلى جمهور من الناخبين لا اتجاه لهم و لا لون، يقودهم الزعيم، و إلى (عمال منظمين)".¹

كان السؤال ما العمل؟ يفرض على مالك نفسه باستمرار، فقد كان يرسل النيابة العامة من أجل تقلد منصب إداري الى أن جاءه الجواب أخيرا ليلتحق بمحكمة " آفلو " سنة 1928 بصفته عدلا، و هناك وجد مالك بن نبي الجزائر المفقودة، و الجزائر البكر، بعيدا عن أيدي الاستعمار، في آفلو لم يكن ثمة فنادق و لا مطاعم، كان منزل (الشيخ بن عزوز) هو الفندق، و قاعة الضيوف هي قاعة الطعام، و هكذا أصبح المعاون القضائي واحدا من أعضاء مائدة الشيخ بن عزوز" كانت آفلو بالنسبة لي مدرسة، تعلّمت فيها أن أدرك فضائل الشعب الجزائري، فقد كانت فضائله بالتأكيد في سائر أنحاء الجزائر قبل أن يفسد منها الاستعمار، كنت أجد نفسي كأنني في متحف حفظت فيه تلك الفضائل التي ضاعت في ناحية أخرى بسبب الاتصال المهين بالحدث الاستعماري".²

و من الشرائع التي تكلم عنها مالك بن نبي و لاحظها : الكرم الذي ليس له حدود ؛ فحين تمر رحلة من رحلات المحكمة، و تتفادى مضربا من مضارب هؤلاء القوم، كان صاحب المضرب يغضب غضبا شديدا، و يصر على النزول عنده، و تقديم الغذاء، وفيها رأى رجل الفطرة الذي سلم من أوضاع المدينة و عقدها وبذاءتها، و رأى صاحب العجينة الإنسانية

1 . _____ ، المرجع السابق، ص. 169

2 . _____ ، المرجع السابق، ص: 174.

الطبية التي احتوت بعض السذاجة و قدرا عظيما من الفضائل.¹ ففي دعاوي المحاكم " يستطيع فريق أن يقدم عشرة شهود زورا بالمجان، و شهود كلّ الطرفين يحلفان أنهما يقولان الحقيقة، أما في آفلو فقد لاحظت الرجل يرفض غالبا أن يحلف و لو كان ذلك لدعم حقه الواضح".²

و قد تنبه مالك بن نبي في مدينة آفلو الى شي خطير: ماذا لو جاء المستعمر ليحتل الأرض؟ ففي نظر المستعمر و نظر القانون الفرنسي فإنّ هذه الأرض ليس ملكا لأحد. كان مالك ينصح السكان أن يحرقوا أكبر مساحة ممكنة من هذه الأرض لتكون ملكا لأصحابها، و أن يمارسوا حقهم الاجتماعي عليها.

و في مارس 1928 حن مالك بن نبي الى الأسطوانة المصرية و مقهى (باهي) في مدينة تبسة، فتوقف في مدينة قسنطينة و أراد من خلاها أن يلاقي الشيخ عبد الحميد بن باديس و يتناقش معه حول ظروف البلاد ناحية آفلو و مشكلة العقارات الأرضية في تلك المناطق لكن الشيخ لم يدعه للجلوس فقد كان متملصا و مهذبا ربما لأول مرة يرى هذا الشاب اليافع ذا الناظرتين و السروال و الحزامين و الحاسر الرأس، خرج من عنده و في نفسه حرج متجها الى تبسة التي وجدها تغلي بالحراك الاجتماعي الحاصل، فقد وجد المسجد و المدرسة قد بُنّيا من تبرعات المجتمع، كل حسب قدرته، الكثير من أفراد المجتمع قد غير من أفكاره فيقول مالك بن نبي عن هذا التحول: " امرأة عجوز تبرعت بديكها ... المقدم الزاوية الوقور مقدم الطريقة القادرية أقلل الزاوية... و القناص العجوز أضحي إصلاحيا و مقهاه أضحي مركزا للدعاية الإصلاحية... و أمي أصبحت إصلاحية".³

ما إن قاربت عطلة مالك بن نبي على النهاية، حتى علم أن وظيفة عدل فارغة في شلغوم العيد (Château dun) التي انتقل إليها و هي مركزا للمستعمرين و القانون الاستعماري، و التي لم يدم فيها طويلا بسبب سلوك الزملاء في المحكمة، و كانت قضية الكاتب بمحكمة الصلح الكورسيكي الأصل القطرة التي أفاضت الكأس الذي كان مالكا لا يحييه لأنه هو الآخر لا يرد التحية فقدم مالك استقالته و انتهت مرحلة من حياته .

1 . محمد العبد، مرجع سابق، ص:31.

2 . المرجع سابق، ص. ص، 174.175.

3 . المرجع السابق، ص. ص : 174.175.

1 . 2 : مالك بن نبي في باريس (1930. 1956):

غادر مالك بن نبي الى باريس يحمل بين جانبيه آلام وآمال، آلام شعب بكامله يحمل على أعطافه عبء التيارات الإقطاعية السائدة في أوربا المتغذية بروح الرأسمالية المتوحشة، والخائنة للأسس الموضوعية و الإنسانية لفلسفة التتوير التي بررت بها احتلال الجزائر من جهة، ومن جهة أخرى يحمل في فكره آمال شاب تحدوه الإرادة لمواصلة تعليمه و تكوينه، في محاولة لتغيير الواقع انطلاقا من تغيير النفس .

كانت هذه المرحلة من أشد المراحل تأثيرا في البنى النفسية و التربوية و الفكرية في شخصية مالك بن نبي و أعمقها أثرا في تنمية بعض الميول و المفاهيم التي ألفت بظلالها على نمط تفكيره. وقد عاش خلال هذه الفترة أطوارا من التجارب المختلفة قاسمها المشترك التحصيل العلمي المتعدد الحقول مع بعض الإسهامات في أنشطة علمية و ثقافية.¹ في سبتمبر وصل مرة ثانية مالك بن نبي إلى باريس، و وجد نفسه وجها لوجه مع منتجات الحضارة الغربية، و لأنه أخذ حظا من الثقافة الإسلامية و الغربية، بل يقف مالكا موقف المشدوه و المهزوم منها بل راح يتأمل حتى يبني مفاهيمه النقدية الخاصة لتفكيك إيجابياتها و سلبياتها بعيدا عن عوالم الاغتراب و الذوبان فيها يقول: " لم تكن أفكارني اتسقت بعد مع وضعي الجديد، منذ نزلت في صبيحة يوم من شهر أيلول (سبتمبر) عام 1930م بمحطة ليون بباريس، ولم يكن الأمور قد تقرررت نهائيا في نفسي منذ فارقت منذ أسبوع أهلي، و ودّعت الأقران بتبسة، و إنما الشيء الوحيد الذي قررته هو أنني لا أعود هذه المرة إلى الورا مثلما عدت المرة الأخيرة، بعد النكسة التي أصابنتني مع رفيقي . قاواو . في صيف 1952م عزمتم ألا أترجع، و هذا العزم هو الشيء الوحيد الذي كان واضحا لدي".²

فكان أول ما زار مالك بن نبي في فرنسا متحف الفنون و الصناعات بـ " سان دونيس" فانبهر بروائع المتحف و ما تحويه من مبتكرات العلم و التكنولوجيا الحديثة، و كان لهذه الزيارات الأثر الكبير في تنمية تفكيره في النواحي العلمية و الصناعية، حيث رأى الجانب التقني للحضارة، و رأى جانب الفعالية عند الإنسان الفرنسي و الغربي على العموم" فالفرنسي ما أن يخرج من مكتبته حتى يصير في بيته نجارا وحدادا وكهربائيا، ولا ريب

¹ . زكي الميلاد، بن نبي ومشكلات الحضارة، مرجع سابق، ص.42.

² . المرجع سابق، ص.203.

أن الأطفال ينشئون في هذا الاتجاه، و في الجزائر لا يجد رجل الريف في بيته مطرقة و لا مسمار ليصلح محراثه، بينما يُبتلى رجلُ المدينة بلعب (الدومينو).¹ و حاول في هذه السنة الالتحاق بـ" معهد الدراسات الشرقية " للتخصص في مهنة المحاماة: لكنه لم يوفق لاعتبارات سياسية قائمة على العنصرية يقول في وصف الحادثة و وقعها على نفسه: لقد طلبني مدير المعهد، و في هدوء مكتبه الواسع شرع يشعرنني بعدم الجدوى من الإصرار على الدخول الى معهده، فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: إن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع . بالنسبة لمسلم جزائري . لمقياس علمي و إنما لمقياس سياسي. تقرر إرادة في الخفاء لدى الدوائر التي تسهر على المصالح الاستعمارية العلية "².

و بعد هذه المحاولة أشار عليه بعض الأصدقاء . رينيه و هو مصور زيتي . بالتسجيل في مدرسة اللاسلكي، و هكذا غير مالك بن نبي وجهته العلمية من المحاماة الى الدراسة العلمية . العملية، فقد استطاع أن يلج الى الحضارة الغربية من بابها الواسع، وانكب عليها يكرع من معينها ليروي سغب الظامئ بلهفة و شوق، ثم اتجه بعد ذلك الى دراسة الكهرباء و الميكانيكا باقتراح من أحد أساتذته .إلى جانب ذلك كان مالك بن نبي يوسع من دراسته العلمية فكان يتردد على معهد ليلي ملحق بمتحف الفنون و الصناعات، يدرس فيه الكيمياء التطبيقية، و كان إحساسه في هذه الفترة كما يقول:"كنت أريد أن أفهم كل شيء: الجبر و الهندسة و الكهرباء و الطبيعة و الميكانيكا ... انطلقت يحركني إيمان الوارد على دين جديد، فكانت هذه الفترة الدراسية بالنسبة لي لا تقف عند حدود تهيئتي لدخول مدرسة اللاسلكي، بل غيرت جذريا اتجاهي الفكري... و فتحت لي باب عالم جديد يخضع فيه كل شيء الى المقياس الدقيق للكلم و الكيف، و يتسم فيه فيه الفرد بميزات الضبط و الملاحظة"³.

1 . _____ ، المرجع السابق، ص.222.

2 . _____ ، المرجع السابق، ص. 218.

3 . _____ ، المرجع السابق، ص، 219

لم تكن شخصية مالك بن نبي قد نضجت في هذه الفترة، و أخذت أبعادها الحقيقية و الكبيرة، مرحلة التأمل في الحضارة الغربية و لقاء الاتجاهات القادمة من المشرق و مرحلة العمل و التأليف و المحاورات. و من المحاور البارزة في هذه الفترة :

1 . 2 . 1: في الحي اللاتيني: تعرّف مالك بن نبي على المحامي صالح بن يوسف و الهادي نويرة و ثامر و سليمان بن سليمان من تونس، محمد الفاسي و بلفريج من المغرب، و فريد زين العابدين من سوريا و تابع نشاط الأمير شكيب أرسلان في صحيفته التي تصدر بالفرنسية من سويسرا (الأمة العربية)، و قد انخرط ابن نبي في مؤيدي الوحدة المغاربية، و الاتجاه الإصلاحية الذي تبناه (ابن باديس). كان هذا الحي يحتدم بالصراع بين التيارات الوافدة إليه من دول العالم الثالث، و كالعادة فقد زرعت الإدارة الفرنسية في أواسط هذه الحركات عيون تراقبها عن كثب، لكن مالك بن نبي قد أخذ موقف نقدي سلبي ضدها " لا أدري إن لاحظت أن النخبة الإسلامية قد استولى عليها حب الظهور في المراتب السياسية، فقد أهملت المشكلات الرئيسية التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم، بينما لو كان لهذه النخبة نصيب من الإدراك و النزاهة لحت تلك المشكلات منذ ثلاثين سنة " ¹.

و في هذا الحي سوف يلتقي مالك بن نبي بـ " حمودة بن ساعي " الذي سوف يكون الأثر الكبير في توجيه أفكاره، بعد أن وجد نفسيهما في رواق واحد و في خندق واحد و في اتجاه واحد هو أن الإسلام هو المركب الوحيد الذي ينهض بالشعوب الإسلامية المتخلفة و دور الطالب فيها. و كان حمودة بن ساعي متخصص في الدراسات الفلسفية، و علم الاجتماع و التاريخ و كان ذو ثقافة واسعة و متنوعة، وكان له الفضل في جعل مالك بن نبي كاتباً متخصصاً في الشؤون الإسلامية.

و في تلك الفترة و هو يذرع شوارع باريس التفت الى لافتة كان تحمل اسم (الوحدة المسيحية لشباب الباريسيين)، و هو معهد تُدار شؤونه طبقاً لضرورات شباب يدرس بعيداً عن أهله، و بهذا الدافع انتسب لهذا المعهد و الذي كان له قسط من التأثير على تفكيره و اهتماماته.

¹ . المرجع السابق، ص. 272.

1. 2. 2 : زوجته خديجة : كما في نفس الفترة عام 1931م تعرّف على فتاة فرنسية أصبحت في ما بعد زوجته و سميت بـ " خديجة " التي كان لها دورا كبير في تهيئة بعض الأمور المادية ليتفرغ للدراسة و المناقشات الطويلة مع ابن ساعي، و يصف بن نبي هذه السيدة بأنها : مهندس تجميل في ترتيب المنزل، و نجار و غراس، و يحكم أن تحوّل منزلا متواضعا الى بيت أنيق، و تحوّل غرفة متروكة تحت سقف عمارة إلى تحفة تفاجئ الزائر " إنني أذكر هذه التفاصيل لأنني أعدها دالة التطور النفسي الذي سيجعلني أشد الناس نفورا لكل ما يسمى لذوق الجمال، و لأنها تفسر ثورتي على بعض جوانب تخلفنا التي تصبح موضوع السخرية في بعض المجالات".¹

1. 2. 3: عودته الى الجزائر: في العام 1932م زار مالك بن نبي الجزائر التي لاحظ فيها تغيرا كبيرا على مستوى الوعي و الفهم والأفراد والجماعات، وكانت هذه الزيارة مغايرة إليه مقارنة بالزيارات الأخرى، فكان قد اصطحب معه زوجته "خديجة" لأول مرة الى الجزائر التي ازداد إعجابا بها لما رأى الناس بعد تتكلم العربية بطلاقة و من أناس يعملون حمالين بسطاء في الميناء، و ينتمون الى " نادي الترقى " الذي ينشط تحت إدارة الشيخ "الطيب العقبي"، و في هذا يقول مالك بن نبي: "و لم تكن ظاهرة التغير التي شاهدها على وجه رجل الشارع و في هيئته و كلامه، و في هذه اللافتة المكتوب عليها بالخط العريض (نادي الترقى)، لم تكن تعني إلا شيئا واحدا هو أن موجة الإصلاح قد وصلت إلى هنا، و أيقنت أن هذا التغير البسيط سنتلوه تغيرات جذرية لا محالة و لو لم أكن بعد أتصورها، و لم تكن تتصورها في ذلك الحين الإدارة الاستعمارية كما ثبت فعلا ذلك بعد عشرين سنة".² و تيقن مالك بعدها أن موجة الإصلاح قد انتقلت من قسنطينة الى الجزائر العاصمة و منها الى كافة ربوع الوطن، و أن جهد الإمام عبد الحميد بن باديس و جمعية العلماء المسلمين قد بدأ يأتي ثماره بعد أن لاحظ أن أغلب الحضور في درس الشيخ الطيب العقبي هم عمال ميناء و صغار صيادي السمك، بينما أبناؤهم يدخلون زرافات الى (مدرسة البنين).

1 . _____ ، المرجع السابق، ص. 228.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 256.

و كان ابن نبي في هذه الأثناء يبحث عن أسرة جزائرية مسلمة لكي يدمج فيها زوجته " خديجة " لتألف حياة الجزائريين و تأخذ على سلوكهم و طباعهم و لتندمج سريعا في عائلته حين يعود الى تبسة، و استعان بالحمال للوصول الى الشيخ الطيب العقبي بعد أن ترك زوجته بالفندق، و كان له ذلك في أسرة كريمة في ناحية "القبة " .

عاد بعد ذلك مالك الى تبسة لزيارة الأهل و الأقارب و في نفسه لوعة لرؤية أمه التي أخفى عليها زواجه من "خديجة "، فوجد الكثير من التغيير الذي طرأ على المدينة الصغيرة، فقد تم بناء المدرسة الإصلاحية والمسجد، بإعانات الأهلي و المقر الجديد لنادي الشبيبة الإسلامية الذي تم نقله الى الميدان الرئيسي. و كان مالكا قد سافر رفقة أمه الى تونس في رحلة دامت واحد و عشرون يوما للطبابة الى مدينة " قابس " و بالضبط في "عين أقطر" أين تتوافد عليه العائلات التونسية و الجزائرية على حد سواء، و كان مالك بن نبي أينما حل يأخذ معه كتبه للمراجعة و الدراسة.

عاد مالك الى العاصمة فوجد خديجة قد ألفت الحياة في الأسر المسلمة، كما وجد نادي الترقى نظم محاضرة لصديقه "حمودة بن ساعي" الموسومة بـ (السياسة و القرآن) التي شكك الشيخ الطيب العقبي في تحريرها من طرفه و لا من بناء أفكاره. و التي رأى مالك بن نبي أنها حالة مرضية تعتري حاملي الثقافة، و ظاهرة عامة تصيب أي مجتمع فقد حضارته يفقد بذلك كل أصالة في التفكير، أو في السلوك أمام أفكار الآخرين.

1. 2 . 4 : صيف 1934: و في هذا الصيف فُجع مالك بن نبي بوفاة والدته قبل أن يتخرج بسنة واحدة، و بعد أن أتمّ دراسته تخرّج في العام (1935) مهندسا كهربائيا، و قد راودته فكرة السفر الى بلاد الشرق، وبالذات التي كانت تعاصر حركات إصلاحية كالحجاز، و التي ترسّخت فيها "الحركة الوهابية " أو مصر حين كانت يطمح أن يواصل دراساته في جامعة الأزهر، فكر بالسفر الى أفغانستان أو إيطاليا أو ألبانيا، لكن محاولاته باءت بالفشل، و مع سعيه في التعرف و الالتقاء بمختلف البعثات التي كانت تقوم بزيارات عمل لفرنسا. و في قرارة نفسه كان يشعر بضرورة أعمال تساعد على تحسين أوضاع الجزائريين المقيمين في فرنسا و بالذات العمال منهم، فكانت له أكثر من مبادرة في هذا الميدان.¹

و في هذه الفترة اندمج مالك بن نبي في العمل السياسي بعد أن ظهر حزب " نجم شمال إفريقيا " بقيادة الزعيم (مصالي الحاج)، و قد حضر مالك اجتماعات الزعيم و لم يحضر

¹ - زكي الميلاد، بن نبي ومشكلات الحضارة، مرجع سابق، ص45.

زميله "حمودة بن ساعي" بسبب تحفظه إزاء كل نشاط سياسي منظم، و الغريب في الأمر أن مالك يهاجم في كتاباته الدجل السياسي و خاصة في الجزائر، حيث تحوّلت الانتخابات في الجزائر الى (زرّة) كما يعبر مالك، يحوم فيها الأتباع حول الزعيم، كما يحول المریدون حول الشيخ الصوفي، بعد أن نجح الإصلاح بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس في توعية الأمة من الأمراض، و أظن أن ابن نبي كان يحب العمل؛ فإذا لم يجد فائدة تركه، و هذا يعارض أفكاره النظرية، و هو ينتقد القيادات السياسية التي برزت على الساحة مثل: (إتحاد النواب) التي يرأسها الدكتور (صالح بن جلول) و كان مالك بن نبي يخشى أن تسلم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الى فئة حاملي الشهادات الجامعية مثل (بن جلول).

و في العام (1936م) عقد بالجزائر العاصمة المؤتمر الجزائري الإسلامي، و قد شاركت فيه جميع العلماء، بل كانت هي المشجع و المؤسس لهذا المؤتمر، و قد ذهب وفد من المؤتمر إلى باريس للمطالبة بحقوق الجزائريين، و كان من أعضاء الوفد الشيخ عبد الحميد بن باديس، و محمد البشير الإبراهيمي و الشيخ الطيب العقبي كمثلين عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و كان في الوفد السياسيون الوطنيون، و مع أن مالك بن نبي لا يؤيد (مناخ) المطالبة بالحقوق بهذه الطريقة. وقد التقى مع وفد جمعية العلماء، وانتقد هذه المشاركة، فذهب شخصيا الى الفندق الذي نزل فيه الوفد، و واجه كلا من بن باديس و الإبراهيمي و العقبي سائلا إياهم عن جدوى نزولهم في ذلك الفندق الفخم، و عن هدفهم من التفاوض مع المستعمرين.¹ لأن الحل ليس في باريس، و لكن في ضمير الأمة.²

بدأ مالك بعد تخرجه في رحلة البحث عن عمل، فقد راودته فكرة السفر الى ألبانيا و الحجاز و مصر، و هنا يصف مالك نفسية قنصل مصر (فخري باشا) الذي رفض طلبه، و كأنه يصف الكثير موظفين الدول العربية اليوم: " و توسمت في الرجل طبيعة تجعله يتنعم لألم الآخرين، و لا يتراجع في شرّ قدره في نفسه أو أمر بتنفيذه، حتى كان من العبث أن يحاول المرء إيقاظ ضميره".³

إن الخديعة في نظر مالك بن نبي مغروسة في رجال السياسة العرب، و أن الرجل الأوروبي لم يستول على المستعمرات فحسب، بل تعدى ذلك الى سن القوانين لها كيفما شاء، و كوّن طبّا صالحا لكل لمعالجة أمراضها و علما خاصا بها في معاهد (العلوم

1. محمد العبد، مرجع سابق، ص 37.

2. فوزية برون، مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة. ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2010، ص 120.

3. المرجع سابق، ص 352.

الاستعمارية)، وأن هناك شيطان خاص بأبناء المستعمرات يتبع خطواتهم و يتحسس أنفاسهم، دون غيرهم من أبناء الدول والأجناس و المعتقدات الأخرى. و كانت المحاولة الثانية هي السفر الى أفغانستان، حيث استقبله السفير استقبالا حسنا، و لكنه نصحه بالاتصال بالهيئة الفرنسية المختصة بتقديم مثل هذه الطلبات إلى سلطات (كابل)، كان هذا واضحا، و كأنهم لا يأخذون إلا من ترضى عنه السلطات الفرنسية.

خرج ابن نبي من عند السفير يائسا، ثم لجلجت في ذهنه فكرة السفر الى ألبانيا، من أجل معرفة هذا البلد المسلم في فضاء البلقان، و شجعه السفير الألباني في الذهاب للعمل هناك، ونفذ الفكرة في حينها، فذهب الى إيطاليا، و منها الى ميناء (دوراترد) الألباني، و لكنه اكتشف قبل الوصول إليها من مواطن إيطالي عائد من هناك أن البلد يسكنها الفقر و لا توجد فرص عمل، ففقل راجعا الى فرنسا.

و بعد بحث دؤوب وجد أخيرا مالك بن نبي عملا تطوعيا محببا له، و هو تعليم الكبار في السن من العمال الجزائريين في مدينة مرسيليا، وتعليمهم مبادئ اللغة العربية و بعض شؤون الدين الإسلامي، و كان العمال قد أسسوا ناديا باسم (نادي المؤتمر الإسلامي الجزائري)، و في هذا النادي التقى مالك بالعامل الجزائري البسيط الذي ما أن تيسر معه قليلا حتى يلوح في أفقه ذلك الإنسان المحب للغة و دينه و وطنه، كما ينتقد الوجه القبيح للاستعمار الفرنسي .

نجح مالك بن نبي في مهمته التربوية، ثم حاول أن يعطيهم أكثر في تعريفهم بقضيتهم الوطنية من خلال تدريسهم مادة الحساب، ثم الجغرافيا من خلال تعريفهم بالمغرب العربي ثم الجزائر، و في هذا يقول مالك بن نبي: " يتصور القارئ ما يحدث في عقل التلميذ و في نفسه و هو بالأمس أمي، عندما يرى أنه يستطيع الجواب عليه، و يشعر أنه انتصر على حدود عقلية ضيقة ورثها في كل تصوراته في وطن ورث هو الآخر رواسب ثقافية متدهورة، منذ التدهور الحضاري الذي اجتاح البلاد، ومنذ أصبح فيه كل شيء في يد الاستعمار".¹

كان مالك بن نبي و هو يحاول أن يغير من أبعادهم النفسية و مكنوناتهم الثقافية و مكنوناتهم الشخصية يسرع في تكوين هؤلاء الذين أحبهم و أحبوه لأنه يتوقع من أن يمنع

1 . المرجع سابق، ص 410 .

من إتمام مهمته في هذا النادي الصغير، و فعلا أستدعي بعد فترة وجيزة من قبل أكاديمية مرسيليا و سأله المفتش:

. هل تدرس في مركز المؤتمر الجزائري الإسلامي ؟

. نعم سيادة المفتش، إنني أعلم حروف الهجاء لبعض الأميين.

. لكن ليس لديك شهادة تسوّغ لك التدريس، و عليه أراني مضطرا لإيقاف دروسك.

زار مالك بن نبي الجزائر، و كانت نذر الحرب العالمية الثانية قد بدأت بالظهور، و رأى موجه المصالية قد بدأت تغزو الجزائر، و شعر أنه لم يبق له في (تبسة) لا ناقة و لا جمل، فقرر العودة الى فرنسا.

و في 22/09/1939م ودّع الجزائر بهذه العبارة: "يا أرض عقوقا، تطعمين الأجنبي، و تتركين أبناءك للجوع، إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرة " و لم يعد مالك الى الجزائر إلاّ بعد الاستقلال، و إن كان ناقصا كما ستظهره الأيام. بقي مالك بن نبي في فرنسا حتى عام (1956م)، اشتغل فيها بالكتابة و العمل الفكري، و عمل صحفيا في جريدة (لوموند) .

و أصدر باللغة الفرنسية: (الظاهرة القرآنية)، و (شروط النهضة) و (وجهة العالم الإسلامي)، و (الفكرة الأفروآسيوية على ضوء مؤتمر باندونغ).¹

1 . 3 : مالك بن نبي في القاهرة (1956 . 1963م) :

لما كانت تعتمل في فكر مالك بن نبي زيارة الشرق و البلاد العربية الإسلامية منذ أمد طويل و امتزج هذه الفكرة بالطموح التربوي و السياسي بعد أن تعرّف على شخصية الزعيم " جمال عبد الناصر " من خلال مؤتمر باندونغ العام 1955م، الذي أعتبر فيه أن الطريق نحو التحرر و الاستقلال و التخلص من براثن الامبريالية يمر حتما عبر بلورة فكر سياسي تحرري لأقطار العالم الثالث، و تبدأ المرحلة الأولى من التقارب و التعاون بين الدول الإفريقية و الآسيوية.

و قد تأثر مالك بن نبي بفكرة هذا المؤتمر، و أعتبر منهج الحل لمشاكل العالم الثالث، و أنه الطريق الصحيح لأخذ حقوقه المشروعة كاستقلال السياسي و العدل الاجتماعي، و بعد هذا المؤتمر مباشرة شرع في كتابة الأفكار و التصورات التي أستبطنها من وحي

¹ . محمد العبد، مرجع سابق. ص40.

مشروع المؤتمر، و تحمس كثيرا لهذه الأفكار و اعتبرها معالجات فكرية و نفسية لنجاح و تقدم برنامج التعاون بين دول العالم الثالث، و حمل هذا الكتاب عنوان " الفكرة الأفروآسيوية على ضوء مؤتمر باندونغ"، كتبه بالفرنسية و حمله معه الى القاهرة و نشره باللغة العربية.¹ و السبب الآخر الذي دفع مالك بن نبي للهجرة الى أرض كنانة، هو اشتداد سعي الثورة الجزائرية المباركة داخل الوطن و خارجه و وصولها الى مسامع كافة أقطار العالم، و تمركز قيادتها السياسية في القاهرة لما أولته مصر من عناية و رعاية مادية و معنوية للثورة الجزائرية. و في هذه الفترة من حياة مالك بن نبي في القاهرة بدأت مرحلة أخرى من حياته الفكرية تأثيرا و تأثرا، و تطور فيها عطاؤه الفكري بل تجاوز بالامتداد الى العالم العربي لما قام به من زيارات الى بعض العواصم العربية كدمشق و بيروت لمهام ثقافية.

و في القاهرة انتمى مالك بن نبي الى منتدى أصبح يرتاده باستمرار و تعرّف من خلاله على الكثير من الطلبة من داخل مصر و خارجها، و في العام (1959) زار مالك سوريا و لبنان و شارك في العديد من المؤتمرات التي عُقدت في السعودية و الكويت و ليبيا، و تم تعيينه من قبل الحكومة المصرية مستشارا للمؤتمر الإسلامي الذي أطلق عليه فيما بعد (مجمع البحوث الإسلامية)، و في هذه الفترة من حياته في القاهرة انكب مالك بن نبي على ترجمة كتبه الى العربية، و قد أبلى الأستاذين عبد الصبور شاهين و عمر مسقاوي بلاء حسنا في هذا المجال، و في مصر تعلم و أتقن اللغة العربية، و بدأ يكتب بها، و صدرت له بعض الكتب التالية: (مشكلة الثقافة)، (ميلاد مجتمع)، (في مهب المعركة)، (فكرة كومونولث إسلامي)، (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة).

ففي هذه المدينة ساهم مالك بن نبي إعلاميا في قضايا بلاده، فنشر رسالة الى المجتمع الدولي يحسسه بما يجري في بلاده من قتل و تنكيل ببرودة دم من طرف الإمبريالية بعنوان: (النجدة ... الشعب الجزائري يباد)، كما وجّه خطابا مفتوحا الى رئيس الوزراء الفرنسي " غي موليه"، و كان في كل ذلك يتحرك وحده، بل كان يُذاع عنه أنه في صفوف الطلبة أنه انعزل عن الثورة، و هو يرى أن الآخرين لم يكونوا يفهمونه.²

و كانت هذه الفترة ثرية بالنسبة لمفكر كمالك بن نبي ذهب من أجل الاحتكاك بالثقافة العربية الإسلامية، فقد اتصل بالعديد من المفكرين و العلماء المصريين، و حفّت مجالسه

¹ . زكي الميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، مرجع سابق، ص 46.

² . _____، في مهب المعركة، إرهابات الثورة، الطبعة 3، دار الفكر، 1981، ص 104 .

برجال الفكر و الثقافة و العلم، و كان حوارهم مع العديد من هؤلاء يثير اهتمامات و أصداء واسعة، و قد كان من المحققين به في هذه الفترة المهندس أحمد عبده الشرباصي، محمود شاكر، و أحمد حسن الباقوري غيرهم .

و لقد أيقن مالك بن نبي أن الثورة تغير اجتماعي يحمل في ثناياه دلالات تربوية من أجل بناء حضاري، لذا كانت يفكر و يكتب في هذه الفترة و في ذهنه عملية إعادة البناء، و لعل كتاباته (تأملات في المجتمع العربي)، (ميلاد مجتمع)، (حديث في البناء الجديد) تعبيراً صريحاً عن المرحلة و احتياجاتها.

1.4 : مالك بن نبي و العودة إلى الجزائر (1963. 1973م) :

ما أن استقلت الجزائر من استعمار بغيض دام مائة و ثلاثون عاماً (130)، في الخامس من جويلية من العام ألف و تسع مائة و اثنان و ستون (05 جويلية 1962) حتى عاد مالك بن نبي إلى أرض الوطن في العام (1963)، و حين وصوله بعد سنوات طويلة من رحلة العلم و التقصي و البحث، فعين في عدة مناصب حكومية ذات علاقة بالتربية، كمستشاراً عاماً للتعليم العالي، ثم مديراً عاماً لجامعة الجزائر و بعد ذلك مدير التعليم العالي.

ثم ما لبث أن استقال من منصبه سنة 1967، و أسس ندوة فكرية في بيته التي جمع فيها نخبة متميزة من الطلاب و المثقفين. كما أصدر في ذلك الوقت كتاب (أعمال المستشرقين).

و في سبتمبر 1968 عمل مالك بن نبي على فتح أول مسجد بالجامعة المركزية بالجزائر العاصمة، و منه كانت النواة الأولى لإحياء جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و في تلك الأثناء أصدر كتاب (الإسلام و الديمقراطية)، و في ديسمبر من نفس السنة نظم ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي بثانوية عمارة رشيد بالعاصمة.

و في سنة 1970 صدر له الترجمة العربية لكتاب (مذكرات شاهد القرن) و (كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي). و قد كتب مالك بن نبي في هذه الفترة كتب عديدة منها: (آفاق جزائرية)، (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، (المسلم في عالم الاقتصاد) و (مذكرات شاهد القرن) دون أن ننسى إسهاماته في المجلة الأسبوعية (الثورة الإفريقية) و ملتقيات الفكر الإسلامي.

و كانت جل هذه الكتابات تدرج ضمن إطار مرحلة ما بعد الاستقلال و راهنه و مستقبله، و كانت له كتابات و قراءات في المجال الاجتماعي و الثقافي و السياسي و الاقتصادي و السكاني، محلياً و إقليمياً. و كان فكره منصفاً لمعالجة آثار الاستعمار من الناحية الثقافية

و الاقتصادية و السياسية و التنظيمية لكن انشغال الدولة الحديثة بالاستقلال بتثبيت أركان الحكم و محاولة الاستئثار بمغانمها من خلال النزاعات الداخلية بلين أبناء الوطن، لم تهتم الجزائر بالفكر الذي يؤسس لدولة حديثة و قوية تلتنف من حولها جميع الحساسيات المختلفة المشارب و الثقافات، فكان أن أتهم من قبل خصومه انطلاقاً من فكرة "القابلية للاستعمار" التسويغ للاستعمار، كل هذا جعل تأثيره محدوداً، و اكتفى بأن أقام ندوة أسبوعية في منزله يؤمها الشباب الجزائري و المغاربي. و في هذه الفترة زار مالك بن نبي سوريا و لبنان (1971) و أودع وصية في المحكمة الشرعية في طرابلس الشرق بلبنان، و سجلت تحت رقم: 67/275 في 16 ربيع الثاني 1391هـ الموافق لـ 10 حزيران 1971 حمل فيها الأستاذ " عمر مسقاوي " مسؤولية نشر كتبه .

و في مارس من العام (1972م) أدى فريضة الحج، فمرّ بدمشق في مارس 1972م و هو قافلاً من رحلة الحج الأخيرة ليقف على منبرها الفكري و يلقي وصيته الأخيرة، في رابطة الحقوقيين و مسجد المرابط بمحاضرة تحت عنوان (دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين).

في ديسمبر 1972 نظم أول معرض للكتاب الإسلامي في الحي الجامعي بابن عكنون، فكانت أول تظاهرة إسلامية حرة تعرض الإسلام ومفاهيمه ونظمه لسائر الناس من خلال الكتب والمعلقات والمحاضرات والمناقشات. وكذا صدور كتاب "المسلم في عالم الاقتصاد". بداية العام 1973 كانت محاولة حرق مسجد الجامعة المركزية من قبل الشيوعيين. وفي تلك السنة أيضاً صدر كتاب "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين".

و في العام 1973م و أثناء رحلته الى مدينة الأغواط، حيث كان يلقي بعض المحاضرات اشتد به المرض، و كان قد أصيب بمرض البروستاتا سرى الى الدماغ عن طريق العمود الفقري، فسافر من أجل ذلك الى باريس للعلاج فأجريت له عملية جراحية و استرد بعض عافيته نوعاً ما لمدة عشرين يوماً، ثم عاوده المرض و اشتد عليه، فنصححه الطبيب المعالج بأن يعود الى بلاده، فعادوا به الى الجزائر، و بعد ثمانية أيام توفي مالك بن نبي في يوم الأربعاء 31 أكتوبر 1973م.¹

¹ . نورة خالد السعد، التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي . دراسة في بناء نظرية التربية . ط1، الدار السعودية للنشر و التوزيع، 1997، ص 29 .

2 . العوامل المؤثرة في التكوين الفكري لمالك بن نبي:

إن الظروف و العوامل المحيطة بشخصية مالك بن نبي أسهمت في تشكيل شخصيته و تكوين فكره، و صقل آرائه بتجربة الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية، و تتبع جذور و منابع آرائه و مواقفه في الإصلاح و التغيير و التربية، و يمكن تشخيص هذه العوامل كما يلي:

2 . 1 : العوامل التربوية و الاجتماعية: إن التنشئة الاجتماعية القاسية التي مر بها المفكر مالك بن نبي كغيره من أبناء جيله في هذا الوطن الجريح الذي يرزخ تحت نير الظلم و جبروت القوة و الفقر المدقع، ففي محيطه الأسري تلقى " الصديق " أولى تعاليم التربية السليمة و تهيئة ظروف التعليم من قبل أبوين كان هما الوحيد أن يتربى إبنهما الذكر الوحيد تربية إسلامية صالحة، فكانت جدته لأمه "الحاجة زليخة" التي عمّرت نيف و قرن من العمر، فكان أحجيات جدته المدرسة الأولى التي تكون فيها حسه الوطني، و مداركه التاريخية، إذ كانت الحاجة " زوليخة " بارعة في أساليب الحكى فتتقاد إليها مسامعه لتنتسب من معينها حكايات العمل الصالح والطالح، وما يترتب عليها من ثواب و عقاب. و في ذلك يقول مالك بن نبي: " و كانت هذه الأفاصيص الورعة تعمل على تكويني دون أن أدري، فمنها عرفت أن الإحساس في مرتبة عليا من الخلق الإسلامي، وإحدى حكاياتها عن الإحساس جعلتني أنا لابن السادسة أو السابعة من عمري أقوم بعمل ربما كان على ما أعتقد أسمى ما قمت به في حياتي... و في ظهيرة يوم الجمعة أخذت نصيبي من الرفيس، و أخذت أقضمه بنهم و لذة، و فجأة سمعت بباب الدار سائلا: " أعطوني من مال الله " ولم أكن عندها أكلت من فطيرتي أكثر من النصف، و مع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكّرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحساس و ثوابه".¹

فجدته مثلت له التشكل التربوي الأول، فلعبت بذلك المدرسة التي صقلت رؤيته الأولى نحو القيم الأخلاقية، كما أن اختلافه الى الكتابيب و المدرسين لحفظ القرآن الكريم صاغ في تكوينه شعورا دينيا معيناً ربطه بالمعتقد الإسلامي منذ نعومة أظافره، الشيء الذي جعله يرتاد المساجد من صغره بالإضافة أن الوسط الجزائري بيئة محافظة تحرص على أداء الشعائر، و عن هذه الفترة من حياته يقول مالك بن نبي: " إن ضميري تكوّن في تلك المدرسة

¹ . المرجع سابق، ص.ص. 19.11.

على وجه الخصوص، كما كشفت لي عملية استقصاء عن الباطن وأنا ابن الثلاثين من العمر".¹

أما القيم التي استقاها من جده في بداية حياته في ضل الوجود الفرنسي في الجزائر الذين بدعوا يستولون على أراضي المواطنين الجزائريين و إعطائها لليف الأجنبي في ذلك الوقت فهو مقته الدفين و المبكر للاحتلال و العمل على كل ما أوتي من قوة على إحباط دسائسه و كشف أحابيله و مؤامراته، و في ذلك يقول: "كنت في السادسة أو السابعة من عمري، و كان وضع عائلتي قد ساء ماديا، فجدّي لأبي باع كل ما تبقى بحوزته من أملاك العائلة، و هجر الجزائر المستعمرة ليلجأ إلى طرابلس الغرب، فقد هاجر مع الموجة الأولى من الهجرة التي اجتاحت حوالي 1908 مدنا كثيرة كقسنطينة و تلمسان، تعبيرا عن رفض الأهالي معايشة المستعمر. الذي يعد البذرة الأولى لكثير من الأحداث السياسية التي جرت فيما بعد".²

ضف الى ذلك تأثير ما كان يسمعه مالك بن نبي الذي شكّل وجدانه بإحساس مريرة ... فكانت جدّته تحدّثه عن أمها و كيف غادرت مدينتها يوم أن دخلها المستعمر، و كيف اضطر أهلها الى الهجرة الى تونس، وما صاحبها ذلك من ترويع . بالإضافة الى حرص والده على تكوينه تكوينا دينيا إسلاميا، فأمه اضطرت ذات يوم و قد فقد الأب عمله أن تدفع سريرها الخاص لمعلم القرآن الكريم الذي تولى تدريس ابنها بدل المال... و عندما حصل أبوه على وظيفة في تبسة، و بدأت الأوضاع المادية للعائلة تتحسن، ثابر مالك بن نبي على ترده على مدرسته القديمة لتعلم القرآن. و حين نجح في مسابقة الحصول على منحة قصد الاستعداد للدخول الى معهد المعلمين، كان التوجيه الذي أراده أبوه هو أن يصبح عدلا في الشرع الإسلامي.

أما المحيط الاجتماعي الذي عمل على تشكيل نفسية مالك بن نبي في كل من قسنطينة و تبسة، و الذي جعله يحرص على التمسك بالأصالة و المعاصرة في آن واحد، و يؤكد هذا التأثير بقوله: "ففي تبسة كنت أرى الأمور من زاوية الطبيعة، أما في قسنطينة فقد أخذت أرى الأشياء من زاوية المجتمع و الحضارة واضعا في هذه الكلمات محتوى عربيا و أوروبا في آن واحد".³

1 . _____ ، المرجع سابق، ص.ص. 11. 19.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص. 16 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص. 36 .

و ما أن شب عوده في نهاية العشرينيات من القرن الماضي، حتى بدأ ينفتح على العالم الخارجي بفضل حسه السياسي المتقدم، فكانت الأزمة العالمية التي اجتاحت العالم آنذاك، فشكلت تلك المرحلة بكل تداعياتها وعيه المبكر المخترن في صور التغير الاجتماعي، يعي التمزق الاقتصادي و الاجتماعي، الذي بدأت تظهر آثاره بعد الحرب العالمية، حيث البنى الكلاسيكية تتفكك و تحل أخرى جديدة محلها، فتزول الصناعات التقليدية و تظهر مدن بفعل الهجرة و الحراك الاجتماعي و تركيزا لصناعة في المدن و انهيار الأنظمة الزراعية القديمة، وتفشي الفقر و يتخلل ذلك من انعكاسان على البنية الاجتماعية. كان مالك بن نبي يتلمسها و هو يقارن بين شوارع و بيوت السكان الأوروبيين في قسنطينة، و بين دور بعض أقربائه البائسة و أوضاعهم الرثة. كل ذلك كان يبعث في نفسه الألم و الأسى، و يثير في ذهنه التساؤلات الحائرة التي بدأ يتحسس بعض أجوبتها، تحت ردود الأفعال الاجتماعية، و بمتابعة لرواد التغيير، التجديديين و التقليديين، حيث أخذ وعيه يتبلور تحت تكوين هذين الاتجاهين .

2. 1. 1 : بعض ممن تأثر بهم مالك بن نبي ثقافة عربية إسلامية :

2. 1. 1. 1: جدّته الحاجة زوليخة: و هي جدّته لأمه التي كان لها دور كبير في تكوينه التربوي و الاجتماعي و النفسي و السلوكي، و هي امرأة صالحة أخذت بيده طفلا يتوق الى المعرفة، فعرفته على عوالم الخير و حبيبته اليه، و بينت له عواقب الشر في الحياة و القيم المعنوية الإسلامية بما يتناسب و إدراكه و بما يتفق و التربية الصالحة، و لقد أدت دور المربي الأول الذي صاغ رؤيته الأولية نحو القيم الأخلاقية وأيضا من حكايته عن الاستعمار و الاحتلال الأجنبي تجد طريقها في عقل ذلك الطفل و أيضا والدته كان لها تأثير عميق في نفسه وقد حزن حزنا شديدا عليها عند وفاتها .

2. 1. 1. 2: زوجته خديجة: كان لزوجته الفرنسية المسلمة التي تربت على القيم الفرنسية تأثير كبير فقد كان واضحا، و هو يقول عنها أنها أخذت بيده إلى عمق الحضارة الأوروبية معايشة و فكرا و ذوقا و جمالا .. و في مثل هذا المناخ الاجتماعي داخل المنزل و خارجه كان مالك بن نبي يكتسب تطورا نفسيا جعله ينفر من الأشياء التي تخالف الذوق الجمالي و هو يفسر هذا بقوله: " إن الاستعدادات التي تدفعني الى هذا الموقف كانت أصيلة في نفسي و إنما وجودي في فرنسا و معايشتي لزوجتي طورت هذه الاستعدادات الوراثية إلى أفكار اجتماعية خاصة " و يقول في موضع آخر من مؤلفاته يوضح عمق تأثير زوجته

في شخصيته:" مضت زوجتي تتفنن من أجل توفير جميع وسائل الراحة لي داخل البيت حتى من الناحية الفكرية، إذ كانت تأتي على الأشياء التي أشاهدها في عالمنا الجديد بشهادة من يعرفها من داخلها، لقد كنت أرى في تلك الأشياء القيم الحضارية التي أصبحت الشغل الشاغل بالنسبة لي من الناحية النظرية، و لكن زوجتي ألبستها لباسها و صيرتها ملموسة أمامي، لقد أصبحت في الحقيقة أعيش في الورشة المختصة بالجانب التطبيقي لملاحظاتي عن البيئة الجديدة، و بصياغة توقعي واستطلاعي الشخصي تجاهها، سواء من حيث الفكر و السلوك أو من حيث ما أركى من فضائلها و ما أرفض من رذائلها".

2. 1. 1 . 3: الشيخ الطيب العقبي: هو واحد من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان من ألمع قاداتها و ترأس هيئة تحرير كل الصحف التي أنشأتها الجمعية (السنة، الشريعة، الصراط، البصائر) في الثلاثينات، و قارع بشجاعة مختلف صحف الطرقيين(الإخلاص، المعيار، البلاغ الجزائري) التي حضيت بدعم سلطة الاحتلال بعكس صحافة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تعرضت للمصادرة و المضايقات المختلفة. تأثر مالك بن نبي كثيرا بالشيخ الطيب العقبي و فضله في شبابه على الشيخ عبد الحميد بن باديس "كان الشيخ العقبي يبدو في ناظري بدويا بينما يبدو الشيخ ابن باديس بلديا، و حين بدأت فيما بعد معركة الإصلاح و كنت أحد المشاركين فيها، بقيت أحمل في أعماقي شيئا من التحفظ تجاه ابن باديس و بعض الأسى لكون الشيخ العقبي لا يقود تلك الحركة و لا يرأس جمعية العلماء".¹

و قد غير مالك بن نبي رأيه عن الشيخ عبد الحميد بن باديس فيما بعد، التقى مالك بن نبي بالشيخ العقبي و حضر بعض النشاطات الثقافية التي كان ينظمها نادي الترقى الذي يشرف عليه الشيخ الطيب العقبي في الجزائر العاصمة. و انظم مالك بن نبي الى الحركة الإصلاحية الجزائرية لأنها كانت تمثل لديه " الصورة الجزائرية للفكرة الوهابية ".

2. 1. 1 . 4:حمودة بن ساعي*: أثر حمودة بن ساعي تأثيرا عميقا في بناء مالك بن نبي النفسي و الفكري منذ أن تعرّف عليه في فرنسا أثناء تحضير حمودة بن ساعي لشهادة

¹ . _____ ، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص، 13.

* . إسمه محمود بن الساعي و يدعى (حمودة) و لد سنة 1902 بمدينة باتنة، من عائلة محافظة، و بعد دراسته في الكتاتيب انتقل إلى قسنطينة مع أخيه صالح ليلتحقا بدروس الشيخ ابن باديس، و هناك أبان عن مقدرة فكرية كبيرة، كان أهمهم "مالك بن نبي". رحل الى باريس و هو يحمل هما فكريا كبيرا، فقد سجل في جامعة السوربون الشهيرة بباريس في قسم الفلسفة.. عاد بن ساعي إلى أرض الوطن، و استقر بمدينته باتنة عاصمة الأوراس، و نظرا لما كان يتحلى به الرجل من صلاحية و أنفة، رضي بالقليل من الحياة، دون أن يبيع دينه أو أفكاره، و بالفعل فكان يكسب رزقه من مهنته المتواضعة، ككاتب عمومي في

الدكتوراه حول الإمام الغزالي في جامعة السوربون فأخذ مالك معه إلى عالمه الفكري بحكم تخصصه في العلوم الإسلامية و اهتمامه شخصيا بالإصلاح . و كان مالك بن نبي يطلق عليه صفة " معلمي " تقديرا له و لدوره في تكوينه الفكري و تشجيعه له لكتابة أول مقالة له بعنوان "لماذا نحن مسلمون ؟ " و كان يحضر معه المحاضرات المفتوحة في جامعة السوربون التي يقدمها كبار الأساتذة في مختلف الموضوعات.

2 . 1 . 1 . 1 : الشيخ عبد المجيد: و هو أستاذ قواعد اللغة العربية و النحو و الصرف و قسطا من الشعر، و هو مدرّس في معهد تكوين المعلمين حيث كان مالك بن نبي يتعلم قصد التخرج كعدل في الشرع الإسلامي. " و في سنة 1920 تلقيت من الشيخ عبد المجيد أول أسس الثقافة العربية، لقد تعلمت تصريف الأفعال و التمييز بينهما و حفظت شيئا من الشعر".¹

و بالإضافة الى هذا فقد كانت لآراء الشيخ عبد المجيد في المجتمع وانتقاداته للبدع و كراهية لتصرفات الإدارة الفرنسية و تهجمه على تجاوزاتها، الأثر البالغ في مالك بن نبي الذي أعترف قائلا: " و سرعان ما أدركنا عداءه لبعض التقاليد السائدة في المجتمع الإسلامي كالطرق الصوفية و كراهيته لتجاوزات الإدارة الفرنسية. و قد أذكى ذلك في نفوسنا تأييدا و حماسة"

2 . 1 . 1 . 2 : الشيخ مولود بن موهوب: هو أستاذ التوحيد والسيرة النبوية الشريفة، و هو مفتي مدينة قسنطينة، غرس في قلب مالك بن نبي و زملائه في الدراسة حب الحركة الإصلاحية و جذبهم الى خطها، و في هذا يقول مالك بن نبي: " لقد احتفظ الشيخ في ذهنه بذلك الأثر غرسته في نفسه دراسته على يد معلمه الشيخ(عبد القادر المجاوي) و قد تولى هو نقل هذه الغرسة إلى تلك الأجيال من المدرسين و كنت منهم، و قد أينعت ثمارها في الحركة الإصلاحية الناشئة في الجزائر".²

2 . 1 . 1 . 2 : الشيخ بالعابد: و هم أستاذ الشريعة الإسلامية في معهد تكوين المعلمين، وعلى الرغم من أنه لم يؤثر في فكر مالك بن نبي و شخصيته تأثيرا مباشرا و بليغا، فقد مكنته دروسه في الفقه من اجتناب الوقوع في متاهات الفكر الغربي، و خاصة مغريات علم

إحدى المقاهي الشعبية. و لما قامت الثورة كان يتصل ببعض بقادتها في عاصمة الأوراس و خاصة مصطفى بن بولعيد . و بعد الاستقلال بقي في مهنته حتى غلبه المرض، و توفي سنة 1998.

1 . _____ ، المرجع السابق، ص. 25 .

2 . _____ ، المرجع السابق، ص. 64 .

النفس و نظرياته. لقد كان الشيخ بالعباد في الشريعة الإسلامية. كما يقر مالك بن نبي. " مذكرا قويا يعود بروحي إلى الطريق الصحيح".

2. 1. 2 : بعض من تأثر بهم مالك بن نبي ثقافة فرنسية غربية:

2 . 1 . 2 . 1 : المعلم الفرنسي (بوبريتي Pobreiter): و هو أستاذ (تاريخ العصور القديمة) و الأدب الفرنسي بمدرسة " سيدي الجلي" بقسنطينة، و كان له هو الآخر دور كبير في إرشاد و توجيه مالك بن نبي التي الكتب التي ينبغي أن يطالعها. و بالفعل فقد كان المعلم (بوبريتي) يعيره تشجيعا له على التقدم الذي أحرزه في الدراسة بعض المجالات، مثل مجلة الأخبار الأدبية، و مجلة كونفيرانسيا، و يقر مالك بن نبي بهذا فيعلن " و من جهتي أنا فقد كان الأستاذ بوبريتي قد فتح لي آفاقا جديدة. و لم يكن ذلك بدروسه المقررة علينا كتاريخ الأزمة القديمة و الأدب الفرنسي . وإن تكن هذه قد تركت أثرا لا ينكر إنما بفضل توجيهاته فيما نقرأ من كتب".¹

و من الآفاق التي فتحها المعلم بوبريتي لمالك بن نبي هو اكتشافه للشاعر الهندي الكبير "رابندرانت طاغور" و تأثره به، و غي هذا الصدد يكتب مالك بن نبي: " كان انجرافي نحو شاعرها (الهند) الكبير مظهرا من مظاهر التحرر في نفسي، فالعبقرية لا تولد على ضفاف (نهر السين) أو ضفاف (نهر التاميز)، وإنما يمكن أن تولد أيضا على ضفاف (نهر الغانج)، فمع طاغور وجدت هذا الموقف المدعوم لرجل مستعمر. لقد حررتني من عبودية ذات وقع أثقلت أو ما تزال تنقل غالبا فكر المثقفين العرب تجاه عبقرية أوروبا و ثقافتها. لم أعد أذكر على وجه الدقة ما هو أول كتاب قرأته لـ (طاغور)، و إنما هذا الشاعر حررتني من إفريقيتي بعض الشيء و أطلق ذهني من قيود قرضها الاستعمار".²

2 . 1 . 2 . 2 : المعلم الفرنسي (مسيو مارتان Martin): و هو له الأثر البالغ في امتلاك مالك بن نبي ناصية اللغة الفرنسية و تحببها المطالعة بها، و هو مدرس في مدرسة " سيدي الجلي" بقسنطينة، و حسب شهادة مالك بن نبي فإن هذا المعلم كان " يثري تلاميذه بالمفردات و يطبع في نفوسهم الذوق و فن الكتابة، و كان يقرأ لنا أحيانا القطع الجيدة التي كتبها من هم أكبر منا و الذين قضوا في مدرستهم أكثر من سنة.

1 . _____ ، المرجع السابق، ص.65.

2 . _____ ، المرجع السابق، ص.91.

لقد غرس الأستاذ (مارتان) في نفسي تذوق القراءة، ففي مساء كل سبت كان يعير الكتب للتلاميذ، و قد أتاح لي ذلك أن أقرأ كل كتب (جول فيرن) و بعضا من روايات (الرداء والسيف)¹.

2. 1 . 3 : بعض من تأثر بهم من خلال القراءات العربية و الغربية:

شكلت القراءات باللغتين العربية و الفرنسية بالنسبة للمفكر مالك بن نبي جملة من المؤثرات التي توجه و تعدّل و تحرك في ثقافته و شخصيته.

2 . 1 . 3 . 1 : المؤثرات من القراءات العربية: كان كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لـ " أحمد رضا، و رسالة التوحيد لـ " الشيخ محمد عبده " أثرهما البالغ في تحديد الاتجاه الفكري لمالك بن نبي: " هذان الكتابان أثرا على ما أعتقد في أبناء جبلي من المدرسين، أنا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري من تلك الفترة. لقد رسم لي كتاب أحمد رضا مزودا بالشواهد الكثيرة بهاء المجتمع الإسلامي في ذورة حضارته و كان ذلك معيارا صحيحا نقيس به بؤسه الاجتماعي في العصر الحاضر، أما كتاب محمد عبده و هنا أتحدث عن المقدمة الهامة المترجمة حول الفكر الإسلامي عبر العصور فقد أعطانا مستندا للحكم على فقره المحزن اليوم"².

و كان لكتاب (عبد الرحمان الكواكبي) " أم القرى " أثره هو الآخر على فكر و نفسية مالك بن نبي : "أما كتاب أم القوي فقد عرفني بإسلام بدأ ينظم صفوفه ليدافع عن نفسه و يقوم بحركة بعث جديدة إنه كتاب خيالي لكنه معبر يحمل شعورا بدأ يعتدل في العالم الإسلامي على الأقل في بعض الأنفس كالكواكبي. لم أكن أشك بأنه كتاب خيالي و لكنه أثره في نفسي كان عميقا.³

من بين الكتب التي تركت أثرا بالغا في نفسية مالك بن نبي و بلورة فكره مستقبلا خاصة حول موضوع الحضارة و فلسفة التاريخ هي مقدمة (إبن خلدون) و " مروج الذهب " للمسعودي، و كتابي " النظرات " و " العبرات " و كتاب " الصراع " للاجئ سعودي في القاهرة .تناول في مقدمته (بإسهاب و براعة نادرة دور القيم اليهودية في صياغة العالم

1 . _____ ، المرجع سابق .ص.53 . .

• أن تطبيق فكر مالك بن نبي لا يستدعي في البداية مؤسسات و تنظيمات، بل هو مشروع شخصي ينطلق من الإنسان إلى الثقافة إلى التربية إلى الحضارة،

2 . _____ ، المرجع السابق، ص، 56 .

3 . _____ ، المرجع السابق، ص. 103 .

العصري)، و كان لأفكار " زكي مبارك " الموجهة ضدي الصوفية و الطرقية أثرها الواضح على موقف مالك بن نبي الهجومي ضد الطرقية في الجزائر .

2 . 1 . 3 . 2: المؤثرات و القراءات الغربية : قراء مالك بن نبي . و هو الضليع في اللغة الفرنسية . كل ما وقع بين يديه من كتب، لكنها وحدها الكتب النيرة التي شكلت المسار التاريخي لأوروبا و عدّلت ذوقها و حددت مسارها التي شدت " الصديق " إليها و نذكر منها: كتب " جيل فيرن Jules Verne " و بعضا من روايات (الرداء و السيف) .

. بعض مؤلفات (بيير لوتي Pierre Loti) و (كلود فارير Claude Varrere) مثل (L Azyade) و فاقدات السعادة (Les desenchantees) و (الرجل الذي اغتال L homme Qui Assassina) .

. سلسلة أسرة بارديان (Baradaillans) لميشال زيفاكو، و رواية (ألكسندر دوماس Dumas) حول (الكونت دو مونت كريستو Conte De Monte Cristo) و رائعة لامارتين " البحيرة " . كتاب " الأب " مورو " و سلسلته العلمية الشهيرة (لتفهم) .

. قصة (التلميذ Le Discipline) في علم النفس للكاتب (بيار بورجي)، و كتاب في الفلسفة للفيلسوف الفرنسي (كونديلا Condillae) . كتاب (كيف نفكر؟) للفيلسوف البرجماتي و التربوي الأمريكي (جون ديوي)

. كتاب (أندريه جيد) " الغذاء الأرض"، و كتاب " أوجين يونغ " (Eugene Yong) " الإسلام بين الحوت والدب" (L islam Entre La Baleine Et Lours) للمغامرة إليزابيل إبراهيم، " Isabelle Ebrhardt" .

. كتاب المستشرق الفرنسي " مسينيون " عن (الحلاج) في التصوف، و كتاب (هكذا تكلم زراديشث) للفيلسوف الألماني " ننشيه " (NITSH)، و كتب " بلزاك " و "شاتوبريان" و دراسة عن " سبينوزا".

2 . 1 . 4 : دور الصحافة في تكوينه الفكري :

كانت الصحافة في ذلك الوقت ظاهرة حديثة مقارنة بالدول الغربية التي بلغت شأوا كبيرة في تجسيدها على أرض الواقع، و قد المجتمع الجزائري حينئذ من خلال نخبه السياسية و الثقافية و مصلحين أهمية مدافعة و مغالبة الاستعمار بشتى أنواعه (الاحتلال و التخلف) من خلال الصحافة، فدخلوا الميدان مبكرين، و أنشئوا منابرهم الإعلامية. و كان

إبن نبي قارئاً نهما للجرائد و المجالات، و كانت أهمها التي تركت انطبعا في شخصيته،
ذكر :

1 . 4 . 1 . 2 : جريدة النجاح: و تأسست سنة 1920 بمدينة قسنطينة من قبل صاحبها " مامي إسماعيل و هو شاب من طولقة من مدينة بسكرة تخرج من جامع الزيتونة بتونس، ثم عاد ليؤسس هذه الجريدة التي على الرغم من أنها لم تكن ذات قيمة علمية و ثقافية تذكر لكون اهتمامها انصب على الاحتفالات و إعلانات الوفيات، إلا أنها جريدة تكتب بالخط العربي، و ذلك كان نوعا من التحدي للإدارة الفرنسية التي أرست سياستها على فرنسا البلاد.

2 . 4 . 1 . 2 : جريدة المنتقد: في سنة 1922م ظهرت جريدة المنتقد في مدينة قسنطينة كواحدة من الصحف التي صدرت في ذلك الوقت محاولة أن تقدم رؤية أخرى للرأي العام، إلا أن إدارة الاستعمار أوقفتها.

3 . 4 . 1 . 2 : جريدة الشؤون العامة لقسنطينة: و هي إحدى الجرائد الناطقة بالفرنسية تهتم خاصة بما يجري في قسنطينة، و بحكم أن لها مراسلين في باريس كانت دائما تنقل الأخبار العالمية لقرائها. و كانت تصل مقهى " بن يمينة " أخبارا عن أماكن أبعد ... تتحدث عن أخبار الصين .لم تكن تدرك حقيقة ما يحدث غير أن أسماء جديدة أخذت تطرق آذاننا (كانتون و شنغهاي و كومنتانغ و تشانغ كاي شيك¹).

4 . 4 . 1 . 2 : صحيفة الإقدام: كان يصدرها "الأمير خالد"، كان مالك بن نبي يقرأ بنهم هذه الجريدة التي تفضح دسائس الاستعمار و سوء استغلال السلطة، و تقوم هذه الجريدة بنشر وكانت يصدرها " الأمير خالد " وضعت في فكري الحدود السياسية الدقيقة، فكانت تكشف عمليات استغلال الفلاح الجزائري و قد بلغت درجة لا توصف في تلك الفترة. فقد ضاع بالمستعمرين في الشمال مزارع الكرمة و الحمضيات و الزيتون والتبغ فأخذت تتجه نحو الجنوب حيث أراضي الحبوب.فقد بدأ عدد من المعمرين يستقرون في " خنشلة" و" باتنة" و " عين البيضاء " حتى أن واحد منهم استقر في " مسكيانا " قريبا من تبسة².

5 . 4 . 1 . 2 : صدى الصحراء: و هي جريدة ناطقة باللغة العربية يصدرها الشيخ " محمد الأمين العمودي " في مدينة بسكرة الذي هو عضوا مؤسس و فاعل في جمعية العلماء

¹ . المرجع سابق، ص 104.

² . المرجع سابق، ص، ص، 87.88 .

المسلمين الجزائريين، و كانت تعمل الى جانب أختها جريدة " الشهاب"في إيصال صوت المجتمع الجزائري الى كافة أنحاء العالم، و تزيد في الوعي الجماهيري، و كانت تطبع في مطبعة (بوشنال) في شارع (بن شريف) .

2 . 1 . 4 . 6: جريدة الجمهوري: كانت هذه الجريدة لسان حال الفرنسيين بالجزائر، ومنبرا يهاجم من خلاله رئيس بلدية قسنطينة(مورينو Morinaud)الأمير خالد صاحب جريدة الإقدام. **2 . 1 . 4 . 7:جريدة الإصلاح:** و أسسها الشيخ الطيب العقبي، التي كانت تصدر من خلال تبرعات المواطنين، وكان الشيخ العقبي بيّن ما للصحافة من أدوار مختلفة في تكوين الفرد و المجتمع، و تشكيل الرأي العام بيّن ما تكون عليه من وطنية و إيثار للمصلحة العامة، و خدمة المجتمع و الرقي به نحو الكمال المنشود، و حذر من الصحافة و رجالها أن تخوض فيما لا طائل من ورائه يرجى.

2 . 1 . 4 . 8: مجلة كونفرانسيا Conferancia: وهي جريدة تصدر عن الإدارة الاستعمارية بالجزائر، و فيها اكتشف مالك بن نبي شاعر الهند العظيم (رابندرانت طاغور) الذي كانت كتابته من الأكثر الأعمال الأدبية التي أثرت فيه..." لقد كان ذلك الأدب القادم من بعيد أثر في نفسي، إذ أضاف أبعادا كانت جديدة في عالمي الفكري ..إنه عالم (الفيدا Des Vèdas)¹.

2 . 1 . 4 . 9: صحيفة الإنسانية L humanité : و هي صحيفة ذات اتجاه شيوعي كان مالك بن نبي يقرأها من أجل تغذية مداركه السياسية، ومعرفة الآراء السياسية التي كانت رائجة في ذلك الوقت، و قد قال بشأنها مالك بن نبي: " تحمل إلي غضباتها و مهدئاتها. و كانت تتأثر لي من ذلك الوضع الذي سوف نسميه (النظام الاستعماري)، الذي عبأنا ضده في تلك الفترة من غير أن نشعر تلك القوة التي انصبت فيما بعد في الاتجاه الإصلاحية و التيار الوطني."²

2 . 1 . 4 . 10: مجلة الشهاب: كانت تصدر عن الشيخ عبد الحميد بن باديس في مطبعة الشهاب بقسنطينة، و بشأنها يقول مالك بن نبي : "توقفت بقسنطينة قبل أن آخذ عربية الى تبسة، لقد أرت أن ألتقي الشيخ ابن باديس خاصة.فمجلة الشهاب قد جدّدت في نفسي خلال إقامتي في (أفلو) الأفكار التي كنت أروجها في مقهى بن يمينة و المدرسة"³.

1 . _____ ، المرجع سابق، ص.91 .

2 . _____ ، المرجع سابق، ص، 93 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص. 99 .

2 . 1 . 4 . 11 :صحيفة الراية L étendard : وكان يصدرها (داندان) و كان أبوه دائم القراءة لهاته الجريدة، و كانت من الصحف التي تدير الصراع بين الجزائريين و الفرنسيين، وفي ذلك يقول مالك بن نبي: "...ففي عنابة جاء المقدم دندان ينشئ صحيفة الراية، و هكذا غدا الصراع مثيرا في الحلبة الجزائرية".¹

2 . 1 . 4 . 12 : صحيفة العصر الجديد و الزهرة: و هما صحيفة تونسيتان تكتبان بالعربية خطأ و توجهها، إلا أن الأولى كانت تعتنى بالشؤون العربية الإسلامية يغرف منها غذاؤه الروحي الذي يروي عطشه لمعرفة أبناء العالم الإسلامي والثانية كانت تهتم بالشأن التونسي فقط، وكان الشباب يقرؤونها في الرصيف و في الطرقات. " كنت أجد محمص القهوة العجوز...يجلس في مكانه المعتاد، ثم يقرأ بصوت شبه مرتفع جريدة (الزهرة) على نور باهت يشعه قنديل وضع على الباب الأثري".²

2 . 1 . 4 . 13 : صحيفة " صوت المساكين" (La Voix de humbles) : كتب عنها مالك معلقا " و من حين و آخر كنت أقرأ جريدة(صوت المساكين)و كنت أمج كثيرا هذا العنوان".³

2 . 1 . 4 . 14 : صحيفة الكفاح الاجتماعي (La Lutte Sociale): (التي يصدرها (فيكتور سبولمان Victor Spulmun)، وكانت تأتينا الى الجزائر بصورة متقطعة.⁴

2 . 1 . 4 . 15 : صحيفة الأمة: و هي لسان حال حزب " نجم شمال إفريقيا " والناطقة باسمه، و قد تولى تأسيسها شباب جزائري يقطن بالمهجر .

2 . 1 . 4 . 16 : جريدة الأمة العربية: و قد أشرف عليها من جنيف (شكيب أرسلان) حيث كان لاجئا يواصل صراعه البطولي دون أن يكل أو يمل، و كانت تصل أعدادها الى الجزائر حيث كان مالك بن نبي يقرأها، كما كانت تصل الحي اللاتيني بباريس فيقرأها زملائه.⁵

2 . 1 . 4 . 17 : جريدة " اتحاد النواب": و فيها نشر فرحات عباس مقاله المخذل (أنا فرنسا)، الذي وصفه " حمودة بن ساعي " بالنجاسة، و هو يلوح بالجريدة على الرصيف،

1 . _____ ، المرجع سابق، ص. 184.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص. 83.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص. 189 .

4 . _____ ، المرجع سابق، ص. 189 .

5 . _____ ، المرجع سابق، ص 249 .

و الذي ردّ عليه مالك بن نبي في جريدة الدفاع لصاحبها الأمين العمودي بمقال عنوانه (متقون أم مثقفون؟)¹.

2 . 1 . 4 . 18 : صحيفة (باريس . سوار) : و هي صحيفة مسائية تصدر في باريس، و هي التي " نقلت خبرا غريبا تقول فيه: إن أحداثا صارمة تنهياً في الجزيرة العربية...".²
2 . 1 . 4 . 19 : جريدة البرلمان: كانت تصدر عن الهيئة المركزية لحزب الشعب (تعبيرا عن مطالب الشعب).

2 . 1 . 4 . 20 : جريدة البوتي باريسيان: و هي جريدة صباحية فرنسية .

2 . 1 . 4 . 21 : جريدة الحزب الحر الدستوري: و هي جريدة تونسية ناطقة باللغة العربية.

2 . 1 . 4 . 22 : مجلة المغرب: ومجلة مغربية، يرأس لجنة تحريرها حفيد ماركس (أوجين لونجي) و (ابن أمية)، وكان قد أسسها الطلبة المراكشيون.³

2 . 1 . 4 . 23 : جريدة الدفاع: و كان يصدرها الأمين العمودي بالجزائر العاصمة .

2 . 1 . 4 . 24 : صحيفة السنة: و قد أنشأها المرابطون لمقارعة رجال الإصلاح .

2 . 1 . 4 . 25 : جريدة الشاب المسلم: صدرت بالجزائر العاصمة، واختفت بعد الحرب العالمية الثانية

2 . 1 . 4 . 26 : مجلة الإسلام الفتى: صدرت بالجزائر العاصمة، ثم اختفت بعد الحرب العالمية الثانية.

2 . 1 . 4 . 27 : صحيفة صدى الحركة: أنشئت في (أم البواقي)، تحت إشراف حساني رمضان.⁴

2 . 1 . 4 . 28 : جريدة صوت الشعب: و قد أسأها بالجزائر العاصمة (علي بن محمد) مع بعض صغار صيادي السمك و بعض باعة البقول، أي كان التزاوج بين المال و العقل، و قد عبرت عن مرحلة جديدة من في تاريخ الصحافة الجزائرية الوطنية، التي انتقلت من المطالبة بحقوق الشعب الى الهجوم الصريح على الاستعمار، والتي توقفت بعد عديدين أو ثلاثة.⁵

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 360.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 305 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 253.

4 . _____ ، المرجع السابق، ص 309.

5 . _____ ، المرجع سابق، ص 300.

2 . 1 . 4 . 29 : جريدة الصوت الأهلي: والتي كان يصدرها شخص إسمه (الزناتي).¹

2 . 1 . 4 . 30: جريدة العمل الفرنسي: و هي جريدة فرنسية.

2 . 1 . 4 . 31: جريدة قسنطينة: و هي جريدة فرنسية استعمارية تصدر في مدينة قسنطينة.

2 . 1 . 4 . 32: المجلة المصورة: و هي جريدة تطالعها الأسر الفرنسية ذات الشأن،

و كانت تهتم بعالم الموضة حتى في الزواج.²

2 . 1 . 4 . 33 . مجلة المعلمين الجزائريين: و هي جريدة جزائرية و تصل حتى باريس

رفقة بعض الجرائد الأخرى، فيقرؤها مالك بن نبي.³

2 . 1 . 4 . 34: جريدة الوفاق: يصدرها (د.بن جلول) في قسنطينة، و التي كانت تصل

إلى أرجاء باريس.⁴

2 . 1 . 5 : دور المناقشات في تكوينه الفكري :

تعد المناقشات مع كافة أطراف المجتمع إثراء للإنسان، فمن خلالها يستطيع الإنسان أن يلم بكل الرؤى و الأفكار المحيطة بها، فتكون مثالا للإقتداء و مثارا للجدال و المناقشة، و قد كان مالك بن نبي . و هو الشغوف بالمناقشة كعادة المثقف الصغير . أن يتأثر في حياته بكامل المناقشات و الحوارات التي صادفته في حياته لتجعل منه مفكرا يتجاوز بإنتاجه الفكري كل عوالم الثقافة و يؤسس زاوية و منهاجا فكريا (تحليلية نقدية) يعد مدخلا جديدا بالنسبة للفكر العربي الحديث . و من بين النقاشات التي أثرت في مالك بن نبي و هي متنوعة نذكر:

2 . 1 . 5 . 1: في مقهى بن يمينة: شكّلت المقهى في الواقع العربي ملتقى لتبادل الأفكار

و النقاشات الحادة التي بلورة الوعي الوطني في بداية القرن العشرين، إذ كانت النخب في

العالم العربي تحتسى مع فناجين القهوة قيم المواطنة و نقد المستعمر و تعرف حراكا سياسيا

شكّل فيما بعد البعد الوطني في قضايا التحرر و الإنعقاد. فقد كان مقهى "بن يمينة "

الفضاء التي تفتّحت فيه قرائح مفكرنا مالك بن نبي الذي ألف النزول فيها، و تقع في شارع

الفكر . كما نعتة مالك بن نبي.⁵

1 . _____ ، المرجع سابق. ص 300.

2 . _____ ، المرجع سابق. ص 232.

3 . _____ ، المرجع سابق. ص 309.

4 . _____ ، المرجع سابق. ص 106.

5 . _____ ، المرجع سابق، ص 309.

و هو شارع يضم في طرف منه مقهى بن يمينة، و في الطرف الآخر مطبعة الشهاب، و يتوسطه مكتب الشيخ عبد الحميد بن باديس، و قد شهدت تبلور الأفكار التقدمية بفعل الاختلاط الواضح بين تلاميذ الشيخ ابن باديس و الطلبة المدرسين، و بين الرواد من سائر الطبقات الذين يأتون ليأخذوا حصّتهم من الجدل و المناقشة، خاصة في حضور (الشيخ حمدان) الذي يرتدي الكوفية العقال الحجازين و يتحدث بلهجتهم، و الذي كان نائرا على الانحرافات و كانت فصاحته العربية تمارس تأثيرها في العقول التي تفكر أو تتكلم بالفرنسية.¹

كما كانت تصل مقهى بن يمينة أخبار تأتي متفرقة من الأنحاء القريبة و البعيدة، و كذلك الشخصيات، فهذا " يونس البحري" يصلها من بغداد: " يملك ما تتعطش إليه تلك العقول المجتمعة في مقهى بن يمينة الباحثة عن الجديد سوء كان في السياسة أو الأدب أو الأخبار العادية".²

2 . 1 . 5 . 2: حمودة بن ساعي: كثيرة هي الشخصيات التي إنقأها مالك بن نبي في فرنسا، و قليلة هي التي أثرت فيه كذلك الأثر الذي تركه حمودة بن ساعي في شخص مفكرنا، وكان أول لقاء بينهما بمركز (لودرو رولان) في اجتماع مع (جمعية الطلبة الوجدويين) فامتعض منه في البداية لأنه لم يختلف كغيره عن النخب الجزائرية التي لم تتخلص من ظاهرة التجاهل. لكنه في قرارة نفسه كان مرتاحا لأنه أصبح قريبا من صديق يمكن . من خلال قربه . أن يقوم بمهمات لا يعينه عليها غيره، فقد كان صديقه الجديد سهل الفكرية لأن شيطان المعرفة استولى عليه منذ صباه .

فقد تناولوا عرض أفكارهما في ما يخص الطلبة الجزائريين و المغاربة وإن اختلفا في قضية الإصلاح و الوهابية، و في هذا يقول: " كان صديق لا ينتظر منهما المعجزات و كنت أراهما معجزتين، و ما عدا اختلافنا في درجة التفاؤل و التشاؤم، كنا من مشرب واحد فيما يخص دور الإسلام في النهوض بالشعوب الإسلامية، و دور الطالب في النهضة".³

لقد أصبت هكذا عددا لا بأس به من المؤثرات الموجهة و المعدلة و المحركة، و ينبغي أن ألاحظ من بين هؤلاء واحدة تبدو فريدة أعني أثر صديقي (حمودة بن ساعي) فقد ترك في

1 . _____ ، المرجع سابق، ص، 88 .

2 . _____ ، المرجع سابق، ص. 108 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 97 .

نفسى أثرا خاصا حينما تعرّفت عليه شخصيا بعد عدة أشهر. ففي نزهاتنا معه أنا و (فضلي) بين غابات الصنوبر كنت استمع الى طريقته في توجيهه الآيات القرآنية لتتخذ تفسيراً اجتماعياً لحالة المجتمع الإسلامي الحاضرة و كان ذلك يؤثر في نفسى كثيرا ¹.

و من خلال صديقه (حمودة) الذي وعده برسم معالم الطريق، في أن يزوده بالمعلومات والوثائق. فقد اكتشف مالك بن نبي العمل الجماعي و ما يفرضه من تبعات، و يحكم عليه بأنه المقومات التي فقدتها المجتمعات الإسلامية بين مثقفيها و لم تسترجعها بعد. بل أنه كان مدانا له باتجاهه ككاتباً متخصصاً في شؤون العالم الإسلامي، و محولاً اتجاه تفكيره من مدرسة اللاسلكي الى فضاءات الفلسفة و علم الاجتماع و التاريخ.

كان النقاش الذي يدور في بيت مالك بن نبي بين ضيفيه حمودة بن ساعي و أخيه (صالح). الذي التحق بباريس. حول جذاذة جريدة أو مقال منها فيدوم الى غاية مطلع الفجر أحيانا فيقول في ذلك: " كانت هذه المناقشات متنوعة، علمية أحيانا، و سياسية أخرى، و دينية اجتماعية غالبا، أو مجرد نقد لتسيير الأمور في الجزائر من طرف المسؤولين عن المعركة الإصلاحية أو الحركة الوطنية، و كانت المناقشات كلها تدور حول محور الإسلام، الأمر الذي جعلني أستفيد كثيرا من خبرة صديقي و سعة اطلاعه في الموضوع، لأنه قلما يغير عنه أمر في الميدان الذي يعنى به (معهد الدراسات الإسلامية) في السريون... فكان يدخلني معه في هذا الميدان بصفة مريد مبتدئ، لكنني ربما كنت أفيد من ناحية تنسيق و منهجية الأفكار ².

3 . 5 . 1 . 2 : زوجته خديجة: هي امرأة فرنسية تزوجها مالك بن نبي سنة 1931 أشهرت إسلامها و سمت نفسها خديجة، و اسمها الحقيقي هو (سيلستين بول فيليبون)، فتعلم منها بسبب أصلها البرجوني العزلة و التأمل والسكون، و من إتقانها الأشياء تعلم التجميل والترتيب، فكانت خديجة الآلة التي لا تمل ولا تكل من فرط الإحساس المرهف بالأشياء المحيطة بها " ما أن ننتهي من الأكل، حتى تصبح المائدة وسط الغرفة لتوضع عليها تحفة فيها طاقة من الزهور، تشتريها زوجي كل مرة حين تذهب إلى سوق باب فرساي، حتى القطة (لويزة) عندما تغادر مرقدتها و تأتي الى الغرفة، تصبح هي الأخرى مجرد تحفة يراها الزائر في بيت عرائس، و إذا قلت إن (أمي) لو ولدت رجلا لنجح في الصفقات التجارية أو

¹ . المرجع سابق، ص، 235،

² . المرجع سابق، ص. 252،

نبح في السيرك، فإنني أقول إن ابنتها ولدت كذلك، لكانت فنانا ماهرا في فن التجميل، و ربما تفوقه بما تصنع بيدها من آيات من الذوق ببعض خشب و بعض قماش مزركش من ونوع الكريتون الرخيص جدا".¹

و كان مالك بن نبي يتناقش مع زوجته حول القضية الجزائرية، أو حول الدين، وكان يروق لها بعد أن أصلي المغرب أن تستمع لما أتلو من القرآن دون أن تفهم بطبيعة الحال، غير أنها تتذوق جرس التلاوة نفسها، و كانت تمنى نفسها بالذهاب الى الطائف و تستقر به. و يلخص مالك بن نبي تأثير الجانب الاجتماعي الذي عاشه مع زوجته الفرنسية وخاصة الفكري منه: " و الآن بعد أربعين سنة . عندما تعود لفكري تلك الذكريات . أتصور أن الأقدار التي سخرتني وسيلة تعرفت خديجة بواسطتها على الإسلام، قد سخرتها هي لأتعرّف بواسطتها على الوجه الأصيل للحضارة الفرنسية".²

2 . 1 . 5 . 4 : منظمة الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين: انتظم مالك بن نبي في الوحدة المسيحية كأول شاب مسلم ينتمي إليها و هو أمر لم يكن عاديا في سجلات المنظمة. لكن المكاف بالاستقبال أطلعه على مرافق المنظمة و هو يتجاذب معه أطراف الحديث عن الجزائر و الإسلام، " و هي منظمة تُدار و تنظّم شؤونها طبقا لضرورات شباب يدرس أو يعمل بعيدا عن بيوت الأهل، قادمي الدليل اللطيف الى الدور الأسفل، حيث توجد قاعة التدخين التي يتناول فيها الشبان القهوة بعد الغداء أو في الصباح، و يستطيع الزائر الدخول من هذه القاعة عبر أبواب الاتصال، الى قاعة للمحاضرات تستعمل الى جانب ذلك لعرض الأشرطة السينمائية، أو إقامة التمثيليات على مسرحها".³

و فيها دارت نقاشات حادة و مثمرة بين نزلاء المقر، الأمر الذي جعل (هنري نازيل) مدير منظمة " الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين " يبادر مالك بن نبي بالحديث أمام أصدقائه قصد دحض و نقض نظرياته الإسلامية و الكشف لهم عن مقدار ضعفها، لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي كان يتوقعها سيادة المدير، فدار الحديث بيني و بينه، وكانت نتيجته في آخر المطاف غير ما كان ينتظر، لأن المنطق المسيحي لما يتخلله تعقيد قد ولى

1 . _____ . المرجع سابق، ص. 273 .

2 . _____ ، المرجع سابق، ص. 210 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص. 269 .

أمام منطق الإسلام السليم: لم تكن العقيدة الثالوثية تستطيع الجدل مع العقيدة الموحدة الإسلامية.¹

2 . 1 . 5 . 5 : المناقشة مع أم زوجته (مورناس): كانت تقيم في الريف بمدينة (دروكس) على بعد ثمانين كيلومتر، كان يزورها مع زوجته خديجة، و قد علّق مالك بن نبي على هذه الزيارات " و هذا جانب جديد اكتشفته في الحياة الفرنسية مع (أمي) الباريسية القروية، المرأة التي تتقن تربية الدواجن و تسمي كل نبات بري باسمه خيرا مما يفعل صيدلي أو عطار، و من ناحية أخرى تقرأ (بلزك) و تضم بحنو جل كتبه في مكتبة صغيرة رتبته لنفسها في ركن من خزنة الأكل، فاطلعت بفضلها على بعض الجوانب الخفية التي لا تبصرها العين بالعاصمة، و هكذا تم اكتشاف الحياة الفرنسية كما تبرز على الطبيعة دون عملية التقطير التي تجري عليها بباريس.²

2 . 1 . 5 . 6 : المناقشة مع مسيو (سيريل أناكليتو): سيريل أناكليتو رجل شاب فرنسي اعتنق الإسلام مع زوجته و سمى نفسه (محمد أناكليتو) تعرّف عليه مالك بن نبي في مقهى الهجار بباريس، ثم أصبحا يتبادلان الزيارات و يتجادبان أطراف الحديث حول الإسلام، و فيه يقول مالك بن نبي: " و قد انسجمت معه منذ لقائنا الأول بالهجار، و أصبحت أدين له بما استفدت منه مباشرة أثناء مناقشاتنا، أو منت مكتبته الإسلامية التي أتاحت لي مطالعات عمّقت نظري في هذه المشكلات.

و بقيت على اتصال دائم ب (أناكليتو) أزوره في تلك المناسبات بسبب ما أجد في حديثه عن الإسلام والمسلمين من ألوان جديدة تنعش نفسي و تقيدني من الناحية الفكرية.³

2 . 1 . 5 . 7 : المناقشات مع أسرة يهودية: نشأت مع شاب من أصل يهودي صداقة تطورت حتى أصبح مالك بن نبي يزوره في بيته، حيث كانت تستقبله عمته وبناتها، وكانت هذه العائلة شديدة التكنم حتى أنا مالك ابن نبي لما حدّثها عن شاعر الهند الكبير (طاغور) عرف من خلال الحديث أنها على دراية كبيرة به.

و يقرّ مالك بن نبي بأنه: " و أتيج لي خلال الزيارات أن أكوّن فكرة أقرب للواقع عن المشكلة اليهودية في العالم " و يضيف: " كان كل فرد في هذه الأسرة اليهودية يحصل

1 . _____ ، المرجع سابق، ص. 223.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص. 272 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص. 224 .

قوته بكد يده و عرق جبينه. كان فكري و أنا منكب في ناحية الشقة على جهاز الراديو، أفكك أو أصلح، يراقب صعود جنس للإستلاء على العالم".¹

2 . 1 . 5 . 8 : المناقشات مع أسرة فرنسية بوجوازية: تعرف مالك بن نبي على مصور زيتي شاب اسمه "رونيه"، كان قد خطب فتاة تنتمي إلى أسرة فرنسية بوجوازية، و أصبح يأخذ مالك بن نبي معه ينوي زيارة أسرة خطيبته، فكانت لهذه الزيارات والحديث الذي يدور خلالها فائدتها الهامة بالنسبة لمالك بن نبي الذي أفصح عن هذا بقوله: "و كانت زيارتي الى هذه الأسرة مع صديقي رونيه تكشف لي عن الحياة الأوروبية من الداخل في نطاق عائلي، بينما لم أكن في الجزائر أعرفها إلا من الخارج".²

3 : العوامل الثقافية و الفكرية:

عاش مالك بن نبي طفولته كغيره من أبناء جيله من الجزائريين الذين فتحوا عيونهم على بلد مسلوب الحرية و الكرامة، جعلت منه الصليبية الأوروبية . ممثلة في فرنسا . الضرع الحلوب و مخزن القمح بالنسبة لهم. فانعكس الوضع الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي و السياسي في وجدان الطفل "الصديق" فشهد بعينه حراكا اجتماعيا لعائلات بكاملها من الريف الى المدينة، و من المدينة الى الخارج، و التقت أذناه من جدته "زوليخة" عن العائلات القسنطينية التي هاجرت الى تونس و ليبيا و مصر و منها الى الشام و الحجاز والعراق. و كان المستعمر يتعقبهم بالقتل خارج القانون و الهتك. و لم يبق إلا الفلاح المتشبث بالأرض الوعرة التي استتكت الاستعمار عن أخذها و تذليلها.

كان مالك بن نبي يشاهد في بزور نمط اجتماعي فرنسي على حساب نمط اجتماعي جزائري منحدر، كان الفقر المدقع يلف المدينة تبرز معه ظواهر اجتماعية سلبية كان الفقر و الجهل و المرض عنوانا لها، و كان لتكريس النمط الغربي بكل تداعياته أثر بالغ على البنية الاجتماعية الذي حطم التوازنات السوسيواقتصادية، التي كانت هدفا مباشرا منذ أن وطئت أقدام المستعمر أرض الوطن على شكل حملات تبشيرية، فالمصلحة الوطنية تجمع بين الاستعمار و الإستشراق تدفع بأن يصبح كل منها يمثل عقلية فرنسية تعمل في حقل علمي واحد، و تخضع لسياسة متبعة واحدة فإذا كان الإستشراق علما و ثقافة

¹ . المرجع سابق، ص. 377 .

² . المرجع سابق، ص. 188 .

فإن الاستعمار ثقافة و علم لذا يقول مالك بن نبي: " يجب علينا أن نتصور الاستعمار كما هو أي كعقلية علمية مطبقة في المجال السياسي".¹

وكانت طبيعة الاستعمار الفرنسي ثقافية من الدرجة الأولى فهذا ملك فرنسا " لويس التاسع " قائد الحملة الصليبية ضد المسلمين بعد أسره، و بعد افتدائه و فك قيده، و عودته الى وطنه فرنسا، أوصى أبناء وطنه وصيته المشهورة: " إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده، و لكن حاربوهم في عقيدتهم فهي مكن القوة فيهم"²، و قد عبّر عنها بكل صراحة مواطنه المستشرق(لوشاتلييه):" ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل و التثبيت من فائدته و يجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم بها الرهبان المبشرون و غيرها بها ... و أنا أرجو أن يخرج هذا التعليم الى حيز الفعل ليثبت في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعية الفرنسية".³

إن وصايا و نصائح لويس التاسع ملك فرنسا، و مواطنه لوشاتلييه و أمثالهما ماهي إلا نماذج لأشكال و أساليب لمحاربة الإسلام و المسلمين، فالنموذج الأول يوصي بمحاربة المسلمين في عقيدتهم مباشرة، و النموذج الثاني يوصي بمحاربتهم أيضا في عقيدتهم، لكن بالتربية العقلية و بسيف الثقافة التي لا يستطيع الرهبان المستشرقون وحدهم القيام بها، و التي لا يتقن أدائها و تنفيذ مشاريعها إلا المستشرقون المتمرسون.

فماسينيون الذي كان يحاور مالك بن نبي تارة من جهة و يحاربه في فرنسا و في الجزائر بالطريقة الثقافية من خلال دس الدسائس له ثقافيا و سياسيا و عسكريا، كان ضابطا مصاحبا لجيش الجنرال " ألنبي " أثناء دخوله القدس، و هو الذي كان مستشارا لوزير خارجية فرنسا في اتفاقية سايكس بيكو، فقد كان حريصا أن لا يظهر في صورة الصراع و ساحاته، فكانت رسائله الثقافية تطرح في ثوب ثقافي و بذكاء حاد و بحذر شديد، فإذا كان المسلمون يعتقدون بعودة المسيح عيسى بن مريم إلى الأرض: " فلماذا لا يكون هذا المسيح الراجح هو الذي يعتقد به النصارى اليوم" فالمسلمون يعتقدون في شأن عيسى بما جاء في القرآن، و هم يؤمنون به، و من أجل ذلك يرجو ماسينيون أن توجه الجهود لتوحيد ذلك التقارب و جعلهم يعتقدون بعيسى بن مريم نفسه، لكن باسمه المسيحي عيسى بن الله.

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 21 .

2 . محمد قطب، واقعا المعاصر، ط2، الجزائر، مكتبة رحاب، 1989 ص178.

3 . محمد قطب، المرجع السابق، ص196.

وفي سنة 1924 اختار المستعمر الفرنسي مدينة قسنطينة لانعقاد مؤتمر المبشرين و هو اختيار مقصود، فهي قلعة صامدة و حصن منيع على المشاريع الاستعمارية وهي نواة الحركة الوطنية الإصلاحية، فقد قال المستشرق المبشر الأمريكي (صمويل زويمر): "إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله و لا يريد أن يعرفها، و أخرجتم المسلم من الإسلام، و لم تدخلوه في المسيحية، و بالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أرادته الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظام، و يجب الراحة و الكسل و لا يصرف همه في همّه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا تعلم فللشهوآت، و إذا جمع المال فللشهوآت، و إن تبؤ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات وجود بكل شيء. إن مهمتكم تمت على أكمل وجه، و انتهيتم إلى خير النتائج، و باركتكم المسيحية، و رضى عنكم الاستعمار".¹

فإذا كانت فرنسا من أكثر بلدان أوروبا ممارسة للغزو الثقافي في مستعمراتها الفرنسية على الإطلاق لهذه السياسة، و أصبحت نموذجا يسترشد به على سياسة الثقافية، التي كان المستشرقون مهندسيها، فكان الغزو في الجزائر تم بأبشع الأساليب وظهر في أكمل صورة و بلغ أخطر مراحلها. فالجزائر هي أول وأقدم مستعمرة عربية و إسلامية لفرنسا في الشرق و إفريقيا، و هي أقرب مستعمراتها إليها مسافة، و هي أكبرهم مساحة، و أغناهم موردا، و أصبحت فيما بعد المستعمرة البترولية الوحيدة لفرنسا، كما أنها بوابة فرنسا على بقية بلدان المغرب و إفريقيا إذ تحيط بها على حدودها خمس مستعمرات فرنسية أخرى تسلّلت لها عبر الجزائر، و بالجزائر أقامت فرنسا أكبر جالية استنانية لها خارج فرنسا تتمتع بما لم تتمتع به حتى في فرنسا سياسيا و اقتصاديا، و بالجزائر كان مقر إقامة الزعامة الدينية على حساب المستعمرات الإفريقي ففي الجزائر كان مقر إقامة الكاردينال "لافيجري" صاحب الولاية على باقي أساقفة إفريقيا.

هذا التميز المتمثل في الموقع، كان يقابله تميز أيضا في نوعية الاستعمار و طبيعته الثقافية و ممارساته التطبيقية على المجتمع الجزائري، و على تركيبته السكانية، فبقدر ما عززت فرنسا موقعها في إفريقيا و البحر المتوسط جغرافيا و عسكريا و سياسيا، بفضل الجزائر، كانت تعمل أكثر لتعزيز وجودها الثقافي في المجتمع الجزائري، لعلمها بأهمية مكانة الجزائر و علاقة سكانها مع محيطهم العربي و الإفريقي و الإسلامي و المتوسطي،

¹ . محمد قطب، المرجع سابق، ص 386

فكانت الجزائر نموذجا فريدا و متميزا، جغرافيا و اجتماعيا لجهود سياسة فرنسا الرامية لفرنستها قلبا و قالبا، جسدا و روحا.

فقد لاحظ الدارسون أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر في شقه الفكري و الثقافي حول طمس كامل معالم الشخصية الجزائرية في كتابه (إستراتيجية الاستعمار و التحرير) يقول جمال حمدان: " و لعل الجزائر هي المثل الأكبر حيث فرض المستعمر أسماء فرنسية على مئات من المواقع و الأماكن ابتداءا من أكبر المدن الرئيسية حتى أصغر القرى و النجوع النائبة".¹

إن هذه الأساليب الاستعمارية التي لم ير العصر الحديث مثيلا لها، فقد سمّت الجزائر "فرنسا فيما وراء البحار" وادعت " أن الجزائر أرض فرنسية " و نعتت وزير الخارجية" بوزير ما وراء البحار". و لكي نفهم من البداية منطلق التعامل الفرنسي مع الجزائر، خاصة في المجال الثقافي، و قد يكون الكاتب الفرنسي (أوجست برنارد) أصدق من عبّر بوضوح وصراحة على هذه السياسة الثقافية الاستعمارية اتجاه الجزائر حينما قال: "إننا لم نحضر للجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة و اللغة و الأفكار الفرنسية و ليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية، و لا هي دومينيون مثل كندا و لكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما...إننا نريد أن نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة و العادات... سيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هيغو".²

لقد للسياسة الاستعمارية في الجزائر قائمة على القهر و السيطرة و التحقير المنظم أثرها في اهتمامات مالك ابن نبي و توجهاته. فلقد كانت تشغله هذه السياسة و هو يراها تحوّل ساحة الجزائر أرضا للصراع، تستخدم فيه شتى الوسائل المادية والمعنوية، خاصة حين أخذ يتعرض هو شخصيا لانعكاساتها على شكل مباشر... وكان يرى أن معايير القبول في معهد الدراسات الشرقية لدراسة المحاماة خاضعا لمقياس سياسي. و حين ينهي دراسته في الهندسة سنة 1936 يتقدم بطلب إلى الوزير الفرنسي المسؤول لتأسيس معهد بقسنطينة لتحضير الطلبة الجزائريين الراغبين في دخول الهندسة، يهمل طلبه و لم يأتي رده. ذلك يوضح في ذهنه أن المستعمر يحاول أن يدخل في نفسية المستعمر بأنه غير مؤهل للأعمال المميزة، وليس لديه القدرة على بلوغ المراتب العليا.

¹ . جمال حمدان، إستراتيجية الاستعمار و التحرير، ط1، بيروت، دار الشروق، 1983 ص. 241 .

² . عبد الله عبد الجبار، الغزو الثقافي في العالم العربي، ط3، جدة، مطابع الروضة، 1980. ص.16

و قد كانت تجاربه الشخصية مع المستعمر عاملا حاسما في نضجه السياسي و الفكري و الثقافي، فقد كان يرى أن المستعمر يتابع عمله باستمرار، و بلغة خفية و صامتة، و يجد الخطط حسب الظروف، و يتكيف معها، حتى أنه يتخذ الأحيان طرقا و سبلا، لا ينتظر أن يتخذها و يتبعها لبعدها ظاهرا عن الميدان الذي تدور فيه المعركة... إن الاستعمار يفتح دائما في الصراع الفكري أبوابا جديدة، لم نكن نفكر أنه سيأتي منهم الهجوم، فيأتي الهجوم من تلك الناحية التي نعدّ لها عدتها، و لم نستعد لصد الغارات التي تأتيها منها، و يرى أن الاستعمار هو الشر نفسه، وانه صورته المجسمة على الأرض.¹

إن الإحساس "ابن نبي" بمشكلة الاستعمار و ابن المستعمرات تكثيفا واضحا في معالجاتها الفكرية، ففي باريس و هو يحمل هذا الإحساس راح يتبع منهجيا تاريخ الحضارة الغربية، و يدرس جذورها، فلاحظ أن العصر الصناعي . و هو حلقة من حلقات هذه الحضارة . حين يطرح العلاقات الإنسانية في إطار كمي و قيمي، تفسر طبيعة الظاهرة الاستعمارية لديه كانعكاس سلبي على مسيرة الإنسانية سياسيا وعسكريا و فكريا و تربويا.

لقد كان مالك بن نبي و هو في الجزائر أو في باريس، يعيش الأحداث و يدرس ردود الأفعال الاجتماعية و السياسية، و بالذات ردود أفعال الحركات الوطنية إزاء الظاهرة الاستعمارية، فلم يجد رد الفعل بمستوى الفعل و شبكاته الصراعية، مما نبهه بعد متابعة تأملية و ميدانية إلى جانب آخر من المشكلة، أسماه فيما بعد "القابلية للاستعمار" أي استعداد الناس و تهيؤهم النفسي و الاجتماعي إلى أن يكونوا مستعمرين .

لقد كان "بن نبي" ناقما على المؤتمر عام 1936 و حين زار وفد من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فرنسا كان على رأسهم الشيخ عبد أحمد بن باديس، و البشير الإبراهيمي و الأمين العمودي، و الشيخ الطيب العقبي لأنهم في منظوره لا يدركون أن المستعمر همه توريث خصومه وتعريتهم، ففي نفس الوقت الذي كان الوفد ينزل في فندق (قروند هوتيل) تنقل الصحافة نبأ مقتل مفتي الجزائر (بن كحول) و تنتهم في قتله جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. لم تكن تلك الطعنة من الخلف موجهة ضد الحركة الإصلاحية، و لكن الظرف كان يضيف عليها معنى الطعنة في صدر المؤتمر بالذات، الطعنة التي ألقته فعلا قتيلا في مهده، بعد شهر فقط من ولادته و تبخرت في لحظة تلك الوحدة المقدسة التي ضمت في صف واحد كل القوى الشعبية بعد ربع قرن من سير حثيث

¹ ... ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، (ب ط) دار الفكر، 2000 ص.ص، 64 . 113 .

موفق نحوها. و يضيف مالك بن نبي: " و الآن بعد ثلث قرن لم يتغير حکمي في القضية: إن الظروف السانحة وضعت العلماء أمناء على مصلحة الشعب، فسلموا الأمانة لغيرهم لأنهم لم يكونوا في مستواها العقلي، و سلموها لمن يضعها تحت أقدامها لتكون سلماً يصعد عليه للمناصب السياسية.¹

إن غوص مالك بن نبي في المنهج التبعي و التأملي في برائن التفكير الاستعماري في الجزائر، قد منح وعيه المعلن صيغا يخالف فيها كثيرا وعي الآخرين، فجمعية الطلبة الجزائريين المسلمين مثلا، تفهم كتابه (شروط النهضة) بأنه مضر بالقضية الجزائرية، و تصفه مجلة (العروة الوثقى) بالفرنسي مسلم، ثم في جريدة البصائر يوصف بأنه يأخذ كلامه من مثقفين فرنسيين، و تصدر العام 1954 إدانة له، و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تدين كتابه (وجهة العالم الإسلامي)، كما أن اختلاف مالك بن نبي مع ابن باديس في مرحلة، و مع العربي التبسي في مرحلة لاحقة، فضلا عن اختلافه مع الليبراليين و الماركسيين، و كذلك مع الحكومة المؤقتة، و ما تلاها من عهدي الرئيسين (بن بلة) و (هواري بومدين) ليستقبل من وظيفته كمدير عام للتعليم العالي في عهد بومدين، كل ذلك يعكس حالة الاغتراب التي عاشها "ابن نبي" فكريا و سياسيا، حتى أن صلته بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم ترق إلى أن يكون عضوا فيها، أو بالأحرى و كما يقول: "دون أن تدعوني هذه الجمعية للمساهمة في شؤونها، حتى و لو قدّمت لها الطلب، من أجل ذلك في بعض الظروف القاسية في حلبة الصراع الفكري.²

و الخلاصة المستنقاة من متابعة ظاهرة الاستعمار و الاستشراق أن الصراع الدائر رحا، هو بالأساس صراع فكري ثقافي لا يجابه إلا بعملية تغييرية ذات بعد تربوي يحمل وعاء ثقافيا. و إذا ما حاولنا استجلاء الواقع الثقافي الذي أسهم في تكوين فكر مالك بن نبي مستقبلا فهي تلك القراءات التي شكّلت فكره، و التخصص العلمي التقني الذي أمده بالخصائص العلمية و المنهجية التحليلية التي استقاد منها في كتاباته و حواراته و إنتاجه العلمي، و نعني بها كذلك تلك المنابع المعرفية و التعليمية و العلمية التي تلقاها عبر محطات حياته المتعددة.

1 . . _____ ، في مهيب المعركة، مرجع سابق، ص. 190

2 . . _____ ، المرجع سابق ، ص. 24

فقد اختلف " الصديق " منذ الصغر و هو في المرحلة الابتدائية الى الكتابيب لتعلم القرآن الكريم كبقية أترابه فأمضي فيها أربع سنوات دون أن يتجاوز الحزب الأول الأعلى فكان يتعرض لعقوبة الأب ومعلم القرآن، بفعل التغيب عن الدراسة فيقول: " لقد أرسلوني الى المدرسة الفرنسية، إلا أنني في الوقت نفسه ثابت على التردد على مدرستي القديمة لتعلم القرآن، فكنت أقصدها كل يوم في الصباح الباكر لأكون فيما بعد عند الثامنة صباحا في المدرسة الفرنسية، و كنت أجد في ذلك صعوبة كبيرة، أضف الى هذا أن الفارق الذي كنت أحس به بين المدرستين و المعلمين".¹

إلا إن تلك الأيام قد بقيت راسخة بذهنه، فقد شكّلت التربية التقليدية في الكتابيب فكره التربوي فما زالت . برغم السنين . في ذهنه: " و إن من ذكريات تلك الأيام ما لا يزال في مخيلتي، فقد كنت كباقي التلاميذ أغسل كل صباح لوحى الحجري في بركة ماء صغيرة، تقع عند زاوية المدرسة، و متى تشبعت مياه البركة بذلك الحبر الذي كنا نكتب فيه و هو (الصماغ)، كنا نعد الى نقل المياه الملوثة بدلو لطحها في مكان خاص. شربت و رفاقي مرة من هذه المياه الملوثة لاعتقادنا بأنها كانت تضم كلمة الله. لقد كان قصدنا من ذلك نبیلا و مؤثرا، فما أردناه هو أن نشرب كلمة الله المقدسة بالذات"² في المرحلة التي تلتها من قراءة عديد الكتب من التاريخ و علم الإجماع و علم النفس و الأدب، و كان يأتي على كل ما تكتبه الصحف و المجلات العربية و الفرنسية. مثل جريدة (الإقدام) للأمير خالد، و الإنسانية التي تصدر عن الحزب الشيوعي، وقرأ (كيف نفكر؟) للأمريكي " جون ديوي " و اطلع على كتابات المستشرقين ككتاب (الإسلام بين الحوت و الدب) لأوجين يونغ، و كتاب (تحت ظلال الإسلام الدافئة) لإيزابيل هارت.

و من الكتب ذات الطابع التاريخي و الحضاري التي عكف مالك بن نبي على قراءتها في بداية وجوده في فرنسا هو كتابه (أرنولد توينبي) المؤرخ البريطاني، ونظريته في ميلاد الحضارة " التحدي و الاستجابة "، و لكنه صاغها وفق المنظور الإسلامي على ضوء القرآن الكريم في كتابه (ميلاد مجتمع)، و أخذ عن (هرمان دي كسرلنج) نظريته في "الفكرة الدينية"، و أنها هي المركب لعناصر الحضارة، و قرأ للفيلسوف الألماني (نيتشه) " هكذا تكلم زرادشت " و قد شغله فكريا فترة من الزمن كما يقول، و قرأ لـ " إمنويل كانط " و تأثر بفكرة

1 . _____ ، مرجع سابق ، ص 26

2 . _____ ، المرجع سابق ، ص 24.

(الحق و الواجب) التي احتلت مكانة واسعة في و أصبحت لازمة تربوية في فكره، كما قرأ لكبار علماء علم النفس من أمثال (كونديلا) الذي يعد أستاذا لمدرسة علم النفس الفرنسية الذي وضع عقله و أفكاره و فضوله و ثقافته في اتجاه محدد.¹

و إذا كان للقراءات الغربية التي كانت رائجة في ذلك الوقت بفعل الحراك الاجتماعي في فرنسا، و توفر الكتب و المكتبات، و دور النشر، فإن نصيبه من القراءات في التراث العربي الإسلامي لم تكن هينة، فقد تلقى في صغره دروس التوحيد عن شيخه (مولود بن موهوب) و الفقه عن (بن العابد) و كان الشيخ عبد المجيد يحل لهم في دروسه بعض نظراته في انحراف المجتمع و تجاوزات الإدارة. دروس العربية في قسنطينة، و من قراءاته لمجلة (الشهاب) التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كانت الإدارة الفرنسية تعرقل وصولها الى فرنسا. و قرأ مالك بن نبي لأحمد رضا كتابه (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) و (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده. و في شأنهما يقول: "أعدهما الينابيع البعيدة و المحددة لاتجاهي الفكري... هذان المؤلفان أثرا على ما أعتقد في أبناء جيلي من المدرسين. أنا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري منذ تلك الفترة. لقد رسم لي كتاب أحمد رضا مزودا بالشواهد الكثيرة بهاء المجتمع الإسلامي في ذروة حضارته، وكان ذلك معيارا صحيحا نقيس به بؤسه الاجتماعي في العصر الحاضر. أما كتاب محمد عبده و . هنا أتحدث عن المقدمة الهامة المترجمة حول غنى الفكر الإسلامي عبر العصور . فقد أعطاني مستندا للحكم على فقره المحزن اليوم".²

و قد قرأ كتاب (طبائع الاستبداد) لكواكبي و كتاب (أم القرى) الذي قرأه في ليلة واحدة و عرف من خلاله كيف أن الإسلام بدأ ينظم صفوفه ليدافع عن نفسه و يقوم بحركة بعث جديدة كتب (المنفلوطي) "النظرات" و "العبرات" و مقدمة ابن خلدون التي ترجمها (سلفستر دساسي) الى الفرنسية و التي ساعدته في بناء نظريته في الدورة الحضارية و (مروج الذهب) للمسعودي. و مع ضعفه في العلم الشرعي و نقص في الإطلاع على الأحاديث النبوية إلا أن عنده إطلاعا واسعا و عميقا على التاريخ الإسلامي، و عنده القدرة على فهم الأحاديث و الآيات، و خاصة التي تتعلق بسنن التغيير، و ساعدته في ذلك حواراته من نقاشاته

1 . _____ ، المرجع سابق، ص.ص. 368.114 .

2 . _____ ، مرجع سابق، ص، ص، 31، 30 .

مع صديقه (حمودة بن ساعي) الذي كان يحضر لدرجة الدكتوراه عن " أبي حامد الغزالي " في جامعة السوربون.

أما الجانب العلمي و التقني في الثقافة الغربية، فقد كان له الأثر البالغ في تفكيره التربوي و الاجتماعي، و في تكوينه المنهجي أيضا، فإذا البذور الفكرية لهذا التأثير قد بدأت معه بالثقافة الديكارتية و العلمية، التي تلقاها عن مدرسيه الفرنسيين في الثانوية بالجزائر، فإن انتقاله الى باريس و لقاءه العلمي بسلسلة الأب مورو (لتفهم) قد وضعت أساسا لا لثقافته و معارفه العلمية فحسب، و إنما بلورت تكوينه الفكري والمنهجي الى حد بعيد: " بحيث لم تهيئني فقط لدخول مدرسة اللاسلكي، بل غيرت جذريا اتجاهي الفكري، إذ أسكنت في نفسي شيطان العلوم، و لم يكن الأب "مورو" قد فتح باب مدرسة معينة، بل فتح لي باب عالم جديد يخضع فيه كل شيء للقياس الدقيق للكم و الكيف، و يتسم فيه الفرد أول ما يتسم بميزات الضبط و الملاحظة " ¹.

كان لهاته العوامل الاجتماعية و الثقافية و التربوية المجتمعة شكّلت في عمومها التفكير المنهجي و الصياغة الفكرية الدقيقة، لذا لم تتفصل كل كتاباته عن الجانب التقني و المعادلات الرياضية المحضة التي فسّر به كل الظواهر الاجتماعية و السياسية والاقتصادية التي تعدّ نقلة نوعية في سديم المنقف العربي .

4 . مؤلفاته:

لقد أثرى مالك بن نبي المكتبة العربية و العالمية بالعديد من المؤلفات التي شكّلت في زمنه . وما زالت لحد الآن . طفرة علمية و معرفية و فكرية في هذا الزمن، لما قدّمته من رؤى جديدة للتربية و التنمية و الثقافة و الحضارة بصورة عامة، و لما قدمته من مناهج حديثة في معالجة قضايا العالم الثالث، وقد صدرت أغلب كتبه باللغة الفرنسية، ثم ترجمت الى اللغة العربية، والبعض الآخر كتب باللغة العربية، و له أكثر من عشرون كتابا مطبوعا، و أغلبها في مصر و سوريا و الجزائر . و له إحدى عشر مؤلفا مازال مخطوطا لم يطبع بعد، و أهم هذه المؤلفات هي:

4 . 1: الظاهرة القرآنية: (الجزائر 1946) وقد كتبه باللغة الفرنسية، وقام بترجمته الدكتور عبد الصبور شاهين ونشرته دار القرآن الكريم، تحت رعاية الإتحاد الإسلامي العالمي

¹ . المرجع سابق، ص، 66 .

للمنظمات الطلابية السالمية، الكويت، عام 1398هـ . 1978م، وهو من القطع الصغير، وعدد صفحاته 363 صفحة.

4 . 2: لبيك:(الجزائر 1947) وهي قصة أدبية ألفها مالك في بداية حياته الفكرية و الأدبية. و ترجمت إلى العربية سنة 2009، من قبل د. زيدان خوليف، في دار الفكر، سوريا. 156صفحة من الحجم المتوسط.

4 . 3: شروط النهضة:(الجزائر 1948)نشر بدار الفكر، عام 1960م، وقام بترجمته كامل مسقاوي.

4 . 4:الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج:(القاهرة 1956)، عن دار الفكر، و يتضمن 266صفحة.

4 . 5 :النجدة الشعب الجزائري يباد: (القاهرة 1957)، و هو كتاب صدر باللغة الفرنسية، وجه من خلاله مؤلفه نداء للضمير الإنساني (العالمي) من أجل اتخاذ موقف إنساني حضاري حازم بشأن عمليات الإبادة التي كان قد تعرّض لها المجتمع الجزائري من طرف الاستعمار الفرنسي.

4 . 6:مشكلة الثقافة: (القاهرة 1959)ترجمة عبد الصبور شاهين، عام 1984م و يتضمن 152 صفحة.

4 . 7: فكرة كمنويلث إسلامي:(دمشق 1960) وقد نشرته مكتبة عمّار ط1، ونشرته دار الفكر، عام 1990م، من القطع المتوسط وعدد صفحاته 94.

4 . 8 : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة: (دمشق 1960)نشر دار الفكر، وعدد صفحاته، 127 وهو أول كتاب لمالك بالعربية مباشرة.

4 . 9 :حديث في البناء الجديد: (بيروت 1960) يحتوي هذا الكتاب على خمسة محاضرات مترجمة من الفرنسية الى العربية، ألقاها "بن نبي" في مناسبات مختلفة أثناء زيارته لكل من لبنان و سوريا. و تشكل هذه المحاضرات في مجموعها وحدة في الموضوع.

4 . 10: الصعوبات كعلامة نمو في المجتمع العربي: (القاهرة 1960)، و يتضمن محاضرة ألقاها في الإتحاد القومي في دمشق، و هي مترجمة من الفرنسية الى العربية، و يمثل هذا الكتاب فيما أضافه في(ذهاني السهولة والصعوبة) .

4 . 11: في مهب المعركة: (القاهرة 1961) وهو مجموعة مقالات كتبها في باريس في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، وحينما لجأ إلى القاهرة عام 1956، بدا له أن يترجم هذه المقالات وينشرها بالعربي.

4 . 12: ميلاد مجتمع: (القاهرة 1962) وقد قام بترجمته الدكتور عبد الصبور شاهين، نشر دار الفكر، وهو من القطع المتوسط، وعدد صفحاته 107 صفحة.

4 . 13: آفاق جزائرية: (الجزائر 1964) وقد نشرته مكتبة عمّار، القاهرة.

4 . 14: مذكرات شاهد القرن: القسم الأول (الطفل) (الجزائر 1966)، وتحدّث فيه مالك بن نبي عن المرحلة الأولى من حياته (1905 . 1930) و ما جرى فيها من أحداث بين تبسة و قسنطينة أيام الدراسة، و ذكرياته الطولية التي شكّلت فيما بعد مدخلا لتفسير الواقع الاجتماعي.

4 . 15: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: (القاهرة 1969) نشرته مكتبة عمّار القاهرة، عام 1970م، وهو من القطع الصغير وعدد صفحاته 62 صفحة.

4 . 16: مذكرات شاهد القرن: ويتكون من جزأين: الجزء الأول بعنوان "الطفل" وقد ترجمة مروان القنواطي، والجزء الثاني بعنوان "الطالب" وقد ترجمه مالك بنفسه، نشرة دار الفكر بيروت، الجزء الأول عام 1969م، من القطع المتوسط، والجزء الثاني بعنوان "الطالب" طبع عام 1970م .

4 . 17: مذكرات شاهد القرن: القسم الثاني(الطالب) (بيروت 1970) و صدر القسم الثاني من هذا الكتاب باللغة العربية، و قد تحدث فيه عن مرحلة أخرى من حياته في فرنسا (1930. 1939) قضى أغلبها في الدراسة.

4 . 18: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: (القاهرة 1971) وقام بترجمته محمد عبد العظيم علىّ " نشر دار الدعوة، عام 1970م، وهو من القطع المتوسط، وعدد صفحاته 71 صفحة.

4 . 19: المسلم في عالم الاقتصاد: (بيروت 1972) دار الفكر، وعدد صفحاته 111 من القطع المتوسط.

4 . 20: بين الرشاد والتهيه: (طرابلس، لبنان، 1977) نشر دار الفكر عام 1978م، وهو من القطع المتوسط، وعدد صفحاته 174.

4 . 21: وجهة العالم الإسلامي: (دمشق، 1954) وقام بترجمته عبد الصبور شاهين، نشر دار الفكر، وهو من القطع المتوسط، صفحاته 173. عبد الصبور شاهين، وهو من القطع المتوسط.

4 . 22: وجهة العالم الإسلامي: الجزء الثاني، المسألة اليهودية، تر: عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، سوريا، سنة 2013، و عدد صفحاته 160.

4 . 23: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين: (بيروت 1977) نشر دار الفكر في كتاب واحد، وهو من القطع الصغير وعدد صفحاته 62.

4 . 24: من أجل تغيير الجزائر: (الجزائر 1989) هو مجموعة مقالات كتبها بالفرنسية، و جمعت من جريدة "الثورة الإفريقية"، و تضمنت الأحداث التي جرت في الستينات (1964-1968)، و قد جُمعت بعد وفاته.

و فضلا عما سبق، فإن بعض مؤلفاته قد تم جمعها و ترتيبها بعد وفاته في إطار كتابين هامين و هما:

أولاً: القضايا الكبرى: و هو كتاب صدر بالفرنسية في "الجزائر" سنة 1976، و يشمل على المؤلفات التالية:

أ/ آفاق جزائرية.

ب/ إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث.

ثانياً: تأملات: (دمشق 1961) وقد نشرته دار الفكر، وهو من القطع المتوسط وعدد صفحاته 205. و يشمل المؤلفات التالية :

إ/ حديث في البناء الجديد.

ب/ الصعوبات كعلامة نمو في المجتمع العربي.

ج/ تأملات في المجتمع العربي.

ثالثاً: المخطوطات :

وتوجد كتب غير منشورة للأستاذ مالك بن نبي، وهي ما زالت مخطوطات بخط يده ومنها:

✓ خطاب مفتوح لخروتشوف وإيزنهاور.

✓ دولة مجتمع إسلامي

✓ مذكرات شاهد القرن - القسم الثالث - بعنوان "الأستاذ".

✓ نموذج لمنهج ثوري.

✓ المشكلة اليهودية.

✓ العفن.

✓ اليهودية أم النصرانية.

✓ دراسة حول النصرانية .

✓ مجالس دمشق .

✓ مجالس تفكير.

استخلاصات

تطرقنا في هذا الفصل إلى ثلاثة نقاط رئيسية رأيناها، شكلت بحق ظروفًا حطت حياة مالك بن نبي في سكة الواقع، هذا الواقع الذي كان يحفر في نفسية ابن نبي و يخط دروبا لمفكر حل الاستعمار من الداخل و الخارج، و شكلت المحطات الاجتماعية و الأسرية و الثقافية محاورا كبرى في مسيرة الرجل.

فالمحطات الاجتماعية التي عاشها مالك بن نبي صنعت منه إنسانا ناقدا و مفكرا في حلول لأمة مازالت تترزخ تحت وطأة الاستعمار، و كانت الظروف التي أحاطت بمالك بن نبي في و علاقته باصدقائه الجدد كحمودة بن ساعي، و الشيخ دراز، و المفكرين المغاربة في الحي اللاتيني، و صراعه مع المستشرق " ماسينيون " و طبيعة المجتمع الفرنسي، و الفضاءات الثقافية المتاحة، و الإعلامية بالخصوص، كل هذه الظروف أسهمت في بناء فكر مالك و اهتماماته و توجهاته، دون أن ننسى الاحتكاك بالمجتمع الفرنسي في الريف، أي عاش ابن نبي مع أسرة زوجته، وكيف استطاع أن ينقل لنا الحياة الأسرية داخل المجتمع الفرنسي، و طبيعة العلاقات بينهم، و كيف بنى فكرة المعيار الجمالي من خلال المعاشة لحدث.

ثم رحلته إلى القاهرة وبداية الحياة الفكرية في عز المد العروبي، و الحركات التحريرية في العالم الثالث التي كانت مصر الناصرية مرحلة تمر بأفكار الدعاة المريرين منهم، و كانت حينئذ صحف المصرية و المطابع في أوج عطائها. فكانت الفرصة السانحة أي استطاع أن يترجم كتاب الظاهرة القرآنية، ثم يترجم . عبد الصبور شاهين . باكورة عملة ص شروط النهضة " الذي لاقى رواجا كبيرا في السوق بين نخب مصر و مثقفيها.

في النقطة الأخيرة، تكلمنا في أهم المؤلفات و الإنجازات التي كتبها مالك بن نبي، و التي تحد تحفة المكتبة العربية، التي رصّعها بالكثير من الكتب فاقت الخمسة و العشرون كتابا، بالإضافة إلى حواراته و مقالاته، و جلساته التي ما انفكت تجمع حول العديد من الأدباء و المفكرين، فكانت هذه المرحلة زاوية و زاخرة بالإنجازات إلى أن عاد إلى الجزائر

وفي الجزائر دخل مالك بن نبي في صراع كبير مع الشيوعيين، و كتب فيها الكثير من الكتب و تقلد فيها مناصب وزارة، حتى استقال منه بمحض إرادته، ثم تفرغ للكتابة بعد أن عرف أن السياسة التي لا تربط بالأخلاق هي خراب الروح.

الفصل الثالث:

طبيعة الفكر التربوي عند
مالك بن نبي

المحتويات:

تمهيد

1 . الإنسان

2 . المجتمع

3 . العلم و المعرفة

استخلاصات

تمهيد

يعنى الفكر التربوي منذ سنوات عديدة بالرعاية و الاهتمام من قبل الكثير من العلماء و المفكرين و التربويين، لما يختزن من قيم تربوية و علمية و مجتمعية. فقد كان الإنتاج في مجال التربية كثير لأنها كانت مشروع حياة و طريق فلسفي لكافة أفراد المجتمع. و نحن إذ نؤصل للفكر التربوي في هذا الفصل من خلال التطرق إلى طبيعته، و التي نعني بها دراسة الإنسان و المجتمع و العلم و المعرفة، فنحن هنا نؤصل للموضوع، و نحدد منذ البداية ماهية الإنسان و طبيعة المجتمع و كيفية النظر إلى العلم و المعرفة. لكي نوضح للقارئ نظرة مالك بن نبي لهذا الإشكال، و كيف حدّده، لنخلص في النهاية أنهم بحق يشكلون النظرة الفلسفية لمالك بن نبي حول الموضوع.

و قد كان محط اهتمام المفكرين في العلوم السلوكية، كونه حجر الزاوية لتأصيل قيم المجتمع التي يراهن عليها في بناء مستقبل يرتكز على تجربة التاريخ، مجسدا في ذلك تطلعات الفرد و المجتمع في إطار مشروع حضاري متكامل يهدف الى إعطاء رؤية جديدة أعرق تأصيل و أكثر انفتاح على الواقع المعاصر بكل متغيراته و أبعاده، ذلك المشروع الحضاري المستند على التجارب البشرية كعملية تواصل مستمرة بين الماضي و الحاضر و المستقبل .

و ما إن طوى القرن التاسع عشر أوراقه بنشأة فكر تربوي عربي يمازج بين التراث والحداثة، و يستخلص فكرا تبلور من خلال التفاعلات الثقافية التي تمت في هذا القرن التاسع عشر، و عن تلك التفاعلات التربوية مع الواقع الاجتماعي العربي، و مع تراثه الراسخ في أعماق الشخصية العربية الإسلامية.

فقد ولد هذا الفكر على يد "رفاعة الطهطاوي" و "علي مبارك"، وظهر أكثر ارتباطا بالتراث و المؤثرات الحضارية الجديدة على يد الشيخ "محمد عبده". ولقد أشاعت آراء "أحمد خان" و نظراته التأويلية للمفاهيم الإسلامية، و دعوته للمذهب الطبيعي، عاصفة من الجدل و المناظرات، أيقظت التفكير الساكن، وأقحمت العقل في فضاء قلق مضطرب، يموج بإشكالات و استفهامات مختلفة، لم يألفها هذا العقل في متون التراث الكلاسيكية، فانبرى للرد

على آرائه السيد أكبر حسين الإله أبادي، و السيد جمال الدين الحسيني المعروف " بالأفغاني " .

و يمكن رصد عدة مستويات للفكر التربوي الإسلامي المنجز منذ الطهطاوي حتى الآن، فقد اتسم هذا الفكر في مرحلته الأولى بنزعة إعتدالية تبريرية، طبعت آثار الدارسين مقارنات واسعة بين قضايا التراث و معطيات العلوم الحديثة، بهدف ترسيخ الانتماء للأمة و ميراثها. و لم تتجاوز دائرة المهتمين بهذا الفكر نخبة ضئيلة من المستثمرين، الذين تخرجوا في الحواضر العلمية التقليدية، و تعرّفوا على النمط الجديد للعلوم الغربية.

و في هذا السياق أنجز الفكر الإسلامي الحديث محاولات تنظيرية، تتفاوت درجاتها، لكن هذا الفكر دخل مع نماذجها الرائدة مرحلة جديدة، مثلما نلاحظ في أعمال محمد إقبال، و محمد عبد الله دراز. و ما أن جاء القرن العشرين بكل تقلباته و حركاته مناكفا في ذلك وضعاً قديم ممثلاً في الاستعمار الأوروبي استقلت فيه بعض البلدان العربية، ومع هذا التحرر السياسي حاولت هذه البلدان أن تتحرر اقتصادياً و اجتماعياً و فكرياً. فكان هذا التحرر يعكس نفسه في الفكر، و في الواقع التربوي.

1 . الإنسان :

1 . 1 : إعادة صياغة نفسية الإنسان الجديد :

" إذا كانت الطبيعة توجد النوع، فإن التاريخ يصنع المجتمع. و هدف الطبيعة هو المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة".¹

و من هنا بات من الضروري العودة الى التاريخ كأداة تحليلية من أجل فهم متعمق للحقائق التاريخية للإنسان العربي الذي شكلت صيرورة الأحداث التاريخية ذهنيته و أساليب تفكيره و التي توفرت على المعطيات التالية:

أولاً: معركة صفين: أو ما تعرف بـ " الفتنة الكبرى" التي تعرض لها الإنسان العربي، فهي تمثل بداية الهزة التي تعرض لها الإنسان على مستوى الفهم و الواقع، إذ تعارضت الحادثة مع الممارسة الحياتية الإسلامية الجديدة.

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص. 16.

ثانياً: حركة النهضة العربية: و تتمثل هذه الحركة في الحركة الإصلاحية الحديثة منها و القديمة، التي حاولت جاهدة لترميم الإنسان المسلم، إنسان (ما بعد الموحدين) المسلوب الإرادة، القابل للاستعمار و إعادة تكييفه و تأهيله ليضطلع من جديد بمهمة البناء، و كانت هذه الحركات قد تحولت من قطرية إلى عالمية.

1. 1. 2: بناء الفرد مقابل الشخص :

يمكن اعتبار تناول مالك بن نبي مفهوم الفرد بالدراسة إنما هو تحليل نفسي تربوي لشخصية الإنسان المسلم المعاصر الذي هو في النهاية محصلة هو إنسان صنعته تراكمات الواقع الاجتماعي عبر تدفقات التاريخ المطهم بالأحداث عبر عصور الانحطاط. و على هذا لا يمكن للإنسان إلا أن يكون في السياقين التاليين:

السياق الأول: إما أن يكون في وضعية سلبية تتمثل في ممارسته للحياة و هو لا يعلم شيئاً عن الأهداف السامية التي خُلق من أجلها، بحيث تتجلى في هذه المرحلة المطالب العضوية الحيوية الغريزية.

السياق الثاني: إما أن يكون في وضعية أسبغت التربية دلالتها التاريخية على حياته الشخصية التي يختلف بها عن بقية المخلوقات.

1. 1. 3: الفرد الخام: " إن الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله"¹ و هو إنسان يمثل الحياة البدائية في أوضح صورها الواقعية، و قد استعمل مالك بن نبي هذا المفهوم كأداة تحليلية للعملية التربوية لإنسان مازال لم يخضع بعد للتكييف التربوي، و يعني به هو ذلك الكائن الفطري لحظة ولادته الذي يستهدف إعداده للاندماج في الحياة الاجتماعية و الشروع في القيام بالدور الذي ينسجم مع استعداداته الفطرية و مهارته المكتسبة. أي أن الإنسان يولد (فرد خام) مزود باستعدادات و مواهب و قدرات كامنة تؤهله للقيام بالوظيفة التي خُلق من أجلها، إذا ما أحسن تكييف هذه الاستعدادات و المواهب و الطاقات من جهة، و من جهة أخرى تأهيله لهذه الوظيفة.

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق. ص. 65.

1. 1. 4: الإنسان الطبيعي: هو إنسان طبيعي يخضع لقانون الغريزة و يقوده و يتحكم في تصرفاته، لذا فإن كل اهتماماته منصبه رأساً للمحافظة على النوع و يحدد وجهتها. " فعندما نعهد الفرد عند نقطة الصفر، نجد في الحالة التي يطلق عليها بعض المؤرخين المسلمين كلمة (الفطرة) أي مع جميع غرائزه كما وهبته إياها الطبيعة، فالفرد في هذه الحالة ليس في أساسه إلا الإنسان الطبيعي".

لكن في نهاية المطاف تتولى الفكرة الدينية إخضاع غرائزه لعملية تكيف تمثل ما يعرف في علم النفس الفرويدي بـ (الكبت). و ليس من شأن هذه العملية القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحيوية الحيوانية الممثلة في الغرائز بصورة محسة لم تلغ، و لكنها خضعت لقواعد نظام معين. و في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور في ذاته، و يخضع وجوده كله للمقتضيات الروحية التي أوجدتها الفكرة الدينية في نفسه، إيجاباً يمارس معه حياته في هذه الحالة الجديدة طبقاً لقانون الروح.¹

1. 1. 5: إنسان الفطرة: مصطلح إنسان الفطرة هو مصطلح ديني جاء ذكره في القرآن الكريم و السنة النبوية، لدلالة عن الوضعية التي يخلق عليها الإنسان و هو لم يتأثر بعد بملابسات الزمان و المكان. و إذا تتبعنا تحليل مالك بن نبي لهذا المصطلح و لعموم الشخصية الإنسانية يمكن الاهتداء إلى البعد الديني لهذه الشخصية" ففسيقية الفرد في المجتمعات التاريخية على الأقل مفعمة بالنزعة الدينية، تلك التي تعد جزءاً من طبيعته، و هو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريف الإنسان بأنه: (حيوان ديني)، و هو بذلك يحدد جانباً من الأساس النفسي العام في أفراد النوع، و في كل فرد يبني شخصيته الخاصة على هذا الأساس. أي أن الدين يتدخل في عملية البناء و يتدخل مباشرة في عملية التكيف التي هي عملية ترشيح أو تنحية جانب، و عملية انتقاء أو بعث للإحساس من جانب آخر".²

1. 1. 6 : الإنسان المكيف: و هو مرحلة ثانية تتبع مرحلة الإنسان الفطري، و هو إنسان قد تم تكيف تربوياً، و يسمى الإنسان في هذه الحالة الشخص أو الفرد المكيف و المؤهل للانتماء ولاندماج في المجتمع و المؤهل للدخول في تفاعلات و علاقات اجتماعية للقيام

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع ، مرجع سابق، ص 109.

² . _____ ، المرجع سابق، ص 69.

بأدوار يتطلبها انتماؤه، و في هذا الصدد يقول بعد أن يدلل على أن الحضارة في مجالها الثاني قد تمت في عالم الأشخاص، يقول أن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هـ: "العمل الذي يغير الفرد من كونه (فردا) (indivuel) إلى أن يصبح (شخصا) (Personne) (و ذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه النوع الى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع".¹

1. 1. 7: إنسان ما قبل الموحدين: هو إنسان في حالة سابقة للحضارة، مستعد من الناحية النفسية للدخول في دورة حضارية جديدة بناء على مؤهلات طبيعية خان تتطوي عليها شخصيته، كما كان الوضع بالنسبة للأشخاص في عهد الرسول (صلى الله عليه و سلم)، و الذين كانوا على أهبة الاستعداد لدخول في تجربة حضارية جديدة، و لكن بعد أن تتم عملية التكيف و الإشراف التي تستهدف لتأهيلهم للمساهمة في إنجاز هذه الدورة، ذلك لأن الاستعداد لا يعدو أن يكون شرطا أوليا يقتضي جهدا من التكيف و الإشراف الذي يؤهله ليصبح قادرا على الاضطلاع بمقتضيات الدور الذي سوف يناط به لإنجاز الدورة الحضارية بنجاح. " و قبل بدء دورة من دورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا و سلبت منه الحضارة تماما، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة... إذ أن الإنسان الذي تفسخ حضاريا مخالف تماما للإنسان السابق على الحضارة أو الإنسان الفطري... فالأول ليس مجرد إنسان خارج عن الحضارة فحسب، كما هي الحال مع الثاني الذي سميناه فيما سلف ب(الإنسان الطبيعي) إذ الإنسان المسلوب الحضارة لم يعد قابلا لإنجاز (عمل متحضر travail civilisé إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية... و على العكس من ذلك، فإن الإنسان السابق على الحضارة يظل مستعدا. كما هو الحال مع البدوي المعاصر للنبي . للدخول في دورة حضارية).²

1. 1. 8: إنسان ما بعد الحضارة(إنسان ما بعد الموحدين): يرى مالك بن نبي أن في سقوط دولة الموحدين "سقوط حضارة لفظت أنفاسها الأخيرة".³ و إنسان هذه المرحلة عاش في فترة من التمزق و تنمية الصراعات، وهو إنسان خرج من الدورة الحضارية لم يعد

¹ . المرجع سابق، ص 31.

² . شروط النهضة. مرجع سابق، ص 78.

³ . وجهت العالم الإسلامي. تر: عبد الصبور شاهين، ط5، دار الفكر، 1986، ص 31.

قادرا على إنجاز أي فعل حضاري فقد طاقته الحيوية، و هو يعطينا صورة للإنسان المنحل حضاريا أو الإنسان الذي خرج من الدورة الحضارية.

ثم ينحو مالك بن نبي باللائمة على الإنسان المسلم الذي تخلى عن همته الحضارية، فاستخف به حكامه و أمراؤه" و ليس من الصواب أن نبحث عن النظم، بل عن العوامل الإنسانية المتمثلة في عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب و الوقت، فالتركيب الأساسي نفسه فقد تحلل معه الحياة الاجتماعية، و يؤرخ لتلك الظاهرة في التاريخ الإسلامي بسقوط دولة الموحدين، الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر ساعتها".¹ و يستطرد مالك بن نبي في تشخيص واقع المجتمع ما بعد الموحدين من زاوية اجتماعية أن جميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة عمران، لم تكن إلا تعبيرا عن حالة مرضية يعانها الإنسان الجديد، الذي خلف الإنسان الحضارة الإسلامية، الذي كان يحمل في كيانه جميع الجرائم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين، فالنقائص التي تعانها النهضة الآن، و يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعة في التاريخ، فنحن ندين له بموارثنا الاجتماعية، و فطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي، و هذا الإنسان لم يكتف بدور المحرك الخفي الذي دفعنا إلى ما ارتكبنا من خيانة لواجبنا، و أخطاء في حق نهضتنا، بل لقد اشترك معنا في فعلنا، لم يكتف بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلفت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقى و الاجتماعي و الفلسفي و السياسي، فبلغنا ذاته أيضا.

1. 1 . 9: إنسان الحضارة: (إنسان الموحدين): هو إنسان وظّف الدين اجتماعيا يقوم من خلاله بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم مستنبطة من النموذج المثالي، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، يجعل من (الوقت) الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر). وقتا اجتماعيا مقدرا (بساعات عمل)، و من (التراب). الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط. مجالا مجهزة كيفية تكييفها فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج. فالتاريخ يبدأ في رأي مالك بن نبي " بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما

¹ . _____ ، وجهة العالم الاسلامي، المرجع السابق، ص. 31

بين جهده و بين مثله الأعلى و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلاً و شاهداً¹.

و الإنسان المتكامل في شخصيته هو الذي ينمي جميع جوانب شخصيته بشكل منسجم متناسق متكامل إلى أقصى درجة ممكنة من النمو، و التربية المتكاملة هي التي تدرك مطالب هذه الجوانب المختلفة كلها و تدرك وسيلة تنميتها إلى أقصى درجة ممكنة من النمو، و تدرك حسابات و نسب النمو المتكامل بين هذه الجوانب المختلفة حتى تشرف إشرافاً دقيقاً على توجيه هذه النسب في إطار من التناسق و التكامل².

و لعل أهم ما يمكن الاهتداء إليه من خلال التأمل فيما في أفكار مالك بن نبي أن ثمة أمران أساسيان ركّز عليهما في غمرة تحليله لإنسان الحضارة:

أولاً: أنه لا يمكن أن يستمر الإنسان في تكوين و بناء حضارة ما دون أن يسترشد بالنموذج المثالي الذي جعله عبرة في حياته الاجتماعية و في تفاعلاتها و في بناء شبكاته الاجتماعية لكي تتحول الثقافة إلى مشروع تربوي أكثر شيوع و تكرار و تردد في المجتمع.

ثانياً: إذا كانت وحدة المجتمع هو إنسان الحضارة المتكيف و المتكامل الذي أنيطت له عملية الشهود الحضاري التي تقف على قاعدة أساسية و هي الكمال (التقويم الحسن).

1 . 2 : أبعاد تشكل الإنسان :

وفيما يأتي استعراض لأفكار ابن نبي في الجوانب المختلفة التي تشكل الإنسان: الروحية والجسمية والعقلية والوجدانية والسلوكية، حسب نموذج تحليلي اقترحه لهذا الغرض. وسنلاحظ أن ابن نبي قد أولى أهمية قصوى للجوانب الروحية والعقلية والسلوكية ضمن إطار تتكامل فيه هذه الجوانب في تناغم بديع دون إهمال للجوانب الجسمية والوجدانية التي تتفاعل وتتكامل أيضاً مع الجوانب الأخرى.

1 . 2 . 1 : البعد الروحي: قد ربط ابن نبي بين ظهور الحضارة في أمة من الأمم واكتشاف الإنسان لأسمى الأشياء؛ وقال في هذا: "فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيداً عن حقيقته

¹ . _____ ، وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص. 32.

² . محمود سلطان السيد، مرجع سابق. ص 18

إذ حينما يكشف حقيقته الكاملة يكتشف معها أسمى الأشياء التي تهيم عليها عبقرته وتتفاعل معها".¹ و قد أولى مالك بن نبي للجانب الروحي في فلسفة الإنسان في الإسلام عناية كبيرة، حيث قال: "يجب على الإنسان أن يشرب و يأكل و ينسل و يملك، ويكافح من أجل استمرار النوع. و لكنه يجب أن يراقب هذه الأعمال الأولية جميعها، و أن يوجهها لغايات تتفق و تقدم النوع. و هو بهذه الطريقة يشترك واقعيا في عمل الله عز و جل، و مع ذلك فهو محكوم . إذا ما نظرنا إلى الأمور من الوجهة الدينية. تبعا لهذا الاشتراك المنوط بتكليفه الديني، أعني تبعا لخضوعه لقانون التقدم الأخلاقي، فإذا ما حملته طبيعته على العمل فإن ضميره هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخيا و أخلاقيا".²

1 . 2 . 2 : البعد المورفولوجي: يرى ابن نبي أن للفرد بصفته عاملا أوليا للحضارة قيمتان: الأولى منها خام، والأخرى صناعية؛ أي أن الأولى طبيعية والثانية اجتماعية. أما القيمة الأولى فهي موجودة في التكوين البيولوجي لكل فرد، وتتمثل في استعداده الفطري لاستعمال عبقرته وتراجه ووقته...وأما القيمة الثانية فإنه يكتسبها من وسطه الاجتماعي؛ وتتمثل هذه القيمة في الوسائل التي يجدها الفرد في إطاره الاجتماعي لترقية شخصيته وتنمية مواهبه وتهذيبها.

ويرى ابن نبي أن للفرد كيانا ماديا ومجالا روحيا؛ فإذا كان الأول يشكل مجاله الحيوي (البيولوجي) ويمنحه منذ ميلاده العناصر الضرورية لنموه بواسطة عمليات الهضم والتمثيل ودوران الدم والتنفس، فإن المجال الروحي هو الذي ينميه من الناحية النفسية. وعليه فإذا ما فقد الفرد صلته بالمجال الحيوي فإنه يموت موتا ماديا، وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتا ثقافيا. وبالإضافة إلى دور الإنسان في حفظ حياته ونموه (الفردية) نتيجة قيامه بمختلف الوظائف الحيوية من شرب وأكل، فإنه يعمل "بداع من طبيعته من أجل الحفاظ على النوع، وبوحي من ضميره من أجل تقدمه، فهو إذن مزود بسلطة مزدوجة. ولكن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة، بحيث يكون عمل الغرائز واندماجها مطابقا لرسالته الاجتماعية". و إذا كان الإنسان يشرب ويأكل وينسل ويملك ويكافح من أجل استمرار النوع فإنه يجب عليه أن يراقب هذه النشاطات الأولية، وأن يوجهها لغايات تتفق وتقدم النوع. ويعتبر "الضمير" المحدد الذي يعطي لعمل الإنسان معنى

¹ . شروط النهضة، مرجع سابق، ص 56

² . ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 70

تاريخيا وأخلاقيا. وليس هذا الضمير إلا العنصر الديني الذي يغذي الجذور النفسية للفرد، والذي يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون "الأنا" الواعية في الفرد، و في تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه "الأنا".

والغريب أن ابن نبي يجاري علماء مدرسة التحليل النفسي، ويقرر أن دور العنصر الديني ليس عامل تنظيم نفسي رئيسي فقط، ولكن دور هذا العنصر يتجلى أيضا "في صورة تحريم مانع في بعض الظروف المرضية، كما في حالة الكبت.

1 . 2 . 3: البعد الوجداني: لم يهتم ابن نبي بالجانب الوجداني بصفة مباشرة، إلا أنه لم يغفله عند تحليله لمشكلة الثقافة حيث اعتبر عنصر الجمال وما يرتبط به من حسن وقبح عنصرا أساسيا في تشكيل الثقافة وفي حل المشكلات التي تواجه مجتمعا ما. ولذا فقد خصص في كتابه "مشكلة الثقافة" محورا تحت عنوان "التوجيه الجمالي" لدراسة تأثير الجمال في الوجدان والإدراك والسلوك، فقال: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل أو بالأفكار الكبيرة، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومسايعه". و يرى ابن نبي أن تصور الجمال لا ينفصل عن عمل الخير، وأنه منبع الأفكار. ولكونه كذلك، فإنه ذو أهمية اجتماعية حيث تصدر عنه أعمال الفرد في المجتمع. ويؤكد ابن نبي أن للجمال علاقة واضحة حتى بأزهد الأعمال؛ ذلك لأن "الشيء الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تتطوق بالجمال، أو تتضح بالقبح، ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان، وفي عمله وفي السياسة التي يرسمها لنفسه، بل حتى في الحقيبة التي يحمل فيها ملابس سفره. "

ونظرا لتأثير الجمال في جميع جوانب الحياة (الألوان، الروائح، الأصوات، الإدراك والسلوك)، فإن ابن نبي يعتبره الدستور "دستور الجمال في النفس الإنسانية" الذي يطبع صورة "الحسن" أو "القبح" في النفس الإنسانية، والذي يوحى بالحلول الممكنة للمشكلات حسب ما تتطبع في الذهن من الناحية الجمالية. والجمال ليس قضية فردية بل هي قضية وطنية أيضا فهو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه.

ومن القضايا المرتبطة بالوجدان التي عالجه ابن نبي قضية المشاعر السلبية كالكرهية والحقد اللذين ينشآن في النفس (في البلاد المستعمرة مثلا) بفعل عوامل خارجية

كالاستعمار. إن نزعة معاداة الاستعمار - بعد الاستقلال وبعد مرور المرحلة الحماسية - لا تصلح أن تكون دافعا ساميا يحرك حضارة ويعطيها مثلها الأعلى ووثبتها الضرورية. وفضلا عن ذلك فإن هذه النزعة إذا ما صفي مضمونها من (المشاعر الإيجابية) عبر الزمن، فقد لا تدع هذه التصفية سوى (مشاعر سلبية)، تقوم على حقد الشعوب التي قاست ظلم طغاتها بينما القضية ليست أن ننتزع العالم من موجة احتقار الكبار لنسلمه إلى حقد الصغار.

إن التحرر الحقيقي هو التحرر الداخلي من المشاعر السلبية إلى جانب التحرر السياسي والقومي؛ ذلك لأن التحرر الداخلي هو الذي يمكن الفرد والمجتمع من التخلص من التأثير العميق الذي أحدثه المستعمر في أعماق وضمائر الشعوب المستعمرة في شكل حالات حرمان وحالات ذهان (اضطرابات عقلية). وعليه، فمشكلة التحرر الشامل، يجب أن توضع إذن في الإطار النفسي، وسنكون قد صفيها هذه الحالات الذهانية وصنوف الحرمان - بعض التصفية على الأقل - إذا ما خلصنا الرجل الأفريقي من المشاعر السلبية التي أصابته بها نزعته المعادية للاستعمار، وأصابه بها حقد عليه.

وهكذا نلاحظ أن تحرير الوجدان عملية مكلمة لتحرير الأرض من المستعمر بل إن عملية تحرير الأرض لا تتم ولا تكتمل إلا بتحرير الوجدان من المشاعر السلبية نحو الذات الفردية والجماعية ونحو الآخر. و لكن لماذا هذه الدعوة لتحرير النفس من المشاعر السلبية نحو المستعمر الذي خرب البلاد ودمر الوجدان في البلدان المستعمرة ؟

كان ابن نبي يتمنى أن تتمخض عن مؤتمر بانونغ - الذي عقدته دول عدم الانحياز سنة 1955 - اتجاه ثقافي (إفريقي - آسيوي) يجد إلهامه الجوهري في روحها الأخلاقي المتمثل في مجموع القيم الروحية والتاريخية التي تقرها الشعوب الأفريقية بوصفها نوعا من التراث. وهذا التراث يمكن - حسب ابن نبي - أن يجد عناصره أولا في المركبات النفسية التي أدت دورا في الصراع من أجل التحرر، وهي مشتركة بين جميع الشعوب التي خاضت هذا الصراع، ثم أنه سيجدها في الاتجاه الذي يخطط للفكرة الأفريقية وجهتها الخاصة بها في العالم، وجهة المصير المشترك بين الشعوب السائرة تحت لواء خطر الحر.

ويرى ابن نبي أن أهم المشكلات التي تواجه الثقافة الأفريقية هي: مشكلة البقاء في عالم تحكمه القوة، ومشكلة الاتجاه المستقبلي لهذه الثقافة لإنقاذ البشرية. ونظرا لاهتمام ابن نبي بوضع الإنسانية ككل، فقد رأى أن الثقافة الأفريقية ملزمة بسبب مأساة هذا القرن العشرين، بأن تتجه أولا نحو الأخلاق وفلسفتها لتحديد مثلها الأعلى، ثم نحو الصناعة

لخلق وسائلها إلى هذا المثل الأعلى. فإنقاذ الإنسان من البؤس والفاقة على محور واشنطن موسكو، هما بالنسبة لنا الضرورتان المحددتان للمشكلة كلها: مشكلة بقائه، ومشكلة اتجاهه، وهذه الضرورة المزدوجة تسيطر بصورة طبيعية على تحديد ثقافته، وبالتالي تسيطر على تحديد منهجه الأخلاق .

1 . 2 . 4: البعد العقلي: أولى ابن نبي اهتماما كبيرا للجانب العقلي عند الإنسان كما يتجلى في عالم الأفكار الذي درسه دراسة مستفيضة وخاصة في علاقته بالبناء الحضاري، كما درس الصراع الفكري وأساليبه في البلاد المستعمرة (بفتح الميم)، ودرس أنواع الأفكار: القاتلة والميتة. و كما اهتم ابن نبي بعالم الأفكار ودوره في البناء الحضاري فقد اهتم بعملية التفكير وبالعلاقتها بالجوانب الأخرى في عملية البناء الحضاري: الجوانب الروحية والسلوكية. ويؤكد ابن نبي أن القوة الدافعة والأساسية في عملية البناء الحضاري هي الطاقة الروحية ولا تأتي الطاقة العقلية إلا في الدرجة الثانية.

ويقرر ابن نبي من البداية أن "الحضارة لا تصنعها كومة من الأشياء المستوردة، وإنما هي بناء تطبعه فكرة معينة". وبدون الجانب الروحي والجانب العقلي فإن عالم الأشياء ليس إلا عبارة عن تراكم أبله جامد لا معنى ولا طعم له مهما كان بريقه وإغراؤه ظاهريا. و لكي يكون الجانب العلي فعالا فعليه أن يركز على المنطق العملي و "هو كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئا بغير مقياس يستمد معاييره من واقع الوسط الاجتماعي وما يشتمل عليه من إمكانيات، إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جدا أن نعرف المنطق العملي أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة. يلاحظ أن ابن نبي لا يتناول الجانب العقلي تناولا مجردا بل يركز أساسا على الجانب العملي منه (المنطق العملي). ويرى أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه شيء يكاد يكون معدوما في العالم الإسلامي.

2: المجتمع:

كان تصور مالك بن نبي أحد أهم الإسهامات التي مازال الفكر الاجتماعي العربي يستلهم مقارباته و تحليلاته في مجال العلوم الاجتماعية و التربوية و الفلسفية. و انطلق مالك بن نبي في تصويره لبناء المجتمع كتنظيم اجتماعي يتسم بالاستمرارية و التغيير، بأسلوب متميز

و فريد لم تعرفه مجتمعات الحضارة قبل ذلك أو بعده، و هو أسلوب يجمع بين الفرد و الجماعة و يحقق للإنسان التطور و النماء. فالمجتمع هو البيئة التي تتوازن فيها الشخصية القادرة على بناء الفعالية في توفير الطاقة القادرة على تصحيح المسار. فهو عبر شبكة العلاقات الاجتماعية هو العمل التاريخي الذي يتطور فيه الإنسان من كونه فردا ليصبح شخصا، أي بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات تربطه بالمجتمع. فالمجتمع هو الجماعة التي تعبر عن خصائصها بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء التغيير. أي أنه تنظيم ذو طابع إنساني يسير طبقا لإلهام ثقافته، فحينما تفقد الثقافة إلهامها يفقد المجتمع مسيرته ليصبح جمعا من البشر يقع في فريسة الشبيبة و المجهول.

2. 1: نشأة المجتمع:

و قد فند مالك بن نبي عدة تعريفات و تصورات حول نشأة المجتمع، فيقول أن المجتمع: "ليس مجرد جمع لعناصر أو أشخاص تدعوهم غريزة الجماعة إلى أن يتكتلوا في إطار اجتماعي معيّن. هذه الغريزة وسيلة لإنشاء المجتمع و ليست سببا في إنشائه ، إذ يضم المجتمع أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد الذين يؤلفون صورته، يضم عددا من الثوابت التي يدين لها بدوامه و بتحديد شخصيته في صورة مستقلة تقريبا عن أفراده".¹ و يقدم لنا مالك بن نبي مثالين كيفية ظهور المجتمع في كلا المجتمعين في الثقافة الغربية و الثقافة الإسلامية، (المادة و الروح)، فركبت الأولى في مضمونها الثقافي مزيجا من الأشياء و الأشكال من التقنية و الجمال، أما الثانية فركبت في ثقافتها مزيجا من فكرتين: الحقيقة و الخير. و اختلاف الزوايا الفكرية و الإيديولوجية لنشأته وتطوره، و ذلك من خلال قصة (روبنسون كروزو) لدانيال دي فوي، و قصة (حي بن يقضان) لإبن طفيل. اللذين تحطمت بهما السفينتين و رسيا على جزيرة خالية من السكان، لكن تتباعدان من حيث الزمان و المكان و من حيث الرؤيا و الهدف، فهما يعبران . بصدق عن نمطي ثقافة مختلفين.

فروبنسون كروزو: ينطلق من عالم الأشياء، فالعزلة في الجزيرة تبدأ من عالم المحسوسات (أكل، نوم، عمل) تضع ثواني الزمن في خدمة اقتصاد شخصي نفعي بحت. و تمحور عالم أفكاره حول الطاولة التي أراد صنعها.

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، 11.

حي يقضان: ينطلق من عالم الأفكار، الوحدة، اتخذت أشكالاً مختلفة تماماً، فتبدأ منذ أن نفقت الغزالة التي تبنت الطفل المنعزل كأم ترعاه، فكان ينظر في جنباتها و إلى أعضائها فلا يرى لها آفة تمنعها من الحراك، فتبدأ الأسئلة تصعد في ذهن ابن يقضان جيئة و ذهاباً، إلى أن يرسو على قناعة أن (الروح) ثم (خلود الروح) و أخيراً (فكرة الخالق) .

إن العالم هنا؛ عالم تتركز فيه الفكرة. فحي بن يقضان لا يتغلب على كآبة الشعور بالوحدة بصنع طاولة؛ بل ببناء الأفكار واكتشافها، إنه عالم لا يتحدد فيه الزمن لصالح شيء ما.¹ و يعطي مالك بن نبي مجموعة من الأمثلة لتوضيح كيفية استمرار و أفول مجتمع، ففي نظره قد يحدث أولاً في بعض الظروف التاريخية أن يفقد مجتمع من المجتمعات شخصيته و يمحي من التاريخ، و مع ذلك فإن عدد أفراده قد لا يتغير في هذه الحالة بل يحتفظ كل فرد بالغريزة التي تحدد معالم الإنسان ككائن اجتماعي و إنما أصبح الأفراد مجرد أنقاض لمجتمع بائد، أنقاض مهياة لأن تدخل في بناء جسد اجتماعي جديد كما هو حال الغالبيين في أوروبا و فرنسا بالتحديد.

و قد يحدث ثانياً أن يختفي الأفراد الذين يكونون مجتمعاً في نهاية جيل معين، و مع ذلك فإن المجتمع يبقى و يحتفظ بشخصيته لا يمسخها شيء كما يحتفظ بدوره في التاريخ بل أنه يفرض على القادمين الجدد عبقريته و تقاليده و عاداته، كما حدث عندما جمع المجتمع الصيني قبائل المانشو و المغول حين قاموا بغزو مملكة الصين.

إن المجتمع عند مالك بن نبي يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن استمراره و تجعله يحتفظ بشخصيته و دوره في التاريخ. و هو بذلك لا يمكن اعتباره مجرداً من الأفراد و إنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية.² هذا التحليل هم العمق الإيديولوجي الذي يواكب المجتمع أثناء عملية التشكل و الميلاد، و هو أشبه بالصفات البيولوجية الوراثية و لذلك فإن: " نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تتم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه و إعادة البناء للقانون نفسه، و هذا القانون هو الذي عبر عنه حديث رسول الله (صلى الله عليه و سلم) ولكن بلغة أخرى حين قال: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).³

¹ . . . ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص.ص، 21، 22.

² . . . ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 24.

³ . . . ، تأملات، تر: عمر كامل مسقاوي، ط9، دار الفكر، دمشق، 2009، ص. 155.

2. 2: تعريف المجتمع: الشروط و المحددات.

تباينت التعاريف حول مفهوم علم الاجتماع، إلا أن ماركس عرّفه بـ " علم دراسة المجتمع "، لذا حضي مفهوم المجتمع بكثير من الدراسات و القراءات، إلا أن مالك بن نبي أعطى للمفهوم بعدا قيمي و وظيفة و أخلاقيا، مكنه من تبوؤ مكانة رائدة بين علماء العرب في هذا المجال.

2. 2. 1: المجتمع كظاهرة فطرية في المجتمع الإنساني: و كانت محاولات مالك بن نبي

لبناء مجتمع لإيمانه بدور الفرد في بنائه و العكس كذلك. فالمجتمع عند هو: " الجماعة الإنسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن أن نطلق عليها (ميلاد) كحدث يسجل ظهوره شكل من أشكال الحياة المشتركة، كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة. و يظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين أفراد جماعة معينة".¹

إن عملية الاجتماع و التآلف بين الأفراد في نسق اجتماعي واحد هو ظاهرة إنسانية محضة يختص بها المجتمع الإنساني وحده عن بقية المجتمعات الحيوانية الأخرى، و هذا بالطبع يدخل في التكوين النفسي المصحوب بالنص القرآني و في الفطرة التي أودعها الخالق في عبادة يقول مالك بن نبي: " ففي حشرة بسيطة كالنحلة نرى أن الحياة الاجتماعية ضرورة لكيان الفرد، فهو يلقي نفسه إلى التهلكة إذا انفصل عنها، الإنسان شأنه في هذا الشأن النحلة، إنه لا يستطيع أن ينعزل عن المجتمع و يحاول بجهد الخالص، إذ مصيره من غير شك إلى الموت".² فقد أشار مالك بن نبي إلى المجتمع الحيواني ممثلا في مجتمع النحل . على ما يبدو عليه من تنظيم محكم . على أنه مجتمع تسييره الفطرة فقط التي أودعها الخالق في النحل، و فالنحلة لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تنفصل عن الخلية، لأن مصيرها الموت حتى و إن توفرت أسباب الحياة الطبيعية، لقد غرس الله في غريزتها سر الحياة الاجتماعية، ليكشف فطرية الاجتماع الإنساني.

و الفرق بين المجتمع الحيواني و المجتمع الإنساني هو ذلك الفرق في طبيعة الأهداف التي تحرّك كل منهما نحو أفرادها، فإذا كانت وظيفة المجتمع بصفة عامة هي حفظ كيان الفرد و تحقيق أهداف معينة له، فإن هذه الأهداف في مستوى الحشرات تتلخص في حفظ النوع،

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 18.

² . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 155

لكنها في مستوى الإنسان أكبر من مجرد حفظ النوع، لأن الإنسان يعيش لأهداف أخرى تتجاوز حفظ النوع إلى مستوى الارتفاع بالنوع وجهة حضارية.¹

فالجانب التاريخي يسهم بقسط وافر في تحديد خصائص المجتمع و سماته و ماهيته، حيث يتجاوز التعريف الكلاسيكي التقليدي الساكن لـ (المجتمع) و الذي يعرفه بأنه: "تجمع أفراد ذوي عادات متحدة يعيشون في ظل قوانين واحدة و لهم فيها بينهم مصالح . و يضيف . هذا التحديد خارجي وصفي لا يعطي أدنى تفسير لتنظيمه الداخلي الذي قد لا يكون كفاء لأداء مثل هذه الوظيفة " .²

2 . 2 . 2 : مفهوم المجتمع من الناحية الزمنية: يتجاوز مالك بن نبي التعريف الزائف . كما يسميه . الذي يعرّف المجتمع بتجمع الأفراد في إطار عادات و قوانين معينة، فيقول مالك ابن نبي: " ينبغي أن نحدد (المجتمع) في نطاق الزمن فتجمعات الأفراد الذين لا يعدّل الزمن من علاقاتهم الداخلية، و لا تتغير نشاطهم خلال مدة، لا تعد من التجمعات الخاصة التي نقصدها بمصطلح مجتمع."³، فالمعيار المعتمد لا يستند إلى الجانب الكمي (تكديس الأفراد) فنسمي كل تكديس بشري مجتمعا، و لهذا فقد تورط أهل العلم أنفسهم (أهل العلم الإيثولوجي)، في أوروبا بهذه التعبيرات الزائفة فسموا التجمعات البدائية مجتمعات.

و قد أطلق مالك بن نبي في توضيح الرؤية القرآنية التي شكّلت فكره حول ميلاد و استمرار فكرة المجتمع في حركة ديناميكية متصاعدة، فنحن . يضيف مالك بن نبي . يمكننا إلى حدّ ما أن نصوغ هذا الرأي الذي ذهب إليه المؤرخ صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم، فقد نستطيع أن نفسّر هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية في هذا المجتمع، أعني شروط حركته عبر قرون.⁴

2 . 2 . 3 : مفهوم المجتمع من الناحية الوظيفية: ينطلق مالك بن نبي من فكرة مؤداها أن الاجتماع الذي يتمثل فيه أول عمل يؤديه مجتمع إبان ميلاده يترجم ترجمة صادقة و قوية عن شبكة علاقاته الاجتماعية، و أصدق ما يدل على ذلك في المجتمع الإسلامي اجتماع المسلمين في المسجد، في صلاة الجمعة مثلا، فهذا الاجتماع يحمل في مضمونه

1 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 25 .

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 15

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 15

4 . _____ ، المرجع سابق، ص 24 .

أكبر المعاني التي تذكره بميلاده، فهو رمزه و تذكاره.¹ و يدقق في التدايل عن المجتمع من الناحية الوظيفية من نقطة محورية و هي: "لم ندقق في مصطلحات علم الاجتماع ، ففهمنا أن المجتمع ربما هو عبارة عن عدد من الأفراد يعيشون كما يشاؤون مهما كانت الصلات بينهم، ليس هذا هو المجتمع، هذا يمكن أن نسميه بقايا مجتمع أو بداية مجتمعات قبل أن تقوم بوظيفتها التاريخية، أما المجتمع الذي يقوم بوظيفته نحو الفرد و يحقق راحة الفرد...فهو ليس عددا من الأفراد و إنما هو شيء خاص، هو بنيان و ليس تكديس لأفراد، بنيان فيه أشياء مقدسة متفق عليها.² و هنا تكسب الجماعة الإنسانية صفة (المجتمع) عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غاياتها. و هذا يتفق من الوجة التاريخية مع لحظة انبثاق الحضارة.³

هذا التحديد يأخذ بالحسبان وظيفية المجتمع و دوره في التاريخ، و يراعي الضمانات الاجتماعية، أي مجموع الشروط المادية و المعنوية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها في كل طور من أطوار نموه.

2. 2. 4 : تعريف المجتمع من الناحية النفسية و الاجتماعية: و هو تعريف يبدأ بدخول

عالم الأفكار إلى مجتمع ما ، لتبدأ الحركة التاريخية التغييرية في تغيير الإنسان ، فيقول : " تكسب الجماعة الإنسانية صفة (المجتمع) عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. و هذا يتفق من الوجة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة".⁴

2. 3 : الحركة التغييرية لمجتمع :

2. 3. 1 : حركة مستمرة (الفكرة): ينشأ المجتمع من منظور مالك بن نبي من فكرة دينية

يتأسس من خلال بناؤه و استمراريته، و تكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. فلا بد من (فكرة) يجتمع عليها أفراد المجتمع، و تسجل نقطة الميلاد الاجتماعي و انطلاق الطاقات و بدون هذه الفكرة تفقد العلاقات قيمتها، و يفقد المجتمع أهميته في حفظ كيان الفرد و تحقيق الجماعة. فتكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة،

1. _____ ، المرجع سابق، ص 31

2. _____ ، المرجع سابق، ص 155

3. _____ ، المرجع سابق، ص 18.

4. _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 18

أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. و هذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة.¹

2 . 3 . 2 : الإنتاج الدائم للأسباب: إنتاج دائم لأسباب ميلاد المجتمع الأول و تسجيل حضوره في التاريخ، إذن المجتمع كيان دائم الحركة والتغير و حركة الجماعة تؤدي بها إما الى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية، وإما أن يسوقها على عكس ذلك الى وضع متخلف.

فهذه الأسباب شرط لتطور المجتمع عند مالك بن نبي، و لا تأتي هذه الحركة إلا بوجود شبكة العلاقات الاجتماعية و أي تدهور في هذه الشبكة يؤدي إلى توقف حركة المجتمع، و بالتالي فإن عملية (ميلاد مجتمع) لا تتم إلا عن طريق التغيير الاجتماعي المشروط باكتمال شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. و من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هم الميثاق الذي يربط الأنصار و المهاجرين و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأن تتفق مع عمل شخصي قام به النبي (صلى الله عليه و سلم)، و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاثة : (عالم الأشخاص، عالم الأشياء، عالم الأفكار).²

و المجتمع عند مالك بن نبي يحمل في طياته الصفات الذاتية التي تضمن استمراره و تحفظ شخصيته و دوره عبر التاريخ. و هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهرى للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، و استمراره عبر الزمن، و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد فيما بينهم، و توجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به. فتكوّن هذه الشبكة، و لو في مرحلة ابتدائية هو الذي يعبر عن حدث (ميلاد مجتمع) في التاريخ.³

2 . 3 . 3 : الغاية: فان أمام كل مجتمع غاية، لا يملك إلا الحركة نحوها أو بعيدا عنها و أن تنظيم مجتمع يجري طبقا لمقاييس و قواعد و هي في حقيقتها قيم خلقية لم ينتجها،

¹ . _____ ، المرجع سابق، ص 18.

² . _____ ، المرجع سابق، ص 28.

³ . _____ ، المرجع سابق، ص 28.

و لكنها تنظم نشاطه في سبيل غايته، فهو يندفع في حركته إما الى الحضارة و إما الى الانهيار. وفي مقابل ذلك نجد انه حينما تنعدم الحركة ، فان الجماعة الإنسانية تفقد تاريخها : إذ تصبح .. ولا غاية لها.¹

و في هذا الإطار يجدر التمعن في الاستخدام الذي جرى عليه مصطلح (الحركة) في حقل علم الاجتماع. إذ يستتبع هذا الأخير . الذي يتطابق عادة مع مصطلحي التغيير و التطور . فكرة ذات قيمتين مؤداها " ان تطور الجماعة يؤدي بها إما إلى شكل راقٍ من أشكال الحياة الاجتماعية، و إما أن يسوقها على العكس ذلك إلى وضع متخلف".² و ممارسة المجتمع لحركته الحتمية نحو قدره هي ما يسميها مالك صناعة التاريخ. والتي يتحكم فيها تأثير عوالم ثلاثة هي:

✓ تأثير عالم الأشخاص.

✓ تأثير عالم الأفكار.

✓ تأثير عالم الأشياء.

بمعنى أن تاريخ أي مجتمع ينتج من تكامل مقومات أولية ثلاثة الإنسان، الفكرة، المادة. أولاً: الإنسان: الوحدة المكونة للمجتمع. و يرى مالك بن نبي أن كل ما يغير النفس، يغير المجتمع، و من المعلوم أن أعظم التغيرات و أعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية.³ و لا يستطيع المسلم أو غير المسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير أولاً ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانوناً إنسانياً وضعه الله عز و جل في القرآن، سنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر.⁴

ثانياً: الفكرة: وهي الثروة الحقيقية للمجتمع، ففاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملاً متجانساً من الأشخاص و الأفكار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. و كلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أوثق كان العمل فعالاً و مؤثراً.⁵

¹ . _____ ، المرجع سابق، ص 18.

² . _____ ، المرجع سابق، ص 16.

³ . _____ ، المرجع سابق، ص 80.

⁴ . _____ ، دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، 1978. ص58.

⁵ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 37.

و تتولى الفكرة ميلاد المجتمع الذي ينشأ من خلال القواعد و الأسس التي تبعثها فيها، فالفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى عملية شرطية تمثل ما يصطلح عليه علم النفس الفرويدي بـ (الكبت). و هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحياة الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تبلغ و لكنها انضبطت بقواعد نظام معين. و في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور في جسده، و يخضع وجوده في كليته إلى مقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.¹

ثالثاً: المادة: هي الوسيلة التي تطوعها الفكرة لتحقيق غايات الإنسان. و ذلك من أجل أحداث التوازن داخل المجتمع، فطبيعة المجتمع الإسلامي يقوم على دعامتين: الروح و المادة. و الجانب المادي هنا ليس إلا ذلك الشق المادي للحضارة (الشروط المادية و المعنوية) و الحضارة هي التي تمنح للمجتمع مع القدرة الاقتصادية التي تميزه بخاصيتها كمجتمع نامي، و إرادة استخدام هذه القدرة في حل جميع المشاكل، و خاصة المشاكل التي تواجه المجتمع المتخلف بمدى أشد من القسوة. كما أن الحضارة هي التي تشكل هذه القدرة و هذه الإرادة اللتين لا تقبلان الانفصال عن وظيفة المجتمع النامي، داخل المساحة الخاصة به، في إشعاعه الثقافي و الاقتصادي وحتى في توسعه السياسي أو الإمبريالي كذلك.²

والعمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص و الأفكار و الأشياء جميعاً ، وذلك يعني أن احدهما فقط لا يكفي وطغيان احدهما على الآخر يؤدي بالضرورة الى إخلال لتوازن المجتمع. ويعني أيضاً لا بد من توافر الصلات الضرورية لربط هذه العوالم الثلاثة ببعضها البعض لتشكيل كيانا عاما وتنتج عملاً مشتركاً. هذه الصلات التي تربط بصورة متداخلة ومتكاملة كلا من الأشخاص و الأفكار و الأشياء هي عصب المجتمع وهي ما يطلق عليها مالك بن نبي بشبكة العلاقات الاجتماعية. و يخضع المجتمع إلى دورة تطويرية خاصة بالنمو الاجتماعي نتيجة لغلبة عنصر ثقافي محدد، و من الطبيعي أن تكون ثقافة أي الثقافة الأخلاقية هي الميزة الأكثر حضوراً في ثقافة أي مجتمع ناشئ، و على العكس من ذلك

¹ . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، 75.

² .. _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، 43.

تبرز النزعة الجمالية المرتبطة بالغريزة و البعيدة عن أصول الجمال الحق في مراحل الأفلو، و تتمثل هذه الدورة التطورية في المرحل التالية:

أ/ **المرحلة الكاملة:** وهي مرحلة تكون فيها جميع الخصائص و الملكات تحت سيرة (الروح)، و متصلة بالاعتبارات ذات الطابع الميتافيزيقي. فنفسية الفرد في المجتمعات التاريخية على الأقل مفعمة بالنزعة الدينية، تلك التي تعد جزءا من طبيعته، و هو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريف الإنسان: أنه (حيوان ديني)، و هو بذلك يحدد جانبا من الأساس النفسي العام في أفراد النوع، وكل فرد يبني شخصيته الخاصة على هذا الأساس.¹

ب/ **المرحلة المتوسطة:** و هي التي تكون فيها جميع الخصائص و الملكات تحت سيطرة العقل خاصة، و متجهة نحو المشكلات المادية. وهو مرتبط باتساع دائرة الحضارة و انتاجات العقل، في غياب التوازن بين الروح و المادة، الشيء الذي يؤدي إلى صراع نفسي مرير بين الروح و العقل، و تم استخدام هذا الأخير بطريقة سيئة، بقي على إثرها يواجه أزمته المستمرة. فالضمير من وجهة نظر إبن نبي هو تلخيص نفسي للتاريخ، و خلاصة لأحداث الماضي منعكسة على ذات الإنسان، فهو بلورة للعادات و الاستعدادات و الأدواق.²

ج / **الحالة النهائية:** فتصور نهاية تحلها تحت سلطان (الغرائز) المتحررة من وصاية الروح و العقل، فيصبح النشاط المشترك مستحيلا، ضاربا بأطنابه في أغوار الفوضى و الاضطراب، و هو ما نجده في حالة المجتمع الإسلامي في الأندلس، في العصر المشؤوم المسمى بعصر (ملوك الطوائف).³

2 . 4 : أنواع المجتمعات :

و تبرز في فكر مالك بن نبي مرحلتين أساسيتين يمر بهما المجتمع في حالة تطوره، و هي انعكاس لمرحل تطور الحالة النفسية و الثقافية للإنسان، و انتقاله من مرحلة الإنسان الطبيعي إلى مرحلة الإنسان المكيف الخاضع لعملية الإشراف و التكيف.

2 . 4 . 1 : المجتمع الطبيعي: و هو مجتمع ساكن، مازال يعيش على حالته الطبيعية البدائية الأولى، و هو مجتمع مذرذر (من الذرة) لم يبن بعد بنية عقلية مستقلة لعقل الأشياء و فركها، ولم تتدخل فيه الفكرة الدينية المحركة لعجلة المجتمع، ومازال الإنسان فيه لم يتمثل

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 69

² . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 115.

³ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 40.

للدين و لم يكتف خصائصه الطبيعية بعد، و يحتفظ بالخصائص البدائية التي يمارس من خلالها المجتمع بعض العادات المتعلقة بالتجارة و الحروب و حياة الصعلة كالسلب و الغار، وبعض الصنائع الحياتية التي تلبي حاجات المجتمع اليومية أو لأداء طقوسه الدينية، " فهناك فرق جوهري بين (المجتمع الطبيعي) أو البدائي، و هو الذي لم يعدل، بطريقة مُحسّنة، المعالم التي تحدد شخصيته منذ كان، و بين المجتمع التاريخي الذي ولد في ظروف أولية معينة؛ و لكنه عدل من بعد، صفاته الجذرية ابتداء من هذه الحالة الأولية، طبقا لقانون تطوره.¹

و تبقى ملامح و معالم هذا النوع من المجتمعات على حالة من السكون و الثبات، لأن طبيعة الإنسان لم تتحول من الغريزة إلى الروح و العقل. و مازال لم يكتف نفسه مع السياقات الجديدة، أو لم يدخل إلى عالم الفكرة الدينية ليؤسس شبكة علاقاته الاجتماعية. " و هذا النوع يحقق نموذج المجتمع الساكن ذي المعالم الثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل أو النحل. و القبيلة الأفريقية في عصرها ما قبل الاستعمار، و القبيلة في العصر الجاهلي تمثلان هذا النموذج.²

2 . 4 . 2: المجتمع التاريخي: و هو مجتمع مكيف، متحرك، عدل من صفاته الغريزية في إطار عملية تغييرية تأخذ بالإنسان كمحور لها، و هو خاضع لقانون التطور قابل للاجتماع و الانخراط في شبكة علاقات اجتماعية متينة. متجاوزا عالم الأشياء إلى عالم الأفكار في عملية تخصيص فكري للبواعث الثقافية في مجال التجديد و الخلق و الإبداع. فالنموذج التاريخي من المجتمعات يتعرض للتنوع الناشئ عن ظرف التاريخي الذي يتيح له ميلاده. و هناك من هذه الزاوية نوعان من المجتمع:

أولاً: المجتمع التاريخي الذي يولد، فيكون ميلاده إجابة عن اختيار مفروض، تفرضه الظروف الطبيعية الخاصة بالوسط الذي يولد فيه، سواء تعرض هذا الوسط لتنوع مفاجئ أو أن العناصر المكونة له قد واجهت فجأة ظروف وسط طبيعي جديد. و هذا هو النموذج الجغرافي. الذي ينتمي إليه المجتمع الأمريكي، الذي تشكل من خلال الهجرات الأوروبية التي شكّلت إرهابات مجتمع جديد تكيف مع الظروف الطبيعية في القارة الجديدة.

¹ .. المرجع سابق، ص 9

² .. المرجع سابق، ص 9

ثانياً: المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية لنداء فكرة : هذا هو النموذج الفكري (الإيديولوجي). الذي ينتمي إليه المجتمع الإسلامي، و المجتمع الأوروبي الأصلي، و المجتمع السوفيياتي والصيني.¹ وما أن يتشكل هذا المجتمع التاريخي حتى يكتسب خاصية الحرية و المسؤولية اللذان تدفعانه إلى الدفاع عن كيانه الجديد المكتسب من خلال الفاعلية و خلق التوتر و المبدأ الأخلاقي الذي أتاح له الاندماج في الكيان الجديد، فيقول ابن نبي في هذا الصدد: " بالنسبة إلى مجتمع تاريخي، فإن دفاعه عن أسلوب حياته، هو دفاع عن شخصيته، و عن مبدأ إدماج أفراد في نطاقه، و تحديد علاقاتهم به بحيث يصبحون بمثابة التعريف بهم، كما يصبح مجتمعهم بمثابة المعرف بهم، فالإرغام الاجتماعي و الموقف النقدي . سواء كان هذا الفرد واعظاً في جمعية إرشاد، أو صحفياً في جريدة أسبوعية، أو شاعراً هزلياً، أو فنانياً مهتماً بالجماليات، أو ناقداً أدبياً، أو ناقداً سياسياً، أو قاضياً عدلياً . هما المظهران الأساسيان لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية " .² و يقوم المجتمع على دعامتين أساسيتين:

أولاً: الروح: و هي الفكرة الدينية التي تحدث في المجتمع حالة (الطاقة الحيوية) تحول الإنسان من فرد إلى شخص، يفقد خصائص طبيعية تولد معه، إلى شخص مكيف مع مقتضيات المجتمع التاريخي، فالروح هي التي تُؤنسن الإنسان أو اجتماعية المجتمع، تصنعه البذرة الدينية في المجتمع، أو على لغة مالك بن نبي الدفعة القرآنية، " إذن فالعلاقة الروحية بين الله و بين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، و هذه بدورها تربط ما بين الإنسان و أخيه، و تلدها في صورة القيمة الأخلاقية. فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية، و العلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنها حدث، و من الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد".³

فالفكرة الدينية بمثابة الوقود في المحرك الميكانيكي، فليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن يبدل نمط أو زي لباسه و نوعية أثاث منزله و مكتبه، و لكن المهم أن نحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة و الأخلاق و الاقتصاد و كافة المجالات، و بكلمة واحدة أن نقلع و نصفي القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي حتى تنطلق طاقته الحيوية من

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 12

² . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 84

³ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 56.

عالمه الخارجي.¹ ويضيف في معرض حديثه عن الفكرة الدينية كأساس لبناء المجتمع: "نستطيع أن نقرر أن الفكرة الدينية التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية، و معنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره. كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود. و معنى هذا أيضا أن شبكة العلاقات الاجتماعية بكل ما تحتويه من خيوط و أطراف، و التي سيتسنى للمجتمع بفضلها أن يؤدي عمله التاريخي . هي ذاتها تعد في حيز القوة، داخل البذرة التي تشمل جميع أقدارها".²

ثانيا: المادة: و هي الدعامة الثانية في بناء المجتمع، حيث لا يمكن أن يستمر المجتمع دون وجود الجانب المادي فيه الذي تتم من خلاله الحركة و استمراريتها، فالروح تبني الجوهر و تسيّر و توجه التجويف الداخلي للمجتمع، بينما المادة هي الدعامة التي تحدث التوازن داخله، و لا غرابة أن نجد في تعريف مالك بن نبي للحضارة نجده يؤكد . إلى جانب الشروط المعنوية . على الشروط المادية، فلم يغفل المشروع الاقتصادي عنده جانب الزكاة، و تحريم الربا، و تحبيب الصدقة و غيرها من الأمور ذات العلاقة بالجانب المادي، " فإذا إرادة مجتمع و قدرته تضيفان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة، . و هي جملة العوامل المعنوية و المادية اللازمة لتنمية الفرد . وهي نفسها تتموضع في شكل سياسة، و في صورة تشريع يمثلان إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي و الأخلاقي.³

2. 5: أسباب انهيار المجتمع :

2. 5 . 1: سيطرة الغرائز: إذا كان المجتمع يقوم على الفكرة الدينية أو على الروح، فإن انهياره يتم بقدر ما تخفت هذا الروح أو الطاقة الحيوية، فكل الحضارات و المجتمعات القديمة اندثرت بفعل انتشار طاقة الغريزة فيها سواء أكانت هذه الغريزة حيوانية متمثلة في شهوات الحياة، أو خروج الإنسان من إنسانيته المكيفة و رجوعه إلى البهيمية، أو إلى حالة المجتمع الطبيعي، وهي مرحلة متأخرة من دورة المجتمع، يفقد فيها الإنسان خصائص المجتمع الأول المبني على القيم الأخلاقية و الفكرة الدينية، و تخور الطاقة الحيوية القادرة

¹ . _____ ، شروط النهضة. مرجع سابق، ص 194

² . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 56.

³ . _____ ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 43.

على التجديد و الخلق و التكيف، فالمجتمع ما بعد التحضر ليس مجتمعا يقف مكانه، بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته و قطع حضارته و قطع صلته بها.¹

2 . 5 . 2 : انطفاء جذوة التوتر: و هو نتيجة منطقية لمجتمع دخل في محلة الغريزة، إذ تدفع المجتمع نحو الزوال تحت ضغط جاذبية عالم الأشياء، فالفكرة الدينية هي عبارة عن طاقة حيوية، و القوة الفاعلية التي تمكن من تركيب العناصر ، فانطفاء هذه الجذوة هي إيذان بانهيار المجتمع و انسحاقه تحت الغريزة، " نحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية و توجيهها، و أول ما يصادفنا في هذا السبيل هو أنه يجب تنظيم تعليم (القرآن) تنظيما (يوحي) معه من جديد إلى الضمير المسلم (الحقيقة) القرآنية، كما لو كانت جديدة، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير. و ثاني ما يصادفنا هو أنه يجب تحديد رسالة المسلم الجديدة في هذا العالم، فبهذا يستطيع المسلم منذ البداية أن يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، حتى ولو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى و مبادئه، كما أنه يستطيع أن يواجه . على الرغم من فقره أو ثرائه . مسؤولياته مهما يكن قدر الظروف الخارجية و الأخلاقية أو المادية".² و يقرر مالك بن نبي أن تحلل و تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية هي إيذان بانهيار المجتمع و تفككه، عندا يرتخي التوتر في خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية، فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعّالة، فذلك أمارة على أن المجتمع مريض، و أنه ماض إلى نهايته.³

2 . 5 . 3 : فقدان شبكة العلاقات الاجتماعية: و هي مرحلة متأخرة من هذا الانهيار، إذ بعد أن تسيطر الغرائز على الإنسان المتحلل، و تجعل منه فرد لا يضطلع بالمهام التاريخية، و بعد انطفاء جذوة الطاقة الحيوية في الإنسان، تتغير أهداف و تتحول الحكمة فيه إلى سكون، لأن الغريزة تمثل الثبات فيه، فقدان شبكة العلاقات الاجتماعية تعني بالضرورة انهيار العلاقات الاجتماعية و نظام الأفعال المنعكسة، و بالتالي يأتي دور (تضخم الأنا) الذي هو يعتبر أول عمل يؤدي إلى فساد الإنسان و خروجها من دائرة الإنسان المكيف المتحضر إلى الإنسان المتخلف، فهذا النوع لا يقبل الحوار مع الآخر، و ينعدم فيه العمل المشترك و الجماعي و تطغي عليه الحالات الفردية، فقبل أن يتحلل أي مجتمع تحللا كلياً

¹ . المرجع سابق، ص 38

² . ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 114

³ . المرجع سابق، ص 43

يحتل المرض جسد اجتماعي في هيئة إنفصالات في شبكته الاجتماعية. و هذه الحالة المرضية قد تستمر قليلا أو كثيرا، قبل أن تبلغ نهايتها في صورة انحلال تام، و تلك هي مرحلة التحلل البطء الذي يسري في الجسد الاجتماعي.¹

ويستطرد مالك بن نبي في حالة زوال مجتمع فإن المجتمع مهما فقد من روحه، و سار إلى درب الزوال، فإنه يعيد ليستأنف دورته، و ذلك باحتفاظه ببعض خصائصه، " قد يحدث فيلا بعض الظروف التاريخية أن يفقد مجتمع ما شخصيته و يمحي من التاريخ، و مع ذلك فإن عدد أفراده قد لا يتغير في هذه الحالة، بل يحتفظ كل فرد بغريزة و العيش في جماعة، و هي الغريزة التي تحدد معالم الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا، و إنما أصبح الأفراد مجرد أنقاض لمجتمع بائد، مهياة لأن تدخل في بناء جسد اجتماعي جديد".²

2 . 6 : المجتمع و عالم الأفكار :

إذا كان المجتمع المتخلف في نظر مالك بن نبي هو ذلك المجتمع الموسوم بنقص في الوسائل المادية (الأشياء)، و إنما بافتقار للأفكار، يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه؛ بقدر متفاوت من الفاعلية، و في عجزه عن إيجاد غيرها، و على الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق، عندما يتخلى عن أي رغبة و لو مترددة بالتصدي لها.³

فالمجتمع هو وليد الأفكار التي تغير من صفاته التقليدية إلى سمات التحضر و المدنية، فهو مرهون لها في حالة ما إذا كانت أفكارا قاتلة و هدامة، و هو مدين لها في وجود و استمراره و حركيته، فالمجتمعات لا تقاس بكمية ما تملك من (أشياء) بل بمقدار ما فيه من أفكار. ثم أن الشروط النفسية الزمنية التي تنمو في محيطها الأفكار و تؤتي ثمارها بأكبر قدر من الفعالية بالإضافة إلى ارتباط الأفكار نفسها التي تسهم في النهضة الفكرية لأي مجتمع، كل هذه الشروط تصبح عديمة الجدوى إذا لم تخاطب سياجا من العلاقات الاجتماعية التي تنمي عالم الأفكار وتغذيه بالحيوية و تمده بعناصر الفعالية، يحدث أن تلمّ بالمجتمع ظروف أليمة، فتمحو عنه (عالم الأشياء) محوا كاملا، أو تفقده إلى حين، ميزة السيطرة عليه، فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على (عالم الأفكار) كان

¹ . المرجع السابق، ص 44

² . المرجع السابق ص 13

³ . مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 36

الخراب ماحقا، أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره فإنه يكون قد أنقذ كل شيء، أو أنه يستطيع أن يعيد بناء (عالم الأشياء). هذا البناء هو ذات نوع من العمل المشترك الذي يقوم به مجتمع معين، هذا العمل ضرب من المستحيل، ما لم تكن هناك شبكة العلاقات الاجتماعية التي تنظمه و تجعله سبيلا إلى غاية معينة، و بذلك نستنتج أن ثروة الأفكار وحدها ليست كافية، لأن فعالية الأفكار تخضع إذن لشبكة العلاقات الاجتماعية، إي أننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا عن الأشخاص و الأفكار و الأشياء، دون هذه العلاقات الضرورية، و كلما كانت ثروة مجتمع معين يتوقف تقديرها على كمية أفكاره من ناحية، فإنها مرتبطة بأهمية شبكة علاقاته من ناحية أخرى، والحد المثالي للتطور الاجتماعي الذي يمكن أن يبلغه مجتمع ما متوقف على الحالة التي يحقق فيها هذا المجتمع الظروف النفسية الزمنية لأداء نشاطه المشترك.¹

و المجتمع من خلال الأفكار ينتج أسباب البقاء و الحياة و الاستمرار، و إما مآله الزوال، فالمجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، و لا المنتجات الضرورية لتصنيعه.²

بينما تؤثر الأفكار الميتة في استمرارية المجتمع بتعطيله عن أداء دوره الحضاري بفعل هذه الأفكار التي فقدت مشروعية بقاءها على مسرح الحياة، و هي أفكار تجاوزها الزمن تدخل في لا شعور المجتمع، و تبقى تسيّره من خلال العادات و التقاليد و الأعراف، فيقول مالك بن نبي في هذا الشأن: "هناك حقيقة في منتهى الوضوح: إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي (أفكارا ميتة) تمثل خطرا أشد عليه من خطر (الأفكار القاتلة)، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكون . ما لم نجر عليها عملية تصفية . الجرائم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، و هي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه".³ هذا و قد أولى ابن نبي عند حديثه عن الثقافة . بوصفها أسلوب الحياة في مجتمع معين، أمة معينة من ناحية، و كذا السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع، تلك الأمة من ناحية أخرى . عملية تنظيم الأفكار في المجتمع أهمية كبيرة و أساسية، فهي

1 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 37

2 . _____ ، القضايا الكبرى، ط1، دار الفكر، دمشق، 1991. ص 198.

3 . _____ ، في مهبط المعركة، مرجع سابق، ص 130

أما أن تكون سببا في تقدمه المجتمعي الحضاري، أو أن تكون ذات وظيفة أخرى تؤدي به إلى الركود و الفوضى و التخلف.¹ و في هذا السياق يقول: "إن تنظيم المجتمع و حياته و حركته، بل وفوضاه و خموده و ركوده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع، فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدل في الاتجاه نفسه، إن الأفكار تكوّن في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أن مختلف مراحل تطوره (أي المجتمع) هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري؛ فإذا ما كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على ما يسمى بالنهضة، فإن معنى هذا أن المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار و أن هذا النظام يتيح لكل مشكلة من (مشكلاته) الحيوية حلا مناسباً".²

3: العلم و المعرفة:

ارتبطت المعرفة في فكر مالك بن نبي الحضاري بالمبدأ الأخلاقي الذي يعزي إليه المقاربة الثقافية لها، حين أولاه أسباب قيام الحضارة من خلال بروز الفكرة الدينية في المجتمع الحديث، كما يسهم الدين في تشكيل وتجديد المناخ العقلي لمجتمع ما. وهذا ما يوجزه ابن نبي في قوله: "إن القرآن الكريم لم يأت قطعا، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور".³

فحين يتحدث فحين تحت عن المبدأ الأخلاقي، و هو العنصر الأول في نظريته الثقافية، أشار إلى ما بين الثقافة و العلم من فروق من هذه الجهة، حيث رأى أن الثقافة تقوم بتحديد الصلات بين الأفراد، بينما يقوم العلم بتحديد الصلات الخاصة بالمفاهيم و الأشياء، و يوضح ابن نبي هذا الفرق في تباين السلوك الذي يظهر بين الرجل العالم و الرجل المثقف، فالرجل العالم حسب قوله قد يكون عنده إمام بالمشكلة كفكرة، غير أنه لا يجد في نفسه الدوافع التي تجعله يتصورها عملا، في حين أن الرجل المثقف يرى نفسه مدفوعا بالمبدأ الأخلاقي الذي يكوّن أساس ثقافته، إلى عمليتان: عملية هي مجرد علم، و عملية أخرى فيها تنفيذ و عمل.

¹ . موسى الأحرش، إستراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مخبر التربية و الانحراف و الجريمة في المجتمع،

ط: ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 172

² . _____ ، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 13

³ . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص ص 183، 184.

فالإطار الثقافي الحضاري الذي انطلق منه ابن نبي هو فهم الحضارة في قيامها و معرفة أسباب السقوط، فالتأسيس يكون من الروح الجديدة التي تدبّ في الجسد من خلال قيام المجتمع، أمام الاستمرارية فتكون بإضافة الجانب المادي و المنتج العلمي بغية إحداث توازن داخل المجتمع، فيقرر في هذا المنحى، و يؤكد أن العلم هو الأساس الذي يعطي التوازن لمفهوم الحضارة: " إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، و لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته منا لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، و ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، و ما الحضارات المعاصرة، و الحضارات الضاربة في ظلام الماضي، و الحضارات المستقبلية إلاّ عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها، و يا لها سلسلة من النور .. تتمثل فيها جهود الأجيال المتعاقبة في خطواتها المتصلة في سبيل الرقي و التقدم".¹

3 . 1 : تعريف العلم عند مالك بن نبي :

لم يكن مالك بن نبي من المفكرين الذين طرحوا فكرة الإسلام و العلم من منطلق الأسبقية، أو من حيث التعارض و الاختلاف، و هو القدم من مجتمع مشبع بالفكرة الدينية إلى آخر قطع شوطا كبيرا في فتوحاته العلمية. و يعرف ابن نبي العلم من حيث ماهيته ذلك التعريف العام الذي يأخذ به العالم الوضعي، و الفقيه في العلوم الدينية، فيقول " إن كل علم هو في جوهره الجهد الذي يبذله الإنسان من أجل اكتشاف ما يجهل " ² و يضيف لنا ذلك التعريف الذي يتعلق بالظواهر الطبيعية أو التجارب المخبرية، الذي يشير فيه الباحث مجموعة من المتغيرات، و يتم مراقبتها، و الذي يطلق عليه (العلم الموضوعي)، " إن العلم غير شخصي (موضوعي)، بمعنى أن رجل العلم يكون دائما إنسانا يراقب الأشياء، ليسيطر عليها، و ليحسنها، تلك هي نظرة المنهجية (الديكارتية) لعالم الظواهر".³

¹ . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 21 ، 22.

² . _____ ، في مهبط المعركة، مرجع سابق، ص 167

³ . _____ ، من أجل التغيير. تر: نورالدين بوكروح وعمر كامل مسقاوي، (ب ط) دار الفكر، دمشق، 1998، ص 55

3 . 2 : طبيعة العلم و المعرفة عند مالك بن نبي:

و لم يقتصر العلم عنده على العلوم التقنية و الطبيعية، بل امتد طرحه إلى البحث في العلوم السلوكية إجمالاً (الاجتماع، النفس، التربية)، لما لها من دور في تقدم المجتمعات و تطورها، وما تقوم به من دراسات للمجتمعات و الجماعات لتقدم للإنسانية الحلول للمشكلات المطروحة، و لم تكن قد بلغت الحقيقة المطلقة كما في العلوم الأخرى، فيقول في هذا الشأن: "لم تبلغ العلوم الإنسانية بعد درجة تحديد مصطلحاتها عامة، كما حدث للعلوم الطبيعية، فإن في علم الاجتماع بعض المفاهيم التي تبدو أحياناً غير محددة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية، حيث نجد أن اللغات المحلية لما تتمثل تماماً بالمصطلحات الحديثة. و قد تؤدي تعقد المصطلحات إلى مناقشات أقرب إلى الطابع الأدبي منها إلى منطق العلم، كذلك المناقشة التي ثارت و تثور غالباً حول مصطلحي حضارة، و مدنية في البلاد العربية. بيد أن هذه المناقشات لا تعين على جلاء الموضوع، بل تجعله أكثر صعوبة".¹

و العلم في أبسط معانيه ماهو إلاّ البحث عن الحقيقة في كل ميدان، في الأخلاق، في التشريع، في الاجتماع، في الطب، في الطبيعة. و لكن هذا البحث معرض لمعوقات و إلى متهات، قد تتخذ وهما بمثابة حقيقة، قد ننتيه في الآراء، و ربّ رأي خطأ، فعلى العلم أن يواجه هذه الحالات التي يتردد فيها العقل بين الشك و الاقتناع، بتمرينه على هذه المواجهة. و القرآن لا يهمل هذا الجانب بل يلفت النظر إليه أحياناً بالإشارة و التلميح، فيكشف الفرق بين الحقيقة و ما سواها مثلاً في قصة يصف فيها انحراف اليهود من هذه الناحية: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾.²

فهنا نرى الميل و الشك و مجرد الاحتمال، هذه الأمور المعبرة عن صور مختلفة للتردد توضع في مكانها من (الحقيقة) الساطعة التي تعبر عن الاقتناع العقلي في أسمى صورهِ. و هذه أية أخرى توجه النقد الصارم للفكر الذي يُسوّغ لنفسه المناقشة فيما لا علم له به، دون أن يتحرى أولاً، جمع معطيات موضوع المناقشة، ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.³ فهذه الآيات تضع الفكر الإسلامي في طريق العلم و تزوده لاكتسابه بأحسن التوجيهات المنهجية، و غيرها كثير، بحيث يكون

¹ .. ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 9.

² .سورة البقرة ، الآية: 78 .

³ .سورة آل عمران، الآية : 66

القرآن الكريم، و من هذه الناحية ، منهجيا تربويا جديرا بالدراسة في غير هذا المكان، إلا أننا نضيف أن المفهوم القرآني العام ينصب في الحديث النبوي الذي يصيغه في قالب التطبيقي، في صورة أحكام تدخل مباشرة في حياة المسلم اليومية، و في توجيه وجوه نشاطه:

✓ " العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة"

✓ " أطلبوا العلم ولو كان بالصين"

✓ " حبر العلماء أفضل من دم الشهداء".¹

و قد تعمق ابن نبي في دراسة التراث الإسلامي و إعادة تفكيكه، من أجل خلق رؤية جديدة تتماشى مع الطاقات العاطلة عن الإبداع و الخلق و التنظيم، ليعيد بناء (المثل الأعلى) من خلال استكناه التاريخ الإسلامي، ليجد كيف كان العلم و المعرفة هو ديدن المجتمع في قرونه الأولى، فكان البحث عن المعلومة ليس متعلقا بمن أكثر منه فقط، بل يتعدى إلى الأقل منه، و نرى في المناخ الجديد للفكر الإسلامي يضع سلما يتسلقه الفرد، و هو يدلي بعلمه لمن دونه درجة، و يطلب العلم ممن فوقه، و هكذا ينطلق تيار العرفان . المعرفة . في الاتجاهين ومن أسف إلى أعلى أحيانا، عندما تقف المرأة مثلا، و ترد رأي عمر في قضية الصداق "²

وكان لتحيين العلم والمعرفة الغربية و تبيئها في المجتمع العربي محور أساسي من دراسات ابن نبي الاجتماعية التي لاقت رواجا كبيرا بين المفكرين العرب و المسلمين، خاصة تلك التي تناولت بالبحث دراسات المستشرقين و نقدهم، تلك الدراسات و الأبحاث التي شوّعت التراث و نالت منه، خاصة من حيث الحكم على التراث الإسلامي، التي تركت نوعا من الشك و البلبلة عند القارئ لها، فيعيد ليعدل الفكرة و يعيد الفهم الحقيقي و الوعي بالأشياء إلى مجراها الطبيعي" و اليوم أرانا تبهرنا هذه القمم الشامخة، و ننتيه في عالم الخيال حين تذكرها أقلام المستشرقين، وإن نكرتها يعترئها مركب النقص، وفي كلتا الحالتين تصب هذه الدراسات في روحنا حرمانا مزدوجا، لا نستطيع التخلص منه، إلا إذا تذكرنا السلم الذي وضعه المفهوم القرآني ليتسلقه الفكر الإنساني حتى يصل على درجاته إلى تلك الإنجازات

¹ . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص ص 189 ، 190 .

² . _____ ، المرجع سابق، ص 193

العلمية التي تهيمن حتى اليوم على التقدم التكنولوجي، مثل الحساب العشري، أو الغباري، و الجبر و الكيمياء و عدد القوانين في عالم الكائنات العضوية، و الطبيعية و الفلك، و إذا تذكرنا هذا السلم فلنعلم أنه ما زال تحت اليد أو تحت قدم المجتمع الإسلامي متى أراد استخدامه من جديد، و بحسبنا أن نقرر أن مساهمة الفكر الإسلامي في تنمية تراث الإنسانية العلمي ليست تقدر فحسب بإنجازات يقرها أو ينفىها المستشرق، حسب هواه بل تقدر بالتغيير الجذري الذي أحدثه المفهوم القرآني في المناخ العقلي، منذ كلمة (اقرأ).¹

فإذا كانت النظرية المعرفية الغربية تقوم بفصل العلم عن الأخلاق بسبب الفهم الضيق لكل من العلم و الدين، فذلك يرجع للأسباب سوسيوثقافية متعلقة بطبيعة العلاقة بين سلطة الكنيسة والرعية، وتداعيات هذا الصراع على مسرح الأحداث في أوروبا، و بروز الفكر الوضعي. فيقول في هذا الصدد: " لقد أصبحت الثقافة الأوروبية تسيل في المجرى العلماني الذي سيقودها إلى موضوعية (أوجست كونت)، و بالتالي إلى المادية الجدلية التي تمخض عنها ماركس، و بلغ الانفصال غايته في نهاية القرن الماضي، عندما زعم العلم بعد اكتشافاته المبهرة في ميدان البخار، ثم في ميدان الكهرباء، أنه يستطيع وحده الاضطلاع بسائر المسؤوليات في العالم، و عندما اعتقدت بكل بساطة البلاد المتحضرة بأنها تستطيع أن تؤمنه على مصيرها، فورطت . بفضل تفوقها الفكري . الإنسانية كلها في هذا الاعتقاد الساذج".²

3 . 3 : آثار فصل العلم و المعرفة عن المجتمع :

و قد استبطن مالك بن نبي الفكر الغربي الحديث و المعاصر، فوقف على رؤية معرفية حصيفة و ثاقبة تشوّف من خلالها الخطر الذي يتهدد العالم جراء الفصل بين العلم و المعرفة، و قد تشوّف من خلال رؤيته أن هذا التفوق هو إيذان بخراب العالم و سحقه تحت ضربات العلم الموجعة " العلم إذا تجرّد من الأخلاق فإنه يجرّ حتماً إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق".³ و تكمن عواقب فصل العلم و المعرفة عن المجتمع في المستويات التالية:

¹ . المرجع سابق، ص 193.

² . بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 63

³ . المرجع السابق، ص 75.

3.3.1: على المستوى الفكري: فتح الفصل بين العلم و الأخلاق على مستوى الفكر شرخا غائرا على مستوى بنية التفكير في المجتمع الغربي، عجل بظهور الفلسفات الوضعية التي شكلت وعي المجتمع الأوروبي على مدار القرنين الماضيين، و جاء على إثرها ما يعرف بـ (الفكر الموضوعي) كبديل للفكر الكنسي المتعلق بالإكليروس المسيحي الذي هوى من على تراتبية سلّم القيم التنظيرية و التوجيهية في أوروبا، حتى أن مالك بن نبي اعتبره "شبح ليس له باطن"¹ و لا يقدم حولا موضوعية لتساؤلات الإنسان الأوروبي في فلسفاته و إسهاماته الوضعية غير الإلحاد و النظريات التبريرية لواقع لم يعد يعترف بالدين، فكانت النظرية التطورية و الوضعية و الماركسية و الجدلية. وكان (أرنست رينان) الباحث عن الإيمان و المعذب بالشك، يبحث عن دين يوفق بينه و بين المنهج العلمي الذي اعتمده فانتهى إلى رفض الدين المسيحي رفضا مسنودا بالدليل و البرهان، و أصدر أشهر كتبه (حياة المسيح) الذي صدم جميع المسيحيين الأرثوذكسيين في أوروبا قاطبة. و ذلك من خلال بحثه النقدي في المزاعم الخارقة للطبيعة الواردة في الإنجيل. كما رفض أيضا مذهب (هيجل) و وجده مسرفا في ميتافيزيقاه .. فرينان كان كمعاصره (ماثيو أرنولد) يشعر بالحاجة الماسة إلى الخبرة الدينية، لذلك اقترح أن تحل محلها الخبرة الجمالية و لكن دين العلم بقي مطلبه طوال حياته، و عندما فشل في العثور عليه انتهى إلى الشك في كل دين، وكاد كما خُيل إليه أن يعثر عليه في نسخة وضعية من مذهب هيجل، و أعني بذلك نظرية هيجل في التقدم التاريخي، الموضوع الذي وجده (رينان) قد يوفر البرهان على وجود الله.²

هذه التساؤلات عن الله والكون و الإنسان جعلت الأوروبي يفقد إنسانيته تحت ضغط الحياة المادية التي هربت عن الروح وكرّست وضعا أخلاقيا منافيا للإنسانية، فالعقل الغربي . يضيف مالك بن نبي . ذاتي و أناني من الوجهة الأخلاقية، فالفضيلة الغربية لا وجود لها بالنسبة إلى العالم لأنها لا تشع على عالم الآخرين. و الغربي لا يحمل فضائله خارج عالمه هو . فخارج حدوده الأوروبية لا يكون إنسانا؛ بل أوروبيا، و هو لا يرى بعد ذلك أناسا، بل مستعمرين؛ فهو يتحرك ببرجه العاجي؛ كما يتحرك الرحالة بخيمته؛ و هو حيثما ذهب . سواء

¹ . المرجع السابق، ص 79

² . دونالد ستروميرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (1977.1601) ترجمة: أحمد الشيباني، دار الفاروق العربي، ط3، مصر، 1994، ص 403.

كان صانعا أو مخبرا صحفيا أو مجرد سائح في بلد متخلف ينشئ . عن قصد . ما يسمى (حالة استعمارية)¹.

3 . 3 . 2 : على مستوى الاجتماعي: ينعكس فصل العلم عن المجتمع إلى الانهيار التام له، و يصبح يعيد نفس الأفكار الميتة و القائلة فيه، لأن التجديد داخل المجتمع يصبح منعذما، لأن التطبيقات الميدانية للإنتاج العلمي تصبح معدومة، و يقرر مالك بن نبي في شأن غياب العلم و تحويله إلى طاقة نفسية داخل المجتمع يصبح هذا العلم عبء على أفرادهِ " فالعلم الذي لا يترجمه عمل، ترفا لا مكان له، في وطن ما يزال فقيرا من الوسائل و الأطر".²

و تسهم الطبقة المتعلمة و المثقفة في تكريس هذا التوجه داخل المجتمع، و تحدث شرخا في البناء الاجتماعي بفعل غياب الاستمرارية و الحركة، و تبدو الغاية والهدف غير واضح المعالم بالنسبة للأجيال القادمة، و يعتبر ابن نبي ذلك جهلا مطبقا يهدد كيان المجتمع برمته بالانهيار، و يصعب تداركه من بعد لأنه يتعلق بتضخم الأنا لدى المثقف، " ألا قاتل الله الجهل، الجهل الذي يلبسه أصحابه ثوب العلم؛ فإن هذا النوع أخطر على المجتمع من جهل العوام لأن جهل العوام بيّن ظاهر يسهل علاجه، أما الأول متخفٍ في غرور المتعلمين".³

و هذا الجهل الذي صار إليه المجتمع بفعل القطيعة بين العلم و المجتمع، و الذي كان المثقف أحد فاعليه الأساسيين، فجهله أكثر وطأة من جهل الجاهل، يتعلق الأمر بالناحية النفسية إذ . و الحال هذا . يصبح أمر علاجه صعبا، لأن مرضه استعصى، و أصبحت صفاته المرضية غير قابلة للعلاج، " يا للأسف، ليس أقبح من الجهل حينما يتزَيّا بزِي العلم و ينبري للكلام فالجهل المحدود؛ جهل الشعب النظيف: إنه كجرح ظاهر يمكن علاجه، أما جهل العالم: فهو غير قابل للشفاء أنه أخرق، مرء، أصم، مغرور".⁴

3 . 3 . 3 : على المستوى الاقتصادي: يقرر مالك بن نبي من البداية عن اختلال التوازن بين العلم و الأخلاق على المستوى الاقتصادي أن في مقارنة بسيطة أجراها بين رجلين في المجتمع، الأول ينهض على الثامنة صباحا، يتأبط محفظته الفخمة، يستقل سيارته

1 . _____ ، الفكرة الإفريقية الآسيوية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1981، ص 41 .

2 . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 39.

3 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 39.

4 . _____ ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 101.

متوجه إلى عمله، و الثاني ذلك العامل البسيط الذي يستيقظ على الساعة السادسة صباحاً، و يذهب إلى عمله سيراً على الأقدام، ففي الأول يمثل العلم، و الثاني يمثل الأخلاق، فهذا الوضع الذي يمثل الخلل الاجتماعي بكل معانيه و واقعه، يقسم الإنسان إلى قسمين، الأول يسمى الكائن المعنوي، و الثاني هو الكائن الموضوعي.. الشيء الذي يؤدي إلى تجزئة الأمة و تقطيع أوصالها، و يؤدي في النهاية إلى تجزئة الإنسانية، يقول مالك بن نبي: "فالعلم إذا تجرد من الأخلاق فإنه يجرّ حتماً إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق، و سواء كان ذلك في الإطار الوطني أو الإطار الدولي... أن الاقتصاد ليس سوى إسقاط البعد السياسي على نشاط إنساني معين... و بقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ أخلاقية معينة، يبقى الاقتصاد و فيا للمبادئ ذاتها".¹

و يستتبع ابن نبي حديثه عن الاقتصاد المنشود المتعلق بإقامة حضارة في شرطها المادي، بتشديد اقتصاد لا يتناقض مع الأطروحات العلمية و المعرفية، و لا يتعارض مع النظريات الاقتصادية و التنموية الكبرى التي عجلت بخروج المجتمعات المتحضرة من مآزقها و ركودها الاقتصادي. إن التغيرات التي نشاهد نتائجها بعد مدة طويلة في عالم الاقتصاد، أحياناً، هي في جوهرها تغيرات حضارية تعتري القيم و الأدواق و الأخلاق في منعطفات التاريخ، فتتغير معالم الحياة بتحول الإنسان نفسه في إرادته و اتجاهه عندما يدرك معنى جديداً لوجوده في الكون.²

و إذا كانت جل الدراسات الاقتصادية ذات طابع تطبيقي، تهدف بالأساس إلى إيجاد مخرج لها في الوسط الاجتماعي، و بالتالي فعلية هذا التخصص و مشروعيته تبدأ حين يبدأ في تطبيقه و استفادة المجتمع من خبرات علمائه و مفكره، شرط أن لا يتعارض مع المعادلة الشخصية و الاجتماعية في مكان تطبيقه، فبن نبي ينظر إلى العلم و المعرفة في مجالها الاقتصادي على أساس التطبيق بعيداً عن الأطروحات الفلسفية، التي تنتهي عند التأمل، " أي فن أو مبدأ اقتصادي لا يمكن أن يكون صادقاً إلا إذا وجد في وضع، لا يتعارض فيه مع عناصر المعادلة الشخصية السائدة، في الوسط الذي يراد تطبيقه فيه، و لكي تؤثر النظريات الاقتصادية تأثيرها الاجتماعي يجب ألا يقتصر في دراستها على

1 . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، صص 64، 65

2 . _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد. ط3، دار الفكر، دمشق، 1987. ص59

منصة الجامعة بوصفها علما وقفا على بعض المتخصصين، بل يجب أن نطبق هذا العلم على التجارب الجامعية التي يقف فيها وعي كل فرد و إدراكه أمام المشاكل المادية ، مقدما بذلك لعلم المتخصصين ظروف صلاحيته للتأثير".¹

ويضيف بشأن القطيعة بين العلم و الاقتصاد بأن تكون الأفكار العلمية مستمدة و متصلة بالواقع الاجتماعي، الذي تجرى عليها الدراسات و تطبق فيه النتائج، يجب علينا خصوصا في المجال الاقتصادي، أن تكون أفكارنا متصلة بواقعنا: فلا نقول بأفواهنا إن اثنين و اثنين أربعة، ثم في التطبيق نتصرف كأنما تساوي ثلاثة.²

3.3.4 : على المستوى الحضاري الإنساني: إن الانفصال بين العلم و الجانب الإنساني أدى إلى الحروب و كوارث الإنسانية كان ضحيتها الإنسان بالدرجة الأولى بعدا عن انتمائه و إيديولوجيته، فكانت المخابر في أوروبا و أمريكا تنشط باستمرار قبيل الحرب العالمية الأولى و الثانية، و بالموازاة مع ذلك كانت المصانع تشتغل ليل نهار، من أجل حروب السيادة و الاستحواذ، فالعقل الغربي ذاتي و أناني من الوجهة الأخلاقية فالفضيلة الغربية لا وجود لها بالنسبة إلى العالم لأنها لا تشع على عالم الآخرين.

و كان للتراكم المعرفي في مجال الفلسفة زخما كبيرا على المثقف الأوروبي، الذي راح يستلهم القيم المجتمعية التي سوف تكون وبالا عليه و على الإنسانية بفعل إلحادها و خروج عن المسيحية الحقة، الشيء الذي جعل (فرويد) ينادي بفلسفة اجتماعية تقول بأن الإنسان هو في طبيعته مخلوق نزاع . بفطرته . إلى العدوان و الاستغلال و السرقة و التعذيب، و حتى قتل أخيه الإنسان. أو الشيء الذي جعل (هوبهاوس) يتهم (هيجل) بأنه المسئول عن الحرب العالمية الأولى مستشهدا في ذلك بفلسفة التاريخ.³

"إن أوروبا التي ورثت التقاليد الرومانية من عصر النهضة قد أصبحت اليوم رهينة ثقافة إمبراطورية. فقد تغذى ضميرها بما أثار القرن التاسع عشر من قضايا، و هو القرن الذي شهد ازدهار فكرة (جوبينو) ذلك الكاتب الذي طبق أفكار (داروين) عن أصل الأنواع على مجال الإنسان فخلّف بهذا القرن العشرين تراثا روحيا ضارا ثقيلًا أنتج أمثال(هتلر) و الدكتور(مالون)".⁴

1. _____ ، المرجع سابق، ص 18

2. _____ ، المرجع سابق، ص 78.

3. دونالد ستروميوج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . 1601 . 1977 تر: أحمد الشيباني، ط32، دار القارئ، مصر، 1994، ص 488

4. _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص124.

إن روح القرن التاسع عشر التي ادعت تحقيق سعادة الإنسان فيه بواسطة الآلة، قد انتهت إلى إفلاس محزن، فلم يعد العالم ينتظر الخلاص على يد العلم، و لكن في أن يبعث الضمير الإنساني من جديد. فأوريا . كما يقول مالك بن نبي . تعيش في عالم كونه علمها، غير أن ضميرها لا يعلمه تماما، لأنها تجهل فيه مسألة رئيسية، تجهل الإنسان الذي اعتادت أن تنتظر إليه حتى الآن على أنه من أبناء المستعمرات.¹

3 . 3 . 5 : على المستوى الإبتسمولوجي: ينطلق تصور مالك بن نبي إلى العلم انطلاقا من العلاقة الروحية بين الله و الإنسان التي تلد العلاقة الاجتماعية. في الإطار الفهم الشمولي للكون و نواميسه، من أجل بناء العقل المسلم لتكيفه حتى يتسنى له إقامة بنية عقلية تؤهله للتفكير المنهجي، لينخرط في رؤية الواقع بصورة متكاملة. و لن يتأتى له ذلك دون لحقيقة الوجود و مآلات المصير انطلاقا من الفهم الصحيح لحقيقة الدين، و إتباع المنهج الصحيح، الذي يصبو لعماراة الأرض و إقامة الحضارة، هذه الحضارة التي لا تتبع إلا بالعقيدة الدينية.

و يؤسس مالك بن نبي إلى المقاربة الابتسمولوجية من خلال العلاقة التي تربط الدين بالعلم، لكون فكرة الحضارة هي التي شكلت حجر الزاوية بالنسبة لجل كتاباته المعنونة بـ (مشكلات الحضارة). و لقد درجت النظرة الغربية إلى اعتبار كل من الدين و العلم، عالمين منفصلين و ذلك بسبب الفهم الضيق لكل من العلم و الدين في تاريخ الحضارة الغربية، حيث الصراع بين العقل العلمي الأوروبي ممثلا في علماء الغرب، و بين سلطة الكنيسة، و محاربتها للعلم و العلماء، مما حدّد مفهوم العلم في دائرة ضيقة، هبطت به و حصرته في ميدان التقنية و الفلسفة الوضعية، وجرده من القيم الإنسانية. " فحين يصبح الإيمان إيمانا جذيبا دون إشعاع، أعني نزعة فردية فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة و تحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة و يتخلون عن واجباتهم و مسؤولياتهم، كأولئك الذين لجؤوا إلى صوامع المرابطين منذ عهد ابن خلدون".²

بينما كانت الفكرة الدينية عند مالك بن نبي أسمى من التصور الغربي لفكرة الدين و وظيفته في المجتمع، فالدين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان،

¹ . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص125.

² . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32

يخلق بعلمه هذا أيضا شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وأن يؤدي نشاطه المشترك، و هو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. فإذا قال الدين قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾¹، فإن الله عز و جل لم يرد بهذا القانون أن يفصل الناس عن الأرض، و لكن أراد أن يفتح لهم طريقا خيرا ليضطلعوا بعملهم الأرضي.²

3. 4: مراحل المعرفة العلمية عند مالك بن نبي:

شرح ابن نبي في كتابه "ميلاد مجتمع" المراحل الثلاثة التي مرت بها الحضارة الإسلامية التي تصلح أن تكون نموذجا للحضارات الأخرى؛ و يعتقد أن وسائل المعرفة التي هي الحس و العقل و القلب متكاملة، و لا يستطيع أي إنسان الوصول إلى الحقيقة المطلقة إلا إذا استعمل هذه الوسائل مجتمعة و متكاملة و دون عزل إحداها عن الأخرى. و لا يرضى مالك بن نبي بهيمنة العقل و الروح على الغريزة، لأن ذلك يؤدي إلى توقف المد الحضاري عن وثبته، وقد تفلت من قبضة هذا القانون حضارة من الحضارات، و الفكر الأوروبي ذاته الذي تشكل في جو العقلانية الفرنسية و الجمالية الإيطالية كان يسارع إلى الرجوع لأصله في كل مرة تنتابه فيها استنارة أو تحدّ وافد من الخارج.³ فبين أن هذه المراحل تكون حسب التسلسل الآتي:

3. 4. 1: المرحلة الروحية: و يطلق عليها مرحلة الحس و تعتبر عند ابن نبي هي المرحلة الأولى، وهي حالة فطرية، تتم فيها إخضاع الغرائز لعملية التكييف و الاشتراط، ليتم تنظيمها وفق تطور المجتمع الناشئ، و يصف نفسية الإنسان المتوثب للقفز إلى الحضارة وتشكيل بنية ثقافية تبدأ بمرحلة الاحتكاك بالحضارات السابقة، فيقول عن هذا الموقف: "دخل العالم الإسلامي إلى صيدلية الحضارة طالبا الشفاء، و لكن من أي مرض؟ و بأي دواء؟ و بديهي أننا لا نعرف شيئا عن مدة علاج كهذه، و لكن الحالة التي تطرد هكذا تحت أنظارنا منذ نصف قرن، لها دلالة اجتماعية يجب أن تكون موضع تأمل و تحليل. و في هذا الوقت الذي نقوم فيه بهذا التحليل يمكننا أن نفهم المعنى الواقعي لتلك الحقبة التاريخية التي نحياها، و يمكننا أيضا أن نفهم التعديل الذي ينبغي أن يضاف إليه.

¹ .سورة الذاريات ، الآية : 56

² .. ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص79.

³ . عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 155

فيجوز لنا أن نطلق على هذه الحقبة أنها (بادرة الحضارة)، و لغة علم الإلهيات (مرحلة الإرهاص) وجه فيها العالم الإسلامي جهوده الاجتماعية هادفا إلى تحصيل الحضارة".¹

3 . 4 . 2: المرحلة العقل: و يطلق عليها مرحلة العقل حيث تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة (العقل)، و يوصل المجتمع تطوره، و تكتمل شبكة علاقاته الاجتماعية، فتشرع الخصائص الغرائزية في التشكل و الظهور من جديد، بقدر ضعف و ارتخاء الجانب الروحي، فيقول في هذا الصدد: " و في الوقت نفسه يواصل المجتمع الذي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور تطوره، و تكتمل شبكة روابطه الداخلية، بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة في العالم ؛ فتنشأ المشاكل المحسوسة، لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله. و حتى تستطيع حضارة تلبية هذه المقاييس المستجدة تسلك منعطفًا جديدًا؛ فإما أن يتطابق مع (النهضة) كما نراها بالنسبة إلى الدورة الأوروبية، و إما أن يتطابق مع استيلاء الأمويين على الحكم، كما هو شأن الدورة الإسلامية. و في كلتا الحالتين فإن المنعطف هو منعطف العقل. غير أن هذا العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز، و حينئذ تشرع الغرائز في التحرر من قيودها بالطريقة التي شاهدناها في عهد بني أمية؛ إذ أخذت الروح تفقد نفوذها على الغرائز بالتدريج، كما كفّ المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد. و من الطبيعي أن الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة. و إنما هي تتطلق بقدر ما تضعف سلطة الروح.² وهذا المناخ نفسه هو الذي يبين حدود العقل في تفسير كل الظواهر مما يفتح المجال لدور الفكرة الدينية لتؤدي دورها في هذا المجال، كما يسهم الدين إلى حد كبير في تشكيل وتجديد المناخ العقلي لمجتمع ما. وهذا ما يوجزه ابن نبي في قوله: " إن القرآن الكريم لم يأت قطعاً، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور".³

3 . 4 . 3: مرحلة الغريزة: و يطلق عليها مرحلة القلب، تصور هذه المرحلة نهاية الدورة الحضارية وتحللها تحت سلطان (الغرائز) المتحررة من وصاية الروح والعقل، وعند هذه الحالة يصبح النشاط المشترك مستحيلاً، ضارياً بأطنابه في أغوار الفوضى والاضطراب.

¹ . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 46

² . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 76

³ . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 183، 184

ولقد حاول ابن نبي تطبيق منهج التحليل النفسي في شرح منحنى صعود وسقوط الحضارات؛ ويتبين ذلك بصفة أوضح عندما يتعرض لعوامل سقوط الحضارة الإسلامية حيث أكد أن منحنى السقوط تخلفه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل؛ وهذه العوامل هي الغرائز التي تظل ضعيفة ومتوارية عندما تكون الجوانب الروحية والعقلية قوية وظاهرة (متغلبة).

3 . 5 : أبعاد المعرفة عند مالك بن نبي:

3 . 5 . 1: البعد العملي: العلم الذي لا يترجمه عمل، يظل ترفا لا مكان له في وطن ما زال فقيرا من الوسائل و الأطر.¹ المنطق العملي هو العقل التطبيقي الذي يجسد الفعالية في النشاط على صعيد الفكر أو العمل، و هو عكس العقل المجرد الحالم الذي يواجه المشاكل بنزعات المديح أو الرومانسية أو اللفظية أو الذرية، فإذا ركزنا في التربية الدينية على إثبات وجود الله لأناس يؤمنون به و أهملنا الحديث عن الوظيفة الاجتماعية لدين نكون قد ابتعدنا عن المنطق العملي، و نكون قد غرقنا في خضم العقل التجريدي الحالم. و الحقيقة أننا لا نقدر علما حق قدره ما دمنا لا نعلمه إلا في صورة نظرية.²

إن الفعالية تتحدد إنتاجا، لأن الحركة فكرة، و الفكرة لا تتبلور إلا في الإنتاج الذي يعبر عنه ابن نبي بالمنطق العملي. فلكل نشاط وجهه السلبي و وجهه الإيجابي، لكن المنطق العملي يتحدد في فلسفة مالك بن نبي بالنشاط الإيجابي، أي ذلك النوع من النشاط الذي يمكن الإنسان من صياغة مقياس عملي لاستخراج أقصى ما يمكن من الفائدة انطلاقا من وسائل معينة.³ مهما كانت بساطها و قلتها لأن التاريخ في نظره يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل يوم، بكل ساعة و بكل دقيقة لا في معناها المعقد، كما يعقده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء و شعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبيرة.⁴

1 .. _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 39.

2 . عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 63.

3 .. _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 95.

4 .. _____ ، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 78.

و عليه فإن أهم شيء تعاني منه حياتنا اليومية الالفاعلية، إذ يذهب جزء كبير من أعمالنا في العبت و المحاولات الهائلة، بسبب افتقادنا الضابط الذي يربط في حركتنا بين عمل و هدفه و بين السياسة و وسائلها، و بين الثقافة و مثلها، و بين الفكرة و تحقيقها.¹

و الإنسان المسلم أحوج ما يكون إلى المنطق العملي في ممارساته، لأن العقل المجرد متوفر في العالم الإسلامي، غير أن العقل التطبيقي شيء يكاد يكون معدوما، حيث نرى جانبا كبيرا من الالفاعلية في أعمالنا، و إذا ما أردنا حصرا لهذه القضية، فإن مالكا يرى سبيلها الأصل في افتقادنا الضابط الذي يربط بين عمل و هدفه، و بين سياسة و وسائلها و بين ثقافة و مثلها، و بين فكرة و تحقيقها، فسياسة تجهل وسائلها، و ثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، و قد يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، و مع ذلك فمن الأصوب أن نقول إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن، و لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي.²

و على صعيد العلاج يرى مالك بن نبي أن القضية لا تعدوا أن تكون مشروطة بالمنهج، و لا شك أن تجسيد المنطق العملي في حياتنا السلوكية هي قضية تربية.³ يقول مالك ابن نبي في هذا الشأن "لسنا نعني بالمنطق العملي ذلك الشيء الذي دونت أصوله، و وصفت قواعده منذ عهد أرسطو، و إنما نعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله و معانيه، و ذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب بغير مقياس يستمد معايير من واقع الوسط الاجتماعي، و ما يشمل عليه من إمكانيات أنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به النتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جدا أن نعرف المنطق العملي أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة".⁴

فأهمية هذا العامل كونه يبحث عن الوسائل المناسبة، التي تجعل المثقف يربح الوقت و يقوم بأعظم الأعمال و أقل الأوقات، و بأقل التكاليف، و لا يخفى كم ينقصنا هذا المبدأ في مؤسسات المختلفة و ما ينجر عن ذلك من مشاكل اجتماعية و اقتصادية مختلفة، و لذلك نجد مالك بن نبي يلجأ إلى الواقع الاجتماعي المائل أمام عينه. و نظرة إلى ما حولنا

1 .. ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 97.

2 . سليمان الخطيب، مرجع سابق، ص ص 156، 157.

3 . الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط1، دار الينابيع، 1993، الجزائر، ص 13.

4 .. ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 95

تكفينا لكي نلاحظ أن ضروب نشاطنا غالبا ما تتسم بالشلل، وانعدام الفاعلية في الجانب الخاص و العام.¹

3 . 5 . 2: البعد التربوي: يقول مالك بن نبي في معرض حديثه عن دور المدارس و الجامعات و التكوين البيداغوجي في مقاعد الدراسة، و المعول عليها كأساس للثقافة: " لسوف تخبّب آمالنا التي عقدناها إذا ما عولنا في قضيتنا على العلم الذي نتعلمه في المدارس الرسمية أو غير الرسمية، أو على ما تعدنا به السياسات الانتخابية، و ما تعدنا إلاّ غرورا".² فالمدارس وحدها لا تستطيع أن تقوم بتربية النشء، بل يتعدى ذلك إلى مجال ثقافي أرحب، و أوسع مجالا و رؤية، فالمعرفة لا تكتسب في المدارس العمومية، بل هي مجموعة الخبرات التي يكتسبها الفرد في الحياة الاجتماعية، فلم تبلغ العلوم الإنسانية بعد درجة تحديد مصطلحاتها عامة، كما حدث للعلوم الطبيعية، فإن في علم الاجتماع بعض المفاهيم التي تبدو أحيانا غير محددة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية، حيث نجد أن اللغات المحلية لما تتمثل تماما بالمصطلحات الحديثة. و قد يؤدي تعقد المصطلحات إلى مناقشات أقرب إلى الطابع الأدبي منها إلى منطق العلم، كذلك المناقشة التي ثارت و تثور غالبا حول مصطلحي حضارة و مدينة في البلاد العربية. بيد أن هذه المناقشات لا تعين على جلاء الموضوع بل تجعله أكثر صعوبة.³

و قد انتقد ابن نبي السياسات المتبعة في البلاد العربية عموما التي تقطع حبل الوتين بينها و بين المقامات الفكرية الكبرى في تاريخ الفكر الإسلامي، التي تعمل على توعية و توجيه الإنسان صوب الحياة الكريمة "ليس لدى العالم الإسلامي حتى الآن مجامع فكرية تشرف على توجيه الحياة الأدبية، و على توثيق الصلات و تغذية المناظرات بين المدارس المختلفة، كما كان ذلك قديما بين مدرسة الغزالي و مدرسة ابن رشد".⁴

و يعطي أمثلة عن تلك العلاقة التي تمت بين الحضارات في إطار عملية الترجمة من و إلى العربية، و التي أستخلصت فيها إنتاجات الفكر الهيليني، فقامت بنقل الإرث الفكري للحضارات السابقة، و يقدم الجهود التربوي الذي أنتجته الثقافة اليونانية عبر عصور من الزمن، فكان البعد التربوي للمعرفة هو العنوان الرئيس لهاته الكتابات، يقول: " لقد رأينا

1 . _____ مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 82

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 105

3 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 9

4 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 87

(الفارابي) و مدرسته في ميدان العلم و المعرفة ينقلون فلسفة أرسطو المادية إلى الفكر العلمي الإسلامي، و لكن بعد أن طبعوه بطابع إسلامي ، كما رأينا من بعدهم (توماس الإكويني) ينزع عن فلسفة أرسطو طابعها الإسلامي كيما يطبقها على المجتمع المسيحي الذي كان يتهيأ بدوره للنشوء و الارتقاء¹. و في محاولة منه لاستثمار الزمن تربوياً، و الذي أولاه أهمية كبرى في منظومة القيام الحضاري . إضافة إلى الإنسان و التراب، فيقدم مالك بن نبي رؤية حوله تتعلق باستثمار الوقت في نطاقه المحدد، في إطار تقسيم العمل الذي قدّمها دوركايم،" و لو طرحنا فكرة الزمن مثلاً في السياق و الزمن لم يكن يعني شيئاً كبيراً، بل كان فكرة غامضة خارج قياسه، و حينما قام بقياسه، أبو حسن المراكشي فقد تركز على الفكرة من خلال المعرفة التجريبية. فالفكرة هذه سوف تنمو في عقل الإنسان كلما نظم نشاطه في نطاق المدة فكان من نتيجة تقسيم العمل في المجال الاجتماعي تقسيم الزمن في المجال النفسي، و منذ ذلك الحين أصبح الزمن كمية تخضع للقياس . ومن منذ انتقل تحديد الزمن من المرحلة التجريبية إلى المرحلة العلمية و الإنتاجية².

3 . 5 . 3 : البعد الأخلاقي: دقق مالك بن نبي مع الأساس الأخلاقي للمعرفة في جل كتاباته تقريبا، أرجعه إلى التركيبة الثقافية للمجتمع، و ذلك حين حديثه عن الثقافة في بعدها الأخلاقي. ذلك في تعريفه للأخلاق بأنها التركيب التربوي لكل العناصر (الأشخاص، الأفكار، الأشياء)، فقد كانت الأخلاق أحد أبعاد الثقافة، و يقول مالك بن نبي إن العلم يعطي المعرفة، إنه يعطي اللباقة و المهارة وفقا للمستوى الاجتماعي الذي يتم عليه البحث العلمي ، و العلم يعطي امتلاك القيم التقنية التي تولد الأشياء. و الثقافة تعطي العلم،إنها تعطي السلوك والغنى الذاتي الموجود على كل مستويات المجتمع ؛ و الثقافة تعطي امتلاك القيم الإنسانية التي تخلق الحضارة. الثقافة و العلم ليسا مترادفين. الثقافة دوما، و لا يمكن استبدال أحد هذين المفهومين بالآخر. إن هذا التمييز أساسي:

أولا : لدى وضع برنامج يهدف للارتفاع بثقافة بلد ما إلى مستويات الحضارة.

وثانيا: في فهم الظواهر الاجتماعية و السياسية ذات الأهمية الأساسية³.

¹ . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص80

² . عمر مائل مسقاوي، مقاربات حول فكر مالك بن نبي . من على منبر الجزائر . ط1، دار الفكر العربي، دمشق، سوريا، 2008، ص184

³ . _____ ، من أجل التغيير، مرجع سابق، ص54.

فعلى محور واشنطن . موسكو تهيئ القوى الصناعية جميع الظروف المادية لوحدة العالم. و لكنها في الوقت نفسه تخلق عوامل تحليلية و تجزئية تضغط على الضمير الإنساني في كل لحظة بخطر رئيسي يهدد الأشياء و التاريخ بالفناء، و يظل هذا الخطر ماثلا ما لم تضع حدا أخلاقيا لسياسة الجبروت. لقد جعلت القوى الصناعية العالم صغيرا؛ فالواجب يفرض الآن أن يصبح قابلا للمساكنة؛ و الفكرة الأفريقية الآسيوية تعطينا هذا الإمكان دفعة واحدة من الواجهة الأخلاقية، و بقى أن تعطينا إياه من الواجهة الاجتماعية، و ينحصر الأمر في عملية تجميع الشعوب الأفروسوية و توحيدها على الرغم من عمليات التعطيل التي يمارسها على التاريخ تلاميذ الدكتور مالان. و لم يكن مالك بن نبي لتعجبه المرحلة الجاهلية و إن كانت فيها فضائل و مكارم أخلاق، إلا أن الطابع العام لتلك الفترة تميز بالجاهلية، و عبادة الوثن و الصنم، لأن عالم الأفكار كان محدود في الإطار الاجتماعي العام، وانتخبته هذه المرحلة سلوكات الجهل، كالحروب و الغار و السلب و الصعلكة. "ومن المعروف أن القرآن الكريم قد أطلق اسم الجاهلية على الفترة التي كانت قبل الإسلام، و لم يشفع لهم شعر رائع و أدب فذ من أن القرآن بهذا الوصف، لأن التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة، الخالية من كل عنصر (خلاق) أو فكر عميق. و إذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فإن الجهل في حقيقته وثنية، لأنه لا يغرس أفكارا بل ينصب أصناما؛ و هذا هو شأن الجاهلية، فلم يكن من باب الصدفة المحضة أن تكون الشعوب البدائية وثنية سانجة، و لم يكن عجبيا أيضا أن مرّ الشعب العربي بتلك المرحلة، حين شيّد معبدا للأقطاب (ال دراويش) المتصرفون في الكون، و من سنن الله في خلقه أنه : (عندما تغرب الفكرة بيزغ الصنم)، و العكس صحيح أحيانا".¹

¹ . شروط النهضة، مرجع سابق، ص 30

استخلاصات

بدأ مالك بن نبي في طبيعة الفكر التربوي بالإنسان كمحور للعملية الحضارية، فكان أول مجهود يقوم به هو تحويل الإنسان من طاقة سالبة إلى أخرى موجبة و يتم ذلك من خلال تحويله من و إعادة صياغة نفسيته، و يتجلى ذلك في بناء الشخص مقابل الفرد إي الإنسان المحضر الذي تخلص من رواسب ما قبل الحضارة، و يشير في أكثر من مكان أن الطاقة الحيوية أو (التوتر) هي التي يعمل على تغييره باستمرار. هذا الشخص هو إنسان وظّف الدين اجتماعيا يقوم من خلاله بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم مستتبطة من النموذج المثالي، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية ، يجعل من (الوقت) الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر). وقتا اجتماعيا مقدرا (بساعات عمل)، و من (التراب). الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط . مجالا مجهزا مكيفا تكييفيا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج. و إعادة تشكيل الإنسان يتم من خلال بنائه من الناحية النفسية، و الروحية و المورفولوجية و العقلية و الذهنية، ليكون بناء كاملا، ليضطلع به الإنسان الكامل من أجل مهمة تاريخية.

أما بخصوص المجتمع، فقد رأى أنه هو تنظيم اجتماع يتميز بالاستمرارية و الحركة من أجل أن يؤدي مهمته في التاريخ، و ينتقل من مجتمع طبيعي ساكن أي وضع جديد هو المجتمع المتحرك الذي يتماشى من فكرة التغيير الاجتماعي، و يقوم المجتمع على دعامتين أساسيتين هما الروح أولا، و المادة ثانيا من إحداث نوع من التوازن. ويعطينا مثال من قصة روبينسون كروزو، و حي بن يقضان للتدليل بأن المجتمع الإسلامي يقوم على الروح من خلال التساؤل عن الظبية و عن الروح التي خرجت منها و نفوقها، بينما روبينسون كروزو بدأ بالجانب المادي و هو العروج إلى الأشجار لكي يتقى شر الحيوانات و غيرها. و تدور عليه نفس أسباب التي تهدم الحضارات فهو يفقده لخلق التوتر، و أنهيار البنين الاجتماعي من خلال تدهور شبكة العلاقات الاجتماعية، و انتشار الغريزة فهذه مؤذن سقوط المجتمع. و المعرفة عنده تظهر مشاكلها حين تتقطع عن الخلق الكريم على مستوى الفك و الاجتماع و السياسة و الحضارة و الإبتومولوجيا، و تمر المعرفة بثلاث مراحل هي الروح و العقل والغريزة، وتتمثل أبعاد المعرفة في نظر مالك بن نبي في: البعد العملي، التربوي و الأخلاقي.

الفصل الرابع

البعء التربوي لنظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي

المحتويات:

تمهيد

- 1 . الحضارة.
- 2 . الحضارة عند مالك بن نبي.
- 3 . محورية الإنسان في التغيير الحضاري.
- 4 . الدورة الحضارية عند مالك بن نبي.
- 5 . عناصر الحضارة.
- 6 . محاور الحضارة.
- 7 . البعد التربوي للدورة الحضارة عن مالك بن نبي.
- 8 . دور الإرادة و الإمكان الحضاريين في بناء الحضارة

استخلاصات

تمهيد

يجمع الكثير من المفكرين المعاصرين أن كل نظرية سياسية أو اقتصادية أو تربوية، بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان يكمن وراءه تصور معين له قد يعيه صاحب الرأي أو النظرية و قد يفترضه و لا يشعر به.

و تعد المسألة الحضارية من أهم الأفكار التي شغلت فكر مالك، ففي ضل الجدلية القائمة بين الخصوصية الحضارية و بين واقع العالم الإسلامي المتخلف، حاول مالك بن نبي أن يقف على الأسباب الحقيقية للأفكار و المرتكزات التي صاغت الحركة الحضارة عبر التاريخ، و هنا يلعب الزمان دورا بالغا في فكره، لأن الوعي التاريخي بالمرحلة و بجذورها، هو الذي حدد مقاصد اجتهاداته حول المسألة الحضارية، فالتاريخ عنده كروية و سؤال عن الزمن، يوظف داخل سياق البحث عن المعنى الكامن وراء الحدث الحضاري الإسلامي. و هناك عدم فهم معنى الحضارة عند الكثير من الناس، يرجع إلى الاختلاف الفكري و التاريخي للحضارات المختلفة، مما يكون له انعكاساته الكثيرة عند خوضنا للمصطلح كمفهوم و أبعاده و معانيه، و من ثم يتحول هذا اللبس إلى منحنى بحثي نحاول شرحه، فكل هذا المفاهيم "الحضارة" و"المدنية" و"الثقافة" هي مصطلحات ترد باستمرار في كثير من كتابات علماء الاجتماع التربوية و الحضارة، و تأتي بوعي أو بغيره، دون مراعاة لمنطق اللغة و الاشتقاق، لأن كل حضارة تتطوي على قدر متنوع من عناصر عقيدية و اجتماعية بشكل يثير ضرورة تناول الحضارة كوحدة دراسة، حيث يكون لها رموزها الخاصة التي تعبر عن نوازعها و طاقاتها، لذلك حاولنا تقديم تعاريف كثيرة لمصطلح الحضارة، و تموقعاته التاريخية، و تمفصلاته العقدية، عبر تاريخ من الإبداعات و البحث حول المفهوم. و نحاول أن نقدم للحضارة عند مالك بن نبي التي رأى فيها أن مشكلة كل شعب هي . في جوهرها . مشكلة حضارته، فإنه لا يتأتى لأمة أن تواجه حاضرها الفكري و الثقافي ما لم ترفع بفهمها إلى حقيقة ماضيها الحضاري و تراثها الثقافي. ثم التطرق إلى محورية الإنسان في هذا البناء، و عناصرها، و محاورها. و الوصول في نهاية الفصل إلى البعد التربوي للحضارة التي تستند في تأسيسها الأول إلى الأخلاق و التربية. ثم العروج على مبدأ ثابت في الحضارة و هو الإرادة التي تريد أن تصنع الحضارة من خلال عملية تغييرية، بالإضافة إلى الإمكان الذي يمثل الجانب المادي من أجل إحداث التوازن.

1 . الحضارة: (Civilisation)

يجمع الكثير من الباحثين في مصطلح في علم الاجتماع و الحضارة و التاريخ و غيرها من العلوم، أن هناك مجموعة من المفاهيم الأكثر حضور و تردد أثناء معالجة لفظ الحضارة، من بينها "المدنية" و "الثقافة" و التي تستعمل بوعي و بغير وعي بمعاني متناقضة أو بمعنى واحد، دون تمييز و دون مراعاة لمنطق اللغة و الاشتقاق، بالإضافة إلى أن ذلك المنحى اللاموضوعي ترفضه الكيانات الحضارية المختلفة، لأن كل حضارة في حقيقتها تنطوي على قد هائل من عناصر تاريخية و عقدية و اجتماعية بشكل يثير فينا تناول كل حضارة ككيان خاص، حيث يكون لها رموزها الخاصة التي تعبر عن نوازعها و طاقاتها، و هذه النفس و هذه الرموز هي التي تسيطر و توجه نتاج الحضارة من أدب و فن و فلسفة و مذاهب.

1.1 : تعرف الحضارة :

"الحضارة" لغة . بفتح الحاء و كسرهما . تعني الإقامة في الحضر، و أن مظاهر الرقي العلمي و الفني و الأدبي و الاجتماعي في الحضر.¹

"الحاضرة و الحضرة و الحضر هي المدن و القرى و الريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار و مساكن الديار التي يكون لهم بها قرار".²

و الحضارة ضد فعل " غاب، و الحاضرة و الحضارة " و يفتح " خلاف البادية".³

و يعود أصل كلمة الأوروبية "civilisation" إلى الجذر اللاتيني " civites " بمعنى مدينة، و " civis " بمعنى ساكن المدينة، أو "civilis" بمعنى مدني أو ساكن المدينة، أو "citizen" و هو ما يعرف بالمواطن الروماني المتعالي على البربري. و لم يشتق منها إلا في القرن الثامن عشر مصطلح "civilization" و قد ثبت أنه كان للكلمة في البداية و لمدة تقرب من الخمسين سنة بعد ذلك مختلف عن المعاني التي ساعد شبنجلر و أرنولد توينبي و آخرون على منحها لها.⁴

¹ . المعجم الوسيط... مجمع اللغة العربية، ص180. عن: محمد عارف ، الثقافة . الحضارة . المدنية دراسة لسيرة المصطلح و دلالة المفهوم. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المكتبة الوطنية ، ط3، 1993، ص33.

² . تاج العروس، م3، ص136، محمد عارف، الثقافة . الحضارة . المدنية دراسة لسيرة المصطلح و دلالة المفهوم. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المكتبة الوطنية، ط3، 1993، ص33.

³ . لمجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج2، مرجع سابق، ص10.

⁴ . محمد عارف، الثقافة . الحضارة . المدنية دراسة لسيرة المصطلح و دلالة المفهوم. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المكتبة الوطنية، ط3، 1993، ص33 .

و يستعمل في بعض الأحيان مصطلح "culture" كمرادف لمصطلح الحضارة، و قد أخذ هذا المصطلح في تشعبات كبيرة على مستوى الاصطلاح و الاشتقاق اللغوي، فعلى المستوى اللغوي تعني حرث الأرض و زراعتها. و بقيت هذه اللفظة مقترنة بهذا المعنى طوال العصرين اليوناني و الروماني ، حيث أستخدمها "شيشرون" للدلالات نفسها. و قد أطلق على الفلسفة "Mentis Culture" أي زراعة العقل و تنميته.

و بقي المصطلح نفسه إلى القرون الوسطى، حيث أطلقت في فرنسا على الطقوس الدينية "Cultes". و في عصر النهضة اقتصر مصطلح "culture" على مدلوله الفني و الأدبي. و استمرت الكلمة محافظة على جذرها اللغوي و الدلالات المشتقة منه إلى أن جاء (إدوارد تايلور) و وضع تعريفا لهذا المفهوم يعد حتى اليوم من أوفى التعريفات و أشملها بحيث لا يزال يستخدم في معظم الكتابات الأنثروبولوجية و الذي يعرفها بأنها: "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة و العقائد و الفن و الأخلاق و القانون و العرف و كل القدرات و العادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع".¹

و بعض العلماء يميزون بين لفظ حضارة و مدنية، فيجعل لفظ الحضارة خاصا بالتكوين الثقافي و المعنوي لمجتمع ما، و لفظ مدنية يعد الجانب المادي في الحضارة. و قبل الخروج من هذه النقطة هناك ملاحظة يجب تسجيلها، وهي أن هناك اضطرابا واضحا في الفكر العربي عند تعامله مع مفهومي "culture" و "civilization" حيث قدّم للمفهومين الأوروبيين ثلاثة ألفاظ عربية هي "الثقافة" و "الحضارة" و "المدنية"، فمن ترجم "culture" إلى ثقافة، فقد ترجم "civilization" إلى حضارة، و من ترجم "culture" إلى حضارة ترجم "civilization" إلى مدنية و في كل حالة يختلف تعريف المفهوم العربي عن الآخر، ففي الحالة الأولى تكون الثقافة هي الجانب الفكري للحياة الإنسانية، و تكون الحضارة هي الجانب المادي لها. و في الحالة الثانية تكون الحضارة هي الجانب الفكري، و تكون المدنية هي الجانب المادي لها.

. و اصطلاحا: لم يكن لفظ "حضارة" موجودا في التراث الفكري و الأدبي عند العرب قديما بنفس الاصطلاح، ونستثني من ذلك "عبد الرحمان بن خلدون" لأنه الأول من عبّر

¹ ريمون بودون و بورويكو، فرانسوا، المعجم النقدي في علم الاجتماع. تر: سليم حداد، ط1، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 144.

عن المعنى في مقدمته بالرغم أنه كان يستعمل مصطلح " العمران البشري " كمرادف لمعنى الحضارة، و سوف نعرض لتطور المفهوم في الفكر الغربي و العربي على حد السواء.

1. 2 : الحضارة في الاصطلاح الغربي:

قد أطلق الكثير من الباحثين كلمة "حضارة" على كل يتعلق بالتقدم و الرقي الإنساني في المجالات الحياة المختلفة كاللغة و الأدب و الفنون الجميلة و الصناعة و التجارة، و غير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني الذي يؤدي الى التقدم و الرقي و يبسر السبيل الى حياة إنسانية كريمة. و الحضارة بذلك وضع مثالي و حقيقي في آن واحد، إنها مجموعة الخطط و النظم القمينة بإشاعة النظام والسلام و السعادة و بتطوير البشرية الفكري و الأدبي.

1. 2. 1 : في الأنثروبولوجية :

1. 2. 1. 1: الحضارة عند تايلور: (Edward Taylor) وعرف الأنثروبولوجي والسوسيولوجي الإنجليزي إدوارد تايلور الحضارة بأنها "درجة من التقدم الثقافي تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية في درجة متقدمة"؛ أي إن التحضر، في نظر هذا العالم، مرتبط بالتاريخ الثقافي. إذ يتحقق خصوصاً عندما يبلغ تطور أشكال المعرفة والثقافة مستوى راقياً من التقدم والتبلور والنضج.

1. 2. 1. 2: الحضارة عند كلايد كلاهون و كيلي Clyde Clakhon, et Kell : يرى أن الحضارة هي: " مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها، أو هي الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه وهي التي تحدد الأساليب الحياتية، أو هي طريقة في التفكير والشعور والمعتقدات، إنها معلومات الجماعة البشرية مخزونة في ذاكرة أفرادها أو في الكتب أو في المواد والأدوات".¹

1. 2. 2 : في فلسفة التاريخ و الحضارة:

1. 2. 2. 1: الحضارة عند هيجل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) يرى أن كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة، و أم ملامحه

¹ . نصر محمد عارف - الحضارة ، الثقافة ، المدنية - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا - 1995م - ص 21

السياسية و الاقتصادية و الأخلاقية و الاجتماعية العامة و الجمالية و العقلية و الدينية كلها جوانب أو نواح للمجموع الحي، و منها جميعا يتكون كيان متجانس. و أن كل فترة أساسية تنمي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى ثم تولد أصدادها أو نقائضها. و يستمر الصراع دائما، فتتحد المبادئ المتناقضة في وحدة عليا هي (الموحد)، و هذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى و ينشب صراع جديد فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد تقويما هو فعال من كل الفرضية و نقيضها. و بهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى (المطلق) الذي نستطيع أن نبقي نتأمله إلى الأبد دون أن نتبين فيه أي تناقض. و يرى أن الدولة هي الوحدة الأساسية في دراسة التاريخ، إنها الحرية في صورتها الواقعية ، إنها تمثل تموضع الروح أو الفكرة الإلهية متجسدة على الأرض، إن كل نشاط بشري و كل عمل فكري إنما لا يتحقق من خلال الدولة و أنظمتها، و من ثم فهي الصورة النهائية التي عندها تشكل موضوع التاريخ.

و يعتقد هيجل أن فكرة الحرية هي المفتاح الحقيقي للتاريخ ، لأن الحرية هي جوهر العقل، و العقل هو الذي يحكم العالم. و مسيرة التاريخ في فلسفته لون من التقدم الجدلي الذي يتم فيه الهدم و البناء الجديد من أجل تحقيق التغيير نحو الأفضل. و عبقرية الأمة أو روح الأمة هي الخالق الحقيقي للحضارات. و التاريخ في فلسفة هيجل هو المسرح الذي تظهر عليه الأمم المختلفة للتعبير عن الروح الكلية، و لكن الأبطال و العباقرة و حدهم هم القادرون على إدراك جوهر هذه الروح.¹

1 . 2 . 2 . 2 : الحضارة عند كارل ماركس Karl Marx : يعرف "ماركس" بفلسفته المادية، و لكن كثيرا من نظرياته لها أهمية سوسيولوجية كبيرة، و قد أثرت نظرياته . و لا زالت تؤثر. في التفكير الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي حتى اليوم، كان يرى إذا كان دور الفلاسفة حتى الآن هو تفسير التاريخ، أما الماركسية فتريد أن تغير العالم.² لقد كرّس "ماركس" جهده على دراسة عميقة للاقتصاد و قوانينه من أجل صياغة نظرية متكاملة في تفسير التاريخ و في الاشتراكية العلمية، كما اعتبر ماركس أن انتقاد الدين لا يكفي لوضع نهاية للغيبيات، لأن الدين ليس سببا، و لكن نتيجة غربة الإنسان عن ذاته

¹ . عبد الجليل الطاهر، مسيرة المجتمع. بحث في نظرية التقدم الاجتماعي، بيروت، ط1، 1966، ص.153.

² . — ، من أجل التغيير، مرجع سابق، ص.11.

و أنه لا بد من اقتلاع تلك الأسباب التي قيّدت الإنسان على هذا النحو، لقد تجاوز ماركس مجرد أن الدين من صنع الإنسان إلى بيان كيف أن الدين من نتائج العوامل الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والأنظمة السياسية.

و قد تلخّصت نظرية البناء الاجتماعي عند كارل ماركس في أن هناك نوعين من البناء الاجتماعي : البنية التحتية و تتكون من العوامل الاقتصادية و المادية، ثم البنية الفوقية و تشمل الأفكار و المبادئ. و أن أي تغيير في الأسفل يتبعه تغيير في البناء الأعلى، و لكنه يضيف إلى ذلك فكرة هامة و هي أن ثمة تفاعلا أو تأثيرا متبادلا بين كلا الأساسين أو البنائين العلوي و السفلي. إذن هناك تفاعل و تساند متبادل بين كل العوامل الفكرية و الاقتصادية المادية في المجتمع. كل ما غي الأمر أنه حذر فقط من الاستغراق في العوامل الفكرية. أي دراستها في ذاتها، وتلك فكرة من الأفكار الأساسية التي استند عليها بعض علماء الاجتماع الألمان، و خاصة فيما يتعلق بعلم اجتماع المعرفة.

1 . 2 . 2 . 3: الحضارة عند ول ديورانت Will Durant: يعرّف الحضارة بأنها: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي و تتألف الحضارة . في نظره . من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، و النظم السياسية، و التقاليد الخلقية، و متابعة العلوم و الفنون، و يضيف قائلاً: " إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب و القلق، لأنه إذا ما آمن الإنسان من الخوف، تحرّرت في نفسه دوافع التطوع، و عوامل الإبداع و الإنشاء، و حينئذ لا تتفك الحوافز الطبيعية تستهضه للمضي في طريقه الى فهم الحياة و ازدهارها".¹

1 . 2 . 2 . 4: الحضارة عند ألبرت شفيترز Albert Schweitzer: يؤكد المعنى الأخلاقي للحضارة بقوله: " أن جوهر الحضارة يكمن أساسا في سيادة العقل على نوازع الإنسان، بمعنى إحراز التقدم الأخلاقي و الروحي" و يضيف: " فالتقدم الأخلاقي إذن هو جوهر الحضارة حقا، و ليس له غير معنى واحد، أما التقدم المادي فهو أقل جوهرية، و يمكن أن يكون له أثر طيب أو سيء في تطور الحضارة، و الحضارة التامة إذا حدّناها من الخارج، و على نحو تجريبي فإنها عبارة عن تحقيق كل تقدم ممكن في الكشف و الاختراع، و في تنظيمات المجتمع الإنساني، و عن كفالة أن تعمل كلها من أجل التكميل الروحي للأفراد الذي هو

¹ . ول ديورنت، قصة الحضارة، ج الأول، مرجع سابق، ص. 4.

الهدف النهائي الحقيقي للحضارة. و توقير الحياة في موقف يسمح له بإكمال هذا التصور للحضارة و تشييد أسسه على صميم وجودنا".¹

1 . 2 . 2 . 5 : الحضارة عند أوزوالد شبنجل Arnold Gottfried Spengler Oswald
 و قد نظر إليها نظرة قائمة على اعتبار تفسير كونها ظاهرة روحية، تشكل وحدة تصور، يطبع الخصائص و مميزات الشخصية الحضارية، و يؤكد بأن لا وجود لمعنى الحضارة بمفهومها العام والشامل بل أن معنى الحضارة يتشكل في الذات في إطار خصوصية معينة، لها قيمتها الخاصة بها، نظرا لأنها صادرة عن هذه الروح الخاصة، حيث عرّفها في كتابه الموسوم ب:(تدهور حضارة الغرب) بأنها: "الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي. لأن الحضارة ظاهرة روحية لجماعة من الناس لها تصور واحد عن العالم، و تتبلور وحدة تصورهم في مظاهر حضارية من فن و دين و فلسفة و سياسة و علم، و تشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها خصائصها الذاتية".²

1 . 2 . 2 . 6 : الحضارة عند أرنولد توينبي (Arnold Toynbe) : هو المؤرخ الانجليزي الذي استطاع أن يحقق أشمل صورة تقريبية للتاريخ البشري، و يرى توينبي في السمة الدينية أهم صفة يمكن أن توصف بها الحضارة، لذلك نجده يسمي الحضارة باسم الدين الذي نشأت في ظلاله أو بالأحرى كانت إحدى ثمراته، و قد اعتبر أن حركة التاريخ تسير على إيقاع التحدي والاستجابة. وما هذه التحديات إلا ظروف طبيعية قاسية أو ضغوط بشرية خارجية، وعلى إحدى هذه التحديات توجد استجابة ناجحة تقوم بها الأقلية المبدعة، بوصفها الفئة القادرة على عملية الخلق والإبداع وصنع الحضارات. كما اعتقد توينبي أن الحضارة هي الوحدة الحقيقية لدراسة التاريخ، ويعتبر هذا المبدأ بمثابة حجر الأساس في منهجه التاريخي، ويعني هذا المبدأ أن الحضارة بأسرها، هي الوحدة الأساسية للدراسة التاريخية، ولذلك انتقد توينبي المؤرخين الذين اتخذوا من الأمم أو الدول القومية مجالاً لدراساتهم التاريخية.

و قد رأى "توينبي" أن مفهوم الحضارة بمعناها الخاص، مقتصر على وجهة نظر الإنسان عن الحياة، أما بوجه عام، فالحضارة هي مجموعة الأفكار والرؤى والقيم السائدة التي توجه الإنسان، والتي تترك بصماتها وتلقي بظلالها على المنظومة الذهنية وأساليب وطرق التفكير

¹ . ألبرت شفيترز، فلسفة الحضارة. ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص. 404

² . شبنجل أوزوالد، تدهور حضارة الغرب، ترجمة: أحمد الشيباني، لبنان، بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ، الجزء الأول، ص. 39

لدى الإنسان، وعلى الدولة والمجتمع، وهي سمة المجتمع بما يحتويه من أفكار ومبادئ وعادات وتراثيات وطبيعة الحياة من الجهة النظرية والفكرية والعملية الخ، فالحضارة هي ما يحتويه الإنسان من الثقافة. ويتحدث توينبي عن معنى الحضارة بشكل أدق (إنني أعني بالحضارة أصغر وحدة في الدراسة التاريخية يصل المرء إليها عندما يحاول أن يفهم تاريخ وطنه).¹

1 . 2 . 2 . 7 : الحضارة عند بيتريم سوروكين (Pitirim A.Sorokin): يرى أن المجتمعات تتحرك جيئة وذهابا من نمط معين من الحضارة الى آخر، وتحتاج الكائنات الإنسانية في البداية الى اكتساب المعرفة لكي تسيطر على اتجاه التغيير، لكي نفهم ذبذبة التغيير الاجتماعي، يجب على دارسى علم الاجتماع أن يكونوا على إلمام تام بالنماذج المختلفة للمجتمع. و يمدنا(سوروكين) بثلاثة أنواع للحضارات هي: الحسية - التصويرية - المثالية. هذه الأنواع الثلاثة توجد فقط كنماذج مثالية، و لا يوجد فيها نوع خالص. و تكمن أنماط الثقافة عند سور وكين في:

أولا: الثقافة الحسية: توجد عندما تتقبل عقلية الجماهير حقيقة الأشياء وتستطيع ملاحظتها بالأعضاء الحسية، لذلك تتجه الحضارة الحسية نحو استخدام (الامبيريقية) كمصدر للحقيقة. **ثانيا: الثقافة الصورية:** عبارة عن إحساس روحى، تعتمد على اتجاه دينى الى حد بعيد. تعتمد على الدين والوحى كمصادر للحقيقة، ولا تهتم بالجوانب الامبيريقية. فإذا كان الشخص الحسى يكتسب المعرفة من الظواهر التى يمكن ملاحظتها، ولذلك يستطيع أن يعالجها ببراعة، فان الشخص الصورى هو ببساطة الذى يطابق بين الأنماط وأحوالها فى مجموعة كلمات، ويضع تنبؤات خيالية، ويكون أزليا ومطلقا.

ثالثا: الثقافة المثالية: مزيجا من الأنماط الحسية والصورية هذا النوع من الثقافة يرتقى فوق النوعين السابقين نظرا لإضافة (السبب) كمصدر للحقيقة.

رابعا: الثقافة المختلطة: وهو مركب من الثقافة الحسية والصورية بدون سبب كمصدر للحقيقة. يجب أن تعتمد هذه الثقافة الى حد ما على الامبيريقية والزهد أو التقشف.

¹ . توينبي، أرنولد، الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين محمود الشريف، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1948 م، ص 197

يعتقد سوروكين أن هذه المجتمعات تترد جيئةً وذهاباً ما بين الحضارة الحسية والصورية، أحيانا ترتفع بدرجات كبيرة، وتحرز تقريبا الثقافة المثالية، وفي أحيان أخرى تمر بالثقافة المختلطة.

1. 3: الحضارة عند علماء العرب و المسلمين:

اعتنى المفكرون العرب و المسلمون كثيرا بالحضارة كمفهوم و بعد و واقع اجتماعي منذ عصور طويلة، و ذلك لارتباطهم الوثيق بها، وما حققتها من إنجازات معنوية و مادية امتدت في ظرف وجيز إلى مختلف الأصقاع و الأمصار، و سوف نذكر هنا نموذجين كانت إسهاماتها كبيرة، و هما عبد الرحمان بن خلدون، و الغزالي.

1. 3. 1: الحضارة عند عبد الرحمن بن خلدون: يعتبر عبد الرحمن بن خلدون من رواد الفكر الاجتماعي، و قد استفاد مما قرأه عن تاريخ العالم و ما تعلق منه بالتاريخ الإسلامي بصفة خاصة لأن هذه الدراسات التاريخية

قد اتجهت به إلى نتيجة معينة تتمثل في أن ما يحدث في العالم من ظواهر اجتماعية إنما تسير وفق قوانين ثابتة لا تقل عن القوانين التي تخضع لها الظواهر الأخرى.

يعتبر ابن خلدون نقلة نوعية في فلسفة تاريخ، فانقلبت فكرة التطور التاريخي من التفسير البطولي إلى التفسير الحضاري. و قد استخدم في نظريته هذه مصطلح الدولة، و هو ما رآه بن نبي إطاراً تنظيرياً ضيقاً كان يمكن التعمق فيه و توسيعه ليشمل ظاهرة الحضارة كلها، مؤكداً أن ابن خلدون قد تمكن " من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن هذا المنطق، إذ لم نقل إنه قد قام بصياغته فعلاً ... لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتجات الحضارة و نعني به الدولة، و ليس عند الحضارة نفسها. و هكذا لم نجد عند ابن خلدون غير نظرية عن تطور الدولة.¹

و يتأسس قضية التفسير التاريخي عند ابن خلدون على قوام أن التطور هو سنة الحياة الاجتماعية للإنسان، " ذلك أن أحوال العالم و الأمم و عوائدهم و نحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة و منهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام و الأزمنة. و انتقال من حال إلى حال،

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص.66.

و كما يكون ذلك في الأشخاص و الأوقات و الأمصار، فكذاك يقع في الآفاق و الأقطار و الأزمنة و الدول".¹

و أهم ما يوجه التطور الاجتماعي و العمراني عند ابن خلدون هو نظريته في العصبية، فهي بمثابة المحور الذي يدور حوله معظم المباحث الاجتماعية و التاريخية عنده، و هو يتخذ من هذه الرابطة موضوعا لدراسة شاملة و عميقة، فيتكلم عن مصادر العصبية، و يردها إلى الطبيعة، "لأن صلة الرحم الطبيعي في البشر إلا في الأقل، و من صفتها النعرة على ذوي القربى و أهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة".²

و يرى ابن خلدون أن الدولة لها أعمار طبيعية كما الأشخاص، وعمر كما شخص كما زعم العلماء و المنجمون أربعون سنة، و الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، و الجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط. فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو و النشوء إلى غايته.

و يمضي " ابن خلدون" فيقول : إنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة :
الجيل الأول: لم يزل على خلق البداوة و خشونتها و توحشها من شطف العيش و البسالة و الافتراس و الاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف و جانبهم مرهوب، و الناس لهم مغلوبون.

الجيل الثاني: تحول حالهم بالملك و الترف من البداوة إلى الحضارة و من الشطف إلى الترف و الخصب، و من الاشتراك في المجد إلى الإنفراد الواحد به و كسل الباقين عن السعي فيه، و من عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتتكسر سورة العصبية بعض الشيء و تؤنس منهم المهانة و الخضوع. و يبقى لهم الكثير من ذلك، بما أدركوا الجيل الأول و باشروا أحوالهم و شاهدوا من اعتزازهم و سعيهم إلى المجد و مراميه في المدافعة و الحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، و إن ذهب منهم ما ذهب، و يكونون على الرجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجوها فيهم.

الجيل الثالث: فينسون عهد البداوة و الخشونة كأنها لم تكن، و يفقدون حلاوة العز و العصبية بما هم فيه من ملكة القهر، و يبلغ فيهم الترف غايته بما تقننوه من النعيم

¹ . عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص.38.

² . عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص.128.

و غضارة العيش ، فيصرون عيالا على الدولة، و من جملة النساء و الولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، و تسقط العصبية بالجملة، و ينسون الحماية و المدافعة و المطالبة، و يلبسون على الناس في الشارة و الزي و ركوب الخيل و حسن الثقافة يموهون بها، و هم في الأكثر أجبين على النسوان ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعة، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل الخبرة، و يستكثر بالموالي و يصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء، حتى يأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت.¹

و تكشف نظرية ابن خلدون في الدول و أعمارها عن نظرية في التطور الاجتماعي، ذات أبعاد بيولوجية فالدولة عنده كائن حي يتطور على الدوام وفق نظام ثابت، كما تتطور جميع الكائنات الحية، حيث أن الحضارة عنده تعاقب على الأمم في أربعة أطوار هي طور البداوة، ثم طور التحضر، ثم طور الترف، ثم طور التدهور الذي يؤدي إلى السقوط، ذلك أن الحضارة هي غاية العمران و نهايته، فإذا تم للدولة كل ما تتطلع إليه من تحضر صاحب ذلك رفاهية و استرخاء و سيطرت عليها طبيعة الهرم فيستولي عليها المرض المزمّن الذي لا يكاد تخلص منه، و لا يكون لها معه براء، و لا يكون لها معه براء إلى أن تنقرض.

1 . 3 . 2: الحضارة عند أبو حامد الغزالي: يعد الغزالي واحدا من أهم العلماء المسلمين الذين تعرضوا لأصول المجتمع الإنساني و تطوره، و لم تكن غايته وضع نظرية اجتماعية عن وضع المجتمع و تطوره، و إن كان هدفه إثبات أن وجود المجتمع و الحياة الاجتماعية و إن كان يمثل ضرورة اجتماعية من حيث تعقد الحياة الاجتماعية نتيجة تطور المجتمعات يؤدي إلى صرف الناس بشكل كلي أو جزئي عن طلب الحقيقة و عن سعيه وراء معرفة الله. و يفسر الغزالي نشأة المجتمع الإنساني من حيث ضرورة وجود هذا المجتمع تدل على حكمة الله في خلقه لهذه الحاجات الإنسانية من ناحية، و في خلق الإنسان عاجزا وحده عن سدّها من الناحية الأخرى، و خلق الله سبحانه و تعالى في كل إنسان رغبة طبيعية في التجمع من أجل حتمية الوجود الاجتماعي، و بقول آخر إن الله تعالى فرض حتمية المجتمع في خلقه للطبيعة البشرية.²

1 . مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الجزء الثاني، القاهرة، ص385

2 . نبيل السمالوطي، المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع. مرجع سابق. ص66

وتصور الغزالي لطبيعة المجتمع هو جزء هام من تصوره العام عن نظام الكون، و يعرض لهذا التصور في كتابه (إحياء علوم الدين) حيث يرى أن المجتمع الإنساني وحدة متكاملة إذا نظرنا إليه ككل، و المبدأ الأول الذي يجب تفسير و فهم المجتمع الإنسان من خلاله أنه من خلق الله و تصميمه، و ليس فيه شيء من خلق الإنسان، و يحكم الله المجتمع الإنساني عن طريق جنوده الذين هم البشر، وإذا كان فهم الفرد لنفسه يحكم درجة حرته في العمل، فإن الفهم الإنساني في المجتمع الإنساني أيضا هو أحد العوامل التي تتحكم في درجة حرته في التطور. و على عالم الاجتماع المسلم الوقوف على حكمة الله سبحانه و تعالى في حياة الجنس البشري، و معرفة أسلوب في حكم المجتمع الإنساني، و على الباحث معرفة دور العقل الإنساني، وما ينتج عنه من مفاهيم و مبادئ تحكم السلوك البشري، كما تحكم المؤسسات و النظم البشرية.¹

1. 4: في الفكر الإسلامي الحديث:

تتأسس الحضارة على مقومات الروح و العقل معا، و لا يمكن لأي مجتمع عن واحدة من ركائزه، و كان هذا هو مآل الحضارة العربية الإسلامية التي تخلت عن روحها و عنت دفعتها القرآنية التي كانت حجر الزاوية و الركن الركين بالنسبة للإنسان الذي ينشد الحضارة و يضعها ضمن اهتماماته، و قد ظهر الوهن و الضعف في العصر الحديث، حيث عاش الإنسان المسلم تخلفه الحضاري بعد أن تراكمت على أعطافه ثقل التخلف الموروث منذ الانهيارات السياسية و الأخلاقية و الاقتصادية، و لذلك لضعف للتشقات التي حدثت على جدار الروح و الانكسارات النفس.

1. 4. 1: الحضارة جمال الدين الأفغاني: هو باعث النهضة في أمة متعددة المذاهب و القوميات و اللغات، و وصف ب (موقظ الشرق أو حكيم الشرق)، و وصفه مالك بن نبي ب (ضمير العالم الإسلامي)، و لقد شاءت الأقدار أن تجعل من هذا الرجل في التاريخ الشاهد الصادق و الحكم الصارم على مجتمع انتهى أمره في هدوء إلى الانحلال، بينما أخذ الاستعمار يستقر على أرضه.²

¹ . نبيل السمالوطي، المرجع السابق. ص ص ، 72 ، 73.

² . وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 49.

و قد عاصر اتجاهين إنثيين ظهرا في ذلك الوقت، فالأول كان ملحا على عدم أهمية هذا الجانب من الحضارة، وأنَّ المهمَّ هو أن تركزَّ الأمة اهتمامها على ما لديها من التراث الروحي والمعنوي والديني، وأن تصون كلَّ ذلك من الخطر الدايم الذي تمثله التقانة الغربية الحديثة. بينما الاتجاه الثاني بالقطيعة المعرفية ذاتها في الدعوة إلى نبذ التراث كلِّه، بما في ذلك الدين نفسه، أو تفرغه من الجوهر الإيمانيّ، كشرطٍ أوَّلِيٍّ للتخلُّص من حالة التخلف في المجالات المختلفة.

فاختط جمال الدين الأفغاني طريقا وسطيا بين الاتجاهين حيث دعا الأمة إلى الانتباه لواقعها المتخلف، وأن تأخذ بأسباب التطوُّر في مجال التقنية والطبِّ والزراعة. فقد كان يدعوا إلى نهوض الأمة من خلال رجوعها إلى دينها وتمسكها به، ومن أقواله في ذلك: "إنا معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق"¹.

1 . 4 . 2: الحضارة محمد عبده: وقد رأى أن الإسلام هو الحضارة، و أن مفهوم الحضارة عنده مرتبط بالتححرر الكامل لقوى الإنسان و طاقته، و ذلك أمر لا يتحقق إلا بالإسلام. يقول السيد قطب : " حين تكون الحاكمة العليا في مجتمع لله وحده، متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية، تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا و حقيقيا من العبودية للبشر، و تكون هذه هي (الحضارة الإنسانية). لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التححرر الحقيقي الكامل للإنسان و من الكرامة لكل فرد في المجتمع. و لا حرية في الحقيقة و لا كرامة للإنسان . ممثلا لكل فرد من أفراده . في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، و بعضه عبيد يطيعون" ثم يقول: " حين تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، و تكون الخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم و الاعتبار، يكون هذا المجتمع متحضرا".

1 . 4 . 3: الحضارة محمد قطب: يرى أن الحضارة بأنها " النشاط الذي يقوم به الإنسان في شتى مجالات الحياة ليحقق غاية وجوده"، وغاية وجود الإنسان أوضحها الله في كتابه

¹ . محمد عمارة، المشروع الحضاري الإسلامي، ط1، دار السلام، مصر، 2008. ص22.

العزیز ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ ﴾¹، و في شأنه أسباب خلق الله سبحانه و تعالى للإنس و الجن، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ ﴾². وعلى هذا الأساس انطلقت الحركة الحضارية الإسلامية تعمل في ظل العقيدة، فعملت على تعمير الأرض وإنشاء المدن وتعبيد الطرق، وتقدمت الزراعة، وأنشأت القناطر والسدود، وتم تطوير شبكات الري، وفن البناء، والمساحة، والخرائط، وازدهرت الصناعة والتجارة، وفي كل هذا كانت الأمة الإسلامية ملتزمة بالمنهج الرباني الذي يحدد الحرام والحلال، والمباح وغير المباح، فهذا هو المقتضى الحضارى لا إله إلا الله.

و في الوقت الذى كانت فيه أوروبا تبني حضارتها، كانت الحضارة الإسلامية تنهار بسبب الابتعاد عن المفاهيم الإسلامية الصحيحة، رغم تأكيد تلك المفاهيم على أهمية التفوق العلمى والحضارى فى جميع الميادين العلمية والحضارية، وليس فقط فى مجال العلوم الدينية والشرعية، الأمر الذى أصاب المسلمين بالجمود الفكرى، ومن ثم كان له انعكاسات خطيرة على الحضارة الإسلامية.

2 . الحضارة عند مالك بن نبي:أخذ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي عدة أبعاد و منظورات و زوايا بحثية، الذى يلم بجميع جوانب المشكلة التي هي مشكلة الحضارة في حياة الإنسان، تعني بالدرجة الأولى ناتج انسجام و تكامل الجهود الإنسانية مع قوانين الآفاق و التطلعات، وجملة الشروط النفسية و الاجتماعية و الروحية و الدينية، من أجل النمو و الازدهار في الجوانب الفكرية و الروحية و السلوكية و الاقتصادية و الاجتماعية و المادية في الواقع المعاش. و كثرت التعريفات المفسرة لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي فهو يعرفها بتعاريف متغايرة في كتبه المختلفة بحسب الموضوع الذى يبحثه و تموقعاتها المعرفية و الفكرية، و سياقاتها الاجتماعية:

1. 2 : تعريف الحضارة من الناحية الوظيفية: هي مجموع الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة و المعمل و المستشفى و نظام شبكة المواصلات ، و الأمن في جميع صورة عبر

¹ .سورة البقرة، الآية: 30

² .سورة: الذاريات، الآية: 56.

سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد ، تمثل جميعها أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد و يقدر المجتمع المتحضّر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه.¹

2 . 2 : تعريف الحضارة من الناحية البيولوجية : يعرف مالك بن نبي الحضارة من الناحية البيولوجية : هي مجموعة من العلاقات بين المجال الحيوي "البيولوجي" حيث ينشأ و يقوى هيكلها، و بين المجال الفكري حيث تولد و تنمو روحها؛ فعندما نشترى منتجاتها فإنها تمنحنا هيكلها و جسدها لا روحها.²

2 . 3: تعرف الحضارة من الناحية التحليلية: لمجموع مكوناتها وكأنها معادلة رياضية فيقول " : حضارة = إنسان + تراب + وقت.

و هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على المجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي يدخل به التاريخ.³ و كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية التالية:

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت.

و هذه الصيغة صادقة بالنسبة إلى أي ناتج حضاري، و إذا ما درسنا هذه المنتجات حسب طريقة الجمع المستخدمة في الحساب، فسينتهي حتما إلى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية :

حضارة = إنسان + تراب + وقت.⁴

و تشير الصيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكفي بأن نكسر المنتجات وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها".⁵ فهو هنا يجعل أي منتج حضاري يتفاعل هذه العناصر الثلاثة فالذي يقصده مالك من:

✓ **الإنسان:** هو بكونه وحدة اجتماعية وليس انفرادية.

1 . _____ ، القضايا، مرجع سابق، ص43.

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص48.

3 . _____ ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. مرجع سابق، ص41.

4 . _____ ، شروط النهضة. مرجع سابق، ص49 .

5 . _____ ، المرجع السابق، ص50 .

✓ الوقت: فهو مدة زمنية محددة بساعات معينة ينفقها الإنسان كوقتاً اجتماعياً مقدراً بساعات عمل.

✓ التراب: فهو ما يقدم غذاء الإنسان في صورة استهلاكية توفى بحاجات المجتمع تبعاً لعملية الإنتاج.¹

2 . 4: الحضارة كتركيب بيولوجي: لكون حضارة القرن العشرين لها مشتملاتها المادية و الروحية، فلا يمكنها أن تتبع شيئاً و تترك الآخر، أي أنه لا يمكن أن تتبعها روحها و أفكارها و ثروتها الذاتية و أذواقها، هذا الحشد من الأفكار و المعاني التي لا تلمسها الأنامل، والتي لا توجد في الكتب أو في المؤسسات، لكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تتبعنا فارغة دون روح و بغير هدف، و هي بوجه خاص تمنحنا ذلك العديد الهائل من العلاقات التي لا توصف، و التي تبعثها أي حضارة داخل أشتائها و أفكارها من جانب، و بين هاتين المجموعتين و الإنسان من جانب آخر. لذا يعرف الحضارة من هذه الناحية: "هي مجموعة من العلاقات بين المجال الحيوي(البيولوجي) حيث ينشأ و يتقوى هيكلها، و بين المجال الفكري حيث تولد و تنمو روحها، فعندما نشترى منتجاتها فإنها تمنحنا هيكلها و جسدها و روحها".²

2 . 5: الحضارة كجوه: يتلخص جوهر الحضارة في " أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة".³ و ذهب مالك بن نبي أبعد من ذلك من أجل التوغل في تحليل جوهر الحضارة و ارتباطها مع الثقافة إذ يقول: "إن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة" و بذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحققة، التي تأخذ في النهاية مهمتها التاريخية و تقوم بوظيفة الدم لكائن الحي. و تنتقل أفكار الجمهور الشعبية، و الأفكار الفنية، و هذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة.⁴

1 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص32.

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 47 ، 48.

3 . _____ ، مشكلة الثقافة. مرجع سابق، ص 100.

4 . _____، المرجع سابق، ص104

6. 2 : الحضارة كتركيب رياضي: إن جمع منتجات حضارية هي الحضارة نفسها في صورة غير مركبة. فالحضارة ليست (كومة) من الأشياء و الأفكار، و لكنها بناء يعكس عبقرية البلد و شخصيته.¹ و يكتب مالك بن نبي الصيغة الرياضية التالية:

حضارة = إنسان + تراب + وقت.

7 . 2 : الحضارة كشكل نوعي خاص : الحضارة ليست شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية ، في اي مجمع كان، و لكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية ، بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها، لا من حيث رغبته ، و لا من حيث قدرته، أو بعبارة أخرى: لا من حيث أفكاره ،و لا من حيث وسائله.²

8. 2 : الحضارة ككل متكامل: الحضارة بناء على تعريفها البسيط . ليست (كومة) من الأشياء المتخالفة في النوع، بل هي (كل)، أي مجموع منسجم من الأشياء و الأفكار ، بصلاتها و منافعها و ألقابها الخاصة و أماكنها المحددة. و مجموع كهذا لا يمكن أن يتصور على أنه مجرد (تكديس) بل (بناء) و (هندسة) أي تحقيق فكرة و مثل أعلى.³

9 . 2 : الحضارة كمجموعة من القيم و كوظيفة: قد عرّف مالك بن نبي الحضارة كمجموعة من المبادئ المتداخلة التي تساعد الإنسان على التطور و النمو، إذ يقول الحضارة في الواقع هي : " جملة العوامل المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره"⁴ و هي عنده تشمل " مجموع الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له، في هذا الطور أو ذاك من أطوار النمو".⁵

1 . _____ ، من أجل التغيير ، مرجع سابق.ص.57.

2 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق.ص. 67

3 . _____ ، الفكرة الأفر وأسيوية. مرجع سابق، ص.79.

4 . _____ ، مشكلة الأفكار، مرجع سابق.ص. 42.

5 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق ص.43.

3 . محورية الإنسان في التغيير الحضاري :

إن مسلم اليوم إذا كان فعلاً جاداً في تبني خيار التجديد الحضاري، فعليه أن يتلمس العودة لإشعال جذوة الإيمان من جديد، وتقوية تكوينه العقدي والأخلاقي، وذلك بنفس معيار الطاقة والفعالية التي اتسم بها مجتمع التوحيد الأول، وذلك لأن معركة الصراع الحضاري التي تدور رحاها في العالم المعاصر، سوف تأتي بنتائجها السيئة على البقية الباقية من الكيان الإسلامي المتدهور، والتاريخ الحضاري للبشرية يؤكد لنا بأن كل عملية تقدم لا يمكن أن تتحقق إلا إذا ارتبطت بوجود قوى اجتماعية تصنع هذا التقدم - أو التجديد - وأهم هذه القوى - بل محورها - الإنسان الذي يعد محور الفعالية في حركة الحضارة، وذلك من خلال إمكانات التغيير النفسي التي بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يسهم في بناء الحضارة وإفراز التقدم، والحيوية الحضارية في شروطها الأولى، وعي بقضايا التخلف وإرادة صلبة لتجاوزه، والنهضة الحضارية هي اصطدام بعناصر ذلك التخلف.¹

من هنا يمكن القول بأن التجديد الحضاري، كما يراه مالك بن نبي، لن يتحقق في أرض الواقع إلا بفعل ديناميكي يحركه، وتفسير ذلك هو أننا نجد في بداية كل حضارة ثمرة الفكرة الفاعلة القادرة على تغيير ما بالنفس، ومن ثم تغيير ما بالعقل، وذلك من أجل الإقلاع الحضاري نحو التجديد، إنها الفكرة المشحونة بالرؤية الكونية وبالوقود العلوي والمسؤولية الإنسانية الشاملة، إنها الطريق الشرعي والفطري لصناعة الحضارة الإنسانية والتقدم.²

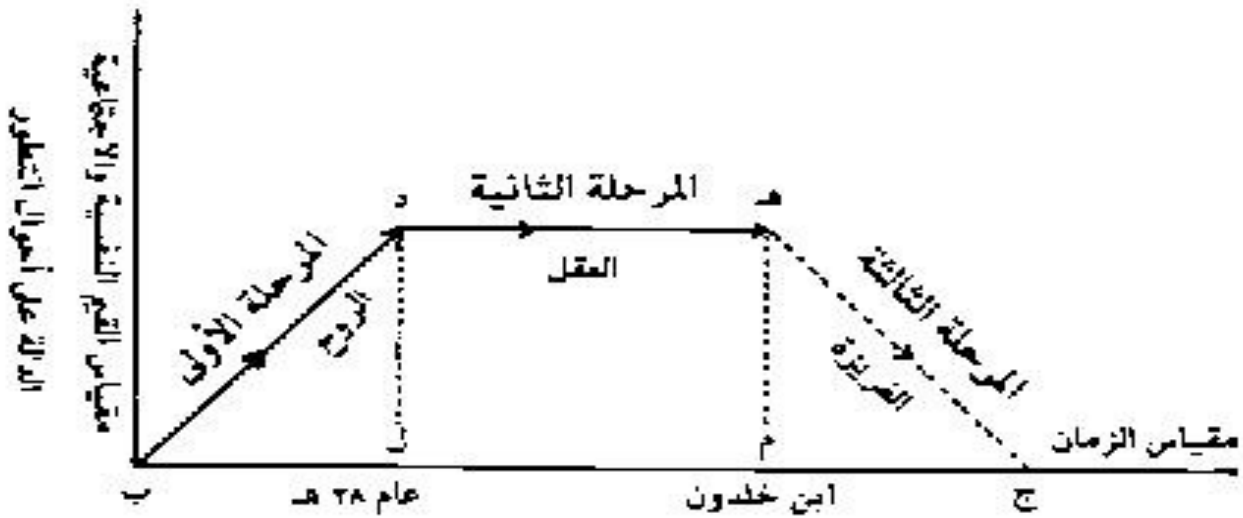
و في التحليل الأخير، فإن ثمرة تساؤلاً حيوياً يفرض نفسه على الباحث، مفاده: ماذا يمكن للمفكر الإسلامي المعاصر أن يستفيد من مفهوم مالك بن نبي لفلسفة الحضارة؟ وللاجابة عن هذا التساؤل، نقول إن المفهوم الإصلاحي للحضارة وفلسفتها عند مالك يؤكد على ضرورة الاتجاه إلى بناء المسلم المعاصر على أسس روحية مستمدة من مفاهيم الفكر الإسلامي الصحيح، كما يؤكد أيضاً على ضرورة الإبداع الذاتي في عالم الفكر وعدم الاعتماد على الفكر الغربي كلية، وذلك لأن هذا الفكر وليد بيئته الخاصة، و وليد روح إنسانية لها سمتها الخاصة بها، كما أن هذا الإبداع سيساهم في التحرر بشكل أو بآخر من سيطرة الغرب علينا.

¹ سليمان الخطيب، مرجع سابق، ص 432.

² . عبدالحليم عويس، "الوظيفة الحضارية لأفكار مالك بن نبي"، مجلة الفيصل، العدد 96، دار الفيصل الثقافية، الرياض شوال 1413هـ - إبريل (نيسان)

1993م، ص 24.

كما يمكن أن نستفيد من هذا المفهوم في ضرورة استثمار التراب الإسلامي بفعالية، وذلك حتى يمكننا الاستفادة منه على أكمل وجه، وبالتالي لا نفرط فيه بسهولة، وغير خاف على أحد بأن أفضل استثمار لهذا التراب إنما يتم عن طريق العمل الدائم بتأثير مجموعة من التصورات الفكرية، التي تصور لنا كيف يتم استثمار هذا التراب لبناء حضارة جديدة، ولعل أهم عامل لبناء هذه الحضارة المنشودة بجانب التراب، هو الإنسان، ولن يكتمل ذلك إلا بالعمل على بث روح الإدراك الصحيح لأهمية الوقت ودوره في بناء الحضارة- كما سبق أن ألمحنا- ولاسيما بعد إعطاء هذا الوقت قيمة عظيمة بدلا من كونه عدما. إن ذلكم هو مفهوم مالك بن نبي لفلسفة الحضارة، ونحن نعتقد جازمين أن محاولته هذه تحوي الكثير من عناصر الإبداع الفكري التي تجعله على قدم المساواة مع مفكرين غربيين في فلسفة التاريخ والحضارة، ولذا فإننا نتفق مع البعض الذي يذهب إلى القول بأن مالك بن نبي هو ابن خلدون القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي).¹



الشكل التخطيطي يبين علاقة الفرد بالحضارة عند مالك بن نبي.

¹ . أحمد محمد سالم البربري: "تحو مفهوم جديد للحضارة عند مالك بن نبي"، مجلة الفكر العربي، العدد السادس والسبعون، معهد الإنماء العربي، بيروت، السنة الخامسة عشرة (2)، ربيع 1994م، ص 118-119.

4 . الدورة الحضارية عند مالك بن نبي:

يعود الفضل في بلورة و تطوير الاتجاه الحضاري . بعد إبن خلدون . إلى مالك بن نبي، و التي تمحورت حول تأسيس هذا الوعي الحضاري، و بناء على ثقافة التكاملية، إذا ما كُتبت للأجيال الجديدة أن تستوعبها و تلتقي عليها، و تلتزم بها في تفكيرها، و في مواجهتها لتحديات البناء الحضاري، ستحدث في حياتها نقلة عميقة و شاملة عن طريق الخروج من الدوامات المهلكة، و تجوز الأفعال المعتلة إلى الأفعال الأصيلة و الفعالة و المطردة، التي تراكم و تطور المكاسب و التجارب و الخبرات على طريق النهوض و التجديد الحضاري المتكامل للأمة.¹

و قد نالت فكرة الدورة الحضارية عند مالك بن نبي رواجاً كبيراً بين جمرة الباحثين في الفكر الاجتماعي و التربوي، لما لها من وقع على التوجهات الثقافية و الفكرية، و ما حضيت بها لانطلاقها الإنسانية و العقديّة، قد طبق مالك نظريته هذه على التغييرات الاجتماعية التي جرت في مجتمعي الحضارتين المسيحية والإسلامية كما يلي:

4 . 1: مرحلة الروحية: و يرى مالك بن نبي أن هذه المرحلة قد بدأت منذ أن بعث الله سبحانه و تعالى محمد(صلى الله عليه و سلم) بالرسالة الإسلامية و استمرت حتى معركة صفين، التي أصابت الأمة بالانقسام الذي سببه صراع حمية الجاهلية مع الروح القرآنية.² و هي المرحلة التي يكون فيها المجتمع على حالته البدائية الفطرية، أي أنه الإنسان الطبيعي هو الإنسان الفطري الذي يمثل المادة الخام المستعدة للتغيير، حتى إذا ظهرت في أفق حياته فكرة روحية أو عقيدة دينية، فإنها ما تلبث أن تضبط غرائزه و تنظم فطرته وفق عملية عقلية نفسية أسماها مالك بن نبي(بالعملية الشرطية) و لا تهدف هذه العملية إلى إلغاء تلك الغرائز أو القضاء عليها، و إنما تعمل على ضبطها و تنظيمها في إطار علاقة وظيفية مع تلك العقيدة الدينية الجديدة.³

وفي هذه المرحلة . منذ البعثة حتى معركة صفين . أصبحت حياة الناس بكل تفاصيلها محكومة بقوانين روحية. و قد رجع مالك إلى أكثر من واقعة تاريخية داعماً بها رأيه(قضية

¹ . الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 56.

² . _____، وجهة العالم الإسلامي. مرجع سابق، ص 28، 29.

³ . _____، شروط النهضة. مرجع سابق، ص 75.

المرأة الغامدية، و قصية بلال (رضي الله عنه) ويبين مالك بن نبي أن هذه الوقائع تخرج عن معايير الطبيعة، و أن الباعث في الواقعين لم يكن سوى تلك الطاقة الروحية التي بعثها الدين الجديد، و هي طاقة فاعلة في الأفراد كما هي فاعلة في الجماعات، ف " دور الدين الاجتماعي منحصر في أنه يقوم (بتركيب) يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، و هذا التشكيل يجعل من (الإنسان) العضوي وحدة اجتماعية، و يجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر) وقتا اجتماعيا مقدرا (بساعات عمل). و من (التراب) الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط. مجالا مجهّزا مكيفا تكييفيا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج. فالدين إذا هو (مركب) القيم الاجتماعية، و هو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره و حركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية " ¹.

في هذه المرحلة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته بناء علاقاته بالآخرين، من خلال عوالم الأشياء والأفكار حسب قانون الروح، ويرى مالك بن نبي أن المجتمع في هذه المرحلة يكون مشحونا بالفكرة الدينية، حيث يكتمل بناء شبكة علاقاته الاجتماعية بقدر السيطرة على الغريزة وتنامي الروح. " فالروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض" ² ففي هذه المرحلة نجد أن التغيير ينصب على الإنسان، فهو العنصر الجوهرى الذي يتغير بالدين ويُغيّر بدوره المحيط الاجتماعى، ويتحول من (فرد) يخضع لغرائزه إلى (شخص) يرتبط بالمجتمع بعد أن حولته الشرارة الدينية إلى عنصر فعال متحرك، يشكل مع التراب والوقت عوامل التغيير الاجتماعى.

¹ . _____، وجهة العالم الإسلامى مرجع سابق. ص 28.

² . _____، المرجع السابق، ص 31.

و يرى مالك بن نبي أن المجتمع الإسلامي مرّ بهذه المرحلة، حين بدأت عملية التغيير الاجتماعي والنفسي للمجتمع بنزول الوحي الذي أحدث أثره القوي في إنسان ما قبل الحضارة، وبعث فيه شرارة التغيير، وحول أفراد المجتمع من بسطاء يعيشون حياة راكدة إلى دعاة إسلاميين تتمثل فيهم خلاصة الحضارة الجديدة، وفترة هذه المرحلة - كما يرى مالك بن نبي- منذ نزول الوحي في غار حراء إلى موقعة صفين عام (38هـ)، (نقطة ب في الرسم البياني)، وهي مرحلة دينية روحية تركّبت في ظلها عناصر التغيير الجوهرية، وظلت روح الإنسان المؤمن خلالها هي العامل النفسي الرئيسي من ليلة حراء إلى أن وصلت إلى القمة الروحية للحضارة الإسلامية، والقمة الروحية عند مالك بن نبي توافق واقعة صفين التي اعتبرها نقطة الانحراف التي غيرت مجرى التاريخ الإسلامي.¹

أما بالنسبة لمجتمع الحضارة المسيحية فإن هذه المرحلة بدأت في عهد المجتمع الجرمانى الذي ساد شمال أوروبا، واستشهد مالك بن نبي هنا برأى (هرمان دي كيسرلنج) القائل بأن الميلاد النفسي للحضارة المسيحية كان متوافقاً مع ظهور روح خلقي، وقد كان لهذه الروح أثرها الذي هز أوروبا في عهد (الكاروليجان) من عام 687م-987م، و حتى عصر النهضة، وأيضاً استشهد برأى (هنري بيرين)، الذي لاحظ الارتباط بين بعث الدين وإحداث التغيير، وظهر الحضارة في كتابه (محمد وشارلمان).²

4 . 2 : المرحلة العقلية: وهي مرحلة عمل فيها على استعمال الطاقات العقلية مع استبعاد الجانب الروحي . أي المبدأ الأخلاقي . و تصبح فيه التربية ذات طابع اجتهادي، و بالتالي تتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية، و تؤدي إلى انهيار المجتمع. و تمثل مرحلة العقل بالنسبة لمالك بن نبي مرحلة تحلل بطيء و جزئي للمجتمع، و نقص الفعالية، ناجم عن انكماش في تأثير مبدأ الروح في حياة المجتمع بصفة عامة و نمو في العقل، مما يؤدي ذلك . بصفة آلية . إلى توقفه عن الصعود الحضاري. إن هذا ما وقع بالضبط حسب ما ذهب إليه مالك بن نبي بالنسبة للحضارتين المسيحية و الإسلامية مثلاً، فالحضارة المسيحية التي ابتدأت مرحلتها الأولى (مرحلة الروح) بعهد "شارلمان" متميزة بالمبدأ الأخلاقي، تخلت شيئاً ما عن هذا المبدأ في المرحلة التالية المتزامنة مع عهد "النهضة"؛ الذي طبع بالطابع

¹ . _____ ، شروط النهضة. مرجع سابق ص59.

² . _____ ، المرجع السابق، ص62.

"الديكارتية"؛ أي هيمنة العقل. و الشيء نفسه بالنسبة للحضارة الإسلامية حيث تخلت عن المبدأ الذي كان يسود مرحلتها الأولى، التي تبدأ من " غار حراء " إلى نهاية عهد الخلافة الراشدة؛ لتدخل مرحلة جديدة في حياتها ، يسودها العقل، و ذلك يبدو جليا مع حكم المماليك (العصر الأموي و العصر العباسي الأول). فبدل المبدأ اتجه الأفراد إلى تقديس الأشخاص مهما كان قريبهم أو بعدهم عن المبدأ ، مما ينتج عنه بروز مذاهب و اتجاهات سياسية و فقهية متصارعة، أثرت بشكل نسبي على شبكة العلاقات الاجتماعية، بحيث اعتري التمزق بعض الجوانب من خيوطها لعدم سيادة المبدأ في هذه المرحلة سيادة مطلقة.¹

ففي هذه المرحلة يكون المجتمع قد دخل مرحلة الإشباع الروحي على كافة المستويات، ولكن مع هذا التقدم تنشأ مشكلات تواجه هذا المجتمع نتيجة توسعه وانتشاره، وحتى تستطيع هذه الحضارة تلبية هذه المقاييس المستجدة، تسلك منعطفا جديدا وهو منعطف العقل، وحينئذ تبدأ الغرائز التي كانت مشروطة بالروح الدينية في التحرر من قيودها المنظمة لوضعها. ذلك أن الروح بدأت تفقد نفوذها على الغرائز المكبوتة تدريجيا، والعقل لا يملك السيطرة التي للروح على الغرائز، ولا القدرة على تهذيبها.

كما أن المجتمع بصفته محيطا يعيش فيه الفرد يكف عن ممارسة ضغطه على الفرد، فهناك علاقة طردية بين تحرر الغرائز من قيودها وبين سلطة الروح، فكلما ضعفت سلطة الروح انطلقت الغرائز بالقوة نفسها، وبالتالي تأثر البناء النفسي للفرد والبناء الأخلاقي للمجتمع، ويرى مالك بن نبي أنه لو استطعنا في هذه المرحلة أن نراقب الظروف النفسية بوسيلة دقيقة بغية نتبع نتائج هذه العلاقة الطردية بين ضعف سلطة الروح وتحرر الغرائز، فإننا سوف نلاحظ انخفاضا في مستوى أخلاق المجتمع، ونقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية، وتستمر الفكرة الدينية في مواصلة نقصان فاعليتها منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل.² و إذا أردنا أن نفحص عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء، في هذه المرحلة، نجد أنها قد وصلت إلى مستوى معين يكون فيه عالم الأشخاص في المستوى نفسه لعالم الأفكار، وهذا الأخير ينعكس على مستوى عالم الأشياء، أي أن المنتج

¹ . حسين يوسف، واقع المسلمين و سبيل النهوض بهم في فكر مالك بن نبي، مجلة موافقات، الصادرة بالجزائر عن المعهد الوطني للأصول الدين، مرجع سابق، ص ص. 353، 354.

² . شروط النهضة. ص78.

المادي أو الفكري يعكس مستوى الأفراد، وبما أن الأفراد قد اكتملت روابطهم الاجتماعية وتحققت ضماناتهم، فإن إنتاجهم يعكس هذه المرحلة يعكس هذه المرحلة التي وصلوا إليها، أي أن مرحلة (العقل) تمثل (النهضة) أو (الأوج)، ويعني مالك بن نبي بهذا الازدهار العلوم والفنون في تلك المرحلة.¹

و وفق المخطط البياني السابق، يرى مالك بن نبي أن مرحلة العقل في المجتمع الإسلامي بدأت في (38هـ)، حين تحطم ذلك التوازن المادي والروحي الذي يحقق الطمأنينة في النفس والاستقرار والأمن في البناء الاجتماعي، ولكن من ناحية أخرى تحقق اكتشاف النظام المثوي، وتطبيق المنهج التجريبي في الطب، واستخدام فكرة الزمن الرياضية.² و فيما يخص هذه المرحلة في المجتمع المسيحي، فإنها تتمثل في عصر "النهضة"، وازدهار الفلسفة في أوروبا على يد ديكارت، وقيام الثورة الصناعية، وازدهار العلوم الإنسانية التي تعتمد في تناول الواقع، ودراسة الاجتماع على مثل وقيم استمدتها أساساً من العقل وإفرازاته، كما أنه يرى أن حضارة أوروبا خرجت من مرحلة السمو الروحي إلى مرحلة التوسع العقلي عندما بدأت هذه النهضة.³

و يرى مالك بن نبي أن هذه المرحلة تفرز أمراضاً اجتماعية معينة، لم تجذب انتباه علماء الاجتماع والمؤرخين بعد، لأن آثارها المحسوسة لا تزال بعيدة، ويربط بين أوج الحضارة - أي ازدهار العلوم والفنون - وبين بدء هذه الأمراض الاجتماعية المعنية. ذلك أن تحرر الغرائز المكبوتة يكون على حساب القيم الإنسانية، والمعايير الاجتماعية التي تنظم العلاقات داخل المجتمع، ويعتبر دخول المجتمع في مرحلة العقل بداية التخلف من وجهة نظر فلاسفة التاريخ؛ إذ هي بداية الشيوخوخة لروح المجتمع وإن كانت من ناحية المادية بداية للازدهار، فهي تقدم من وجهة نظر الاقتصاديين.⁴

4 . 3: مرحلة الغريزة: إن ما يميز هذه المرحلة هو الانهيار والانحطاط، حيث يخرج المجتمع فيها من طوره الحضاريين ذلك أنه بخفوت صوت الروح تنطلق الغرائز، لأن الفكرة الدينية فقدت رصيدها داخل الفرد. وفقد المجتمع سلطته على أفرادها، وبالتالي فإن "العقل

1 . _____، المرجع السابق. ص77.

2 . _____، وجهة العالم الإسلامي مرجع سابق، ص29.

3 . _____، شروط النهضة. مرجع سابق، ص68.

4 . _____، شروط النهضة. مرجع سابق، ص78.

سيغيب ويفقد وظيفته الاجتماعية ويدخل المجتمع المرحلة المظلمة في التاريخ وتنتهي دورة الحضارة".¹ إذ أن النزعة العقلية مهدت لهذا الانحطاط، عندما أسهمت في إضعاف سلطان الروح على النفس الإنسانية، فتمكنت الغريزة التي كانت مكبوحة الجناح من خلال الفكرة الدينية من مواصلة سعيها إلى الانطلاق والتحرر، واستعادة الطبيعة الغرائزية غلبتها على الفرد وعلى المجتمع شيئاً فشيئاً حتى بلغ التحرر تمامه في هذه المرحلة. ذلك هو منحى السقوط كما يراه ابن نبي، الذي توجده عوامل نفسية أدنى من مستوى الروح والعقل، إذ أنه طالما كان هذا الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل المؤدية إلى الحضارة ونموها، فإن هذه العوامل النفسية تختزن بطريقة ما، فيما وراء الشعور، وفي الحالة التي تنكمش فيها تأثيرات الروح والعقل، تنطلق الغرائز الدنيا من عقالها لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية.² ويرى مالك بن نبي أن استيقاظ الغرائز من خلال خفوت صوت الروح، وضعف تأثير الفكرة الدينية يعكس في ثقافة الأفراد، وبالتالي في واقع الثقافة في المجتمع، فيبتعد هذا المجتمع تدريجياً عن عالمه الثقافي الأصيل المبني على الفكرة الدينية كما كان في المرحلة الأولى "مرحلة الروح"، وإذا ابتعد الإنسان عن عالم القيم والفضائل الخلقية التي يعتبرها مالك بن نبي القوة الجوهرية في تكوين الحضارات.³ انفتح المجال لسلطان الغرائز، وهذا يؤذن بفقدان الفاعلية الاجتماعية للأفراد، وبالتالي فقدان الحضارة لمبررات وجودها بدخولها مرحلة الغريزة حيث يتحلل فيها النشاط الاجتماعي المشترك، إلى نشاط فردي يغلب عليه الاهتمام الذاتي ولا يخدم سوى الحاجات الفردية، بعد أن كان يخدم الحاجات الجماعية، وفي ظل عدم التوازن بين عوالم الأشخاص والأفكار والأشياء، وطغيان الأشخاص على الأفكار، ينهار البناء الاجتماعي وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، وتكف الرياح التي منحتها الدفعة الأولى عن تحريكه، تكون نهاية دورة حضارته، وهجرة الحضارة إلى بقعة أخرى، تبدأ فيها دورة جديدة طرقتا لتركيب عضوي جديد. يطابق مالك بن نبي بين مرحلة الغريزة في الحضارة الإسلامية، والمرحلة التي مر بها المجتمع الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين في المغرب، فنجدته يقول عن هذه المرحلة. "أن

1 . _____، المرجع سابق، ص 79.

2 . _____، المرجع سابق، ص 60.

3 . _____، وجهة العالم الإسلامي. مرجع سابق، ص 31.

المجتمع كان غنيا بما فيه من أشخاص، وأفكار، و أشياء، لكن نهاية هذا العهد عرفت تمزقا في شبكة العلاقات الاجتماعية¹ ولم يعد المجتمع الإسلامي بعدها مجتمعا، بل تجمعات لا قوة لها ولا هدف. وفيما يخص الحضارة المسيحية، يرى مالك بن نبي أن هذه المرحلة هي التي أشار إليها أوزالد شبنجلر حول الحضارة المسيحية في كتابه (أقول الغرب)، أما كيسرنج فقد وضح المرحلتين، الأولى والثانية في كتابه (البحث التحليلي لأوروبا)²

5 . عناصر الحضارة :

يؤكد مالك بن نبي . في أكثر من موضع . أن مجموع منتجات حضارة ما، يساوي مجموع الأشخاص بزيادة مجموع ضروب التراب ، و زيادة مجموع الأزمنة. و لكي نترجم هذه الصيغة إلى لغة عادية، يجب أن ندلي بملاحظة تخص كل حد من حدودها :

أولا: فمجموع منتجات حضارة ما ، ليس سوى هذه الحضارة نفسها، و لكن ضمن حالة شتية و شائبة، أعني دونما اعتبار لصلاتها الداخلية أو لتركيبها المتآلف، ما دامت خاصة التحليل ماثلة في شجب هذه الصلات.

ثانيا: و مجموع الأشخاص ليس إلا (الإنسان) باعتباره كائنا اجتماعيا.

ثالثا: و مجموع ضروب التراب، ليس غير التراب، و لكن مع كامل (مشرؤطيته) المتعلقة بعلم الاجتماع، (أي: رضوخه لضرورات فنية معينة) بما في ذلك وضعيته القانونية، و (توضييه) الفني.

رابعا: و مجموع الأزمنة ليس هو إلا الزمن الذي يتم تكييفه اجتماعيا حيث يحول إلى زمن اجتماعي بإدماجه ضمن جميع العمليات الصناعية و الاقتصادية أو الثقافية ، باعتباره ركيزة تقوم عليها سائر اطردات هذه العملية.³

و كل حضارة تستلزم رأس مال مكوّن من الإنسان و التراب و الوقت، فهي مركب من هذه العناصر الثلاثة الأساسية، و لا بد من أن يركبها العامل الأخلاقي، أعني: يحتم تماسكها، و من دون هذا العامل يوشك أن تتمخض العملية عن (كومة) لا شكل لها، متقلبة عاجزة

1 . _____ ، تأملات.مرجع سابق.ص.30.

2 . _____ ، شروط النهضة.مرجع سابق.ص.64.

3 . _____ ، القضايا الكبرى . مرجع سابق، ص.57.

عن أن تأخذ اتجاهها أو تحفظ به، أو تكون لها وجهة، بدلا أن تكون كلاً محددًا في مبناه، و فيما يهدف إليه.¹ فأول ما يجب أن نفكر فيه عندما نريد أن نكون حضارة هو التفكير في عناصرها تفكيراً كيميائياً. لأنه إذا حللنا الحضارة إلى مكوناتها فإن هذا يعتبر بناءً وليس تكديساً. فعندما تحلل أي منتج من منتجات الحضارة فإننا نجد أنها تتكون من ثلاثة عناصر:

5 . 1: الإنسان: إذا كانت أفكار مالك بن نبي تدور في مجملها في فكرة "التغيير الاجتماعي" التي تبدأ من الإنسان تنتهي إلى الحضارة، فإن أول ما يجب تغييره هو "الفرد" في حالته الطبيعية التي خلق عليها، ثم يشرح مالك بن نبي كيفية التعايش بين الإنسان و التراب و الزمن، على الصعيد الاجتماعي فيرى أننا وجدنا في مكان معين، و في زمن معين نشاطا متألفا من الناس والأفكار و الأشياء دلنا ذلك أن الحضارة قد بدأت في هذا المجال، و أن تركيبها قد تم فعلا في عالم الأشخاص.² و هي في هذه الحالة (الفرد) مخلوق لم يخضع بعد لعملية التكيف، و أول عمل تربوي يستهدفه هو تحويله من مجرد "فرد" إلى إنسان خضع للتكيف الأولى حتى يصبح شخص. " إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه (فردا) individuel إلى أن يصبح (شخصا) Personne، و ذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع ".³

و للأهمية الإنسان في البناء الحضارة، يأتي اهتمام مالك بن نبي ببناء الإنسان، فبناء الفرد وفق فلسفة ذات جذور أصالية و أبعاد عصرية، و بناء الفرد كالبناء الطبيعي، يستلزم عامل الزمن، و أسلوب التدرج، و عامل التوعية و التأصيل، يقول في هذا الصدد: "فالبناء هنا كالبناء الطبيعي للكائن الحي، فالطبيعة لا تبني في الإنسان أصبعه أولاً، ثم شعره ثانياً، فالقضية إذن في الصورة النهائية ليست ترتيب القيم الاجتماعية، و لكن في بنائها متضامنة متكاملة كبناء الكائن الحي الذي ينمو في جميع جوانبه في وقت واحد حتى لا يكون له مثلاً رأس رجل، و أعضاء جني".⁴

و يؤكد مالك بن نبي على بناء الإنسان منذ فجر التاريخ هو مهمة الرجال، فالطبيعة لا تلد لنا كائنات جاهزا، كما أن الله لا يصنع كائنا، لأن الحكمة الإلهية أودعت السنن و القوانين

¹ . _____ ، الفكرة الأفرأسيوية. مرجع سابق، ص134.

² . سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 90.

³ . _____ ، ميلاد مجتمع.، مرجع سابق. ص.31.

⁴ . _____، تأملات، مرجع سابق. ص.36.

التي تغير الإنسان من فعل ذاته، و لقد كانت صيحة مالك بن نبي كمتقف دوماً" يجب أن تصنع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب و الوقت في بناء أهدافهم¹ فالإنسان هو محور الفاعلية في حركة الحضارة الإنسانية محدد بالعقل الفكري، وتكوينه الثقافي الذي استمدته من بيئته الحضارية، "فكل تفكير في مشكلة الإنسان بالنسبة إلى لحظة في الحياة هو في أساسه تفكير في مشكلة الحضارة".² وتحمل الثقافة بالنسبة للإنسان المرتبة الرئيسية في بناء شخصيته، لأنها الرحم الذي تنمو فيه أفكاره وتطلعاته وتتحدد فيه قيمه وأهدافه . فالثقافة التي تقوم على أساس إسلامي هي التي تحقق التوازن في داخل الإنسان وتعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلاله بشكل متكامل أي أن إصلاح الثقافة يعني إصلاح الفرد والمجتمع.³

فتربية الإنسان هي ما يتوافق مع سنة الحياة وروح الإسلام الذي يحض على التكافل الاجتماعي فقد جاء الخطاب في كتابه العزيز: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾.⁴ فمعنى الحضارة إذا هي " أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكات العلاقات الاجتماعية، في تنظيم الحياة الإنسانية، من أجل وظيفتها التاريخية"⁵ و من هنا فإن التاريخ . بحسب مالك بن نبي . يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائماً بين جهده و بين مثله الأعلى و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة كتمثل و كشاهد.⁶ إن الإنسان الكامل في هو ذلك الشخص الذي لم يفقد عوالمه الثلاث، و هي تعمل في حركية وفعالية دائمتين، يستمد هذه الحيوية من فكرة "التوتر" المستمدة أصلاً من الفكرة الدينية التي تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى (عملية شرطية) تمثل ما يصطلح عليه علم النفس الفرويدي بـ (الكبت) . و هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية

1 . _____ ، شروط النهضة ، مرجع سابق، ص104.

2 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص114.

3 . السحمراني أسعد، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً بيروت، دار النفائس، ط2، 1986، ص215.

4 . سورة آل عمران، الآية 103.

5 . _____ ، ميلاد مجتمع، ص94.

6 . _____ ، المرجع سابق، ص 28.

مع مقتضيات الفكرة الدينية فيتحرر . في هذه الحالة . الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور في جسده.¹

و يسقط مالك بن نبي مفهوم "اللامنتمي" عند كولن ولسون على المفهوم الإسلامي للإنسان الذي يكون في هذه الحالة قد تمثل كلية بروح الإنسان المتكامل الذي يؤمن بالإسلام كمنهج و مشروع للحياة ، و هو يتجاوز المفهوم المجرد إلى الالتزام العملي الحي، لأنه بهذا الالتزام سوف يمتلك صحته الروحية التي تساعد على تحمل أعباء الكفاح، و هو قبل هذا متجاوز للتدين العام الموروث إلى تدين مؤسس على قناعة شخصية. فاللامنتمي المسلم هو الإنسان المتكامل في شخصيته و الإيجابي على مستويين: أي مستوى الإيمان، و مستوى العمل. و المرجعة المقصودة هي الرؤية الفكرية غير المنشقة على نفسها، أي الرؤية الخالية من أي تصور لائكي للحياة، و معنى هذا سنكون أمام تصور متواز للحياة، و هو التصور الذي لا يقيم الحواجز بين الثنائيات الطبيعية، و بمعنى أدق : لا فصل الإنسان و بين وجوده و لا يجعل بينه و بين ذاته أي حواجز وهمية، و التي هي في الأخير، بمنطق الدين السليم تصورات وثنية للوجود بمساحيق العقل و العلم و التطور، و يشرح مالك بن نبي هذه الفكرة في سياق اجتماعي فيقول: " الحياة الاجتماعية بالنسبة للمسلم لا تتفصل فيها الحياة الدنيوية عن الحياة الأخروية، فإن مجتمعنا يبني لما بعد الحياة، كما يبني لأهداف يحققها حياة كل فرد".² و يخضع وجوده في كليته إلى مقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، حيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح، و تهيي نفسياً للعب دورين دور الشاهد و الممثل و تمت تأهيله لوظيفته التاريخية ، ليبدأ دوره الحضاري المنوط به من خلال عمليتي الإشراف و التكيف، فالإنسان المتكامل هو الذي "يسعى دوماً للمطابقة بين جهده و بين مثله الأعلى، و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلاً و شاهداً".³

فالإنسان مطالب في الوقت الحاضر أن يتخلى عن الخطوة الأولى من أجل الإنعتاق و التحرر من رواسب إنسان ما قبل الحضارة ليس كمشكلة بل كفكرة، و يؤسس طريق النقد كقيمة تربوية تعيد إرجاع الأمور إلى حقيقتها ونصابها، و التخلي عن تضخم الذات الغير

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 75 .

2 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 158 .

3 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32 .

قابلة للنقد و التغيير، فالإنسان مطالب بتصفية الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون، و ما دام متقاعسا عن تجديد كيان الإنسان طبقا للتعاليم الإسلامية الحقة، و مناهج العلم الحديثة، فإن سعيه إلى توازن جديد لحياته و تركيب جديد لتاريخه سيكون باطلا عديم الجوى.¹ و من هنا يمكن أن نجمل القول بأن التقدم الحضاري يعتمد على دور الإنسان وفعاليته في المجتمع وذلك لأن "القضية ليس قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية في أنفسنا، أن علينا أن ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول هو الإنسان".²

5 . 2: التراب: وهو يعني كل ما على وجهها وفي باطنها من ثروات. وليس المقصود بالتراب هنا البحث في خصائصه وإنما البحث في قيمته الاجتماعية بكونه عاملاً من عوامل النهضة الحضارية. فكلما ارتفعت قيمة الأمة وتقدمت حضارتها كلما ارتفع قيمة التراب، وكلما تخلفت الأمة أصبح ترابها على قدرها من الانحطاط.³ وهذا التراب من ناحية يتصل بالإنسان في صورة الملكية للأرض فيكون شيئاً حيوياً أما من ناحية أخرى فإنه يتصل بالإنسان من الناحية العلمية والسيطرة الفنية.⁴

5 . 3: الزمن: وما يقصد به هو قيمته عند الإنسان وليس المقصود الزمن المطلق. و يرجع ازدهار الحضارة الإسلامية السابقة في سرعة مذهلة إلى تقديس المسلمين للوقت آنذاك، فهو يمر على السواء في كل أرض على كل شعب وفرد "ولكنه في مجال ما يصير (ثروة) وفي مجال آخر يتحول عدماً".⁵ فيجب اغتنام الفرص من الحياة من أجل العطاء فإدراك قيمة الوقت فرداً وجماعة هو إدراك لقيمه التي لا تعرض في العملة الوحيدة التي لا تسترد إذا ضاعت "إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت".⁶ فكل منتج من المنتجات الحضارية تتكون من هذه العناصر الثقة. ويرى مالك أن "حتى الكلمة فإنها تعتبر منتجاً حضارياً" ثم يقول: "فإننا إذن حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس على أن أفكر في

¹ . عمر نقيب، مقومات بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي، ط1، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، 2009. ص 149

² . _____، تأملات، مرجع سابق، ص 25.

³ . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 139.

⁴ . _____، تأملات، مرجع سابق، ص 168.

⁵ . عكاشة، شايف، الصراع الحضارة في العالم الإسلامي: دراسة تحليلية في فلسفة الحضارة دمشق: دار الفكر، ط1، 1986، ص 109.

⁶ . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 146، 145.

منتجاتها، وإنما في أشياء ثلاثة".¹ و نستنتج أن الحضارة هي بناء مركب اجتماعي لثلاثة عناصر وليست عملية تكديس المنتجات الحضارية. وهذا المفهوم الأول عند ابن نبي الذي يعتبر أن الإنسان هو محور الفاعلية بين العناصر الأساسية للحضارة. فإذا كان هذا الإنسان لأبْد أن ينتقل من ذاتيته إلى الفرد الاجتماعي الحضاري من عالم الأشخاص فإن ذلك لم يتحقق بمعزل عن عالم الأفكار التي تحسن استخدام الوسائل وكذلك لا بد من وجود عالم الأشياء التي تمزج للأفكار فرصة إبداع الصناعة والإنتاج وللإنسان رفايته وأمنه.²

ولهذه المعادلة شروط معينة حتى تتفق مع واقع التاريخ. فالتاريخ يدلنا على أن المركب الذي يتدخل في تركيب هذه العناصر الثلاثة هو الدين كعامل مركب للحضارة لأن هذه العناصر الثلاثة ليس كافية لتشكيل الحضارة بل لا بد من المحرك الذي يحول هذه العناصر من حالة خام جامدة إلى حالة متحركة صانعة للحضارة، وهي العقيدة الدينية بمعناها العام. إن مالك يطرح الإسلام كمُهم لقيمنا وقادر على استعادة دور الإنسان مبراً من ثقل الحضارة الإمبراطورية، وهو يرى أن الإسلام لا يقدم إلى العالم ككتاب وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير إنسانية وهو من هذا الجانب بمنح الفكر الإسلامي الحديث نظرة في عمق التجربة الحضارية ثقيله عثرات التقليد والتفوق في معطيات الحضارة الغربية والعالم الصناعي المعاصر".³ فحينما نأتي بالحلول المناسبة للمشكلات التي تواجهها هذه العناصر فإننا نكون قد حققنا الانسجام مع سير التاريخ مما يؤدي في النهاية إلى الحضارة.⁴

لقد اعتبر ابن نبي مشكلة الحضارة هي المشكلة الكبرى التي تظم عدة مشكلات جزئية متداخلة، وحذر من تجزئ المشكلة وتفقيتها لأن ذلك من شأنه أن يحول دون النظرة الحقيقية لما عليه المسلمون من تخلف و انحطاط. ومالك بن نبي لم يكن من المفكرين الذين يجاملون آراء العامة أو يلقي تبعية التخلف على الاستعمار أو القوى الخارجية ولكنه يتوجه بالنقد الذاتي للإنسان المسلم وللمجتمع المسلم ويحمله مسؤولية وضعه المتخلف وفي نفس الوقت مسؤولية تغييره. و في الأخير يمكن القول أن مالك بن نبي يعد رائداً ومجدداً بالنسبة

1 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 170.

2 . سليمان الخطيب ، مرجع سابق، ص 82.

3 . سليمان الخطيب، المرجع سابق، ص 47، 48.

4 . سليمان الخطيب، المرجع سابق، ص 197، 200.

للموضوع وبالنسبة لطريقة المعالجة العلمية وكيفية تحليل الظاهرة وتشخيص الأمراض التي يعاني منها المسلمون.

6 . محاور الحضارة:

إن من أهم ما يميز به منهج مالك بن نبي في معالجته لقضايا التي تعرّض لها، أنه كان ينظر إليها من منظور غير تقليدي، فلم يكن من أولئك المفكرين الذين شغلوا أنفسهم بالدعوة الإسلامية و أصبحوا متفرغين لها، أمثال: محمد عبده، و جمال الدين الأفغاني، فقد كان مهندساً تتعلق ثقافته أكثر ما تتعلق بالنسب و العلوم الرياضيات، غير أنه كان مسلماً غير على دينه و عقيدته. و يحدد مالك بن نبي مَقَوِّمَات المشروع الحضاري في ثلاثة محاور أساسية، و يحافظ في كل كتاباته التي تهدف إلى تغيير الواقع إلى الأحسن، و على هذا الأساس فالمنطلق الأول لبناء المشروع الحضاري، هو مبدأ " التغيير النفسي"، ثم يرى أن المحاور الرئيسية للحضارة تتحصر في ثلاثة عناصر:

6 . 1: تكوين عالم الأشخاص: ينطلق "ابن نبي" في معالجة هذا المحور من زاويتين مختلفتين إحداهما تتعلق بموقع الإنسان، وعلاقاته في مجتمعه، والثانية تتعلق بالإنسان ذاته. فالفلسفة التي يقوم عليها هذا المحور تنطلق من ضرورة إيجاد مناخ اجتماعي متلاحم، ومنسجم ضمن شبكة علاقات قائمة على التفاهم والرغبة في مساعدة الآخر، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيق ما نصبوا إليه في ظل مجتمع يسوده التفكك والانحلال، غير أنّ السؤال المطروح الآن: كيف يمكن تجسيد هذه اللحمة؟

يوجهنا ابن نبي في هذا الصياغ إلى الفكرة التي انطلق منها أساساً لتجسيد أي فعل حضاري، أي الفكرة الدينية فهي بوسعها القضاء على الشوائب والعلائق التي تساهم في تفتيت المجتمع، وتثبيط عامل التواصل، والانسجام، والتواعم الخلاق وهنا يبرز الدور المهم لعنصر الدين، فلا يمكن تصوّر انطلاقة ما، أو انبثاق حضارة من وسط اجتماعي متهالك، ومفكك يحمل بذور تداعيه حتى قبل أن يولد. ويضرب لنا مثلا في هذا الإطار بما فعله الرسول الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي وضع نصب عينيه تحقيق التواصل، والتراحم، والتآخي بين المؤمنين كنواة أولى لمجتمع صالح، ناجح " كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً" - حديث شريف - إنّ الغاية من كل هذا تكريس قاعدة صلبة لا تخلخلها

عوامل التعرية، والتعرية المواكبة لكل فعل حضاري نظير عامل الزمن الذي يصب في هذا المنحى، فالتجربة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ من أسباب تلاشي كثير من الحضارات، غياب الانسجام بين مكوناتها المجتمعاتية عقيدة، وتقليداً، ونمط حياة، وهو ما يجعلنا نقف وقفة تقدير لما وصل إليه مفكرنا في هذا المحور، فالمعركة كل المعركة هي البناء المجتمعي القائم على التكامل، والتفاعل الإيجابي، وكل بناء يلغي من حساباته هذا العامل، محكوم عليه بالتداعي والانهيار.

وهاهو ابن نبي يذكرنا بالحديث الشريف: "توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها، قيل أومن قلة يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل" فالمشكلة أساساً ليست في الكثرة بقدر ما هي قوة اللحمة والرابطة التي تعصم المجتمع من الانحدار المفضي إلى الهلاك:" لقد كان هذا الحديث ضرباً من التنبؤ والاستحضار: استحضار صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، أي عندما لا يعود مجتمعاً بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل".¹

فالفرد الذي تقوم عليه الحضارة لا ينبغي أن يكون فردانياً في تفكيره، وفي تكوينه، وفلسفته، وإنما يجب أن يدرك تمام الإدراك أنه ضمن نسيج اجتماعي قائم على التكامل، والتفاعل، والإنتاج فالشمولية في مفهومها الإيجابي هي الرصيد الذي يستطيع المجتمع من خلاله تأكيد، وتعزيز قدراته العملية، والعلمية والإنتاجية التي تصب في أتون التفعيل الحضاري المنسجم.

أمّا الجانب الثاني فهو ذلك المتعلق بالفرد ذاته ككيان له مميزاته، و قدراته معتقداته، و كوامنه، وهذا العنصر أو الجانب هو الذي ينفذ من خلاله الإنسان إلى إبراز دوره ضمن النسيج الاجتماعي الرّاهن بما اكتسب من ثقافة، ووعي، وخبرات بعد أن يدرك دوره الحقيقي والفاعل."والثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد ويقدم له الروابط الاجتماعية".²

كما يدخل في هذا التركيب مجموعة من العوامل النفسية، والبيولوجية التي تبحث عن فضاء يحقق له ما ترغب في تفرغه أو إفضائه ويعطي لها هامشاً عملياً محفزاً ومنشطاً كغطاء عملي مشروع بما يتوافق والفلسفة المعتمدة، والموجهة لمسار البناء الحضاري الذي

¹ . محمد شاويش، مالك بن نبي وشروط النهضة، مجلة التبيين عدد19، ص91

² . محمد شاويش، المرجع نفسه ص83.

يقوم عليه نظام المجتمع كوحدة إنتاجية لها خاصيتها. لقد وقف "ابن نبي" مطولا عند هذا المحور، وكرس له كل اهتماماته لأن البداية تنطلق من هنا، فالمجتمع المبدع الخلاق الذي يستطيع تحقيق الوثبة الحضارية المطلوبة، مجتمع يقوم على فلسفة سد الثغرات المؤدية إلى تفتيته، ويسعى إلى تهيئة أفراده تهيئة مناعية ضد الانشاقات، والتداعيات الموبوءة المؤدية إلى الهاوية والتاريخ قدّم لنا كثيرا من النماذج، وفي الحالتين، فعن النموذج الأول نجد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي المبني على التراحم، والانسجام والتكافل، حيث كان من نتاج ذلك قيام حضارة كبرى في ظرف زمني قصير بعد مرحلة وهن وضعف.

أما عن النموذج الثاني، فالأمثلة كثيرة في هذا المضمار أهمها ما عرفته الدولة العباسية أيام انحطاطها من تفكك، وتناحر، وشيوع للجريمة والفاحشة، وغياب العدل، وهو ما عرفته الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة، لأنّ فلسفة الكيان الاجتماعي تلاشت، وأدت إلى تدهور العلاقات، وغياب الانسجام والشعور بالمسؤولية الاجتماعية فكان من الطبيعي اندثار هذه الدولة في غياب وتراجع الوازع الديني الذي كثيرا ما أسهم في تجديد، وبعث هذه الأنسجة الاجتماعية مرتبطة ببعضها البعض، والنتيجة في النهاية واحدة.

6 . 2: تكوين عالم الأفكار: هو المحور الأوسط في تشكيل المشروع الحضاري ذي الأقطاب الثلاثة، وما يميز هذا المنطلق أنّ الرافدين اللذين يؤسسانه أحدهما مرتبط بالمحور السابق الذي يدخل في تركيب شخصية الفرد الذي يعتبر مفتاح الحضارة نمثل البواعث الدينية التي تعتبر في المسار العام لهذا مرجعا لا يمكن الحياد عنه، أو إقفاله.

أمّا الثاني فهو الداخل في القدرة على الاكتساب، ومدى ما تقدمه الفلسفات العلمية، والثقافية من محفزات للطاقة الاستيعابية للفرد- المشروع- يدخل في هذا المنحى أيضا المكتسبات السابقة للصيقة بمستوى الفرد، والمميزة له، غير أنّ الثقافة ليست هي الخبرات العلمية دائما، فهي تختلف من مجتمع إلى مجتمع، أمّا العلوم والخبرات العلمية فإنّ لها نقاطا، وأساسا، ونظريات مشتركة، وإن اختلفت وسيلة، أو طريقة اكتسابها من منهج إلى آخر إلا أن التجربة العلمية في الحالتين لها نفس البعد، والنتيجة.

إنّ فهم مالك بن نبي للثقافة يختلف عن المفاهيم الكلاسيكية المعروفة، فهو يراها ذلك الكم المترابك من الصفات، والقيم، والخصائص المكتسبة طيلة مرحلة زمنية تقاس بحياة الفرد المتواجد داخل محيط أو نسيج اجتماعي، فهي: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم

الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه، وشخصيته، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهكذا نرى أنّ هذا التعريف يضم بين دفتيه الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان، ومعطيات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد¹

إنّ الثقافة بهذا المفهوم عي الرّاصد الأولي الدّافع إلى المبادرة، والحاجة إلى التغيير، وإثبات الشخصية الاجتماعية لمجتمع ما، والتي لا تكون إلا حضارة ترتبط أيما ارتباط بالرصيد الفكري، فهو المنطلق، والمحفز، والموجه نحو اكتساح ميدان التنافس، ولا شك في أنّ من أسباب تداعي حضارتنا الانبهار بثقافات الأمم الأخرى، والانسلاخ عن قيمنا، ومقوماتنا، وثقافتنا المعبرة عن الهوية بمفهومها الشامل. و يقول أسعد السحمراني: "فالثقافة هي المهد المنشئ لشخصية الإنسان، تفرض عليه قيمها وقواعدها، وبالغزو الثقافي الأوربي ازدادت حركة الاغتراب، وقوي نفوذ الاستعمار الذي استقر في عمق قناعات بعض الناس بتأثير من الفكر الأوربي".² وعليه، كان من الضروري استثمار هذه النقطة التي يرى ابن نبي " أنها مشكلة المشكلات، تدخل في تنشئة الفرد الأولى، وفي منطق تفكيره، وفي عوامل اكتسابه للخبرات العلمية، وحتى في نمط حياته كيفما كان، والحال إذن هو العمل الدائب على تثمين المركب الثقافي للفرد الذي نسعى إلى إثراء أفكاره، وتكوينه دون أن نحدث فجوة، أو انقصاما في مكتسباته جميعها حتى تكون الدعامة المثلى لكل نهضة مبدؤها الاستفادة من الأخطاء السابقة الموهلة في تهميش القيم، والمكتسبات الحضارية.

فالثقافة كمكتسبات من شأنها تحصين الفرد، وتقوية مناعته ضد المثبطات من جهة، وضد الاكتساح أو الاستعمار الناشئ عن الذوبان في فلسفة حضارية أخرى تنتهي بالسيطرة والاستلاب المؤدي إلى تغييب مهمة الفرد الأساسية في المجتمع المسلوب، وما يتبع ذلك من ترد، واضمحلال للهوية، أو الخاصية التي كان للبعد الثقافي دور في الحفاظ عليها، مما يعطي مناخا ذا صبغة استعمارية تنتسرب بفعل الزمن، والمنهج المدروس إلى دواخل الأفراد لنجد أنفسنا بعد مرحلة من التضليل، قد أصبحنا أكثر قابلية للاستعمار وأكثر قدرة على

1 . أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، مرجع سابق، ص 206.

2 . محمد شاويش، "مالك بن نبي وشروط النهضة"، التبيين، عدد 19، ص 95.

التكيف مع ما يأتي به، وهو ما كان يبدو أشد غرابة عنا في مرحلة سابقة، مما يفسر الفترة الزمنية الطويلة جداً التي بقي فيها الاستعمار في الجزائر إذ تجاوزت القرن وربعاً، فالمستعمر الفرنسي نجح في التغلغل إلى فضاءاتنا المتميزة والمحصنة. و تمكن من السيطرة على تفكيرنا، وسلوكنا، وحتى مقوماتنا بفعل الخطة الاستعمارية الناجحة، والراغبة في طمس كل الملامح، والصفات المكونة للفرد الجزائري في تلك الحقبة.

إنّ قراءتنا لمحور تكوين الأشخاص يجعلنا نقر أنّ فلسفة البناء لدى فكر مالك توظف مجموعة من المفاهيم الواقعية والتي من الواجب أن يتم غرسها في الفرد الذي يحرك هذا المشروع من أمثلة ذلك أن يدرك أنه قبل المطالبة بالحقوق عليه القيام بالواجبات فالوسيلة الوحيدة لتحصيل الحق هي القيام بالواجب، وليس العكس، والوصول إلى هذه النقطة من المفاهيمية المكرسة في اللاشعور الفردي لا يكون إلا بإعداد متناسق وتحفيز مستمر حتى يعلم كل فرد حقيقة المعركة المنتظرة معركة النهضة، والانبعاث، و التشيؤ الحضاري بأبعاده، ومتطلباته . إنّ هذه الرؤيا المتألقة لمفكرنا لو طبقناها كمعامل حضاري على مجتمع ما كالجزائر مثلاً، لوجدنا الأسباب الكامنة وراء التراجع الذي يعرفه وطننا كقوة إقليمية، وحضارية تعيش مرحلة صعبة هي مرحلة ما بعد الحضارة.

فالإقلاع النموذجي يكون من الداخل بدءاً بذواتنا، وتركيباتنا النفسية والشعورية التي ينبغي أن تتغير، وتحديد عن منحها السلبي نحو الإيجابية المكلمة، والمتممة لأجزائها بغية تجسيد الكل. إنّ الشعور السائد بالإحباط المولد لتفاسير، وآراء تصب كلها في نطاق الخمول، والبحث عن الرجل المنتظر، أو النظام الاقتصادي المنشود، أو السياسة المطلوبة، كلها مجرد نزوات لا تقدم ولا تؤخر ببساطة لأنّ المشكلة الأساسية فينا، لا في فلسفة الأنظمة والنظريات الاقتصادية، ومادام المشكل كذلك، فلن نصل ولو نهجنا كل المناهج الاقتصادية، والسياسية المتألقة في العالم، بل أننا نضيع وقتنا سفهاً، وكذباً على أنفسنا، و ذواتنا الواهمة، المتشبهة بألوية من فراغ. يقول محمد شاويش: " ومن هنا فإنّ مجتمعنا بحاجة إلى ثورة نهضوية سليمة داخلية تأتي من أسفل لا من أعلى، وهي بلا شك إن قامت ستجبر البناء الفوقي على أن يتماثل معها وهذا معنى الحديث الشريف: " كما تكونوا يوَلَّى عليكم".¹

¹ . شروط النهضة، مرجع سابق، ص 158.

إن، فالمبدأ الباعث على تغيير الواقع نحو الأفضل، قوامه الفرد الذي عني به ابن نبي عناية فائقة، فهو أهم مشروع على الإطلاق في معركة البناء، ووقوف مفكرنا على هذا المبدأ، والتركيز عليه لم يكن وليد تخمين عابر، وغنما جاء كنتيجة لدراسات معمقة، ودقيقة ما كان لها أن تتأكد لولا الاهتمام البالغ من قبل " مالك بن نبي " بها، وإلحاحه الشديد على أن نقطة البدء في كل مسار له أبعاد حضارية تنشأ من مدى وعي الإنسان لرسالته، ودوره في الكيان الاجتماعي الذي يحيط به في نسق علائقي متفاعل بعيداً عن الانعزال، أو الفردانية المفرغة لإنسان من خاصيته الفاعلة، وقيمه الاجتماعية المبنية على ثقافة ناجعة.

هنا يضيف ابن نبي فكرة أخرى تتمثل في ضرورة أن نكيف قدراتنا على تقنية إيجاد البدائل والحلول بدلا من حصرها في زاوية واحدة تقضي إلى صدمة لسنا بمنأى عنها، فلسفة "الرجل الوحيد" التي تبنتها الكثير من الأنظمة العربية كانت وبالأول، وشراً مستطيرواً، فبمجرد ذهاب أو وفاة هذا الواحد الأوحده تتهاوى الأمة، ويستباح المحظور وتخر القوى، وكأنّ هذا الفرد ذاته هو المشروع الحضاري بعينه.

و المؤكد هو أنّ استمرار الفكرة، وفعاليتها هو المؤشر الحقيقي و الوحيد على مدى قوة، وامتداد هذه الحضارة، أو تلك، وليس من العلمية في شيء ربط مصير أمة، أو مجتمع بشخص- وإن كان يحمل الهم الحضاري- فبمجرد نهايته المحتومة ينفرط العقد، ويتهاوى البناء، فهل المعركة الحضارية معركة شخص، أم فكرة، أم كليهما معا.

لقد حاول مالك بن نبي الربط بين هذين الوجهتين على فرضية التكامل، غير أنّ فلسفة الفكرة قائمة ومستمرة كشرط لبروزها، فهي مسار لا متناه ومتجدد في نفس الوقت بما يخدم التحولات الكبرى والمعطيات الراهنة التي يتفاعل معها المشروع الحضاري من وجهة المساييرة العلمية لها، فالزمن يتسارع، وتتسارع معه حركة البناء، والتطور بصفة شاملة، ومذهلة تجعل من أمر الواقعية، والمواءمة أمراً حتمياً لا محيد عنه.

و يقتضي المشروع النهضوي من مرونة واكتساب للمبدأ الأساسي كفكرة، وكمنطلق من قبل الفرد، كفيل بالإيغال في مكونات المبادئ والقيم والأفكار التي من المفترض أن يكون الفرد وسيلة تكريسها، بعد استيعابها منتجا، لا استيعابا جاهزاً، فالجاهزية لا تخدم المبدأ، ولا تتسع لاستخدام العقل، وبالتالي تهيمش الخلق والإبداع، و القدرات التي يتمتع بها الإنسان ونحن أحوج ما نكون إليها، فالأصل ليس الحل، وإنما تقنية، وطريقة التحليل وفق

منهج سليم، وأسس علمية مدروسة، مما يدعونا إلى التركيز على أهمية المكتسبات الثقافية التي تنمي هذه الصفات، وتوفر لها المناخ المناسب الذي يربط بين أجزاء التركيبة السوسيو-ثقافية للإنسان المتجدد، لأنّ "دور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولاً، وبالذات، فهي الأتون الذي تصهر فيه كل العناصر الأساسية الداخلة في تركيبية المشروع الحضاري الذي منطلقه، ومبدؤه الفرد في نطاق الجماعة. و تحتل الثقافة مرتبة رئيسية في تكوين الفرد وبناء شخصيته، فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره، وتطلعاته، والذي تتحدد فيه قيمه وأهدافه.. هي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي، وهي التي تعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل دون أفضليات، فالثقافة تنمي الجانب المعنوي في الإنسان والمجتمع بمستوى متوازن كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد".¹

و حتى يتفاعل هذا المزيج، فلا بد أن يستمد قوته من الانسجام الحاصل بين المكتسبات السابقة كمصب واحد قائم على تحقيق الهدف الأسمى المرتقب، فنكون بذلك قد أوجدنا المناخ الملائم، والأرضية المناسبة للشروع في خطوات عملية عملاقة وإن بدت للوهلة الأولى بطيئة، ولكنها تصل في آخر المطاف إلى تجسيد الهدف دون هتات أو عنّات، أو انحراف من شأنه تقويض كل ما تم التخطيط له شرط أن تتناسب التوجهات السياسية مع الخاصية الاجتماعية من عادات، وقيم، وواقع يختلف عن المجتمعات الأخرى، فالأولوية كل الأولوية لترجيح المعطيات المحلية التي تبنى على أساسها الافتراضات، والأهداف السياسية حتى لا تصاب تطلعاتنا بالشلل، والنكوص نتيجة للتناقض الحاصل بين الأهداف، والمعطيات الراهنة مما يعني أننا زرنا أسباب الفشل بمجرد إلغاء هذه النقطة من حساباتنا، وبالتالي فمن الضروري التوجه مباشرة إلى عملية الربط بين الأهداف السياسية، والمقومات الاجتماعية، والأخذ بعين الاعتبار كل ما من شأنه تحقيق التناسق بينهما على أساس المرجعية الثقافية.

لا بُدَّ أن نعرف الثقافة على أنها توجه الطاقات الفردية لتحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة إلى مصلحته، ولتحقيق مكانة في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع... أما السياسة فإننا نحددها على أنها توجيه الطاقات الاجتماعية لتحقيق بناء

1 . . تأملات، مرجع سابق، ص 221.

المجتمع في الداخل، وتحقيق مكانة في الخارج، على أننا حينما نحلل الطاقات الاجتماعية بصفات عامة نرى أنها تتضمن أولاً وقبل كل شيء الفرد كأداة، وهدف، فالطاقات الاجتماعية تتبع من الفرد وتعود إليه. إذن هناك تضامن بين الثقافة، والسياسة، وليس ترتيباً، وأسبقية. والتوفيق بين الثقافة والسياسة يتحقق عن طريق الفرد لأنه هو العنصر الواعي الموجه للطاقات الاجتماعية.¹

وعموماً، فإنّ التركيبة الفكرية للفرد الواعي ينبغي أن تحقق الانسجام بين ما اكتسبه الفرد من قيم، ومبادئ، وعادات، وبين ما يمكن أن يكسبه من خيارات، ومعارف مع إيجاد الفضاء الذي لا يتناقض مع هذه المعطيات حتى لا نخلق ذريعة للفشل، ولا يحدث الانفصام المفضي إلى تلاشي الأهداف المرسومة مسبقاً، وهو ما يثبتته واقع الأمة العربية اليوم.

6 . 3: تكوين عالم الأشياء: وهي المرحلة الأخيرة من مراحل التأسيس الحضاري بوصفها ثمرة للجهود السالفة المبذولة في رأب الانفصام المميز لإنسان ما بعد الحضارة الخاضع للأهواء، التائه في بؤر البحث عن مخارج تبدو مستحيلة من حقبة الكاسدة. إنّ هذا المحور يأتي ترجمة لنجاعة المناهج المعتمدة في تكوين الأشخاص أولاً، ثم تكوين الأفكار المتولدة بدورها عن المرحلة السابقة، والمنسجمة مع مبادئها، وأهدافها الرامية إلى إحداث نقلة نوعية في مسار المجتمع الباحث عن نفسه، بعد الإعداد، والتوجيه السليم القائم على مناهج علمية كفيلة بوضع المقدمات تمهيداً للنتائج. فالتوجيه عند مالك بن نبي: " قوة في الأساس، وتوافق في السير، و وحدة في الهدف فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت، فلم تحقق هدفها حين زاحمتها قوى أخرى صادرة عن نفس المصدر متجهة إلى نفس الهدف. فالتوجيه هو إدارة ملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية، والإنتاجية المناسبة لكل واحد من هذه الملايين".²

ثمة عنصر مهم ثمنه مالك، عنصر قائم على علاقة النجاعة بالتوجيه، حتى لا يحيد البناء عما رسم له في حدود الفلسفة العامة التي يقوم عليها، لأنّ تغييب التوجيه يكون في غير صالح المجتمع بما يفتح من هوامش لا يمكن التحكم فيها، أو مراقبتها، وقد تصبح تهديداً موقوتاً من شأنه أن يزلزل القواعد العامة، والأساسية التي يقوم عليها أي مشروع. لقد

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص78.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص96.

وصل المشهد الحضاري في مرحلة تكوين عالم الأشياء إلى آخر مقتضيات الإقلاع والنهضة - في نظر بن نبي - ولأبد عندها من منطق عملي رأس ماله الفاعلية اللازمة، والمفروضة في نفس الوقت، وإلا كان المشهد خاليا من كل بوادر النهضة. "إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافاعلية في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهائلة. وإذا ما أردنا حصرًا لهذه القضية، فإننا نرى سببها الأصيل في اعتقادنا، الضابط الذي يربط بين عمل، وهدفه، وبين سياسة، ووسائلها بين ثقافة، ومثلها، وبين فكرة وتحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا".¹

فنرى المجتمع حينما يزخر بوجود النشاط، وتزدهر فيه الحضارة وأحياناً نراه ساكناً لا يتحرك يسوده الكساد، وتغمره الظلمات.. على أنني حينما أرى في حركة التاريخ، حركة الإنسان وفي ركوده، فإن ذلك يضعني أمام مشكلة تصنف تحت عنوان الفعالية، فعالية الإنسان في التاريخ".² فالإنسان يعمل لإثبات ذاته، وإشباع حاجته و" بداع من طبيعته من أجل تقدمه، فهو إذن مزود بسلطة مزدوجة، ولكن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة بحيث يكون العمل على الغرائز واندماجها مطابقاً لرسالته الاجتماعية، ومن هذا التركيب ينتج نظام الأفعال الاجتماعية المنعكسة".³ فالحضارة تكوين و بناء وليست تكديساً كما يقول ابن نبي "إنّ علينا أن ندرك بأنّ تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة. فالحضارة هي التي تكون منتجاتها، ليست المنتجات هي التي تكون النتائج، وليس العكس، فالغلط منطقي، ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة، فإننا سنبقى ألف سنة، ونحن نكدس، ثم لا نخرج بشيء".⁴

إن الثقافة المدعمة للإنسان المكيف مع مقتضيات المرحلة، يفترض أن تكون مصبوغة بصبغة المجتمع الذي تنطلق منه، ومطبوعة بشخصيته حتى لا تنتج ما لا يتلاءم والخاصية العامة للمجتمع، أو المحيط الذي نعيش فيه فالشخصية الإنتاجية مرادف كمي لمقتضيات النوعية، والمنطق العملي، وهذا يجعل فعل التكوين، الإنتاج، الإبداع الصناعي أمراً ممكناً، ومتوقفاً في أي حقبة من حقبات البناء، والممارسة الإنتاجية المنبثقة عن مرجعيات لها

1 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 125.

2 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 65.

3 . _____ المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق. ص 76.

4 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 162.

أصولها، ورصيدها، وقواعدها التي تقوم عليها، كمبدأ ثابت لا يتغير، ولا يحيد، ولا يتأثر بما تحمله الحضارات الأخرى و إن استفاد من بعض تجاربها، بل يؤثر فيها إذا ما تمسك الفرد المنتج بخاصيته، وأسلوبه في العمل، وفلسفته في البناء ضمن الحركية العامة لحضارته المتوثبة، والمنطلقة منه أساسا كخيار لا بديل عنه بل أنه أمر مرفوض، فالحضارة جوهر ممتد وفضاء عملي لتكريس، وترجمة الانسجام الحاصل بين مجموعة الأفراد، والمعطيات تتحرك من منظور شامل ومستتب وحدة، وهوية، وآفاقا وتواصلًا. "إن الحضارة التي تميز بخصائصها مجتمعا عن آخر تشكل نسيجا منسجما في وسط أبناء المجتمع الواحد، مهما كانت الفوارق في الدرجة العلمية، أو الإمكانيات المادية، أو النوعية، أو المهنة فوحدة النمط الحضاري هي الدافع لعمل أبناء المجتمع الواحد ليس كل لذاته، بل في صيغة تعاونية جماعية الأهداف، لأن النهوض والتقدم يكون شاملا، ولا يتحقق تقدم حضاري لأجزاء في مجتمع سمته التخلف".¹

إن الحضارة النموذج عند مالك بن نبي هي تلك الحضارة المتأصلة في مرجعياتها، وأسسها، المكتسبة لمناعة ضد التغريب، أو المسخ، المنبثقة عن محفز ديني يتوافق والطموحات الاجتماعية والمسااعي ذات الأبعاد الإنسانية في صياغها الحضاري الناشئ والمنتظر، هي مشهد آخر مختلف، و متألق ذو خاصية إسلامية مطبوعة ومتفتحة على حضارات أخرى في نطاق التبادل الإيجابي دون الانصهار تقليدها، والانسلاخ عن هويتنا، ومرجعياتنا.

لقد وضع مالك بن نبي لهذا المشروع الضخم محاور ثلاثة يكتمل بتفاعلها البناء، ويتجسد حلم الأمة في استعادة الدور العالمي لهذه الحضارة التي لا تزال تمثل المرجعية لكثير من الدول بما فيها الدول الغربية التي استفادت أيما استفادة من تجارب ومتطلبات هذه الحضارة. فلكي نصنع التاريخ، ونمارس حقنا المشروع في التحضر، والمجازة، لا بد أن نقف عند كل محور من هذه المحاور ونعطيه ما يقتضيه من متطلبات وظروف، وفق مناهج علمية مدروسة مؤكدة النتائج، فالنجاعة مطلوبة، لأن المشروع مشروع أمة بكاملها، وليس مشروع فرد، أو جماعة ما فقط، لذلك كان لزاما أن تحدد الأهداف وتدرس بعمق، لتتطابق

1 . . . ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 159

النتائج مع المقدمات، وإلا كان عملنا ناقصا مشوها محدود الفكرة، والمنهج والمسار. و صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث:

✓ تأثير عالم الأشخاص.

✓ تأثير عالم الأفكار.

✓ تأثير عالم الأشياء.

لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص. و كما أنّ وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة، فإنّ توافق هذه الوحدة مع الغاية منها وهي التي تتسجم في صورة حضارة- يعد ضرورة أيضا¹.

7 . البعد التربوي للدورة الحضارة عن مالك بن نبي:

تحمل كل حضارة هويتها الخاصة بها التي ترجع أساسا لذلك المجهود الديني، ذلك الإيمان الذي يربط أجزاءها و يطبع دواخلها وهواجسها و نوازعها و طاقاتها، و يرجع ذلك إلى الفكرة الدينية التي تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى (عملية شرطية) تمثل ما يصطلح عليه علم النفس (الفرويدي) بـ (الكبت). و هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية: فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تلغ و لكنها انضبطت بقواعد نظام معين. و في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعية المفطور في جسده، و يخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.² فيرتبط الفرد عضويا بالتطور النفسي و الوجداني تاريخيا مع مستلزمات الحضارة " أن كل القيم النفسية الزمنية التي تميز مستوى حضارة ما في وقت معين ليست إلا الترجمة التاريخية لهذه العلاقة العضوية".³

ففي " مرحلة سيادة الروح " : تجئ الفكرة الدينية في عملية شرطية فتتظم غرائز الفرد بانضباط معين حتى تجعله ممتصا لما تعكسه هذه المرحلة مع معطيات روحية وأخلاقية

1 . _____ ، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 164.

2 . _____ ، شروط النهضة ، مرجع سابق، ص 75.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 67.

وسلوكية. فالطور الأول من أطوار حضارة معينة هو الطور الذي تُروّض فيه الغرائز و تسلك في نظام خاص تكبح فيه الجراح وتنفيد عن الانطلاق.¹ فالتوهج الروحي الذي أحدثته الفكرة الدينية في المجتمع الوليد كان له الفضل في تعديل و تغيير نفسية الفرد من خلال الطاقة الحيوية أو حالة التوتر التي غيّرت في الإنسان من صفاته القديمة. و يترتب عن هذه المرحلة في الفرد و المجتمع:

أولاً: تتغير من خلال هذه المرحلة الروحية في الإنسان المكيف، بعض الخصائص السلوكية و العادات و التقاليد، فدخل الفكرة الدينية إلى حياة الفرد تحدث انقلاباً في سلوكه و تصرفاته، فهذا الانتقال من البدائية الراكدة إلى الحياة العاملة الناشطة، هو الذي يسجل بداية حضارة ما أو نهضة معينة. لكن هذا الانتقال يظل في التاريخ من الظواهر من الظواهر غير المفهومة لو أنه استلزم وسائل أخرى غير التي تقدمها البيئة، و لو أنه استخدم في الحصول على تلك الوسائل شيئاً غير ما تمنحه من قدرات طبيعية يسيطر بها على ذاته و على وقته.²

ثانياً: هذا التحول التربوي على مستوى السلوك الإنساني في هذه المرحلة، يحدث من خلال الطاقة الحيوية حركة تجديد واسعة في نفسية الإنسان و واقع المجتمع من خلال بروز علاقات و تفاعلات اجتماعية جديدة تضطلع بمهمة تفعيل شبكة العلاقات الاجتماعية، فالعلاقة الروحية بين الله و الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، و هذه بدورها تربط ما بين الإنسان و أخيه الإنسان فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية و العلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنها حدث، و من الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد.³

أما مرحلة العقل: و هي المرحلة الثانية من التطور الحضاري عند مالك بن نبي، و فيها تبدأ مرحلة الازدهار المتميزة بالابتكار و الخلق والإبداع، فتتحرف فيها الحضارة عن مسارها الطبيعي بسبب المشكلات المادية الناتجة عن توسع المجتمع الوليد منعطفاً تكف فيه الروح عن السيطرة المطلقة على الغرائز، ويبدأ المرحلة العقل، و يعادل هذا المنعطف في الحضارة الإسلامية مرحلة الدولة الأموية ومرحلة الدولة العباسية، وبحسب تعبيره "هو منعطف للعقل".

1 . _____ ، شروط النهضة ، مرجع سابق، 76

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 98

3 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 56

غير أن هذا العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز، وحينئذ تشرع الغرائز في التحرر من قيودها بالترجيح على الصورة التي عرفناها عن عهد بني أمية، إذ أخذت الروح تفقد نفوذها، كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد. وطبيعي ألا تتطلق الغرائز دفعة واحدة وإنما تحرر بقدر ما يضعف سلطان الروح" وفي هذه المرحلة تنقص الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، وإن كانت الحضارة نفسها تبلغ أوجها فتزدهر العلوم والفنون فيها، ولكن مرضاً اجتماعياً يكون قد بدأ وإن تكن آثاره المحسوسة لم تظهر بعد. إن الغريزة تستعيد سيطرتها على المجتمع والفرد. ثم نتيجة عوامل نفسية واجتماعية يكون من أهمها ظهور الترف والظلم والفساد المؤذنين بخراب العمران، فتنتهي هذه المرحلة لتفسخ المجال لانطلاق الغريزة الإنسانية التي تحل محل العقل فتعيد الإنسان مرة أخرى إلى الانحطاط والتخلف. " فكل دورة من الدورات الحضارية تولد في بعض الظروف النفسية الزمنية، ثم تنمو و تطرد، فإذا ما سبقتها الحضارة الإنسانية توقفت تلك الدورة لتبدأ أخرى في ظروف جديدة تتحول بدورها إلى ظروف متخلفة. فهذا هو القانون الذي خطَّ على مر السنين خلال التاريخ ذلك (الطريق الصاعد)، الطريق الذي مُنحته البشرية في بطاء و روية، و بذلك تمتزج غاية التاريخ بغاية الإنسان.¹

فيقول ابن نبي في شأن النظرية الإرادية في التغيير التي قررها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾² فالجاذبية قانون طالما قيد العقل بحتمية التنقل برا وبحرا. ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائل جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء كما يفعل اليوم. وعلى هذا الأساس يمكن تخليص مفهوم التغيير الاجتماعي من قيود السببية المقيدة كما تربطه بها النظرة الشائعة عند المؤرخين أمثال أرنولد توينبي الذين يرون أن الأشياء في التاريخ تسير طبقا لسببية مرحلية. والأشياء التي تسير فعلا كذلك إن تركت لشأنها. لكن إدراج قانون التغيير النفسي الاجتماعي القرآني في صلب القضية سيصفي هذه المناقشة "إننا نرى أن كل ما يغير النفس، يغير المجتمع، و من المعلوم أن أعظم التغيرات و أعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية"³. سيتيح هذا الوضع للإرادة الإنسانية

1 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق. ص ص 177 . 178 .

2 . سورة الرعد، الآية 11

3 . _____ ، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص 80 .

أن تمحو السلبيات وتدعم الإيجابيات سواء في الفكر أو العادة أو السلوك أو القيم، كما سيتاح بموجبه للطبيعة البشرية الاستجابة لذلك وبالتالي يكون بالإمكان البدء بتغيير الفرد، ذلك المعنى عند مالك بن نبي ينطوي على فهم للخاصية الجوهرية التي تتصف بها طبيعة الإنسان فيما يتحقق لها من حرية الإرادة التي تجعل الإنسان مسئولاً عن أفعاله الاختيارية، فالفرد هو أساس التغيير أي أن التغيير الاجتماعي لا يقوم إلا ابتداء من هذه الحقيقة التربوية أي لا يقوم على أساس من حقائق الجنس أو العوامل السياسية بقدر ما يخضع لخصائص المجتمع الأخلاقية والجمالية والصناعية. ولهذا فإن المحاولات التغييرية التي تتوجه إلى المؤسسات أو النظم متجاوزة العمل على البدء بالتغيير الإنساني ستفشل في تحقيق محاولاتها.

فهي تبرز حين يخفت الجانب الروحي في المجتمع ويطغي الجانب المادي الذي يتصاعد نتيجة لاتساع الحضارة وانتشارها مما يترتب عليه اهتمام مركز بالعقل وإنتاجاته ومع غياب التوازن بين الروح والعقل تزداد سطوة الجانب الغريزي المادي، فينعكس ذلك في المجتمع بما يلي:

أولاً: خلق الحوافز العلمية التي يفرضها الاتساع والانتشار الحضاري والتفرغ للاهتمامات المادية والعقلية نتيجة لتعدد حاجات المجتمع من جهة ولاتساع امتدادات المجتمع باتجاه مناطق جديدة من جهة أخرى، إضافة إلى إهمال الجانب الروحي نتيجة لغلبة الجانب المادي في المجتمع.

ثانياً: صراع العقل والضمير: في هذه المرحلة يتاح للعقل وابداعاته التعمق والتوسع سواء على المستوى المعنوي أو المادي، ولكن دون أن يرافق ذلك عوامل التحصين الروحية مما يؤدي إلى حالات من الصراع بين العقل والضمير في نفسية الأفراد والمجتمع، ويمكن أن نلاحظ هذا الصراع أو الانفصال بين العلم والضمير في أوروبا حيث عجز الضمير المسيحي عن مواجهة الفجوة بين النزعة العقلية الناتجة عن التطور العلمي، والتي أخذت تزداد كلما حدث جديد في ميدان العلوم حتى بلغت قمته في بداية القرن العشرين الذي استودع في النفسية الأوروبية (طميا) نما فيه الفكر الديكارتي، فصارت السعادة تقاس بالكمومات معنى الفضيلة المطلقة.¹ إضافة إلى ذلك تحوّل كثير من استخدامات العلم

1 . _____، وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 115

إلى استخدامات سيئة، و ظل الضمير يواجه أزمته المستمرة "فالضمير. في رأي ابن نبي ".
تلخيص نفسي للتاريخ و خلاصة لأحداث الماضي منعكسة على ذات الإنسان فهو بلورة
للعادات والاستعدادات والأذواق".¹

أما "المرحلة الغريزية": و هي مرحلة ألفت بظلالها على واقع المجتمع العربي الإسلامي
منذ قرون خلت، و ما زالت تمثل . لحد الآن . مرحلة السقوط و الانحدار، و منه غلى الزوال،
فهي علامة على (منحنى السقوط الذي تخلفه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل
وما دام الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل المؤدية إلى الحضارة ونموها،
فإن هذه العوامل النفسية تختزن بطريقة ما فيما وراء الشعور، وفي الحالة التي تتكمش فيها
تأثيرات الروح والعقل، تتطلق الغرائز الدنيا من عقالها، و يخلق في هذا الوضع انعكاسا على
سلوك المجتمع و أفراده تربويا. يقول ابن نبي: " قبل بدء دورة من الدورات الحضارية أو عند
بدايتها، يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد
تفسخ حضاريا، و سلبت منه الحضارة تماما، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة".² و ينعكس
ذلك على سلوك المجتمع و أفراده تربويا بمايلي:

أولاً: الصراع بين العقل والضمير، إذ أنه في هذه المرحلة يتحول العلم إلى دوافع أي علم
انتفاعي يفقد مضمونه الإنساني و الاجتماعي كما أن بعد الشقة بين العلم والضمير يزداد
شيئا فشيئا.

ثانياً: تحول الثقافة إلى شيء جامد فتسودها اللفظية والضعف والجمود والسلبية والقابلية
للاستعمار وغيرها من أمراض الثقافة.

ثالثاً: فقدان الفعالية في سلوك الفرد و المجتمع.

رابعاً: اختزان العوامل النفسية السلبية فيما وراء الشعور كلما استمر تأثير الروح والعقل
في النقصان و يترتب على ذلك انطلاق الغرائز في السلوك.

مما تقدم يتبين أن كل مراحل التغيير المختلفة في المجتمع تطبع سماتها على شخصية
الفرد وسلوك المجتمع لكن تساؤلاً هاما يثار هنا : إذا كانت حركة المجتمع وتغييراته تخضع
لمثل هذه الحتمية الدورية كما يعتقد ابن نبي والتي بدورها تطبع السلوك الاجتماعي العام

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 53

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 78.

بطابع كل مرحلة فهي يعني ذلك أن الأفكار والسلوك والثقافة والقيم والعادات ستظل محددة لدى الفرد والمجتمع بحدود سلبية أو إيجابيات المرحلة التي يمر بها المجتمع في دورته ؟ ثم أين مكان الإرادة الإنسانية؟ وهل يعني ذلك إلغاء لدور الإمكان الإرادي في التغيير ؟ وبالتالي دور التربية الإرادية ؟

فإذا كانت حركة المجتمع وتغييراته تخضع لمثل هذه الحتمية الدورية كما يعتقد ابن نبي والتي بدورها تطبع السلوك الاجتماعي العام بطابع كل مرحلة فهي يعني ذلك أن الأفكار والسلوك والثقافة والقيم والعادات ستظل محددة لدى الفرد والمجتمع بحدود سلبية أو إيجابيات المرحلة التي يمر بها المجتمع في دورته ؟ ثم أين مكان الإرادة الإنسانية ؟ وهل يعني ذلك إلغاء لدور الإمكان الإرادي في التغيير ؟ وبالتالي دور التربية الإرادية ؟

فيلجأ ابن نبي إلى النظرية الإرادية في التغيير التي قررها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾¹ فيقول ابن نبي في هذا الصدد: " فالجاذبية قانون طالما قيد العقل بحتمية التنقل برا وبحرا. ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائل جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء كما يفعل اليوم. فإذا أفادتنا هذه التجربة شيئا فإنما تقيدنا بأن القانون في الطبيعة لا ينصب أمام الإنسان الدائب استحالة مطلقة وإنما يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه اجتهادا جديدا للتخلص من سببية ضيقة النطاق" وعلى هذا الأساس يمكن " تخليص مفهوم التغيير الاجتماعي من قيود السببية المقيدة كما تربطه بها النظرة الشائعة عند المؤرخين أمثال ج. أ. توينبي الذين يرون أن الأشياء في التاريخ تسير طبقا لسببية مرحلية. والأشياء التي تسير فعلا كذلك إن تركت لشأنها " لكن إدراج قانون التغيير النفسي الاجتماعي القرآني في صلب القضية سيصفي هذه المناقشة " إذ إن المراحل التي تتقبل أولا التغيير حسب طبيعتها تصبح مراحل قابلة كلها للتغيير لأن الحتمية المرتبطة بها أصبحت اختيارا يتقرر في أعماق النفوس " بمعنى : أن قانون " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " سيتيح للإرادة الإنسانية إن شاءت أن تمحو السلبيات وتدعم الإيجابيات سواء في الفكر أو العادة أو السلوك أو القيم، كما سيتاح بموجبه للطبيعة البشرية الاستجابة لذلك وبالتالي يكون بالإمكان البدء بتغيير الفرد " ذلك المعنى عند ابن نبي ينطوي على فهم للخاصية الجوهرية التي تتصف

¹ . سورة الرعد، الآية 11

بها طبيعة الإنسان فيما يتحقق لها من حرية الإرادة التي تجعل الإنسان مسئولا عن أفعاله الاختيارية فالفرد إن هو أساس التغيير أي أنه التغيير الاجتماعي لا يقوم إلا ابتداء من هذه الحقيقة التربوية أي لا يقوم على أساس من حقائق الجنس أو العوامل السياسية بقدر ما يخضع لخصائص المجتمع الأخلاقية والجمالية والصناعية. ولهذا فإن المحاولات التغييرية التي تتوجه إلى المؤسسات أو النظم متجاوزة العمل على البدء بالتغيير الإنساني ستفشل في تحقيق محاولاتها بل إن " التغييرات الثورية تصبح حلما من الأحلام إذا لم تقم على هذا الشروط فتحويل سلطة سياسية من يد إلى أخرى وإعادة تنظيم الإدارة وأجهزة الدولة وتغيير العملة وتعديل النظام الاقتصادي. وقد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن وقد يسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها وقد تبدل الحروف اللاتينية بحروف عربية على واجهات ولافتات الحوانيت مثل هذه التغييرات جميعا تصبح مجرد سحر للأبصار و لا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه"، تغيرا يشمل قيمه وأفكاره وسلوكه وكلماته وحين يكون تغيير الإنسان هو العامل الأساسي في عملية التغيير فتلك هي نقطة التحول الحقيقي.

إذن فالبحث عن الأسباب المعطلة للتغيير يمكن أن يدفع الإرادة ويوجه النشاط لأن إدراك هذه الأسباب في الواقع والسلوك والثقافة والمجتمع والعمل على تجاوزها يمكن حسمه داخل النفس ومن خلال إرادة التغيير وبالتالي يكون بالإمكان تحويل السلبية الحتمية إلى حالة إيجابية ومن خلال هذه المعنى يمكن إدراك ما تتطوي عليه المهمة التربوية في عملية إحداث التغيير الاجتماعي المطلوب.¹

8 . دور الإرادة و الإمكان الحضاريين في بناء الحضارة :

يخوض مالك بن نبي في الإرادة و التمكين الحضاري من خلال تعريفه للحضارة نفسها، هي مجموعة الشروط المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر جميع الضمانات الاجتماعية لكل فرد يعيش فيه. و بناء على تحديد مصطلح الحضارة نفصل جانبين اثنين:
أولاً: الجانب المعنوي " الشروط المعنوية " .

¹ ، علي القرشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع الإسلامي المعاصر، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة،

مصر، 1989، ص ص، 118، 119.

ثانيا: الجانب المادي " الشروط المادية " .

و يلجأ مالك بن نبي إلى النظرية الإرادية في التغيير التي قررها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾¹ فيقول مالك بن نبي فالجاذبية قانون طالما قيد العقل بحتمية التنقل برا و بحرا. و لم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون، و لكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائل جديدة تجعله يعبر القارات و الفضاء، كما يفعل اليوم. فإذا أفادتنا هذه التجربة شيئا ، فإنما تفيدنا بأن القانون في الطبيعة لا ينصب أمام الإنسان الدائب استحالة مطلقة، و إنما يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه اجتهدا جديدا للتخلص من سببية ضيقة النطاق.²

إن إدراج الخطاب القرآني للتغيير النفسي و الاجتماعي في صلب التغيير الاجتماعي سيزيح كل التفسير الغربية للتغيير الاجتماعي " إذ أن المراحل التي تقيس أولا التغيير حسب طبيعتها، تصبح مراحل قابلة للتغيير؛ لأن الحتمية المرتبطة بها أصبحت اختيارا يتقرر في أعماق النفوس.³ بمعنى أن قانون الآية السابقة سيتيح للإرادة الإنسانية إن شاءت أن تمحو السلبيات و تدعم الإيجابيات، سواء في الفكر أو في العادة أو السلوك أو القيم، كما سيتاح بموجبه للطبيعة البشرية الاستجابة لذلك، و بالتالي يكون بالإمكان البدء بتغيير الفرد، ذلك التغيير الذي هو الشرط الجوهري لكل تحول اجتماعي رشيد.⁴

و هذا المعنى عند بن نبي ينطوي على فهم الخاصية الجوهرية، التي تتصف بها طبيعة الإنسان فيما يتحقق لها من حرية الإرادة التي تجعل الإنسان مسؤولا عن أفعاله الاختيارية. فالفرد إذا هو أساس التغيير، أي أن التغيير الاجتماعي لا يقوم إلا ابتداء من هذه الحقيقة التربوية ، أي لا يقوم على أساس من حقائق الجنس أو عوامل السياسة بقدر ما يخضع لخصائص المجتمع الأخلاقية و الجمالية و الصناعية.⁵

و لهذا فإن المحاولات التغييرية التي تتوجه إلى المؤسسات أو انظم متجاوزة العمل على البدء بالتغيير الإنساني، ستفشل في تحقيق محاولاتها، بل أن التغييرات الثورية تصبح حلما من الأحلام إذا لم تقم على هذا الشرط، فتحويل سلطة سياسية من يد إلى أخرى،

1 . سورة الرعد، الآية 111.

2 . جودت سعيد، حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. تقديم مالك بن نبي، ط3، دمشق، 1977، ص 7.

3 . جودت سعيد، المرجع السابق، ص 9 .

4 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص30.

5 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص21.

و إعادة تنظيم الإدارة و أجهزة الدولة، و تغيير العملة و تعديل النظام الاقتصادي. و قد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن، و قد يسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها و قد تبدل الحروف اللاتينية بحروف عربية على واجهات على واجهات و لافتات الحوانيت، مثل هذه التغيرات جميعا تصبح مجرد سحر أبصار، و لا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه¹ تغييرا يشمل قيمه أفكاره و سلوكه و كلماته، حين يكون تغيير الإنسان هو العامل الأساسي في عملية التغيير، فتلك هي نقطة التحول الحقيقي.

استخلاصات

و نخلص في النهاية أن مصطلح الحضارة هو مصطلح محوري في النسق الفكري ابن نبي، و أن مفهومها بالإضافة إلى الجانب المادي، هناك الجانب القيمي و السلوكي الذي يجب أن يكون في الحضارة، و قد ركّز على جانب الأخلاق في العملية لأنها الأساس الأول به تقوم، و بفقدانه يهوى و يسقط و قد كان من نتائج التي نستخلصها في هذا الميدان:

1. الارتباط الوثيق بين التنمية و الحضارة، فالتنمية كما يراها ابن نبي هي متطابقة مع فكرة الحضارة، ذلك أن النمو حضارة و التخلف انحطاط. و الحضارة في جوهرها عند مالك بن نبي: "هي مجموعة الشروط المعنوية و المادية التي تتييسر لمجتمع معين أن يقدم كل فرد، في كل طور من أطوار وجوده، من الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه" أي أن التنمية عند مالك بن نبي تأخذ الثقافة كمحتوى و كوعاء لها لكي تضمن المشاركة الاجتماعية الكلية لها.

2. يؤكد الباحث على مركزية نظرية الدورة الحضارة في المشروع بوصفها الإطار الكلي المفسر لظاهرة البناء و السقوط الحضاري، فقد شكّلت هذه النظرية منظورا حضاريا متميزا حاول سبر غور الظاهرة الحضارية، و من ثم اكتشاف السنن التي تتحكم في ظاهرة الحضارات نهوضا و نكوصا. و نرصد من خلال تتبع هذه النظرية الحضارية عنده حضورا مركزيا لمجموعة من العوامل، تشكل من منظورها. العناصر الجوهرية في نشأة الحضارات، و التي تتمثل في الفكرة الدينية و النفس الإنسانية.

¹ . بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص، ص. 43، 44 .

3. تمكّن هذا المشروع من صياغة رؤية كلية مفسرة للظواهر الحضارية، و بذلك أكّدت هذه النظرية بشكل صريح على شمولية و ثبات السنن الكونية، بمعنى خضوع كل التجارب الحضارية لنواميس ثابتة. بالإضافة إلى ذلك، كرّست هذه الرؤية شمولية نظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي للدائرة الإنسانية عموماً، حيث انطلقت هذه النظرية من استقراء الواقع التاريخي، و هذا من خلال التتبع التفصيلي لمجموعة من التجارب الحضارية.

4. توظيف القيم و الأخلاق في بناء الحضارة و اعتبارها عاملاً جوهرياً يسهم في بقائها و نمائها. فإن وراء كل تقدّم و مدنية قيم أخلاقية و روحية من شأنها أن تشدّ قوام هذا التقدم و تجعله متماسكاً وتحفظه من الزيغ و الانحراف. فالأخلاق عند مالك بن نبي هي سلوك يتفاعل فيه الضمير و الفكر و العاطفة و الإرادة و التنفيذ و العادة.

الفصل الخامس

التربية عند مالك بن نبي المفهوم . الأهداف . الأبعاد

المحتويات:

تمهيد

- 1 . في ماهية التربية عند مالك بن نبي .
- 2 . أهداف التربية عند مالك بن نبي .
- 3 . أبعاد التربية عند مالك بن نبي .

استخلاصات

تمهيد

تعتبر التربية وسيلة مهمة للاستقرار و البناء المجتمعي و لإدامته و استقراره على مستوى القيم و العادات و الاتجاهات و النظم، و لما كانت الحياة الإنسانية من أقصر الدورات الحياتية عند المخلوقات، كان لزاما على الجيل الأول أن يورث خصائصه الثقافية و المجتمعية و نظمه السياسية و الاقتصادية للجيل اللاحق. لذا فالتربية في أبعادها الحضارية تهتم بتلقين الجيل الجديد أسباب البقاء من خلال تعليمهم كيفية التعامل مع المواقف الاجتماعية المختلفة في وضعيات و سياقات متباينة على أساس الأدوار و المراكز الاجتماعية المكتسبة داخل المجتمع.

و يعني هذا أن التربية تهتم بالسلوك الإنساني تؤهل السلوك الإنساني إلى مستوى الحدث التاريخي الذي يناط به البناء الحضاري من خلال التنمية و التغيير و التطوير و تكيف.

وما زال مفهومها الذي قدمه ابن نبي واحدا من أهم التعريفات التي أخذت قسطا كبيرا من التحليل من قبل العلماء و المفكرين العرب و المسلمين و التي تميزت عنده تتميز عنده بخاصيتين اثنتين و هما: النوعية و التأسيس.

و فقد تميزت التربية في منظوره كطريق ثالث للنهضة مجانباً الطرح السائد آنذاك و المتمثل في النظرية الرأسمالية و النظرية الاشتراكية، فقد اهتدى مالك الى إيجاد منحنى آخر عرف في ما بعد بقضايا التنمية في العالم الثالث، و هو طريق المدخل الحضاري الذي تناول مشكلة الإنسان و من ثم مشكلة المجتمع و من ثم بناء الحضارة عامة.

و يحاول هذا الفصل أن يجيب على العديد من العديد من الأسئلة العالقة حول التربية عند مالك بن نبي خاصة فيما يتعلق بالمفاهيم و الأبعاد و علاقتها بالثقافة، و دورها في تشكيل الأخلاق، و أهميتها في البناء الحضاري.

1 . في ماهية التربية عند مالك بن نبي:

تعد التربية من أهم قضايا المجتمع المعاصر حضوراً و خطورة، لأنها تهتم بتكوين الإنسان و بناء المجتمع، و الشرط الضروري لكل تقدم، و إن العناية بها هو الاهتمام بتكوين الإنسان القادر على تحدي المستقبل، بكل ما يكتنف مفهوم المستقبل من مجاهيل و غموض. و أهم ما يميز الفكر التربوي أنه نتاج تجربة إنسانية، تتجدد باستمرار، تتطور و ترجع القهقري متأثرة بالطرح الحضارية للإنسان، لذا فإن تاريخه هو صورة و انعكاس صادق لصيرورة الحضارات الإنسانية من حيث قابلية الحضارة لاحترام القيم الإنسانية في مواجهة الطبيعة الأنانية للإنسان. و التربية ليست فن متقدم للتعليم في مرحلة الطفولة المكبرة، و ليست مجرد تكوين مهارات ذاتية و علمية و مهنية قادرة على المشاركة الجادة في مسيرة التقدم، و لو كانت كذلك لكانت التربية فاقدة لكل أبعادها الحضارية، كأداة فعالة لتصحيح مسار الإنسان في رحلته الطويلة عبر الأجيال المتلاحقة. فليست الدراسات التربوية مجرد رصد لمتغيرات الواقع أو صياغة نظرية تربوية جديدة تزيد جديداً لفكر التربوي، من حيث تكوين الخبرات و المهارات الفردية و الاجتماعية، وإنما تتعدى ذلك إلى إعادة صياغة الإنسان كركن ركين في البناء الاجتماعي المطالب بأن يقدم النموذج الأعلى و المثالي للسلوك البشري فيما حضارية يسهم في بناء مشروع تربوي يسعد الإنسان حاضراً و مستقبلاً.

1 . 1: مفهوم التربية: لم يتطرق مالك بن نبي إلى مفهوم التربية بشكل المعرفي الإبتسمولوجي المتعارف عليه عند التربية و الاجتماع، لذا كان من الصعوبة تحديد هذا المفهوم و هذا بدوره يرجع إلى عدة أسباب:

- إلى أنه لم يتحدث عن موضوع التربية في مؤلفات بشكل مباشر وصحيح.
- لتداخل معنى التربية مع معنى الثقافة عنده.

و رغم ذلك و إن لم يتضح مفهوم التربية بشكل جلي و واضح في كتاباته، إلا أننا نستطيع أن نستنتج مجموعة من الأفكار التربوية و المضامين ذات العلاقة من خلال مؤلفاته لما تتضمنه من قيم تربوية ذات أبعاد فكرية و سوسيولوجية. و إن تداخل معناها في كثير من الأحيان مع مفهوم الثقافة التي يعد مفهوماً محورياً في فكر مالك بن نبي في بناء الإنسان و تغييره. ويظهر هذا التداخل بين الثقافة والتربية عند بن نبي في قوله:

"إن من أوليات واجبتنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نجدّها عاملاً تاريخياً لكي نفهمها، ثم نظاماً تربوياً تطبيقياً لنشرها بين طبقات المجتمع".¹ من هنا يتأتى لنا تحديد مفهوم التربية عند مالك بن نبي والذي يدل على أنها "عملية تثقيف متواصلة" وتتمثل عملية التثقيف هذه في تلك العملية النفسية التي تقوم في أولى مهامها بتكوين عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد أي في بنية إنسان ما بعد الحضارة.

1 . 1 . 1 : التربية كعملية: إذا كان أهم ما يميز الإنسان عند احتكاكه بإنسان آخر هو حدوث تفاعل معين تقوم على أساسه علاقات مختلفة، و يتخذ . هذا التفاعل . عدة أشكال مختلفة قد تكون مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها، أي أن مفهوم التربية يتعلق بتعليم الأفراد من الجيل الجديد كيف يسلكون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي ينشئون فيه، أي أن التربية كعملية تهتم بالسلوك الإنساني و تتميته و تطويره و تغييره. أي أن هدفها أن تنقل إلى أفراد الجيل الجديد المهارات و المعتقدات و الاتجاهات و أنماط السلوك المختلفة التي تجعل منهم مواطنين صالحين في مجتمعهم متكيفين مع الجماعة التي يعيشون بينها. أي أن التربية هي "عملية تعليم و تعلم لأنماط متوقعة من السلوك الإنساني".²

1 . 1 . 2 : التربية كمشكلة: تدور فكرة الحضارة عند مالك بن نبي حول "الإنسان" و تغييره من طبيعة إلى حالة أخرى، فهو حجر الزاوية بالنسبة للأفكار التي ينادي بها في كل كتاباته، فهو المعنى من التغيير من إنسان ما قبل الموحدين إلى إنسان ما بعد الموحدين، و المختص بالتحليل في فكرة القابلية للاستعمار، و هو الذي أنيطت له عملية التحضر فاعلاً و متلقياً، و هو المغير للحركة التاريخية إذا ما دخل في حالة التوتر بفعل الفكرة الدينية، و بدونه و انسحابه لا يمكن أن نتحدث عن "شبكة العلاقات الاجتماعية". فالإنسان هو المشكل إما أن مشاكله تتعلق بحاجات غير مشبعة و ديناميكية مضطربة . في حالة مثله للإنسان البلجيكي . أو أن مشاكله تتعلق بعبادات راکدة وضعت الفرد في حالة توازن خامد

¹ . _____ ، مشكلة الثقافة . مرجع سابق ص 75 .

² . محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، مرجع سابق، ص 9 .

و خمول تام. بالنسبة للإنسان الجزائري. فالبلجيكويون في حاجة إلى مؤسسات، بينما الجزائريون في حاجة إلى رجال.

و نحن المسلمون " لا نواجه تغييرا في النظام السياسي، بل أن التغيير يصيب الإنسان ذاته، الإنسان المتحضر الذي فقد همته المحضرة، و ليس من الصواب أن نبحث عن النظم، بل عن العوامل الإنسانية المتمثلة في عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب و الوقت. إن التركيب الأساسي نفسه قد تحلل، فتحللت معه الحياة. و أخذت مكانها للحياة البدائية.¹

إن خروج الإنسان من دورته الحضارية، و دخوله في نفسية إنسان ما بعد الموحدين، جعلت أمر العملية التربوية معقد و مركب، إذ يتطلب في البداية عملية تصفية من المورثات و التراكمات التي جعلت منه يسقط في براثن التخلف و القابلية للاستعمار مدة ستة قرون دون تجديد لكيان الإنسان طبقا لتعاليم الإسلام الحقة، و مناهج العلم الحديث. و من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دورة و تسلسلا فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة و مفاخر كريمة، و هو تارة أخرى يلقي عليها دثارها، ليسلمها إلى نومها العميق. فإذا ما أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار . تحتم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا، و ما يعترضنا من عوامل انحطاط و ما ننطوي عليه من أسباب التقدم. فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهّل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا. و لعل أعظم زيغنا و تنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، و لعل أكبر أخطاء القادة أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية. و من هنا تبدأ الكارثة و يخرج قطارنا عن طريقه حيث يسير خبط عشواء.²

و قد ارتبط الإنسان الأوروبي "بالحضارة الخضراء" بالأرض و الزراعة و التراب منذ قرون طويلة، و استمد غذاءه و حيويته و ركّب منها عبقريته و كيف نفسه مع هذه البيئة أو " المجال الحيوي" و لم يستطع تعديلها خلال الحقب الزمنية المتعددة من السيطرة الرومانية إلى الزحف الوندالي، فقد بقت الحياة الاجتماعية للإنسان الأوروبي محافظة على عاداتها

1 . _____ ، وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 82.

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 52.

و تقاليدھا المستمدة من تراثهم المستلهم من قيم النهضة في أوروبا، هذا المجتمع . ذو الفضائل الجذبية الأثرة . الذي أودعت فيه المسيحية فكرة التوسع خارج النطاق للمشاريع الاستعمارية و الحروب الصليبية.

وفي الجهة الأخرى كان الإنسان المتخلف في العالم الإسلامي مرتبطا من الناحية الاقتصادية بالرعي لا بالزراعة، فضيع جل وقته في الحل و الترحال، و أرتبط " بمجاله الحيوي " القريب من مضارب الخيم و مساحات الكلا و الرعي. فلم يكن يمارس نشاطا منتظما برغم الجهد المضني المبذول في كثير من الأحيان، فهو عالم منقسم، تتعدم فيه روابط الشبكة الاجتماعية و لم يؤسس لنظام من العلاقات الاجتماعية في إطار علاقات الجوار، لانعدام الملكية العقارية و غريزة التجمع لديه، و هو في نهاية المطاف لم يندمج في نظام اجتماعي واضح خارج نطاق القبيلة و العشيرة، و بناء نسق سياسي و اقتصادي و ثقافي و اجتماعي متين، لأن نظام الحياة الموروث لم يتجاوز ضمان الأكل و الشرب. يمتاز بالجمود إلا ما كان على طبيعة الكرم و الهيام بالفخر و الشعر و الفروسية، فإنسان ما بعد الموحدين قد آثر العودة إلى حياة أسلافه البدو، و على أن يركن إلى حياة متحضرة. فإذا نظرنا إلى الوضع نظرة اجتماعية . يضيف مالك بن نبي . وجدنا أن جميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة عمران، لم يكن إلا تعبيراً عن حالة مرضية يعانها الإنسان الجديد . إنسان ما بعد الموحدين . الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، و الذي كان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين. فالنقائص التي تعانها النهضة الآن، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن في طبيعة التاريخ، فنحن ندين له بموارثنا الاجتماعية، و بطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي، ليس ذلك فحسب، بل إنه يعيش الآن بين ظهرانينا، و هو لم يكتف بدور المحرك الخفي الذي دفعنا إلى ما ارتكبنا من خيانة لواجبنا، و أخطاء في حق نهضتنا، بل لقد اشترك معنا في فعلنا؛ لم يكتفي بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقى و الاجتماعي و الفلسفي و السياسي، فبلغنا ذاته أيضا.¹

¹ . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32.

و مشكلة الإنسان في العالم الإسلامي أنه ما زال يعيش بذهنية الراهن في حقب زمنية قديمة، و يستعمل في حياته اليومية طقوس بالية تعود إلى فترة ما بعد الموحدين عن طريق وراثه اجتماعية، فهذا الميل نحو المحافظة يدل في أوروبا عن الكفاءة، و يقوم بعملية التوازن المطبوع بالحركة، بينما في العالم بلاد الإسلام ينجذب نحو العطل والجمود، عاجزا عن اجتياز مراحل تاريخية جديدة عاجز عن ابتكار المعاني و الأشياء الجديدة و تمثّلها، فالميل و الانجذاب ليس إراديا بل افتقار و نقص. يقول مالك بن نبي للتدليل بأن الظاهرة عامة تطبع محور طنجة . جاكارتا " و ليس من قبيل المصادفة أن نرى (الحاوي) يجمع حوله الأطفال في سمرقند و في مراكش، و هو يلوح لهم بثعابينه، إن معنى هذه مشكلة العالم الإسلامي واحدة . لا أقول في أشكالها السياسية أو العنصرية، وإنما في جوهرها الاجتماعي. هذا الرأي يتيح لنا ، بل يفرض علينا وضع المشكلة في نطاق التاريخ؛ و عليه ليس من باب اللعب بالألفاظ، بل من الضرورة المنطقية أن نقرر أن العالم الإسلامي لا يعيش الآن في عام 1949، بل في عام 1369.¹

فالترسبات الماضية التي شكلت بنية التفكير في إنسان ما بعد الموحدين، و التي جعلت منه إنسانا قابلا للاستعمار يعيش في خرافاته و طقوس شعائرية لا ترتبط بالدين إلا بالجانب الجامد و الخرافي الذي يضمن الولاء أكثر مما يخلق فردا يدخل في الحركة التاريخية ليرمم شرح الثقافة منطلقا من الفكرة الدينية، و هذا لا يتأتى إلا بإعادة صياغة الإنسان . انطلاقا من حل مشاكله . و إدخاله في من جديد في أصل شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك في التاريخ . و إنما يكمن في تخلّق تركيبه العضوي التاريخي.²

إن الإنسان ما قبل الحضارة خام فطري قابلا للتشكل إذا ما وجد التوتر الحيوي اللازم لوثبة الحضارية، و إعادة تربيته بتجاوز المفاهيم النظرية الجوفاء و الأسس التي ليس لها سلطان على واقع الأفكار و الأشخاص والأشياء، والتي لا تحتكم إلى بحار من العلم و المتعلمين العارفين بالمعاجم و الترجمات البعيدة عن تناول الواقع بل أن هدف التربية المنشودة هي الاستثمار في مشاكل الإنسان الحقيقية التي تعيقه على التطور و التقدم، فلما

1 . المرجع سابق، ص30.

2 . ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص30.

كان كل واقع اجتماعي في جذوره هو قيمة معينة محققة في واقع الإنسان، و في الإطار المنظر الإنساني، الذي يحوطه . و هو شيء واحد . و إذن فأبي تفكير في مشكلة الحضارة هو أساسا تفكير في مشكلة الثقافة. و من الواجب أن نفكر مليا في هذا المصطلحات، لا من طريق الاستعانة برأس مستقر بين اليدين. فليس الأمر إذن أن نقول: أن الثقافة تحتوي بصفة عامة عددا من الفصول هي: الأخلاق و الجمال والمنطق العملي والصناعة الفنية. لكن المر يقتضينا أن نتساءل: كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد، في ظروف نفسية زمنية معينة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية، و في مستوى أهداف الإنسانية.¹

والتي هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموع القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، و كيف يكون معهم شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ.²

1 . 1 . 3: التربية كمفهوم: يقترح مالك بن نبي مجموعة المفاهيم و المصطلحات ذات العلاقة الترابطية أو التقاطعية مع مفهوم التربية، و كل واحد منها يشتمل على معنى و دلالة ترتبط بالإطار المعرفي التي نشأت فيه، فالتربية تستمد مشروعيتها واستمراريتها من المجتمع و الفكرة الدينية التي تقوم بعملية تكيف المصطلح و نقده إذا حاد عن المبدأ الأخلاقي فهو يؤكد، إن المجتمع يواصل تطوره من خلال الفكرة الدينية التي أظهرته إلى الوجود، و تكتمل شبكة روابطه الداخلية، بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة في العالم، فتنشأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله. و حتى تستطيع حضارة تلبية هذه المقاييس المستجدة تسلك منعطفا جديدا؛ فإما أن تتطابق مع (النهضة) كما نراها بالنسبة إلى الدورة الأوروبية، و إما أن تتطابق مع استيلاء الأمويين على الحكم كما هو شأن الدورة الإسلامية. و في كلا الحالتين فإن المنعطف هو منعطف العقل. غير أن هذا العقل لا يملك سيطرة الروح على الغريزة، وحينئذ تشرع الغرائز في التحرر من قيودها بالطريقة التي شاهدناها في عهد بني أمية؛ إذ أخذت الروح تفقد

1 . _____ ، مرجع سابق، ص 100 .

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 100 .

على الغرائز بالتدرّج، كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد. و من الطبيعي أن الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة و إنما تنطلق بقدر ما تضعف سلطة الروح¹ فإن التاريخ يكفّ عن تعديل البنية الأخلاقية للمجتمع و يتوقف عن تعديل سلوك الأفراد، إذا يتضح من خلال ما سبق أن التربية (الأخلاق) شيء مرتبط بالتنظيم الاجتماعي العام للمجتمع خاصة في مرحلة الروح و العقل، وهي إستراتيجية متكاملة محكمة البناء رصينة التماسك لها ارتباطاتها كل متغيرات المجتمع، وتنطلق من تغيير الإنسان نفسه، لا تكتفي تعليم الكتابة و القراءة و إنما التفاعل داخل نسق مجتمعي واحد، هدفها البعيد هو تعليم الإنسان قيم التحضر فيقول: " ليست التربية مجموعة من القواعد و المفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، و عالم الأفكار، و عالم الأشياء. و ليس هي من إنتاج المتعلمين و بحار العلوم، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم، دون أن يلمّوا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيرا كانت أم شرا، أو أولئك الذين يعرفون جميع المبادئ و التعاليم التي جاءت في الإسلام، دون أن يستطيعوا تطبيق مبدأ أو تعليم واحد لتغيير أنفسهم، أو تغيير بيئتهم. فكل حقيقة لا تؤثر على الثالث الاجتماعي: الأشخاص، الأفكار، الأشياء، هي حقيقة ميتة. وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة ... وكل كلمة (ثقافة) ليست سوى كلمة فارغة رنانة لو لم تخلع على (التربية الاجتماعية) المضمون الضروري، الذي يتيح لها الاضطلاع بوظيفتها المغيرة... إن الثقافة تحتوى بصفة عامة عددا من الفصول هي: الأخلاق، و الجمال، و المنطق العملي، والصناعة الفنية. لكن الأمر يقتضينا أن نتساءل: كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد، في ظروف نفسية زمنية معينة، أو لإبقاء الإنسان الذي لم يتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية، و في مستوى أهداف الإنسانية. و يضيف تخصيصا لهذا الكلام و إسقاطه على واقع البلاد العربية و الإسلامية الذي يعيشه من أجل تحديد الشروط الأولية التي تحقق له ما يبتغي من ثقافة. " فينبغي أن نفكر في الإنسان الذي لم يتحضر بعد، أو الذي خرج من دورة حضارته في أزمة تاريخية معينة، أن نحدد شروط الفاعلية التي يمكن أن تقوم على منهج للأخلاق أو الجمال.²

1 شروط النهضة، مرجع سابق، ص 76.

2 ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص ص 100، 101.

و النظر إلى المفاهيم السابقة الذكر . التربية ، الثقافة، الفاعلية، الإنسان . نلاحظ أن هناك علاقة تكوينية و ترابطية تجمع بينهم لكي تؤدي وظيفتها في التاريخ و هي قيام الحضارة ، هذه الحضارة لا يمكن لها أن تتأسس دون بعد ثقافي في صورته الحية الناصعة البياض، يعمل في وحدة ذات أجزاء متماسكة و مترابطة فيما بينها بروابط داخلية، تحددتها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه و أدواقه و تاريخه. تلك العلاقة التي تمثل فيها الحضارة كوعاء للتربية . و التربية كمبدأ أخلاقي . تحدد شروط بقاء الحضارة و استمرارها، و الثقافة . بما تحتويه من تركيب متآلف للأخلاق، و الجمال، و المنطق العملي، و الصناعة . تلك الثقافة التي تخلق الإنسان الذي يراقب، و يراقب ذاته في بادئ الأمر. تلك هي نظرة الغزالي و باسكال اللذين كانا يبحثان عن تناسق بين عالم الظواهر و عالم الداخل، تلك هي النظرة التي تسمح للإنسان أن يسيطر على ذاته، و أن يسيطر على الأشياء التي ابتدعتها عبقريته، أي بكلمة مختصرة: أن يتحضر.¹

1 . 1 . 4: التربية كمنهج : يعرف المنهج في التصور الإسلامي بأنه : نظام من الحقائق و المعايير و القيم الإلهية الثابتة و المعارف و الخبرات و المهارات الأساسية التي تقدمها مؤسسات تربوية إسلامية إلى المتعلمين فيها بقصد إيصالهم إلى درجات الكمال التي هيأهم الله لها، و بذلك يستطيعون القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية و فاعلية في عمارتها و ترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

و يتميز هذا المنهج بخاصيتين اثنتين هما:

أولاً: أن التربية نظام: أي أنه بمفهومه و خصائصه و أسس بنائه و عناصره يكون كلاً متكاملًا، كل جزء فيه يتأثر ببقية الأجزاء و يؤثر فيه.

ثانياً: أن هذا المنهج بما أنه نابع من التصور الإسلامي للكون و الإنسان و الحياة، فهو منهج رباني.²

و من أبرز مميزات منهج مالك بن نبي حرصه على حصانة الفكر و أصالته و صفائه و فعاليته، إنه يريد فكرًا فعالًا منتجًا حضاريًا نموذجيًا راقياً في الطليعة. كما يريد فكرًا ناقدًا طليقًا لا تعلق به عالقة و لا تشوبه شائبة، و من خصائص التربية كمنهج عنده كذلك، أنه

¹ . _____ ، من أجل التغيير، ص 55.

² . علي أحمد مدكور، منهج التربية في التصور الإسلامي، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1991.

يتسم بحساسية مرهفة تجاه أحابيل العدو الذي كان يسميه (L'autre) أي المجهول الصورة و يشتمُّ عن بعد المؤامرات التي الفكرية التي يديرها. كما يحرص على المغايرة و التميز و الجدية السلوكية في بناء الشخصية الفكرية. و من خصائص منهجه أنه كان يعتمد على التحليل الرياضي و المنطقي و الفلسفي كما كان يستعمل المنهج النفسي الاجتماعي لاستجلاء مكونات القضايا الفردية و المجتمعية. و إذا جاز لنا سرد نقاط رئيسية لمنهجه المتميز عددنا أهمها فيما يلي :

- ✓ الانطلاق من الحقائق الإسلامية.
 - ✓ الربط العلمي بالرسالة والدعوة.
 - ✓ براعة استعمال الشواهد القرآنية في الاستدلال السنني و كينونة المناسبة دونما استطراد.
 - ✓ الاستفادة القانونية من مخبر التاريخ و الوعي الرهيف بصرامة السنن.
 - ✓ الاهتمام بالحقل الرياضي الدقيق.
 - ✓ التحليل بالواقعية و الصراحة و الموضوعية .
 - ✓ النزعة التفاؤلية في أحلك الظروف و اختناق الأزمة بحيث تتبثق منها إمكانية العلاج و تدارك الأمور و تجدد الدور الرسالي للمسلم.¹
- و كون التربية عملية تنقيف يكسبها معنى المنهج الذي بواسطته يتم تشكيل وحدة الثقافة التي تعكس حضارة المجتمع وذلك عبر تشكيل العوالم المؤلفة لها وتوجيهها نحو الغاية التي ترسم لها، ويزيد كسبها لمعنى المنهج وضوحا في تشكيل عوالم الثقافة هذه وتوجيهها وذلك من خلال عملية التركيب النفسي لعناصر الثقافة (المبدأ الأخلاقي الجمالي البعد العملي والجانب الفني) وترتيبها وفق ما ينسجم مع الوجهة التي يختارها المجتمع لنفسه في شق طريقه نحو الحضارة. و عملية التركيب النفسي هذه تدل على أهمية الإنسان البالغة بالنسبة لعملية إعادة البناء الحضاري، فهي تقوم بتغيير نظرتة لنفسه ولأحداث التاريخ فيتحدد بذلك موقفه ومسؤوليته إزاء وضعه المجتمعي ومصيره وبهذا تصيح هذه العملية مرتبكة بنتائجها المتمثل في تغيير السلوك.

¹ . محمد البشير مغلي، مالك بن نبي كان أمة واحدة براعة فكرية و مهارة تحليلية، مجلة الموافقات، مجلة دورية أكاديمية تصدر عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد الثالث، جوان 1994، الخروية، الجزائر، ص 288.

و كونها عملية متواصلة يدل على أنها ليست ظرفية تتعلق فقط بمرحلة تاريخية معينة التي هي مرحلة التخلف الذي يوصم المجتمع المسلم اليوم بل إنها تتسم بالديناميكية وعلى أنها تتطور بتطور المجتمع آخذة في الاعتبار كل ما ينتج عن هذا التطور من تغير وتحول على مختلف الأصعدة.

و يقرن مالك بن نبي . في هذا المجال . التربية بفكرة الثقافة لتصبح منهاجا تربويا، يقوم بعملية التنقيف تتحدد الثقافة بصفة عامة عندما تصبح تاريخا، فتتمثل لأعين الأجيال في صورة معجزة إغريقية، أو إمبراطورية رومانية، غير أن القرن العشرين قد أدخل مقياسا جديدا في روح المنهج و في الطريقة التي تحدد بها الثقافة. فالإنسانية قد دخلت عصر التخطيط منذ الحرب العالمية الأولى، فإذا أردنا أن نفهم الثقافة في هذا العصر وجب أن نفهمها كمنهاج قبل أن نحدد النتيجة.

1 . 1 . 5 : التربية كتمثل للقيم و انتظامها في سلوك الفرد: يتحقق انتماء الفرد للجماعة واستلهامه للقيم الثقافية داخل المجتمع على مجموعة من الأسس كأن تحقق الثقافة التي ينتمي الفرد حاجاته الفردية كالاندماج في الجماعة التي يتفق معها في المعايير و القيم، أو أن يستعد الفرد للقيام بدوره كعضو في الجماعة من خلال استجابات معينة مع الآخرين، أو أن يثق الفرد أن فهمه للمعايير الاجتماعية يشترك فيه مع الآخرين فالفرد لا يقوم بدوره الاجتماعي دون أن يستعمل المعايير المشتركة التي تحدد على أساسها الأدوار الاجتماعية. و قد كان "وليام سي باركلي « **Charles William Barkley** » أن عملية التربية عملية نقل التراث الأساسي و المحافظة على الجذور الثقافية للمجتمع و التمسك بالقيم و المثل العليا الأساسية على أن لا يحول ذلك كله دون تطور المجتمع و تقدمه.¹

و يبقى السؤال مطروحا . من الناحية الاجتماعية . هي كيف ينقل المجتمع هذا التراث إلى الفرد؟ و . من الناحية النفسية . كيف ينتقي الفرد المقاييس الذاتية التي تحدد انتماءه إلى نمط ثقافة معينة ؟ و الواقع أن الفرد يختارها لا بناء على عملية واعية يجريها عقله و تفكيره. و إنما هو يستنشقا في محيط حياته، و في مجاله الروحي الذي يحوط وجوده المعنوي، كما يتنسم الأكسجين في مجاله الحيوي الذي يحوط مجاله المادي. فأشياء الوسط

¹ . جون ديوي، المدرسة و المجتمع، ترجمة: أحمد حسن الرحيم، الطبعة الثالثة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، 1978ص21.

الاجتماعي و أفكاره التي تحوط بالفرد، يتمثلها الفرد بواسطة نوع من التحليل يدمجها في كيانه الروحي، تماما كما تتجمع عناصر الوسط الحيوي التي تحوطه و تندمج في كيانه المادي بواسطة التنفس و التمثيل.¹

1 . 1 . 6: التربية كتنشئة اجتماعية: يأخذ مفهوم التنشئة الاجتماعية عند ابن نبي طابعا مرحليا يأخذ بالإنسان و يحوله من الكائن البيولوجي إلى شخص اجتماعي عبر جماعات اجتماعية متنوعة في نوعها لكنها مترابطة في وظائفها. و تعني إكساب الفرد أدوارا اجتماعية لكي يشغل مكانة موقعية في الجماعات التي يعيش في وسطها و تمثل جسرا موصلا بالمجتمع العام و الثقافة الاجتماعية، و الخطوة الثانية عند مالك هي أن يمارس الفرد لأدوار اجتماعية تطلبها مواقع اجتماعية داخل الجماعات الاجتماعية و الأنساق البنائية. و يقوم بالدور الاجتماعي المتماشي لاستعداداته الفطرية و مهارته المكتسبة، و من ثم يتاح للمجتمع أن يؤدي وظيفته الحضارية في التاريخ " إن الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله، ليكيفه طبقا لأهدافه الخاصة، و هو المهني الذي قصد إليه رسول الله (ص) في قوله: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)".² فذلك التكيف الذي يجعل الفرد أهلا لأن يتخذ مكانه، لأن يقوم بدوره في المجتمع. أي إننا ينبغي إجمالاً أن نحدد العلاقة التي يحتمل أن تكون بين مجموعة من الأفعال المنعكسة المنظمة لسلوك الفرد، و بين شبكة العلاقات التي تتيح لمجتمع ما أن يؤدي نشاطه المشترك² و قد ألحّ (إميل دوركايم) منذ إرهابات تفكيره السوسيولوجي التربوي على أهمية الجوانب الاجتماعية للعملية التربوية، فالتربية كما يقرر في الكثير من أعماله العديدة: " هي قبل كل شيء الوسيلة التي يجدد المجتمع عن طريقها و باستمرار، شروط حياته الخاصة. و تكمن وظيفتها الأساسية في تحقيق عملية التنشئة الاجتماعية المنهجية للأجيال الجديدة".³

و يذكر مؤرخو التربية الحديثة أن البشرية قد عاشت آلاف السنين و هي تعرف التربية المنظمة التي يمارسها في مدارسنا أو معاهدنا التي تعتر الأوطان المخصصة لممارسة

1 . _____ ، مشكلة الثقافة. مرجع سابق، ص، 54، 55.

2 . _____ ، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص، 65، 66.

3 . إميل دوركايم، التربية و المجتمع، ترجمة : علي وطفة، ط1، دار وسيم للخدمات الطباعة، 1992، ص7.

عملية التربية. فإذا كانت التربية الأولية أو البدائية لا تمارس في الحجرات الدراسية، فإنها تمارس في واقع الحياة من خلال المهارات التي يتعلمها الفرد عن طريق المحاكاة و التقليد من خلال ممارسة الزراعة و الصيد و غيرها، أو من خلال المعلومات التي يتبادلها الناس في حياتهم، و لم تكن تلك المهارات و المعلومات من التعقيد بمكان بالنسبة لبساطة الحياة و قلة الحضارة و بدائية الثقافة و غير ذلك من المكونات التراثية في حياة الأمم.¹

فلكي يدخل الفرد في شبكة علاقات اجتماعية معينة ينبغي أن يجسد في ذاته واقعا نفسيا معيناً، هذا الواقع هو الذي يؤهل الفرد ليتم قبوله داخل الحياة الاجتماعية من خلال عملية التنشئة. إن إدماج الفرد في شبكة اجتماعية عملية تنحية، و هو في الوقت نفسه عملية انتقاء، و تتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم بواسطة مدرسة . و ذلك ما يسمى بالتربية.²

يرى ابن نبي على أن التربية عملية اجتماعية بحتة تبدأ منذ ولادة الإنسان حتى مماته، فهي عملية مستمرة تلقن الفرد و تعلمه أبجديات الحياة، فيورد هذه القصة: " سألني أحد أقاربي وقد وُلِدَتْ له حفيذة فقال: ولدت لي ابنة ابني فلان، فكيف تشير عليّ بتربيتها؟ أدركت الموضوع فتعمدت استثارته مداعبا، لكن مداعبتي كانت تنبئ عن الحقيقة، فسألته: منذ كم ولدت؟ فقال منذ شهر. لقد تذوّقتها كنكتة كما أراكم تذوّقتموها الآن، لكنها في الحقيقة ليست نكتة. فالطفل يبتدئ تكوينه النفسي في زمن مبكر أكثر مما نتصور عادة، إذ ملامح تكوينه النفسية تتكون قبل ما تتصوره الأسر التي نحن منها.

فالطفل لديه طريقة للإدراك . ليست كطريقة الكبار طبعاً . إذ الطفل لا يفكر، و لا يختار بين الشيء محرق و هذا غير محرق، لكنه يدرك هذا بشيء من لا شعور أو بشيء باطني و عبر امتصاص نفساني، فكما أنه منذ نشأته و خروجه من بطن أمه، ينتفس فيفتح فاه و منافذه لاستنشاق الهواء الضروري لحياته منذ اللحظة الأولى حتى أن الوليد يضرب أحياناً ليفتح فمه كي ينطلق الهواء من منافسه كذلك، فإن الطفل له كيان نفسي منذ اللحظة الأولى

¹ . عباس محجوب، أصول الفكر التربوي في الإسلام، ط1، دار لابن كثير، دمشق، عجمان، الإمارات العربية المتحدة، 1987، ص 60.

² . _____ ، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص، 67 .

لمجيئه، فهو يبدأ لا شعوريا و دون تدخل الإرادة يتمثل الأشياء و العناصر التي نسميها(العناصر الثقافية)¹.

1 . 1 . 1 : التربية كظاهرة إنسانية: لما كانت التربية تهتم بنقل القيم و العادات و النظم الإنسانية من أجيال قديمة إلى أجيال حديثة، بكافة أشكالها لتحقيق نوعا من الاستقرار و الثبات داخل الجماعات الإنسانية في جميع الأزمنة و في كل العصور من أجل البقاء. و يقوم كل جيل إنساني بالإضافة إليه و الحذف منه و التغيير فيه و التصحيح و التطوير، و على هذا الأساس تكون التربية عمل إنساني، أي أن مادتها هي الإنسان دون غيره من المخلوقات الأخرى، قد للحيوانات الأخرى تدريب صغارها للتكيف مع البيئة الجديدة و ليس تربيتهم، دون أن ننفي اتصالا و استمرارا من نوع معين بين المستويات الحيوانية و المستويات الإنسانية.²

و يعتبر الدين ظاهرة إنسانية تختص بالمجتمع الإنساني، و لا يستطيع أيّا كان أن يتجاوز و يستبعد الظاهرة الدينية من حياته، و دورها في تنظيم و إخضاع غرائزه إلى عملية شرطية تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية. فكلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، وجد سطورا من الفكرة الدينية.³

و يعتبر من القوى التربوية الرئيسية في المجتمع. فهو المقنن الأول للقيم و للمعايير الأخلاقية فيه، و من هذه الزاوية يعتبر الدين مصدرا هاما و موردا رئيسيا للمحتوى التربوي و الأخلاقي الذي تنشئ المجتمعات عليها أبناءها. لذلك فإن جانبا هاما من جوانب الفكر التربوي و ركنا أساسيا من أركان الممارسات التربوية يكون مصدرها الدين . كظاهرة إنسانية . في المجتمع، فالقيم الأخلاقية و القيم الخاصة بالعمل و النشاط و القيم الاجتماعية المرتبطة بالأسرة و بالعلاقات الاجتماعية المختلفة تصاغ بشكل ما في إطار الدين. بهذا الشأن يقول ابن نبي: " لقد أظهر علم الآثار دائما . من بين الأطلال التي كشف عنها . بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيّا كانت تلك الشعائر؛ و لقد سارت هندسة البناء

¹ . إبراهيم عاصي، الحقيقة و المال . آخر حوار لمالك بن نبي، ط1، دار عالم الأفكار، بيروت، لبنان، 2003، ص61

² . محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، مرجع سابق، ص 10 .

³ . _____ ، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص 69

من كهوف العبادة في العصر الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة، جنباً مع جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان، بل علومه، فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان أو الكعبة. من هنالك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تجلي المناقشات السياسية في برلماناته. فقوانين الأمم لاهوتية في أساسها، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني فإنه ديني في جوهره".¹

1 . 1 . 1 : التربية كعملية تطبيع اجتماعي: وهو مذهب علماء النفس و الاجتماع المعنيين بنمو الطفل، الذين يرون في التربية عملية " تطبيع اجتماعي " Socialisation " حيث ترمز كلمة التطبيع إلى تلك العملية التي بواسطتها يتعلم الفرد كيف يتكيف وفق جماعته، عن طريق اكتساب السلوك الاجتماعي الذي ترضى عنه تلك الجماعة. و يتفق أصحاب هذا المذهب على القول بأن جميع الأطفال الذين لا تتعرض قابليتهم لتعويق قاس، يشاركون في التفاعل الاجتماعي، بهذه الصورة يكتسبون أنماطاً من السلوك الاجتماعي، و أن العملية المعروفة بالتطبيع هي من حيث الجوهر عملية تعلم.²

إذا كان النقل الثقافي ضرورة اجتماعية لاستمرار المجتمع كمنجز إنساني، فالتربية هي الوسيلة هذا النقل كعملية يستطيع بها الأفراد أن يكتسبوا أنماطاً من السلوك تيسر لهم التعامل مع أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه، و بذلك تكون التربية ضرورة اجتماعية لا مناص عنها، و يؤمن بعض الأفراد الكبار في المجتمعات الإنسانية بأن هناك قيماً و أعرافاً و عادات و أنماط سلوكية تحفظ للمجتمع استمراره و استقراره فيعملون على توريثها للأجيال اللاحقة. فالتربية بهذا المعنى تعتبر " عملية تطبيع اجتماعي " تنتقل بموجبها الصفات الإنسانية ذات المكونات الاجتماعية و النفسية لشخصيته عن طريق التربية، و بهذا تكون التربية عملية اجتماعية ضرورية للفرد كما هي ضرورية للمجتمع على حد سواء.

1 . 1 . 1 : التربية كعملية اكتساب خبرات: يولد الإنسان فرداً قابلاً و محتاجاً للانتماء إلى الجماعة الإنسانية من أجل التكيف و الاندماج من جهة، و من جهة ثانية لما تعود عليه من فائدة من خلال عملية الانضمام إلى جماعة تقبله من أجل استقراره النفسي،

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 70

2 . محمد جواد رضا، العرب و التربية و الحضارة . الاختيار الصعب . ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1993، ص 28

و اكتساب القيم و الاتجاهات التي تؤهله إلى الانتماء إليها كعضو فاعلا فيها بغية بناء المجتمع و تماسكه. و لا يمكن أن يكون هناك بناء متكامل و تماسك و شيح يربط أعضاء المجتمع الواحد إلا إذا كان هناك قدرا كبيرا من القواسم المشتركة بين الأفراد و الجماعات، و فتقوم عملية الانتماء على اكتساب خبرات متشابهة بين أفراد الجماعة جميعا، و لكي تحقق التربية انتماء الطفل إلى جماعته الصغيرة، و هي الأسرة ثم إلى جماعته الكبرى و هي المجتمع، تعمل على اكتسابه الخبرات المختلفة التي تمده بالأمن و الطمأنينة و التي تتشابه مع غيرها مما يكتسبه الأفراد الآخرون.

1 . 1 . 10: التربية كوسيلة للضبط الاجتماعي: الضبط نظام كوني تنتظم به العلاقات وتتحدد في ضوءه الأدوار. ويشير مفهوم الضبط الاجتماعي من وجهة نظر المنظومة الاجتماعية إلى مختلف القوى التي يمارسها المجتمع للتأثير على أفرادها ويستعين بها على حماية مقوماته والحفاظ على قيمه ومواصفاته، ويقاوم بها عوامل الانحراف ومظاهر العصيان والتمرد، فينطوي مفهوم الضبط على تقرير العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعي، وعلى كيفية تقبل الأفراد وفئات المجتمع للطرق والأساليب التي يتم بها الضبط.¹ و تهدف التربية إلى تحقيق نوعا من السيطرة الاجتماعية من خلال فرض نظاما من القيم و الأعراف و الرموز و أنماط السلوك التي يمارسها الكبار للسيطرة على البيئة عن طريق فرض القيم و على استقرارها و بقائها، و لا يتأتى ذلك . السيطرة على المجتمع . إلا باكتساب الصغار لهذه القيم و الأنماط السلوكية و توجيههم صوب الوجهة التي يريدها الكبار.

و ذهب في ذلك نظرية الضبط الذاتي . التي قال بها (كولي) . على أهمية الضبط الذاتي، القائم على عنصر مهم في واقع المجتمع هو الحياة الروحية المتمثلة بمجموعة من الرموز والأنماط السلوكية الجمعية والقيم والمثل الموجهة للعملية الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي.²

فالحرية كسلوك اجتماعي لا يمكن لها أن تكون مطلقة إلا إذا كانت تنتشد الفوضى داخل التنظيم الاجتماعي، فكل الديانات السماوية جاءت لترويض حالة التوتر و الطاقة الحيوية

¹ . محمد صفوح الأخرس، نموذج إستراتيجية الضبط الاجتماعي في الدول العربية، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى، الرياض، 1997، ص19.

² . خالد عبد الرحمن السالم، الضبط الاجتماعي والتماسك الأسري، الطبعة الأولى، 2000، ص68.

لدى الإنسان، وجعلها ميزة من ميزات الحضارة، لذا فقيمة الحرية . كقيمة تربوية . التي أولاها إياها الدين جاءت لتوازن الحرية الفردية بين حدود عمل المجتمع، و مقتضيات الحرية الخاصة بهذا المجتمع. هذه المبادئ يجب أن ترسخ في نفس الفرد، و تعلمه كيف ينخرط بحريته و نشاطه الفردي داخل حرية المجتمع و النشاط المشترك بين أعضائه، و يمكن لهذه لحرية بلاد أن تتأسس على هكذا تقييد للحرية الفردية، ثم يبقى للدولة أن تختار أي نوع من الضبط و الإكراه الحكومي الذي يقدم مصلحة الدولة عن الجميع.¹

11.1.1 : التربية كعملية تحضر: و ليس المدنية مجموعة من المنشآت و المباني و الطرق فحسب، كما أنها ليست مجرد تجمع من البشر في مكان جغرافي واحد، لكن المدنية عبارة عن تفاعل حقيقي بين الإنسان و الإنسان، بين الإنسان و المكان، و لا يتم هذا التفاعل في فراغ ، بل تحكمه أطر فكرية و تكنولوجية تعبر عن صيرورة تاريخية لذلك المجتمع و هذا المكان.²

يؤكد مالك على ارتباط التربية بالتحضر كسلوك اجتماعي، و كمنهج تربوي قابلا للتطبيق و الممارسة يهدف إلى تجسيد معاني التحضر يتأسس على فلسفة أخلاقية تربوية، فالتربية ليست مجموعة من القواعد و المفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، و عالم الأفكار، و عالم الأشياء. بل هي: " وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان، و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، و كيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، و كيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ".³

إن التطبيق حقيقة الثقافة على الواقع لتنبئ عن الولادة الميتة و الكلمات الجوفاء الفارغة الرنانة، و لتضطلع بوظيفتها التغييرية كان لا بد أن لا نستعين بقاموس في اليد، و لكن عن طريق الاستعانة برأس مستقر بين اليدين. إن الثقافة . يضيف مالك . تحتوي بصفة عامة عددا من الفصول هي: الأخلاق و الجمال و المنطق العملي، و الصناعة الفنية. لكن الأمر يقتضينا أن نتساءل: كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان

¹ . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 110 .

² . منظمة المدن العربية، ندوة: المدن العربية خصائصها و تراثها الحضاري الإسلامي، من 1981/02/28 إلى 1981/03/05، ص 17 .

³ . _____ ، المرجع سابق، ص ، 100

الذي لم يتحضر بعد، في ظروف نفسية زمنية معينة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية، و في مستوى أهداف الإنسانية.¹

1.1.12 : التربية كنمو للفرد: بمعنى أن الإنسان يولد ضعيفا من الناحية المورفولوجية و النفسية الاجتماعية ، فتعمل التربية على تنمية الجانبين، و العناية بهما عن طريق التفاعل معهم، و يعتمد هذا التعامل على عدم نضج الطفل، و مرونته مما يجعل الآباء يستغلون هذه المرحلة للوصول به الى النضج من الناحيتين الجسمية و الاجتماعية . فالنمو عملية مستمرة و متزايدة تتجه إلى تحقيق هدف معين و هو الوصول بالطفل إلى فرد بالغ قادرا على التعامل و التكيف و التفاعل مع البيئة الاجتماعية و المادية.

و إذا كان هدف التربية عند أوجيست كونت **Auguste Comte** هو " تحقيق صورة الكمال الممكن عند الفرد الإنساني" و تأخذ كلمة "كمال" عملية نمو متكاملة للملكات الإنسانية، و تنمية هذه الملكات و القوى التي توجد في داخلنا بشكل متوازن إلى حدودها القصوى. فقد الإنسان ألا يكون إلا حيوانا من غير الحضارة و الثقافة، و بالتالي فإن التعاون الاجتماعي و التقاليد الاجتماعية هي التي تتيح للإنسان أن يصبح إنسانا. فالأخلاق و اللغات و الأديان و العلوم هي أعمال جمعية و أشياء اجتماعية. فالأخلاق هي التي تشكل في الإنسان إرادته الداخلية، التي تتجاوز به حدود الرغبة؛ و اللغة هي التي تعطيه إمكانية تجاوز النزعة الحسية الخالصة و تنتقل به إلى مستوى التفكير. و في أحضان الأديان بادئ بدء، ثم في أحضان العلوم، تكونت المفاهيم الأساسية التي أدت إلى خلق التفكير الخاص بالإنسان و الارتقاء به. وبالتالي فإن الكائن الاجتماعي لا يوجد كمعطى أولي في بنية الإنسان الفطرية، بل يعود وجود ذلك الكائن إلى المجتمع الذي كونه و صقله و أودع فيه التقوى الأخلاقية. فالطفل عندما يدخل إلى الحياة، لا يحمل سوى طبيعته الفردية و المجتمع يجد نفسه بالنسبة لكل جيل جديد، أمام صفحة بيضاء، ينبغي له أن يسجل عليها خطوطه من جديد. و هنا يتوجب على التربية أن توجد في كل كائن، يولد من جديد، كائنا آخر قادرا على المشاركة في الحياة الأخلاقية و الاجتماعية. و بناء على ما تقدم فإن دوركايم يقترح تعريفا للتربية و التي هي: " الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم ترشد بعد من أجل الحياة الاجتماعية. و هي تعمل على خلق مجموعة من الحالات الجسدية

¹ . المرجع سابق، ص ، 100 .

و العقلية و الأخلاقية عند الطفل و تنميتها، و هي الحالات التي يتطلبها المجتمع بوصفه كلاً متكاملًا و التي يقضيها الوسط الاجتماعي الخاص الذي يعيش فيه الطفل.¹

1 . 1 . 13: التربية كعملية إدماج اجتماعي: فإذا كان مصطلح التربية عند دوركايم يعطي عدة معاني و دلالات تتصف بطابع الشمول، و يشير إلى التأثيرات التي تمارسها الطبيعة أو الناس على عقولنا. فالطفل يدخل إلى الحياة، و هو لا يحمل سوى طبيعته الفردية، و هكذا فإن المجتمع يجد نفسه دائما في مواجهة أجيال جديدة يتوجب عليه أن يشكلها من جديد أخلاقيا و اجتماعيا. و هو مطالب أن يجعل من الفرد الاجتماعي، الذي يرى النور للمرة الأولى، كائنا اجتماعيا جديدا قادرا على مواكبة الحياة الأخلاقية و الاجتماعية للمجتمع. وهنا تكمن المهمة الكبرى للعملية التربوية و التي يمكن لنا أن نقدر عظمتها و أهميتها. و هي في هذا السياق لا تحاول تنمية الملكات الفردية المسجلة في فطرة الإنسان، أو تسعى إلى تفجير القوى الخفية في داخله، بل تسعى إلى خلق كائن جديد، هو الكائن الاجتماعي.²

إن النظر لفكر مالك بن نبي كنظام اجتماعي قائم بذاته، في شمولية و تكاملية، يهدف في إطار البناء الاجتماعي . العلاقات و التفاعلات الاجتماعية . كان لا بد للفرد يتكيف مع السياقات الاجتماعية و يندمج فيها، ليتأهل للقيام بأدوار اجتماعية تتناسب مع الاستعدادات الفطرية من جهة، و عملية التطبيع الاجتماعي من جهة أخرى، فقد قامت التربية في بداية تكوين المجتمع الإسلامي بإدماج المهاجرين و الأنصار كميثاق يربط بينهم، و كان بذلك شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. إن وحدة المجتمع لا تتمثل في الفرد، و لكن في الفرد المشروط. لقد عرف علم النفس التجريبي الفعل المنعكس الشرطي، حين تناول الأشياء من الناحية الوظيفية لا من ناحية التحليل. و نحن نتناولها هنا من الناحية الاجتماعية. يقول مالك بن نبي: " إن إدماج الفرد في شبكة اجتماعية عملية تنحية، و في الوقت ذاته عملية انتقاء. و تتم هذه العملية

¹ . إميل دوركايم، التربية و المجتمع، مرجع سابق، ص 67.

² . إميل دوركايم، المرجع سابق، ص 70 .

المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم . بواسطة المدرسة . و ذلك ما يسمى تربية¹.

و الإدماج عند مالك بن نبي عملية تأهيل الإنسان ليقوم بمهمة تتناسب مع وضعية أخرى، و هذه العملية لا يمكنها أن تتشكل خارج حدود "الفكرة الدينية" التي تستطيع أن تدمج الفرد و يسجل نشاطه في التاريخ، فذلك هو التكيف الذي يجعل الفرد أهلا لأن يتخذ مكانه، و لأن يقوم بدوره في المجتمع. أي إنا ينبغي أن نحدد العلاقة التي يحتمل أن تكون بين مجموعة من الأفعال المنعكسة المنظمة لسلوك الفرد، و بين شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لمجتمع ما أن يؤدي نشاطه المشترك. فكما أن الفرد و المجتمع . في الظروف العادية . يعملان في الاتجاه نفسه، فإن هناك تبادلا بين الانعكاس الفردي و العلاقة الاجتماعية. و بفضل هذا التبادل ينبغي أن نتوقع تدخل الواقع الديني في الجانب الجديد من المسألة².

1.1.14: التربية كعملية تعلم: إن اقتفاء أثر الماضين و ترسم خطاهم تؤدي إلى تعلم أنماط سلوكية مختلفة ، فالطفل ينتقي من المجتمع الذي يعيش فيه الأفعال و التصرفات النمطية . في إطار المثير و الاستجابة . بمعنى أن الفرد يمر بعملية تعليمية يكتسب نتيجة لها الاستجابات السلوكية المختلفة التي يواجه بها مواقف الحياة المختلفة. على أن هذه المثيرات تختلف من مجتمع إلى مجتمع و تختلف بذلك أيضا الاستجابات التي تترتب عليها، و هكذا تتخذ المثيرات الواحدة منها معاني و مفاهيم مختلفة باختلاف البيئات الاجتماعية أي باختلاف التربية التي تسود هذه المجتمعات.

يقول **جون جاك روسو Jean-Jacques Rousseau** في كتاب (إميل) في معرض حديثه عن التربية و التعلم لدى الطفل: " أن الناس في الحالة الطبيعية سواسية. و مهمتهم المشتركة أن يكونوا رجالا. و أنا لا يعنيني أن يكون مصير تلاميذي الانضمام إلى الجيش أو الكنيسة أو الاشتغال بالقانون. فالطبيعة تندبه قبل كل شيء للحياة الإنسانية. و الحياة هي المهنة التي أن ألقيناها إياها. و حين يتخرج من بين يدي لن يكون قاضيا أو جنديا أو قسيسا، بل سيكون إنسانا قبل كل شيء، بكل ما ينبغي أن يكونه الإنسان، و سيعرف كيف يكونه على الوجه الصحيح و مهما غيرت صروف الأيام من وضعه، فسيكون دائما في موضعه الحق. إن دراستنا الحققة هي دراسة البيئة الإنسانية. و بهذا تكون التربية الحققة

1 . _____ ، ميلاد مجتمع. مرجع سابق. ص ، 67 .

2 . _____ ، المرجع سابق. ص ، 66 .

بالممارسة أكثر مما تكون هي بالتلقين، فالإنسان يبدأ بالتعليم حين يبدأ الحياة. فتربيتنا تبدأ معاً، و معلمنا الأول هو حاضنتنا، و كان الأقدمون يعنون بالتربية التغذية، و لئن قال قائلون أن القابلة تخرج الطفل فترضعه الحاضنة و يؤدبه المؤدب و يتقفه معلم المدرسة، فهذا التفريق ساء استعماله، و ينبغي لخير الطفل أن يتولى قياده مرشد واحد. إن المرء يجب أن يصون طفله، و هذا لا يكفي. بل ينبغي أن نعلمه كيف يصون نفسه حين يضحي رجلاً، و كيف يحتمل ضربات القدر، و كيف يواجه البؤس والنعيم، و كيف يعيش إن اقتضى الأمر في الزمهرير و القيظ... و عبثاً تحتاط حتى لا يهلك. فما من الموت من مفر. إن واجبك أن تعلمه كيف يعيش لا كيف يتحاشى الموت".¹

فإذا كانت الثقافة هي تعلم الحضارة، أي استخدام الملكات الضمير والعقل في عالم الأشخاص، و العلم هو في النهاية نتائج الحضارة، فإن الهدف من التربية هو كيف نعلم الإنسان: كيف يتحضر، وكيف يعيش مع أقرانه، و كيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً، و كيف يكون معهم شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ.²

1 . 1 . 15: التربية كعملية دمج ثقافي: يفهم من التربية على أنها عملية دمج ثقافي (**Enculturation**) أي عملية تكييف واع أو غير واع تتحقق من خلال العملية التعليمية، بحيث يكتسب الإنسان طفلاً كان أو راشداً الكفاية الاجتماعية داخل ثقافته. و قد كان (هيرسكوفتس **Melville J. Herskovits**) مبتكر هذا المفهوم عام 1948 في كتابه " الإنسان و أعماله" و قد عرّف مفهوم "الدمج الثقافي" على النحو التالي: "جوانب عملية التعليم التي تميّز الإنسان من المخلوقات الأخرى، و بواسطته يستطيع أن يكتسب الكفاية الاجتماعية في ثقافته، تلك الجوانب يمكن أن تسمى بالدمج الثقافي، و هو . من حيث الجوهر . عملية تكييف واعية أو غير واعية تمارس ضمن حدود معترف بها من مجموعة التقاليد " و هي عملية مستمرة مدى الحياة.³ و ترتبط التربية عند مالك بن نبي بالمفهوم العملي الثقافة الذي يؤكد

¹ . جون جاك روسو، إميل أو تربية الطفل من المهد إلى اللحد، ترجمة: نظمي لوقا. الشركة العربية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 1995، ص 33.

² . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 100.

³ . محمد رضا جواد، مرجع سابق، ص 27

على أنها " مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، بوصفها رأس مال أوليا في الوسط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه الشخصية ".¹

1 . 2 : العمليات التربوية التفاعلية بين الإنسان و المجتمع:

1 . 2 . 1 : الطاقة الحيوية: التوتر هو حالة نفسية ناتجة عن التفاعل مع الفكرة الدافعة، و يفضي هذا التوتر إلى تحرر الطاقات الكامنة في الأنفس نحو الفاعلية و النشاط، و من خلال هذا التوتر " ينطق الفرد الذي يشعر فجأة بانفجار ذاتي في نفسه، انفجار يطلق طاقته المكبلة فتغير وجه التاريخ"² و مصدر هذا التوتر هو الفكرة الدينية التي رافقت انبعاث الحضارات منذ أمد بعيد " فالدين وحده هو الذي يمنح الإنسان هذه القوة، و بهذه القوة يشعر المسلم على الرغم من فاقتة و عريه الآن بثروته الخالدة.³

إن كل فكرة توضع لمجابهة مشكلة ما، إنما تكتسب مشروعيتها المنهجية حينما يعبر عنها بلغة الفاعلية و الصدق، و تكون مفرغة منها عندما يعبر عنها بلغة العاطفة، و هو التعبير الناتج عن عدم تقديرنا لحوادث التاريخ كأفعال و ردود أفعال بين عوامل اجتماعية و نفسية معينة توجب علينا فحصها بالجهد الدقيق و دراستها دراسة مدققة.⁴ إلى جانب هذا الشرط الجوهرى في تحقيق فاعلية الأفكار، علينا أيضا أن نصح معنى الإنسان في أذهاننا و ذلك بالنظر إليه من قيمتين جوهريتي فيه :

✓ قيمة ثابتة تمثل حقيقته كإنسان و هي قيمة توهب له طبيعته الأولى بما فيها من تكريم و حسن تقويم .

✓ قيمة متغيرة و اجتماعية مكتسبة نتيجة العلائق الاجتماعية في المستوى المعيشي و الأخلاقي و السياسي.

إن عناصر الفاعلية عند مالك بن نبي مرتبطة بالإنتاج الذي يلعب فيه التوتر دور المكثف، و إن كل بناء حضاري يقوم على الطاقة الحيوية، و على الكيفيات الممنهجة في إنفاقها، وعلى مدى تكيفها، مع مرحلة من مراحل ما قبل التحضر لها طاقة حيوية، و لكنها تصرفها تهورا، لأنها تخضعها لمبدأ التكيف و الارتباط و التوجيه، و هذا ما يجعلنا نركّز

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 89.

2 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 138.

3 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 66.

4 . _____ ، حديث في البناء الجديد، ترجمة عمر كامل مسقاوي، (ب ط) المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، (ب س) مرجع سابق، ص 55.

على أهمية و مكانة مقولة التوتر في البناء المجتمعي، لأن التوتر عندما يعتري الإنسان و يغمره فإنه يتحول إلى طاقة و فعالية مكثفة تمكنه من تجاوز طبيعته و من تغييره باستمرار، فيصدر كلامه حينئذ بإرادة، فيتحول إلى فعل يدل على علاقات جدلية بين الكلمات و الحال و المآل. و لعل من المفيد هنا أن أشير إلى أن معضلة الواقع الإسلامي اليوم تكمن في هذه النقطة بالذات، أي في القطيعة بين الكلمة من جهة، و الحال و المآل من جهة أخرى، فالتوتر طاقة فعالة لضمان القوة و النشاط، و هو مقياس نحدّد من خلاله تباين المجتمعات في فعاليتها لأن قوة التوتر وحدها كفيلة باستحداث قانون معادلة و متجاوزة لعلم حركات اليد إلى فاعلية ترتبط بدرجة التوتر، و يمكن أن نقف على شاهد من تاريخ الحضارة الإسلامية، و في تاريخ الجاهلية قبلها، إذ يمكن أن نلاحظ أن الإنتاج الفكري في الجاهلية لم يتجاوز ما يعرف بالمعلقات، و ذلك رغم إمداد هذا التاريخ على مدى أربعة آلاف سنة، في حين أن المجتمع الإسلامي و الذي لم تختلف تركيبته البشرية و المادية إطلاقاً. و عندما إنضاف إليه. في المستوى النفسي و الاجتماعي عنصر التوتر الذي جاء ركيزة أساسية في الإسلام، استطاع أن يؤسس بواعث حضارة متكاملة في مدى لا يتجاوز الخمسين سنة.

و من هنا يمكن أن نصل مع مالك بن نبي إلى رسم القانون الثاني في التأسيس الحضاري، وهو أن الفاعلية الحضارية مشروطة بقوة التوتر و بدرجته، و هذا ما يمكن أن تثبته الاستعدادات التاريخية المقارنة بين مرحلة الجاهلية و مرحلة المجتمع الحضاري الإسلامي.

1 . 2 . 2: توجيه الفاعلية: تندرج فكرة الفاعلية عند بن نبي ضمن منظومة فكرية عامة التي حدّدها في مشكلة الحضارة بأبعادها الشاملة السياسية و الثقافية و الاجتماعية و الاقتصادية و الأخلاقية، فمشكلة الحضارة عنده لا تتجزأ، و أي تجزأ لها يقود إلى طرح المشكلات طرحاً خاطئاً، و من ثم يؤدي إلى تحديد وسائل خاطئة لعلاج، و هكذا يرى مالك بن نبي أن العالم الإسلامي أضاع وقتاً طويلاً و جهداً كبيراً بسبب عدم التحديد المنهجي الصحيح للمرض و ذلك راجع للتجزئة التي عزلت القضايا عن بعضها و نظرت إلى كل مشكلة منفردة.

و قد أراد ابن نبي أن يعيد للأمة فاعليتها التي فقدتها منذ فترة ليست بالقصيرة على مستويات متعددة في الوقت الذي تتقدم فيه الحضارة الغربية و هي لا تملك من مقومات الفاعلية و مصادرها ما تملكه أمة الإسلام. فوجد أن الفاعلية هي إحدى خصائص العقل الغربي، و أن هذا العقل يخضع لمبدأ الفاعلية.¹ و التي لا يمكن النظر إليها بمعزل عن المرحلة الحضارية التي يعيشها الغرب، و لا يمكن فصلها عن إطارها الحيوي، فهي خاصية ناتجة عن نمط الثقافة الغربية التي تركز على القوة و منطق الحسم، كما أنها نتاج معادلة اجتماعية تجعل من حركة الإنسان في التاريخ و مدى تحقيقه لأكثر النتائج على المستوى المادي هي المقياس للفاعلية. و قد توفرت خاصية الفاعلية للإنسان الغربي على المستويين: الفردي و الاجتماعي، و صارت تصبغ كل أفعاله و إنجازاته في إطار التاريخي، كما أنها على المستوى الاجتماعي هي القدرة على توليد ديناميكية اجتماعية من خلال وضع المعادلة الاجتماعية في الحسبان و معرفتها بدقة، و بالتالي الدخول في تخطيط منهجي لا يحتوي خليطاً من الأفكار المتناقضة.² فالفاعلية هي نتاج لتركيب ثقافي معين متحرك في إطار التاريخ، و ليس شيئاً فطرياً مركباً في فطرة الرجل الغربي. و تقوم على مبدأ أساسي و محوري في بناء المشروع الحضاري التربوي و تتمثل في " الفكرة الدينية التي منحها أهمية قصوى، و اعتبرها المركب الضروري للقيم الحضارية و الذي بفضلها يحصل تركيب العناصر الأولية للحضارة."³

فالفكرة الدينية عنده هي أولى البواعث النفسية التي تولد الفاعلية و تحفز الإنسان على النشاط و تشدذ الهمم، و يتجاوز من خلالها الإنسان أسباب الخور و العجز فالدين في فكر مالك هو قانون من قوانين الله تعالى التي فطرت عليها النفس الإنسانية، كما أنه قانون خاص بالفكر الذي يطوف في مدارات مختلفة من الإنسان الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية.⁴ و الدين كظاهرة اجتماعية، يدخل في علاقة تفاعلية بين الوحدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع. و بذلك لا يقتصر مفهوم الدين في نسق من الأفكار الغيبية فحسب، كما لا يقتصرها على الدين السماوي، بل هو عنده قانون يحكم فكر الإنسان و يوجه بصره نحو أفق أوسع و يروض الطاقة الحيوية للإنسان و يجعلها مخصصة للحضارة. و لقد

1 . _____، الفكرة الأفروآسيوية، مرجع سابق، ص 19.

2 . _____، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة و أحمد شعيبو، تقديم كامل مسقاوي، دار الفكر، 2000، ص 115.

3 . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 59.

4 . _____، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص 59 .

أظهر علم الآثار دائماً . من بين الأطلال التي كشف عنها . بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائر الدينية، أيا كانت تلك الشعائر؛ و لقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان، بل علومه فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان أو الكعبة. و من هنالك كانتا تشرق هذه الحضارات لكي تتير العالم، و تزدهر جامعاته و معامله، بل لكي يجلي المناقشات السياسية في برلماناته، فقوانين الأمم لاهوتية في أساسها، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني فإنه ديني في جوهره، و لاسيما في فرنسا فقد اشتق من الشريعة الإسلامية.¹

و يرجع مالك إلى التاريخ ليمحص هذه الفكرة، ليجد أن الدين ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية ليس هذا فحسب، بل أنه كان من وراء كل المنجزات البشرية. و هذا القانون الدافع للحضارة نجده في الحضارتين الإسلامية و الغربية فقط، بل يتعداه إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ البشرية. و تركز الفاعلية عند ابن نبي على دعامتين أساسيتين هما:

أولاً: الإنسان: إذ يعتبر الإنسان هو محور الفاعلية الحضارية، فالإنسان يجب أن يشرب و يأكل و ينسل و يملك، و يكافح من أجل استمرار النوع. و لكنه يجب أن يراقب هذه الأعمال الأولية جميعها، و أن يوجهها لغايات تتفق و تقدم النوع. و بهذه الطريقة يشترك واقعياً في عمل الله عز و جل، و مع ذلك فهو محكوم . إذا ما نظرنا إلى الأمر من الوجهة الدينية . تبعا لهذا الاشتراك المنوط بتكليفه الديني، أعني تبعا لخضوعه لقانون التقدم الأخلاقي، فإذا ما حملته طبيعته على العمل فإن ضميره هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخياً و أخلاقياً.²

إن قيام الحضارة مرتبط بإرادة الإنسان الحضارية، و هذه لا تتأتى و تتولد في نفسية الإنسان إلا إذا تشرب عقيدته و آمن بها، فنفسية الفرد في المجتمعات التاريخية على الأقل مفعمة بالنزعة الدينية، تلك التي تعد جزء من طبيعته، و هو ما جعل علم الاجتماع يعرف

1 . _____، المرجع سابق، ص 69.

2 . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 70.

الإنسان: إنه (حيوان ديني)، و هو بذلك يحدد جانبا من الأساس النفسي العام في أفراد النوع، و كل فرد يبني شخصيته الخاصة على هذا الأساس.¹

ثانيا: التوتر: و تنتج الفاعلية عن خاصية يطلق عليها بحالة التوتر و لا يعمل التفاعل بين التراب و الزمن و الإنسان إلا إذا تفاعل معها العامل النفسي الموسوم بالتوتر أي توتر أخلاقي و اقتصادي و علمي و نفسي، و هو حالة نفسية اجتماعية دل التاريخ على أنها تنشأ في ظروف معينة، تكون فيها المبررات التي تكوّن الدوافع النفسية التي تدفع النشاط إلى أعلى قمته.² و يظهر لنا من وجهة علم النفس أن العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد. ثم في تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف (الأنا) الفرد، ثم في توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع، تبعا للنشاط الذي يؤديه المجتمع في التاريخ.³

و لتحقيق الفعالية النهضوية للإنسان يقترح مالك بن نبي فكرة "التوجيه"، و يعود إلى مشكلة الفرد و توجيهه فيقول أنه يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات: بفكرة و عمله و ماله، و من هنا يجب أن يوجد توجيه للثقافة و توجيه للعمل و توجيه لرأس المال. و التوجيه عند مالك بن نبي قوة في الأساس و توافق في السير و وحدة في الهدف، فكم من طاقات و قوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، و كم طاقات و قوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن نفس المصدر متجهة إلى نفس الهدف، فالتوجيه هو إدارة ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية و الإنتاجية المناسبة لكل واحد من هذه الملايين، و في هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية، و بلغة علم الاجتماع: الذي يكسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) و معنى (الكفاح).

1 . 2 . 3: الذوق الجمالي: يركز مالك بن نبي في كثير من كتاباته على أن الجانب الجمالي لا يتأتى بكثرة المواد و بتنوعها، و إنما هو عملية عقلية سليمة و توظيف الوسائل المتاحة على قلتها بمهارة، و يستشهد بذلك بأمثلة كانت تحضر في ذهنه باستمرار خاصة الزوجين في الريف الفرنسي حين قال: "إنها تصنع بيدها آيات من الذوق ببعض الخشب

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 69.

2 . _____ ، تأملات ، مرجع سابق، ص 34.

3 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 72.

و بعض قماش مزركش من نوع كريتون الرخيص جدا" ¹ ثم يبين كيف أثر ذلك في حياته و سلوكه و تصرفاته، إنني أذكر هذه التفاصيل أنني أعتبرها دالة على التطور النفسي الذي سيجعلني أشد الناس نفورا لكل ما يسيء لذوق الجمال، و لأنها تفسر ثورتي على بعض جوانب تخلفنا. ²

إن التدليل على أهمية الذوق الجمالي، و على كل ما يثير الاشمئزاز في النفس البشرية، و هذه الثورة على تخلفنا في الرؤية الجمالية تفسر لنا إصرار مالك بن نبي على اعتبار موضوع الجمال عنصرا أساسيا في صياغة مفهوم الثقافة و في بناء الحضارة التي هي تعبير صريح عن رقي الإنسان و تقدمه و تطوره. إذ يشير في تعريفه للثقافة كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقى و الدستور الجمالي الخاص بالمجتمع. ³ و هكذا نرى تأكيده . في بناء الإنسان . على التطور النفسي الناتج عن تذوقه للجمال كإحدى القيم الأساسية في الرقي و التحضر، و يقترح أن يكون كل برنامج تربوي " يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد في ظروف معينة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية و في مستوى الأهداف الإنسانية، أن يحتوي على الأخلاق و الجمال و المنطق العملي و الصناعة الفنية. ⁴ و يضيف مالك بن نبي توضيحا و تدقيقا للذوق الجمالي كواحد من مكونات الرقي الاجتماعي و الحضاري فيقول: " بالذوق الجمالي الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، و توخيا للكرام من العادات. و لاشك أن للجمال أهمية اجتماعية إذا ما اعتبرناه المنبع الذي تتبع منه الأفكار و تصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع". ⁵

1 . 2 . 4: الحق و الواجب: تعكس فكرة الحق و الواجب عند ابن نبي قمة الاندماج بين الفرد و المجتمع و التماهي فيه، في شتى المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و هي نقطة البداية التي يكتب فيها المجتمع المتخلف حضوره في مشهد التاريخ، لأن الحقوق . و أن بدت بسيطة . فهي أولى خطوات الاندماج، فالتاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة، الواجبات الخاصة بكل

1 . _____ ، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص105.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص105.

3 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص45.

4 . _____ ، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص95.

5 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص135

يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعقده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء و شعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبرى.¹ و قد أكد في أكثر من موضع أن الواجبات تعلق فوق الحقوق، و بيّن أن أداء المسؤولية الاجتماعية يجب أن يتقدم المطالبة بالحق، فيقول مالك بن نبي: " الحق العلاقة بين الحق و الباطل هي علاقة تكوينية تفس لنا نشأة الحق ذاته، تلك التي لا يمكن أن نتصورها منفصلة عن الواجب، و هو يعد في الواقع (أول عمل قام به الإنسان في التاريخ). فالسياسة التي لا تحدّث الشعب عن واجباته، و تكفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه، ليست سياسة، و إنما هي (خرافة)، أو هي تلصص في الظلام، و ليس من مهمتنا أن نعلم الشعب كلمات و شعارات، بل نعلمه مناهجا و فنونا.²

و يندمج الإنسان في شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال تمثل الفرد لواجباته و ما يمليه عليه ضميره، فتفكك العلاقات الاجتماعية هو إذانا لهلاك المجتمع، فأول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة علاقاته الاجتماعية، و على هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. و من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين. و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي صلى الله عليه و سلم، و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقاته الاجتماعية حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاثة: (عالم الأشخاص، عالم الأشياء، عالم الأفكار). فالمجتمع الإسلامي الفتى . ممثلا في الأنصار . كان أول عمل يقوم هو واجباته اتجاه المهاجرين ليضرب مثلا ناصعا في الأخوة، و يؤسس من خلال واجباته أرقى صور التضامن بل بناء المجتمع الذي تأسس في المدينة.

فالمطالبة بالحقوق تنفي مسيرة الواجب و تجعله تابعا لا متبوعا، و خاصة في المجال السياسي، و ما استجلبناه من مصر (الفاروقية) من الأسطوانات و الأشرطة السينمائية المجافية للفن و الأخلاق، فإننا قد استجلبنا منها أيضا أساسا لسياستنا تقوم على الأفكار

1 . _____ ، في مهبط المعركة، مرجع سابق، ص78.

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص143.

تضلل العقول البسيطة، كان لها أسوأ تأثير في حياتنا، حيث اتخذتها (الدروشة السياسية) شعارا لها و مبدأ، و كررتها على مسمع من الشعب الذي رددها معها سنين طويلة صباح مساء: "إن الحقوق تؤخذ و لا تعطى" لحاها الله من كلمة تطرب و تغري، فالحق ليس هدية تُعطى و لا غنيمة تُغتصب، و إنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، و الشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي.¹

و يواصل تحليله لفكرة الحق و الواجب: "خلق مجتمع ما بعد الموحدين كائنا على صورة "الأميبيا": كائنا مُتبطلاً يتسكع، حتى إذا رأى فريسة هينة أبرز إليها ما يُشبهه "اليد" ليقنصها، ثم يهضمها في هدوء. ولقد شاعت المصادفة أن تُمدّه بفرائس أشبعت حاجاته المتواضعة، فدرج على هذا النحو خلال قرون خلت اتكل فيها على عناية السماء لترزقه، حتى إذا جاء الاستعمار اختطف منه ما كان يطعم، حتى لم يدع له شيئاً يتبّلغ به، وكان من نتيجة ذلك أن تحرّك ضميره الأميبي، أعني معدته، فمدّشبه اليد" إلى فريسة وهمية أطلق عليها لفظة الحق".² ويتابع: "لسنا بحاجة إلى نظرية تهتم (بالحق) على حدا، أو (بالواجب) على حدا، فإنّ الواقع الاجتماعي لا يفصلهما، بل يقرنهما ويربط بينهما في صورة منطقية أساسية، هي التي تُسيّر ركب التاريخ. و مع ذلك فينبغي ألا يغيب عن نظرنا أنّ (الواجب) يجب أن يتفوق على (الحق) في تطوّر صاعد، إذ يتحتم أن يكون لدينا دائما محصول وافر. أو بلغة الاقتصاد السياسي (فائض قيمة) هذا (الواجب الفائض) هو أمانة التقدّم الخلفي والمادي في كلّ مجتمع يشقّ طريقه إلى المجد. وبناء على ذلك يمكننا القول بأنّ كلّ سياسة تقوم على طلب (الحقوق) ليست إلا ضرباً من الهرج والفوضى). و تقوم التربية في تكريس الواجب بدل الحق و ذلك من خلال المجالات التالية:

✓ تنمية الشعور بالواجب كقيمة أخلاقية على مختلف الأصعدة، و بالعمل على محو العادات و الأفكار التي تتجه للمطالبة بالحق قبل الواجب، و بترسيخ أولوية تقديم الواجب على المطالبة بالحق.

✓ العمل على تثقيف طرائق التفكير و العمل و النشاط و محو كل الخرافات، و عوامل كف النشاط و الفاعلية، و تحرير الحقوق من الانسياق وراء منطق السهولة، الذي يستسيغ نغمة الحقوق و ينسى الواجبات.

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص35.

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي ، مرجع سابق، ص160.

✓ التأكيد على أن أداء الواجب أعظم أثراً من نتائجه من تقديم المطالبة بالحق، و العمل على تكوين الوعي الشعبي و الإيمان القومي في هذا السبيل.¹

1 . 2 . 5 : شبكة العلاقات الاجتماعية: يكتسي مفهوم شبكة العلاقات الاجتماعية بعدا محورا في تحليل فكر مالك بن نبي الحضاري، و دوره في استقرار المجتمع و تطوره و تماسكه، و يقدم طرحا غنيا متعدد الأوجه لمفهوم شبكة العلاقات الاجتماعية، و يتدرج هذا الطرح من العمومية و التجريد إلى التخصيص و التحديد، و يمكن أن نفهم شبكة العلاقات الاجتماعية كصيغة جينية مغروزة في كينونة المجتمع و يتم عكسه عمليا على شكل علاقات و روابط، و بعبارة مالك (صفات ذاتية) للمجتمع تضمن استقراره و تحفظ شخصيته و دوره عبر التاريخ، و يتجسد الأمر " في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، و توجه ألوان نشاطهم المختلفة اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به".² و تكمن محورية شبكة العلاقات الاجتماعية في أنها تشكل القاعدة التي تمكن مصادر الفعل الإنساني الثلاثة من العمل والتأثير في "صناعة التاريخ" و في أنها تتشكل من تأثير عوامل ثلاثة : عالم الأشخاص، عالم الأشياء، و عالم الأفكار، التي لا تعمل متفرقة بل يسيّرهما و يفعل عملها عالم رابع هو شبكة العلاقات الاجتماعية. ففاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص و الأفكار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. و كلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أوثق ، كان العمل فعالا و مؤثرا.³

و ترتبط شبكة العلاقات الاجتماعية بالفكرة الدينية أينما ارتباط، و تكمن مهمة هذه الأخيرة في ربط الأفراد بعضهم ببعض، و يؤكد مالك بن نبي أن العلاقة الروحية بين الله و الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، و هذه بدورها تربط ما بين الإنسان و أخيه الإنسان بحيث يصبح صورة المجتمع بعض ما يوحي به قول رسول (الله صلى الله عليه و سلم): " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا".⁴ و هذه الفكرة الدينية التي تصنع شبكة علاقات اجتماعية متينة بين أفراد المجتمع تجعل المجتمع يؤدي نشاطه المشترك بكل فعالية و يربط بذلك أهداف السماء بضرورات الأرض، و عبادة الله التي خلق

¹ . عبد اللطيف عبادة، فقه في التغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، 192 .

² . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص12.

³ . _____ ، المرجع سابق، ص38

⁴ . _____ ، المرجع سابق، ص52.

الناس من أجلها. و هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهرى للكيان الاجتماعى، إذ هو الذى يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن و يتيح له أن يواجه له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذى يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية التى تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، و توجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به. فتكوّن هذه الشبكة و لو في مرحلة ابتدائية هو الذى يعبر عن حدث (ميلاد مجتمع) في التاريخ.¹ أما إذا كانت العلاقة بين الإنسان و المجتمع مريضة فهذا يعنى أن شبكة العلاقات الاجتماعية لم تكن لتؤدي دورها في نفسية الإنسان أولا ، ثم في صياغة مكونات الإنسان الأول المنوط بالحضارة، فقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة علاقاته الاجتماعية مريضة، و يتجلى هذا المرض الاجتماعى في العلاقات في العلاقات بين الأفراد. و أكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعى لصالح الفردية، عندما يختفي (الشخص) أو خاصة عندما يسترد (الفرد) استقلاله و سلطته في داخل الجسد الاجتماعى.²

2 . أهداف التربية عند مالك بن نبي :

2 . 1: أهداف دينية و روحية: تتمثل في إعداد الإنسان المؤمن و تدعم القيم الروحية و الدينية في الإنسان، و هي جملة من الصفات و المتغيرات التى يجب تنميتها من أجل بناء كيان إنسانى قادر على الانخراط في منظومة أخلاقية و اجتماعية تهدف إلى إخراج الفرد من صفاته الوراثية إلى شخص مكيف منوط بعملية التحضر تبعد به عن عوالم القابلية للاستعمار ومن جملة هذه المتغيرات نذكر:

2 . 1 . 1: النمو الكامل للفرد: حين ينبج الرجل أبناءه و ينفق عليهم ليغذوهم، فما يقوم بهذا إلاّ بثلاث واجبه نحوهم. لأنه مسؤول أن يقدم لنوعه رجالا، و أن يقدم لمجتمعه أعضاء اجتماعيين فيه، و أن يقدم لدولته مواطنين، و أيما رجل قادر على الوفاء بهذا الدين الثلاثي و تقاعس عنه ، فهو مذنب و مقصر.³ تهدف التربية إلى تكوين الإنسان الكامل المثالي الذى تجسدت فيه قيم الحضارة، أو إنسان الحضارة، من خلال التغيير الإرادى النفسى، لذا

¹ . _____ ، المرجع سابق، ص14.

² . _____ ، المرجع سابق، ص43.

³ . جون جاك روسو، إميل تربية الطفل من المهد إلى اللحد، مرجع سابق، ص43.

فالمسلم لا يستطيع أن يغير ما حوله إن لم يغير أولاً ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانوناً إنسانياً وضعه الله عز وجل في القرآن، سنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر.¹

إن الإنسان الكامل في الحضارات الماضية كان يتشكل وفق منظومة حياتية تجعل منه بيدقا في يد من صنعه ليحقق في النهاية أغراض الحاكم في الدفاع عن الرعية و الحكم، بينما الإنسان الذي كان يراه هو شرطا ضروريا لقيام الحضارة و سببا و هدفا لها إن تغيير ما بنفس الفرد، هو الشرط الجوهري لكل تحول اجتماعي.²

إن النمو الكامل للفرد لا يتأتى إلا إذا تخلى عن فوضاه، و تطلع إلى النظام و التنظيم، دخل إلى الحياة المنتجة غير القابلة للاستعمار وتفسير ذلك في الإطار الاجتماعي: أم مجتمع ما بعد الموحدين يسعى نحو مرحلة من الحضارة تتسم بتركيب أصيل لعبقريته الإسلامية الخالصة مع العبقرية "الحديثة".

و يستمد المشروع التربوي مشروعيته الأخلاقية و الاجتماعية من خلال عملية تربية الفرد على الكمال ليضطلع بمهامه الحضارية، و لكي يضطلع بهاته المهام ينبغي أن نعرف أنفسنا، و ذلك أمر لا يتيسر لقادة العالم الإسلامي، إلا إذا ما قاموا بعملية استبطان دقيق لذواتهم ، وإختبار قاس لضمايرهم ... فكذلك الحال إذا ما أردنا أن نعرف الإنسان من حيث كونه "محركا" للحياة الاجتماعية، فالشروط هي الشروط، في الإطار الإنساني، فيلزمنا قدر كبير من الدرس الواعي، فهو وحده الكفيل بالكشف عن العلاقات الخاصة التي تمثل التماسك داخل الشخصية الإنسانية في حركتها و في نشاطها.³

2 . 1 . 2 : من تكوين المواطن الصالح إلى تكوين الإنسان الصالح: إذا كانت التربية الحديثة تعدّ الطلاب للحياة الاجتماعية و إلى أن تخلق لديهم روح العمل الجماعي المشترك، فقد تضمنت التربية الحديثة من ضمن أهدافها بأن نعدّ مواطن الغد و أن نبدأ بالتالي بأن ندنيه من المجتمع الذي عليه أن يدخله. و قد قرر الفيلسوف الألماني يوهان جوتليب "فيخته **Johann Gottlieb Fichte** " ضرورة قيام تربية قومية تساعد على بعث الأمة الألمانية. و من هنا دعا إلى تربية عامة مشتركة بين جميع أبناء الشعب، رغبة منه في

1 . _____ ، دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، مرجع سابق، ص58.

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص33.

3 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 143.

محاربة الأنانية التي تشجع عليها الحياة في الأسرة. كما ذهب إلى ذلك مواطنه الفيلسوف "إمانيول كانط Imanial kant" الذي دعا إلى تكوين المواطن الصالح من خلال المدارس العمومية و ليست الخاصة. و تنطلق التربية عنده من المساواة في التعليم، و يرى أن الضبط الذي يتولد عنه الخضوع و بذل الجهد هو النواة المركزية للتربية .

هذا بالنسبة لبعض النماذج الغربية التي تكلمت عن تكوين المواطن الصالح، إما في المنظومة الإسلامية قد كان اجتهادا مغايرا، فقد ركزت على المدارس الخاصة و رأت فيها أن ما تقدمه للفرد في بداية حياته على أساس ديني عقدي يكون هو اللبنة الأولى في تشكيل نفسية و بناء شخصية الفرد المواطن. فإذا كان الهدف من خلق الإنسان هو عبادة الله و التعمير في الأرض، فإن من أسبابها هو الإصلاح و الإخلاص للوطن و الذود عن كيانه و التضحية من أجله بالمال و الروح، و أن يتصف بالتقوى والصدق و الأمانة وغير ذلك من الصفات الحميدة. فمنهج التربية في الإسلام ينمي الإنسان . لا المواطن . الصالح الذي يستطيع أن يعيش في كل مكان... و ليس فقط المواطن المحصور في حدود (المواطنة الضيقة)، و تربية الإنسان ليس فيها بالطبع إغفال تربية المواطن و لكنها أشمل و أكمل، فالحقيقة أنه لا خوف أبدا على المواطن من الإنسان، و لكن الخوف كل الخوف على الإنسان من المواطن الذي انحصر فكره و انتماؤه و سلوكه داخل حدود جغرافية لوطنه. لذا نجد أن هدف الفكر الإسلامي هو تكوين و إعداد (الإنسان الصالح) بدل (المواطن الصالح)، الإنسان على إطلاقه بمعناه الإنسان الشامل، الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه، الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو مواطن في هذه البقعة من الأرض أو في ذلك المكان.¹ فهذا العلامة "ابن خلدون" يصف مجتمع تسوده روح الإيثار و تترسخ جذوره حينما يهب أفراده لمساعدة بعضهم البعض، مجتمع تتعزز وحدته بهويته الإسلامية التي تشجع روح المحاسبة والمسؤولية، مجتمع مدني يسعى نحو تشجيع المزيد من الانخراط في العمل المدني ويعمل على ترسيخه عن طريق المشاركة الجماعية الفاعلة.

إن التربية في منظوره باعتبارها عملية إعداد للإنسان الصالح الذي يستطيع التكيف مع مجتمعه تعمل على تشكيل الشخصية الإنسانية في أدوار سياسية و اجتماعية واقتصادية، لذا لا بد من أن يحدد الإطار الثقافي الذي يقوم عليه المجتمع أبعاد العملية التربوية واتجاهاتها، بحيث لا تخرج التربية عن هذا الإطار إلا تطورا له ، وتقدما به في

¹ . علي أحمد مدكور، منهج التربية في التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص 45.

عملية زيادة آخذة بيد المجتمع نحو مستوى أفضل وعلى هذا الأساس فإن القيم الاجتماعية تحتل مركزاً أساسياً في توجيه العملية التربوية ، فالقيم هي نتاج المجتمع ولها من الموضوعية ما يجعلها تؤثر في السلوك فتعمل على توجيهه بما يتفق مع السلوكيات الإيجابية في المجتمع. و هي التي تمثل مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحي مع التوافق مع أعضائه ، وهي قيم إيجابية كلف الله الناس التحلي بها والتمسك بمقتضياتها.

و يعزي الكثير من الباحثين إلى أن تكوين المواطن الصالح تتضافر في تنشئته المؤسسات العمومية و الخاصة، الأسرة تهيبُّ الطفل ليكون مواطناً صالحاً ثم سرعان ما يتحول إلى المدرسة الابتدائية ثم مرحلة التعليم المتوسط التي يتلقى فيها قوانين السلوك والحياة الاجتماعية ثم يمر لتكوين شخصيته في المرحلة الثانوية.

و يرجع مالك تكوين المواطن الصالح إلى الأمم التي تبدأ بتربية ابنها في الأسرة، و تعده ليندمج في المجتمع ليكون عضواً في شبكة العلاقات الاجتماعية، فيندمج معهم و يكون شخصيته، بالنسبة إلى مجتمع تاريخي، فإن دفاعه عن أسلوب حياته، هو دفاع عن شخصيته، و عن مبدأ إدماج أفراد في نطاقه. و تحديد علاقاتهم به بحيث يصبحون بمثابة التعريف به، كما يصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فالإرغام الاجتماعي، و الموقف النقدي للفرد . سواء كان هذا الفرد وعضواً في جمعية إرشاد أو صحفياً في جريدة أسبوعية أو شاعراً هزلياً أو فنانياً مهتماً بالجماليات أو ناقداً أدبياً أو ناقداً سياسياً أو قاضياً عدلياً . هما المظهران الأساسيان لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية.¹

و لتعزيز تضامن البناء الاجتماعي، فإننا المجتمع في حاجة إلى التبكير في تشجيع المشاركة الإيجابية (بمعنى الانتماء) في تنمية المجتمع، ومن الضروري أن تغرس في أذهان أفراد المجتمع بأن صيانة مجتمعاتنا ليست مسؤولية الدولة وحدها أو أي جهاز من أجهزتها ولكنها مسؤولية تقع على عاتق كل واحد منا، كما أن علينا ترسيخ فكرة أن المواطنة لا تعني فقط الأخذ من الدولة ولكنها تعني كذلك العطاء للمجتمع. و تتحول الثقافة داخل المجتمع إلى سلوك اجتماعي يدافع عنه الأفراد، فالثقافة . بما تتضمنه من فكرة دينية نظمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدن آدم . لا يسوغ أن نعد علماء يتعلمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، يغذي الحضارة في أحشائه؛ فهي الوسط الذي

1 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 84.

تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، و تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بما في ذلك الحداد و الفنان و الراعي و العالم و الإمام و هكذا يتركب التاريخ.¹ إن مهمة تربية الإنسان الصالح مسؤولية تلقى على عاتق الجميع فهي . كواجب وطني . ، يجب أن تسهم جميع القوى الاجتماعية في بنائه، فالأم التي تؤدي هذا الواجب هي مواطنة صالحة، وكذا الأب الذي يربى أبناءه ويحسن تربيتهم وبعدهم عدداً صالحاً للحياة هو أيضاً إنسان صالح، وأفراد الأسرة جميعهم الذين يحرصون على حب الخير والمبادئ السامية والفضلية والخلق الحسن وتعاليم الإسلام هم مواطنون صالحون.

2 . 1 . 3: تصفية التراث من الرواسب: لا يمكن للإنسان أن يواصل في تأدية مهامها التربوية دون أعمال عملية النقد في ترسبات الماضي القديم والحاضر الجديد، خاصة فيما يتعلق بقضية التراث الذي تزخر بها الثقافة العربية الإسلامية، فقد كرس إنسان ما بعد الموحدين سلوكات سلبية فردية كالذرية و التزمت، النزوع إلى المديح، وأخرى جماعية كالجدل و الحرفية والتحليق في الخيال، و التثبث بأذيال الماضي الشيء الذي أثقل كاهل الإنسان المسلم تحت أوزار قرون من العادات و المتخلفة المتراكمة. إن القراءة المتأنية للتراث لمحاولة استلهاهم القيم التربوية والمجتمعية و غريلة الموروث الثقافي.

إذا كان التراث . في مفهوم حسن حنفي . هو نقطة البداية كمسؤولية ثقافية و قومية، و التجديد هو إعادة تفسير التراث طبقاً لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد. و الأصالة أساس المعاصرة، و الوسيلة تؤدي إلى الغاية . التراث هو الوسيلة و التجديد هو الغاية و هي المساهمة في تطوير الواقع، و حل مشكلاته، و القضاء على أسباب معوقاته، و فتح مغاليقه التي تمنع أي محاولة لتطويره.² فإن مالك أولى لقراءة التراث و كل ما يتصل (بالثقافة) موروثه نريد تصفيتها، بميلاد المجتمع الجديد كان بظهور الفكرة الدينية التي أرسدت دعائم البناء و شددت أواصر الأفراد في إطار شبكة علاقات اجتماعية متينة، لكن هذا المجتمع البدائي فيه من الأخلاق و الحلم و الأناة و الفروسية ما أنتخبه لكون حامل الرسالة الجديدة للبشرية، وفي تفسير حديث جئت لأتمم مكارم الأخلاق دليل على وجودها من قبل، و إنما فيها بعض النقائص و هي في حاجة إلى تكملة و زيادة. و التراث في عمومها قابل للتصفيه لكي يتماشى مع معطيات العصر و يتوحد و في اتجاه لكي يؤدي مهمته التاريخية

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 92.

2 . حسن حنفي، التراث و التجديد . موقفنا من التراث القديم . ط 4 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، لبنان، 1992، ص 13.

التواصلية بين الأجيال. يقول ابن نبي لو وجب أن نميز بين الاستعمار والقابلية للاستعمار لقلنا أن " الأفكار الميتة" التي ورثناها من عصر مات بعد الموحدين، أخطر علينا من الفئة الأخرى. و يضيف مالك في معرض تحليله للأفكار لإشكالية التراث في واقع المجتمع الجديد في وضوح إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي سنتقله، و لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي (أفكارا ميتة) إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداتها، و تفعل مفعولها في كيانه الداخلي، إنها تكون ما لم نجر عليها عملية تصفية تكون الجرائم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، و هي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه.¹

فإذا كانت أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين: فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، و إما أن تؤثر في عكس ذلك ، بوصفها عوامل ممرضة، تجعل النمو صعبا و مستحيلا. فيشير مالك بن نبي في هذا الصدد بأن لكي يتمكن مجتمع ما من التقدم و التطور و تنظيم حركة التاريخ و توجيهها نحو مستوى أرقى لتحقيق الحضارة و المدنية يجب أن يهتم بتصفية التراث من كل ما يعيق الحركة و يجعل عملية التغير الاجتماعي تسير نحو أهداف نبيلة و تحقيق إنسانية الإنسان الكامل، إن تنظيم المجتمع و حياته و حركته، بل و فوضاه و خموده و ركوده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع؛ فإذا ما تغير النظام بطريقة أو بأخرى فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدل في الاتجاه نفسه، إن الأفكار تكون في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أن مختلف مراحل تطوره هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري؛ فإذا ما كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على ما يسمى بالنهضة، فإن معنى هذا أن المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار، و أن هذا النظام يتيح لكل مشكلة من مشاكله الحيوية حلا مناسباً.²

إذ لا يستطيع مجتمع أن يتابع مسيرته بعقول خاوية، أي محشوة بأفكار ميتة، و ضمائر حائرة، و شبكة من الروابط المتدهورة ليس تجمعها وحدة. و لا ينسب مالك بن نبي مشكلة العالم الإسلامي إلى الأفكار الوافدة من الغرب أو ما يسميها " بالأفكار الميتة" بل العطب كل العطب في تلك الأفكار التي بقيت تتوارث على مرّ الأجيال دون نقد أو إعادة قراءة

1 . _____ ، في مهب المعركة ، مرجع سابق، ص 13.

2 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 13.

و تصفيتهما بعد أن مر عليها زمن الصلاحية، إن المسئول عن " الأفكار القائلة " يكفينا أن نلقي النظر على قائمة الأفكار التي فعلت فعلتها، في التاريخ فقتلت المجتمع الإسلامي. إن هذه الأفكار التي مازالت . باعتبارها أصبحت ميتة . تكوّن الجانب السلبي في نهضتنا، و قد كانت تكوّن الجانب الإيجاب أو (القتال) في عهد التقهقر و الأفول الذي مر على الحضارة الإسلامية، هذه الأفكار إذن كانت قتالة في مجتمع حي قبل أن تصبح ميتة في مجتمع يريد الحياة، غير أنها بكل تأكيد لم تولد بباريس أو لندن بل ولدت بفاس و الجزائر و تونس و القاهرة... لم تنشأ في مدرجات أكسفورد و السربون ... و لكنها نشأت تحت قباب جوامع العالم الإسلامي و في ظل صوامعه.¹

2. 1 . 4: غرس الروح الإسلامية: من الأهداف التربوية التي يجب أن تقوم التربية بغرسها في النشء هي ذلك الجانب المتعلق بالروح الإسلامية، إذ أن بداية نشأت هذه الحضارة كانت بالفكرة الدينية التي غرست في حامل هذا الدين الأول و انبثقت عنها، ولكي تستمر الحضارة يجب أن لا تخبو جذوة الروح فالفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها، حتى أنه كما صح أن يعرّف الإنسان بأنه: (حيوان مفكر) أو أنه: (حيوان مدني بطبعه) يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه (حيوان متدين بطبعه).²

و قد تأثرت التربية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة بالوعي أو اللاوعي لما انعطفت إليه التربية في عالمنا المعاصر بسبب غياب هذه النظرة الإسلامية إلى الإنسان و إلى تربيته من فكرنا التربوي المعاصر، و بسبب عدم قدرتنا على استيعابه و إبرازه لأنفسنا، و لغيرنا، فقد وجدنا أنفسنا نعيش حالة على فكر غيرنا، و ممارساته التربوية مما أوحى إلى البعض هنا ممن لم يقتربوا منه و إلى غيرنا من مفكري الغرب التربويين بأننا لا نملك شيئاً نقوله أو نمارسه في مجال الفكر و الممارسة التربوية، و إبراز هذا الفكر وما يوحي إليه من ممارسة في دحض لهذا الغبن الذي تعرض له الفكر التربوي الإسلامي و تطبيقاته التربوية.³ إن غرس الروح الإسلامية في نفس المسلم تمكن الدين من لعب دوره الاجتماعي، هذا الدور منحصر في القيام بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، و هذا التشكيل يجعل من (الإنسان)

1 . _____ ، في مهبط المعركة، مرجع سابق، ص 130.

2 . محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان. مرجع سابق، ص 100.

3 . محمد السيد سلطان، قضايا في الفكر التربوي المعاصر، ط1، دار حسام للنشر و الطباعة و التوزيع، القاهرة، 1981، مصر، ص 120.

العضوي مرحلة اجتماعية، و يجعل من (الوقت) . الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر) . الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط . مجالا مجهزة مكيفا تكييفيا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج.¹

2 . 1 . 5:النمو الكامل للفرد: تهيئ التربية الوسائل المختلفة لتحقيق إمكانيات النمو للإنسان عقليا واجتماعيا وجسمانيا، والبيئة هي الوسط التربوي لذلك فالنشء يعتمد علي الكبار في إكسابه الخبرة اللازمة لتكيفه وتفاعله مع الآخرين وتكتسب هذه الخبرة بتكوين العادات الإيجابية التي يسيطر بها الطفل علي بيئته ويستخدمها في تحقيق أهدافه . و إذا كانت التربية الحديثة التي تدعو إليها الفلسفة الأوروبية هي توجيه عناية أشمل إلى تكوين الطفل تكوينا متكاملًا متسقًا، بحيث لا يغدو أكثر علما و معرفة فقط، بل أكثر نضجا و نموا و تفتحا، وأقدر على التفكير و المحاكاة، وأكثر امتلاكا لوسائل التعليم و أدواته. فالتربية الحديثة أكدت على أهمية العناية بتربية الفكر و تربية الجسد و التربية الجمالية و التربية الخلقية و التربية المهنية و سواها من جوانب تربية الشخصية.

إن التعليم **Instruire** في الفرنسية يشتق من فعل « **Struere** » اللاتيني، و يعني التكريس، و هو في مفهومه الحرفي الضيق لا يعدو إذا أن يكون " تكديسا " لمعلومات في الفكر تعتبر مفيدة، أو تجهيزه تجهيزا خارجيا بمعارف لا تنفذ إلى صميمه. أما عمل التربية فأعمق و أنفذ. إنها تعني أن نخرج (**Ducere** في اللاتينية) ممن نربيهم جميع ضروب الغنى الكامنة فيه، و نظهرها بعد خفاء، و نفتحها حتى مداها. و المربي الحقيقي هو الذي يساعد الطفل على أن يغدو إنسانا ذا شأن و شخصية ذات وزن، و أن يكون " من هو " على حد تعبير ننتشه، أي أن يستخرج قواه الذاتية و طاقاته المبدعة الخلاقة حتى أقصى مدى ممكن.²

فالنمو الكامل للإنسان يتطلب مجتمع يقوم بوظيفته التاريخية لكي يتجسد هذا النمو و هذا الكمال. المجتمع الذي يقوم بوظيفته نحو الفرد و يحقق راحة الفرد، فإنه لا بد أن نفهم معناه فهما دقيقا. فهو ليس عددا من الأفراد، وإنما هو شيء خاص، هو بنيان و ليس تكديسا للأفراد، بنيان فيه أشياء مقدسة متفق عليها، فقبل أن تتجمع الأفراد تكون هناك فكرة

1 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي ، مرجع سابق، ص 32.

2 . عبد الله عبد الدائم، تاريخ التربية. مرجع سابق، ص 506.

عامة هي التي تُولف بين أفراد المجتمع. فإذا فقدت هذه الفكرة فقد فقدت الصلات بين الأفراد، و تفكك المجتمع و ضاعت المصلحة التي كانت تتمثل فيه.¹

2 . 1 . 6 : تربية الإرادة: إن الوضعية التي خلفها واقع ما بعد الموحدين على مستوى التراكم النفسي للإنسان، خلقت منه إنسانا مشوها غير قادر على مواجهة الواقع بكل تعقيداته و تمفصلاته، و أصبح هذا المرض يفتك بالجسم الإجتماعي إلى أن أصابه الخور و الضعف، إن هناك داء واحد ينهش الشعوب العربية في كل مكان، في المغرب، في الشرق الأوسط، منذ قرون، ذلك الداء هو: فقدان الثقة بالنفس، و ما طبع أخلاقنا من الوشاية، و التشهير، و عبادة التشريفات، و تملق الرؤساء، و في كلمة واحدة: هذا التردّي المزمّن الذي حمل الخلفاء و الأباطرة و الأمراء العرب على فرض نظام صارم على هذا الشعب، لا ينطوي على أدنى اهتمام بالتربية أو بالتقدم الاجتماعي، وكان هذا حتى قبل أن يفكر الاستعمار في استغلال هذه النقائص كسلاح فتاك في الشرق أو في الغرب.²

و قد أولى مالك عناية كبيرة لمفهوم " الإرادة" فهي ضد الإرجاء الذي يمارسه الاستعمار ضد الشعوب المقهورة ليطول بقاءه، و يستنزف طاقاتها المادية و البشرية. و قد أقر أن لا تنمية دون إرادة التنمية، بل من أدق و أبعد التصورات عما أعطاه الله سبحانه و تعالى للإنسان من طاقات إرادية تكاد تكون مطلقة، عندما جعل حصول التغيير بإرادة الله لا يتحصل و لا يجيء إلا ثمرة لإرادة التغيير عند الإنسان، لذلك يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾.³ فمعنى (لا يُغَيِّرُ) تعود لله سبحانه و تعالى، أما (يُغَيِّرُوا) يعود للبشر، فأية فاعلية إرادية حضارية أكبر من ذلك، و أي تكريم يصل إلى هذا المستوى، فهاته الآية التي بنى منها مشروعه الحضاري، ففي التفسير الفيلولوجي لمعنى يغيروا هو التغيير الإرادي الذي يبدأ بالإنسان من الناحية النفسية، و لا يكون له ذلك إلا إذا استشعر الدين في سلوكه الاجتماعي. و قد جاء تعريف الحضارة مقسم إلى قسمين:

أولاً : الجانب المادي " الشروط المادية"، هي الإمكان الحضاري.

ثانياً : الجانب المعنوي: " الشروط المعنوية"، هي الإرادة الحضارية.

1 . _____ ، تأملات . مرجع سابق، ص 157 .

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 137 .

3 . سورة الرعد، الآية :11 .

و تعتبر الإرادة عملية محورية في تفكير ابن نبي من خلال ربط منطق الفكرة بمنطق العمل، و كون الإنسان هو وسيلة التغيير الحضاري، و إرادته و اختياره هو الأساس و المرتكز في هذا التغيير، فإن ذلك لا يعني التضاد و التصادم بين السنن و الحرية الإنسانية، فالذي أراد له أن يريد، و أن تكون إرادته في التغيير الحضاري هي أساس التغيير، فالله أراد للإنسان أن يريد، و تصبح إرادته من الفاعلية في التغيير الحضاري.

7 . 1 . 2 : مساعدة الفرد على التكيف: إن التربية في فكره عنده قابلة للتحقق في المجتمع بمختلف المناهج والوسائل والطرق، و تتكيف مع مختلف الأحوال والأزمان والأمصار دون أن يؤثر ذلك في جوهرها. و لذلك لم يكن للتربية قيم و قوالب منظمة جاهزة، وإنما أمرت بضرورة تحقق أهدافها بأشكال مختلفة تستجيب لحاجات الزمان والمكان والأحوال، فقد تأخذ معنى الإنفاق، و الأمانة تارة، و قد تأخذ مفهوم التكافل و الزكاة تارة أخرى.

و من مظاهر التكيف في التربية عند ابن نبي؛ قابليتها للتداول مع كل الأنماط و السياقات الاجتماعية، و مع كل وسائل و الوسائط التربوية. و كذلك الاستجابة لحالة متلقيها العمرية والنفسية والوجدانية والعقلية، فلكل أسلوبه وطريقه ومنهجه، فالمربون الناقلون للقيم الإسلامية لهم قدرات وطاقات، والمتعلمون لهم قدرات وطاقات أيضاً؛ ولهذا لم يكن للنظرية التربوية الإسلامية الحاملة للقيم خطاب واحد، وإنما يتنوع خطابها بفعل مرونته و يتكيف مع مختلف الحالات، فما أنتجه العلماء في أدب العالم والمتعلم يختلف من سياسة الصبيان إلى سياسة الغلمان، فسياسة من قوي عوده وعزم على طول الرحلة والطلب والتفرغ للعلم تختلف عن غيرهم وهكذا.

8 . 1 . 2 : تنمية الشعور بالذات: استأثرت مقولة الشعور بالذات عند مالك بن نبي حيزاً كبيراً لنفسها من كتاباته حول مشكلة الحضارة، و قد ارتبطت هذه المقولة بفكرة " الوعي " و هي أن يعرف الإنسان أن دوره في الحياة أن تتجسد الفكرة الدينية في حياته كسلوك اجتماعي، وأن يرتقي في سلم الكمال ... و تلك هي غايته ودأبه، و إذا ألمت به ظروف تحد من ارتقائه، و تفرض عليه الرجوع عن بعض ذرى الكمال التي وصلت إليه، يجد نفسه يتراجع وفق خطة و منهج يحفظ له توازنه النفسي و الفكري و السلوكي، و يبقى دائماً ضمن

دائرة المشروعية، مهما استمر تدنيه و تراجع، مادام قصده سليما واضطراره لذلك قائما، و إرادته للكمال متحفزة.¹

يتمثل الشعور بالذات في فقه الحضارة عند مالك بن نبي في أن يعرف الإنسان خصوصيته الثقافية و بُعد الحضاري، و طبيعة الصراع بين الأمم و الشعوب و ما هي وسائله و أهدافه، الشيء الذي يفضي إلى وعي كامل بالمشاريع الاستعمارية، و معرفة منهجية لطرق الخروج من بوتقة التخلف، و رؤية شاملة و واعية بأساليب التنمية و التطور. فمالك بن نبي بما يملكه من نظرة ثاقبة و فكر محص للحضارة و التحضر قد أسس منهاجاً فكرياً و معرفياً مستقلاً غرضه الانتقال بالمجتمع المتخلف إلى مجتمع متحضر بدايته من غرس "مقولة الوعي" في ذهن الإنسان الذي ما لم يدخل إلى حركية التاريخ، فالحضارة تربية و تنمية و وعي و فكرة دينية و واجب ومسؤولية... و غيرها من المفاهيم الأخرى المفتاحية التي يدخل بها و من خلالها الإنسان إلى فهم الواقع المحيط به، فقد حاول مالك بن نبي . في جل كتاباته . أن يبين للناس بواقعهم الذي يعيشون فيه، و يعرفهم بأساليب الاستعمار . التي لا تنتهي بالاستقلال . في السيطرة على الشعوب الضعيفة و المتخلفة التي لم يعد لها دور في التاريخ، فقد عانى المسلم على العموم مؤثرات تفهقر المجتمع الإسلامي الذي خرج من حضارة، و كابد مؤثرات هذا التفهقر حتى من وجهة النظر الذهنية. هذا الإنسان لا يزال في السنّ النفسانية المتطابقة مع (الأشياء)؛ في هذه السن يكون المجتمع مجرداً من ثقته في (الأفكار).²

لأن الاستعمار من أهدافه أن تنزع الثقة من نفسية الشعوب، و أن يغرس فيه "القبالية للاستعمار" لضمان الولاء، و يعتبر كتاب "مشكلة الأفكار" تأسيساً لوعي على المستوى الفكري و العقدي للإنسان المتطلع لفكر الارتباط مع المستعمر، و تبيان لأساليبه الخبيثة في البقاء على الأرض، فقد تمكن الاستعمار الفرنسي من تفكيك المجتمع الجزائري بمقتضى المبدأ الروماني الذائع: (فرّق تسد). و غرست فيه مبدأ الحياة من أجل الذات، إلى أن تم تجريد الفرد من إنسانيته و القضاء على كل عمل مشترك يُولف بين الجماعة. إلى أن جاءت الثورة لتعيد بعث الإنسان و المجتمع من جديد ليقوم صلات اجتماعية لخدمة قضيته،

¹ . الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، ط1، دار قرطبة للنشر و التوزيع، المحمدية، الجزائر، 2004، ص38.

² . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 125.

. و يضيف مالك بن نبي . في إطار تنمية وعي الإنسان بالثورة و ما بعد الاستقلال أن الفردية قامت بتقويض أهداف الثورة من خلال الاستئثار بالوظائف التي تدر دخلا كبيرا، في حين ارتدى الباقي . قبل أن يجف حبر مشروع طرابلس . لبوس المحررين و اجتياز خط موريس عن طريق تونس ليتم الإستلاء على سلطة دولة لم تخرج بعد من أقماطها". و عندما اهتم بعض الذئاب أثناء مغادرتهم للمقاومة بالأدغال رائحة الوليمة (الزردة) تحذروا من الجبال إلى المدن لاغتصاب كل ما يقدرون عليه. و على النقيض من ذلك اتجه بعض الضباع في بزة (الحركيين) أو زي المدنيين صوب شعاب الجبل لكي ينحدروا ثانية من هناك في صورة أبطال، بعد أن أنسوا غيرهم أنهم قد شبعوا حتى البطنة طوال سبعة سنوات مما نهشوه من لحم الشعب و ما امتصوه من دمائه.¹

هذا النوع من الوعي الذي حاول أن يغرسه في نفسية الإنسان الجزائري لكي لا تسرق منه ثورته و لا تسفه أجيالا من الرجال قَدِّموا للوطن المال و الروح، الغالي و النفيس، فالتربية يجب أن تشتق من التنشئة أسلوبها و منهجها، و تنمية الوعي لدى الفرد ليكمل الطريق. فإذا فقد الاستعمار طريقا للسيطرة على مستعمراته . فهو كالحاوي . يخرج من صندوقه خطة و لعبة أخرى يلهي بها الشعوب ليتم توريثها، و يعيد السيطرة من جديد عليها ، فعلى شعب الجزائري . على حد تعبيره . أن يستأنف سيره مجددا نحو مرامي جديدة؛ كما يتعين على هذه المقاصد أن تمده بالبواعث المعللة الجديدة لنشاطه المشترك، و(القاسم المشترك)الذي سيعضد سائر النشاطات الفردية؛ سواء منها نشاطات المهتم بالشؤون الفكرية أو نشاطات التاجر أو العامل أو الفلاح، فقد تقشعت اليوم الهالة التي كانت تحجب بطفأوتها المشاكل من ظلامتها المظلمة.²

2 . 1 . 1 . 9: رأب التصدع في عالم الأشخاص: إن انهيار العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع تتولد عنه عقدا كفيلا بأن تحبط العمل المشترك بين الأشخاص. فالعلاقات الفاسدة في (عالم الأشخاص) و في (عالم الأشياء). و السقوط الاجتماعي الذي يصيب (عالم الأشخاص) يمتد لا محالة إلى الأفكار و إلى الأشياء، في صورة افتقار وفاقة. فهناك أفكار

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 115.

2 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 118.

رأت النور في المجتمع الإسلامي في القرن الرابع عشر ميلادي، كفكرة " الدورة الدموية"، و مع ذلك فقد ظلت غائبة عن (عالم الأفكار) لأن شبكة علاقاته كانت قد تمزقت.¹ إن افتقاد عالم الأشخاص يضع عالمي الأشياء و الأفكار في دائرة الاستحالة و عدم الواقعية، وتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية يعني إيدان بهلاك المجتمع، و حينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ، إن فاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. و كلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالا مؤثرا.² و إعادة بناء عالم الأشخاص يبدأ من إعادة تكييف الإنسان مع مقتضيات الواقع و تَبَيُّته ليضطلع بمهامه الحضارية من خلال تجسيد الفكرة الدينية في حياته الاجتماعية بعيدا عن إكراه الراهن في بعده السياسي و الاقتصادي. فقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة علاقاته مريضة، و يتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد. و أكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية، عندما يختفي (الشخص) أو خاصة عندما يسترد (الفرد) استقلاله و سلطته في داخل الجسد الاجتماعي.³

2 . 2 : الأهداف الأخلاقية و المعرفية:

فإذا كان لكل حضارة نوازعها و طاقاتها، و أن تلك الهوية المميزة لكل حضارة هي التي تسيطر و توجد جميع نتائج الحضارة من فكر و أدب و فن و علم، فإن الوعي بالذاتية الحضارية الإسلامية و بجوهرها هو المكوّن الحقيقي لشخصية الحضارة الإسلامية و المقوم الأساسي للبناء الاجتماعي الإسلامي، و تتمثل في إعداد الإنسان على خلق عظيم وتدعيم القيم الأخلاقية و المعرفية التي تشكل التربية، و ذلك من خلال المتغيرات التالية:

2 . 2 . 1 : تكوين الذوق العام: ترمي التربية في أبعاد أهدافها إلى تحقيق النمو المتكامل للإنسان في النواحي الاجتماعية والنفسية و الجسمية التي تُحقق التوازن بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه؛ و الجمال بمعناه الشامل لا يقتصر على الفن كما يظن البعض،

1 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 45

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 14.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 43.

بل يتضمن كل شيء أوجده الخالق، كلها تتضمن مقومات جمالية. فالبيئة تعد بمثابة الرحم بالنسبة إلى القيم الثقافية. الأمر الذي يمكننا ضمن تعريف إجمالي، من أن نعتبر الثقافة نفسها بيئة مكونة الألوان و الأصوات و الروائح و الحركات و الأشكال و الصور. فهي بيئة تمارس مفعولها على الراعي و على العالم سواء. و هي الوسط الذي يتشكل داخله الكيان النفسي للفرد، بالصورة نفسها التي يتم بها تشكل كيانه العضوي داخل المجال الجوي الحيوي الذي ينتظمه. فنحن لا نتلقى الثقافة، و إنما نتنفسها و نتمثلها بالطريقة نفسها التي يتم بمقتضاها تنفسنا لأكسجين الهواء.¹

و قد استشهد مالك بن نبي بالإمام الغزالي في "التوجيه الجمالي" و نورد المعنى الحقيقي كما ذكره في مصدره عن الجمال، فقد بين الإمام الغزالي المعنى الحقيقي للجمال قائلاً: "كل شيء جماله وحُسْنُه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كانت جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحُسْنِ والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحَسَنُ هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة، وشكل، ولون، وحُسْنِ عَدْوٍ، وتيسر كَرٍّْ وفَرٍّ عليه. و الخط الحَسَنُ كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف، وتوازيها، واستقامة ترتيبها، وحُسْنِ انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

- و قد أولى عناية كبيرة للجانب الجمالي في البرنامج التربوي الذي يتألف من أربعة عناصر:
- ✓ عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.
 - ✓ عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.
 - ✓ منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.
 - ✓ الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو (الصناعة) حسب ابن خلدون.

1 . _____ ، الفضاءيا الكبرى، مرجع سابق، ص 80.

فإذا كانت التربية عند مالك بن نبي هي عملية إسقاط تثقيفية ترمي إلى خلق واقع اجتماعي لم يوجد،¹ فإن المجتمع ينتج . مهما تكن درجة تطوره . بذور أخلاقية و جمالية نجدها في عرفه و عاداته و تقاليده . أي فيما نصلح على تسميته بـ (ثقافته) في أوسع معاني هذه الكلمة . و طبيعي أنه بقدر ما تكون هذه (الثقافة) متطورة فإن البذور الأخلاقية و الجمالية تكون أقرب إلى الكمال، حتى تصبح بالتالي القوانين المحددة التي يخضع لها نشاط المجتمع و الدستور الذي تقوم عليه حضارته.²

و تهتم التربية في الوقت الحاضر بتنمية الذوق الجمالي وتقديره في كل مظاهره، وتربية الذوق خير ما يقدم إلى الناشئ حتى من ناحية تقويم أخلاقه، فإنّ الذوق الجمالي إذا شاع في مكانٍ شاعت فيه السكينة والطمأنينة ونعومة المعاملة وجمال السلوك، وإنّ انعدم في مكان خشنت المعاملة وساء السلوك وكثر هياج الأعصاب واضطرابها.

و ارتكز التصور الإسلامي في تهذيبه للنفس البشرية بألوان عدة من أنماط التربية؛ ويُعدّ الجمال من أكثر أنماط التربية تأثيراً على النفس وإطراباً لها، تهش له بفطرتها وتلتقي روحها بروحه في ألفة ومحبة، ويضيف ابن نبي في تحديده لدور الذوق الجمالي: " و عليه فإن فكرة المحيط تدخل في كل عمل فردي أو إرادي في وسط متحضر، و لكنها تدخل ضمناً فقد لا على وجه التحديد، الذي نريد القيام به هنا حين نتحدث عن أحد مقومات الثقافة هو: الجمال، و الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا، و أن نتمثل في شوارعنا و بيوتنا و مقاهينا مسحة الجمال نفسها، التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي.. إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، و نفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه.³

2 . 2 . 2 : تقديم الواجب عن الحق: التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة، الواجبات الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا معنى في هذا المعقد، كما يعتقد عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء

1 . _____ ، مشكلة الثقافة، ص 38 .

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 107 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 101 .

اليومي بكلمات جوفاء، و شعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبيرة.¹

ينفر الفرد من القيام بواجباته و يميل بطبيعته إلى نيل حقوقه، والأمة التي تصاب بمرض (السهولة) وعاشت قرناً من التخلف، فإن من أهون الأشياء عليها التي لا تكلفها كثيراً هو المطالبة بالحقوق، ونسيان الواجبات، فهي تشبه الكائن (الأميبي) المتبطل، حتى إذا رأى فريسة هينة ابرز إليها ما يشبه اليد ليقتنصها، ثم يهضمها في هدوء، و بقي هذا الكائن يأكل من حاجاته المتواضعة حتى إذا جاء الاستعمار لم يدع له شيئاً فتحرك ضميره (أي معدته) فمد يده إلى فريسة وهمية أطلق عليها لفظة (الحق).²

وعندما يستغلها الزعماء المهرجون لتجميع الغوغاء من الشعب وبلعبون بمفتاح (الحقوق) فسيكون من الصعب أن يستخدموا مفتاح الواجبات وتتحول الأمة إلى استجداء حقوقها من الأمم المتحدة ومجلس الأمن والرأي العام العالمي ولكن ما من مجيب، لأن هذه الأصنام ما نصبت إلا لتخدير الشعوب و الزج بهم في طريق السهولة الذي يقود إلى الكوارث و إلى المغامرات السياسية، و نسوا أو تناسوا أن العلاقة التي تربط بين الحق و الواجب هي علاقة تكوينية تفسر لنا نشأة الحق ذاته، تلك التي لا يمكن أن نتصورها منفصلة عن الواجب، و هو يعيد في الواقع فالسياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، و تكتفي بأن تضرب له على نعمة حقوقه، ليس سياسة، و إنما هي (خرافة) أو هي تلصص في الظلام، و ليس من مهمتنا أن نعلم الشعب كلمات و أشعاراً، بل نعلمه مناهج و فنونا.³

وعلى الصعيد السياسي فإن كلمة الواجب توحد وتؤلف بينما كلمة الحق تفرق وتمزق، وهكذا ما خرجت دولة من دول العالم الثالث من ريقة الاستعمار إلا وتناحرت أحزابها على المطالبة بحق اقتسام الغنيمة، بدلاً من أن يتكلموا عن الواجبات، وهذا ما حصل في الجزائر، واليمن الجنوبي، ونيجريا، و الكونغو.⁴

ومن الأمثلة التي ترونها ذاكرة مالك حول هذا الموضوع: (شاهدت خلال بعض المواقف السياسية في الجزائر جيلاً من السياسيين يقفون من قضية مهمة بالنسبة للشعب الجزائري و هي قضية الأمية، يقفون منها موقفاً جديراً بالملاحظة، فقد كتب هؤلاء السياسيون المقالات

1 . _____ ، في مهبط المعركة، مرجع سابق، ص 78 .

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي ، مرجع سابق، ص 131 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 143 .

4 . _____ ، بين الرشاد والتيه، مرجع سابق، ص 29 .

الطويلة لشرح هذا المرض الاجتماعي الخطير، موضحين نتائج المنكرة في حياة الفرد، وهم في هذا كله يهاجمون الاستعمار في خطب ملتهبة بالحماس متقدة بالوطنية، وهكذا يستمرون في خطبهم ومقالاتهم حتى تتقطع أنفاسهم عن الكلام، وتمر الأعوام تلو الأعوام والمشكلة لا تجد في مجهوداتهم حلها، ذلك أنهم لم يدخلوا إلى المشكلة من طريق حلها، لقد أصدرت الحكومة الفرنسية عام 1940 قوانين استثنائية قاسية حول تنظيم التعليم في مختلف مراحلها بالنسبة للطائفة اليهودية (مسايرة لألمانية هتلرية) وشعرت الطائفة بأن أطفالها قد أصبحوا مهددين بالأمية غير أنها لم تكتب مقالة واحدة تستنكر هذا الإجراء، ولم يلق واحد منها محاضرة عن هذا الأمر، وإنما اجتمعت النخبة فيها ودرست المشكلة لكي تحدد موقفها منها، وحددت موقفها بأن يتطوع كل ذي علم بقدر ما عنده من العلم، وهكذا أصبح كل بيت من بيوت المتعلمين مدرسة في ساعات معينة، ولا نستطيع أن نبرر هذا بتفوق اليهود المادي أو العلمي لأننا لا نستطيع أن نفترض أن الدكتور أو الصيدلي أو المحامي اليهودي أغزر علماً من زميله الجزائري، فالاختلاف هو في الموقف الاجتماعي إزاء مشكلة معينة).¹

و هذا المرض لا يزال مسيطراً على العقول، فكثيراً ما نسمع في قرية من القرى أو حي من الأحياء المطالبة بحقهم في فتح طريق أو تنظيف شارع أو فتح مدرسة، وكان بوسعهم أن يتعاونوا لإنجاز مثل هذا العمل. و تغيير وجهة الناس من المطالبة بالحقوق إلى تأدية الواجبات عملية مضمينة لأنها تتعلق بالتربية التي تتطلب وقتاً للتنشئة، عاملاً يتخذ من الزمن بعداً تربوياً، لأن تحويل التركيز من (الحق) إلى (الواجب) ليس بالأمر الذي يأتي عفويا أو بالمصادفة، لأنه تحويل لعادات و طبائع منسجمة مع ما في الإنسان من ميل طبيعي إلى منطق السهولة، مدعماً من دماغوجيا القرن العشرين التي نصبت من (الأنا) وثناً جديداً يعبده الفرد في المجال السياسي باسم الحرية، و في المجال الاقتصادي باسم الحقوق، و حتى في المجال الرياضي يعبد (الأنا) الجسم في ملاعب الرياضة. فتحويل التركيز الموروث ليس إذن بالأمر السهل بل لا يأتي إلا بصراع مع كل التيارات التي تنمي الأناية بشكليها: الأنا و نحن.²

1. _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 140.

2. _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص 89.

2 . 2 . 3 :التخلص من ذهان السهولة و الاستحالة: إذا كان من الحكمة أن ينتحي الإنسان في حياته مبدأ الفضيلة القائل "لا إفراط و لا تفريط" أو "الفضيلة بين رذيلتين" فإن من الخلل الفكري الذي يصاب به الإنسان و يعيق حركة التغيير الإجتماعي يتمثل في نوعين من الأمراض: إما أن ينظر الإنسان للأشياء بعين تستسهل عليه الأمور، فهي لا تحتاج إلى بذل الجهد و الكد و التعب، و ما يقابلها في تكوين الإنسان نفسياً هي الجسارة و الشجاعة الأدبية، و يسميها مالك بن نبي بـ (ذهان السهولة)، و يضرب لنا مثلاً على نوعية التراخي في أوصال شبكة العلاقات الاجتماعية(قضية فلسطين) التي قيل حينها أن العملية لا تستحق هذا التهويل و العويل، ففي نفخة واحدة من طرف كل الشعوب العربية لصاروا هباء منثوراً، فالقصائد العصماء و الخطب الرنانة لا تصنع الشجعان و لا نكتشف من خلالها مواهب البطولة و البسالة. فالإنسان المصاب بداء السهولة يمتلكه الخور و الهشاشة و التسويف، و تعتليه نزعة تشاؤمية تجعل بين تحقيق الشيء و النهوض إليه حاجزاً نفسياً يقود إلى السكون و الضعف. و سهلاً جرّه إلى متاهات الانزواء و انزلاقات اللاجدوى التي " تليق جداً لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه نحو السهولة ميسوراً جداً".¹

و في مقابل ذلك يوجد المرض الفكري الآخر الموسوم بـ (ذهان الاستحالة)، و هو مركب نفسي يجب من الصعوبة مشجب يعلق عليه نقائصه النفسية و أكمة يختفي من ورائها لقصوره و عجزه. و هو نقيصة تقود إلى تعطيل و النكوص، و تقتل مواطن الرجولة و الأنفة، و تجهز على قيم التحرر و الإنعتاق من الاستعمار، فكان المتخلفون عن الصفوف، و الفارون من الزحف أثناء الإستعمار ينظرون إلى كل من حمل السلاح ضد الإستعمار هو ضرب من الجنون، و فعل لا طائل من ورائه يرجى، لأن فرنسا تمتلك كل أصناف الأسلحة المتطورة و الفتاكة، و من ورائها الحلف الأطلسي يمدّها بكل ما تحتاج إليه لإبادة الشعب الجزائري. فهذه الذهنية المنسحبة من الفعالية الإنسانية هي مرض أصاب الإنسان أثناء فترات الحروب و مخططات البناء و في كل زوايا الحياة و مناحيها، حين يتسرب إلى النفس البشرية ذهان الصعوبة يصاب الفرد بالشلل و عدم القدرة على افتكاك مصيره من نفسه و من أعدائه. فيُطمر المجتمع تحت أنقاض ترسبات ذهنية ما بعد الموحدين، و أفكاره المميّنة و الميّنة، أو بفعل تشريبات القيم المادية من المجتمع الغربي الذي

1 .. ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص 27 .

تأثر بالفكر الواقعي منذ عهد "أرسطو" فيرى أن مجتمعاتنا لا تمكن العدة و العناد لمواجهة الترسانة الحربية الفرنسية، هؤلاء من الدارسين في مقاعد الدراسة و المتشربين لقيم الحداثة و الاغتراب هؤلاء يروون أن: " العلم في الأعم الأغلب لم يكن آلة للنهضة، بقدر ما كان زينة و أسلوبا و ترفا. و لقد رأينا في بلادنا (الجزائر) كيف أن الفكر لم يكن حركة و عملا إيجابيا، بل كان زخرفا يؤخذ من باب التجمل؛ كان حلية لا تدخل في سلك القانون، و لا تخضع لمنطق نظري و عملي، و إنما تخضع لذوق ما بعد الموحدين...و إذا ظل هذا الفكر متبطلا منعدم التأثير بقي النشاط حركة فوضى، وتزاحما يبعث على الضحك و الرثاء، و ليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي".¹

فكل الأعمال والممارسات داخل المجتمع تستند إلى جانب فكري يؤسس و يوضح الطرق التي يجب السير عليها و انتكابها للوصول للحقيقة، وإذا مات انعدمت هذه العلاقة أصيب العمل الإنساني بالعمى و الاضطراب ، و أصبح جهدا يبذل بلا مقابل، فيصبح العمل داخل المجتمع في إطار الشبكة الاجتماعية مستحيلا و يصاب بالاختلال، حين ينزع الإنسان للذاتية في تقدير الأشياء بعيد عن التشاور و الأخذ بالنصح و بعيدا عن لغة الحوار و المناقشة، و هي . الذاتية . خيانة لطبيعة الأشياء و غمط لأهميتها و غلوا في تقويمها أم حطاً من قيمتها.

لقد قام ذهن الإستحالة في الجزائر على ثلاثة قواعد من الواجب ذكرها :

✓ لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون.

✓ لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء.

✓ لسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الإستعمار في بلادنا.

فهذا الشريط المشروخ و الأهاريج الغنائية التي تنكبها حسنو النوايا ليفسروا بها عجزهم، وامتطأها الدجالون و المشعوذون ليدلفوا بها إلى المشاريع المريحة، و الاستعمار قرير العين يرقب المشهد من بعيد و يُطَهِّم تلك المخاتلة بين أعضاء المجتمع ليزرع الفتنة و التفرقة. و قد ولدت تلك (الاستحالات) وقائع مادية نذكر منها:

أولاً: أسطورة الجهل: هو واقع فرضه الإستعمار، و عجزت الدوائر المثقفة عن تفعيل سلاح محاربة الأمية، في حين كان المثقفون الإسرائيلييين يهتمون بطائفتهم أثناء الزحف الألماني، و هي سنة الحياة دائما يقوم المثقف بدوره في توعية شعبه و توجيههم. و كان الشعب

1 . _____ ، وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 88.

الجزائري في ذلك الحين لا يفكر في تربية أمته، فقد كانت الفئة المثقفة تطالب بزيادة عدد المدارس عوض إصلاح التعليم. فالمثقف الذي لا يؤثر في مجتمعه، و لا يكن لتعليمه أثر اجتماعي، فإن (أسطورة الجهل) تصبح خطيرة، فيختفي خلف الإنسان الأمي مشكلة أعمق للإنسان ما بعد الموحدين.

ثانياً: أسطورة الفقر: لقد زاد أغنياء العرب على الفقراء الكثير من العطل رغم وفرة الثروات، فعوض أن يذهب مال الفرد الثري إلى زيادة الفاعلية الاجتماعية للإنسان و تطوير طاقاته الكامنة و تفجيرها من أجل العمل و الكسب، لكن ما نراه أن المال و الثروات لا تذهب صوب الوجهة التي تنفع الفرد و المجتمع، فالأغنياء لا يستثمرون أموالهم في المشاريع التربوية العملية و الفنية حتى الأفراد أنفسهم لا يملكون تلك الروح الجماعية فينفقون أموالهم في عادات كالمآتم والزواج و الختان لا تستنزف طاقات مالية كبيرة لا علاقة لها بالتربية و العمل الجماعي المشترك الذي يعود بالخير للصالح العام كتدعيم صناديق الزكاة و بناء مؤسسات و جمعيات خيرية و مدارس لمحاربة الجهل و الفقر معا.

ثالثاً: أسطورة الاستعمار: و يرجع مالك بن نبي قضية الإستعمار إلى عامل خارجي يتعلق بأعمال المخاتلة و الاحتيال الأخلاقية و السياسية من جهة و إلى العامل الذاتي الناتج عن القابلية للاستعمار المتعلقة بأذواق الناس و أفكارهم و عاداتهم. " فالاستعمار ليس هو السبب الأول الذي عجز الناس و خمولهم في مختلف بلاد الإسلام. و لكي نصدر حكماً صادقاً في هذا المجال ينبغي أن نتقصى الحركة الاستعمارية من أصولها، و لا نتفق أمام حاضرها؛ أي إن علينا أن ننظر إليها بوصفنا علماء اجتماع لا بوصفنا رجال سياسة، و سندرك حينئذ أن الإستعمار يدخل في حياة الشعب المستعمر بصفته عاملاً مناقضاً يعنيه على التغلب على قابليته له، حتى إن هذه القابلية التي يقوم على أساسها الاستعمار، تنقلب إلى رفض لذاتها في ضمير المستعمر، فيحاول جهده التخلص منها. و ليس تاريخ العالم الإسلامي منذ أكثر من نصف قرن، سوى النمو التاريخي لهذا التناقض، الذي أدخله الاستعمار على الأوضاع التي تخلقت في ظلها القابلية و اتسمت بها".¹

إن الوجهة الأخلاقية التي يجب أن تقوم بها الثقافة كمشروع تربوي في إطار معالجة "الذهانين" و بما تتضمنه من فكرة دينية نظمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدن آدم . لا يسوغ أن تُعدَّ علماً يتعلمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به، و إطار يتحرك داخله،

1 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص94.

يغذي الحضارة في أحشائه؛ فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، و تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بما في ذلك الحداد والفنان و الراعي و العالم و الإمام و هكذا يتركب التاريخ.¹

فإذا كان المبدأ الديمقراطي الذي تبناه الشعب الجزائري يركز على التربية الوطنية التي تركز على الحرية المتأرجحة بين المحافظة المفرطة التي تؤدي إلى التحجر أو عدم المحافظة التي تؤدي إلى فوضى الأشخاص و الأشياء و الأفكار، و بالتالي إلى انفجار الإطار السياسي، و في كلتا الحالتين يوجد نوعين من المجتمع، المجتمع المتراصف النّضد كما هو المجتمع الصيني و الهندي، أو إلى المجتمع المذرذر (المفكك الذرات) كما كان المجتمع العربي الجاهلي العاجز عن أداء عمل جماعي مشترك. يضيف مالك بن نبي أن مهمة التربية الشعبية و المدرسية، إنما تتمثل في تبصيرها لنا بأنّ: ليس هناك (شيء سهل، و لاشيء مستحيل) و إنما لكل مشكلة واقعية حلها الذي تنحصر القضية في تطبيقه بالجهد الذي يستلزمه. لقد حان الأوان لكي نتحرر من جميع ضروب العطالة التي توقف الجهد، و من سائر أعذار العطالة التي تبرّر كسلنا.²

2 . 2 . 4: تنقية الثقافة من السمات الهدامة: تميز إنسان ما بعد الموحدين بمجموعة من الصفات السلبية تنكبت به على حافة الحضارة، و الأخذ بمظاهر الأشياء دون روحها، و كان من جملة هذه الآفات الذرية و الشيبئية و اللفظية و التبريرية و الجدل و التعالم و الرومانسية، لقد عانى المسلم على العموم مؤثرات تقهقر المجتمع الإسلامي منذ بضعة قرون، فهو الإنسان الذي خرج من حضارة، و كابد مؤثرات هذا التقهقر حتّى من وجهة النظر الذهنية. و هذا الإنسان لا يزال في السن النفسانية المتطابقة مع (الأشياء)؛ و في هذا السن يكون المجتمع مجردا من ثقته في (الأفكار)؛ فالفكرة لا يتم تقييمها لديه كوسيلة للنشاط الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي باعتبارها الشبكة العقلية التي يُنسج عليها هذا النشاط، و إنما هي مجرد حلية للفكر المتميز، و ترف زائد.³

و يبدو أن مالك بن نبي كان قد وجه نقده للطبقة المثقفة (أو النخبة) على وجه التحديد، فقد رأى أن المسيرّ الذي يتمثل الثقافات الأخرى و المغترب الذي لا يرى حلاً لهذا المجتمع

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 92 .

2 . _____ ، آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص 190 .

3 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 125 .

بعيدا عن الرؤى الوافدة من الغرب، يجب على هذا الأخير أن يقوم بتصفية ثقافته، فالعالم الإسلامي خليط من بقايا موروثه عن عنصر ما بعد الموحدين، و أجلاب ثقافية حديثة جاء بها تيار الإصلاح و تيار الحركة الحديثة، و هو خليط لم يصدر عن توجيه واع، أو تخطيط علمي، إنما هو مجموعة من رواسب قديمة لم تصف من طابع التقدم، و مستحدثات لم يتم تنقيتها. هذا التلفيق لعناصر من عصور مختلفة، و من ثقافات متباينة، دون أدنى رباط طبيعي أو منطقي يربط بينها . فقد أنتج عالما رأسه في عام 1945 و قدمه في عام 1369، و هو يحمل في حشاه ما حملت العصور الوسيطة؛ عالم متضارب منطوق على ألوان من التناقض و التنافر التي تجمعت و تراكمت في هيئة فوضى، و جعلت أحد كبار المفكرين و هو إقبال بعد أن كان محافظا فيما يتصل بمشكلة المرأة، جعلته يستودع قلقه هذا البيت الحزين المتردد في نهاية حياته: " أشد ما يحزنني اضطهاد المرأة، و لكن مشكلتها معقدة، لا أرى لها حلا".¹

فعلى الثقافة أن تقوم ببناء المجتمع من خلال تنقيتها من الرواسب البالية و الأفكار الهدامة، فكل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن تراثها و ذلك بأن تضع أولاً بين الجسم الاجتماعي و الفرد ذلك التبادر الذي يقوم الأخطاء من حيثما تأتت و مهما يكن مصدرها. إلا أن هذه المبادلة لا يمكن أن تمارس إلا إذا تم ربط الفرد بالجسم الاجتماعي؛ بالصورة، هذه اللحمة الاجتماعية أولاً و بالذات.

2 . 2 . 5 : تنمية الروح العلمية و البحثية : تهدف التربية عند ابن نبي في مجالها المعرفي و الثقافي إلى تنمية الروح العلمية لدى الفرد و المجتمع على حد السواء، و لا تكون هذه التنمية ذات قيمة إلا إذا كانت هناك فعالية في نفس الإنسان الذي يريد أن يخرج من بوتقة الإستعمار و التخلف، فكل المجتمعات الحديثة التي قطعت أشواطاً كبيرة في مجال التقدم كان العلم هو الأسلوب الأنجع لذلك. إن الإنقاص من عدم فعالية الفرد، يعني الإنقاص من تخلف المجتمع ... إلا أنه يتبقى لنا أن نعقد الصلة بين الثقافة و الفعالية باعتبارها صفة ملازمة للإنسان المتحضر. فنتيجة الفعالية أمر مؤكد بصورة إجمالية في الوضعية الاجتماعية و الاقتصادية لمجتمع معين، باعتبار أن حضارته ليست إلا التعبير عن مستوى

¹ . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 77.

معين للإنسان و التراب و الزمن، المتضمنة جميعها في كل نتاج من منتجاتها، و في تركيبها الأصيل بصورة عامة.¹

و إذا كان العلم في أبسط معانية . كما يقول مالك بن نبي . ما هو إلا البحث عن الحقيقة في كل ميدان، في الأخلاق، في التشريع، في الاجتماع، في الطب في الطبيعة، فقد قامت كل الحضارات السابقة على التملّي و النظر و التدقيق في الأشياء من خلال تكريس العلم، فالإنسان الذي يحاول دوما أن يكون نفسه و يتقنها من خلال العلم و القراءة و التتبع هو إنسان خارج لا محالة من طور التخلف إلى فضاء التحرر و الإنعتاق، فبالعلم بنتت المجتمعات الأوروبية مجتمعاتها و ثم دولها و نظمها بكل أصنافها. بينما ما زال مجتمعات العالم الثالث تستورد الخبرات العلمية من الغرب دون تكوين كوادر تستطيع أن تُدير و تسيّر هذه التقنية و كيفها، بينما نرى الغرب من عقود ليست بالقصيرة تعيد تكيف العلم المنتج في الحضارة الإسلامية مع خصوصيات مجتمعاتهم، لقد رأينا (الفارابي) و مدرسته في ميدان العلم و المعرفة ينقلون فلسفة أرسطو المادية إلى الفكر العلمي الإسلامي، و لكن بعد أن طبعوها بطابع إسلامي، و كما رأينا من بعدهم (توماس الإكويني) ينزع فلسفة أرسطو طابعها الإسلامي كيما يطبقها على المجتمع المسيحي الذي كان يتهيأ بدوره للنشوء و الارتقاء.²

و ما يهمننا هنا هو الجانب التربوي التطبيقي للعلم، فليس لدى العالم الإسلامي حتّى الآن مجامع فكرية تشرف على توجيه الحياة الأدبية و على توثيق الصلات و تغذية المناظرات بين المدارس المختلفة، كما كان ذلك قديما بين مدرسة الغزالي و مدرسة ابن رشد، فالأمور تسيّر سبّهلاً، دون رقيب قانوني إلاّ الدافع الشخصي الأخلاقي " فالعلم إذا تجرّد من الأخلاق فإنه يجرّ حتما إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق".³

2 . 2 . 6 : تكريس المنطق الرياضي لدى الفرد: أثر التكوين الرياضي و التخصص العلمي لابن نبي على أغلب تحليلاته الاجتماعية و النفسية، فقد جاءت جل كتاباته مشبعة بالروح العلمية حتى أنها تقدّم لقرائه على أنها أفكارا يقينية، فقد اتبع منهاجها يجمع بين:

✓ الجانب العقلي الديكارتي و الذي هو آخر المطاف مستوحى من فلسفة الغزالي.

1 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 71 .

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 87 .

3 . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 75 .

✓ الجانب الاستدلالي المستوحى من المنهج الرياضي الذي كان مالك بن نبي مغرماً به و حريصاً على تطبيقه في أبحاثه و تحرياته العلمية. وكان حريصاً على صياغة النتائج التي يتوصل إليها في شكل قوانين رياضية.

✓ الجانب التجريبي الاستقرائي المستوحى من العلوم الفيزيائية و الطبيعية.

✓ الجانب الحدسي المستوحى من التصوف.

و جاءت تحليلات ابن نبي على شكل معادلات رياضية الغرض منها إعطاءها صفة اليقين، فقد صاغ الحضارة و تطورها و أفوالها، و المعادلة النفسية و الاجتماعية على شكل منطق رياضي يعصم الفكر من الخطأ و الزلل.

و ترتبط مشكلة التربية في جانها الأخلاقي بالمنطلق الرياضي لأن العلم في جوهره الجهد الذي يبذله الإنسان من أجل اكتشاف ما مجهول¹. فالغوص في كنه الأشياء و تجاوز الغموض الذي يعتري الظواهر الاجتماعية و البحث فيها هو من خصائص العلم، لأن الاستدلال في العلوم الاجتماعية بالمنطق الرياضي يسبغ عليها نوعاً من الصحة و القبول لدى القارئ، وفي هذا يقول مالك بن نبي: " لم تبلغ العلوم الإنسانية بعد درجة تحديد مصطلحاتها عامة، كما يحدث للعلوم الطبيعية، فإن علم الاجتماع بعض المفاهيم التي تبدو أحياناً غير محددة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية، حيث نجد أن اللغات المحلية لما تتمثل تماماً بالمصطلحات الحديثة، و قد يؤدي تعقد المصطلحات إلى مناقشات أقرب إلى الطابع الأدبي منها إلى منطق العلم، كذلك المناقشة التي ثارت و تثور غالباً حول مصطلحي حضارة و مدنية في البلاد العربية، بيد أن المناقشات لا تعين على جلاء الموضوع بل تجعله أكثر صعوبة².

3. 2 : أهداف اجتماعية و اقتصادية :

تكتسب القيم الخلقية المنبثقة عن الرؤية الإيمانية و الحس الديني موضوعية في ميدان العلاقات الاجتماعية و تسهم في الدفع الحضاري سلماً و إيجاباً بثبات القيم الروحية و الأخلاقية والاجتماعية، و تهدف التربية من المنظور الاجتماعي إلى إرساء الأسس و القواعد ليتشكل من خلالها النظام الاجتماعي في حركة شمولية متكاملة، تتمثل في بناء المجتمع المسلم على أسس التعاون والتكافل الاجتماعي وتدعيم القيم الاجتماعية .

1 .. ، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 168.

2 . ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 9

2 . 3 . 1: المنطق العملي: لا تتم عملية توجيه الثقافة التي يقدمها مالك بن نبي إلا بإدخال عنصر ثالث مهم يسميه المنطق العملي، والذي يعني "ارتباط العمل بوسائله ومعانيه" بطريقة يتمكن الإنسان بها "من استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة"¹ أي إنه المنطق البرغماتي النفعي المحكوم بالمبدأ الأخلاقي. والذي يفترض أن يكون مصدر الفاعلية التي هي أحد الشروط التي تهيئ المجتمع لمواجهة مشكلات التخلف، و تعديل أسلوب الحياة بطريقة تأخذ في حسابها الوسائل المتوفرة و الزمن المحدد. و المنطق العملي يعلمنا " كيفية ربط العمل بوسائله و مقاصده، و ذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئاً دون مقياس يستمد معاييره من الوسط الاجتماعي و ما يشتمل من إمكانيات. إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياساً نظرياً يستنتج به نتائج من مقدمات محددة.²

و الفاعلية هي روح المنطق العملي لأنها هي التي تحدد و تشكل موقف الفرد و اتجاه مشكلات حياته و صعوباتها و تمكنه من إدراك أسبابها و نتائجها، و تساعده على اكتشاف الطريقة التي يسيطر بها عليها و ذلك بما تبعثه فيه من إرادة لتغيير الأشياء الظروف تغييراً ينشط وظيفته الاجتماعية. و الحياة . كما يؤكد مالك بن نبي . لا تخطئ في صياغة المشكلات؛ لأن النتائج التي تتمخض عنها تكون حتماً مطابقة للمسببات.³

إن هذه الفاعلية التي هي روح المنطق العملي من شأنها أن تنتج لنا العقل التطبيقي الذي يتجسد في الإرادة و بذل الجهد و المثابرة عليه من أجل تحصيل علم و اكتساب مهارة، و من أجل تنمية العقل و تفتيح الذهن و تحقيق الأهداف. فإذا ركزنا في التربية الدينية على إثبات وجود الله لأناس يؤمنون به و أهملنا الحديث عن الوظيفة الاجتماعية لدين نكون قد ابتعدنا عن المنطق العملي الذي يربط بين عمل و صدقه، و سياسة و وسائلها، و بين ثقافة و مثلها، و بين الفكرة و تطبيقها، و نكون قد غرقنا في خضم العقل التجريدي الحالم. إن التربية على المنطق العملي تفترض أيضاً الوقوف أمام المشكلات و قوفاً يبتعد بها عن الصياغة السهلة أو المستحيلة بل يفترض أن تصاغ بالحدود الموضوعية.⁴

2 . 3 . 2: الاهتمام بالتكوين الفني و المهني (التربية المهنية): إن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه، و ربما لبناء مجده؛ و لكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، 102.

2 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 102.

3 . _____ ، حديث في البناء الجديد، مرجع سابق، ص 47

4 . عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 63.

نموه.¹ و الصناعة من حيث هي طرق فنية لتفعيل الدور التاريخي لإنسان في المجتمع، فهي تحقق الاكتفاء الذاتي و استخدام طاقاته المتاحة بطرق علمية منهجية تحقق الدرجة القصوى من الإتقان المهني و المهارة الفنية. و كان مالك بن نبي ينتقد التعليم النظري . الذي يعتبره مشكلة خطيرة . إذا لم يقترن بالعمل و الصناعة، فمن خلاله يلجأ رجل الفطرة و رجل القلة (المدينة) إلى باب الحضارة و يدلف داخلا...أما الاكتفاء فقط بالعلم الذي نتعلمه في المدارس الرسمية أو غير الرسمية، أو ما تعدنا به السياسات الانتخابية، وما تعدنا إلا غرورا.²

إن تنمية التفكير العقلي و توفير فرص العمل و الإبداع و الابتكار العلمي و الصناعي يتوقف إلى حد بعيد على المناخ الثقافي، بما فيه من عناصر تربوية سالبة أو موجبة... فكل عملية تتيح الحرية الفكرية . بعيدا عن الخنق . للتنفس العقلي تؤدي إلى تكوين العقل المنطلق الذي يزيل المعوقات الثقافية أمام ذلك أساس هام في أي عملية للتغيير و البناء.

2 . 3 . 3: توجيه العمل: إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل و الراعي و صاحب الحرفة، و التاجر و الطالب و العالم و المرأة و المثقف و الفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء. فأعطاء ثلاثة حروف في الأبجدية عمل، وتقبل هذه الحروف عمل، و إزالة أذى عن الطريق عمل، و إسداء نصح عن النظافة أو الجمال . دون أن يغضب الناصح حين لا يصغى لنصحه . عمل، و غرس شجرة هنا عمل، و استغلال أوقات فراغها في مساعدة الآخرين عمل، و هكذا. و نحن نعمل مادما نعطي أو نأخذ بصورة تؤثر في التاريخ.³

و قد جعل مالك كل عمل يقوم به الإنسان في المجتمع يسير وفق الخطة العامة للمجتمع، في إطار العمل المشترك و دائرة بناء و تنشأ شبكة العلاقات الاجتماعية التي تعطي للجانب العملي بعدا أخلاقيا، و اجتماعيا. ففي المبدأ القائل أن كل فرد يقوم بوظيفته داخل النسق الواحد لكي تكتمل الوظيفة الكلية للمجتمع، جعل من عمل يقوم به كل فرد هو لبنة داخل نسق مهما كانت طبيعة العمل معنوي أو يدوي، و مكانة العامل. ففي المجتمع الجديد يفقد

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 104.

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 105.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 115، 114.

مفهوم الأجر معناه لأن العمال لا علاقة له بصاحب عمله، و لكن بجماعة أو عشيرة. و هكذا يتمكن ابن نبي من حصر مفهوم توجيه العمل وتحديد معناه، فهو يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد ليضع كل مواطن في كل يوم لبنة جديدة في البناء وتأليف كل الجهود لتغيير وضع الإنسان الشيء الذي يضمن كسب لقمة العيش لكل مواطن. إذا كان العمل وحده هو الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي . و على الرغم من أنه ليس عنصراً أساسياً كالإنسان و الزمن، إلا أنه يتولد من هذه العناصر الثلاثة لا من الخطب الانتخابية أو الوعظية.¹

فالعامل المشترك داخل المجتمع يؤدي إلى بروز قيم تربوية و عمليات جديدة تجعل من استمرارية البناء مشروعية و واقعية كالتعاون و الإخاء و المساعدة و النصح و الوحدة و غيرها من المفاهيم التي ينتجها المجتمع الناشئ بعيداً عن تلك التي تنشأ بين صاحبي العمل و العامل، فالعمل المشترك يستلزم بالضرورة وجود تنظيم محكم و تنسيق جميع المعطيات، و خاصة حضور عالم الأفكار الذي يقوم بالنهوض بالنشاطات الفردية. إن اختلاط العمل بالأجر قد يكون مضرًا في المجتمع لما يتخطى مرحلة التنظيم، إذ تنتج عنه موجه من الكسل والتفريط، تصيب الذي لا يجد من يشتري ساعات عمله، ينشأ عنها في المجال الاجتماعي(البطالة)، كما ينشأ عنها في المجال النفسي عبودية أخلاقية، و ذلك عندما يبلغ الفرد درجة لا يتصور معها لنفسه قدرة على العمل أو التزاما به، إلا تصور معها مستغلاً يدفع له أجره عن ساعات عمله.²

2. 3. 4: توجيه رأس المال : إن قضية ارتباط الفرد بالمجتمع و فاعليتها ترتكز في الأساس على توجيه النواحي الثلاثة و هي :

✓ توجيه الثقافة.

✓ توجيه العمل.

✓ توجيه رأس المال.

هذا العامل الثالث الذي ينيطه أهمية كبرى و هو "توجيه رأس المال"، ينطلق من مقارنة حاول من خلالها "كارل ماركس" أن يبعد به من كونه آلة اجتماعية إلى جعله آلة سياسية بين أيدي الطبقة البرجوازية لتسيطر و تضطهد به طبقة العمال أو (البروليتاريا).

1 . المرجع سابق، ص 114.

2 . وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 151.

و في مقابل ذلك فالقضية في البلاد الإسلامية انتفت من الناحية التاريخية في إطارها المالي، فالمال يعتبر أداة اجتماعية تهض بالتقدم المادي لا أداة سياسية في يد فئة رأسمالية.

و يعرج بنا في إطار التمييز بين " الثروة " و " رأس المال"، فالثروة تلقب بصاحبها، أما رأس المال فإنه ينفصل اسما عن صاحبه، و يصبح قوة مالية مجردة. والثروة لا ترقى إلى مستوى رأس المال، فهي شيء بسيط يستخدم في إطار خاص لسد حاجات صاحبها المحدودة كالعقارات و الأراضي و الورشات، أما رأس المال فيتميز بالحركة و الدوران، و يتسع من الناحية الاجتماعية بمقتضى النمو لياشر وظيفته الاجتماعية في نطاق يضيق به مجال الفرد ليشمل كل مناحي الحياة، ليلبي حاجات المجتمع المتعددة في إطار شبكة علاقاته الاجتماعية المختلفة و المتنوعة باختلاف أهداف الأفراد داخل المجتمع. فالثروة حسب مالك بن نبي يمكن فهمها في بلادنا من ناحيتين: بالنسبة للمركز الاجتماعي لصاحبها،(فلاح، صاحب ماشية، صاحب ضيعة)، أو بالنسبة لاستعمال صاحبها؛ و هو يستعملها في إطاره الذي تقتضيه حرفته المحلية. و في كلتا الحالتين تظهر الثروة معرفة لنا بطابع مكاسب الشخص غير المتحركة غير الداخلة في الدورة الحضارية، فهي شيء محلي مستقر في حقل صاحبها أو داره أو حول خيمته، و ليس لها عمل مستقر بوصفها قوة مالية تدخل في بناء الصناعات و تمويلها، أو تجارة التصدير و الاستيراد، أو في ذلك من الميادين الاقتصادية ، كما هو الشأن في رأس المال.¹

و توجيه رأس المال لا يزال في طور التكوين، يكتسي أهمية اجتماعية كبرى بالنسبة للإنسان، لأن المهمة الأولى أن يصبح قطعة مالية متحركة متنقلة تخلق العمل و النشاط، أما الدور الثاني دور التوسع و الشمول ليضطلع بتطور المجتمع بالبناء الحضارية.و يستدل بالتجارة عند العرب القدامى في الحجاز أين كانت الأموال تسيير حسب مقتضيات الأسلوب الرأسمالي السائد في ذلك الوقت في إطار ما كان يعرف ب (رحلة الشتاء و الصيف) التي كانت تسييرها قريش و تسهم في تزويد الرحلة. فالقضية ليست تكديس ثروة، و لكن في تحريك المال و تنشيطه، بتوجيه أموال الأمة البسيطة، و ذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك، ينشط الفكر و العمل و الحياة في البلاد.

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص117.

فالقضية تتعلق بمنهاج يحدد لنا تخطيطا مناسباً بنبي عليه حياتنا الاقتصادية، و لا مكان فيه لتركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة، تستغل السواد الأكبر من الشعب، بل يجب أن يتوافر فيه إسهام الشعب مهما كان فقيراً، و بذلك يتم التعادل بين الطبقات في المجتمع، و تنسجم مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد.¹

2 . 3 . 5: فك الارتباط مع الغرب: شكلت أفكار مالك بن نبي الاقتصادية محورا هاما في تطور نظرية التنمية في العالم الثالث، و تركزت كل محاولاته في فك الارتباط بين العالم الرأسمالي المستعمر و العالم الثالث المتخلف المستعمر، و إعادة بناء اقتصاد قوي يعتد على الذات و تطوير الإنسان و إخراجها من القابلية للاستعمار إلى الفعالية الحضارية. فالاقتصاد قبل أن يكون قضية تشييد مصانع و بناء بنوك، هو قبل كل شيء تشييد إنسان و إنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات.²

و فك الارتباط يعني بالدرجة الأولى أن لا نربط اقتصاد الدول الفقيرة باقتصاد الدول المتطورة، و هذا لا يعني عدم الاستفادة من الخبرات و المنجزات، و التعاون بين الدول، و لكن المشاريع الاقتصادية الكبرى التي تمت في المجتمعات الأوروبية أخذت في حسابها مميزات المجتمع و خصائصه الثقافية و رجالها من العلماء و المفكرين و الفلاسفة الذين أنيطت لهم مهمة البحث و التقصي لأن المبادئ الاقتصادية لا يمكن لها أن تؤثر و تكون لها القدرة على التأثير إلا في الظروف التي يتفق فيها مع تجربة اجتماعية معينة.

إن علم الاقتصاد لم يبرز من الأحداث الاقتصادية بعملية تجريد صرفة، وفقا للطريق الذي اتبعته الهندسة عندما وضعت مسلمتها الأساسية. بل إنه ظهر إلى الوجود (بنظرات) وضعها على عينه على الرغم مما يدعيه أهله. ف (آدم سميث) قد وضع له (نظارتي) المصلحة الفردية و حرية التصرف، كما وضع له (ماركس) (نظارتي) التسيير السلطاني و الصراع الطبقي.³

إن فك الارتباط من المنظور الثقافي عند مالك بن نبي أن نقطع حبل الوتين بين الإنسان المتخلف القابل للاستعمار على مستوى الفكر و الممارسة، على عوالم الأشخاص و الأشياء و الأفكار، و التخلص من التقاليد البائدة و المبتورة، و النتائج السلبية للايديولوجية، و التبعية

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 121.

2 . _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص 59.

3 . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 170.

لكثلة اقتصادية و استزاد الأفكار و النظم و المذاهب التي تشكل خطرا كبيرا على الشعوب، لأن الحياة الاقتصادية لا ترتبط فقط بأجهزة ذات طابع فني و مالي و تنظيمي، بل هي قبل ذلك مرتبطة بأجهزة نفسية موجودة في المعادلة الشخصية لدى الفرد الذي يفكر في الخطط و الذي ينفذها. فالطريق الوحيد للاستقلال الحقيقي، يقتضي ببتير كل علاقات "التبعية" مهما كان نوعها، و تقبل سائر الصعوبات التي تواجه الإنسان عندما يرشد و يتحمل كامل مسؤوليته.¹

و هذه المعادلة ليست من المعطيات البسيطة التي نجدها تلقائيا في الجهاز الميكانيكي الذي نقتنيه لتجهيز مصنع، و لكنها شيء مكتسب، جنبا إلى جنب مع تكوين و نمو الثقافة. و فك التبعية بناء نظرية تنموية متكاملة لا يجب قبل كل شيء أن لا يتعارض مع المعادلة الشخصية السائدة في الوسط الذي يريد أن تطبيقه فيه، و لكي تؤدي نظرية اقتصادية دورها التأثيري في المجتمع، يجب أن تبقى حبيسة مدرجات الجامعة كأفكار مجردة بوصفها علما وقفا على بعض المتخصصين، بل يجب أن يطبق هذه العلم على التجارب الجامعية التي تقف فيها وعي كل فرد و إدراكه أمام المشاكل المادية، مقدما بذلك لعلم المتخصصين ظروف صلاحيته لتأثير. و يضيف في معرض حديثه عن وجوب الاعتماد على الذات و التخطيط من خلالها لبناء اقتصاد متين يرتكز على المقدرات المحلية، ليس من المقبول أن نستثمر ما نرغب فيه و نريده حتى بالوسائل التي هي في يد الغير. بل علينا أن نستثمر ما نستطيع بالوسائل الموجودة فعلا في أيدينا.² كانت هذه الفكرة قمة ما يصبو إليه مفكرنا في قضية فك الارتباط لأن المهم أن تكون الأفكار متصلة بالواقع الذي سوف تطبق فيه.

2. 3 . 6 : تحقيق الكفاية الإنتاجية: ينطلق مالك بن نبي في تحليله لفكرة الاكتفاء الذاتي في دول العالم الثالث من المقاربة التي طرحتها الإمبريالية في عهد تصفية الاستعمار كطريقة لتعويض السيطرة العسكرية تخول له البقاء في مستعمراته القديمة، بجانب من الترحيب و القبول و الرضا بدل الرفض و المعارضة، و كانت فكرة " الوحدة " مجسدة في أوروبا منذ القرن الحادي عشر من أجل الزحف الصليبي، و في القرن التاسع عشر من أجل الزحف الاستعماري . تحت إشراف "بيسمارك" في برلين العام 1881 . و التكتل الجديد الذي يجمع أوروبا في طابع إقتصادي و المعروف بـ " السوق الأوروبية المشتركة "

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 140 .

2 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 157 .

الذي ظاهره مواجهة الاقتصاد الأمريكي و الياباني و الطيني، و باطنه زيادة الحضور في المناطق الاستعمارية القديمة لترسي دعائم تواجد جديد بطرق اقتصادية. لذا المنطلق الأول الذي تراهن عليه الدول المستقلة حديثا هو التكتل في إطار اقتصادي جديد يكفل لها التعامل و التبادل بطرق متساوية و عدل في المعاملات و التوزيع فيما يعرف بمحور " طنجة . جاكرتا " الذي يحقق معدلات في التعليم والرعاية، و الصحة و العمل .

ترتبط قضية الاكتفاء الذاتي في أي مجتمع بقضية " المنطق العملي " و "الحق و الواجب"، فمتى كانت الأفراد يقومون بواجباتهم، كانت حقوقهم تنترى تباعا في علاقة سببية. فينبغي ألا يغيب عن نظرنا أن (الواجب) يجب أن يتفوق على(الحق) في كل تطور صاعد، إذ يتحتم أن يكون لدينا دائما محصول وافر، أي بلغة الاقتصاد السياسي (فائض القيمة). و هذا (الواجب الفائض) هو إمارة التقدم الخلقي و المادي في كل مجتمع يشق طريقه إلى المجد.¹ و قد صاغ الإسلام أروع نماذج العلاقات الاقتصادية الأخلاقية من خلال توجيهه الفقير ليحتطب، و أشار على الرجل بأن يأكل من عمل يده. في إطار حل أزمة اجتماعية على محور الحق و الواجب في نطاق " الإنتاج". هذا التوجيه الأخلاقي و الاقتصادي يعطى في موقف آخر و يتكرر عدة مرات، و يأتي هذه المرة في صورة واضحة جلية فيقول لطالب: "إن اليد العليا خير من اليد السفلى". و يضيف مالك بن نبي إن العلاقة الجبرية بين الإنتاج و الاستهلاك، علاقة اقتصادية أخلاقية نستطيع النظر في احتمالاتها فنراها تدل على حالات ثلاث، يحقق المجتمع إحداها حسب اتجاهه الثقافي.

الحالة الأولى: يستطيع المجتمع استثمار فائض إنتاجه في العمليات و الميزانيات المقبلة فهو مجتمع نام.

الحالة الثانية: فإن كانت كفتي ميزانه متعادلتان متساويان، فهو لا يصعد و لا يهبط، فهو مجتمع راكد.

الحالة الثالثة: فكفة استهلاكه أرجح لا يصعد و لا يستقر، فهو مجتمع ينهار.²

و عملية الاكتفاء الذاتي عملية أخلاقية تربوية بالدرجة الأولى تستهدف بناء الكيان النفسي لإنسان ما بعد الموحدين ليوضع في الحركة التاريخية للمجتمع، فالتاريخ لا يبدأ فقط من مرحلة الحقوق، بل من الواجبات في أبسط صورها ، فالواجبات المرتبطة بكل ساعة،

1 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 143.

2 . _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص 88

بكل دققة لا في معناها المقعد، فالأنبياء جميعهم ارتضوا رهان الواجبات، حين دعوا الناس إلى طريق بذل الجهد و الكفاح و الكمال و التقدم.

إن على البلدان العربية أن تعيد النظر في تنظيم حياتها الاقتصادية في إطار حلقة كاملة . تتخذ من الاستثمار الاجتماعي شرطاً ضرورياً للإقلاع الحضاري في إطار إقليمي خارج حدود الوطن الواحد فالرقعة العربية إذا ما توحدت بقدر ما تجمّع إمكاناتها و حاجاتها.(تراب ليبيا، موارد مصر البشرية، و أموال الكويت) ، فالأولوية في العالم العربي أن نعيد للتراب وظيفته الاقتصادية و شد العزائم و رفع الهمم من خلال استعادة العقول العربية المهاجرة ثقافياً، في إطار مشروع شامل تتحد فيه الأيدي و العقول و الأموال في الرقعة العربية أو في أكبر جزء منها بقدر ما تكتمل فيه شروط الاقتصاد التكاملي، حتى يعرف الناس أن التكتل حتمية و ضرورة لمواجهة الظروف الاقتصادية العالمية في إطار عوامل اجتماعية صرفة تضيء على الأفكار المطبقة أكثر أو أقل صلاحية. و حسناً أن نقول إن الأسباب التي تطبع سلوك المسلمين لتكون أفكارهم أقل فعالية في الحقل الاجتماعي من أفكار غيرهم، نقول أنها أسباب مرحلية، أعني ملازمة للمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع الإسلامي اليوم. و على المسلمين أن يوحدوا إمكاناتهم و حاجاتهم حتى يحققوا في أسرع ما يمكن شروط الاكتفاء الذاتي (Lantarcie) أي الحلقة الاقتصادية التي تستطيع الانغلاق على نفسها، إذا ما اقتضت الضرورات الداخلية و الخارجية ذلك.¹

3 . أبعاد التربية عند مالك بن نبي:

3 . 1: البعد الجمالي للتربية: يُرسي المشروع التربوي للثقافة مبدأ الجمال كإحدى الركائز الأساسية لبناء الحضارة، و كانت تحليلات مالك بن نبي تبدأ منذ خلق الله الإنسانية في ذلك الحوار الرمزي بين حواء و آدم، فالمرأة تميل للجمال في مظهرها، بينما يجنح الرجل للقوة، و أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل أن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أي حضارة، فينبغي أن نلاحظ في نفوسنا، و أن نتمثل في شوارعنا و بيوتنا و مقاهينا مسحة الجمال نفسها، التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي.²

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 103 .

2 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 87 .

و منه فإن المبدأ الأخلاقي و الجمالي هما الركن الركين في أية حديث عن الثقافة و من ثم عن الحضارة، تبقى قضية أسبقية الأول عن الثاني مختلفة من حضارة إلى أخرى، فبينما تقول الحضارة الغربية الهيلينية بالمبدأ الجمال و الذي يعطيه أهمية قصوى يتحدد من خلالها النشاط الاجتماعي، تبرز الحضارة الإسلامية الجانب الأخلاقي، فالذوق الجميل . كما يقول مالك بن نبي . الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، و توخيا للكريم من العادات. و لا شك أن الجمال كقيمة إنسانية، لا يمكن أن يولد من نفوس خبيثة، أو أفكار قمئة تشمئز منها النفوس و تنقزز منها الأبدان بل هو وليد ذهنية احترفت الحضارة و التحضر كمبدأ و مشروع حياة، و عالم أفكار مطبوعة في النفس الخيرة، لا شك أن للجمال أهمية اجتماعية هامة، إذا ما عدناه المنبع الذي تنبع منه الأفكار، و تصدر بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع.¹

بناء عليه فالتوجيه الجمالي في مجتمعاتنا يقتضي أولية المبدأ الأخلاقي كمحور تراعيه التربية الجمالية. فإن كان التوجيه الفني في الثقافة الغربية مثلا لا يمنع من تصوير الجسد العاري، فإن القيمة الأخلاقية المستمدة من الإسلام لا تتيح للتربية الجمالية أن تنهج هذا الاتجاه، و إذا كان الزي النسائي في المجتمع الأوروبي يكشف عن جماليات الجسد عبر موضوعات مختلفة، فإن جمالية الزي الإسلامي لا تتجاوز مبادئها الأخلاقي، كما أن الفنون و في كل صور التوجيه الجمالي و التربية الجمالية لا بد أن تتقيد بهذا المبدأ الذي هو أساس في بناء الفرد و المجتمع.²

3 . 2: البعد العملي للتربية: تبقى التربية مجرد فلسفة أن لم تتحول إلى واقع ملموس في البناء الاجتماعي تعالج مشكلة الإنسان و يحيط به من ظواهر سلبية، أو تتحول إلى قيم مجتمعية تعمل كضوابط أخلاقية تقي المجتمع من السقوط في مهاوي الزلل أو الانحلال و التفكك. إن الانفصال بين الفكر و العمل ليس هو السبب الوحيد في جمود التفكير الإسلامي . كما يقول مالك بن نبي . فهو يعود أيضا إلى الاختلاط في بداية الحركة الفكرية في المجتمع الإسلامي الحديث، فلم يكن العلم الذي اقتبسته من جامعات الغرب وسيلة (للإسعاد) بل كان طريقا في (المظهرية)؛ لم يكن ذلك العلم (استبطانا) لحاجة المجتمع يريد معرفة نفسه لحدث تغييرها، بل لم يكن (استظهارا) لبيئة نبحت عنها لنغيرها، فهو قانع منطو

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 98 .

2 . علي القرشي، مرجع سابق، ص 200 .

على ذاته، حبيس في صورته وأشكاله المألوفة، و أقرب دليل على انعدام فاعلية هذا العالم الإسلامي، فهو أننا لم نر فينا حتى الآن وجها من تلك الوجوه الخالدة، يبرز في تاريخ المعرفة الإنسانية في القرن الحالي.¹

و تتمثل الوظيفة الاجتماعية للتربية في العملية الاجتماعية التي تنتقل بها آداب و السلوك العامة و القيم و المعاني و الأنماط الثقافية من جيل إلى جيل، و تحدث هذه العملية الاجتماعية في صورة نقل أنواع النشاط و التفكير و المشاعر من الكبار و الصغار، ذلك أنه بدون نقل الآمال و المستويات و الآراء من الكبار الراشدين إلى الأجيال الوافدة فإن الحياة الاجتماعية تنقطع في وجودها و تطورها. فطبيعة حياة الأفراد من حيث الاختلاف في الأعمار و اختفاء بعضهم و ظهور بعضهم الآخر في الوجود، تجعل عملية النقل عملية اجتماعية ضرورية لاستمرار النسيج الاجتماعي. و يستمر النسيج الاجتماعي عبر نقل أفكار الجمهور الشعبية و أفكار القادة الفنية، و هذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة فهي تدين لهما بدفعتهما، و بمقدرتها الخلاقة.²

و يدخل ضمن الجانب العملي للتربية المنطق العملي أو "العقل التطبيقي" الذي يجسد الفعالية في النشاط، فالعقل التطبيقي بهذا المعنى هو عكس العقل المجرد، الذي يواجه المشاكل بنزعات المديح أو الرومانسية أو اللفظية أو الذرية .. فالتربية الدينية مثلا و هي تركز على تلقين النصوص أو إثبات وجود الله . في مجتمع مؤمن لا يحتاج بطبيعته إلى مثل هذا الإثبات . تهمل في الوقت نفسه الوظيفة الاجتماعية للدين، و هذا راجع الى افتقار إلى " الضابط الذي يربط بين عمل و صدقه و سياسة و وسائلها و بين الثقافة و مثلها و بين فكرة و تطبيقها، و هذه التربية تفتقد المنطق العملي، و تكشف عن عجز في الأفكار مما يعكس بدوره ضعفا في الإرادة و الانتباه. و الظاهرة نفسها تجدها في السلوك الاقتصادي المبدد . حيث تفتقر تربيتنا كما يقول مالك بن نبي . إلى مفهوم (المحصول) و (الوقت) كشرطين من شروط الفعالية؛ لذا لا بد من (الوسائل البيداغوجية) لبث هذه الفكرة في سلوك الفرد و في أسلوب الحياة في المجتمع.³

1 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 84.

2 . _____ ، الفكرة الأفروآسيوية، مرجع سابق، ص 138.

3 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 147.

و تتسرب كل الأفكار إلى التاريخ في مسيرة النسيان و تبقى الطريقة الوحيدة التي يصبح بها المبدأ أو الفكرة جزءا من التاريخ هي أن تتحول إلى (عمل) إلى دافع، إلى طاقة عملية إلى إمكانية عمل. إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل و الراعي و صاحب الحرة و التاجر و الطالب و العالم و المرأة و المثقف و الفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء... العمل وحده هو الذي يخط مصيرا الأشياء في الإطار الاجتماعي. و على الرغم من أنه ليس عنصرا أساسيا كالإنسان و الزمن و التراب، إلا أنه يتولد من هذه العناصر الثلاثة، لا من الخطب الانتخابية أو الوعظية.¹

3 . 3: البعد الفني و النفسي للتربية: تستقى التربية مشروعيتها من النماذج التاريخية التي أثبتت جدواها في الحاضر و تتطلع إلى المستقبل باستشرافها للنماذج الأكثر نجاحا في مجتمعاتها. و بالدراسة المتعمقة لهذه المشاريع كان البعد السيكولوجي الأكثر أثرا و الأشد التصاقا بالتربية الحققة. فهذا البعد تعمل التربية . كعملية . على إرسائه في دواخل النشء و نفسيته و ذلك بإحلال الثبات و دفع الريبة عن الفرد و إشاعة الأمن و الاطمئنان، و تحقيق الانشراح و السعادة و تحقيق النصر و التمكين.

و قد اعتمد مالك الكثير من مفاهيم و مصطلحات التحليل النفسي في تحديد العلاقات و التفاعلات الاجتماعية كالشعور و اللاشعور و الأنا و المنعكس الشرطي و الغريزة و الطاقة الحيوية، فيقول: " من الوجهة النفسية ليس لـ (شعور) النبي أي دور في عملية الوحي و هو . بداهة . لا يحتوي على تيار الوحي الذي لم يأت بعد أما (لا شعوره) فلم يكن له أن يلد تلقائيا فكرة مركبة و أثبتها التاريخ بصورة وضعية إيجابية ... فهذا التنسيق يظل عصيا على الفهم بصورة مزدوجة لو أننا قصرنا تفسيره على الذات المحمدية ".²

فالطاقة الحيوية . التي هي معطى نفسي . تحدد مسار الوظيفي الأفكار وفق تحليله، فالمجتمع الإنساني يبدأ مسيرة الحضارة مع دور الأفكار في فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ، و هنا يكون للأفكار دور وظيفي يرتبط بالطاقة الحيوية باعتبارها قوة فاعلة في محيط القيم الروحية التي تنظم الطاقة الحيوية و توجهها. فالطاقة الحيوية قوة فاعلة و الاستغناء عنها هو هدم للمجتمع و تحريرها بالكامل تهدم المجتمع كذلك، لذا يجب

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 114.

2 . _____ ، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص 65.

أن تعمل بالضرورة ضمن هذين الحدين. و كثيرا ما اعتمد مالك بن نبي على التحليل النفسي كبعد تربوي في قراءة الوضع العربي ما بعد الموحدين، فنجده في كتابه مقدمة شروط النهضة يقول: " فخصت في هذه الطبعة فصل(أثر الفكرة الدينية في مركب الحضارة) سالكا هذه المرة مسلك التحليل النفسي الذي يبيّن بوضوح أكبر جانبا من (الظاهرة) يقصد ظاهرة التأثير المباشر للفكرة الدينية في الوقائع النفسية الاجتماعية التي تكون التاريخ في هذا المركب . إذ يكشف لنا التأثير المباشر للفكرة الدينية في خصائص الفرد النفسية.¹ و من أهم أبعاد هذا الجانب نذكر:

3 . 3 . 1: البعد النفسي:

أولا : إحلال الثبات و دفع الريبة: جاءت كتابات مالك بن نبي من خلال استعراضه لتاريخ الإسلامي لبعض الشواهد التي فرضت نفسها على مخيلة الإنسان ليثبت في واقعه الاجتماعي و يدفع الريبة عند نفسه، فقد أعقب هذا التحليل بقصة الصحابي بلال بن رباح حين تعذيبه من قبل قريش: أحد ... أحد و التي لم تكن غريزة و لا صوت عقل، يقول في هذا الشأن: إنها صيحة الروح التي تحررت من إيسار الغرائز، بعدما سيطرت العقيدة عليها نهائيا في ذاتية بلال بن رباح.² و هو اتجاه محمود في اختيار النهج التاريخي و الإسقاط الواقعي لمقولات علم النفس و مفاهيمه مما يدل من وجهة أخرى على ضرورة استثمار السيرة النبوية و التاريخ الإسلامي في خدمة و تأصيل المفاهيم النفسية.

ثانيا: إشاعة الأمن و الاطمئنان: يتعلق البعد النفسي للتربية كذلك في إشاعة الأمن و الاطمئنان، فالمجتمع نسق تربوي يرتبط العضوي بالآخر في علاقة ترابطية تكاملية الهدف منها إشاعة الأمن بين أفراد المجتمع، فالنموذج الذي حاول مالك بن نبي التبشير و الإقتداء به و ترسم خطاه هو ذلك المجتمع الذي تأسس على فكرة الأخوة لا الإخاء من خلال التعاون بين المهاجرين و الأنصار الذين نبذوا الكثير من السلوكات المتأصلة المجتمع الجاهلي، و ذلك يربط أواصر المجتمع بشبكة العلاقات الاجتماعية و إحلال الفكرة الدينية، فلدى ميلاد المجتمع الإسلامي كانت ثقافة هذا المجتمع جد متجانسة، متحدة الطابع عند الخليفة و البدوي البسيط، و ذلك يتجلى في موقف عمر . رضي الله عنه . عندما خاطب المسلمين غداة توليه الخلافة، فقال قولته المشهورة: " أيها الناس: من رأى منكم فيّ اعوجاجا

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 14 .

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 102 .

فليقومه " و كان الرد على هذه المقولة ما نطق به أحد أولئك البدو البسطاء " و الله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ". هذا الحوار الفريد كان يطبع بطريقة رائعة أسلوب الحياة في مجتمع، اتحدت فيه حركات الفكر و العواطف و دوافع العمل؛ و في كلمة واحدة: اتخذ فيه شكل السلوك لدى الخليفة و البدوي البسيط. و الواقع أن عمر . رضي الله عنه . في قوله تلك كان متجها صوب المجتمع الإسلامي، و الذي أجابه إنما هو ذلك المجتمع على لسان البدوي.¹

ثالثا: تحقيق الانشراح و السعادة: تستمر المجتمعات الإنسانية بتحقيق بعض المتطلبات النفسية كالراحة و السعادة و الانشراح و هذا لا يتأتى في المجتمعات الحديثة النشأة إلا بعد ثورات تزعزع النفس الراكدة و المتأصلة في السلوكات القديمة التي تبنى عادة على المصالح الدنيوية، إن الثورات تخلق قيما جديدة صالحة لتغيير الإنسان، و ما كان لثورة إسلامية أن تكون ذات أثر خلاق، إلا إذا قامت على أساس (المواخاة) بين المسلمين، لا على أساس الأخوة الإسلامية، و فرق ما بين (المواخاة) و بين (الأخوة): فإن الأولى تقوم على فعل ديناميكي، بينما الثانية عنوان مجرد أو شعور تحجر في نطاق الأدبيات.²

فما كان لمجتمع حديث النشأة أن يصدر نموذجه إلى أمصار كبيرة خلال أربعون سنة لو لم يحقق الانشراح النفسي داخل الإنسان و يعده بالسعادة الأخروية، يقول ابن نبي: "إننا نرى أن كل ما يغير النفس يغير المجتمع، و من المعلوم أن أعظم التغييرات و أعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية".³

فتحقيق السعادة كان الهدف الأخير لإنسان ما قبل الموحدين الذي تخلص من نزواته و شهواته التي تكسرت على صلابة عقيدة المجتمع الحديث الذي غير فيه جاهليته ليتكيف مع وسطه الثقافي بإنشاء محيط جديد، فكل تغيير في مظهر الحياة و في نسق المظهر و في أشكاله يؤدي حتما إلى تغيير داخلي لدى الشخص الملاحظ."⁴

إن إدماج الفرد في شبكة اجتماعية عملية تحية، و هو في الوقت ذاته عملية انتقاء، و تتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم و ذلك ما يسمى تربية.⁴

1 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 51.

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 52.

3 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 80.

4 . _____ ، المرجع سابق، ص 67.

رابعا: تحقيق النصر و التمكين: و تأتي المرحلة الثالثة من هذا التشخيص المعروفة بالنصر و التمكين في مرحلة متأخرة عن المراحل السابقة، و تتمثل في تحقيق المجتمع المنشود التي يتماشى مع سلوك الفرد المعدل و المتكيف مع السياق الجديد. فكلما واصل التاريخ سيره، واصل التطور عمله في نفسية الفرد، و في البناء الأخلاقي للمجتمع الذي يكف عن تعديل سلوك الأفراد. و بقدر ما تتعزز هذه النزعة من قيودها في المجتمع، ينكمش التحرز في أفعال الفرد الخاصة شيئا فشيئا.¹

فتحقيق النصر و التمكين يتمثل في الحضارة التي تشرئب لها أعناق المجتمع، فذلك أن القيم الإيمانية و الحس الديني تكتسب موضوعية في ميدان العلاقات الاجتماعية تسهم في الدفع الحضاري، و تتأثر حركة الحضارة سلبا و إيجابا بثبات القيم الروحية و الأخلاقية، و ما كان لأي عمل آخر، سواء كان العلم أو العقل أو الفن أن يكون معوضا للجانب الروحي و دوره في توطيد أركان البناء الحضاري.² ذلك أن وظيفة الدين في الإسلام أنه قوة دافعة لحركة الإنسان الحضارية تتميز بالإيجابية و الفعالية في مقابل في مقابل العقائد و المذاهب التي ترى في الجوانب الإيمانية و الروحية، مجرد وسائل و طرق الهروب من الواقع و إثارة للسلبية و السكينة، حيث يتم الفصل نهائيا بين العقيدة الإيمانية و بين الوظيفة الاجتماعية التي يمكن أن تقوم بها هذه العقيدة في دنيا الحضارة و التفاعل الاجتماعي، فالدين إذا مركب القيم الاجتماعية ، و هو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره و حركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية، أما حين يصبح الإيمان لإيماننا جذيبا دون إشعاع، (أعني نزعة فردية) فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة و تحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة، و يتخلون عن واجباتهم و مسؤولياتهم.³

4 . 3 . 2: البعد الفني: يتمثل البعد الفني للتربية في إرساء قواعد فنية و جمالية يستطيع الفرد أن يتقن أو الأبعاد الجمالية للتربية في حياته الخاصة أو الجماعية في علاقاته مع أفراد المجتمع، لذا نجد أن كتاباته لم تخل من الإيحاءات الجمالية، بل أسس لمفهوم

1 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 111 .

2 . سلمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 142 .

3 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 27 .

الثقافة على بعد هام جدا و هو (الجانب الجمالي)، فالثقافة في صورتها الحية هي وحدة ذات أجزاء متماسكة و مترابطة فيما بينها بروابط داخلية، تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه و أدواقه و تاريخه. إن الثقافة في نظر مالك بن نبي هي تركيب متآلف للأخلاق و الجمال و المنطق العملي و الفن الصياغي.¹

إن ذاتيتنا تؤدي دورا رئيسيا في تحديد التربية و في رسم خصائصها، لكن إثراء هذه الذاتية لا يقتصر على الأشخاص و الأفكار التي تكوّن المجال الروحي؛ فإن لدينا حوارا آخر مع الطبيعة التي تنقل إلينا رسالتها مكتوبة بأبجدية ملغزة أيضا، هي: أبجدية الألوان و الأصوات و الروائح و الحركات و الظلال و الأضواء و الأشكال و الصور؛ هذه العناصر الطبيعية تتجمع في نفسيّتنا ثم تذوب و تهضم في صورة عناصر ثقافية، تندمج في وجودتنا الأخلاقي و في بنائنا الأساسي.²

فالكثير من الأشياء التي لامسها مالك بن نبي في المجتمع الفرنسي التي يعطي للجانب الفني . بالإضافة للجانب العملي . دورا أساسيا كي تنطبع النفس و تتعلق به، إن مقاييسنا الذاتية التي تتمثل في قولنا (هذا جميل) و (ذاك قبيح) أو (هذا خير) و (ذاك شر)، هذه المقاييس هي التي تحدد سلوكنا الاجتماعي في عمومها، كما تحدد موقفنا أمام المشكلات قبل أن تتدخل عقولنا، إنها تحدد دور العقل ذاته إلى درجة معينة، و هي مع ذلك درجة كافية تسمح لنا بتمييز فاعليته الاجتماعية في مجتمع معين بالنسبة إلى مجتمع آخر، إنها تحدد في الواقع المباني الشخصية في الفرد، كما تحدد المباني الاجتماعية، أو ما نطلق عليه (أسلوب الحياة)، أعني: خاصية الثقافة و هي بهذا نفسه تحدد رقتها و حدودها.³

و قد ركّز في العديد من أفكاره على الجانب الفني، حيث تنزع النفس الخيرة و التواقة إلى الجمال حيث يلح على أن تكون حياتنا جميعها لوحة جميلة و أنشودة منغومة، قصيدا خلابا و حركة موقعة متناغمة، و عطرا متضوعا آسرا، من مثل ذلك الأريج الذي أوحى إلى أحد المغنيين الفرنسيين بتلك الأغنية التي طالما ردّد جيل الحرب لازمتها القائلة: " ما أطيب أريجك العبق يا فرنسة".⁴

1 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 89 .

2 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 56 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 54 .

4 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 87 .

فالإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل أن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أي حضارة، فينبغي أن نلاحظ في نفوسنا و أن نتمثل في شوارعنا و بيوتنا ومقاهينا مسحة الجمال نفسها، التي رسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي. فكل علاقة . عند مالك بن نبي . تنشأ بين المرأة و الرجل، مهما تكن درجة البساطة في المجتمع الذي يعيشان فيه تقع بطبيعتها و بحكم الغريزة تحت قانون ذوق الجمال بما فيه من بساطة أو تعقد حسب تطور ذلك المجتمع.¹

3 . 3 . 3 : البعد التنموي للتربية : تكمن أزمة الإنسان المعاصر في الركود و قلة الفاعلية الحركية و التخلي عن السير في ركب التاريخ و نشأت في المجتمع الإسلامي عادات بالية وضعت الفرد في سياق خامد و وضع جامد. في حال أن مالك بن نبي يرى أنه لكي نتجاوز هذه المعضلة يجب أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب و الزمن و المواهب في بناء أهدافهم الكبرى، و يعتقد ابن نبي أن الفرد يؤثر في المجتمع بثلاثة مؤثرات هي:

أولاً: بفكره: ضرورة توجيه الثقافة.

ثانياً: بعمله: ضرورة توجيه العمل حتى نكسب أنفسنا قوة في الأساس و توافقا في السير و وحدة في الهدف و تجنب الإسراف في الجهد و الزمن.

ثالثاً: بماله: ضرورة توجيه رأس المال.

تتأسس فكرة التربية التنموية عند ابن نبي على مجموعة من الركائز و الأسس التي تخلق شروط الفعالية لدى الإنسان المتخلف في بعده الفردي و الاجتماعي في صيغة تربية تأخذ من أسلوب حياة المجتمع كبعد تنموياً. فمشكلة الثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكلة توجيه أفكار، لذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه... التي تعني تجنب الإسراف في الجهد و في الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة و العقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة أن تستخدم في كل وقت و المهم أن ندير هذا الجهاز الهائل المكوّن من ملايين السواعد و العقول في أحسن ظروفه الزمنية و الإنتاجية.²

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 102 .

2 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 67 .

لكي تستطيع أن تنتج لنا شروط النشاط الهادف. التي تحول لنا التربية من الواجهة التنموية إلى ثقافة مجتمعية يعمل كل أفراد المجتمع في إطار شبكة العلاقات الاجتماعية في تفاعلاته و علاقاته الاجتماعية إلى تحويل هذه الطاقة الحيوية إلى فلسفة تنموية تتكاتف جميع فعاليات المجتمع في تكريسها كواقع اجتماعي.

3 . 3 . 4 : البعد المدني(التحضر) للتربية: اهتم مالك بن نبي بفكرة التحضر و المدنية في جل كتاباته . و أن وردت مجازا . ذلك أن عصب الفكر الذي كان ينادي به هو: كيف نبني مجتمعا متحضرا يأخذ في أبعاده الجانب التراثي و الحداثي في نفس الوقت؟ بعيدا عن الضمير الإنساني الذي لم يألف العمل في حدود الثقافات، ما زال تسيطر عليه عادات جذبية مزمنة تحمله على أن يرى الأشياء من زاوية ضيقة.¹ و كانت الفكرة مستوحاة من الفكر الخلدوني حول العمران البشري. و كانت مقارباته الفكرية تتمحور حول كيفية إخراج الإنسان من طور البداوة و التخلف إلى الحضارة و التمدن و التقدم. و لم يكن لينتأى ذلك دون أن تكون هناك ثقافة توجه هذا المشروع. و تقوم عملية التحضر على احترام و تقدير الإنسان لذاته و لغيره باعتباره مخلوقا حرا مكرّما من قبل خالقه. فأساس كل ثقافة هو بالضرورة (تركيب) و (تأليف) لعالم الأشخاص، و هو تأليف يحدث طبقا لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية.

و كانت كانت الأخلاق حجر الزاوية بالنسبة للرؤية التحليلية عن مالك بن نبي أثناء معالجته لفكرة التحضر في التربية انطلاقا من تحليل مشكلة الثقافة لا بوصفها دراسة لواقع اجتماعي معين، بل منهاجاً للتحقيق؛ و بعبارة أدق: بوصفها منهاجاً تربوياً، فالأخلاق هي التركيب التربوي للعناصر الثقافية لتحقيق نهضة حقيقية نحتاج إلى أن نتصورها من ناحيتين:

أولاً: تلك التي تتصل بالماضي، أي بخلاصة التدهور، و تشعبها في الأنفس و الأشياء.

ثانياً: تلك التي تتصل بخمائر المصير و جذور المستقبل.²

و لكي نبني تربية على أساس مدني، يجب أن نبدأ بتصنيف العادات و التقاليد و إطارنا الاجتماعي و الخلق من ترسبات ثقافية قديمة بالية تعيق الحركة التاريخية من المسير

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 99.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 71.

و التقدم و تكوّس الجمود و الثبات. يضيف ابن نبي محلا للظاهرة " يجب على إحدى المجتمعات أن يشرع في التخلّص من رواسبه البالية، و في وضع الأسس التي يقوم عليها نظام جديد كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام عندما كان يمسك بمعوله ويحطّم أوثان المدينة التي ولد فيها من بلاد الكلدانيين، لكي يرسي الدعائم الراسخة لعالم التوحيد.¹ و لن تأتي هذه التربية إلاّ بفكر جديد يأخذ على عاتقه مستلزمات النهضة و التقدم بعيد عن التبعية و التخلف، و لا يكون ذلك إلاّ بتجديد الأوضاع بطريقتين:

الأولى: سلبية فصلنا عن رواسب الماضي.

الثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة.²

فبالنسبة للأولى تتعلق بالمجتمع التاريخي، فإن دفاعه عن أسلوب حياته، هو دفاع عن شخصيته عن مبدأ إدماج أفرادها في نطاقه، و تحديد علاقتهم به بحيث يصبحون بمثابة التعريف به، كما يصبح مجتمعهم بمثابة المعرّف لهم. فالضبط الاجتماعي و الموقف النقدي للفرد هما المظهران الأساسيان لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية.

أما بالنسبة للثانية فتتمثل في المجتمع المتحضر الذي يقع كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، و يقع كل خطأ في السلوك تحت إرغام المجتمع. و بواسطة هذه الوظيفة الثنائية الجانب يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه و على الصفات المميزة لفعاليته، و هذه الوظيفة إنما هي على وجه الدقة وظيفة الثقافة بالذات.³

3 . 3 . 5 : البعد العقدي و التعبدي للتربية: ترجع الأسس الأولى للتربية إلى جانبها التعبدي و الديني، و كانت " الفكرة الدينية " هي الأكثر حضورا و محورية في فكر ابن نبي و هي أساس كل مشروع تغييري، و قد اهتم بالدين من حيث وظيفته الاجتماعية في بناء الشخصية الحضارية و بناء العلاقات الاجتماعية و هنا نستشف أن الوظيفة الاجتماعية للدين: " تتحقق في شكل تركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني ينطبق على مرحلة معينة من الحضارة و هذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، و يجعل من الذي ليست سوى مدة زمنية مقدرة بساعات، تمر وقتا

1 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 72

2 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 71.

3 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 83.

اجتماعيا مقدرًا بساعات العمل، و من التراب الذي يقدم في صورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط، مجالًا مجهزًا مكيفًا فنيًا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج.¹

و من جملة هذه الأبعاد التي أكد عليها مالك بن نبي سلامة توحيد العبد لربه، بعيد عن أمور الشرك، وقد تمثل في التركيب بجوهر الدين و طبيعته بما يحتويه في جانبه الغيبي و الاجتماعي:

أولاً : الجانب الغيبي: المتمثل في الصلة بين العبد و خالقه، و هذا الجانب هو الأصل في الحركة الاجتماعية، بما يمنحه للفرد من دافعية، فالإيمان هو الذي يولد قوة الدفع و الحركة، التي تتجسد في فعل اجتماعي بحيث تغدو كل علاقة غيبية و قد تحققت في علاقة اجتماعية.

ثانياً: الجانب الاجتماعي: الذي هو ثمرة العلاقة مع الله في المجال الاجتماعي.

و هذان الجانبان مرتبطان لا ينفكان عن بعضهما البعض فالجانب الاجتماعي مترتب عن الجانب الغيبي، بل هو نتيجة في التاريخ، و لذا فإن ظهور الجانب الغيبي متوقف عن قوة الإيمان بالغيب، "الفكرة الدينية" لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية".²

و رغم التأكيد لهذه الحقيقة إلا أنه يرى أن قيمة الفكرة الدينية تكمن في وظيفتها لا في أصلاتها الذاتية، و من هذا فرق بين صدق الفكرة الدينية و فاعليتها، فالدين و أن كان صحيحا، فإنه يفقد فاعليته الاجتماعية بسبب الإنسان، و على العكس من ذلك يرى أن الدين و إن كان باطلاً فإن فاعليته تظهر بحسب حالة الإنسان الذي يحمله، و استشهد ملك بن نبي على صحة ما ذهب إليه بالفكرة الإسلامية التي فقدت فاعليتها في عصر ما بعد الموحدين على الرغم من أصلاتها الذاتية، و في المقابل ذلك أثبتت الفكرة الشيوعية فاعليتها في التأثير على مجرى الحياة رغم بطلانها.³

1 . العويسي عبد الله، مالك بن نبي، حياته و فكره، مرجع سابق، ص 287 .

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 51.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 60 . 61.

و قد بنى كذلك فكرة الجانب التعبدى للتربية على النموذج المثالي الذي صاغه النبي محمد . ص . الذي يعتبر قائد هذه الأمة ومثالها الذي تحتذى به و تستتير به في الدروب المظلمة، إن بعث نبي ما ليست حدثا فردا، ليكون غريبا نادرا، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ منذ سيدنا إبراهيم إلى محمد . ص .، و باستمرار ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها، يعد شاهدا علميا يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها؛ بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل و مع طبيعة المبدأ.¹ و كان انبثاق هذه الأمة منوط بانبثاق المجتمع الجديد الذي أسس في مكة من خلال السلوكات و العلاقات و التفاعلات الاجتماعية، و ما خلقه هذا المجتمع الجديد من صور الصبر و الإيثار و الكرم و الشرف و الشجاعة و غيرها القيم الخلقية، و كان مثالهم المحتذى في ذلك نبي هذه الأمة " فلم يصنع الرسول نفوسا مؤمنة فحسب، و إنما صنع عقولا مستتيرة و طرق إرادية فولاذية، إنه ينمي الشعور بالمسؤولية، و يشجع المبادأة في كل إنسان و يعظم الفضيلة في أبسط صورها، و إن هذا التأسي و المسارعة لهما رائد كل عضو في الجماعة، إذ يرى نفسه في السباق إلى الخير بحسب أمر القرآن.²

كل هذه المتغيرات الحديثة التي طرأت على المجتمع الجديد ما كانت لتؤسس لفكرة تقبل الحوار و التعايش مع الآخرين لولا فكرة التوازن داخل نسق المجتمع الذي بثته الفكرة الدينية في بناء و صيرورة شبكة العلاقات الاجتماعية التي تشكلت عبر سنوات عدة تزامنت مع نزول الوحي الذي كان متواترا يعالج مستجدات المجتمع الجديد في توازن تام، لو أن هذا القرآن كان قد نزل جملة واحدة لتحول سريعا إلى كلمة مقدسة خامدة و إلى فكرة ميتة، و إلى مجرد وثيقة دينية لا مصدر يبعث الحياة في حضارة وليدة.³

و يضيف إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض ليخضع كل شيء لقانون المكان و الزمان، بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هذا القانون، و ما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية. و من المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق.⁴

1 . _____ ، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص87.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص90.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص192.

4 . _____ ، المرجع سابق، ص196.

4 . 3 . 6 : البعد الوطني للتربية: إذا كان النقل الثقافي ضرورة اجتماعية لبقاء المجتمعات و استمرارها، فالتربية هي وسيلة هذا النقل . و نقصد هنا بمعناها العام . أي أنها العملية التي يستطيع بها الأفراد أن يكتسبوا أنماطا من السلوك تيسر لهم التعامل مع أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه، و بذلك تكون التربية ضرورة اجتماعية لا مناص عنها إذ بدونها تذبل المجتمعات و تزول.

و قد بدأ مالك في معرض حديثه عن الإيديولوجيا (المفهومية) و عن فكرة العمل البشري الذي يأتي رخوًا منقوصا و لا يمكن أن يندمج في خطة وطنية مشتركة بين جميع أفراد الشعب. فقد أُتِيحَ لنا في الجزائر أن نلاحظ أن النشاط الفردي و النشاط المشترك في فسحة زمنية قصيرة نسبيا، ضمن مرحلتين مختلفتين: طوال الثورة، و بعدها، فقد اقتادت الثورة الجميع إلى نشاط جماعي مسلح انخرط ضمنه كل فرد بنشاطه الخاص. و عقب سنة 1962 حدث كما لو أن الثورة قد أُسْنَلت شُعَلتها من نشاط الفرد؛ فنحن لكي نضطلع بالعمل على المستوى الوطني؛ و العمل الذي يقتضيه بناء الحضارة، و تستدعيه مهام الثقافة، نظل نفقد (صامولة) بالفعل.¹

و كان الرئيس أحمد بن بلة قد صرح شعبه في خطابه العام 1964 بأن القوس السياسي الجزائري ينقصه وتر قائلا: "إننا نملك برنامجا و لا نملك مفهومية" أو كما سماها (سقراط) واسما هذه النزعة في المجتمع الأثيني بـ (مفتري الأفكار). فقد كانت الثقافة في البلدان المتحضرة تتولى السياسة و تحقق دفعة واحدة شروطها النفسية . الزمنية. و الجزائر كدولة فتية و انطلاقا من عالم أفكارها الخاص بها يجب أن تنتج الحركة الضرورية لكي تتغلب على جميع أنواع العطالة الخاصة بمراحل الانتقال، أي يجب عليها أن تجد بمجهودها الخاص أفضل الوسائل و الطرق الملائمة لشروطها، أي يجب الانطلاق من الصفر. فكل شعب يجب أن يصنع تاريخه بوسائله الخاصة، و بأيديه ذاتها. و التاريخ في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازها، إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء و الأشخاص، و الأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات، أي في نفس الأوان الذي يواكبه عملية إنجازها. إلا أن نشاط المجتمع المشترك لا يتكوّن في بساطة من مجرد مجموع النشاطات الفردية، حتى و لو كانت هذه الأخيرة من نفس الجنس، و حتى لو كانت متحدة كلّها في نفس الاتجاه؛ إذ يجب أيضا أن يتم تنظيمها في كنف النشاط الإجمالي حسب مخطط تنظيمي يتولى تحديد فعالية هذا

1 . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص95.

النشاط، فهذا التنظيم للنشاطات الفردية بالذات في كنف نشاط إجمالي مشترك هو الذي يضع على وجه الدقة مشكلة المفهومية.¹

و يحاول في تحليله لمفهوم الإيديولوجيا الجزائرية ما بعد الاستقلال التي يتأسس عملها في النشاط الوطني المشترك كتربية لمجموع القوى الاجتماعية لتتصهر في قالب واحد ينطلق من عالم أفكار يشكل شبكة اجتماعية متداخلة يعيد فيها البواعث المعللة الجديدة لنشاطه المشترك، و يمكن تلخيص هذه المهام على هذا الغرار:

✓ تصفية راسب العسف المتخلف عن الاستعمار؛ و مجموع العطالة التي ندين بها إلى القابلية للاستعمار.

✓ الاضطلاع بالبناء الاشتراكي؛ و في توجيه البلاد صوب قبلة منتمة جماعتها التاريخية المغربية و العربية و الإسلامية.

و قد شكل مفهومي العمل و الحرية محور التربية الوطنية عنده لإرساء قواعد مشتركة بين أفراد المجتمع، فالعمل يجب أن يأخذ منحى ثوريا و معنى يتجاوز مجرد العيش إلى المكافحة من أجل البقاء، عندما تصبح كلمة (استقلال) مبررة لسلوكات الإهمال و الاتكال و التقاعس عن أداء الواجب، كما هو واقع النسوة اللاتي وهبن حلاهن أبان الاستقلال من أجل قضية وطنية. تأخذ معنى القيمة الرمزية . بعيدا عن الجانب المنادي . و هي الإسهام في النشاط المشترك. و تحمل أبعاد الفعالية المسرّع للطاقة الوطنية المجندة في عمل حافز، كما فعلت (المفهومية الألمانية) من مضاعفة ساعات العمل من أجل الانخراط في النشاط المشترك لأمة بكاملها خرجت لتوها من هزيمة تاريخية، أو من خلال مثال الصحابي (عمار بن ياسر) الذي كان يحمل صخرتين بدل صخرة واحدة لبناء المسجد الأول في الإسلام. إن اختلاط العمل بالأجر قد يكون مضرا في المجتمع لما يتخطى مرحلة التنظيم، إذ تنتج عنه موجة من الكسل و التقريط، تصيب الذي لا يجد من يشتري ساعات عمله، ينشأ عنها في المجال الاجتماعي (البطالة)، كما ينشأ عنها في المجال النفسي عبودية أخلاقية، و ذلك عندما يبلغ الفرد درجة لا يتصور معها لنفسه قدرة على العمل أو التزاما به، إلا تصور معها مستغلا يدفع له أجره عن ساعات عمله.²

1 . _____ ، المرجع سابق، ص100.

2 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص88.

وقد يخلط مفهوم الحرية بعد المفهومات التي تكلمنا عليها سابقا، فالحرية هنا تأخذ معنى الانطلاق داخل المبدأ النظامي الذي ينضبط مع المعيار الضروري للعمل المشترك الذي يؤسس لبناء التنظيم الاجتماعي و النظام العام. و هكذا كان حال جميع الديانات، جاءت لترويض الطاقة الحيوية للإنسان، و جعلها مخصصة للحضارة، و بناء على ذلك يضع الدين الحرية الفردية بين حدود عمل المجتمع و مقتضيات الحرية الخاصة بهذا المجتمع. و تتمثل خاصية المفهومية السياسية في ترسيخها لمثل هذا المبدأ بقرارة الفرد، بطريقة تجعله يدرك كيف ينخرط في حرية:

بحريته و نشاطه الفرديين داخل حرية المجتمع و نشاطه المشترك، فحرية أي بلد على الأرض تشاد بمثل هذه الضوابط، و ذلك من خلال فرضها عن طريق الإكراه الحكومي، و إما بترسيخها في الأفراد عن طريق تربية كل فرد بصورة تجعل سلوكه راضيا لمراقبة وازعه الأخلاقي الخاص. يقول ابن نبي: " و قد أعرب الشعب الجزائري عن وجهة نظره في هذا الموضوع بتبنيّه للمبدأ الديمقراطي في دستوره؛ لذا يجب على التربية الوطنية أن تفهم الجيل الفتى أن درب الحرية يمرّ بين أقصى طرفين هما:

✓ المحافظة المفرطة، التي تفضي إلى تحجّر الفكر داخل الغشاوة السياسية.

✓ تعمّد (عدم المحافظة) بطريقة منهجية، مما يؤدي إلى فوضى الأشخاص و الأشياء و الأفكار، و بالتالي إلى انفجار الإطار السياسي.

مما يؤدي بنا في كلتا الحالتين إلى إحدى أنواع المجتمعات:

✓ المجتمع المتراصف النضد العاجز عن التقدم، كما هو الحال في المجتمع الهندي و الصيني طوال قرون طويلة.

✓ المجتمع المذرذر (المفكك الذرات) كما هو المجتمع العربي الجاهلي، مجتمع عاجز عن الاضطلاع بنشاط مشترك، و بالتالي محكوما عليه أن يقبع على هامش التاريخ.¹

1 . . . ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 111

استخلاصات

كانت التربية هي المحور الأساس الذي تقو حوله فكرة مالك بن نبي الحضارية، وإن لم يذكرها كثيرا و لم يعطها الجانب البيداغوجي المكتبي، فقد كانت متضمنة في كل كتاباته التي تمحورت حول الحضارة فقد كانت التربية هي الروح التي تربط أجزاء النسق عموما، و تجري في عروقه مجرى الدم من الشريان، و نخلص في النهاية بعد أن أعطى للتربية أبعادها المجتمعية إلى النتائج التالية:

. يتضح مفهوم التربية بشكل جلي و واضح في كتاباته، إلا أننا استنتجنا مجموعة من الأفكار التربوية و المضامين ذات العلاقة من خلال مؤلفاته لما تتضمنه من قيم تربوية ذات أبعاد فكرية و سوسولوجية. و إن تداخل معناها في كثير من الأحيان مع مفهوم الثقافة التي يعد مفهوما محوريا في فكر مالك بن نبي في بناء الإنسان و تغييره.

. أخذ مفهوم التربية عند مالك بن نبي معنى التثقيف، أنها "عملية تثقيف متواصلة"، وأخذ صيغ و دلالات و معاني و مضامين مختلفة و متباينة، عبرت في مرة عن وضع اجتماعي تكيفه مع سياقاته و دلالاته المتجددة، فقد أخذت التربية معنى (العملية، المشكلة، المفهوم، منهج، تمثّل للقيم و انتظامها في سلوك الفرد، تنشئة اجتماعية، ظاهرة إنسانية، عملية تطبيع اجتماعي، عملية اكتساب خبرات، وسيلة للضبط اجتماعي، عملية تحضّر، نمو للفرد، عملية إدماج اجتماعي، عملية تعلم، عملية دمج ثقافي).

. الارتباط الوثيق و المرجعيات الإسلامية الأصيلة بوصفها المنهل التي استقت منه هذه المشاريع منهجها و مضمونها التغييرية. فقد كان مالك بن نبي قارئاً متميزاً للتاريخ الإسلامي و الإنساني، و مستخلصاً لقيم من تاريخ حضارات سابقة، فحين تقسيمه للحضارة أو الإنسان، فيذكر (إنسان ما بعد الموحدين)، و يذكر حادثة صفين، و غيرها من المنعرجات التاريخية التي تمشّدت في الصيرورة التاريخية للمجتمع الإسلامي. فيركز على الدين أو (الفكرة الدينية) كمحور أساس في بناء الحضارة و زوالها. بل يربطها بكامل البناء الاجتماعي للمجتمع، السياسي، الاقتصادي، و الاجتماعي، و الثقافي و التنموي.

الفصل السادس

التربية الاجتماعية: المفهوم . الشروط .
القواعد . المبادئ . الأسس . الأبعاد .

المحتويات:

تمهيد:

- 1 . التربية الاجتماعية: التعريف و الموضوع.
- 2 . الشروط الأولية للتربية الاجتماعية.
- 3 . قواعد التربية الاجتماعية.
- 4 . مبادئ التربية الاجتماعية.
- 5 . أسس التربية الاجتماعية.
- 6 . التربية الاجتماعية كعملية تحضر.
- 7 . أبعاد تشكيل التربية الاجتماعية.

استخلاصات

تمهيد

إن التركيز على التربية الاجتماعية وتخصيصها جزء ليس باليسير في كتابه "ميلاد مجتمع"، تضمينا لها على أنها هي الروح الذي يدوم و يستمر به المجتمع، و هي باعتبارها سلوكات و تصرفات أي الجانب التطبيقي و العملي للقيم الروحية في المجتمع التاريخي، التي يضطلع بمهمة تشييد الإنسان من الداخل و ترميمه، وإعادة تأثيثه من جديد.

و التربية صلة قوية المسار بين أفراد المجتمع، و تحويل لطاقتهم إلى تآدية وظيفة اجتماعية، مؤسسة على قواعد خلقية سليمة، و غياب دور التربية و التنشئة الاجتماعية الصحيحة في تكوين الفرد يؤدي إلى تغيير في سلوكه و أفعاله، حيث أن هذين الأخيرين تتحدد من خلال تنشئة المجتمع الذي يعيش فيه، و أهم ما يربطه بالمجتمع تلك العلاقات الاجتماعية بينه و بين الجماعات و الأفراد في المجتمع المحلي و الكبير. و من ثم فإن مسؤولية ضبط المجتمع للفرد تقع على عاتق الأسرة حتى سن النضج تقريبا، فالأسرة هي المدرسة التي تولد فيها العواطف، لما لدور الأم في بناء شخصية الطفل. فإن التغيير بصفة عامة سنة من سنن الكون، و المتتبع لحركة المجتمعات يلم بما أصاب المجتمعات المتخلفة جراء هذا التغيير الذي شمل الحياة الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية، فقد تم زحزحة الفرد في العالم المعاصر إلى مستوى السطحية و العزلة عن طريق الصورة الآلية و الميكانيكية، بشكل لم يسبق له مثيل، و يحاول الفرد الذي يعيش في هذه الظروف أن يعود مرة أخرى إلى جذوره في حضارته الخاصة.

و في على الأساس قدّم ابن نبي أغلب المجهود الفكري الذي أسماه " مشكلات الحضارة " في صيغة تربية اجتماعية تأخذ في مسارها كل السلوكات و المحامد إلى معاملات و تصرفات يومية، و تغير كل نشاط الحياة و تجعله متعلق بالهدف التاريخي، الذي خُلق من أجله الإنسان، فالعمل التغييري الذي تؤديه الجماعة في إطار عمل مشترك انطلقا من الطاقة الحيوية هو الذي يصنع التربية الاجتماعية.

و سوف يحاول هذا الفصل أن يجيب على عدة أسئلة تتعلق بمبادئ التربية الاجتماعية، و شروطها و قواعدها، و كيف تجعل من كل عمل داخل المجتمع . عملي أو نظري . ضمن إطارها.

1 . التربية الاجتماعية: التعريف و الموضوع.

1 . 1: تعريف التربية الاجتماعية:

إذا علمنا أن المجتمع لا يستطيع أن يغير ذاته إذا هو لم يبدأ أولاً بتغيير الإنسان من حيث سلوكه و أفكاره، فإن مالك بن نبي يدعو إلى التربية الاجتماعية لضمان بناء الإنسان بناء سليماً و متكاملًا من خلال تربية تأخذ من الفكرة الدينية الأساس و الموجه، و من التربية الاجتماعية ميدانًا لتجسيد مبادئ و قيم الإنسان المتحضر.

و التربية الاجتماعية ليست عبارة عن أمور نظرية أو قواعد مجردة، و إنما هي في جوهرها قيم أخلاقية و ثقافية نابعة من أصالة المجتمع و تاريخه، و بقدر ما تستمد هذه التربية مفاهيمها من قيم المجتمع الثابتة، بقدر ما تكون قادرة على إحداث التغيير السليم في فكرة الفرد و نفسيته، بل تصنع من الفرد شخصًا اجتماعيًا يضيف جهده و عمله إلى مجموع الطاقات الفردية الأخرى التي تلقي كلها في صورة نشاط مشترك يقوم به المجتمع ككل.¹

إن موضوع التربية الاجتماعية هو الفرد، و أهم مضمون لها هو تغيير الفرد نفسه، لأن كل ما يغير الفرد يغير المجتمع، و كل ما يبني الفرد يبني المجتمع و كل عمل في الاتجاه المعاكس فهو هدم للبناء الاجتماعي ككل. و التربية كأعداد و تشكيل لقيم و مهارات و اتجاهات الأفراد بما ينسجم و حاجات البناء هي تربية للمجتمع تتأثر البناء القائم و تؤثر فيه في حالة إعادة بنائه. و هذا ما قصده ابن نبي حين طرح تصوره للتربية الاجتماعية باعتبارها تكييف الفرد ضمن سياقه البنائي بتغييره من "فرد" غرائزي إلى "شخص" مُكَيَّف ضمن النشاط المشترك. إن إدماجه في شبكة العلاقات الاجتماعية عملية تنحية، و هو في نفس الوقت عملية انتقاء. و تتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم . بواسطة المدرسة . و هذا ما يسمى التربية.²

¹ . _____، آفاق جزائرية، ترجمة: الطيب شريف، (ب ط)، مكتبة النهضة الجزائرية، (ب س) الجزائر، ص121

² . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص67

1 . 2: موضوع التربية الاجتماعية:

تعني التربية الاجتماعية عند ابن نبي أكثر من مجرد عملية اجتماعية تهدف إلى تغيير المجتمع، بل هي منهج يسترشد به المجتمع أثناء سيره في الدروب الوعرة، و لا يمكن أن تأتي أكلها إلا إذا كانت شبكة العلاقات تعمل في نشاط حثيث. و قد مثلها في المنحي البياني الذي يمثل المراحل الثلاث:

أولاً: المرحلة الروحية: و هي مرحلة تتفق مع شبكة العلاقات الاجتماعية حين تكون في أكثف حالاتها، لا في أكثر امتدادها. هذا ما توحى به عبارة (البنيان المرصوص) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا ﴾¹ هذا من الناحية الاجتماعية، أما من الناحية النفسية فإن هذه المرحلة تسير و الحالة التي تكون فيها حالة التوتر عالية، و يكون نظام الأفعال المنعكسة في أقصى حالات تنظيمها. و لا يمثل هذا الواقع ازدهار مجتمع و بلوغه أوج عطائه، بل لأنها يتمتع بميزتين اثنتين: فقواه جميعها في حركة، و هذه الحركة دائمة مستمرة و صاعدة. و كل خروج عن الحركة الصاعدة هي حركة معطلة تعدل و النقد و التوجيه، و هذا ما أوحى به قصة سورة التوبة في قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا يقول الله سبحانه و تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾².

ثانياً: المرحلة العقلية: تكون في هذه المرحلة شبكة العلاقات الاجتماعية في أكثر حالاتها سعة و امتداداً، لكن تكون شوائب الموازنة العقلية بدأت تطفو على السطح، و يقدم لنا مالك بن نبي بعض الشواهد التاريخية من التاريخ الإسلامي في صورة حالة الدولة العباسية عندما ظهرت دولة الأغالبة في المغرب الأدنى، و ظهور النزعة الشعبوية في المشرق و بلاد فارس، و من وجهة التحليل النفسي يكون نظام الأفعال المنعكسة في المجتمع الإسلامي قد تعرض لصدمة (صدمة صفيين)، في هذه المرحلة يكون جزء من غرائزه لم يعد تحت رقابة نظام الأفعال المنعكسة، هذا يحدث جراء تبعثر الطاقة الحيوية أثناء مباشرة الوظيفة الاجتماعية.

1 . سورة الصف، الآية: 4

2 . سورة التوبة، الآية: 118

في هذه المرحلة يؤدي المجتمع وظيفته الطبيعية و هي التطور و الاستمرارية، لكن الحركة الصاعدة تتغير، إما إلى سكون (و هذا ما يعرف في التاريخ الإسلامي بحركة المرجئة)، و إما إلى الهاوية (و تمثله حركة القرامطة و حادثة سرقة الحجر الأسود)، أو بعبارة أخرى كما يقول مالك بن نبي: فمجموع الطاقات لم يعد يعمل، و مجموع آخر يعمل ضد الحركة الدائمة، و بعبارة أصح: ضد المثل الأعلى للمجتمع.¹

ثالثا: المرحلة الغريزية: و هي المرحلة الأخيرة التي يصلها المجتمع، ففي هذه المرحلة تتفكك الغرائز، تصبح فردية غير منسجمة، و تنهوي شبكة العلاقات الاجتماعية، فيختل نظام الطاقة الحيوية و يفقد قيمته الاجتماعية حين يهرب من مراقبة نظام الأفعال المنعكسة الناشئ عن عملية التكيف. و هذا ما يعرف بـ: (عصر الانحطاط)، و هي الحالة التي أوجدت ظروف الاستعمار و القابلية للاستعمار. لذلك نرى أن تاريخ مجتمع ما، هو تاريخ شبكة العلاقات الاجتماعية و نظام الأفعال المنعكسة لدى نموذج، و هو الفرد المكيف.

2 : الشروط الأولية للتربية الاجتماعية :

1 . 2 : التغيير النفسي: يبدأ التغيير النفسي بظهور الفكرة الدينية في مجتمع ما، فالإنسان تدبّ فيه الحيوية، و يحقق عمله الاجتماعي، فالفكرة الدينية تخلق الشبكة الروحية و التي هي قضية إيمان بالله، و هو يخلق بعمله هذه شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لها المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، و أن يؤدي نشاطه المشترك. العمل التاريخي هو بالضرورة من صنع الأشخاص و الأفكار والأشياء جميعا، و معنى هذا أنه لا يمكن أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوافر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لترتبط أجزاءها في نطاقها الخاص و بين هذه العوالم، لتتشكل كيانه العام من أجل عمل مشترك.² بينما كان أول شيء في هذه الطريق هو تكوين نظام الانعكاسات الذي يغير السلوك الإنساني، و هذا التغيير النفسي هو الذي يبدأ منه تغيير المجتمع، وكذلك يمثل الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي. و هذا ما جاء صريحا في الآية الكريمة، و التي كانت اللبنة الأولى في منهج مالك بن نبي التغيير، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

¹ . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 77.

² . _____، المرجع سابق، ص 27.

بأنفسهم¹. و كانت دائما الفكرة الدينية هي المبعث الأول في التغيير النفسي و بالتالي في تغيير المجتمع، فالفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى (عملية شرطية) تمثل ما يصطلح عليه علم النفس (الفرويدي) ب (الكبت). و هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تلغ و لكنها انضبطت بقواعد نظام معين. و في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده، و يخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.²

وكانت أول عملية يضطلع بها المجتمع الناشئ هي تغيير الصفات النوعية الخاصة بالفرد، إلى صفات اجتماعية تحدد معالم الشخص، و ذلك بتغيير الطاقة الحيوية المنطلقة من الغريزة إلى طاقة اجتماعية خاضعة لمراقبة نظام الانعكاسات المتكونة لدى الفرد المكيف الذي تم إخضاعه لعملية التربية، و يسمى إنسان في هذه الحالة ب (الشخص) أو الفرد المكيف، و لا يمكن أن نلمح ذلك إلا من خلال تفعيل شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يؤدي إلى ظهور العمل المشترك.

2 . 2: النشاط المشترك: و هو صورة حضارية راقية تتولد عن المجتمع الجديد الذي تغير فيه الفرد إلى الشخص المكيف الذي خضع لعملية التكيف و الإشراف المؤهل للاندماج في المجتمع و استئناف وظيفته التاريخية. هذا المجتمع الذي يتأسس على فكرة (شبكة العلاقات الاجتماعية) التي توحد الطاقات المنطلقة بواسطة الغرائز و توحدها في صورة نشاط مشترك يقوم به كافة أفراد المجتمع. فبقدر ما تكون هنالك فكرة واضحة تمام الوضوح عن دور هذا العنصر في ميلاد مجتمع معين، يمكن أن تكون هنالك فكرة دقيقة تمام الدقة عن دورها الذي يمكن أن تؤديه في (نهضة) هذا المجتمع. و هذا ما ندرك معناه في قوله صلى الله عليه و سلم : " إنّه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " بالمفهوم الاجتماعي الدقيق.³ ذلك المثل الذي ساقه مالك بن نبي عن سلمان الفارسي و بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنهما، في ذلك النشاط المشترك الذي اضطلعت به أمة (الوسط)

¹ . سورة الرعد، الآية: 11

² . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص75.

³ . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص81

لتحقيق العلاقة الإنسانية المتحضرة. إن جميع المبادئ الأخلاقية دينية كانت أو دينية إنما تنتهي إلى هذا الأساس المقدس الذي يرتفع فوقه بناء الإنسانية الأخلاقي، كما أنه هو الذي يؤمن نشاطها المشترك.¹

لكن كيف يتبلور هذا العمل المشترك في صورة تربية اجتماعية ؟ إن وحدة العمل التاريخي ضرورة، فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها و هي التي تتجسم في صورة (حضارة) يعد ضرورة أيضا، هذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود (عالم) رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما نطلق عليه (شبكة العلاقات الاجتماعية) فعمل المجتمع ليس مجرد اتفاق (عضوي) بين الأشخاص و الأفكار و الأشياء، بل هو تركيب هذه العوالم الثلاثة، بحيث يحقق ناتج هذا التركيب في اتجاهه، و في مده (تغيير) وجوه الحياة، أو بمعنى أصح : تطور هذا المجتمع.

فعلى سبيل المثال إن الشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع، و إنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة، و هذا الكائن في ذاته نتاج حضارة، إذ يدين لها بكل ما يملك من أفكار و أشياء، و بعبارة أخرى: كل من العوالم الاجتماعية الثلاثة يتفق مع الصيغة التحليلية الآتية: ناتج حضارة = (إنسان + تراب + وقت)، و هذه المعادلة العضوية التاريخية تتجلى في كل عنصر من عناصر المجتمع الثلاثة لتؤكد وحدة تأثيره منفردا، كما يتجلى في علاقاته بالعنصرين الآخرين، لتؤكد وحدة تأثيرها مجتمعة، و هي تتجلى بصفة خاصة في الإطار الشخصي للفرد حين تقدم له بصورة ما جوهر نظام علاقاته الاجتماعية، و خلاصة القول أن أصل شبكة العلاقات الاجتماعية، الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك، إنما يكمن في تخلق تركيبه العضوي التاريخي، و على هذا فإن تاريخ هذا التركيب هو الذي يفسر أصله، كما يحدد في الوقت نفسه طبيعة العلاقات الاجتماعية لحظة نشوئها.²

و يؤكد على أن فعالية العمل الجماعي تتحدد من خلال إيجابية العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، و لا يتم ذلك بمعزل عن التركيب الحضاري لتاريخ هذه المجتمع، و لا يمكننا فهم

1. المرجع سابق، ص 95.

2. المرجع سابق، ص 62.

حركة الحضارة في غياب تركيبها الذي هو في الوقت نفسه يحلل و يفسر طبيعة العلاقات داخل الكيان الحضاري.

3. قواعد التربية الاجتماعية:

3 . 1: القاعدة التاريخية: تتحدد التربية الاجتماعية في المجتمع من خلال استقراء تاريخه و صيرورته التي شكّلت بنائه الاجتماعي، و قامت بتشكيل التنظيم الاجتماعي من خلال "الفكرة" الجديدة التي بثت الروح في أوصاله و أحيته من جديد، إذا كانت الطبيعة توجد النوع، فإن التاريخ يصنع المجتمع. و هدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، و هو ما نطلق عليه الحضارة.¹ و هذا التاريخ الذي يشكل جزءًا هامًا من الحضارة و يسهم في بنائها فهو صورة واقعية و مرآة عاكسة لجملة السلوكات و التصرفات الاجتماعية و تعبير واقعي عن الانعكاسات و التفاعلات داخل المجتمع، يضيف إن التاريخ، في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه، إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء و الأشخاص و الأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات أي في نفس الأوان الذي يواكب عملية إنجازه.²

فإذا كانت عوالم الأفكار و الأشياء و الأشخاص لا تؤدي دورها دون فكرة دينية تعطيه الدافع القوي لخلق سلوكات إجتماعية حميدة و تجاوز سلوكات أخرى سارعت بتهديم البناء القديم، فالدين كما يقول "سيشرون" **Sicheron** في كتابه عن (عن القانون) هو " الرباط الذي يصل الإنسان بالله " فحتمًا فهو رابطة أخلاقية و تربية يغرسها الله في عباده عن طريق الأنبياء. فأى تربية تغييرية بنائية لا تتحرك ضمن الإدراك التاريخي لدورة مجتمع تفقد التشخيص السليم. فالموجهات الروحية والأخلاقية للإسلام و هي تكوّن نظام الانعكاسات المغيّر للسلوك قد تركت ورائق في التغيير النفسي و الاجتماعي " يمكن أن تكون تأكيدًا لما سبق إيرادها من اعتبارات نظرية، بحيث تخوّل هذه الاعتبارات قيمة تربية قابلة للتطبيق لدى نهضة المجتمع الإسلامي و إعادة بنائه. فبقدر ما تكون هناك فكرة واضحة تمام الوضوح عن دور هذا العنصر في "ميلاد مجتمع" معين، يمكن أن تكون هناك فكرة دقيقة تمام الدقة عن دورها، و الذي يمكن أن تؤديه في "نهضة" هذا المجتمع.³

1 . _____، المرجع سابق، ص 19.

2 . _____، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 98.

3 . علي القرشي، مرجع سابق، ص 231.

3 . 2: القاعدة الاجتماعية: تشكل الحياة الاجتماعية القاعدة الصلبة التي تجري عليها التربية الاجتماعية، لأنها تهدف بالأساس إلى بناء و تنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية، لكي يمكن للمجتمع أن يسجل حضوره في التاريخ، و تأخذ طابع الثقافة من خلال تجسيد بعض المبادئ كسلوكيات اجتماعية، لذلك نجده قد أكد أن الثقافة هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة. و قد أكد في كثير من مقارباته على ضرورة بناء العالم السلوكي الحياتي اليومي للإنسان الحضارة و ذلك من خلال المنطق العملي، و الذي يقصد به استخدام أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة مهما كانت بساطتها و قلتها، لأن التاريخ . في نظره . يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعتقد عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، و شعارات كاذبة، يعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبيرة.¹

و حدد ابن نبي جملة من السلوكيات تقوم بتوجيه العمل صوب سلوكيات اجتماعية تبرر الحياة الاجتماعية و تقوم بتربية اجتماعية من خلال الأعمال اليومية لكل حسب موقعه، من أجل بناء اجتماعي سليم، حتى تلك السلوكية التي تبدو هينة. إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل و الراعي و صاحب الحرفة و التاجر و الطالب و العالم و المرأة و المثقف و الفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء. فإعطاء ثلاثة حروف من الأبجدية عمل، تقبل هذه الحروف عمل، و إزالة أذى عن طريق العمل، و إسداء نصح عن النظافة أو الجمال . دون أن يغضب حين لا يصغى لنصحه . و عمل و غرس شجرة هنا عمل، و استغلال أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل، و هكذا. فنحن نعمل مادما نعطي أو نأخذ بصورة تؤثر في التاريخ.²

و لكي نخلع على التربية الصفة الاجتماعية يجب في البداية أن يقوم المجتمع ببناء و تنظيم و استمرار تلك الصفات الشخصية الذاتية لكي تضمن للفرد شخصيته و دوره في التاريخ". و هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهرى للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي

¹ . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص78.

² . _____، المرجع سابق، ص114.

يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن، و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، و توجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به، فتكوّن هذه الشبكة، و لو في مرحلة ابتدائية هو الذي يعبر عن حدث (ميلاد مجتمع) في التاريخ.¹

3 . 3: القاعدة الشخصية: إن التربية الأصلية الفعالة، هي باستمرار تلك التربية التي تتجسّد في بناء وعي تكاملي متوازن لدى الفرد و المجتمع، و لا تبتسر هذا الوعي بحصره في جوانب أو أجزاء من منظومات الوعي الخلقى أو التسخيري أو الاستخلافي، بل تتجاوز ذلك إلى استيعاب شمولي تكاملي لكل المنظومات. لأن ذلك لا يتأتى إلاّ من خلال طاقة حيوية تقوم بعملية التجديد داخل الإنسان المحقّق الذي يرمي إلى بناء حضارة، فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده و بين مثله الأعلى و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلا و شاهدا. و ينتهي التاريخ بالإنسان المتحلّل؛ بالجزء المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل، و لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو أساسا ماديا.²

و لننظر إلى الفكرة الدينية في دفع الطاقة الحيوية نحو شبكة العلاقات الاجتماعية، لكن هذه المرة في صورة ميكروسكوبية تجزئ الطاقة الحيوية إلى طاقات ثلاثة حدّها: طاقة القلب و طاقة اليد و طاقة العقل، حيث بيّن أن الإسلام حينما جاء استطاع خلق حضارة خلال نصف قرن لأنه أتى بالمبررات الدافعة لهذه الطاقات الثلاث لتحقيق متساندة حضارة ذات إشعاع عالمي، الشيء الذي لم يتحقق للمجتمع العربي طوال أربعة آلاف سنة (منذ عهد إسماعيل . عليه السلام . إلى البعثة المحمدية)، فحالة المرأة التي جاءت تطالب النبي . ص . أن يقيم عليها حد الزنا . رغم سرية الذنب . تعبر عن حالة توتر اجتماعي في طاقة القلب و التي عبر عنها النبي . ص .: " لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لَوَسِعَتْهُمُ " .³

1. _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 14.

2. _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32.

3. صحيح مسلم / 3 / 1324 الحديث رقم : 1696.

و يحصل التوتر الاجتماعي بدافع الفكرة الدينية من الفرد بموقعه السياسي لما طالب الحاكم و الخليفة عمر ابن الخطاب رعيته بأن يقوموا اعوجاجه و انحرافه، و قوبل ذلك بتوتر اجتماعي أكبر منه من الرعية حين عقّب عليه الأعرابي: " لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا " فالبنية الاجتماعية لا تبلغ كمالها الخلقي و الحضاري إلا بهذه العلاقات التبادلية بين طاقة حيوية مندفعة من الفرد و ضمانات اجتماعية يكفلها المجتمع لأبنائه.¹ إن تنظيم الطاقة الحيوية للفرد و تكيفها ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية و الأنشطة المنبثقة عنها يقودنا إلى القول بأن كل فكرة عن التربية الاجتماعية يجب أن تحدد في ضوء تكوين الفرد و علاقاته الاجتماعية. إنه لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، و في سلوك نمودجه الذي يتكوّن منه، و بعبارة أخرى: لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة، عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد، و في مستوى المجتمع.²

4 . مبادئ التربية الاجتماعية:

4 . 1 : **الفعالية التغييرية:** وتمكن هذه الخاصية في تغيير الإنسان المتخلف . إنسان ما بعد الموحدين . فقبل بدء دورة من الدورات الحضارية أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة، فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا، و سلبت منه الحضارة تماما، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة.³

فدور التربية الاجتماعية هنا هو أن للإنسان فعاليته و طاقته الروحية التي فقدها و بناء عالم أفكاره، فأول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة علاقاته الاجتماعية. و على هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. و من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين، و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي . ص . و لكن

¹ . مولاي الخليفة لمشيحي، مالك بن نبي . دراسة استقرائية مقارنة ، معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية لمشروع " مشكلات الحضارة " ط1، دار

النايا، دار محاكاة، دمشق، سوريا، 2012. ص 126.

² . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 78.

³ . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 85.

لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي ، أي مع تكوين شبكة علاقات اجتماعية حتى قبل أن تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاثة : عالم الأفكار و الأشخاص و الأشياء.¹

إن مفهوم التربية الاجتماعية إذن أساسي إذا ما أردنا أن نشكّل حضارة جديدة، و نربي ثقافة متحضرة تطول كل شرائح المجتمع و تتعداه بالتوجيه و التفعيل، ذلك لأنها لا تهدف فقط إلى تعليم الناس بعض المسائل السطحية التي تخص سلوكهم و تعاملاتهم، و لكنها تهدف إلى التغيير الجذري للشخصية، و لعالم العلاقات الاجتماعية بالصورة التي تجسّد حركة الجماعة الإنسانية في أعماق معانيها، و أتقن صور تحضرها و فاعليتها التاريخية أي جعلها جماعة متحضرة بأتم معنى الكلمة² " إذا ليس الهدف منها . التربية الاجتماعية . أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة و لكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه، أعني أن نُعلّمه كيف يتحضر . فإذا ما تصورنا التربية الاجتماعية في نطاق هذه المصطلحات أمكننا أن نلخصها في كلمة واحدة هي: الثقافة. فهذه إذن الثقافة في عمقها الحضاري، و في حيويتها الاجتماعية، فهي تربية اجتماعية ذاتها، هي منهج تغيير المجتمع و تحضيره. و هنا تأخذ فكرة التربية الاجتماعية أهميتها عندما تصبح مصدرا حيويا لتغيير الفرد، و تفعيل المجتمع، و توجيه خطاه باتجاه صناعة التاريخ، فهي في حقيقتها" وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، و كيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، و كيف يكون معهم شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه في التاريخ".³

4 . 2: بناء شبكة العلاقات الاجتماعية: بالإضافة إلى الفعالية التغييرية، نجد شبكة العلاقات الاجتماعية واحدة من المبادئ التي تتأسس عليها التربية الاجتماعية، فيقوم المجتمع الجديد بتأدية وظيفته التاريخية حين تكتمل شبكة العلاقات الاجتماعية و يؤدي عمله المشترك في التاريخ، فالمجتمع يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن له استمراره و تحفظ شخصيته و دوره في التاريخ. و هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهرى للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن،

1. _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص28.

2. عبد العزيز برغوث، مداخل التجديد الحضاري و آفاقه العالمية(دراسة في فكر مالك بن نبي) ط1، دار التجديد للطباعة ، ماليزيا، 2005، ص230

3. _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص63.

و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، وتوجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به.¹

و في تعريفه لشبكة العلاقات الاجتماعية، و صلتها بالفعل التاريخي أو بناء الحضارة نجده يرجع إلى المكونات الأساسية للمجتمع، و يحدد لنا موقع الشبكة في هذه المكونات، كما يحدد لنا دور و وظيفة هذه الشبكة في الفعل التاريخي. ففي تصوره: " أن التاريخ على أية حال ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له (الذات) والمجال الذي يحوطه على السواء. أي أنه على ما ذهب إليه علم الاجتماع: النشاط المشترك، المستمر الذي تقوم به الكائنات و الأفكار و الأشياء مطبوعا على صفحة الزمان. و إذا أردنا تعبيراً أدق فإننا نقول: أن صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير عوالمه الثلاثة: عالم الأشخاص، عالم الأفكار، عالم الأشياء، لكن هذه العوالم لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من (عالم الأفكار) يتم تنفيذها بوسائل من (عالم الأشياء) من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص). فالعمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص و الأفكار و الأشياء جميعا. و معنى هذا أنه لا يمكن أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص و بين هذه العوالم، لتشكل كيائها العام من أجل عمل مشترك، و كما أن وحدة العمل التاريخي ضرورة، فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية. و هي تجسيم في صورة (حضارة). يعد أيضا، و هذه الشروط يستلزم كنتيجة منطقية وجود (عالم رابع)، و هو شبكة العلاقات الاجتماعية.²

و في هذه الفترة تخضع كل الجوارح للطاقة الحيوية، واندفع المسلم بكل طاقاته وإمكاناته في إطار الفكرة الدينية نحو تأسيس مجتمع جديد متكافل متضامن، وكانت شبكة العلاقات الاجتماعية على أقوى ما يتصوره إنسان، وبلغه علم النفس، فإن الفرد يكون في أحسن ظروفه ويعيش التوازن الدقيق بين: الروح والعقل، أو بين: الروح والمادة. فالتربية الاجتماعية تقوم على هكذا أسس متينة، و لحمية تربط أجزاء المجتمع ببعضها البعض، ففاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا

¹ . المرجع سابق، ص 29.

² عبد العزيز برغوث، مرجع سابق، ص 215

من الأشخاص و الأفكار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. و كلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أوثق كان العمل فعالاً مؤثراً.¹ وتضعف قليلاً شبكة العلاقات الاجتماعية ولكن المجتمع يستمر قوياً بالاندفاع الأول؛ حتى يصل لمرحلة تنتهي فيها قوة الاندفاع كمحرك استنفذ آخر قطرة من وقوده، وتنتهي هذه الفترة بانتهاء عصر دولة الموحدون في المغرب. " لقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة العلاقات الاجتماعية مريضة، و يتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد. و أكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد عندما يسترد (الفرد) استقلاله و سلطته في داخل الجسد الاجتماعي".²

5 . أسس التربية الاجتماعية:

5 . 1: الإطار الاجتماعي: تختلف مشكلات الإنسان عن المشكلات الطبيعية المادية، التي تستثمر التجارب الخارجية و تستقي خبراتها في تطوير الواقع المشابه لها، لكن الاستعاضة بتجارب الغرب في العلوم الاجتماعية و الإنسانية يعد ضرب من المجازفة و المخاطرة التي لا تحمد عواقبها، فالحلول المستوردة تفقد فاعليتها حين انفصالها عن إطارها الاجتماعي، فالصيغ و المعادلات الرياضية الحسابية في العلوم الفيزيائية لها وجهتها أثناء تطبيقها في المجتمعات الأخرى، لكن مجال الميكانيكا ليس كالمجتمعات، فهو يرفض كل حل مستعار لا يراعي الثقافة المجتمعية. فالرؤية تتحدد تجاه الغرب و الحضارة الغربية تعكس ملامح بارزة في مكونات المنظومة الفكرية التي عبرت عنها هذه الرؤية، و تكشف عن نظامها في التفكير و منهجيتها الذاتية. ذلك لأن الغرب كان أعظم مؤثر على العالم الإسلامي منذ العصر الحديث، و مازال إلى اليوم يعتبر أكبر مؤثر على العالم بصورة عامة.³

لكن هذا التأثير يعمل على تفكيك المجتمع إذا لم يأخذ بحسابه قيمه و معتقداته، و ثقافته فلم يكن العلم الذي اقتبسته من جامعات الغرب وسيلة (إسعاد) بل كان طريقاً (للمظهرية)؛ لم يكن ذلك العلم (استبطاناً) لحاجة مجتمع يرد معرفة نفسه ليحدث تغييرها، بل لم يكن (استظهاراً) لبيئة نبحت عنها لتغييرها، فهو قانع منطوي على ذاته، حبيس في

1 . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 38.

2 . _____، المرجع سابق، ص 43.

3 . زكي الميلاد، الفكر الإسلامي، تطورات و مساراته المعاصرة، ط 1، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، 2001، بيروت، لبنان، ص 27.

صوره و أشكاله المألوفة، و أقرب دليل على انعدام فاعلية هذا العلم، هو أننا لن نر فيه حتى الآن وجها من تلك الوجوه الخالدة، يبرز في التاريخ المعرفة الإنسانية في القرن الحالي.¹

فغياب الروح عن الحلول المستوردة أو اختلافها مع روح المجتمع تعيق فتلك الصيغ الاجتماعية التي في العادة نقوم بجلبها لتنظيم المجتمعات المتخلفة لا تصدق عليها الصيغ الكيميائية (هيدروجين 2 + أوكسجين 1 = ماء) هي صحيحة، لكن في البناء الاجتماعي و تنظيمه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تطبق دون أن تؤثر في بنية المجتمع، فكل مشكلة اجتماعية هي وليدة إطار اجتماعي معين نفخ فيها من روحه. و حتى داخل المنظومة الإسلامية فبعض الأنظمة (كالزكاة) مثلا، التي كانت إلى وقت قريب الدعامة التي قام عليها الحضارة الإسلامية دينيا و عسكريا و ثقافيا و اجتماعيا. لكنها فقدت فاعليتها الاجتماعية، كما هو الإسلام نفسه الذي فقد في نفسية الإنسان المسلم و ضميره صده و دويه و قوة توجيهه لشلوك الفرد و أعماله و مشاعره و أفكاره. فلم يعد للإسلام داخل الدفع القوي و العامل الضابط لسلوك إلا داخل المسجد، الشيء الذي أحدث فتورا في العلاقة بين العنصر الروحي و العنصر الاجتماعي، و ما يطلق عليه في أدبيات علم الاجتماع بـ (الاغتراب النفسي) فشطرن ينظم سلوكه في المسجد، و شطر ينظمه في الشارع. فيجد المسلم نفسه في محيط المسجد، لأن المسجد هو الذي ينشئ بالنسبة لضميره الوسط الأولي الذي تكوّن فيه، فهو يجد شخصه، لكنه على عتبة المسجد يفقد صلته بهذا الوسط الأولي، و يجد نفسه في نطاق الظروف الاجتماعية التي تمحو شخصه و تبعث فيه الفرد الخام.²

5 . 2 : الطاقة الحيوية: يعتبر مالك مفهوم الطاقة الحيوية أو التوتر كواحد من المفاهيم الأكثر محورية في صياغة الإنسان المنوط بالحضارة و عملية التربية، فهي مكوّن أساسي من مكونات الشخصية المسلمة، و هو حالة نفسية ناتجة عن التفاعل مع الفكرة الدافعة، و يفضي هذا التوتر إلى تحرر الطاقات الكامنة في الأنفس نحو الفاعلية و النشاط" ينطلق الفرد الذي يشعر فجأة بانفجار ذاتي في نفسه، انفجار يطلق طاقاته المكبلة، فتغير وجه التاريخ".³ و مصدر هذا التوتر هو الفكرة الدينية التي تحدث تغييرا في سمت الفرد

1. _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 84.

2. _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 106.

3. _____، تأملات، مرجع سابق، ص 138.

و مظاهره، حين تغي في نفسه، و بذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد، أي إن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة كأنها تتمثل في وجه جديد.¹

لذا يضطر الإنسان لأن يستعير من الطبيعة طاقته الحيوية اللازمة لأداء نشاطه المشترك في التاريخ. لكن الطاقة الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها، أعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا، تعيد تنظيم هذه الطاقة، و تعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة في المقام الأول . بحيث تشتت في حفظ النوع . إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان، حين يسهم في النشاط المشترك للمجتمع.² و قد أكدت الفكرة الدينية صلاحيتها في بناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه المشترك، و أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق فجعلت منه إنسانا متحضرا و محضرا، و أظهرت فاعليتها الكاملة في إعادة تنظيم و توجيه الطاقة الحيوية، التي جعلت من المسلم الحديث الديانة يؤثر على نفسه، لتتحول إلى طاقة محكومة فعالة منظمة موجهة نحو المهام الاجتماعية على شاكلة خطة نهضة. و قد كانت الشواهد من التراث الإسلامي كثيرة و ناصعة منها قصة بلال بن رباح (رضي) الذي سيطرت عليه العقيدة نهائيا، و قصة الزانية التي أقبلت على الرسول لتطلب إقامة الحد عليها. " في الوقت نفسه يواصل المجتمع ربيب الفكرة الدينية، طريق تطوره، و تكتمل شبكة العلاقات الداخلية، بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة في العالم، فتنشأ المشكلات المادية لهذا المجتمع الوليد، نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله.

6 . التربية الاجتماعية كعملية تحضر :

و تعتبر شبكة العلاقات الاجتماعية معيارا لتوحد هذا المجتمع و دخوله في العمل المشترك، أو دلائل مرضه حين ترتخي هذه الشبكة و تتمزق، فهذا مظهر من مظاهر الانحطاط و هو تحللها التي يظهر أثرها في عالم الأفكار و بالتالي في عالم الثقافة، فتمزقها هو تمزق الثقافة باعتبارها المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، فأى خلل فيها يعود إلى بالإخفاق

1 . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص80.

2 . _____، المرجع سابق، ص107.

على الجهود الجماعية و الفردية. لذا جاءت كل الديانات لترويض الطاقة الحيوية للإنسان، و جعلها مخصصة للحضارة و تعمل بمقتضاها. و بناء على ذلك يضع الدين الحرية الفردية بين حدود عمل المجتمع و مقتضيات الحرية الخاصة بهذا المجتمع.¹

و يرى أنه إذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية مريضة يتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد، فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول بل للعثور على أدلة و براهين. وكل المجتمعات القديمة الموغلة في التاريخ كانت محاطة بالتعاليم المقدسة التي هي ترجمة واقعية لنظام الدفاع عن العلاقات الاجتماعية و التعاليم الأخلاقية كما يؤدي نشاطه المشترك. و ليست القوانين الحديثة سوى تطبيق لهذه التعاليم في حالات خاصة، ناشئة عن الحياة، و عن التجربة الخاصة لمجتمع يؤدي نشاطه المشترك، في مستوى قومي و عالمي معا، وكل قانون من هذه القوانين هو في نهاية الأمر للإقلال من الآثار المفارقة المطردة، و الإكثار من الآثار الموثقة الجذبية في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح له جميع أوجه النشاط الاجتماعي، و تشملها جميعا، ابتداء من أكثرها بساطة في المجتمعات إلى أشدها تعقيدا في المجتمعات التي ارتقت سلم الحضارة صعدا.²

فكانت كل التعاليم تقدم لنا بعض المبادئ التربوية الاجتماعية الخلقية كالابتعاد عن السرقة و الكذب و القتل، و الإكثار و الإقبال على المحامد كجزل العطاء و الإيثار و احترام المواعيد التي هي عوامل جذبية. إنها تعاليم أخلاقية تضعنا في طريق الحضارة، و هي تعلمنا فن الحياة مع أقراننا. فليست الثقافة سوى تعلم الحضارة، أعني استخدام ملكاتنا الضميرية و العقلية في عالم الأشخاص. و ليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة، أي إنه مجرد جهد تبذله عقولنا حين نستخدم في عالم الأشياء. فالأولى تحركنا و تقحمنا كلية في موضوعها. أما الثاني فإنه يقحمنا في مجاله جزئيا. و الأول تخلق علاقات بيننا و بين النظام الإنساني، و الآخر يخلق علاقات بيننا و بين نظام الأشياء.³

فكل السياسات التي كانت تريد أن تحرر غرائز الإنسان من منظور حضاري غربي بحجة التحديث تارة و التقدم و النهضة تارة أخرى، هي في حقيقة الأمر جهل مُطبق

1. _____، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 110.

2. _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 95.

3. _____، المرجع سابق، ص 96.

من أصحابه لأن كل تطور ونهضة يجب أن تولد من رحم المجتمع و ما يحتويه عالم أفكار من أفكار مطبوعة أنتجتها النسقية المجتمعية عبر تاريخ من البناء الحضاري. و سمي ابن نبي هؤلاء القوارض كسبب، و الخلل السلوكي كنتيجة لذلك. فالقوارض الذي تؤدي تصرفاتهم إلى خلل في السلوك يعيق عملية التربية الاجتماعية، و تصبح الحقيقة لا تؤثر في الثالث الاجتماعي: الأشخاص و الأفكار و الأشياء. و تتحول الثقافة إلى كلمة فارغة جوفاء، لا تحمل جنين نشاط معين، مكانها في القواميس والصالونات تلوكها الألسن. و التي تؤدي بدورها إلى خلل في السلوك كنتيجة لفعل القوارض.

6 . 1: القوارض (كسبب): و هم الذين يقرضون الحضارة كما تقرض الفئران كومة القمح، و هم أعداؤها و أعداء التقدم و الرقي، فالواجب لكي ندافع عن الحضارة و عن شبكة العلاقات الاجتماعية لا بد أن نبدأ بمحاربة هذه الفئة الدخيلة من (الانتقاليين)، و نثمن عمل من كشف عن خطتهم و دسائسهم، فيقول مالك بن نبي في هذا الشأن موضحاً دورها في تخريب المجتمع و السير به إلى الزوال و الانهيار: " و مع ذلك فليست هذه القوارض وحدها النوع الحيواني الذي يهدم المجتمع، حين يقرض شبكة علاقاته التي تعينه على أداء نشاطه المشترك، بل هناك نوعين من خيانة المجتمع : نوع يهدم روحه، و آخر يهدم وسائله.

فالخيانة الأولى: تخلق الفراغ الاجتماعي حين تهدم المبادئ و الأخلاق و الروح، و هي الأمور التي تبقى للمجتمع التوتير الضروري، كيما يواصل نشاطه في التاريخ. الخيانة الثانية: تخلق الفراغ حين تواجه جميع الملكات المبدعة و جميع الفضائل الأخلاقية في المجتمع خارج عالم الوقائع و الظواهر.

فإحداهما تجهل أوامر السماء، و الأخرى تجهل مقتضيات الأرض، و لكنهما تنتهيان بطرق مختلفة، و أحيانا متعارضة إلى نتيجة واحدة هي: الفراغ الاجتماعي حيث تغور الروح، و تغور معها وسائل الحضارة.¹

فتتفرق الجهود و تختلف السبل، و يصبح العمل الجماعي المشترك مستحيلاً، فيسلك كل فريق منهم طريقته التي يرى فيها خلاصه و ميوله فينزع فريق إلى التصوف، و آخر إلى عالم العجائب و الغوص في روايات ألف ليلة و ليلة، و فريق ثالث يختار طريق

1. _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 97.

الرقص و الغناء بدعوى التحضر و المدنية. فيقدر ما تتعدد السبل، تتعدد و تختلف طرق الدفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية، لا بالنسبة للقوارض المجازون من قبل الثقافة الغربية فحسب، لكن لجميع الأنواع التي تخلق هذا الفراغ الاجتماعي.

و هنا لا يمكن أن نعالج هذه المشكلة إلا من خلال (تربية اجتماعية)، ليس الهدف منها أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة، و لكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه، أعني: أن نعلمه كيف يتحضر. و تأخذ كلمة (تربية اجتماعية) معنى الثقافة، تلك الثقافة التي تنقل أفكار الجمهور، و أفكار القادة الفنية، و هذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة، فهي تدين لهما بدفعتها و بمقدرتها الخلاقة. فكل واقع اجتماعي في جذوره هو قيمة ثقافية معينة محققة في واقع الإنسان، و في إطار أو المنظر الإنساني، الذي يحوطه. و هو شيء واحد. و إذن فأبي تفكير في المشكلة الحضارية هو أساسا تفكير في مشكلة الثقافة.¹

فالتربية ليست مجموعة من القواعد و المفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، و عالم الأشياء، و عالم الأفكار، فهي لا تختزل في كلمات و برامج في محتوى كتب دراسية، أو فذلكة إنسان يعرف الكثير في شؤون الإسلام، لكن لا يعرفوا لتطبيق مبادئه سبيلا في تغيير ما بالأنفس، أو تغيير بيئتهم المحيطة بهم. فكل حقيقة لا تؤثر في الثالوث الاجتماعي، هي حقيقة ميتة. فالتربية الاجتماعية إذا لم تأخذ على عاتقها فكرة التغيير الاجتماعي الذي يبدأ من بالتغيير النفسي، هي تربية ميتة مكانها في القواميس و المناجد و أحاديث الصالونات و الفذلكة اللفظية، فهي لا تحمل في طياتها فكرة التغيير الذي يسبغ على المجتمع روحا جديدة و حياة ديناميكية. فكلمة تربية اجتماعية تشترك في هذا المصير العام: فهي لا تعني شيئا إذا لم تكن " وسيلة فعالة لتغيير الإنسان و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، و كيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، و كيف يكون معهم شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ".²

¹ .الفكرة الأفروآسيوية، مرجع سابق، ص135.

² . ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص100.

و قد تناول ابن نبي هذه المشكلة من خلال المنهج العام الذي ارتضاه في أفق تجاوز (مشكلات الحضارة) و معوقات بنائها، بمنهج واقعي يستجمع معطيات المشكلة لتمحيصها في المختبر التاريخي و الاجتماعي، و في صورتيه النفسية و التاريخية، فجعل هذا الإنسان هو المركز في معادلة الحضارة، و حدد حالاته المختلفة حسب موقعه في العوالم الثلاثة، و شكلت فكرة التغير الاجتماعي بصفة عامة عنده هدف المشروع التربوي كله، في منهجيته الفكرية و مفاهيمه المركزية، على أن تخلع كلمة (ثقافة) على التربية الاجتماعية المضمون الضروري الذي يتيح لها الاضطلاع بوظيفتها المغيرة. "إن الثقافة تحتوي بصفة عامة عددا من الفصول هي: الأخلاق والجمال و المنطق العملي و الصناعة الفنية. لكن الأمر يقتضينا أن نتساءل: كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد، في ظروف نفسية زمنية معينة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية، و في مستوى أهداف الإنسانية.¹

6 . 2: الخلل السلوكي (كنتيجة): وقف مالك بن نبي مطولا عند ظاهرة سلوكية غريبة في دراسته للحضارة، هي من صميم المشكلة الأخلاقية، ذلك أنه لاحظ كيف أنه عندما ينخفض تأثير القيمة الخلقية في حياة الفرد و المجتمع تكون مؤشرا على بداية حصول حالة خلل في السلوك، و كعلاج لهذه الظاهرة المرضية، يرى أن إعادة السلوك إلى حالته الطبيعية مرهون بإدماج عنصر التربية الاجتماعية في البناء الحضاري، و يفسر ظاهرة الاضطراب هذه و التناقض الأخلاقي الموجود في السلوك اليومي للإنسان، إنسان الحضارة الراهنة بقوله: "فالتأخر في المجال الاجتماعي و في الشروط الراهنة لتطور العالم العام، يترجم باضطراب في المجال الأخلاقي، و هذا الاضطراب يترجم بدوره في سلوك الأفراد".²

و يقدم لنا صورة حية عن هذه الظاهرة التي تكون ناجمة عن الإيمان الناقص بأهمية القيم و الأخلاق في بناء الأنفس و المجتمعات و الاكتفاء بالوقوف على مجرد التغني بها دون التحلي بها و هي جوهر المشكلة الحضارية الراهنة فيقول: "و لنشاهد مثلا أبسط واعظ في المساجد يوم الجمعة، إن دعوته تنصب عمليا على الفضائل التي كونت عظمة الإسلام

¹ . _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 100.

² . _____، فكرة كومولث إسلامي، مرجع سابق، ص ص 34، 35.

في القرون الأولى، و لكن لنراقب هذا الواعظ عندما يغادر المنبر، أن حياته العائلية مطابقة في معظم الأحيان لمثال الذي كان ينتقده"¹

و هذا الاضطراب و التناقض ينبغي . برأي . أن يجد طريقه إلى التلاشي إذا ما أعدنا للأخلاق اعتبارها، و أدركنا دورها في ضبط السلوك لإنسان الحضارة ضبطا يسمح لنا بالدخول في التاريخ. و يحدد طبيعة المشكلة التي أدت إلى السقوط الحضارة، باعتباره واحدا من المفكرين من المفكرين الذين عالجوا مشكلاتها، فيرى بأنها على مستوى العالم الإسلامي: " ليست في الفصل بين القيم و إنما في أن يجمع بين العلم و الضمير، بين الخلق و الفن، بين الطبيعة و ما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقا لقانون أسبابه و وسائله، و طبقا لمقتضيات غاياته"².

و يرى تبعا لذلك أن مسألة التنمية التي تلغي قيم المجتمع و معايير الأخلاقية، هي تنمية مادية صرفة، لا ترجى منها نتائج في مجال إصلاح المجتمع معنويا و سلوكيا " و النمو الذي يتم ضمن البعد الاقتصادي، ليس سوى فترة زمنية من النمو العام لحضارة أوروبا، داخل المكان و الزمان إنه المظهر المادي لهذه الحضارة"³.

و بعد أن تعرض لأسباب العطل و الخلل الذي أصابنا، و رأى أن أصل المشكلة الحضارية مرتبط بالقيم و الأخلاق، فإنه عرض الطريقة المثلى لتوظيف القيم و رد الاعتبار لأهمية الأخلاق. كمحور أساسي في عملية التربية الاجتماعية .

7 . أبعاد تشكيل التربية الاجتماعية:

7.1 : الأبعاد الشخصية:

تتأسس التربية الاجتماعية كسلوك اجتماعي على مجموعة من التصرفات والسلوك التي تتم من خلالها عملية التغيير النفسي و الاجتماعي و الثقافي داخل المجتمع، و هي العملية التي يحافظ بها المجتمع على بقاءه و استمراره. و حتى يستمر المجتمع ينبغي أن يعمل على نقل معتقداته و معايير و مهاراته. و من المعروف أنها تهتم بالتعليم أفراد المجتمع الطريقة متوقعة للسلوك الجديد، و هذا يعني أنها تتناول السلوك الإنساني و تغييره نحو

¹ . _____، المرجع سابق، ص 64

² .-، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 169.

³ .-، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 42

الأحسن، لكي يمكن له أن يدخل في حلقة تاريخية جديدة، غاية البعيدة الحضارة ومنطلقها الأول هو الإنسان.

7 . 1 . 1: الأخلاق: قد صنّف العلماء تصورات الإنسان و معتقداته و تصرفاته و سلوكه إلى فئتين اثنتين:

الفئة الأولى: مقبولة من عامة الناس، و تسمى الفضائل و مكارم الأخلاق، وأصبحت كلمة أخلاق علما عليها دون إضافتها إلى غيرها.

الفئة الثانية: مرفوضة من عموم الناس، بالمعايير ذاتها و تسمى رذائل أو مساوئ الأخلاق. و تشكل الأخلاق منظومة القيم التي تدخل في إعداد و تربية و تهذيب الإنسان، و هي قوام سلوكات تهدف إلى بناء شخصية الفرد، و تحقيق استقامته، جاءت لتضبط علاقته من نفسه، و علاقته مع الآخرين، و كل هذا يرتبط ببناء الحضارة الإنسانية. فمنطلق بناءها الأساسي هو الإنسان، الذي يعتبر أحد أهم عناصر الحضارة، هذا الإنسان المتكامل الذي ينظر إليه بأنه يجتهد في التوفيق بين قيمه و مبادئه و أخلاقه، و بين حاجاته و مطامحه، و من أمثال هذه الشخصية تحصل صناعة التاريخ و يقول: "فالتاريخ يبدأ بالإنسان الذي يطابق دائما بين جهده، و بين مثله الأعلى، و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا و شاهدا، و ينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل، بالجزء المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو أساسا ماديا، فليس أمامه حينئذ إلا أن يفر إلى صوامع المرابطين أو إلى أي مستقر آخر، و هذا الفرار صورة فردية للتمزق الاجتماعي".¹

7 . 1 . 2: الفعالية: النتيجة الطبيعية للمفهومية الصحيحة، فإن المرء إذا فهم مشكلاته ورتبها ترتيبا منطقيا أصبح الأمر عنده كالاتي "مشكلة تهمني كمواطن عربي ومشكلات تواجهني كإنسان يعيش في مجتمع إنساني، وبعد ذلك يأتي دور اتخاذ الموقف في سبيل حل تلك المشكلات: "إن القضية.. تتصل بموقفنا نحن كأفراد تتصل بموقفى كمواطن أمام المشكلات فإننى عاجز عن صياغتها فكريا، إذا صيغت فكريا بصورة ما فإننى عاجز عن التصرف في الإمكانيات لعلها، فعجزى إذن مزدوج وليس عجزا بسيطا".²

¹ . _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 33.32..

² . _____، تأملات، مصدر سابق، ص 124، 125.

هذا العجز هو الوجه الآخر للفعالية، هو عدم الفعالية، فإذا تحرك الإنسان كان تحركه هو الفاعلية المنشودة في الحضارات، يقول: "علينا أن ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان.. فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ".¹ هذا التحرك هو فعالية الإنسان في التاريخ تحتاج تلك الفعالية إلى شروط لتحقيقها، أهمها: عدم الاستسلام لكل ما يحدث له من خلال وضعه تحت إطار القضاء والقدر، ولن يتحقق ذلك - أيضا - إلا بتحديد مسئولية المرء تجاه تلك الأحداث أو بقدر ما تكشف من أسرارها نسيطر عليها بدلا من أن تسيطر علينا فنوجهها نحن ولا توجهنا هي".² ويستدل ابن نبي بالآية الكريمة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.³ فهذه الآية خير ما يمثل فعالية المسلم، ويكشف عن وظيفته الاجتماعية.

3. 1. 7: التكيف: هو مصطلح نفسي يعني به: "عملية إدماج الفرد في شبكة إجتماعية، عملية تنحية، و هو في الوقت ذاته عملية انتقاء، و تتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم بواسطة المدرسة و ذلك ما يسمى بالتربية. أما إذا كان المجتمع في طريق التكوين، فإن العملية تبدأ تلقائيا في الظروف النفسية الزمنية التي تتفق مع (الظرف الاستثنائي) الذي يوافي مع ظهور المجتمع".⁴ و يبدأ في تفسير معنى التكيف انطلاقا من مشابهته بين الحياة الاجتماعية و الميكانيكا و خضوعهما لقانون (رد الفعل)، و بما أن الاستعمار في نوعه (فعل) المدنية الحاضرة، التي تسلطت على الشعوب المستعمرة، فالغريبة أن يكون لذلك (الفعل) في تلك الشعوب (رد فعل). هذا (الرد) الذي أصطلح على تعريفه في علم الاجتماع و علم البيولوجيا بأنه اتجاه الفرد و نزوعه إلى التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه. هذا (عدم التكيف) الذي أخذ في بعده النفسي مدلول (الاغتراب) الذي بدأ ظاهرا في المجتمع الجزائري من خلال سلوكات التي لا تتماشى مع عادات و تقاليد المجتمع، الذي فقد توازنه القديم من جراء ظهور ألوان جديدة تدل في مجملها على نزعات متباينة، و استعدادات فردية متنافرة، جعلت منه مضطربا و غير مستقر في نفسه و في تصوراته للأشياء و من جملها التي تبدت في سلوكه:

1. _____، تأملات، لمرجع سابق، ص 125.

2. _____، تأملات، المرجع السابق، ص 126.

3. سورة آل عمران: الآية 110.

4. _____، تأملات، ص 61، 62.

- ✓ الشباب الذي ينتمي بفكره و روحه لعصر النهضة في أوروبا، ذلك الشاب الذي تشرب ثقافة أوروبا . رغم ضيقها . و رأى أن السعادة بدأت بانتشار الأفكار التحررية.
- ✓ شاب يرى أن المدنية معركة اقتصادية، و أن الحل يكمن في حيلة اقتصادية يحالها المحتكرون، أو بكارثة مالية في السوق السوداء.
- ✓ من ينظر إلى المدنية تتمثل في الأعراس الانتخابية والمظاهرات العمومية، و هو يظن أن خطبة يهتف لها تقلب النظام العالمي. و هي نظرة مملوءة بالحدق المطلي بالرياء.
- ✓ و هي نظرة الشباب السلفيين الذين يشدهم الحنين إلى الماضي، و الذي يختزل تغيير نظام المجتمع في تطهير اللغة من رطانة العالج، و تطبيق قواعد النحو و الصرف.
- ✓ و هي نظرة مرتادي الحانوت، و الذين يرون في المثل الأعلى للمدنية معاقرة كؤوس الخمر و الترامي على أعتاب أبواب الحانات.
- ✓ وهو شباب سحفته المدنية سحقا، و جعلته ينبهر بها و تبدت له المدنية ممثلة في تحرير المرأة، و الأكثر من ذلك الزواج بامرأة أوروبية عصرية لكي يكتمل المشهد.
- ✓ و هو شاب لم يتفاعل من حركية المجتمع و لم يندمج فيها، هو شاب مقتنع بحاله لا يرى و لا يحاول أن يفهم، قانع بدفع الضريبة غير مبالٍ باتجاهها الاجتماعي.
- إن اختلاف وجهات النظر و تباعدها و تعددها في الكثير من الأحييين دليل واضح على تعدد درجات التكيف مع مجرى الحضارة. فإذا كانت الحياة . في فهم ابن نبي . تدعونا دائما نحو السير إلى الأمام فمن الواجب ألاّ توقفنا أخطاؤنا عن السير حثيثا نحو الحضارة الأصيلة و لكن يجب أن يتخذ في ذلك منهاجا علميا عقليا لا فوضى عارمة يضير فيه الطريق و تكثر من حوله السبل، إن انزلاقنا في المتناقضات بسبب تفكيرنا الذي يأخذ بالذرية كمنهج لتحليل الأشياء، و عقائدنا السياسية التي تدين بالقيم الفاسدة للحضارة المتمثلة في أسطورة (الشيء الوحيد) و (الرجل الوحيد). إن الحضارة ليست أشياء متناثرة مبعثرة، و لا مظاهر جمالية تغطي على لب الشيء الفاسد، إنما هي جوهر ينتظم جميع أشتائها و أفكارها، و قطب يتجه نحوه تاريخ البشرية.
- إن البحث عن المتناقضات من أجل معالجتها داخل البناء الاجتماعي لا يمكن أن يكتب له النجاح إلاّ إذا أخذ مفهوم الثقافة كمشروع تربوي يقوم بتخطيط شامل يحملها كل أفراد

المجتمع، لكي تستقر الأنفس و تتسجم مع مجتمعا، لكي يكتب لهذا الأخير توازن اجتماعي جديد.¹

7 . 1 . 4 :التوازن: الحضارة تتركب من تلك النظرة المتوازنة للروح والجسد والكم والكيف والغاية والوسيلة، فإذا اختل التوازن في جانب واحد اختلت الحضارة. "والحضارة الإسلامية قد فقدت تعادلها يوم فاتها أن ترعى سلامة هذه العلاقة بين العلم والضمير، بين العناصر المادية والوجود الروحي، فغرقت في هاوية الصوفية الخالصة، في فوضى المرابطين التي سببت سقوطها".² ولا يستثنى مالك بن نبي الحضارة الغربية من ذلك السقوط، ويرى أنها حين فقدت معنى الروح فهي "تجد نفسها بدورها على حافة الهاوية".³ والإسلام هو الدين الأوحد الذي يعد التوازن الدقيق والشامل من أهم خصائصه قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.⁴ ويقول الرسول صل الله عليه وسلم (الدُّنْيَا مَطِيَّةُ الْآخِرَةِ) وما عبرت عنه هذه النصوص بالنسبة للفرد المسلم- كما يقول ابن نبي- فهو ينطبق على الحياة الاجتماعية كلها.

7 . 1 . 5 :الحرية: يولد الإنسان حرا في أصله، و لا يجوز تقييد حريته من طرف إنسان آخر، و هذه الحرية من مقومات التكريم التي حباه الله بها و تفضيله على مما خلق تفضيلا، و هي العامل الأساسي في الارتقاء بإنسانية الإنسان و إطلاق قدراته الفكرية المبدعة، و طاقاته الإنتاجية المبتكرة، و استنهاض همته و حماسته، و استنفار مواهبه و ملكاته.

فمفهوم الحرية في الثقافة الغربية هي حرية الذات في سلوكه المطلق، أما الحرية في المفهوم الإسلامي فهي حرية الإنسان من الاستعباد في ضل عبودية الله وحده. إنها حرية الفرد في إطار مجتمع مبني على معادلة أساسية: مسؤولية الفرد عن المجتمع و الإطار حوله، و مسؤولية المجتمع عن الفرد. فكما أن الإنسان حر، فالكل لهم ميزة الجزء، أي أن المجتمع حر كذلك في ممارسة حياته التي يرضاها في حدود ما شرع له الله، و هو المعني بمناقشة و نقد أوضاعه السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ليضبط حركتها في مسارها السليم الذي يوصل إلى مثله الأعلى. فالحرية في الإسلام تبني ثقافة من داخل

1. _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 164 .

2. _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 157.

3. _____، المرجع سابق، ص 157.

4. سورة القصص: الآية 77.

الذات في حرية مجالها النفسي في نطاق المجتمع بكامل أبعاده، و هي في النهاية حرية بناء اتصال بالنظام الكوني و الإبداع الإلهي، لذا فالحركة حركة أداء و واجب في التراث الإسلامي، فهي طاقة في مداها الاجتماعي. و يقرر مالك بن نبي أن أول تحرر للإنسان يتمثل في التحرر الجزئي من قانون الطبيعة المفطور في ذاته و يخضع وجوده كله للمقتضيات الروحية التي أوجدتها الفكرة الدينية في نفسه، إيجابا يمارس معه حياته في هذه الحالة الجديدة طبقا لقانون الروح.¹

ثم يأتي بعد ذلك التحرر من الشيطان و هو المعنى الذي أسبغه على الاستعمار الذي جثم على صدر الأمة، من خلال الفكرة الدينية التي تمثل المنعطف الأول الذي يحرر الإنسان من ترسبات الثقافة الماضية التي خلقت إنسانا يعيش في الأفكار الخاطئة و المغلوطة، أسيرا لغرائزه بعيدا عن عوالم الروح، إن الفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى (عملية شرطية) تمثل ما يصطلح عليه علم النفس الفرويدي بـ (الكبت). هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية: فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تلغ و لكنها انضبطت بقواعد نظام معين. و في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده. و يخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، حيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.²

6 . 1 . 7 : النزاهة و الكفاءة و الملائمة: لا يمكن لأي إنسان أو ثقافة أو مجتمع أن يتطلع إلى اكتمال حضوره التاريخي إلا حين ينتقل من مجموعة بشرية يحيط بها عالم الأشياء و عالم الأشخاص إلى بنية أساسية هي عالم الأفكار. و هنا يبدأ مفهوم الثقافة في مسيرة التاريخ الذي أخذ تفسيراً آخر غير الذي اعتمد في القواميس و المناجذ، فالثقافة في صورتها الحية، هي وحدة ذات أجزاء متماسكة و مترابطة فيما بينها بروابط داخلية، تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه و أدواقه و تاريخه.³

إن السلوك الاجتماعي أكبر معبر عن ثقافة المجتمع و محركا لها، فقد استمد الإسلام حركته و نشاطه خارج دياره من خلال السلوك الاجتماعي لدى حاملي الدين الجديد

1. _____، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 109.

2. _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 85.

3. _____، المرجع سابق، ص 107.

إلى أدغال آسيا، من خلال نزاهة التجار، ضف إلى ذلك الكفاءة التي تمتع بها رجال استمدوا الاستماتة من صلابة نقطة الانطلاق و نبالة الهدف المنشود، و لم يكن فيهم من أرتقى بالمسؤولية من خلال تملق الحكام أو مداهنة الأمراء، بل كان الرجل المناسب في المكان المناسب من خلال الملائمة، ولم يقرن قيام القيامة في الإسلام بالكفر و الفسق و الكبائر و الذنوب و غيرها من الموبقات، بل رُبط بإسناد الأمر لأهله و إرجاعه لأصحابه. إن النزاهة و الكفاءة صفتان مطلويتان في رجل السلطة . كما يقول . مهما كانت مرتبته، إنما فوق هذه المرتبة لا بد من شيء من الملائمة في نظر عمر، فأبو عبيدة بن الجراح كان يملك تلك الملائمة الخاصة بتولي أمر الأمة، و المدينة المسلمة تأسست على هذه المجموعة من الفضائل في رجل السلطة و في المحكومين. و لأجل العمل على حفظ هذه الوسائل، أنشأ الفقه الإسلامي نظام (الحسبة) هذا النظام الذي يشبه من بعيد ما يسمى اليوم بـ (النقد الذاتي). فالسياسة يجب أن تكون: أخلاقية، جمالية، علمية، لكي يكون لها معنى في التاريخ.¹

7 . 1 . 7 : النقد الذاتي كواجب وموقف فكري: يندرج النقد من الناحية المعيارية بصفته ممارسة أخلاقية رفيعة، لذا نجد مالك بن نبي يحدثنا عن النقد الذاتي و الذي يطلق عليه مصطلح (التطهير النفساني) كقيمة تربية يتميز بها إنسان الحضارة الإنسان المتكامل، الذي يرى فيه آلية يتشوّف من خلاله المرء نفسه لإعادة التصحيح أو التعديل أو التغيير بالكامل، و يقتل من خلالها (تضخم الأنا)، و يهدف إلى تحريرنا من جميع ضروب العطالة التي توقف الجهد و من سائر أعدار العطالة التي تبرر كسلنا، كما يرمي إلى تحقيق الوحدة الأخلاقية و الإرادة الجماعية داخل البلاد بتصفية العقد المخجلة التي لا يقبل المواطنون الإقرار بها. و الموروثة عن العقود البائدة. و لقد مارس المجتمع الإسلامي الحديث النشأة، و لغايات تطهيرية في تلك الضروب الذائعة الصيت من (الإقرار الذنب) أو الإعلان عن الخطيئة من مثل يوم اعتقد فيه (عمر بن الخطاب) أنه قد أثمته نشوة السلطة، فما كان منه إلا أن استدعى (الصحابية) رضي الله عنهم و جمعهم حذو المنبر ليعلن أمامهم ما مؤداه: أنه لم يكن شيئاً مذكورا، بل هو أقل من اللاشيء، وأنه لا يعدو كونه مجرد راعي ماشية جعل منه الإسلام خليفة، و هكذا فتح عمر طريق النقد الذاتي للبشرية و في أسلوب

¹ . _____، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 134.

التعامل مع الرعية من موقعه كخليفة للمسلمين،) إن رأيتم فيا اعوجاجا فقوموني بحد سيوفكم) إضافة إلى اعترافه بالخطأ في قوله: " أصابت امرأة وأخطأ عمر". هذا النقد الذاتي وذلك الإحساس المرهف بالخطأ فُقد في العالم الإسلامي منذ عهد بعيد "ولم نعد نرى زعيما يعترف بأخطائه، وهكذا غرق المثل الأعلى الإسلامي ، المثل الأعلى للحياة والحركة، في فيضان من التعالي والغرور، بل في ذلك القنوع الذي يتصف به رجل الدين، حين يعتقد أنه بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال دون أن يحاول تعديل سلوكه و إصلاح نفسه.. وبذلك تختل حركة التقدم للنفس في الفرد والمجتمع".¹

و إذا تخلى النقد البناء عن حقه لمصلحة التقليد و الرضا بالواقع فإن القضية تنتهي عند التسوية من أسفل في الحياة الأخلاقية و الفكرية ، فتجمد الأفكار و الطاقات الاجتماعية، و ينتهي التقدم في الوطن، و يضيف مالك بن نبي . في معرض تدليله على قيمة النقد . أن الدولة التي تمارس السياسة و ليس البولتيك، و التي لها باع كبير في إرساء قواعد الديمقراطية . كإنجلترا مثلا . التي أدرك حكامها هذا الخطر الداهم الذي يهدم كيان المملكة برمته، فقد قامت بتكوين أحزاب معارضة إلى جانب الحزب الحاكم، لتقوم في النطاق السياسي (بواجب) النقد، و ليس هذا (الواجب) بالشيء البسيط، فهو يتضمن معنيين، أحدهما يتصل بالجانب الأخلاقي عندما يؤدي النقد وظيفة (الشهادة) للحكم القائم بأنه أصاب، و يتصل الثاني بالجانب الفني في صورة (حكم) على أعمال الذين بيدهم مقاليد السياسة.

و ترتبط فعالية النقد بشرتين: الإخلاص للشهادة، و الكفاءة للحكم، ولا يغني شرط منهما عن الآخر، إذ لو توفرت الكفاءة اللازمة للجانب الفني، وحدها، فربما تكون المهارة في السياسة مجرد شعوذة و دجل، كما لو توفرت الشرط الأخلاقي، والإخلاص دون شرط الفني، فمن الممكن أن تكون السياسة في أيدي صبيان مخلصين في منتهى البساطة. و في كلتا الحالتين، فإن (النقد) لا يقوم بدوره فهو لن يقوم اعوجاجا، و لن يصلح فسادا، لأنه أعرج لا يمشي على رجلين، فلا يأتي بما يقوم الأشياء، و لا بما يكمل و يوسع معانيها، و لا بما يهدي الأعمال إلى طريق الرشاد. و يبقى أن النقد يجب أن لا يكون موقف

¹ شروط النهضة- مرجع سابق، ص ص. 26 28.

عداء يتبادل فيه الخصمان الشتم و الضرب.. بالأقلام و الجمل... بل موقفا فكريا يتبادل فيه الاثنان آراءهما.¹

7 . 1 . 8 : المعاملة: إذا كانت الثقافة عند ابن نبي هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة، فقد أولى كثير العناية بالجانب السلوك و المعاملة اليومية للأفراد داخل المجتمع، فالدين معاملة، و يختبر جميع هذه السلوكات في التاريخ الإسلامي الذي يعج بمثل هكذا صور رائعة قدّمتها الأوائل من الصحابة و التابعين، فيقول: " فالحاكم ليس فقط رجلا عفيفا و نزيها كما كان شأن جميع الصحابة، بل يقتضي أيضا منصبه حسن المعاملة".² و يستدل بقصة عمر بن الخطاب (رضي)، و ذلك الأعرابي الذي رفض السمع و الطاعة له، فما عنفه عمر و ما نغص عليه حياته لكن قدّم له بكل بساطة و تواضع التبرير الوافي و الكافي عن قطعة القماش التي أعطاهها له إبنه عبد الله ليكمل بها جلبابه نظرا لطول قامته. فأمير المؤمنين عامل هذا الأعرابي معاملة تنمي عن روح الإسلام، و أرسى من خلالها قيمة تربية أخلاقية تؤسس لميلاد المجتمع على المعاملة الحسنة.

7 . 1 . 9 : الطاعة: تناول مالك مفهوم الطاعة . كمحدد للتربية الاجتماعية . في إطار العلاقة بين الحاكم و المحكوم، و كسلوك يحافظ من خلالها التنظيم الاجتماعي على الحركة و الاستمرارية، و تعتبر الطاعة من وجهة نظر علم الاجتماع واحدة من جملة القيم و المعايير و القواعد الاجتماعية المنبثقة من تجارب و ثقافة المجتمع، و تعمل على تماثل الأفراد و ربطهم بالبناء الاجتماعي، و تعمل التنشئة الأسرية . كآلية من آليات النظام الضبطية . على غرس قيمة الطاعة من أجل تنظيم أفراد المجتمع من خلال تنسيق سلوكهم حسب مقتضيات مصلحة المجتمع الذي يعيش فيه، و هي أولى الآليات الضبطية في الأسرة، إذ يقوم الآباء و الأقارب بتنفيذ تعاليمها على الوليد الجديد، التي تتطوي على تأنيسه و تطبيعه و تجبيله على ما هو متفق عليه اجتماعيا من مسموحات و ممنوعات عن طريق الترغيب و الترهيب و العقوبة و المكافئة من أجل جعله إنسانا يعيش وسط أسرته و مجتمعه.

¹ ._____، في مهب المعركة، مرجع سابق.ص ص 141 ، 142.

² ._____، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 179.

و قد انطلق تشخيص هذه الميزة من خلال طاعة المحكومين لحاكم في حديثه عن الديمقراطية في الإسلام، و ذلك من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾¹. فكان التاريخ الإسلامي هو المختبر الذي يستجلي منه صور الطاعة و الامتثال، فأمر بطاعة المحكوم للحاكم إذا كان هذا الأخير مراعيًا لشؤون الأمة متمسكا بدين الله، و بيّن حدودها في قوله (ص): " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وكان الخليفة أبو بكر الصديق قد خطب في الأمة قائلاً: " أما بعد، فإنّي قد وليت عليكم و ليست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني و إن أسأت فقوموني بحد سيوفكم، أطيعوني ما أطعت الله و رسوله، فإذا عصيت الله و رسوله فل طاعة لي عليكم". إذا فالطاعة مرتبطة أشد الارتباط بالفكرة الدينية، فالمجتمع يجب أن يراعي في سلوكاته و تصرفاته اليومية الطاعة و الامتثال سوء بين الأفراد في إطار العلاقات و التفاعلات الاجتماعية، لكي يقوم المجتمع في أرقى صور الانعكاسات النفسية. و هي خلاصة الديمقراطية بوصفها شعورا نحو (الأنا)، و بوصفها شعورا نحو الآخرين، و هكذا تبرز في صميم الواقع الذي سجله التاريخ فكرة الحاجزين، اللذين وضعهما الإسلام على يمين و على شمال المسلم، في طريقه نحو تحقيق الديمقراطية الإسلامية، حتى أنه في مقابل الشعار الذي رفعته الثورة الفرنسية (لا نريد ربا و لا سيّدا) يمكنه أن يعلن شعار الثورة الإسلامية (لا نريد عبودية و لا استعباد)².

7 . 1 . 10: تجاوز الطبقة في المجتمع: و دائما في معرض حديثه عن الديمقراطية كسلوك اجتماعي يبرز في الأفق مصطلح يعبر عن الطبقة داخل المجتمع الناشئ ممثلا في تحرير الرقيق، الذي أولاه عناية كبيرة في التربية الاجتماعية، فإذا كانت المنظومة الغربية التي تأسست ديمقراطية أثينا التي ركزت على قضية الرقيق من الوجهة البراغماتية و الانتفاع الاقتصادي. و العرب قبل الإسلام حين كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة، لكن التقاليد الإسلامية التي نشأت في زمن الرسول (صلى الله عليه و سلم)، و في عهد الخلفاء الراشدين، التي رسخت دعائم المجتمع الجديد القائم على تكريم الإنسان، فيقرر هذا المبدأ بكل وضوح فيشمل بذلك تقويمه الإنسان الذي وقع في قيد الرق، بمقدمات أو أصول فقهية

¹ . سورة النساء، الآية : 59.

² . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص84.

نجدها في القرآن الكريم و في السنة النبوية، وتكون في الواقع تشريعا لعنق الرقيق بصورة تدريجية. فالطبقة داخل المجتمع على أسس لا أخلاقية مهما كانت طبيعتها، فهي انتقاص من قيمة الفرد، و امتهان لشخصه لا يقبلها المجتمع الجديد.

7 . 2 : الأبعاد المجتمعية:

7 . 2 . 1: الواجب فوق الحق: إن القيمة التربوية التي تحتويها فكرة الواجب و الحق تتمثل في الحركة التغييرية على مستوى النفس الإنسانية و دأبت عليه من خلال تفاعلها التاريخي مع مستلزمات الواقع الذي أنتج عبر قرون من الزمن منظومة قيمية لا يمكن تجاوزها إلا من خلال تصفية النفس و قبولها النقد و التوجيه و افتكاكها من تضخم الأنا الذي يفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، إن تحويل التركيز من (الحق) إلى (الواجب) ليس بالأمر الذي يأتي عفويا أو بالمصادفة، لأنه تحويل لعادات و طبائع منسجمة مع ما في الإنسان من ميل طبيعي إلى منطق السهولة مدعما من ديماغوجية القرن العشرين التي نصبت من (الأنا) وثنا جديدا يعبد الفرد في المجال السياسي باسم الحرية، و في المجال الاقتصادي باسم الحقوق. وفي المجال الرياضي يعبد باسم (الأنا) الجسم في ملاعب الرياضة. فتحويل التركيز الموروث ليس إذن بالأمر السهل بل لا يأتي إلا بصراع مع كل التيارات التي تنمي الأنانية بشكليها، الأنا و نحن.¹

فإذا كان التاريخ ليس ما تصنعه الصدف و لا مكائد الاستعمار، و لكن ما تصنعه الشعوب ذاتها في أوطانها، فإن هذه الصناعة لا تبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة، الواجبات الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعقده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، و شعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبيرة.² و يحيلنا على مسرح الواقع الذي يعج بالأمثلة التي تتحول فيها الشعارات على دروشة سياسية لا طائل من ورائها يرجى، فيعيدنا إلى الأفكار المضللة التي أفسدت العامة بدعوى الفن تارة و الأخلاق تارة أخرى ، و يضيف مع ما استجلبناه من مصر (الفاروقية) من الأسطوانات و الأشرطة السينمائية المجافية للفن و الأخلاق، فإننا قد

¹ . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 144

² . _____ ، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 78.

استجلبنا منها أيضا لسياستنا تقوم على أفكار تضلل العقول البسيطة، كان لها أسوأ تأثير في حياتنا، حيث اتخذتها (الدروشة السياسية) شعارا لها و مبدأ، و كررتها على مسمع من الشعب، الذي رددّها معها سنين طويلة صباح كساء: " إن الحقوق تؤخذ و لا تعطى" لحاها الله كلمة تطرب و تغري، فالحق ليس هدية تُعطى، و لا غنيمة تغتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، و الشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدّل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي.¹

فإذا كان حديث الرسول (ص) صريحا من حيث المسؤولية الاجتماعية فيما يتعلق أسبقية الواجب عن الحق، فقد أقر منذ قرون القيمة الأخلاقية والتربوية في حديثه الشريف: " كَيْفَمَا تَكُونُوا يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ " فالمطالبة بالحقوق يجب أن لا تنسينا القيام بالواجب غير منقوص، و التقصير في التربية كواجب، و الدخول في متاهة الحقوق أدخل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في متاهة سياسية طويلة الأمد و الدخول في الانتخابات و السفر في بعثات للخارج و التنافس على التمثيل في المجالس و غيرها، فبدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر و القيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت منذ سنة 1936 سوقا للانتخابات. و صارت كل منضدة في المقاهي منبرا تُلقى الخطب الانتخابية. فلکم شربنا في تلك الأيام الشاي، و کم سمعنا الأسطوانات، و کم رددنا عبارة " إننا نطالب بحقوقنا " تلك الحقوق الخلابة المغربية التي يستسهلها الناس فلا يعمدون إلى الطريق الأصعب: طريق الواجبات. و هكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصقّون لكل خطيب، أو قطيع انتخابي يُقاد إلى صناديق الاقتراع أو قافلة عمياء زاغت عن الطريق، فذهبت حيث قادتها الصدفة في تيار المرشحين.² إن عملية البناء تحتاج إلى الأسس التربوية المتمثلة في تقديم الواجب عن الحق، و الإنتاج عن الاستهلاك، إن مشكلة الواجب و الحق في نظره ذات أصل واحد و إن تعددت أشكالها:

- ✓ الواجب فوق الحق في المجال الأخلاقي و الاجتماعي .
- ✓ الإنتاج فوق الاستهلاك في المجال الاقتصادي.
- ✓ السياسة النظيفة في البولتيك في المجال السياسي .

1. _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 35.

2. _____، المرجع سابق، ص 37.

✓ الخضوع للمثل العليا و الحوافز التحضيرية فوق صوت الغريزة في المجال الحضاري.
 ✓ الفعالية و البناء واقتحام العقبة و التضحية و الإبداع فوق فصل منطق الفكرة
 عن كمنطق العمل و التكديس و سلوك طريق السهولة و التواكل و الاستيراد في المجالين
 الفكري و العلمي.

و تقوم التربية الاجتماعية في هذا المجال بمجموعة من العمليات نذكر منها:

✓ تنمية الشعور بالواجب كقيمة أخلاقية على مختلف الأصعدة الاجتماعية و السياسية
 و الاقتصادية، و بالعمل على محو العادات و الأفكار التي تتجه للمطالبة بالحق قبل
 الواجب، و بترويض أولوية تقديم الواجب على المطالبة بالحق.
 ✓ العمل على تنقيف طرائق التفكير و العمل و النشاط و محو كل الخرافات، و عوامل
 كف النشاط و الفعالية، و تحرير العقول من الانسياق وراء منطق السهولة، الذي يستسيغ
 نغمة الحقوق و ينسى الواجبات.

✓ التأكيد على أن أداء الواجب أعظم أثرا في نتائجه من تقديم المطالبة بالحق، و العمل
 على تكوين الوعي الشعبي و الإيمان القومي في هذا السبيل.¹

لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة و نسينا الواجبات؛ و نسينا أن مشكلتنا
 ليست فيما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار؛
 و في تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال و الأخلاق، و ما فيها أيضا من نقائص
 تعترى كل شعب نائم. "إن العلاقة بين الحق و الواجب هي علاقة تكوينية تفسر لنا نشأة
 الحق ذاته، تلك التي لا يمكن أن نتصورها منفصلة عن الواجب، و هو يعد في الواقع (أول
 عمل قام به الإنسان في التاريخ). فالسياسة التي لا تُحدِّث الشعب عن واجباته، و تكتفي بأن
 تضرب له على نغمة حقوقه، ليست سياسة و إنما هي خرافة، أوهي تلصص في الظلام،
 و ليس من مهمتنا أن نعلم الشعب كلمات و أشعار بل نعلمه مناهجا و فنونا".²

7 . 2 . 2 : مدرسة العمل المشترك: لا يمكن لأي مجتمع أن يجسد نمط من العلاقات
 و التفاعلات الجديدة التي ترسي قواعد البناء الجديد دون أن يتجسد ذلك في القيام بعمل
 مشترك يكرس على مستوى العمق البعد الإنساني لتفاعل شبكة العلاقات الاجتماعية،

¹ . عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 192.

² . _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 143.

فالمجتمع التاريخي الذي يولد، فيكون ميلاده إجابة عن اختيار مفروض، تفرضه الظروف الطبيعية الخاصة بالوسط الذي يولد فيه، سواء تعرض هذا الوسط لتنوع مفاجئ، أو أن العناصر المكونة له قد واجهت فجأة ظروف وسط طبيعي جديد.¹

و للإنجاز هذا العمل المشترك لا بد من منهج يتم في ضوئه إنجاز ذلك، إذ أن العمل من دون منهج يعني الاستحالة أو الخطر، و المنهج الأساس الذي يركز عليه المبرر، و ينطبع بروح ذلك الأساس . أي العقيدة . فإذا كان المنهج على خلاف مع ذلك الأساس فإنه يفقد فاعليته، بل يؤدي إلى تعطيل العمل المشترك، لأن الاختلاف بينهما يساوي الاختلاف بين المبررات نفسها. و لكي يكتب النجاح لأي عمل نهضوي حضاري فيجب أن يتأسس على منهج واضح يسير بالعملية إلى مبتغاها المنشود دون الولوج في فوضى، فيتم ذلك من خلال إدماج النشاط الفردي في النشاط الجماعي و إثارة فاعليته، و لتحقيق ذلك لا بد من أن يشتمل المنهج ثلاثة جوانب مهمة هي:

أولاً: تحديد حرية الفرد بما يتفق مع مهمة إنجاز حضارة. و ضمان ذلك تربيته على أساس القيام بالواجبات.

ثانياً: تربية الفرد على إعطاء كل عمل التقدير الذي يستحقه، لإنجازه من دون إهمال العمل لسهولته، أو تركه من أجل صعوبته.

ثالثاً: سلامة الضمير و تطهيره من الشعور بالذنب، لا يمكن أن يكون فعالاً و مندمجاً في النشاط الاجتماعي.

و تلك الجوانب الثلاثة قائمة على أساس التربية الأخلاقية، المستمدة من الدين و هذه هي مهمة الثقافة التي تعني بتوجيه طاقة الفرد، و في هذا ما يؤكد الارتباط الوثيق بين الإيديولوجيا و الثقافة و الدين.² و يولي لشبكة العلاقات الاجتماعية أهمية كبيرة في بلورة العمل المشترك على مستوى التاريخي في صورتها الروحية من خلال تكوين رابطة تستمد مشروعيتها من الفكرة الدينية، إن أصل شبكة العلاقات الاجتماعية . الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك . إنما يكمن في تخلق تركيبه العضوي التاريخي.³ و تمثل شبكة العلاقات الاجتماعية ذلك البعد من خلال:

1. _____، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص11.

2. عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته و فكره. ط1، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت 2012. ص ص 278، 279.

3. _____، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص30.

أولاً: أن كل تغيير في الحياة الاجتماعية لا يمكن أن يرجعه إلى (المادة الاجتماعية) كالاقتصاد و العمل الحسي، و إنما تعزى إلى (العلاقات) التي تحول شروط الظاهرة الاقتصادية، حيث توحد العناصر في خلق حياة إنسانية منظمة، من أجل الاضطلاع ببعض الوظائف الاجتماعية، في نطاق(العمل المشترك) الذي يصنع التاريخ.¹

ثانياً: أن بناء عالم الأفكار هو في حد ذاته نوع من العمل المشترك، و تجسّد ذلك تاريخياً من خلال ما يحدث للمجتمعات من كوارث بيئية و طبيعية فتمحى عوالم الأشخاص (كما حدث لروسيا و ألمانيا) لكي الرصيد المتبقي من عالم الأفكار أتاح لهما أن يعيدا البناء من جديد. هذا البناء ذاته نوع من العمل المشترك الذي يقوم به مجتمع معين، من خلال ما تنظمه شبكة العلاقات الاجتماعية و تجعله سبيلاً إلى غاية معينة. ففاعلية (الأفكار) تخضع إذن لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملاً متجانساً من الأشخاص و الأفكار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. كلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالاً مؤثراً.²

ثالثاً: يقاوم العمل المشترك ظاهرة تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية و هي (تضخم الأنا) و تقضي على الروابط الاجتماعية، إن العلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلًا، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول لمشكلات بل للعثور على أدلة و براهين.³

رابعاً: إن الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسد المجتمع تبدأ من تحلل شبكة العلاقات التي تفقد روحها الأولى التي أنتجتها، و قيم التجسيد على مسرح التاريخ، إن تفكك هذه العلاقات نهائياً، فذلك إيذان بهلاك المجتمع، و حينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ. فكلما حدث إخلال بالقانون الخلقى في مجتمع معين، حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه.⁴

1. _____، المرجع سابق، ص36

2. _____، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص37.

3. _____، المرجع سابق، ص43.

4. _____، المرجع سابق، ص53.

إن العمل الجماعي المشترك داخل المجتمع يتجسد من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية المتينة التي ترصُّ البنيان رصًا، و يعكس حالة المجتمع الإسلامي الأول المنسجم في طبقة واحدة من خلال وحدة المسار و المصير و الهدف و هو المجتمع المثالي.

7 . 2 . 3: مبدأ المؤاخاة: إن المجتمع الذي يعنيه مالك بن نبي هو المجتمع الديناميكي المتغير نحو شيء من التقدم و التطور. و يرى أن أول عمل يؤديه المجتمع في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة علاقاته الاجتماعية. و على هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين. و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي (ص)، و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا عوامله الاجتماعية الثلاثة: (عالم الأشخاص، عالم الأشياء، و عالم الأفكار).¹

لكن لماذا المؤاخاة تكون شرطًا من شروط العمل الجماعي و اندماج فيما بينهم، و بالتالي تكون شرطًا في استمرارية شبكة العلاقات الاجتماعية ؟

إذا كان مفهوم المجتمع هو الجماعة الإنسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن أن نطلق عليها مصطلح ميلاد. و لكن حين نتحدث عن ميلاد معين، فإننا نعرفه ضمنا بوصفه (حدثًا) يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة. و يظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين جماعة معينة.² فهذه العلاقات الجديدة التي أرسنها قواعد النظام الجديد بدأت بتكريس نمط جديد من التفاعلات و العلاقات تذيب كل الفوارق الطبقية و يجسد معنى الأخوة في أعلى الصور الإنسانية من خلال تجاوز منطق القبيلة و العشيرة إلى بناء مجتمع جديد، إن مجتمعا عندما يولد أو عندما ينهض لا يكون لديه (عالم الأشياء)، و من ثم لا يكون لديه سوى (عالم الأفكار) يلتبس فيه إخصاب الفكرة، و بواعث ثقافته؛ أعني: مبادئ التجديد و الخلق و الإبداع.³

1. _____، المرجع سابق، ص 28.

2. _____، المرجع سابق، ص 16.

3. _____، المرجع سابق، ص 31.

7 . 2 . 4: مبدأ التبادل: لا يعني هنا التبادل بمعناه الاصطلاحي، إنما التبادل المقصود يتجاوز ذلك إلى فكرة التساند بين الفرد و المجتمع في إطار ثقافة لا تستورد النماذج و التجارب البشرية على صورة متراكمة و غير منظمة، بل تخلقها في مكانها و بيئتها و يبقى على الإنسان ترتيب العناصر و حشدها ضمن إطار موحد في شكل أسلوب معين للحياة خاص بالمجتمع المتحضّر، و سلوك معين خاص بأفراده. و يمثل هذا تركيباً أولياً للعناصر الثقافية كنشاط متبادل بين أسلوب الحياة و السلوك الإنساني، يوحي بوجود اتفاق مسبق بينهما يقضي بالتساند و الاحتفاظ بين كليهما. و يتم تعديل الإطار الثقافي عن طريق الضبط الاجتماعي أو من خلال عملية النقد، و ذلك أن المجتمع يتوقع سلوكاً معيناً من الأفراد، و الأفراد يقومون برد الفعل في صورة أسلوب معين للحياة. فإذا كانت اللاتقافة . أو الفراغ الثقافي . تدافع عن المجتمع البدائي الثابت والمسكون بالخرافة و الدجل و الأساطير، و الأسير للعادات و التقاليد البالية، فأن المجتمع التاريخي يدافع عن بنائه الاجتماعي من خلال الدفاع عن علاقاته و تفاعلاته الاجتماعية و عن أسلوب حياته و فرض منطق الضبط الاجتماعي و النقد البناء و هما المظهران الأساسيان لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية لكي يحافظ المجتمع . من خلال هذه الوظيفة الثنائية . على نقاوة أسلوبه و على صفاته المميزة لفعاليته، و هنا تمكن وظيفة الثقافة التي تحدّد أصلها على قاعدة الضمانات المتبادلة بين الفرد و البناء الاجتماعي.

إن أسس النظام الاجتماعي التي وضعها الإسلام في صورة خرق السفينة في الحديث الشريف، أو خيرية هذه الأمة للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في الآية الكريمة، فهما يلخصان لنا مبدأ التبادل الذي يجب أن تدافع كل ثقافة عن تراثها بأن تضع بين البناء الاجتماعي، و الفرد ذلك التبادل الذي يقوم بعملية التقويم للأخطاء منهما كان مصدرها. إن هذه المبادلة لا يمكن أن تمارس إلاّ إذا تمّ ربط الفرد بالجسم الاجتماعي: بالصورة التي تلتحم بها مادة البناء بكامل البناء، و ذلك لكي نستعمل مرة أخرى صورة مقتبسة عن الرسول.

و دور الثقافة إنّما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللّحمة الاجتماعية أولاً و بالذات.¹

7 . 2 . 5: مبدأ التعاون: يرى ابن نبي أن التعاون خاصية لازمة للأفراد في المجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، و هي قوة في أساسها مرتبطة بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد،

¹ . _____ ، آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص134.

و التي تتيح له تكوين القبيلة و العشيرة و المدينة و الأمة، و روح التعاون هذه بين الفرد و الجماعة، مهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم البعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم. في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾¹ و من العجب أن نجد اتفاقا له مغزاه و دلالاته بين ما توحى به هذه الآية، و بين معنى كلمة دين **Religion** في أصلها اللاتيني فهي تعني هنالك "الربط و الجمع" و قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي، موجودة بكل وضوح في الإسلام، و لكن الإسلام المتحرك في عقولنا و سلوكنا و المنبعث في صورة إسلام اجتماعي، و قوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارة المنشودة، تجربة عمرها ألف سنة، و حضارة ولدت في أرض قاحلة وسط بدو رجال الفطرة و الصحراء.²

تقوم المجتمعات على مبدأ التعاون فيما بينها، لكي تؤسس شبكة علاقاتها على نوع من التساند داخل النسق الاجتماعي الواحد، و تستمد هذه العلاقات روحها و فعاليتها من عالم الأفكار الغني بنماذج و صور راقية لعمق العلاقات الاجتماعية، فالمجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بتقص في الوسائل المادية للأشياء، و إنما بافتقاره للأفكار، يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه؛ بقدر متفاوت من الفاعلية، و في عجزه عن إيجاد غيرها، و عن الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق؛ عندما يتخلى عن أية رغبة و لو مترددة بالتصدي لها.³

لذا كانت قيم التعاون التي أرساها المجتمع الجديد تمثل اللبنة الأولى في البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع الذي يعيد نشاطه من خلال تفعيل دورته التاريخية، إن المجتمع يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن له استمراره، و تحفظ شخصيته و دوره عبر التاريخ، و هذا المضمون الجوهرى للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن، و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، و توجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، و هي رسالة المجتمع الخاصة به. فتكون

1 . سورة الأنفال، الآية: 63

2 . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 88.

3 . _____، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 36.

هذه الشبكة، و لو في مرحلة ابتدائية، هو الذي يعبر عن حدث (ميلاد مجتمع) في التاريخ.¹ و بعيدا عن البعد السياسي الذي يقتضيه تكتل الأفروآسيوي، فمن الوجهة النظرية، كان يجب أن يهدف إلى إعادة تكوين الكتلة العربية الآسيوية و دفعها الجديد إلى أن تسير في اتجاه الحضارة. و نظرا للاعتبارات السابقة أن مشكلة الحضارة في البلاد الأفروآسيوية تنقسم إلى قسمين:

أولاً: المشكلة العضوية الخاصة بتشديد بناء قائم على الحقائق النفسية الاجتماعية في هذه البلاد.

ثانياً: مشكلة التوجيه القائم على حقائق الوضع العالمي.

7 . 2 . 6: مبدأ السلام: يعتبر مبدأ السلام من أكبر المفاهيم التي نادى بها الإسلام، وعليه قامت دعوته، و به قامت حضارته، وقد أولاه عناية كبيرة، ولذلك نراه يذكر بهذا المبدأ وأهميته عند كل فرصة تسنح له في كتاباته ومقالاته حتى أفرد له كتاباً خاصاً لينبه العالم بأهميته، وهو كتاب "فكرة الأفروآسيوية". و فيه يقول: "إن الفكرة الأفروآسيوية التي ولدت نظرياً في باندونغ هي إجابة على الاستعمار المشترك، الذي ينتج ضمناً عن النقاء الاهتمام الإستراتيجي بالغريزة الاستعمارية القديمة، التي تصف بعد، و لكننا لم نعرف بعد صورتها النهائية، فكل زوج هو مرحلة في الحوار الذي بدأ في العالم منذ عشرة سنوات، بين القوة و عدم العنف. و باندونغ هي في الواقع لحظة رئيسية في هذا الحوار، و بهذا يمكننا أن نرد على هؤلاء الذين يرون فيه صورة سلبية للوحدة الأفروآسيوية الموجهة ضد الغرب . كما يقولون . فيمكننا أن نجيب بأن هذا التفسير نفسه يكون صورة جد سلبية في تحديد موقف القائلين به من المشكلة الإنسانية، و خاصة فيما يخص السلام، بما أن مؤتمر باندونغ كان يهدف في نهاية مناقشته إلى تنظيم قوى العمل و السلام".²

و يحتل هذا المبدأ أهمية أكبر في ظل الأحداث والمشكلات التي نعيشها اليوم، فيرى ابن نبي أن حصيلة الدمار والقتل والحروب التي خلفتها هذه الأزمات تفوق وتتجاوز كل ما حدث في القرون التي سبقتها. مع ما يموج به عصرنا من التقدم التكنولوجي الهائل، والتسارع في تطوير أسلحة الدمار الشامل. وعليه فإن ساحات المواجهة والصدام تنذر بالويل والثبور

¹ ._____، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص14.

² ._____، فكرة الأفريقية الآسيوية، مرجع سابق، ص60.

كل بقعة من بقاع عالمنا الأرضي. ومنه لا يمكن أن نعزل المشكلة القومية عن المضمون الإقليمي أو عن المضمون العالمي الذي برهن التحليل التاريخي و الاجتماعي لمشكلة الرجل الأفروآسيوي على أنها مرتبطة بظرف عام في إطار معين و هو محور طنجة . جاكرتا ، وبضيف: أن مسألة الاتجاه . اتجاه السلام أو الحرب . قد صارت من المسائل الأساسية المطلقة، إذ ليس من الممكن في الظروف الحالية أن نتصور بناء اجتماعيا و سياسيا دون أن نُقدّر عوامل السلام و الحرب. و ليس من الممكن أن نثبت دعائم الحرية، و أن نشيد حضارة في أي مكان دون أن نقدّر الظروف العامة لعالم متقلب.¹

7 . 2 . 7 : استثمار الزمن تربويا: يعتبر مالك بن نبي أن الوقت عملا مؤثر في النشاط و الفكر، و في تكوين المعاني و تطوير الأشياء. يقوم المجتمع المنخرط في أي دورة حضارية بتكييف الوقت و تحويله إلى زمن اجتماعي مثمر حين يدرجه في تخطيط المشروعات الصناعية و تنفيذها ، بصفته ركيزة من ركائز اطراد تلك المشروعات و تحققها² و في مشروعه الحضاري يشير إلى أنه يتحتم علينا ألاّ تقتصر على عمل شيء ما، و إنما إنجازه في أقصر مدة ممكنة من الوقت، و يجب أن تتوفر في ذلك العمل شروط الفعالية في عالم يسيطر عليه مفهوم سرعة الإنتاج منذ أن تبنى منهج (فريدريك تايلور) الذي ينظم خطوات العمل و عدد الحركات اللازمة من أجل الحصول على النتائج بأقل جهد ممكن و في أقصر وقت. إن وقتنا الزاحف صوب التاريخ، لا يجب أن يضيع هباء كما يهرب الماء من ساقية خربة، . و بضيف، لا شك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تماما قيمة هذا الأمر، و لكن بأية وسيلة تربوية؟ و أنه من الصعب أن يسمع شعب ثرثار الصوت الصامت لخطأ الوقت الهارب.³

و يورد . في معرض حديثه . عن الجانب التربوي للزمن في كتابة شروط النهضة حديث الرسول(صلى الله عليه و سلم): " ما من يوم ينشق فجره إلاّ و ينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد، و على عمالك شهيد فاغتم مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة ... " فالزمن كالسيف إن لم تقطعه قطعك. و يتعين علينا نحن، أن نتولى بأنفسنا فرض المعايير ضمن وجوه نشاطنا،

1 . _____ ، المرجع السابق، ص116.

2 . _____ ، آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص 112.

3 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 147.

مع إدماجنا لمفهوم الزمن داخلها؛ إذ لا يكفي أن تقتصر على مجرد القيام بصنع شيء من الأشياء، و إنما يتعين أن نتوفر على إنجازها في أقصر فترة ممكنة من الزمن.¹

و قد كان هدر الوقت في محور طنجة . جاكرتا السمة البارزة مع أن الإسلام يدعو للنظر في قيمة الزمن على المستوى الفردي والجماعي على السواء، و ينهى عن تبذير ساعات العمر على من لا طائل من ورائه يرجى، و لكن الوظيفة الاجتماعية للدين قد ضعفت من الزمن، ولم يعد للزمن في سلوك المسلم في الوقت الراهن أي صدى يذكر. و إذا كان المنطق العملي من أساسيات و ركائز العمل الإسلامي فكان لا بد من إعطاء الوقت قيمته اللازمة، و تربية النفس على نوع من العمل التطوعي، و ذلك بتخصيص بعض الوقت لأداء واجب معين بطريقة منظمة و فعالة، حتى تتكون لديهم خلال سنة كم هائل من الساعات تمت في إطار تأدية واجب معين. و سيثبت نصف الساعة هذه عمليا فكرة الزمن في العقل الإسلامي، أي في أسلوب الحياة في المجتمع، و في سلوك أفرادها، فإذا استغل الوقت هكذا فلم يضع سدى و لم يمر كسولا في حقلنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي و اليدوي و الروحي و هذه هي الحضارة.²

8 . 2 . 7 : فكرة التخطيط : يعرف التخطيط في أدبيات علم الاجتماع التنمية بأنه المواءمة بين ما هو مطلوب و ما هو متاح عمليا، فهو يعني تعبئة و تنسيق و توجيه الموارد و الطاقات و القوى البشرية المتاحة لتحقيق أهداف اقتصادية أو إجتماعية متفق عليها، و ترسم هذه الأهداف و تحدد داخل كل مجتمع في إطار الفلسفة السياسية و الاجتماعية التي يؤمن بها المجتمع و التي تتفق مع بنائه التاريخي و الاجتماعي و الثقافي. و يتم تحقيق هذه الأهداف في فترة زمنية محددة. و تعمل كل خطة على تحقيق هذه الأهداف المقررة بأقل تكلفة ممكنة عمليا.

و التخطيط الذي يقصده هو توفير معطيات لضرورة البناء ليست جمعها و تكديسها، فالسياسة الفعالة هي التي تنسجم مع طبيعة الأمم توجه إمكانياتها نحو الحضارة و لكن السياسة عندنا لا تتبع القواعد الاجتماعية و إنما الفوضى و الاعتباط " و الواقع أن الفكر السياسي الحديث في العالم الإسلامي هو في ذاته عنصر متنافر، فهو اقتباس لا يتفق

1 . _____، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 88.

2 . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 147.

و حالة ذلك العالم، و المسلمين في هذا الميدان أو في غيره من الميادين لم ينقبوا عن وسائل نهضتهم، بل اكتفوا بحاجات قلدوا فيها غيرهم. الشيء الذي أدى إلى فوضى عارمة لأن العملية لم تتم في ظروف عادية نابعة من جملة التفاعلات الاجتماعية و النفسية و الثقافية للمجتمع. فإذا كانت الحضارة هي الغاية التي نريد أن نسعى إليها فإن الحضارة لا يمكن أن تستمد وجودها من مصدر غير الأرض، إنها في النهاية الإنسان و التراب و الوقت. فمنتجات الحضارة لا يمكن أن تكون من غير هذا الأشياء الثلاثة.¹

فإذا كان إنسان ما بعد الموحدين يتصف بخصائص نفسية و اجتماعية فوضوية تبعد به أن يشكل بنية ذهنية عامة و متوازنة تنتظر للأشياء في شمولها ليتم لها التخطيط و البناء الفعال، فالتخطيط (الوسائل و الإمكانيات) من شأنه إن يضع القطار في سكتة الصحيحة بعيدا عن القلق و الانتظار الطويل. إن فكرة التخطيط تلعب دورا هاما في العالم الحديث لأنها تؤثر في الأوضاع السياسية و الاجتماعية معا. فتزرع بذلك الأمن في النفوس الطامحة و تثبت فيها روح التضحية. و يأخذ التخطيط بعده التربوي من خلال الركيزتين التاليتين:

الركيزة الأولى: أن تخرج فكرة التخطيط من جانبها التقني الفني الذي يتمثل في جمع الوسائل و ربطها ببعض المشاكل التي قلما نفكر في ربطها بصفة منهجية، لأن العادات الفكرية لا تتغير بسرعة التطورات التي يحدثها العامل الفني في الأشياء. فالتخطيط جملة: هو تعميم نظرية تايلور الذي فكر في المشكلة في مستوى المصنع.

الركيزة الثانية: الاهتمام بالجانب النفسي و الثقافي الذي تأخذ أبعاده مستويات عميقة في التحليل و التخطيط من أجل إرساء دعائم حضارية للتخطيط، إذا أن حيثيات القرن العشرين أصبحت تأخذ في حسابها العوامل الثقافية " فبينما يرفع القرن العشرين هذه النظرية من مستوى المصنع الذي يصنع منتوجا حضاريا معينا مثل السيارة و الطائرة إلى مستوى المجتمع الذي يصنع حضارة".²

7 . 2 . 9: تصفية القابلية للاستعمار: إن الإنسان المستلب و المهزوم نفسيا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يؤسس في نفسه عملية اجتماعية ينطلق من خلالها في قراءة الواقع و محاولة نقده و التصدي له، فضلا عن مواجهته. و قد أخذ مصطلح القابلية

¹ . _____ ، حديث البناء الجديد، مرجع سابق، ص 24.

² . _____ ، المرجع سابق، ص 24

للاستعمار حيزا كبيرا ومساحة واسعة من تفكير مالك بن نبي الذي جعله مفتاحا أساسيا لتحليل عمق إنسان ما بعد الحضارة. فإذا كانت هذه الأخيرة في بعدها القيمي ذات أساس تربوي، فإن القابلية للاستعمار كعامل نفسي لا يمكن أن يلج بها المجتمع الخارج لتوه من الإحتلال إلى فضاء الحرية و الانعتاق بعيدا عن العجز و الخوف و كل الأمراض النفسية التي من شأنها أن تثبط الإنسان دون تحقيق غاياته و أهدافه.

و مصطلح "القابلية للاستعمار". و هو المعامل الثاني بعد عامل "الاستعمار" الذي أخذ قسطا كبيرا من تفكيره، و هو العامل الداخلي المستجيب للعامل الخارجي، أنه رضوخ داخلي عميق لعامل الاستعمار يرسخ الاستعمار و يجعل التخلص منه مستحيلا. و قد استعمل مفهوم القابلية للاستعمار بمعنيين مختلفين:

الأول: تكون فيه القابلية ناتجة عن الواقعية الاستعمارية أو بتحديد أكثر عن الرضوخ الداخلي لهذه الواقعة و تقبلها و رفض إزالتها.

الثاني: فتكون فيه "القابلية للاستعمار" مجموعة من الصفات العقلية و النفسية و ما يناسبها من علاقات اجتماعية تجعل المجتمع لا يستطيع مقاومة الاستعمار و تسهل للاستعمار مهمته.

فكُون الإنسان غير حائز جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته، و تحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار، و أما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يديه من وسائل استخداما مؤثرا، و في بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته، حتى بالوسائل العارضة، و أما ألا يستخدم وقته في هذا السبيل، فيستسلم . على عكس . لحظة إفقاره و تحويله كَمَا مهملا، فيكفل نجاح الفنية الاستعمارية : فتلك هي القابلية للاستعمار.¹

و إذا كانت فكرة القابلية للاستعمار هي امتداد لفكرة الاستعمار نفسه، فيتعين أنه بعد تصفية الاستعمار المادي من الأرض، يجب توجيه السهام صوب إزالته من الأنفس و العقول، و لا يكون ذلك إلا من خلال خطة تنموية شاملة تأخذ في منظورها البعد التربوي كمنهج على الصعيدين الاجتماعي و السياسي، و إن نجاح أي منهج . سواء اتصل بنظرية في السياسة أم في الإصلاح . مرتبط بتناول المشكلة في جانبها معا، فإذا نظرنا إلى جانب دون الآخر فقد غامرنا برؤية مشكلة مزيفة. إن هناك نتيجة منطقية و علمية تقرض نفسها،

¹ . _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 87.

و هي أنه لكي نتحرر من "أثر" هو الاستعمار، يجب أن نتحرر أولاً من "سببه" و هو القابلية للاستعمار.

7 . 2 . 10: البعد التربوي للتراث: إذا كان التاريخ عند ريمون آرون " ليس شيئاً آخر إلا إعادة بناء حياة الأموات من طرف الأحياء، فإن استلهام التراث و الاحتماء به يعبر عن رد فعل طبيعي لحماية الحالة النفسية و الاجتماعية للمجتمع من التفكك، و الشخصية الحضارية من الذوبان، فقد كان التراث . و لا يزال . هو الحاضن الحقيقي للقيم الاجتماعية و التربوية و الأخلاقية و المثل العليا التي نرسي عليها قواعد حياتنا الاجتماعية، و نضبط بها سلوك الأفراد و الجماعات.

فقد شكلت القصص التي تروىها "زوليخة" . و هي جدته من أمه . في بداية الأمر المرجعة الثقافية الأولى للطفل الصديق من خلال قصص التي كانت تروىها عن الدخول الفرنسي لقسنطينة و ما انطبع في ذهنه من صور الظلم و العدوان و مظاهر المقاومة و البسالة، فقد ورث ابن نبي تراثاً يرجع إلى ما قبل الإحتلال الفرنسي من خلال ما روته جدته عن أمها "بايا" التي عمرت أكثر من قرن، فقد كانت "زوليخة" بارعة في قص الحكايات، إذ تشدنا إليها و نحن متعلقون حولها، . و يضيف . كانت هذه مدرستي الأولى، فيها تكونت مداركي¹. صف إلى ذلك فقد استلهم جل التراث الإسلامي من خلال قراءة التاريخ و استلهام العبر، و ذلك ما نلمسه في فكره عامة، حيث بنى نظريته في الحضارة استناداً إلى الدراسة المتعمقة لتاريخ الدول و الشعوب و الحركات الشعبية التي جسدت حضور الإنسان في التاريخ، فيروي عن الصحابة قصص مستلهما قيماً أخلاقية تربوية، ثم يعرج على التاريخ الإسلامي فيفكك فيبني من أحداثه نظاماً اجتماعياً، و لو رجعنا إلى نهاية كتبه لوجدن في مسرد الآيات و الأحاديث النبوية، و مسرد الأعلام و الدول و الأمكنة، و مسرد الشعوب و الجماعات و المذاهب لوجدنا أن مالك بن نبي لم يترك في جل كتاباته تاريخاً قديماً و لا حديثاً متعلقاً بالنظم الاجتماعية المختلفة في كافة الحضارات إلا أشار إليها إيماءة أو مجازاً، أو تصريحاً صريحاً بذلك، و لذا يعده الكثير من النقاد عالماً من علماء فلسفة التاريخ، و مؤرخاً بامتياز جاء ليمد التاريخ بعد ابن خلدون دفعة أخرى لقراءة المجتمعات بمناهج حديثة. فهو يمثل ثقافة عالمية تركيبية محوراً الإسلام و صادرة عن عملية استقراء

¹ . _____، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 16.

القرآن و تكشيفه على ضوء تراكم معرفي شمولي و رصد اجتماعي واقعي، و ينفرد عن غيره في تاريخ الإبداع الفكري الذي عاشه المسلمون في نهضتهم الحديثة، و هي تكمن في ربط قطاعات المعرفة في علومها و وظائفها، و في محاولة رؤية النشاط الإنساني متكاملًا في جوانبه الاجتماعية و السلوكية و في أبعاده الروحية و تطلعاته الأخروية.¹

فقد كان قارئًا و ناقلًا أمينًا للتراث من خلال إعطاء البعد التربوي للحدث التاريخي، وللقصة التاريخية و توظيفه من أجل مغزى أكبر و هو مواجهة المشكلات الاجتماعية و السياسية و التشريعية و الثقافية و اللغوية. فهذا الزخم من التراث شكلا بعدا تربويا عنده من الآراء و التصورات و النظريات التربوية التي استقاها من التاريخ و وظفها في صالح البناء الحضاري الذي بشر به.

7 . 2 . 11: تكوين الثقة بالنفس: من بين السلوكات النفس اجتماعية التي أولاها ابن نبي اهتماما خاصا في تحليله لفكرة التربية (مبدأ الثقة)، و هو مبدأ يجب أن يسود بين الحاكم و المحكوم كخاصية نفسية تهيئ للفرد الاستقرار و الأمن، و قد أخذ هذا المبدأ من فقيه الحضارة الصينية و حكيمها " كونفيشيوس " الذي سأله أحد تلاميذه عن أركان السلطة فأجاب: " يجب أن توفر السلطة ثلاثة أشياء هي : لقمة العيش، الكافية لكل فرد، و القدر الكافي من التجهيزات العسكرية، و القدر الكافي من الثقة في حكامهم، فأعاد سؤاله: و إذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد هذه الأشياء الثلاثة، فبأيهما تضحي؟ فرد الأستاذ: بالتجهيزات العسكرية، و يعود المرة ثانية لسؤاله: و إذا كان لا بد من أحد الشئيين الباقيين فبأيهما يضحي؟ فأجاب الأستاذ: في هذه الحالة نستغني عن القوات لأن الموت كان دائما مصير الإنسان و لكنهم إذا فقدوا الثقة لم يبق أي أساس للدولة.²

إن هناك داء واحد ينهش الشعوب العربية في كل مكان، في المغرب و المشرق، منذ قرون، ذلك الداء هو: فقدان الثقة بالنفس، و ما يطبع أخلاقنا من الوشاية، و التشهير، و عبادة التشريفات، و تملق الرؤساء، و في كلمة واحدة: هذا التردي المزمن الذي حمل الخلفاء و الأباطرة و الأمراء العرب على فرض نظام صارم على هذا الشعب، لا ينطوي

¹ . عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 16.

² . _____، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي مرجع سابق، ص 176.

على أدنى اهتمام بالتربية أو التقدم الاجتماعي، و كان هذا حتى قبل أن يفكر الاستعمار في استغلال هذه النقائص كسلاح فتاك في الشرق أو في الغرب".¹

7 . 2 . 12: تصفية العادات و التقاليد: ربط مالك بن نبي النهضة و التقدم بتصفية العادات و التقاليد بتجلية ما فيها من إيجابيات و رفض ما فيها من سلبيات. متمثلة في تراكمات مجتمع ما بعد الموحدين الذي استكان إلى الذرية و التزمت و النزوع إلى المديح، و ما يوجد ارتبط فيها بالجانب الاجتماعي كالجدل و الحرفية و التشبث بأذيال الماضي و التحليق في الخيال . ويرى مالك بن نبي إننا حين نتكلم عن النهضة نتصورها في ناحيتين :

أولاً: تلك التي تتصل بالماضي، أي خلاصة التدهور و تشعبها في الأنفس و في الأشياء. ثانياً: تلك التي تتصل بخمائر المصير و جذور المستقبل و يأتي في مقدمة واجباتنا تصفية عاداتنا و تقاليدنا و إطارنا الخلقى و الاجتماعي، مما فيه من عوامل قاتلة و رمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية، و تكون التصفية حتماً بفكر جديد يحطم ذلك الموروث عن فترة تدهور المجتمع، و يبحث عن وضع جديد. و يخلص إلى ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين:

الطريقة الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي.

الطريقة الثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة.

و يقترح لاستخلاص العبر من تجارب العلماء و المصلحين و يكون ذلك من خلال انتهاج طريقتين للتخلص من أوزار العادات و التقاليد و أثقالها المتركمة عبر القرون :

أولاً: فكر ثوري : يركز هذا المنحى على ما قامت به حركات الإصلاح في الوطن العربي التي قامت بعملية " هدم من أجل البناء"، و تنقية الثقافة الإسلامية من المقدرات الوهمية التي تسمى " تقاليد"، و قد انبرى لهاته المهمة في العالم العربي الإسلامي علماء أجلاء كان لهم الصدى الأوفى في بعث حركة التجديد:

أ/ **جمال الدين الأفغاني:** و كان فكرة الإصلاح لديه تتمثل في تفويض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك كيما يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس " الأخوة الإسلامية " التي تمزقت في صفيين وفقاً لرأيه. و أن يكافح المذهب الطبيعي أو المذهب

¹ . _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 137.

المادي في "جامعة عليكرة"، و قد أدرك بنباهته و صدقه و أن يتلمس بنظرة الناقد و المتفحص العفونة و الفساد التي استشرت في جسد الأمة، فانصرف إلى دراسة العوامل الداخلية و القضاء على ما يحيط بها من نظم و قوانين. لكن الأفغاني لم يحسن تشخيص الثورة التي في الغالب تخلق قيما اجتماعية جديدة صالحة لتغيير الإنسان من منطلق "المواخاة" و ليس "الأخوة".

ب/ محمد عبده: ينظر محمد عبده إلى مشكلة الإصلاح كمشكلة اجتماعية، تبدأ من الفرد و قد استند في ذلك إلى الآية الحادية عشر من سورة الرعد، بشأن عملية التغيير ما بالأنفس. و كانت فكرته الأساس التي قام عليها هي "إزالة الأنقاض قبل البدء في عملية البناء" بعد أن دار النقاش حول كتابه الموسوم: ب "رسالة التوحيد" الذي يعتبر أول عمل فكري من عقل مسلم منذ عهد ابن خلدون، الذي بدأ فيه بتحطيم صنم الموروث الذي جثم على صدر الأمة قرونا تباعا لم يخضع فيها للنقد أو إعادة القراءة كفكرة الحركة و التقدم التي لم يكن الأزهر الشريف يؤمن بها.

ج / عبد الحميد بن باديس: و الذي كان منهجه تصفيه المجتمع من الخرافات و الدجل التي ورثها. و ما زالت. منذ عصر الموحدين و التي تجسدت في الطريقة "المرابطية".

ثانيا: فكر منهجي: يركز على عمليات التشذيب اللازمة لتحرير النظام القائم من أوزار التقاليد، على أساس منهج مرسوم، يقوم على إحصاء العمليات الضرورية ليستطيع التمييز بين خبيث التقاليد و طيبها. و ما علق بأطراف الفكر آنذاك من مظاهر سلبية كالحرفية و اللفظية و الجلية و التبرير، الرومانسية، الاضطراب السلوكي، الشيئية و التكديس، الذرية.بالإضافة إلى ذلك، يجب تصفية عالم الأفكار و ما يعلق به أفكار ميتة ما زالت تميز عصرنا الراهن و أهم ما يميز هذه الأفكار أنها أفكار مورثة من عصر ما بعد الموحدين، تعبر عن القابلية للاستعمار، خطرنا أشد من الأفكار القاتلة، لا زالت تكوّن الجانب السلبي في نهضتنا.إن تصفية العادات و التقاليد يجب أن تتم بشكل منهجي منظم يبدأ بنقده، و بث روح الفعالية، و إعادة للدين دوره الاجتماعي و الطاقة الحيوية، فكل محاولة لإعادة بناء حضارة إسلامية يجب أن تقوم أولا، وقبل كل شيء على أساس سيادة "الفقه الخالص" على "الواقع السائد" الذي نشأ عن صفين، و لا شك أن هذا يقضي وجوعا إلى الإسلام الخالص، أعني تنقية النصوص القرآنية من غواشيها الكلامية و الفقهية و الفلسفية. أما

الحركة الحديثة، فإنها ترمي إلى قيادة العالم الإسلامي في طريق غاية في الاختلاف عن هذا الطريق، فقد حطمت التقاليد التي تخفي جهالة ما بعد الموحدين، و لكنها لجأت أحيانا إلى العنف، و هو ما حدث على يد الحركة الكمالية في تركيا.¹

7 . 2 . 13: مشكلة المرأة: أولى مالك بن نبي المرأة عناية كبيرة ضمن منظومته الفكرية العامة التي حددها في مشكلة الحضارة، بمختلف أبعادها الشاملة، فمشكلة الحضارة عنده قضية لا تتجزأ، وأي تبويض لها يقود حتماً إلى طرح المشكلات طرحاً خاطئاً، ومن ثم تحديد وسائل خاطئة للعلاج. من هنا وقف مالك من قضية المرأة موقفه من القضايا الأخرى، وقد أطلق تسمية "مشكلة المرأة" في كتابه "شروط النهضة"، وذلك انسجاماً مع منظومته الفكرية التي تدور حول مشكلة الحضارة عموماً من ناحية، وللتدليل على مقدار التضخيم الذي كان من نصيب موضوع المرأة في العالم الإسلامي، سواء من أنصار التحرر الذي يصل بالمرأة إلى درجة التحلل، أم من أنصار التزمّت الذي يغلق بصره أمام حقائق الإسلام. و اعتبر أن ليس هناك مشكلة للمرأة معزولة عن مشكلة الرجل، إذ يقول: ليست مشكلة المرأة شيئاً نبحتّه منفرداً عن مشكلة الرجل، فهما يشكّلان في حقيقتهما مشكلة واحدة هي مشكلة الفرد في المجتمع.²

فقد حاول الكثيرون، بوحى من الفكر العربي التجزيئي، النظر إلى قضية المرأة كقضية مستقلة، ومن ثم خلقوا معركة مفتعلة بين أفراد المجتمع الواحد، و وضعوا المرأة في مواجهة الرجل، وهذه قمة التجزيئية وتشويه حقيقة الصراع الحضاري، لأنه يضع الزوجة في مواجهة الزوج، فيتحوّل الصراع من صراع المجتمع ضد التخلف الحضاري والاعتراب إلى صراع داخل المجتمع نفسه، مما يلهيه عن التصدي للتحديات في بناء متماسك. و الحقيقة عند مالك غير ذلك إذ أن تطور المجتمع يرتبط بتطور المرأة و العكس صحيح.³ ما من حوار شجر بين الرجل و المرأة، منذ آدم و حواء ، سواء كان ذلك في صورة رمزية ترمز إليها بعض الإشارات، أو كان في صورة لغوية تنطق بها بعض الكلمات، إلا و المرأة تحاول أن تظهر من خلال هذا الحوا في مظهر الجمال، بينما يحاول الرجل أن يتخذ له مظهر القوة، في حين أن القوة هنا ضرب من الجمال.

1 . _____ ، وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 56.

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 123.

3 . _____ ، في مهب المعركة. مرجع سابق، ص 97.

و لقد أنقذ الإسلام المرأة من براثن الجاهلية في مجتمع ما قبل الإسلام الذي انفرد الرجل بقيادته، وقد كان فيه ما فيه من قسوة، و فيه ما فيه من نزعة التحطيم، حتى أن المولودة كانت تؤاد، يئدها أباه. و حين جاء الإسلام واكبت في الذكر دوافع الجفاء و التحطيم، و لم يترك له إلا قدرة التغلب على النفس، و قدرة التنظيم والتوجيه، فكون بذلك مجتمعا تتمتع فيه المرأة بكثير من الحقوق، مقابل بعض الواجبات.¹

و إذا أنيطت للمرأة عملية التربية في المجتمع، و حملت على عاتقها مسؤولية نقل التراث من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة، تكون قد خرجت من سياقها الاجتماعي بتقليدها نساء أوربا، فإن مشكلة المرأة مشكلة إنسانية يتوقف على حلها تقدم المدنية، فلا يكون حلها إذن بمجرد تقليد ظاهري لأفعال المرأة الأوروبية، دونما نظر إلى الأسس التي بنت عليها المرأة الأوروبية سيرها. و بشيء من النظر نرى أن انتقالنا بالمرأة من امرأة متحجبة إلى امرأة سافرة، تطالع الصحف و تنتخب، وتعمل في المصنع، لم يحل المشكلة، فهي ما تزال قائمة؛ وكل الذي فعلناه أننا نقلنا المرأة من حالة إلى حالة، و سنرى عما قريب أن انتقالنا هذا عقد المشكلة بعد أن كانت بسيطة.²

و لأن المرأة الأوروبية ليست بمعزل عن هذه المشكلة التي آلت إليها بعد أن كان اللباس دون طابع أخلاقي من تغطية الرأس إلى أخصص قدميها، وكانت تتخذ حياتها حاجزا يمنعها من السقوط في الرذيلة، تغير دورها الاجتماعي من خلال تعقب ظاهرة (المودة) التي تحولت فيما بعد إلى كشف الجسد و السقوط في الرذيلة. و يذهب بعيد في طرحه إلى المشكلة، إذ يرى في عقد مؤتمر يحدد فيه مهمة المرأة بالنسبة لصالح المجتمع حتي لا تُعذر بجهلها، و جهل الرجل بطبيعة دورها لكي تؤدي دورها خادمة للحضارة، و ملهمة لذوق الجمال، و روح الأخلاق، و ذلك الدور الذي بعثها الله فيه أمًا و زوجةً و للرجل. " ذلك أتى لا أرى مشكلة المرأة بالشيء الذي يحله قلم كاتب في مقال أو في كتاب؛ و لكنني أرى أنه هذه المشكلة متعددة الجوانب، و لها في كل ناحية من نواحي المجتمع نصيب؛ فالمرأة كإنسان تشترك في كل نتائج إنساني أو هكذا يجب أن تكون. و لن يكون تخطيط حياتها في المجتمع مفيدا إلا إذا نظرنا إلى هذا المؤتمر بعين الاهتمام، بشرط أن يضم الوسائل الكفيلة

1. _____، المرجع سابق، ص 98، 99.

2. _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 126.

بتناول المشكلة من جميع أطرافها، فيجب مثلا أن يضم علماء النفس و علماء التربية و الأطباء، و علماء الاجتماع و علماء الشريعة و غيرهم. و حينئذ نستطيع أن نقول: إننا وضعنا المنهج الأسلم لحياة المرأة، ولسوف يكون هذا التخطيط حتما في صالح المجتمع، لأن علماءه و المفكرين فيه هم الذين وضعوه".¹

7 . 2 . 14: مشكلة اللباس و الزي: هو تعبير عن هوية، فهو يسهم في تمييز المجتمعات عن بعضها و يعطيها خصوصيتها المتفردة، و يجعل الفرد يشعر بانتمائه إلى ثقافته و حضارته الخاصة، و يعطيه الشعور بالتكاليف الاجتماعية التي يضعها عليه لباسه المميز. لذا كانت الأهداف التي ركزت الدعوات الأولى لتحرر المرأة هي الحجاب للمرأة المسلمة قبل أي جانب آخر، مما يدل على أن مسألة الزي أو اللباس ليست مسألة جانبية أو شكلية كما يريد الكثيرون تصويرها، بل مسألة لصيقة بالنموذج الحضاري و الاختيار الثقافي للفرد و المجتمع. و يرى أن الزي أحد عوامل التوازن الأخلاقي الرئيسية، بل أكثر من ذلك يعتبره ذا روح خاصة: "ليس اللباس من العوامل المادية التي تقر التوازن الأخلاقي في المجتمع فحسب، بل إن له روحه الخاصة به، وإذا كانوا يقولون: "القميص لا يصنع القسيس" فإني أرى العكس من ذلك، فإن القميص يسهم في تكوين القسيس إلى حد ما، لأن اللباس يضيف على صاحبه روحه".² أما بالنسبة للمرأة فإن الزي يمثل حقيقة نساء المجتمعات الأخرى، و يضيف عليها معاني الحضارة التي تعيش في قلوبها و أشكالها و طقوسها، فلباس المرأة الأوربية مثلاً الذي كشفها و فضح جسدها يدل على تسخير المرأة لأغراض هي غير الأغراض الحقيقية المعلن عنها، أغراض التحرر و الاختيار و الحضور الفاعل في المجتمع، وهو يعبر عن طبيعة الحضارة الغربية المادية و ثقافتها الساعية إلى تقديس مبدأ اللذة، يقول مالك بن نبي: "غير أنها أصبحت اليوم- أي المرأة الأوربية- تلبس اللباس الفتان المثير، الذي لا يكشف عن معنى الأنثى، فهو يؤكد المعنى الجسدي الذي يتمسك به مجتمع سادته الغرام باللذة العاجلة".

ويسوق مالك أنموذجاً حياً لتكييف المرأة مع الاختيار الثقافي و الحضاري و السياسي عن طريق الزي، وهو أنموذج المرأة اليهودية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي لهذا البلد،

¹ . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 128.

² . _____ ، المرجع سابق، ص 188 .

والتي كانت تتهياً للهجرة من الجزائر نحو فلسطين لتندمج في حياة دولة "الصهاينة" الجديدة. فقد كانت هذه المرأة تأتي من أطراف الواحات الصحراوية الجزائرية بأزيائها البلدية لتتحول إلى "مواطنة يهودية" منذ أن تصعد الباخرة، حيث تترك المفلحة والكحل وترتدي الأزياء التي تناسب طبيعة المجتمع الجديد. ويرى أن هذا التغيير الشكلي في حقيقته هو مجرد خطوة أولى في سلسلة تطويرية تصل إلى حد التغيير النفسي والفكري بعد أن تكون المرأة اليهودية قد ألفت عن جسدها اللباس القديم الذي كان يربطها بالمجتمع منذ قرون، واستعدت لإعادة بناء شخصيتها وتشكيل وعيها في المحيط الجديد.¹

يرى أيضا أن اللباس يختلف حسب المرحلة التاريخية للمجتمع، فهو يكون متناسبا مع الحالة النفسية و الزمنية، و مدى فاعلية المجتمع، أو عدم فاعليته. فمن اللباس ما يشكل عائقا لفاعلية الشخص، و منه ما يكون مساعدا على تحقيقها. فاللباس له تأثير من زاويتين: الزاوية الأولى: بالنسبة إلى المجتمع، فهو أحد العوامل المادية المؤثرة في التوازن الأخلاقي لمجتمع ما.

الزاوية الثانية: من الناحية النفسية بالنسبة إلى الفرد، فلكل لباس روحه الخاصة، فلباس الرياضي غير لباس الشخص المُسن، بحيث يشعر لابس كل منهما بأثرهما النفسي. لذا فعند تحديد الثقافة تحديدا إيجابيا، فلا بد من مراعاة مشكلة اللباس بإدخالها ضمن الإطار التربوي للمجتمع، و في نطاق مبادئه.

3 . 7 : الأبعاد الثقافية:

و يكمن ذلك من خلال تحليل الخصائص المرضية للثقافة التي أنتجها مجتمع ما بعد الموحدين، حين انسحق الفرد تحت وطأة الاستلاب و الاغتراب، و توارث عبر أجيال متواكبة صفات سلبية شكّلت على مر العقود ثقافة المجتمع المنهار، فالفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الحيوي قررنا أنه مات . يقول ابن نبي . موتا ماديا، و كذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتا ثقافيا. فالثقافة إن . إذا ما رددنا الأمور إلى مستوى اجتماعي . هي حياة المجتمع التي من دونها يصبح مجتمعا ميتا.² و من أهم الخصائص و الصفات السلبية نذكر:

¹ . _____، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 137.

² . _____، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 50.

7 . 3 . 1: **اللفظية:** يبقى مرض اللفظية و الكلام من أخطر الأمراض النفسية و الثقافية التي تسيطر على الفرد، و تترج به في متاهات الكلام الجميل و البحث عن المحسنات البديع و كلمات الإطناب و التفخيم التي تبعد بالفرد أن يؤسس بنية عقلية رياضية موجزة تقدر الأمور و تضعها في مسارها الطبيعي، أن الغرام بالكلمات أعظم خطرا من الغرام بالمعادن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولا و قبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، و هو أمر لازم لكل جهد إيجابي من البناء.¹ و يذكر ابن نبي بعض أعراض هذا الداء و تتمثل في:

- ✓ إجادة الكلام و الهيام بالألفاظ.
- ✓ اتسام التربية التقليدية بالطابع الكلامي الأدبي.
- ✓ وجود فجوة بين الكلام و العمل .
- ✓ ثقافتنا استبعدتها الألفاظ فلم تعد تعبر عن اهتمام بالعمل بل عن مجرد الشهوة إلى الكلام.
- ✓ إن استبدال الألفاظ و الصيغ يخلع على أي تفسير للنهضة طابعا سطحيا.
- ✓ المثل الأعلى منذ عصر الانحطاط هو أن يكون الإنسان بحر علم مع الافتقار لدوره الاجتماعي.
- ✓ إفراغ الكلمات من مضامينها بحيث لا تنبئ عن عمل و نشاط، و تصير مجرد ألفاظ مرصوفة فيفقد بذلك الكلام قدسيته و علاقته الجدلية مع الفكر و العمل.
- و تفقد الكلمات في نظره معانيها، و نفرغ من مضامينها التي تكفل لها قيمتها الاجتماعية « فالكلام ذو قدسية". و لكن حين ينبئ عن عمل و نشاط، لا مجرد رصف للألفاظ، كما يحدث في الخطب الانتخابية؛ فالمجتمع المتحضر إلى النهوض يخلد دائما إلى ما تقدمه إليه الاتجاهات الحرفية من ثروة لغوية جديدة ذات أسر و جمال، و هنا يبدأ الكلام و كأنما يخون رسالته؛ إذ أنه بدلا من أن ينشط جهد المجتمع في سبيل مضاعفته الضرورية لمواجهة أعباء الحاضر، ينحطّ به إلى درجة لا تكفي إلاّ لكسب سياسي أو ضمان مركز سني.²

1. _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 62.

2. _____، المرجع السابق، ص 63.

2 . 3 . 7 : الفخر و المديح: إن النكوص إلى الماضي و الارتداد إليه لتبرير الفشل الحالي من خلال المدح و الفخر و الاعتزاز بمآثر القدماء و السلف للتغلب على مركب النقص دون مواجهة الحاضر بكل تداعياته بما فيها من مواجهة الثقافة الغربية الوافدة، و واضح أن الرجوع لهذه الأساليب ينزع من الفرد الفعالية و المبادرة الشخصية، و روح التجديد و الاستمرارية التي لا يمكن لأن فرد أن يعيش في انجازات الماضي، فيقول " حين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية و لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى الوراء و كان هذا الاتجاه الناكس المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق و مقتضيات الحاضر و المستقبل، و بذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي، كأنما قد أصبحت متفائلة.¹

3 . 3 . 7 : الجدل و التبرير: كانت صفة الجدل و التبرير من أكثر المميزات انتشارا في المجتمعات المتخلفة و أكبرها شيوعا و انتشارا، و ذلك لطبيعة تركيبية البنية الذهنية للإنسان المستعمر، الذي مازال يقات ثقافيا من منتجات الماضي السحيق الذي اقتصر على الشعر و حكايات السلب و الغار و الحروب و أيام العرب، و هو ما طبع جل الأعمال الأدبية و العلمية، و المتجادلون في هذا العصر لا يبحثون عن فتوحات في أذهان الغير بقدر ما محاولات تبريرية و إيجاد براهين لما يقولون، و لا يسمع المجادل الطرف الآخر بل يغرقه في طوفان من الكلام . كما أن المثقفين يهتمون بالدفاع عن المجتمع و تبريره عوض محاولة تغييره، و دون الاهتمام بالتخطيط الاجتماعي، لقد ظلت هذه النزعة تسود ثقافتنا بشكل عطل تحول العمل الثقافي إلى عمل مخطط وتصميم يبلور مذهباً في التغيير الاجتماعي، و يؤسس لفكرة تربوية بعيدا عن الثروة و الشحناء تبدأ بالحوار و النقاش البناء يكرس الفكرة كمحور للنقاش بعيدا عن السياقات التبريرية لدفع التهم أو إلصاقها بالآخر.²

4 . 3 . 7 : الشئئية و التكديس: و تبدو أن هذه الظواهر السلبية تنرى تباعا، في علاقة سببية، تجر الواحدة منها الأخرى، فقد نتج عن الجدل و التبرير، نقيصة أخرى يتميز بها إنسان ما بعد الموحدين و هي الشئئية و التكديس، فمن أجل الدفاع عن المجتمع الإسلامي كانت المشاكل توضع ضمن حدود كمية، أي باعتبار (كميات الأشياء) الضرورية. و قد كان

¹ . _____ ، المرجع سابق، ص 66.

² . _____ ، المرجع سابق، ص 52.

نفس شعار جمال الدين الأفغاني الذي يقول فيه: " لو أن جميع الهنود يبصقون على لأغرقوا الجزر البريطانية في بحر من اللعاب " .

إن تفريغ الأشياء من مسمياتها، و النظر إلى الظواهر الإنسانية كأشياء يفرغ منها محتواها الروحي الديني العقدي، و بالتالي لا يتسنى للمرء فرزها و تحدث عملية التكديس التي هي خاصية الإنسان المتخلف الذي لا تبني لديه آلية نقدية يفرز بها الأمور دون تكديس يقود عملية البناء، فهو يرى أن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى فكر ثوري كفكر "جمال الدين" يدعو إلى الهدم من أجل إعادة البناء أو إلى فكر منهجي يجري عمليات التشذيب اللازمة لتحرير النظام القائم من أوزار التقليد، على أساس منهج مرسوم.¹

7 . 3 . 5: الرومانسية: إن الرومانسية سمة مرضية تعاني منها ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين، وكون الرومانسية مرض في نظر مالك بن نبي يعود إلى طغيان الخيال والخرافة وألوان البديع والبيان في الأعمال الفكرية، بما يقطع الصلة بالواقع المحسوس والمشكلات المطروحة على أرضه، وهو الأمر الذي يبطل دور الثقافة الإيجابي ويفقدها فاعليتها في تكييف الفرد وبناء المجتمع.² و يرى أن انتشار النزعة الرومانسية في الثقافة العربية وسيطرتها عليها يعود إلى عجز هذه الثقافة عن مواجهة الواقع ومستحدثاته، فتلجأ إلى تغطية مواطن هذا العجز بأدوية من البلاغة.³ إن الانغماس في محيط الطلاسم والخيال يجعل المجتمع في حالة من الابتعاد عن الواقع ومشاكله ويدفعه إلى ممارسة الأسلوب الخرافي في مواجهة القضايا، ولعل تداولنا لقصة ألف ليلة وليلة عبر الأجيال، إنما هو انعكاس لحالة اللامبالاة والسلبية في جونا الخلقي والاجتماعي.⁴ كما أن شيوع هذه السمة السلبية في ثقافة هذا المجتمع يزيد في مضاعفة الداء وتعميقه، فينجم عن ذلك مخلفات سلبية تظهر آثارها على مستوى الفرد والمجتمع معاً، إذ يسلب الوعي يضعف الشعور بالمسؤولية، وتشيع الحرفية والخيالية من دون أن يتم تقديم شيء ملموس لعملية التغيير والنهضة.

1. _____، المرجع سابق، ص 51.

2. علي القرشي، مرجع سابق، ص، 176، 183.

3. _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 60.

4. _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص: 32.

7 . 3 . 6: الاضطراب الفكري والسلوكي: إن شيوع الثقافة الاستهلاكية الوافدة من دول المراكز و تقمص الفرد المتخلف و تشرب الأفكار الغربية عبر عدة وسائط إعلامية جعلت من الشباب المسلم يتخبط في اضطراب فكري و سلوكي مقيت، متشردما بين مستويات عدة من الأفكار الميتة الموروثة و الأفكار القائلة المستوردة، فعوضا أن نفعل آليات النقد و التمحيص من أجل ضمان تغير اجتماعي متين و متحکم فيه ضمن منهجية نقدية شاملة أراح أغلب أفراد المجتمع الوقوف أمام مغريات الحضارة الغربية موقف الزبون المنبهر من المنتجات المادية التي تخفي ورائها بعدا قيميا و إيديولوجيا يستند إلى أسس دينية محضة. و بهذه الطريقة يفسر اضطراب واضح في كيفية التعامل مع مشكلة المرأة في عصرنا الحالي، لم يكن اضطراب فكره إلا صدى لذلك الاضطراب العام الذي يسود التفكير الإسلامي بعد قرابة نصف قرن من الإصلاح و محاولة التكيف مع الأسلوب الغربي. فشكل النهضة الإسلامية الراهن هو خليط من الأذواق و من المحاولات و من التذبذب و من مواقف التدين أيضا. فهي في الواقع قد اختارت الطريق الذي يقضي لها ما تريد من "الأشياء" و "حاجات" دون أن تبحث عن الأفكار و الوسائل. و الحق أن سهم الاستعمار ماحق، إذ هو يسحق بصورة منهجية كل فكرة و كل جهد عقلي أو محاولة للبعث الأخلاقي أو الاقتصادي؛ أعني: كل ما من شأنه أن يتيح لحياة أبناء المستعمرات مخرجا أيا كان. إن المستعمر يحط من قيمة الخاضعين لقانونه بطريقة فنية، و هو القانون الذي أطلقنا عليه (المعامل الاستعماري)، بيد أن هذا المعامل لا يؤثر في قيمة الفرد الأساسية، إذ أن هذه القيمة لا تخضع لحكمه، و مع ذلك نجد الفرد عاطلا خامدا حتى في الميادين التي لا يمكن أن تخطر فيها شبهة الضغط الاستعماري.¹

7 . 3 . 7: الذرية: هو مرض خاص بتفكير الإنسان المتخلف "إنسان ما بعد الموحدين" الذي لا يملك فيه بنية ذهنية عامة تنتظر للأمر نظرة شاملة و رؤية متكاملة، و هو اتجاه ينظر للوقائع و الأحداث نظرة مجزأة و منفصلة و فردية دون أية رباط عضوي بينها، كأنما هي في مجموعها لا تكوّن وحدة معينة، أي حلقة من التاريخ و فصل من فصوله، و إنما تكون في النظرية الذرية كوما من الأحداث و الوقائع جمعتها الصدفة، و في غير ما تركيب

¹ . _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 84.

و لا تتسابق لا نستطيع أن نستخلص نتيجة علمية؛ و لا قانونا عاما نطبقه في الحالات الخاصة.¹

و هذه العقلية موجودة في عموم المسلمين بسبب البعد عن الفعل الحضاري و غياب المشروع المتكامل ذو البعد الإستراتيجي الذي ينطلق من الأرضيات الصلبة و القنوات الإيديولوجية و الدينية إلى فضاء المستقبل و استشراف العوالم البعيدة. هذه العقلية الذرية التي تتميز بالعمل المبتور و المنقطع و المنفصل بعيدا عن التواصل و التكامل و الشمول. يقول: " طالما بقي الفكر عاطلا منعدم التأثير بقي النشاط حركة فوضى، و تراحما يبعث عن الضحك و الرثاء، و ليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي".²

7 . 3 . 8 : إعادة توجيه الثقافة تربويا: إذا كانت التربية هي المصنع الاجتماعي الأساسي لبناء الإنسان و تأهيله للحياة، و منحه الشروط الموضوعية المتكاملة للتحضر والتأثير الحضاري في بيئته و عصره، على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة فعل ثقافي، و أن الفعل الثقافي هو باستمرار محصلة فعل تربوي، و أن الفعل التربوي هو محصلة فعل منهجي، و أن الفعل المنهجي هو باستمرار محصلة ثقافة. فالتربية بمحتواها المعرفي و المنهجي قضية كبيرة و معقدة، فيجب أن تتجه إلى الوظيفية الاجتماعية، و أن تتكيف مع الاحتياجات المجتمعية و النفسية، و أن تستجيب للتحديات المطروحة على الفرد و المجتمع والأمة و الإنسانية جمعاء.

و تعني مشكلة توجيه الثقافة تربويا، هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار، ولذلك يستوجب علينا أن نحصر المعنى العام لفكرة التوجيه، فهو بصفة عامة قوة في الأساس، و توافق في السير، و وحدة في الهدف، و كثيرة هي العقول التي تفتق، و الطاقات وقوى لم تُستثمر؛ لأننا لا نعرف كيف نُكثِّلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه، و متجهة إلى الهدف نفسه.³ فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية. وهذا

1. _____، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص 55.

2. _____، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 92.

3. _____، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 67.

الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود. فلا يكفي مطلقاً أن ننتج أفكاراً، بل يجب أن نوجهها طبقاً لمهمتها الاجتماعية التي نريد تحقيقها.¹

و قد أدركنا معالجة التخلف في العالم الإسلامي يبدأ من عملية البناء و التغيير في العالم الثقافي المسؤول عن منح الفرد الوعي العقدي و القيمي عبر الوسائط التربوية و المنهج، التي تعطى للفرد أسباب الفعالية الحضارية، أو ترمي به في مزلق الضعف و الهوان. و قد شبه وظيفة الثقافة في المجتمع بوظيفة الدم في الجسم " فالدم يتركب من الكريات الحمراء و البيضاء، و كلاهما يسبح في سائل واحد من (البلازما) ليغذي الجسد. فالثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته، و يحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة، و كل منة هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة و الاتجاهات الموحدة و الأذواق المتناسبة".²

و على هذا الأساس فإن الثقافة باعتبارها محتوى عقدياً و معرفياً و منهجياً و سلوكياً أو اجتماعياً و حضارياً. تحتل موقعا محورياً أو مفصلياً في أي تحليل أو تفسير موضوعي متوازن للظواهر الحضارية أو أية محاولة جدية فعالة في البناء و التغيير بعد ذلك، و قد أخطأت كثير من المحاولات التفسيرية و التغييرية في العالم الإسلامي و أخفقت في فهم و معالجة الظواهر الفكرية و السياسية و الاجتماعية. و إذا حاولنا أن نحدد الثقافة بمعناها التربوي فيجب أن نوضح هدفها و ما يتطلبه من وسائل التطبيق. فأما الهدف من الثقافة فإنها ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير و التنوع الاجتماعي، و على الأخص إذا كانت هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي و التمدن، فإنها أيضاً هي ذلك الحاجز الذي يحتفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية.³

7 . 3 . 9: التوجيه الأخلاقي: تعد الأخلاق وقود المسيرة الحضارية الحقة، تسعى كل المجتمعات البشرية لتحقيقها، لذلك يرى أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب حياة في مجتمع معين، إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبط بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزاً بسلوكه الخاص، و هذا العنصر لا بد أن يكون أخلاقياً.

¹ . _____، المرجع سابق. ص 67

² . _____، شروط النهضة، مرجع سابق. ص 93

³ . _____، المرجع سابق. ص 86.

إن المبدأ الأخلاقي شرط أساسي في نظره لأن دوره هو بناء عالم الأشخاص الذي لا نتصور بدون عالم الأشياء و عالم المفاهيم، لذا فإن الأخلاق هي أولى المنظومات في الخطة التربوية لأية ثقافة، لأنها التركيب التربوي لكل عناصر الثقافة، و على هذا يعتبرها مشروع تاريخ.¹ و لعل الصبر التاريخي . تحليلًا و تركيبًا . هو الذي مكّنه من تحديد العنصر الأخلاقي كعامل مشترك أعظم بين كل الحضارات في تكوينها و اشتهاها، و هو أمر يشاطر فيه ابن خلدون، و هذا المبدأ هو أساس قيام علاقات اجتماعية و هو ما يناقض به المقولة الماركسية القائمة على العلاقات المادية للإنتاج.² و أن الأخلاق مشروع تاريخ و ليست انعكاسًا لتطور المدينة الغربية كما نظر إليها من قبل الشباب، و يضربون صفحا عن أمسها الغابر حيث نبتت أولها بذورها و تلونت عبر السنين حتى استوت على لونها الحاضر فحسبناه جديدًا.³

و يضرب لنا هذا المثال في الواقع الغربي حتى يوضح البعد التاريخي للأخلاق و هو ذلك المشروع الاجتماعي بفرنسا و المتمثل في "جمعية حضارة الأطفال"، فإن الناظر للوهلة الأولى إلى هذا المشروع الذي يقوم على شؤونه دولة مدنية (لا دينية)، في حين لو درسنا تاريخها و رجعنا إلى أصول فكرتها الأولى لوجدناها ذات أصل مسيحي، فهي تدين بالفضل إلى القديس (فانسان دي بول) الذي أنشأ مشروع الأطفال المشردين خلال النصف الأول من القرن 17. و ضرب مثال آخر . كذلك . بجهاز الراديو بحيث يقول: " و أنه لو أخذنا جهاز الراديو مثلا، لرأينا فيه مجموعات علمية و فنية مختلفة دون أن يخطر ببالنا أثر القيم المسيحية في بناء هذا الجهاز. و عليه . كما يقول مالك بن نبي . إن أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنية الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها و كأنها نتيجة علوم و فنون صناعات و ننسى أن هذه العلوم و الفنون و الصناعات ما كان لها أن توجد لو لا صلات اجتماعية خاصة، فهي الأساس الخلفي الذي قام عليه صرح المدينة الغربية.⁴

و من هنا يتضح جليا أن تناوله للعنصر الأخلاقي بالدراسة أنه لم يهتم بها من الزاوية الفلسفية، بل تجاوز ذلك إلى توضيح بعدها الاجتماعي، و الذي يقصد به قوة التماسك

1 . آمنة تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أرنولد توينبي. ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 130.

2 . حمودة سعدي، "مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي"، رسالة ماجستير في الفلسفة، غير منشورة، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، 1984، السنة الجامعية، ص 128

3 . _____، شروط النهضة. مرجع سابق، ص 89.

4 . _____، المرجع سابق، ص 89.

الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية و يعتبر أن هذه القوة في أصلها مرتبطة بغريزة الحياة في جماعة عند الفرد و التي تتيح له تكوين القبيلة و العشيرة و المدينة و الأمة. وتوظيف غريزة الحياة في جماعة أمر يشترك فيه المجتمع المتحضر و المجتمع البدائي، لكن الاختلاف الجوهرى بينهما يكمن في طريقة توظيف هذه الغريزة، فهي عند المجتمع البدائي تعد وسيلة و غاية في آن واحد، غرضها الوحيد هو خوض معركة البقاء، و هي عند المجتمع المتحضر وسيلة فاعلة تستثمر لخدمة غاياتها العليا التي يصبو إليها حيث يقوم المجتمع بتعديل و تهذيب ه الغريزة و يوظفها بروح خلقية سامية، و تعد هذه هي الروح الخلقية عنده منحة من السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات.¹ و لهذا كان المبدأ الأخلاقي عنصرا رئيسيا في معادلة البناء الثقافي للمجتمع، لأن شبكة العلاقات الاتصالات الثقافية في محصلتها هي تعبير عن العلاقات الشخصية في مستوى ما، فسلامة هذه الشبكة متوقفة على فاعلية المبدأ الأخلاقي في المحيط الاجتماعي.

أما إذا انتقلنا إلى المجتمع الإسلامي المتخلف الذي يريد ابن نبي بعث مشروع ثقافي فيه، فإنه يرى أن هذا المشروع لا يتحقق إلا إذا اعتمد على المكونات العقيدية و الفكرية للشخصية المسلمة، و من شروط هذا المشروع هو الصلة بين الأشخاص أولا، و القرآن يعطينا فكرة عن هذه الصلة حين وجه خطابه إلى النبي (ص): ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾² لقد أراد مالك بإيراد بهذه الآية الكريمة (وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) أن يبين تأثير التكوين العقائدي على تأليف القلوب، و الجمع بين الأشخاص في وحدة ثقافية تنطلق عن عقيدة واحدة، تحدد هويتهم و تؤكد انتماءهم.³ فأساس كل ثقافة هو بالضرورة تركيب و تأليف لعالم الأشخاص، و هو تأليف يحدث طبقا لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية، و إذن فالأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية هي أولى المقومات في الخطة التربوية لأية ثقافة.⁴

¹ _____، شروط النهضة. مرجع سابق، ص 88.

² الأنفال الآية : 63

³ . سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. ط1، المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، بيروت، 1993. ص، ص 156، 157

⁴ . _____، مشكلة الثقافة. ص 61.

7 . 3 . 10: التوجيه العلمي و التقني: إن التطور المادي في هذا العصر يخضع في اتجاهاته و سرعته لعوامل علمية و صناعية، و التغيير الاجتماعي في جوانبه العلمية و الصناعية متوقف على المناخات و الأسس الثقافية التي تساعد على منح الروح العلمية المتحركة لشعور التعلم و التعليم لا على مجرد القدرة على اكتساب العلم كمعلومات و أساليب، إن تنمية التفكير العقلي و توفير فرص الإبداع و الابتكار العلمي الصناعي يتوقف إلى حد كبير على المناخ الثقافي ، بما فيه من عناصر تربية سلبية و موجبة.¹

¹ . عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص66.

استخلاصات:

إذا كانت التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي ليست عبارة عن أمور نظرية أو قواعد مجردة، وإنما هي في جوهرها قيم أخلاقية و ثقافية نابغة من أصالة المجتمع و دينه و تاريخه، و بقدر ما تستمد هذه التربية مفاهيمها من قيم المجتمع الثابتة، بقدر ما تكون قادرة على إحداث التغيير السليم في فكرة الفرد و نفسيته، بل تصنع من الفرد شخصا اجتماعيا يضيف جهده و عمله إلى مجموع الطاقات الفردية الأخرى التي تلتقي كلها في صورة نشاط مشترك يقوم به المجتمع ككل.

بهذا التعريف يلج بنا إبن نبي إلى عوالم التربية الاجتماعية بداية من شروطها التي تبدأ من التغيير النفسي داخل الفرد، إلى تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال العمل المشترك التي يقوم به المجتمع التاريخي في صورة حضارية راقية يقوم به تتولد عن المجتمع الجديد، فيؤكد أن فعالية العمل الجماعي تبدأ بإيجاد تلك العلاقات الاجتماعية في المجتمع الحضاري الجديد. و تتشكل التربية الاجتماعية على عدة مستويات فهي عند الفرد تتأسس كسلوك اجتماعي على مجموعة من التصرفات، والسلوك التي تتم من خلالها عملية التغيير النفسي و الاجتماعي و الثقافي داخل المجتمع، و هذا يعني أنها تتناول السلوك الإنساني و تغييره، فهي العملية التي يحافظ بها المجتمع على بقائه و استمراره. و حتى يستمر المجتمع ينبغي أن يعمل على نقل معتقداته و معايير و مهاراته. و من بينها الأخلاق و الفعالية و التكيف و الحرية و ، ثم يأتي دور النقد الذاتي كموقف فكري يتبناه الإنسان. و على مستوى الفرد، تأتي الكثير من بينها الواجب فوق الحق، و تأسيس العمل المشترك في إطار شبكة العلاقات الاجتماعية، إضافة إلى مبدأ المؤاخاة و التبادل و التعاون و السلام. و كان ينظر إلى كافة مناحي الحياة أن تأخذ بعدا تربويا على كافة الأصعدة و المستويات، ثم يعرج بنا إلى المستوى الثقافي ليتخلص الإنسان من رواسب إنسان ما قبل الحضارة و تحليل الخصائص المرضية للثقافة التي أنتجها مجتمع ما بعد الموحدين، حين انسحق الفرد تحت وطأة الاستلاب و الاغتراب، و توارث عبر أجيال متواكبة صفات سلبية شكّلت على مر العقود ثقافة المجتمع المنهار. و عموما فإن التربية الاجتماعية هي خلاصة الفعل الحضاري، إذ يتجلى لنا في تصرفات الأفراد داخل المجتمع، ثقافيا و فرديا اجتماعيا.

الفصل السابع

دور التربية الأخلاقية في البناء الحضاري

المحتويات:

تمهيد

- 1 . التربية الأخلاقية و علاقتها ببناء الدورة الحضارة.
- 2 . مفهوم الأخلاق.
- 3 . الأخلاق عند مالك بن نبي.
- 4 . دور الأخلاق في بناء الحضارة عند مالك بن نبي.
- 5 . علاقة الأخلاق بالبناء الحضاري.
- 6 . أهمية الأخلاق في بناء الحضارة عند مالك بن نبي.

استخلاصات

تمهيد

اعتنى مالك بن نبي بالأخلاق كمحور أساسي للنهوض بالمجتمع، و مما جعل منها حجر الزاوية لمجمل تفكيره الحضاري، و قد انطلق من الدين أو ما يسميه " الفكرة الدينية " و دورها في الحضارة، فهو ينظر إلى الأخلاق لا من الناحية الفكرية النظرية الفلسفية، بقدر ما ينظر إليها من الناحية العملية الوظيفية. أي كيف تلعب الأخلاق دورها التطبيقي في مجال المجتمع بعيدا عن كل طرح فلسفي يبعد بها عن تجريدات الفلسفة و طقوس الميتافيزيقا. و كان قد انتقد الكثير من الرؤى و الأفكار التي تنتظر إليها كخلاص فردي، غير عابئين بان الخلاص الحقيقي للفرد يتمثل في خلاص الجماعة و في فعالية الفرد اجتماعيا. و قد شملت الأخلاق جميع المناحي بداية من الفرد إلى مستوى الاجتماعي العام، فهي كالروح بالنسبة للجسد، و هي عصب الحضارة. فكل الحضارات القديمة انتصب قوامها على الأخلاق و الفكرة الدينية، و متى فقدها، فقد حضارته وبالتالي إنسانيته.

و سوف نحاول في هذا الفصل تقديم عصارة فكر ابن نبي الذي كان يشير إليه بين الفينة و الأخرى كمصطلح، بينما من جانب المحتوى للبناء الحضاري، فقد شكّلت الروح بالنسبة لمسار الحضارة في كل تجلياتها و أبعادها الحياتية، نشير إلى دور الأخلاق في بناء الحضارة مرورا بتعريفها من حيث اللغة والمصطلح، ثم توضيح أثر الفكرة الدينية في ميلاد القيم الأخلاقية في المجتمع الجديد، و بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، ثم نوضح أثر الأخلاق في بناء المنظومة القيمية، واثر ذلك على البناء الاجتماعي على المستوى الاقتصاد و الاجتماعي و السياسي و الثقافي، و علاقة ذلك كله بشبكة العلاقات الاجتماعية التي تعمل على تطبيعها في المجتمع التاريخي. و نخلص في النهاية إلى أهمية الأخلاقي بناء الإنسان و الحضارة على حد سواء.

1 . مفهوم الأخلاق:

1.1 : التعريف اللغوي للأخلاق :

"الأخلاق" في اللغة جمع خُلُق، و الخُلُق: هو السجية و الطبع، مأخوذ من مادة(خ ل ق).
و قال ابن منظور:(الخلق هو الدين و الطبع و السجية، و حقيقته:أن صورة الإنسان الباطنية . و هي نفسه . و أوصافها و معانيها المختصة بها، بمنزلة الخُلُق لصورته الظاهرة و أوصافها و معانيها).¹

وقال الفيروز آبادي:("الخُلُق" التقدير...، الخُلُق بالضم و بضمين : السجية و الطبع و المروءة و الدين.²

و ذكر الراغب الأصفهاني ، أن الخلق أصله : التقدير المستقيم، و أن الخُلُق و الخُلُق و الخُلُق في الأصل واحد، لكن خُص الخُلُق بالهيئات و الأشكال و الصور المدركة بالبصر، و خُصَّ الخُلُق بالقوى و السجايا المدركة بالبصيرة، قال:و الخُلُق لا يستعمل في كافة الناس إلاّ على وجهين:أحدهما في معنى التقدير، و الثاني في الكذب.

1.2 : التعريف الاصطلاحي للأخلاق :

. ذهب الجاحظ إلى أن: (الخُلُق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية و لا اختيار، و الخلق قد يكون في بعض الناس غريزة و طبعاً، و في بعضهم لا يكون إلاّ بالرياضة و الاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة و لا تعمل، و كالشجاعة و الحلم و العفة و العدل و غير ذلك من الأخلاق المحمودة).³

. و قال الماوردي : الأخلاق : غرائز كامنة، تظهر بالاختيار، و تقهر بالاضطرار.⁴

. و يقول الجرجاني:" الخُلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة و يسر، من غير حاجة إلى فكر و روية ".⁵

. و قال الغزالي:(فالخُلُق عبارة عن هيئته في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة و يسر، من غير حاجة إلى فكر و روية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجمالية المحمودة عقلا و شرعا، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، و إن كان الصادر عنها

¹ . ابن منظور، لسان العرب، 10 / 86.

² . الفيروزي آبادي، القاموس المحيط. 3 / 236.

³ . الجاحظ، تهذيب الأخلاق، ص 12 .

⁴ . الماوردي، تسهيل النظر و تعجيل الظفر، ص5.

⁵ . عبد القادر الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408 هـ ، ص101.

الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا، و إنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر عنها بذل المال على النذور لحاجة عارضة ، لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. و إنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد و روية، و لا يقال خلقه السخاء و الحلم).¹

و قد بعض العلماء بأنه(عادة الإرادة) ومعنى هذا أن الخلق هو الميل الراسخ الذي تكتسبه الإرادة نتيجة لممارسة فعل معين، و تكراره مرات كافية بحيث يصدر مثل هذا العمل عن الميل المذكور بسهولة و يسر كلما وجد داعيه، كمن تأصلت في إرادته عادة الكرم و الميل إليه، فإنه يبذل كلما وُجدت الظروف الداعية للبذل، و هكذا فهذه العادة و الميل الراسخ تسمى خلقاً.²

. وقال ابن عاشو:(الخلق:السجية المتمكن في النفس، باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، و تشمل طبائع الخير و طبائع الشر، لذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه، فيقال: خلق حسن، و في ضده: خلق قبيح، فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن).³

1. 3 : تعريف الأخلاق عند علماء الغرب المعاصرين :

و قد حاول بعض العلماء المعاصرين تلخيص و تسهيل العبارة في تعريف الأخلاق اصطلاحاً.

. غوستاف لوبون:(Gustave Le Bon) يقول و نحن إذا بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم، وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي، تغيراً نشأ عنه انحطاط أخلاقها، و لست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها".⁴

. إدوارد جيبون: (M. Edward Gibbon) هذا و يقرر المؤرخ (إدوارد جيبون) بعد دراسته للحضارات القديمة و خاصة الحضارة الرومانية، أن انهيارها و سقوطها كان بفعل

¹ .الغزالي، إحياء علوم الدين، 3/ 58.

² . محمود حمدي زقزوق، مقدمة في علم الأخلاق، ط1، دار القلم ، الكويت،1974، ص31

³ . ابن عاشور، التحرير و التنوير، ص ص 17. 17. عن:محمود حمدي زقزوق، مقدمة في علم الأخلاق، ط1، دار القلم ، الكويت،1974، ص31.

⁴ . غوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم، تر: عادل زعتر، ط2، دار المعارف ، مصر، 1957، ص172 .

الانغماس في الرذيلة و الترف ، و حياة الدعة و كسل، و الخيانة و الغدر و التناحر من أجل السلطة ، و ما إلى ذلك من الأسباب الأخلاقية.¹

. لورنس جولد: (Lawrence Gold) يقول في تعليق له لما يجري من فساد أخلاقي في أمريكا " أنا لا أعتقد أن الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبلنا يتمثل في القنابل النووية الموجهة آلياً، و لا أعتقد أن نهاية حضارتنا ستكون بهذه الطريقة، إن الحضارة الأمريكية ستزول و تنهار عندما نصبح عديمي الاهتمام، و غير مبالين بما يجري في مجتمعنا، و عندما تموت العزيمة على إبقاء الشرف و الأخلاق في قلوب المواطنين ".²

. و قد عرفته أسعد السحرامي بأنه : " علم التعرف على الحقوق و الواجبات".³

2 . الأخلاق عند مالك بن نبي:

الأخلاق هي سلوك يتفاعل فيه الضمير و الفكر و العاطفة و الإرادة و التنفيذ و العادة، فكل هذه تتحد فتكوّن وحدة سلوكية أخلاقية نعيشها في واقع الحياة اليومية، و طبيعة اختيارات الأفراد و الأمم لأنماط السلوك هي ما تكون القيم لتلك الأفراد و الأمم. و هي ما تعطي كل أمة طابعها الأخلاقي الخاص بها، الطابع الذي يميزها عن غيرها من الأمم.⁴

و قد تناول مالك بن نبي فكرة الأخلاق في إطار الدين أو ما يسميه " الفكرة الدينية " و دورها في الحضارة، فهو ينظر إلى الأخلاق لا من الناحية الفكرية النظرية الفلسفية، بقدر ما ينظر إليها من الناحية العملية الوظيفية، حيث يقول: " إن الطبيعة تصنع النوع، و لكن التاريخ يصنع المجتمع. و هدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، و هو ما نطلق عليه اسم الحضارة".⁵ " و يضيف معرفاً الروح الخُلُقِيَّة بأنها: " منحة من السماء تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات، و مهمتها في المجتمع ربط الأفراد مع بعضهم البعض".⁶

¹ . إدوارد جيبون، الإمبراطورية الرومانية و سقوطها، تر: محمد على أبو درة، ص 230. نقلا عن مقداد يلجن، منابع مشكلات الأمة الإسلامية و العالم

المعاصر، ط1، دار عالم الكتب، الرياض، 1411 هـ ، ص 54.

² . محمد بن مسعود البشر، السقوط من الداخل، ط1، دار العاصمة، 1415 هـ ، ص 87.

³ . معبد فرغلي، الأخلاق في الإسلام و الفلسفة القديمة، ط1، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 1985، ص 15.

⁴ . محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص ص. 144، 145.

⁵ . _____، ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص 19

⁶ . _____، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 73.

و يستند أي مذهب أخلاقي على فكرة الإلزام، فهو القاعدة الأساسية، و المدار و العنصر الحيوي، الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، و الذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاتها ؛ و فناء ماهيتها، ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسؤولية، فلا يمكن أن تعود العدالة ؛ و حينئذ تنتفي الفوضى، و يفسد النظام، و تعم الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضا، و طبقا لما يسمى (المبدأ الأخلاقي). و قد كشف الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون" عن مصدرين للإلزام الخلقي هما: قوة الضغط الاجتماعي إلى جانب قوة الجذب ذي الرحابة الإنسانية المستمدة من العون الإلهي، وهي قوة أوسع مدى من سابقتها. و يرتبط بفكرة الإلزام، ناتجان يستلزم أحدهما الآخر بدوره، و يؤيده و يدعمه هما: فكرة المسؤولية و فكرة الجزاء. و الواقع أن هذه الأفكار الثلاثة يأخذ بعضهما البعض، و لا تقبل الانفصام. فإذا ما وُجدت الأولى تتابعت الأخريات على إثرها؛ و إذا اختفت، ذهبنا على الفور في أعقابها، فالإلزام بلا مسؤولية يعني القول بوجود الإلزام بلا فرد مُلزم، و ليس بأقل لاستحالة من ذلك أن نفترض كائنا ملزما و مسئولا، بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها و تحققها في (جزاء) مناسب، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها.¹

لسنا نهتم هنا بالأخلاق من الناحية الفلسفية، بل من الناحية الاجتماعية، و ليس الأمر هنا أن نشرح مبادئ خلقية، بل أن نحدد قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه هي القوة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة في جماعة، و عند الفرد ارتباطا يتيح له تكوين القبيلة و العشيرة و المدينة و الأمة. و تعني الروح الخلقية عند مالك تلك الصلة التي يجب أن توجد بين الإنسان و مثله الأعلى.²

و لهذا عرفت الأخلاق عند ابن نبي بأنها: "محور النمو الاجتماعي و الثقافي و الاقتصادي".³ فهذه المقاييس و القواعد التي تنظم المجتمع بشكل يسمح له بصناعة تاريخه. و لما يتحدث عن تنظيم مجتمع كهدف رئيسي للأخلاق نجده يقول: "فإن تنظيمه يجري طبقا لمقاييس و قواعد، و هي في حقيقتها قيم خلقية لم ينتجها، و لكنها تنظم نشاطه

¹ . محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة : عبد الصبور شاهين، ب ط، دار البحوث العربية، ص. 23، 136

² . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 73.

³ . عبد الطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 110.

في سبيل غايته، و كلما حدث إخلال بالقانون الخلقى في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه.¹

فالشرط الأول العام لتحقيق مشروع الثقافة هو الصلة بين الأشخاص أولاً، و ها هو القرآن يعطينا فكرة عن قيمة هذه الصلة، هي التأليف بين القلوب. فأساس كل ثقافة هو بالضرورة تركيب و تأليف لعالم الأشخاص، فالنظر إلى المبدأ الأخلاقى من زاوية تحقيقه للتماسك الاجتماعى، و تكوين الوحدة التاريخية لمجتمع ما، و تركيب عالم الأشخاص يتم بواسطة أمرين:

الأول: الغريزة الاجتماعية عند الفرد: إذ كل فرد يحمل في داخله ميلا للجماعة، و يرى مالك أن تلك الغريزة هي الأصل في تكوين القبيلة و العشيرة و الأمة، فالمجتمعات البدائية تستخدم هذا الجانب في إقامة كيانها.

الثاني: الروح الأخلاقية أو المبدأ الأخلاقى: و هذا يلاحظ في المجتمعات التاريخية، إذ الروح الأخلاقية تتكون لدى الجماعة انطلاقاً من الدين السماوي،² ففي المجتمعات التاريخية تستخدم الغريزة الدافعة إلى التجمع، لكن على أساس أخلاقى يهذبها و يحدد اتجاهها بما يتفق و مبادئه الدينية. فالمبدأ الأخلاقى يستند إلى الدين، و يستمد منه الدوافع و الغايات التي تحدد للمجتمع التاريخى وجهته. و من أجل ذلك لا بد منه عند تحديد ثقافة ما، إذ فالثقافة لا يمكن أن توجد أسلوب الحياة في المجتمع إلا إذا كانت متضمنة لعنصر يربط الأفراد بأسلوب حياتها، بحيث لا يشذُّ عنه الأفراد، و هذا العنصر الحاكم لأسلوب المجتمع و سلوك أفراد، إنما يكمن في المبدأ الأخلاقى الذي يحدد سلوك الأفراد كما أنه يحقق ارتباط الأفراد، بأسلوب حياة المجتمع.³

و من زاوية أخرى معيار لفاعلية المجتمع و الأفراد، فالفاعلية تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد تأثير المبدأ الأخلاقى أو ينقص، أو بقدر تجسيد الأخلاق أو عدم تجسيدها. فالمواقف بإزاء المشكلات محددة بذلك الارتباط بالمبدأ الأخلاقى، فهو الشرط الأساس لأفعال المجتمعات و الأفراد، و المنظم لعلاقات الأشخاص تنظيمياً يناسب المصلحة العامة، و ليس ثمة

1 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص ص 52، 53.

2 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 76

3 . _____ ، آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص ص 105، 106.

أساس آخر يقوم بهذه المهمة، إذ بزواله لا يمكن أن يتصور وجود عالم الأشياء، أو عالم الأفكار.¹

3 . دور الأخلاق في بناء الحضارة عند مالك بن نبي:

يعتبر الدين من القوى التربوية الرئيسية في المجتمع، فهو المقنن الأول للقيم، و للمعايير الأخلاقية في المجتمع، و من هذه الزاوية يعتبر الدين مصدرا هاما و موردا رئيسيا للمحتوى التربوي و الأخلاقي الذي تنشئ المجتمعات عليها أبناءها، و لذلك فإن جانبا هاما من جوانب الفكر التربوي و ركنا أساسيا من أركان الممارسات التربوية يكون مصدرها الدين في المجتمع، فالقيم الأخلاقية و القيم الخاصة بالعمل و النشاط و القيم الأخلاقية المرتبطة بالأسرة و بالعلاقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع تصاغ بشكل ما في إطار الدين.²

و الأخلاق الإسلامية ليست أخلاقا ميتافيزيقية أو يوتوبية، و إنما تتمثل في الضبط النفسي، و الاتزان الشخصي. و هي في نفس الوقت جوهر الواقع حيث تستمد حقيقتها منه، فهي لا تنتمي لمعالم المثل الأفلاطوني الذي فصل به أفلاطون الإنسان عن واقعه الاجتماعي و المادي، و إنما تتسق و تتسجم مع طبيعة الإنسان و طبيعة المجتمع. بمعنى أنها لا تصطدم مع الفطرة البشرية و لا الفطرة و التلقائية في الحياة الاجتماعية.³

و يجب في البداية التسليم بالعلاقة الإرتباطية بين الأخلاق و الحضارة، ذلك أنه مادامت هناك قيم و أخلاق و مثل مرتبطة بالإنسان و إرادته ، فإنه ما من شك في أن المجال الحيوي لتنفيذ هذه الإرادة الأخلاقية لا يمكن أن يكون إلاّ الواقع المعيش، و هذا الواقع هو الميدان الذي تحيا فيه الحضارة و نمو و تتقدم، فلاغرو إذن من التسليم بصلة الأخلاق بالحضارة من خلال صلتها بالإنسان و إرادته القائمة على الفعل أو الترك. هذا الإنسان عدّه مالك بن نبي العنصر الفاعل في الحضارة.⁴

و لقد بدا في تدخل الأخلاق في مفهوم الحضارة، في أهم النواحي التي درس من خلالها، و تناول على ضوءها مفهوم الحضارة. و حين درس الحضارة من حيث

1 . عبد الله بن حمد العويسي، مرجع سابق، ص 348

2 . محمد السيد سلطان، بحوث في التربية الإسلامية، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1979، ص74.

3 . محمد السيد سلطان، مرجع سابق، ص 76.

4 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 45

تركيبها و العناصر الأساسية لها، و عبّر عنها بتدخل "المبدأ الأخلاقي" بقدرته على الجمع بين العناصر الثلاثة للحضارة ، و التي يقصد بها الإنسان و التراب و الوقت، هذا بالإضافة إلى أن الأخلاق تدخل مباشرة في بناء الإنسان، فالأخلاق تشكل بمجموع قيمها و مبادئها: "قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة في جماعة، و عند الفرد ارتباطا يتيح له تكوين القبيلة و العشيرة و المدينة و الأمة".¹

و هو ما يعني أن المجتمع الذي يتجمع لتكوين حضارة، فإنه يستخدم الغريزة نفسها، و لكنه يهديها و يوظفها بروح خلقي سام، هذا الروح الخلقى منحة من السماء إلى الأرض، يأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات و مهمته في المجتمع ربط الأفراد ببعضهم البعض.² و يضيف في تدخل الأخلاق في تأليف الحضارة: "و قوة التماسك هذه جديدة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة، و في يدها كضمان لتلك التجربة عمرها ألف عام، و حضارة ولدت على أرض قاحلة، وسط البدو، رجال الفطرة و الصحراء".³ و لبيان صورة تدخل الأخلاق في الحضارة، يفترض ما سيحدث لو أن الحضارة ألغت من حسابها الأساس الأخلاقي . لسرى الإلغاء على جميع ما نشاهده من علوم و فنون.⁴ و إلى هذه الدرجة يمكن أن تكون الأخلاق عنصرا حيويا في تكوين الحضارة.

فمن ناحية **وظائفها** في المجتمع، درس الحضارة ، فقد أبرز تدخل الأخلاق من هذه الزاوية ، كونها تعين الحضارة على أداء وظيفتها أداء كاملا، و تجلت في جانب ما سمّاه بالعوامل المعنوية في مقابل العوامل المادية، و كما تجلت الأخلاق في كونها ضمنت ما يسمى بالشروط الأخلاقية التي تتيح للمجتمع فرص التطور و النمو، بالإضافة إلى ذلك يرى أنه لولا تدخل العنصر الأخلاقي في تكوين معنى الحضارة ، لأصبح معنى الحضارة مجردا من كل العوامل المعنوية و مقتصر على العوامل المادية، و هو ما يخل إخلالا واضحا بالمعنى الحقيقي للحضارة . فالأخلاق بتدخلها في مفهوم الحضارة أضفت الصفة التكاملية على الحضارة، ذلك أنه يوجد في الحضارة جانبان، الجانب الذي يتضمن الشروط

1. _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 82.

2. _____ المرجع سابق، ص 82

3. _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 79

4. _____ ، المرجع سابق، ص 81

المعنوية في صورة إرادة تحرك إرادة المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية، و الاضطلاع بها، و الجانب الذي يتضمن شروطها المادية في صورة إمكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهامه، أي بالوظيفة الحضارية.¹

فمن الناحية التاريخية درس الحضارة، و أدرك الكيفية التي تتطور بها من مرحلة التكوين و النشأة إلى مرحلة الارتقاء و النمو ثم مرحلة الانحطاط و الزوال. فإنه لاحظ تدخل الأخلاق في مفهوم الحضارة من هذه الناحية، و من أبرز صور هذا التدخل كون الأخلاق عاملاً يساعد على النشأة في بداية ظهورها، و يذكر هذا بقوله: " فإن البذور الأخلاقية و الجمالية تكون أقرب إلى الكمال حتى تصبح بالتالي القوانين المحددة التي يخضع لها نشاط المجتمع و الدستور الذي تقوم عليه حضارته.² أما في مرحلة الارتقاء و النمو، فإن الأخلاق تتدخل في القيام بوظيفتها كاملة، فيضيف قائلاً: " و يقوم المبدأ الأخلاقي بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي يتصور بدونه عالم الأشياء و لا عالم المفاهيم".³

و تتدخل الأخلاق أيضاً هنا في كونها تعتبر سبباً برأيه في دخول الحضارة طور العقل و خروجها من طور الروح فيقول: " و أثناء مواصلة التاريخ سيره، نرى هذا التطور سيستمر في نفسية الفرد، و في البيئة الأخلاقية للمجتمع، الذي يكف عن تعديل سلوك الأفراد، و بقدر ما تتحرر هذه النزعة من قيودها في المجتمع، يكف التحرر الأخلاقي الذي يمارسه الفرد في أفعاله الخاصة شيئاً فشيئاً".⁴ و يربط ذلك بالأخلاق فيضيف: "و لو استطعنا في هذا الحين بوسيلة دقيقة المراقبة لهذه الظروف النفسية، بغية تتبع نتائج هذا الإطراد لأمكن أن نلاحظ انخفاضاً في مستوى أخلاق الفرد".⁵ و هكذا فإن حديثه عن الدورة الحضارية بمختلف أطوارها، مرتبط بفعالية الأخلاق، إلى أن تنتهي وظيفتها حينما تدخل الحضارة مرحلة التفسخ و الزوال. و للوقوف عند تدخل الأخلاق في مفهوم الحضارة عنده، أوجز فيما يأتي أهم المفاهيم التي استعملها في بنائه لمفهوم الحضارة، و بخاصة تلك التي تضمنت معنى أخلاقياً.

1. _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص 71

2. _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 100.

3. _____ ، حديث في البناء الجديد، مرجع سابق، ص 71.

4. _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 69.

5. _____ ، المرجع السابق، ص 69.

3. 1: الفكرة الدينية: و قد حدد مالك بن نبي ضرورة استناد المبدأ الأخلاقي إلى الدين، و في عرض مفهومه لدور الفكرة الدينية في تكوين الحضارة، فيرى أن الروح الأخلاقية تتكون لدى الجماعة انطلاقاً من الدين السماوي، و في هذا الشأن يقول: "إذا الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان".¹

و قد أولى للدين أو الفكرة الدينية دوراً كبيراً في البناء الحضاري، بل جعلها حجر الزاوية لكل حضارة تقام على الأرض، فالدين كانت آثار بارزة على سلوكيات البشر و على آثارهم و رموزهم و كتاباتهم، فيقول: "كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، فإنه يجد سطوراً من الفكرة الدينية، و لقد أظهر علم الآثار دائماً بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أياً كانت تلك الشعائر، لقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة، جنباً إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبقت قوانين الإنسان، بل علومه، فولدت الحضارات لكي تتير العالم، فتزدهر في جامعاته و معامله، بل لكي تجلي المناقشات السياسية في برلماناته، فقوانين الأمم الحديثة لاهوتية في أساسها. و عوائد الشعوب و تقاليداً تشكل بصورة يملئها اهتمام ميثافيزيقي يدفع أقل القرى الهمجية التي تشيد كوخاً بسيطاً في مركزها تتجه نحو الحياة الروحية القبلية، وهي حياة تتفاوت في بدائيتها إلى حد كبير، و ما الطوطمية و الأساطير و اللاهوت، إلا حلول مقترحة لنفس المشكلة التي تساور الضمير الإنساني، كلما وجد نفسه مأخوذاً بلغز الأشياء و غاياتها النهائية.² فالأخلاق لا تزدهر و لا تكون رصينة مؤثرة في الحياة الاجتماعية ما لم تستق من ماء الإيمان، الإيمان بالله خالق الكون و واهب النعم، فالإيمان المؤسس على المحبة و الأخوة و الرحمة هو الذي يعطي الأخلاق قوتها الدافعة، و هو الذي يوقظ في النفوس مخافة الله و محبته. فالغني المؤمن يدرك أنه لا يملك ثروة لنفسه فنروته هي من الله و يجب أن تفيد عباد الله. الفقير المؤمن يجب أن ينال حقه من الحياة كاملاً غير منقوص لأنه عبد من عبيد الله. إن الأثانية و الفساد و الغرور و الطغيان كلها أمراض أخلاقية منشؤها ضعف الإيمان بالله و فقدان مخافة الله.³

¹ . _____ ، المرجع سابق، ص 88.

² . _____ ، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص 68

³ . محمد فاضل الجمالي، مرجع سابق، ص 194.

و يشكل الدين القوة الروحية المؤثرة في الحياة الأخلاقية العامة، و هذا ما جعله يقول: " فالقوة الروحية التي تتطابق مع العمل المثمر الفعال تقع إذن بين حالتين من أحوال النفس، لا يوجد ورائها إلا الخمول و الرخاوة في جانب و اليأس و العجز في جانب آخر".¹ و يبرر الناتج الحقيقية للقوة الروحية، أن آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى مجموعة العوامل النفسية الذي يعد ناتجا عن بعض القوى الروحية، و هذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهرى لتاريخ الإنسان.² و يستخدم مصطلحات علم النفس الاجتماعي للتأكيد على العلاقة الحيوية بين إنعكاس التكوين الداخلي للفرد و محيطه الاجتماعي" و دور العنصر الديني كعامل تنظيم نفسي، دور رئيسي، لا من حيث أنه يعمل في صورة مبادئ موجهة تنطبع في ذاتية (الأنا) لتصبح دوافع و قواعد للسلوك فحسب، و لكن لأنها تستطيع أن تتجلى في صورة تحريم مانع في بعض الظروف المرضية، كما في حالة الكبت، فتأثير الدين على (الأنا)، هو إذا تأثير عام سواء كان ذلك لتحديد عناصر الشخصية الأساسية أم كان لأنه في بعض الحالات الشاذة يؤدي إلى جوانب مرضية، الكبت، فتأثير الدين على (الأنا) هو إذن تأثير عام سواء كان ذلك لتحديد عناصر الشخصية الأساسية، أم لأنه في بعض الحالات الشاذة يؤدي إلى جوانب مرضية، إذا بدا هذا التأثير في صورة يتحلل فيها العنصر الديني أو يفسد، ذلك أن العنصر الديني بصفة . فضلا عن أنه يغذي الجذور النفسية . يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكوّن (الأنا) الواعية في الفرد، و في تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذا (الأنا).³ هذه بالإضافة إلى أن غريزة التجمع لتكوين حضارة مرتبطة إلى حد كبير بالأساس الأخلاقي الذي يقوم بتهذيبها بهدي مستمد من المبادئ الدينية، و هذا ما يعني أن الدين ينتج القيم و الأخلاق التي تنظم قواعد السلوك، " فدور العنصر الديني بوصفه عامل تنظيم نفسي، دور رئيسي لا من حيث أنه يعمل في صورة مبادئ موجهة تنطبع في ذاتية الأنا لتصبح دوافع و قواعد للسلوك فحسب، و لكن لأنها تستطيع أن تتجلى في صورة تحريم مانع في بعض الظروف المرضية".⁴

1. _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 25.

2. _____ ، المرجع سابق، ص 26.

3. _____ ، المرجع سابق، ص 66

4. _____ ، المرجع سابق، ص 71

و يذكر أيضا أن الدين يدخل في بناء القيم الأخلاقية، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، إذ من بين ما تحتاجه الشخصية في عملية التكوين و البناء، جانب القيم و الأخلاق، فالعصر الديني فضلا على أنه يغذي الجذور النفسية العامة على ما بيننا، يتخل مباشرة في الشخصية التي تكون (الأنا) الواعية في الفرد و في تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الجزائر في خدمة هذا الأنا.¹ أما بالنسبة لتدخله في بناء القيم على مستوى المجتمع ككل، فهو يقوم بدوره على شكل قيم أخلاقية، "و رأينا الدور الذي يقوم به الدين في هذا المستوى، حيث يتدخل في التركيب الاجتماعي في شكل قيم أخلاقية متجسدة في العرف و العادات و التقاليد و القواعد الإدارية و المبادئ التشريعية، و أحيانا تتجسد في أكثر تشكيلات المجتمع ظهورا".²

3 . 2: الدور الاجتماعي للدين: ينحصر الدور الاجتماعي للدين في أنه يقوم بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، و هذا التشكيل يجعل من (الإنسان) العضوي وحدة اجتماعية، و يجعل من (الوقت) . الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر). وقتا اجتماعيا مقدرا (بساعات عمل)، و من التراب . الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط . مجالا مجهزا مكيفا تكييفيا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج.³ و يرى معللا رأيه بأن: "الحضارة لا تتبعث إلا بالعقيدة الدينية، و ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، و لعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، و في البرهمية نواة الحضارة البرهمية".⁴

و الدور الاجتماعي للدين يتحقق في شكل تركيب يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة للحضارة، و هذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، و يجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر، وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل و من تراب الذي يقدم بصورة فردية

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 72 .

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 65 .

3 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32.

4 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 57.

مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط، مجالا مجهزا مكيفا تكييفا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج. فالدور الاجتماعي للدين يتحقق إذا في التاريخ في شكل حضارة حينما يقوم بتركيب تلك العناصر.¹ يضيف في شأنها: " الفكرة الدينية تشترط سلوك الفرد، تخلق في قوالب المجتمع بحكم غائية معينة، تتجلى هذه الغائية في مفهوم آخرة " و تتحقق تاريخيا في صورة حضارة، و هذه الغائية تمنح إياه الوعي بهدف معين، تصبح الحياة معه ذات دلالة و معنى. و هي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل، و من طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع و دوامه و ذلك بتثبيتها و ضمانها لاستمرار الحضارة".² يقول: " فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، و هو يخلق بعمله هذا أيضا شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، و أن يؤدي نشاطه المشترك، و هو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض، فإذا قال الدين قوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾³ فإن الله عز و جل لم يرد بهذا القانون أن يفصل الناس عن الأرض، و لكن أراد أن يفتح لهم طريقا أعظم ليضطلعوا بعملهم الأرضي، و التاريخ يرينا مدى قدرة التي امتاز بها أصحاب الدين، و بخاصة المسلمون حين ساروا في هذا الطريق".⁴ وقد اتبع ابن نبي طريقة ميلاد الحضارات فأشار إلى أنها تولد مرتين:

الأولى: فميلاد الفكرة الدينية.

الثانية: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ".

و يضيف أن " القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ ". و غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية التي يسميها ابن نبي بالحضارة.⁵

¹ . عبد الله بن حمد العويسي، مرجع سابق، ص 251

² . _____ ، المرجع سابق، ص 109

³ . سورة الذاريات، الآية 56

⁴ . كمال بن قوية، الأخلاق و أهميتها في بناء الحضارة عند كل من مالك بن نبي و ألبارت أشفيتزر، مذكرة ماجستير في أصول الدين، كلية أصول الدين،

جامعة الجزائر، 2001-2002. ص، 114

⁵ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 19

ويلخص دور الفكرة الدينية كوسيلة تقوم بتركيب مختلف العناصر التي تشكل الحضارة في قوله: "وجملة القول إن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة ما دامت هنالك فكرة دينية تؤلف العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ حضارة.¹

3 . 2 . 1 : الدين و العلاقات الاجتماعية: يؤكد دور العلاقة الروحية في إقامة العلاقات الاجتماعية؛ انطلاقاً من العلاقة الوثيقة بين الجانب الروحي والجانب السلوكي حيث يقول: " فالعلاقة بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذا بدوره يربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان... فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهما حدث، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد".² فالدين إذا هو "مركّب" القيم الاجتماعية، و هو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره و حركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية، أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذابيا دون إشعاع، . أعني نزعة فردية . لأن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة و تحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة، و يتخلون عن واجباتهم و مسؤوليتهم.³

فإذا كانت العلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني.⁴ فإن أو لعمل يقوم به مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة علاقاته الاجتماعية. و على هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين. و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي (ص) و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاثة.⁵ و يحمل المجتمع في داخله الصفات الذاتية التي يضمن استمراره، و تحفظ شخصيته و دوره عبر التاريخ. و هذا العنصر الأخير هو المضمون الجوهرية

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 64

2 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 79.

3 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 27.

4 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 30

5 . _____ ، المرجع سابق، ص 28.

للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن، و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، و تواجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، و هي رسالة المجتمع الخاصة به. فنُكُون هذه الشبكة، و لو في مرحلة ابتدائية، هو الذي يعبر عن حدوث ميلاد مجتمع في التاريخ.¹

3 . 2 . 2: الدين و البناء الحضاري: إذا كانت فكرة البناء الحضاري في الفلسفة الغربية تقوم على الجمال، فإن البناء الحضاري في المنظومة الإسلامية تقوم على المبدأ الأخلاقي، الذي يمثل جوهر الدين في مظهره التطبيقي الاجتماعي. لقد منح النبي (ص) قيمة كبيرة للفضائل الخلقية باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات. و لكن أوضاع القيم تتقلب في عصور الانحطاط لتبدو الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي، إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن و العلم و العقل فحسب، لأن الروح، و الروح وحده، هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض و تتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة و انحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض.²

و قد استخلص مالك دروسا من نقده للأسس الحضارة الغربية و ركائزها يقول في هذا الصدد: " و ما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم و الكيف، بين الروح و المادة، بين الغاية والسبب. فما اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة".³ و ينطبق هذا القانون على الحضارة الغربية التي فقدت معنى الروح فوجدت نفسها على حافة الهاوية كما انطبق من قبل على الحضارة الإسلامية التي فقدت تعادلها يوم فاتها أن ترعى هذه العلاقة بين العلم و الضمير، بين العناصر المادية و الوجود الروحي، فغرقت في هاوية الصوفية الخالصة، في فوضى المرابطين التي سببت سقوطها. و يؤكد على أن نفسية الفرد في المجتمعات التاريخية على الأقل مفعمة بالنزعة

¹ . _____ ، المرجع سابق، ص 14.

² . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 31.

³ . _____ ، المرجع سابق ص 153.

الدينية، ويعدها جزءا من طبيعته. وعليه، فالدين يتدخل في تحديد العناصر الشخصية للفرد أو الأنا.¹

ونظرا لتدخل العنصر الديني في تكوين الطاقة النفسية الأساسية للفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة تحت تصرفه، وفي توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع، وتبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ؛ فإن الفكرة الدينية تحدث تغييرا في الفرد و في المجتمع من الناحية النفسية والسلوكية والجمالية. وأهم تغيير يحدثه الدين في المجتمع هو قيامه بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة. وبهذا التشكيل يجعل الدين من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية ويجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر وقتا اجتماعيا مقدرًا بساعات عمل، ومن التراب -الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط- مجالا مجهزة مكيفا تكييفًا فنيا يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج. ويتجلى دور الدين الفعّال المتمثل في تركيب القيم الاجتماعية وبقية عناصر الحضارة عندما يكون الدين في حالة قوته وانتشاره، وعندما يعبر عن فكرة جماعية، أما حينما يصبح الدين إيمانا جذبيا في شكل نزعة فردية دون إشعاع فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض؛ إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها.

3 . 2 . 3: الدين و الأخلاق: وبالإضافة إلى الدور الحضاري الذي تقوم به الفكرة الدينية على المستوى الفردي والاجتماعي، فإن للدين دورا أخلاقيا وإن كان يرتبط بالمنفعة الشخصية فإنه يمتاز عن الأخلاق "اللادينية" برعاية منافع الآخرين؛ وهي بذلك تدفع الفرد إلى أن ينشد دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته. وعلى هذا الأساس، فإن للأخلاق بعدان:

الأول: بعد يرتبط بالمنفعة الشخصية سواء كانت مادية أم معنوية.

الثاني: وبعد روحي يتجاوز المنفعة في هذا العالم الفاني، ويرجو منفعة دائمة، ونعيما خالدا في الدار الآخرة.

¹ - كمال بن قوية، مرجع سابق. ص 153

و لاشك أن هذا الإدراك مرتبط بالإيمان وبالجانب الروحي أساسان إلا أنه مرتبط أيضا بالجانب العقلي في الإنسان، إذ أن هذا الجانب هو الذي يكمل الجانب الروحي وبقية جوانب الشخصية في الإنسان. و يرتبط كذلك بأصل الإنسان و جوهره، و مصدر الكون و طبيعته، و كذلك التوجه الإيماني و العقائدي، فله أيضا أثره العملي في توجيه السلوك الفردي و الجماعي، و في تكييف النظم و المؤسسات، و في تحديد الفضائل و الأخلاق و القيم، فهو بوجهيه الإيماني العقائدي و كذا العملي السلوكي، مرآة صالحة تعكس لنا مفاهيم الحضارة و صورتها العامة، لذا فإن استيعاب الأسس التي يعتمد عليها الكيان الحضاري من الناحية النظرية، لا يمكن أن يتأتى في غياب العامل العقائدي و الديني الذي يشكل في حقيقة الأمر الأساس الجوهرى لحركة الحضارة إبان مسيرتها.¹

3. 3: الضمير الأخلاقي: يدخل الدين في بناء القيم الأخلاقية، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، إذ من بين ما تحتاجه الشخصية في عملية التكوين و البناء، جانب القيم و الأخلاق، فالعنصر الديني فضلا على أنه يغذي الجذور النفسية العامة على ما بيننا، يتخل مباشرة في الشخصية التي تكون (الأنا) الواعية في الفرد و في تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الجزائر في خدمة هذا الأنا.²

و يرى أن بناء القيم في الفرد و المجتمع، إضافة إلى تأثره بالفكرة الدينية، فهو مرتبط أيضا بالضمير، باعتباره عنصرا أخلاقيا قائما في ذاتنا، و يقول في هذا عن الإنسان: " فهو محكوم إذا ما نظرنا من الوجهة الدينية، تبعا لهذا الاشتراك المنوط بتكليفه الديني، أعني تبعا لخضوعه لقانون التقدم الأخلاقي، فإذا ما حملته طبيعته على العمل، فإن ضميره هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخية و عمليا".³

و قد تحدّث "علي عزّت بيجوفيتش" عن الحضارة و الثقافة، و قد ناقش موقف الدين و الإلحاد من قضية أصل الإنسان، والقضايا الأخرى المتصلة بها، و هذا يعني أن المفهوم المعياري و القيمي عند "بيجوفيتش" هو مفهوم قائم على ثنائية الدين و الإلحاد، الثنائية

¹ . الخطيب سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993)، ص 124.

² . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 72.

³ . _____ ، المرجع سابق، ص 70.

التي يفسر على أساسها و يصدر من خلالها أحكاما على القضايا التي عالجها و هي الخلق و التطور، الثقافة و الحضارة، ظاهرة الفن، الأخلاق، الثقافة و التاريخ، الدراما و اليتوبيا. و على هذا أساس هذا المنطق يرى أن التناقض بين الحضارة و الثقافة يقوم على تعارض أساسي بين الضمير و العقل، بين الوجود و الطبيعة، و على المستوى العملي بين الدين و العلم.¹

و يبرز مالك تأثير الإسلام، باعتباره فكرة دينية في توجيه الضمير للقيام بعمله على أحسن وجه فيقول: " و الواقع أن القرآن قد وضع الضمير المسلم بين حدين هما: الوعد و الوعيد، ومعني ذلك أنه وضعه في أنسب الظروف التي يتسنى له فيها أن يجيب فيها على تحدي روعي في أساسه² و بالتالي فلقد: " أرسى القرآن في ضمير المسلم تحديدا جوهريا لإرادة القوة".³ و لما يتحدث عن حياة الأفكار، في معرض حديثه عن الفكرة الدينية و من خلال ما أنتجته من أخلاق، فإنه يبين أنها تعمل عملها حينما تتمكن من الضمير فيقول: " فإن الأفكار التي تتمكن من الضمير فتصبح جزء منه لا يمكن أن تفتنى، و غاية الأمر أنها قد تخطئ طريقها أحيانا في حنايا هذا الضمير، ثم تتبجس منطلقة في اللحظة التاريخية، و قد اتخذت صبغة أخرى".⁴

3 . 4: الأساس الأخلاقية للحضارة: يرى ابن نبي أن كل حضارة ينبغي أن يكون لها اتصال بماضيها وتراثها ولن يتحقق المستقبل الأفضل إلا بعد دراسة الماضي لأنه يحمل الكثير من مكونات الحاضر والمستقبل. فالتأمل في أعماله الفكرية، يلاحظ أنها تحاول معالجة مشكلة رئيسية وهي مشكلة الحضارة فيقول: " إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة ".⁵ و تلعب التجربة التاريخية دوراً أساسياً لتكوين المجتمع الحضاري المعاصر و استشرافه نحو المستقبل لأنه من المستحيل أن يبدأ أي مجتمع انطلاقة من فراغ دون النظر في واقع تراثه الحضاري وذلك للاطلاع على إيجابياتها وسلبياتها ومعرفة المواقف و القيم التي ساهمت وتساهم

¹ . زكي الميلاد، المسألة الثقافية . من أجل بناء نظرية في الثقافة . 2ط، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2010، ص103.

² . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 24.

³ . _____ ، الفكرة الإفريقية الآسيوية، مرجع سابق، ص 226.

⁴ . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 160.

⁵ . نص حوار مع مالك بن نبي، مجلة الشبان المسلمين، العدد 171، مايو 1971، ص17.16، أخذاً زكي الميلاد، المسألة الثقافية، ص 37 .

في تكوين المجتمع الذي تصبو إليه.¹ فكانت جهود ابن نبي تنصبُ على البحث عن حل لهذه المشكلة الإسلامية حلاً موضوعياً وذلك بمعالجة جوهرها وليس مظاهرها لأن المشكلة الرئيسية تكمن في الجوهر. لذا يقرر مالك هذا الفكرة المنهجية التي استأثرت بجل تفكيره و وجهت معظم كتاباته، إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، و لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات وتهدمها.² ويرى أن الدين هو أساس قيام المجتمعات والحضارات أياً كانت فالحضارة لا تتبعث كما هو ملاحظ إلاً بالعقيدة الدينية، وينبغي أن تبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها.³

إن في مبدأ الحضارة لا يكون أمام المجتمع إلاً الرأسمال الأولي و هو الإنسان و التراب و الوقت، و بعد ظهور المركب الديني أو الأخلاقي أي الفكرة الدينية تبدأ عملية تركيب هذه العناصر في صورة حضارة تمر بالمراحل المذكورة. فدورة الحضارة إذن تتم على هذا المنوال، إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين، كما تنتهي حينما تفقد الروح نهائياً الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحه الجماح. و لكي ندرك عمق التحولات التي تحدث للإنسان و الثقافة و شبكة العلاقات الاجتماعية إبان ميلاد الحضارة و تطورها عبر المراحل الثلاث: الروحية و العقلية و الغريزية، ينبغي أن نتتبع دورة كاملة مثل دورة الحضارة الإسلامية أو الحضارة المسيحية أو الحضارة الهندية أو الحضارة الصينية. و بالفعل نجد ابن نبي يقدم نموذجين للدورة هما نموذج الحضارة الإسلامية و نموذج الحضارة المسيحية. و بعد تحليل لمسيرة هذين المجتمعين يخلص في النهاية إلى أن المجتمع في حركة تحضره يمر بثلاثة مراحل أساسية (الروح و العقل و الغريزة)، و تعتري هذا المجتمع في كل مرحلة من هذه المراحل تغيرات، و تحولات تؤثر في شخصيته و وظيفته و بنيته و ثقافته و سائر ملكاته و خصائصه النفسية و الاجتماعية.⁴ إن التغيير يشمل الكثير من أمور الحياة المادية لكنه لا يتناول كثيرا من أمور الحياة المعنوية، يشمل التغيرات الاقتصادية و التطبيقات

1 . الخطيب سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص37

2 . _____ ، شروط النهضة ، مرجع سابق، ص21

3 . _____ ، شرط النهضة، مرجع سابق، ص56.

4 . عبد العزيز برغوث، مرجع سابق، ص 166

العلمية و المادية، و لكنه إذا مس الحياة الخليقة فهو يطعن الحياة البشرية في صميم وجودها، فلا تتغير إلى الأحسن و الأفضل، و إنما تنتكس إلى البهيمية لا يقرها المنطق الإلهي و لا إلى المنطق البشري و لا المنطق الاجتماعي، و إذا ما أقرها المنطق الاجتماعي والبشري، فلا يكون ذلك إلاّ تحت العسف و طغيان الهوى الإنساني على القيم و المثل العليا في خيانة الإنسان و الجماعة.¹

4 . علاقة الأخلاق بالبناء الحضاري :

4 . 1: علاقة الأخلاق بالثقافة: و كانت كلمة توجيه تعبّر عن فكرة حاول التأكيد عليها، وصياغة معنى لها، و يقصد بها قوة في الأساس، و توافقا في السير و وحدة في الهدف، فالتوجيه هو تجنّب الإسراف في الجهد و الوقت.² ينطلق في تعريفه لمعنى الثقافة من ناحية المضمون و المحتوى، فيؤكد تضمّنها للقيم و الأخلاق، و بأنها: " هي مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد من ولادته كرأس مال أولى في الوسط الذي ولد فيه، و الثقافة على هذا هي: (المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعة و شخصيته)".³

و منذ البداية يقرر مالك أنه يهتم بالثقافة لا من الناحية الفلسفية الصرفة، بل يتعدى إلى جانبها الاجتماعي. و ليس المقصود هنا تشريع مبادئ خلقية بل أن نحدد (قوة التماسك) الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد، و التي تتيح له تكوين القبيلة و العشيرة و المدينة و الأمة. و تستخدم القبائل الموغلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمع؛ و المجتمع الذي يجتمع لتكوين حضارة، فإنه يستخدم الغريزة نفسها، و لكنه يُهَدَّبها و يوظفها بروح خلقية سامية.⁴ فمالك ينطلق من المجتمع الذي هو ضرورة أولية لحياة الأفراد، و هؤلاء لا بد لهم من صلات تربطهم ببعضهم البعض، أو قوة تجعلهم متماسكين متحدّين ينشدون أهدافا واحدة، و لكي يكونوا كذلك، لا بد أن يكون المبدأ الأخلاقي آتي من مصدر يفوق العقل، و إلاّ تعددت الأهداف و اختلفت الآراء و الوسائل، و يرى أن المبدأ الأخلاقي يأتي

1 . محمد السيد سلطان، قضايا في الفكر التربوي المعاصر، ط1، دار حسام للنشر و الطباعة و التوزيع، القاهرة، 1981، مصر، ص 28

2 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 67

3 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 83.

4 . _____ ، المرجع سابق. ص 94

من السماء ليوثق الصلة بين أفراد المجتمع بحيث يجعلهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه البعض" هذه الروح الأخلاقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات، و مهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فهذا المبدأ إذن بمثابة المؤشّر الذي يأذن بقيام الحضارة. و ليس من الصدفة أنت يكون معنى "الدين" في اللاتينية، و بالضبط مصطلح "دين" (Religion) يعني (الربط و الجمع).¹

و هكذا يتضح جليا أن المقوم الأول الذي تقوم عليه الثقافة هو (المبدأ الأخلاقي). هذا ما يؤكد في المحاضرة التي ألقيت بمناسبة خاصة في طرابلس يوم الأحد 28 حزيران 1959. يقول ابن نبي: "و الحقيقة الأولى التي تتبادر إلى أذهاننا هي أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين كما ذكرنا إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، يحدث فيه نشورا بسلوكه الخاص. و نحن إذا دققنا النظر في هذا العنصر كضرورة منطقية اجتماعية، فإننا نكون بهذا قد وضعنا فصلا هاما من فصول الثقافة، و حققنا شرطا أساسيا ألا و هو المبدأ الأخلاقي.² إذن نستنتج من هذا أن الثقافة تبقى عاجزة عن رسم معالم الطريق الصحيح للحياة الاجتماعية إذا أهملت من حسابها المبدأ الأخلاقي، لأن له انعكاسات على شتى الجوانب الاجتماعية. إن هذا المبدأ الأخلاقي هو الذي يجعل الأفراد متمسكين بالوسائل المعنوية و المادية التي تنتقيها الثقافة لبناء صرحها، و بلوغ هدفها المنشود. كما أنه بفضل المبدأ الأخلاقي تتوحد الأفكار و طرق العمل، من أجل الوصول إلى الغايات، وإن اختلفت الوسائل في بلوغها، و هذا لن يضير الثقافة المنشودة في شيء. أو بصيغة أخرى الثقافة عنده: (مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، و تصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه).³

و من هذا التحديد لمعنى الثقافة ندرك تجذّر الصلة القائمة بين ما هو ثقافي و ما هو أخلاقي عنده، حتّى عدّت الأخلاق شرطا أساسيا لقيام و نشوء الثقافة. كما أشرنا سابقا.

1. _____، المرجع سابق. ص 88

2. _____، حديث في البناء الجديد، مرجع سابق. ص 71.

3. _____، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 74.

ولهذا أعتبر الثقافة : نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة.¹ و بهذا المعنى فإن الثقافة لا يمكن لها أن تقوم بوظيفتها الحضارية إلاّ من خلال عناصرها الأساسية، وقد عدّها مالك بن نبي أربعة مبادئ يأتي في مقدمتها (المبدأ الأخلاقي).² و هو ما يعني تدخل الأخلاق كعنصر جوهري في الثقافة و يكون الأصل في العلاقة بين الثقافة و الحضارة مُؤسّس بمنظور مالك بن نبي على معنى كون الثقافة قيم و أخلاق و سلوكات و ليست مجرد معارف و معلومات.

فلكي نفهم المسألة الثقافية إذا نحن ركزنا في النظر إليها على وجهة نظر واحدة أو ركزنا على بعد واحد من أبعادها. و لهذا ينبغي أن نحدد الثقافة من زوايا نظر مختلفة و متنوعة و متكاملة، و ذلك لكي نتمكن من تفهمها، و ربطها بأوضاع المجتمع الإسلامي و حضارته في مرحلتها التاريخية الحالية. يقول ابن نبي: " فلكي نعرف الثقافة نجد أنفسنا مضطرين إلى أن ننظر إلى المشكلة في اتجاهين، بل في ثلاثة اتجاهات، حتى يتسنى لنا أن نضم عناصرها النفسية، و عناصرها الاجتماعية، ثم نقرّ العلاقة الضرورية بين هذه العناصر جميعا. و أخيرا لكي نصوغ هذه العلاقة صياغة تربوية وافية ".³

لهذا نجده ينزع في تعامله مع موضوع الثقافة نزعة البحث و التقصي الاصطلاحي و اللغوي، بمقدار ما نجده يحاول أن يوظف مفهوم الثقافة في تحقيق هدف معين. فلم يهتم كثيرا بالتعريفات اللغوية و الاصطلاحية الكثيرة للثقافة، بل عمد إلى استنتاج خلاصة عامة حول المفهوم الغربي الاشتراكي، و الليبرالي لمفهوم الثقافة، ثم انتقل مباشرة إلى إعادة صياغة مفهوم الثقافة يصب في سياق المنظور الحضاري الذي تبناه. فبالنسبة له فإن أي تحديد للثقافة لا يتوجه نحو مسألة إحداث الفعل التجديدي الحضاري، و التحكم في مصير و سيرورة الوعي، و الإنسان و الحضارة، فإنه تعريف يخرج عن نطاق المنظور الحضاري. فهو يدرك تماما أن معظم التعريفات التي تعطى اليوم للثقافة إنما تصاغ بصورة تقريرية للواقع الثقافي القائم. فهي تصف واقعا قائما يشكل جزء أساسيا من حياة الإنسان و من ذاته و من قيمه و تصوراته و وجوده النفسي و الاجتماعي و التاريخي. و هذا التحديد للثقافة لا يهتم كثيرا إنسانا أو مجتمعا ما زال متخلفا أو مازالت

1. ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 82.

2. ، المرجع سابق، ص 87.

3. ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق. ص 43

ثقافته ثقافة متخلفة ساكنة بالية تفنقد إلى عناصر الحيوية و الفاعلية. فهو يريد أن يعرف الثقافة تعريفا يربطها بالفعل التجديدي و بمشروع بناء حضارة و مجتمع إسلامي جديد. لكن التعريفات الغربية القائمة لا تسعفه فيما يريد القيام به من إزاء وضعية أمته و حضارته الإسلامية. لأنها أولاً مؤسسة على رؤى كونية، و تصورات حياتية تختلف عن التصور الذي يبحث في إطاره. و ثانياً لأنها في مرحلة عقلية نفسية و تاريخية و حضارية مختلفة عما عليه واقع الإنسان المسلم و المجتمع الإسلامي الحالي. ثالثاً لأنها لا تنظر إلى المسألة الثقافة على أنها مسألة لها صلة بالفعل التجديدي الذي يهدف إلى بناء حضارة. و بالتالي تتحول الثقافة بهذا المعنى إلى روتين دوري تستهلكه الأجيال المختلفة باعتباره جزء من وعيها و شخصيتها لا غير. و هذا المعنى للثقافة لا يهم كثيراً من يريد تغيير مجتمع، و بناء حضارة جديدة وفق منظور مغاير للمنظور الغربي.¹

و الواقع أن أهمية الأخلاق في الثقافة تتجاوز مستوى العلاقات بين الأفراد، إلى مستوى الدول، فالدولة محكوم عليها بالفشل في حالة اختلاف المبدأ الأخلاقي" و هذا الجانب من القضية قد أصبح واضحاً الآن، فإن شبكة الصلات الثقافية تختل فيه حتماً في بلد ما، إذا أختل فيه المبدأ الأخلاقي، و أن هذه القضية هي وحدها التي تفسر فشل التجربة التي ذكرتها في الصورة الأولى.²

فارتباط الثقافة بالأخلاق هو ارتباطاً عضوياً، فكما ركز المبدأ الأخلاقي ركزت الثقافة، و سلبية بقدر ما يكون فيها المبدأ الأخلاقي عديم التأثير، لأن وظيفة المبدأ الأخلاقي هي تكوين الإنسان الذي لا يمكن بدونه تكوين عالم الأشياء، و لا عالم المفاهيم. و على هذا الأساس كان دوره مهماً و حساساً في تحديد هوية الثقافة " فالمبدأ الأخلاقي يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء، و لا عالم المفاهيم. و من هنا كانت أهميته الكبرى، في تحديد الثقافة، في مجتمع ما. و في توضيح الخلاف الجوهرية بين الثقافة و العلم، فالأولى التي تتضمن كشرط أول تحديد الصلات بين الأفراد، والثاني الذي لا يهتم إلا بالصلات الخاصة، بالمفاهيم و الأشياء. فالرجل العالم قد يكون عنده إلمام بالمشكلة كفكرة، غير أنه لا يجد في نفسه الدوافع التي تجعله يتصورها كعمل،

¹ . عبد العزيز برغوث، مدخل التجديد الحضاري و آفاقه العالمية . دراسة في فكر مالك بن نبي . مرجع سابق، ص 188

² . _____ ، تأملات ، مرجع سابق، ص 137

في حين أن الرجل المثقف يرى نفسه مدفوعاً بالمبدأ الأخلاقي، الذي يكون أساس ثقافته إلى عمليتين: عملية هي مجرد علم، و عملية أخرى، فيها تنفيذ و عمل، و بهذا يتضح الخلاف الجوهرى الذي يفسر لنا الصورة التي أوردتها كشاهد في صدر هذا الحديث ¹. و ينظر إليها من زاوية أخرى على أنها تدخل في تحديد معنى الثقافة و أنها عنصر هام من عناصرها بل و شرط من شروطها حيث يقول في هذا: "فأساس كل ثقافة هو بالضرورة تركيب و تأليف لعالم الأشخاص و هو تأليف يحدث طبقاً لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية، و إذن فالأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية هي أولى المقومات في الخطة التربوية لأي ثقافة"². و الأخلاق هي التركيب التربوي لكل هذه العناصر (العناصر الثقافية) و لذلك كانت فصلاً جوهرياً من فصول الثقافة نتصوره لا على أنه تاريخ، بل على أنه مشروع تاريخ³. و على هذا الأساس عدّها شرطاً أساسياً من شروط الثقافة، فقال: " فإذا قررنا وجود هذا العنصر . يقصد الأخلاق . كضرورة منطقية اجتماعية فإننا نكون قد وضعنا فصلاً هاماً من فصول الثقافة، و حققنا شرطاً أساسياً من شروطها و هو المبدأ الأخلاقي⁴.

4 . 2: علاقة الأخلاق بالاقتصاد: و يربط القيم الاقتصادية بالمعايير الأخلاقية، و يعرض لفكرة الترابط الموجود بين القيم الاقتصادية و الأخلاقية في مقارنة له بين الإسلام و الرأسمالية، فيقول: "و يجدر بنا من الآن أن نلاحظ الترابط بين القيم الاقتصادية و الأخلاق، هذا الترابط أهملته الرأسمالية في نظرتها الإباحية للاقتصاد، بينما رسول الله (ص) يعطينا في قضية المتسول الذي يسأل يوماً (لقمة عيش) كان من حقه أن يأخذها من المجتمع بنص من القرآن الكريم . لكن أعمال النبي (ص) تشريع أو عبرة لأمته، فأشار إلى من حوله من الصحابة (رضي) بأن يجهّزوا هذا الفقير ليحتطب، و أشار على الرجل بأن يحتطب ليأكل من عمل يده". و يضيف مبرزاً الأبعاد الخلقية، من هذه القصة بقوله: " فإذا حللنا هذه القصة من حيث أبعادها الخلقية، نرى كيف يحلّل الرسول(ص) أزمة اجتماعية تعرض عليه في صورة متسولين مساكين، فيفضل حلها في نطاق (الواجب)

1 . _____ ، حديث في البناء الجديد، مرجع سابق. ص 72،

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 63.

3 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 65

4 . _____ ، حديث في البناء الجديد، تر: عمر كامل مسقاوي، مرجع سابق، ص 70

على (الحق)، وإذا قدرنا الأبعاد الاقتصادية، فإننا نراه (ص) يفضل الحل في نطاق الإنتاج".¹

و هذا التصور الأخلاقي للاقتصاد هو الذي دفعه إلى القول: "إن الاقتصاد ليست قضية إنشاء بنك و تشيد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان و إنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات".² و من هذا المنظور فإن نجاح الاقتصاد موهون بتوفر العوامل النفسية والروحية التي قوامها الأخلاق، فيقول في هذا الشأن: "و لكن الإشراف و التنظيم و المراقبة، مع اعتبارها شروطا ضرورية بقدر ما يتضخم الإمكان، و لا يتحقق على أية حال النجاح المضمون للاقتصاد، إن افتقد إلى عامل نفسي أو روعي ينهض به على أنه التجسيم للإرادة الحضارية".³

كما يؤكد الصبغة الأخلاقية للاقتصاد بقوله: "و المجتمع الإسلامي أجدر من أن يحقق له و للإنسانية التجربة التي يعيد إلى عالم الاقتصاد أخلاقيته، و يتلافى بذلك الانحرافات الإباحية التي تورطت فيها الرأسمالية".⁴ و لقد أعتبر الشروط الأخلاقية من أهم ما يدخل في صميم الاقتصاد، ذلك أنه جعل من شروطه، الاعتماد على الأساس الأخلاقي لعمليتي الإنتاج و التوزيع، فيقول: "إذا عدنا للعلاقة الجبرية بين الإنتاج و الاستهلاك و اعتبرناها علاقة أخلاقية اقتصادية، نستطيع النظر في احتمالاتها، فنراها تدل على حالات ثلاث، يحقق المجتمع إحداها حسب اتجاهه الثقافي، فبحسب تركيزه على مفهوم (الواجب)، أو على مفهوم (الحق) تكون معادلته الاقتصادية إيجابية بفائض الإنتاج على الاستهلاك. أو متعادلة إذا استوى الطرفان، أو سلبية إذا كان الاستهلاك أرجح في الميزانية".⁵

و تأخذ المشكلة الاقتصادية بعدا اجتماعيا ثقافيا ضاربا في التاريخ منذ النهاية عصر الموحدين، بحيث أهمل المجتمع الإسلامي قيمة الإنسان، و لم يعتبرها قيمة إنسانية ضرورية لنجاح أي مشروع اقتصادي إنمائي. ليؤكد على أهمية البعد الاجتماعي الثقافي للمشكلة الاقتصادية ضرب مثالي نهضة ألمانيا إثر الحرب العالمية الثانية، و محاولة إندونيسيا لنهوض الاقتصادي إثر استقلالها مع نهاية الحرب العالمية الثانية أيضا، و قد

1 . _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق ص 106.

2 . _____ ، المرجع السابق، مرجع سابق ص 70

3 . _____ ، المرجع سابق ص 74.

4 . _____ ، المرجع السابق، مرجع سابق، ص 101

5 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 83.

استعانت الأخيرة بالاقتصادي الألماني (شاخت) الذي قد كان قد نهض بالاقتصاد الألماني قبل الحرب العالمية الثانية، و يتساءل لماذا نجحت ألمانيا و فشلت إندونيسيا رغم أن ألمانيا بدأت النهوض من مستوى دون اندونيسيا بكثير، علما أن إندونيسيا هي خير بلاد الدنيا في خصوبة أرضها و مواردها الطبيعية ؟ و لا يجد سببا لفشلها سوى الجذور الاجتماعية و الثقافية التي أهملت الإنسان. و يبرر ذلك عن استمداد المشاريع الاقتصادية مشروعيتها و نجاحها من القيم الاجتماعية و عدم تعارضها معها، بل إن المجتمعات التي بلغت شأؤ بعيدا في المجال الاقتصادي هي التي راعت في وضع خططها الجانب الاجتماعي و الثقافي في بعده الأخلاقي، يقول: " إي فن اجتماعي أو مبدأ اقتصادي لا يمكن أن يكون صادقا إلا إذا وجد في وضع لا يتعارض فيه مع عناصر المعادلة الشخصية السائدة في الوسط الذي يراد تطبيقه فيه، و لكي تؤثر النظريات الاقتصادية تأثرها الاجتماعي يجب أن ألا يقتصر في دراستها على منصة الجامعة بوصفها عالما وفقا على بعض المتخصصين، بل يجب أن يطبق هذا العلم على التجارب الجامعية التي يقف فيها و عي كل فرد و إدراكه أمام المشاكل المادية، مقدما بذلك لعلم المتخصصين ظروف صلاحيته للتأثير.¹ و هنا ندرك كيف يرتبط الاقتصاد بالقيم و الأخلاق، بالموازاة مع ارتباط الاقتصاد بالحضارة، لكونه يضمن توفر العوامل المادية فيها. فقد ربطها بقاعدة الزكاة ومبدأ تحريم الربا.

الزكاة: فعندما يقرر القرآن الزكاة كركن من أركان الإسلام، و هي أول فريضة فرضت على الأغنياء و القادرين، وهي فريضة على كل مسلم تتوفر فيه شروطها فيجب عليه إخراجها لمستحقيها. وقد ورد لفظها في القرآن الكريم مع الصلاة في أكثر من ثمانين آية، " فإنه يضع أساس تشريع اجتماعي عام، قبل أن تتدرج في العالم الأفكار الاجتماعية التي ألفناها فيه اليوم. فعندما يصف الرسول ضرورة هذا المبدأ، فإنه يصفه بمبررات تزعم الاشتراكية أنها تنفرد بها اليوم، حيث يقول عليه الصلاة و السلام: (إن الله اقتطع من أموال المسلمين الأغنياء نصيبا هو نصيب الفقراء، لأن الفقراء لا يجوعون و لا يعرفون إلا بسبب الأغنياء)".²

1. _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق ص 18

2. _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 158

الربا: و بالنسبة لمبدأ تحريم الربا فقد جعل منه بداية انهيار أي فرد في المجتمع، و أي مشروع اقتصادي من خلال تعاطي الربا في المعاملات التجارية، فيقول: " ثم يقرر الإسلام مبدأ آخر يضعه كأساس لبناء الاقتصاد؛ و هو مبدأ تحريم الربا. فكان هذا التحريم الأثر الكبير في تحديد صورة الاقتصاد الإسلامي، بحيث أضفى عليه من اللحظة الأولى الطابع الديمقراطي، لأنه لم يسمح بالتجارة في المال و النقود التي تقوم على مبدأ الربا، و تحتكرها بعض البنوك. و بذلك لم يتح للمال أن يحقق لطبقة معينة أو بعض الأفراد، السلطة المطلقة على الحياة الاقتصادية، كما يحدث في النظام الرأسمالي. إذ يتيح الربا السلطة التامة للاحتكار على التجارة، و للتكثف المالي على الصناعة بواسطة البنك الذي يحقق تركيز رأس المال، أي سلطة المال إلى أكبر درجة ممكنة، بالنسبة إلى إمكانيات عصر معين. فالتشريع الإسلامي أعفى الاقتصاد من سلطة الدرهم المطلقة، تلك السلطة التي أحدثت في البلاد المتطورة أزمات اجتماعية تواجهها أحيانا بالثورات العنيفة. و ربما يمكن القول، بأن هذا التشريع لم يخفف من حدة الدرهم في مجال الاقتصاد فحسب، بل خفف من حدته في المجال الروحي . إذا صح التعبير . حتى إنه يعفي المجتمع من الأزمة الأخلاقية المنقشية اليوم التي ستضيء بأضواء الحضارة الغربية " ¹.

4. 3: علاقة الأخلاق بالسياسة: إذا كانت السياسة هي فعل المستقبل، فإن الأخلاق مجموعة المبادئ و القواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان و تحديد علاقته بغيره على نحو تحقيق الغاية من وجوده، أي أنها تستمد مشروعيتها و قواعدها و أسسها من ماضي. و سوف نركز في هذا البعد على الديمقراطية كمشروع أخلاقي يصبغ الحياة السياسية، و يعطي للسياسة الجانب التربوي الذي يجعل منها مؤهلة لصناعة الإنسان و نموه نموا طبيعيا في جانبه النفسي و الأخلاقي و الاجتماعي. و سوف نوجز علاقة السياسة بالأخلاق في قضية الديمقراطية و الثورة :

4. 3. 1: الديمقراطية كمشروع أخلاقي: و يحمل المشروع التربوي رؤية قيمة شاملة تجسد وعي الإنسان المتكامل الذي تشكل تربويا وفق مقتضيات الحضارة. و تحدد حركته في الأرض، هذه الرؤية تحمل ثقافة اقتصادية و اجتماعية و سياسية و نفسية و روحية و تربوية. "فليست الديمقراطية مجرد شكل للحكومة، و إنما هي في أساسها أسلوب من الحياة

¹ . _____ ، المرجع السابق، مرجع سابق، ص 161.

المجتمعية و الخبرة المشتركة المتبادلة".¹ و على هذا الأساس فلديمقراطية عند "جون ديوي" **John Dewey** أشكال عدة فهي مساواة بين الأفراد في تهيئة فرص متكافئة لهم دونما أي تمييز بينهم، و هي تكافل اجتماعي، و هي عدالة اجتماعية، و هي حرية في الاعتقاد، و القول و النشر و الاجتماع، و هي علاقة إنسانية تتسم بالأخذ و العطاء و تغليب الذكاء البشري و الخبرة في حل الخلافات و المشكلات.²

إن إعمال العقل و تمحيص النظر في التجربة الإنسانية يؤكد أن الديمقراطية بمضامينها الإنسانية و تداعياتها الاجتماعية لا يمكن أن تنفصل عن وعي الناس وفهمهم للأشياء، إذ لا بد لها أن تتحقق في الوعي عبر التربية قبل أن تتجسد في الواقع. وتأسيسا على هذه المسلمة بدأ رجال السياسة والتربية يوجهون أنظارهم بشكل كبير نحو الفعل التربوي يستلهمونه بغية بناء الحقيقة الديمقراطية في المجتمع. و يرى أن المفهوم السياسي لمعنى الديمقراطية مناقضا لفكرة خضوع الإنسان إلى سلطة الله في هذا النظام أو غيره. لكنه يستطرد ذلك و يقول، فالديمقراطية من تلك العناصر التي نتقبلها لنضيفها إلى التراث الإسلامي، مقتنعين بما يسوّغ هذه الإضافة، و لو بصورة شكلية، حتى يصبح الموضوع لا يفتح بابه على نقطة استفهام: "هل في الإسلام ديمقراطية؟"، مشيرا إلى أن تعريف مفهومي الإسلام والديمقراطية بالطريقة التقليدية قد يؤدي إلى استنتاج عدم وجود علاقة بينهما، منبها في ذات الوقت إلى أن تفكيك المصطلح في معزل عن محموله التاريخي وإعادة تعريف الديمقراطية في أبسط أشكالها، تحريرا من القيود اللغوية والأيدولوجية قد يوصل إلى استنتاج مختلف. و يركز على الأسس والبنية الداخلية للديمقراطية والمراتب التي تعتمدها في تطوير ذاتها فهي تقوم على ثلاثة وجوه:

أولا: الديمقراطية كشعور نحو الـ (أنا).

ثانيا: الديمقراطية كشعور نحو الآخرين.

ثالثا: الديمقراطية كمجموعة الشروط الاجتماعية السياسية اللازمة لتكوين وتنمية هذا الشعور في الفرد.

¹ . جون ديوي، المدرسة و المجتمع، ترجمة: أحمد حسن الرحيم، الطبعة الثالثة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1978، ص19

² . جون ديوي، المرجع السابق، ص20

فهذه البنى الثلاثة تتضمن بالفعل مقتضيات الديمقراطية الذاتية و الموضوعية، أي كل الاستعدادات النفسية التي يقوم عليها الشعور الديمقراطي والعدة التي يستند عليها النظام الديمقراطي في المجتمع، فلا يمكن أن تتحقق الديمقراطية واقعا سياسيا إن لم تكن شروطها متوافرة في بناء شخصية و في العادات و التقاليد القائمة في البلد.¹

يتكلم عن الديمقراطية بوصفها شعور الإنسان ذاته، نحو بنية (الأنا) وهذا الوعي بالذات شرط جوهري في بناء الديمقراطية المتمحورة حول حقيقة الإنسان وماهيته، حول العقل والحرية و التاريخ. كما أن الوعي بالذات يسهل منظومة ثقافية واجتماعية تفضي تلقائياً إلى الوعي بالآخر عبر منظومة قيمة أساسها الحوار والوعي المتبادل. ولذلك نلاحظ . مثلاً . أنه بالديمقراطية كثقافة، كحس، كوعي، كروح، و الحس رفع الإنسان الأوروبي من مستوى الفرد إلى الشخص، ولهذا ركز إبن نبي على فلسفة الوعي بالآخر الذي إذا فُقدَ فَقَدَت الديمقراطية معناها البنائي، وبالتالي فقدت الشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لبناء الديمقراطية الحية الحقة. إن (الشعور نحو الآخرين) كما حدده يؤسس قواعد المنهج الاتصالي في النظام الديمقراطي ويعزز فلسفة الاتصال في بعدها الثقافي والروحي والإداري والسياسي... ولذلك نراه يدعو إلى إنشاء علم اجتماع ديمقراطي وبخاصة في الكيانات التي تتوافر على خصائص (مجتمع) لترسيخ الثقافة والتربية الديمقراطية.

و لتفعيل هذه المحورية ربط النص الحديثي . مثلاً (الأنا) ب (الآخر) في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، وقوله صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)، إنه الوعي والإحساس بالآخر في أجلى صورته، وإنه منهج اتصالي رفيع داخل النص يؤمن سلامة البناء وتفعيله.

و يرى أنها في أساسها عملية تسليم سلطات تقع بين طرفين معينين، بين مالك و شعب مثلاً، بل تكوين شعور و انفعالات، و مقاييس ذاتية و اجتماعية تشكل مجموعها الأسس التي يقوم عليها الديمقراطية في ضميرى الشعب، قبل أن ينص عليها أي دستور. و الدستور ما هو غالباً إلا النتيجة الشكلية للمشروع الديمقراطي عندما يصبح واقعا سياسيا، يدل عليه نص توحى به عادات و تقاليد، و يمليه شعور في ظروف معينة، و لا يكون

1 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 69.

أي معنى لهذا النص إن لم تسبقه التقاليد و العادات التي أوحى به، أو بعبارة أخرى المسوغات التاريخية التي دلت على ضرورته.¹ و رأى أن الجواب على سؤال هل توجد ديمقراطية في الإسلام، لا يتعلق ضرورة بنص فقهيّ مستنبط من السنة والقرآن، بل يتعلق بجوهر الإسلام الذي لا يسوّغ أن يعتبر مجرد دستور يعلن سيادة شعب معين، ويصرح بحقوق وحرّيات هذا الشعب، بل ينبغي أن يعتبر مشروعاً ديمقراطياً تفرزه الممارسة، وترى من خلاله موقع الإنسان من المجتمع الذي يكون محيطه، بينما يسير في الطريق نحو تحقيق القيم والمثل الديمقراطية. تحقيقاً ترتبط معه حركته التاريخية بالمبادئ العامة التي أقرها الإسلام، في صورة بذور غرست في الوعي الإسلامي، و في صورة شعور عام و دوافع تكون المعادلة الإسلامية في كل فرد من المجتمع.²

و يرى أن السلطة السياسية في الإسلام ليست مطلقة، بل مقيدة بجملة من القواعد و الأسس استمدت من الشريعة الإسلامية، فلا تستطيع الأمة أن تتصرف بدون قانون، الشيء الذي جعله يقرر أن التعاون بين الفرد و الدولة لا بد له من جذور في عقيدة تستطيع وحدها أن تجعل ثمن الجهد محتملاً مهما كانت قيمته لدى صاحبه فيضحي هكذا بمصلحته و حتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره.³

و تتمثل القيم التي أرساها الإسلام في الثقة الحاكم و الرعية، و حسن المعاملة . في قصة عمر بن الخطاب و الأعرابي، و واجب الطاعة و الامتثال للخليفة " من رأى منكم فيا اعوجاجاً فليقومني" و المثل الآخر الذي صاغته روح المواطن المتشبع بالطاقة و الثقة بالنفس و في كرم المستمع، تلك القواعد التي أسست لمجتمع ديمقراطي خلقت في نفسية الفرد طاقة عجيبة استطاع من خلالها أن يفتح أمصاراً بعيدة بهذه الروح المتوثبة و التواقة إلى الأفضل " و الله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بحد سيوفنا " وكان عمر يجيب و نفسه مطمئنة إلى ما يقول مجسداً تلك الحادثة كعملية تربية تتأسس عليها كبرى النظريات السياسية: " أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم و ليست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني و إن أسأت فقوموني ... أطيعوني ما أطعت الله و رسوله فإذا عصيت الله و رسوله فلا طاعة لي عليكم " و قد أضاف ابن نبي بعداً آخر للديمقراطية في الإسلام

1 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 75.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص 75.

3 . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 74.

و هي النزاهة والكفاءة . كصفتان . يتوجب أن يتحلى بهما الإنسان المسير و القائد، فيرفض رسول الله(ص) طلب أبي ذر الغفاري في توليته أحد الأقاليم على ما يتصف به من إخلاص و نزاهة. و يعزل أبو بكر الصديق(رضي) عبيدة بن الجراح(رضي) أمين الأمة من على ثغر بلاد الشام، ويعين مكانه الصحابي خالد بن الوليد (رضي) لا لنقص في النزاهة و الإخلاص، و لكن اقتضاء أمر الأمة للفتنة في الحرب.

و الأمثلة كثيرة و متعددة حول الديمقراطية التي أصبحت نموذجا تربويا يحتذى به في سائر الأمم، لأنها استمدت قيمها الأخلاقية من الفكرة الدينية التي جاءت في البداية لتحرر الإنسان من العبودية للأوثان و الأصنام ، فيقول مسترسلا في حديثه عن الديمقراطية وكيف توّول إلى العكس عندما تسترشد بالقيم الغربية لينسحق الإنسان في مائة الأعداد و الأرقام بعيدا عن عالم الأفكار الذي ينشط الدورة الحضارية باستمرار. إن الإشعاع الروحي الديمقراطي الذي بثّه الإسلام، ينتهي أيضا في العالم الإسلامي عندما يفقد أساسه في نفسية الفرد، أي عندما يفقد الفرد شعوره بقيمته و بقيمة الآخرين وينبغي أن نلاحظ أن الحضارة الإسلامية انتهت منذ الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان.¹

4 . 3 . 2: الثورة من الحركة التغييرية إلى المشروع الأخلاقي: يرى ابن نبي على المجتمعات المتخلفة أن تقوم بتغييرات ثورية في مجتمعاتها، و إما أن يفرض عليها التغيير من الخارج. و يعرفها بأنها: "محاولة تغيير أوضاع معينة بطريقة مستعجلة و هادفة"، و أن أية ثورة لن تستطيع تغيير الإنسان ما لم تكن لها قاعدة أخلاقية و تربوية قوية.² و أن الثورة لا تكون حقيقية لمجرد ما تجتهد في نشر العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب، إذا هي لم تعلمه كيف يستعيد شخصيته و تلقنه معنى الكرامة، و هذه الاعتبارات من وظيفة الأخلاق. و كانت الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ﴾، و الحديث الشريف " و اليد العليا خير من اليد السفلى" يلخصان لنا ما كان يسميه ب(أخلاقية الثورة) التي يعني بها إعطاء الإنسان، و لكن مع الحفاظ على كرامته، و ذلك أن بعث الإنسان ليس ضمان حقوقه فقط، لكن الثمن الحقيقي حين يرفض حقه من الفيء.³ و الثورة في بعدها العقدي هي ظاهرة تربوية بمعناها التجريبي و أخلاقية

1 . _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 94.

2 . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 25 .

3 . عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 91.

في بعدها القيمي، لذا نجده يرفض أن يشارك معهم من كان على غير دين الإسلام رفض الحاجة إلى ذلك في معركة أحد، ممثلاً في سند عبد الله بن أبي، و يسترشد ابن نبي بقول الرسول(ص) " لا يقاتل معنا إلا من هو على ملتنا " فالثورة ليست كإحدى الحروب تدور رحاها مع العدد و العتاد، بل أنها تعتمد على الروح و العقيدة.

و قد تتحرف الثورة عن مبادئها و مسارها المرسوم سلفاً، و تتحاز عن قراراتها، و تتحول (الثورة) إلى (لا ثورة) بل قد تصبح (ضد الثورة) بطريقة واضحة خفية، و الأمر الذي لا يجوز أن يغيب عن أذهاننا في هذا الصدد هو أن مجتمعاً ما بمقتضى طبيعته البشرية ينطوي على خمائر من روح (ما ضد الثورة) طبقاً بمبدأ التناقض تناقضا مستمرا . حتى في فترة ثورية، نستطيع تتبع آثاره في تاريخ كل الثورات. بحيث لا يغني أن ندفع عجلة الثورة في وطن ما، بل يجب أن نتتبع حركتها و رقابتها بعد ذلك. و يشدد في محاولته لفهم ظاهرة الثورة و صيرورتها التاريخية و مصباتها في الواقع، أن المتربصين بالثورة كُثر، فخمائر ما ضد الثورة هي إفرار المجتمع بكل مكنوناته من جهة، و من جهة أخرى أن الثورة محفوفة بالمخاطر في الاطراد الثوري في الخارج، على أيدي خبراء يعرفون كيف تجهض الثورات. لذلك يجب على ريان السفينة أن يعرف هذه الحقيقة بطريقته، إذ يعرف أنه لا يكفيه أن يقلع بسفينته في اتجاه معين، بل يجب عليه أن يراقب السير على طول الطريق من أجل تعديل الاتجاه من حين لآخر.¹

4 . 5 :علاقة الأخلاق بشبكة العلاقات الاجتماعية: يعني تنظيم العلاقات بشكل يسمح للمجتمع بأداء نشاطه المشترك، أداء يخدم اتجاهه نحو الحضارة، فهو يرى أن الأخلاق كقيم أنتاجها الدين، هي التي يرجع لها الفضل في بناء شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع، إذ يقول: " إذن فالعلاقة الروحية بين الله و الإنسان، هي التي تلد العلاقات الاجتماعية، و هي بدورها تربط بين الإنسان و أخيه الإنسان، أنها تلدها في صورة القيم الأخلاقية، فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية و العلاقة الدينية معا من الوجة التاريخية على أنها حدث، و من الوجة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد".² و بهذا الأسلوب يسخر الدين لحماية الحياة الأخلاقية في الأمة،

¹ . _____ ، بين الرشاد و التيه. مرجع سابق، ص 14.

² . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 56.

من خلال الحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية. و جميع القوانين التي أملتها السماء أو وضعتها محاولات البشر، هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية، و بدونها لا تستطيع الحياة الإنسانية أن تستمر لا أخلاقيا و لا ماديا¹. و يتصور ابن نبي أن الفعل الحضاري كنتاج و محصلة أساسية لاكتمال هذه الشبكة من العلاقات الاجتماعية. فبدونها يتعذر تحقيق أي فعل حضاري تاريخي. كما انه يعرف المجتمع التاريخي بالرجوع إلى فكرة شبكة العلاقات الاجتماعية. و يرى أن المجتمع ذاته لا يقوم بدوره التاريخي و برسالته الحضارية إلا بوجود هذا العنصر الجوهرية و المكون الأساسي الذي يعتبر بمثابة الصفات الذاتية، و الروح الجوهرية للمجتمع. فشبكة العلاقات الاجتماعية التي يتحدث عنها ليست مجرد أي شبكة تربط أطراف المجتمع و أفراده، و لكنها شبكة نوعية تخلق اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع و تنظّمهم ليواجهوا شروط بناء الحضارة، و القيام بفعل حضاري يسمح لهذه الجماعة البشرية بأداء رسالتها التاريخية، فوجود شبكة العلاقات الاجتماعية، بهذا المعنى وجود نوعي تاريخي لا يكون في كل مراحل تطور المجتمع و حياته، و لكن نوع خاص يولد ميلاد حضارة و بداية الفعل التاريخي. فهذه الشبكة هي التي توجه الجماعة البشرية لتحديد موقعها في الفعل التاريخي المغير و المجدد للحياة و القيم².

فجميع القوانين التي أملتها السماء أو وضعتها محاولات البشر، هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية، و بدونها لا تستطيع الحياة الإنسانية أن تستمر لا أخلاقيا و لا ماديا، و هذه المبادئ الأخلاقية هي التي تؤمّن النشاط المشترك للإنسانية، و الهدف الأساسي لهذه التعاليم هو الدفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع، كيما يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ³. كما أنه يجعل من الدين . و من خلال الأخلاق . مصدر بناء نظام تربوي اجتماعي يحمي شبكة العلاقات الاجتماعية، و يمنحها التماسك اللازم، و يتيح للمجتمع الفرصة للاضطلاع بمهمته الحضارية، حيث يقول في هذا الشأن: " أنه لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، و في سلوك نمودجه الذي يتكون منه، و بعبارة أخرى، لكي يمكن بناء نظام تربوي

1 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 94.

2 . عبد العزيز برغوث، مرجع سابق، ص 214.

3 . _____ ، المرجع السابق، مرجع سابق، ص 88

اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة عن العلاقات و الانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية على مستوى الفرد و في مستوى المجتمع، فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط المجتمع بالإيمان بالله، . و هو يخلق بعمله هذا أيضا . شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، و أن يؤدي نشاطه المشترك، و هو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض".¹

و لما يتحدث عن تغيير السلوك الفردي و الاجتماعي، فإنه يتحدث عن التأثير الناجم عن الدين أو ما يسميه المبدأ الأخلاقي في النفوس و المحيط الثقافي و الاجتماعي بشبكة علاقاته: " و يعتبر التغيير الاجتماعي هنا منوطا بالدفعة الروحية الدينية في نفوس الأفراد، و تأثيراتها الواسعة في المحيط الثقافي و الاجتماعي، و العلاقات المتبادلة بين السلوك الفردي و السلوك الاجتماعي".² و تتبنى الأخلاق هدف الدفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية، كما يتبنى الدين ذلك أيضا، و يقول: " بل أن جميع التقاليد المقدسة التي دانت لها الإنسانية العذراء و جميع المبادئ الأخلاقية التي اتخذتها الإنسانية المتحضرة ليست إلا تطبيقا متنوعا لتعاليم أخلاقية مشتركة . يختلف التطبيق فيها تبعا لتعاقب ظروف التاريخ الإنساني و الهدف الأساسي لهذه التعاليم هو الدفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع ، كما يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ".³ و يضيف أن جميع المبادئ الأخلاقية دينية كانت أو لا دينية، إنما تنتهي إلى هذا الأساس المقدس الذي يرتفق فوقه بناء الإنسانية الأخلاقي، كما إنه هو الذي يؤمن نشاطه المشترك".⁴ و أستطيع القول بأنه يؤمن بجوهرية العمل الأخلاقي المنظم لشبكة العلاقات الاجتماعية" فمن الطبيعي إذن أن تعد القيمة الأخلاقية عنصرا جوهريا في النشاط المشترك، الذي يتم بفضل وجود شبكة العلاقات الاجتماعية".⁵

4 . 6 : علاقة الأخلاق بعالم الأفكار: و يرى ابن نبي أنه لا بد من الوقوف على الصورة الأخلاقية للصراع الفكري، فيقول: " ثم إذا نظرنا في الصراع الفكري، من الزاوية الأخلاقية،

¹ . _____ ، المرجع السابق ، مرجع سابق، ص ص 78 ، 79 .

² . نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 107

³ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق ص 95

⁴ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق ص 95

⁵ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق ص 48

نراه يحتوي على دهاء، مكر، خداع، نهم، شراسة، دناءة، سفالة، نجاسة، خبث، خيانة".¹ و إذا كان الصراع الفكري لونا من ألوان الاستعمار، فإن هذا الصراع قد اعتمد على تحطيم القيم و الأخلاق، و قد تناول هذه المسألة ليؤكد الأهمية الكبرى للقيم و الأخلاق في بناء الإنسان و الحضارة، و لولا هذه الأهمية لما كان القيم هدفا من أهداف الاستعمار من جهة، و لما كانت سببا من أسباب التدهور الأخلاقي الحاصل من جهة أخرى. و من أهداف الاستعمار عزل المجتمع الذي يخضع للون من ألوان الاستعمار، عن رصيده الروحي و الأخلاقي في جانبه الفاضل، هذا العزل من شأنه أن يستبدل قيمه الأصلية بقيم دخيلة، هذه القيم تجنّت كيان المجتمع، و تحطم شبكة علاقاته، و من ثم تهد بنائه المعنوي و الروحي، و لقد قام بكشف الأهداف الخفية للاستعمار في مجال التدمير الأخلاقي للمستعمرات، فراح يعرض ما قام به في مجال تعطيل القيم عن أداء دورها المنوط بها في البناء، فقال: " كيما يُسوّغ الاستعمار استبداده في العالم، لا بد من تعقيم ثلاثة أرباع الأمة لتصبح غير قادرة على الخلق و الإبداع، و هذا التعقيم ليس العملية الوحيدة من نوعها التي ندين بها للاستعمار، بل ندين له بشيء آخر، لقد عمّم أيضا المفاهيم القانونية و القيم الأخلاقية التي قامت عليها . بوصفها قواعد هامة . علاقات الشعوب و الأفراد".² و هكذا أراد الاستعمار أن يقيم في مجتمعات المستعمرات ما سماه مالك (بالعمل الفاسخ للحضارة) و الذي يشكل في نظره " مناسبة ينتصر فيها الظلم على القانون، و الامتياز عن الحق، و الكسل عن العمل، و المادة على الروح، أي أنها مناسبة تنتصر فيها القيم غير الحضارية عن القيم الحضارية، و فيها حركة تتعكس فتصبح سيرا إلى الوراء، و عالم ينقلب فيرفع قدميه و يمشي على رأسه".³ و يضيف ما في هذا المعنى فيقول: " هذا المسخ الذي يعقم مفهوما من المفاهيم و يسلبه كل محتواه الأخلاقي و كل مضمونه الإنساني، هذا الوضع هو الصورة الحقيقية لموقف الاستعمار إزاء مصالح الشعوب المستعمرة المعنوية و المادية".⁴ و يصف الفئة التي تقوم بتعقيم المفاهيم و القيم، بأنهم أبواق الاستعمار و أقلامه، كيف لا و هم يعطلون و يعيقون جهود البناء، أنهم الكُتّاب الذين يصفهم بقوله:

1. _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 198.

2. _____ ، في مهيب المعركة، مرجع سابق، ص 47

3. _____ ، المرجع السابق، ص 35

4. _____ ، في مهيب المعركة، مرجع سابق، ص 50

إن هذا النوع من الحشرات لا ينقطع، مادامت ثقافتنا تفقد المبدأ الأخلاقي، المهيم على سلوك المثقفين".¹ إنه لا يمكن في جميع الحالات انفصال المبدأ الأخلاقي عن الثقافة، و كلما حصل هذا الانفصال، نجح الاستعمار في تحقيق أهدافه البغيضة، لأن ذلك يؤثر في بناء الحضارة على أساس روحي و أخلاقي، و من هنا يتأكد لنا بأن عدم الاستجابة للأهداف الداعية إلى التخلي عن القيم الأخلاقية في عملية بناء الحضارة، هو الطريق الذي يقتضي توظيف القيم الأخلاقية، و مراعاة اعتبار أهميتها، و بالتالي حسن استغلالها ابتداء من أداء الواجبات المختلفة، مهما كانت درجة بساطتها، و من خلال عمل الصراع الفكري فقد تحصل استجابة و تأثر القاعدة الأخلاقية للمجتمع، و تكون النتيجة أن تتعفن الأخلاق و تتدهور، كما قد يحصل حسن استيعاب الصورة الأخلاقية للصراع الفكري، فيحدث الصمود و الثبات الأخلاقي أمام دعوات الانحراف و التسبب. و مالك تناول هذه المسائل من خلال أبحاثه عن الصراع الفكري و تحليله لظاهرة الاستعمار، و لاسيما و هو إبن بلد ضاق مرارة هذا الصراع المرير، الذي قاده الاستعمار الفرنسي ضد الجزائر، و هو يرى أن التعفن الأخلاقي باعتباره أحد نتائج الصراع الفكري يحدث على مستوى الشخصية، لتنتقل عدواه إلى المستوى الفكري حيث يقول: "إن أي تعفن أخلاقي يحدث داخل الدائرة الشخصية، يصل إشعاعه فوراً بصفته تعفننا إلى دائرة الأفكار".² و هذا ما يعني أن الصراع ينطلق من الإصابة على المستوى الفردي، فإذا ما نجح في إفساد أخلاق الفرد، و أحرز تقدماً في ذلك، فهي بداية اتجاه الصراع لتحقيق الإصابة على المستوى الاجتماعي، فيقول في هذا الشأن: "و الواقع أن مجتمعنا أصبح يعاني في قيادته أزمة أخلاقية و فكرية، تجعله لا يتحقق لأفكار و شروط حصانته، و فعاليتها فيه، حتى أنها تكون معرضه للفساد، إما لضعف أخلاقي يحيط بها، و إما لضعف فكري يخلها".³ و هذا التعفن الأخلاقي مهّد الطريق لحصول التدهور الأخلاقي، هذا الأخير مرده إلى جملة أسباب، و من بين أهمها تحقيق الأهداف الاستعمارية، إن الاستعمار يطبق ضمناً هذه الاعتبارات في خطته المقررة ضد كفاح الشعوب المستعمرة، إنه يهدف أولاً للحط من مستوى كفاحهم الإيديولوجي. و ذلك بأن يحاول قبل كل شيء

1. _____ ، المرجع السابق، مرجع سابق، ص 90 .

2. _____ ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص 77

3. _____ ، المرجع السابق، ص 81 .

فصم الوحدة الشاملة التي تضي على ذلك الكفاح القداسة، و تهبه قيمة خلقية عليا.¹ فالنتيجة الحتمية للتخلي عن القيم و الأخلاق بالنسبة للحضارة، هي بداية دخول الحضارة في متاهات خطيرة أهمها: حصول ما يسمى بالتدهور الأخلاقي و الروحي. و حينما تتجرد الحضارة من جانبها الأخلاقي، يهيمن عليها الجانب المادي و يطغى. و بهذا الأسلوب المادي الذي تم تكريسه في الاتجاه نحو بناء الحضارة الراهنة تكون النتيجة الحتمية وهي موت القيم، يقول: لقد مات معنى الفضيلة(المطلقة) من الوجه الذي مات منه مفهوم (العدالة)². وبهذا المسار اتجهت الحضارة الغربية نحو الانحراف الأخلاقي و السلوكي، كنتيجة لانعدام توظيف القيم في مجالها الطبيعي" و هكذا نجد أوروبا النازعة إلى (الكم) و إلى(النسبة)، قد قتلت عددا من المفاهيم الأخلاقية، حين جردتها من أريتها النبيلة، و أحالتها ضروبا من الصلعة، و كلمات منبوذة في اللغة، طريدة من الاستعمال و الضمير"³ و امتد التنصل من القيم و المثل الأخلاقية داخل البلاد الأوروبية، ليكون أمرا ظاهرا حتى داخل مستعمراتها و بهذا " رأينا المستعمر الذي تخلى عن كل وازع أخلاقي، فلم يعد يتحفظ في شيء داخل المستعمرات، يوشك أن يتخلى عن كل وازع داخل بلاده أيضا"⁴ و ينظر إلى مراحل تطور الحضارة من الوجة الفكرية حيث نراه يتتبع دور الأفكار في الحضارة، و يركز على الدور الوظيفي للفكرة الإسلامية و كيف أسهمت في خلق الإرادة و القدرة اللازمتين للتطور الحضاري، فيقول في هذا الشأن: " أن دور الأفكار في حضارة ما لا يقتصر على مجرد الزينة و الزخرفة كزخارف المدفأة في المنزل مثلا، فهو لا يصبح كذلك إلا حينما يصبح المجتمع في عصور ما بعد التحضر. ففي فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي؛ لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة"⁵.

1 . _____ ، المرجع السابق، مرجع سابق، ص42.

2 .. _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص127.

3 .. _____ ، المرجع سابق، ص127

4 . _____ ، المرجع السابق، ص136.

5 .. _____ ، المرجع سابق، ص42

5 . أهمية الأخلاق في بناء الحضارة عند مالك بن نبي:

أولى ابن نبي عناية كبيرة لأهمية الأخلاق في بناء الحضارات القديمة و الحديثة، لما لها من قدرة ربانية على ربط الأرض بالسماء، ففي الوقت الذي تبدأ الفكرة الدينية في بربط الفرد والمجتمع بالله، تبدأ في بناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، و أن يؤدي نشاطه المشترك، فالعلاقات الروحية بين الله و الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، و هذه بدورها تربط ما بين الإنسان و أخيه الإنسان، فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية و العلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنها حدث، و من الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد.¹

و يورد (جوستاف لوبون **Gustave Le Bon**) بشأن القيم و الأخلاق في بناء الحضارة، "بفضل المعتقدات التي تخرب أحيانا و تبعد غالبا، تتأسس دول التاريخ، و دعائم الحضارة الصادقة، و لولا المعتقدات لما عاشت الأمم و ينشأ عن المعتقد القوى يقين لا يزعزعه شيء، و من مثل هذا اليقين تشتق أكثر حوادث التاريخ أهمية".² فالتربية صلة قديمة المسار بين أفراد المجتمع، و تحويل لطاقتهم إلى تآدية وظيفية اجتماعية، مؤسسة على قواعد خلقية سليمة" فالشرط الأول العام لتحقيق مشروع ثقافة هو إذن الصلة بين الأشخاص، فأساس كل ثقافة هو بالضرورة تركيب و تأليف لعالم الأشخاص، و هو تأليف يحدث طبقا لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفينة أخلاقية. إذا فالأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية هي أولى المقومات في الخطة التربوية لأية ثقافة".³

و هناك وجهة آخر للدين و الأخلاق من صلة تاريخية عميقة، كان لها أبعاد الأثر في ذلك التنازع النفسي بين العقيدة الروحية و قواعد السلوك الاجتماعي، و نعني بتلك الصلة بين الدين و الأخلاق تفسيرها الموضوعي، الذي يجعل الفصل بين الضمير الروحي والقيم الخلقية مشكلة من المشاكل الفلسفية الحضارية، ذلك لأن الجانب الروحي من الإنسان يتميز بعنصر الثبات و الاستقرار، و لا يخضع لمؤثرات الزمان و المكان، و على حين يتميز الجانب العقلي من الإنسان بعنصر التحول و التغيير، و يخضع

¹ . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 79.

² . سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، مرجع سابق، ص 73.

³ . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق. ص ص، 60، 61.

لمؤثرات الواقع، و ينفعل بالعوامل المكانية و الزمانية انفعالا يدفع إلى التماس التطور و التجديد". فالحضارة لا تتبع إلا بالعقيدة الدينية، و ينبغي أن نبحت في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، و لعلها ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، و البراهمية نواة الحضارة البراهمية".¹

و الناظر في فكره يلاحظ عنايته بالأخلاق، مركزا على الوظيفة العليا لها في بناء الحضارة على أسس متينة، و قد تناول إبراز أهمية الأخلاق و دورها في بناء الحضارة، فالمقوم الخلقي يربط بالجانب الروحي من الكيان الحضاري، ذلك لأن الوعي الخلقي ظاهرة ذاتية باطنية، لا تستمد وجودها من رقابة خارج النفس أو الذات، لذا يستند الوعي الخلقي إلى الجانب الديني لما في طبيعته من قدرة للرقابة الباطنية على الذات فدوره" منحصر في أنه يقوم (بتركيب) يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة للحضارة، و هذا التشكيل يجعل من (الإنسان) العضوي وحدة اجتماعية، و يجعل من (الوقت) . الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر) وقتا اجتماعيا مقدراً (بساعات عمل)، و من (التراب) . الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط، مجالا مجهزا مكيفاً تكييفاً فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج".²

و قد تتبع أهم النقاط التي شكلت المتغيرات الموضوعية للأخلاق في بناء الحضارة، و من أهمها العناصر التالية:

5 . 1: دور القيم في بناء إنسان الحضارة: يمكننا أن ننظر إلى القيم من الناحية الاجتماعية على أنها الحكم الذي يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة من المبادئ و المعايير التي وضعها المجتمع الذي يعيش فيه، و الذي يحدد المرغوب فيه و المرغوب عنه في السلوك، فيقول كلاكون: " و القيمة تتضمن قانونا أو مقياسا له شيء من الثبات على مر الزمن، أو بعبارة أعم تتضمن دستورا ينظم نسق الأفعال و السلوك ". فالقيمة بهذا المعنى تضع الأفعال و طرق السلوك و أهداف الأعمال على مستوى المقبول و غير المقبول، أو المرغوب فيه و المرغوب عنه، أو المستحسن و المستهجن.³

¹ . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 56.

² . . . _____ وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32.

³ . فوزية ذياب، القيم و العادات الاجتماعية، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر 2003، ص56

و تلعب القيم الدائمة دورا محوريا في توجيه سلوك الفرد مع مقتضيات التنظيم الاجتماعي، باعتبارها قيما على قدر كبير من الاستقرار و القدم راسخة في نفوس الأفراد التي يتناقلها جيل بعد جيل كقيم أكثر التصاقا بالأعراف و العادات و التقاليد الأكثر غورا في ثقافة المجتمع، و التي اكتسبت نوعا من القداسة و الإلزام لأنها ترتبط بالدين و الأخلاق. و بناء الإنسان يتم ببناء القيم فيه، و لا يعني في نظره انقطاع هذا الإنسان عن الحياة الاجتماعية، و إنما يعني التوازن في بناء الشخصية بين ما يجب أن يكون عليه، و بين ما هو عليه تركيبه و طبيعه، أما إذا لم يحصل هذا التوازن، فمعناه أننا فشلنا في بناء الإنسان بناء أخلاقيا يؤهله لصناعة الحضارة. و من هنا اكتسبت قضية بناء الإنسان بهذه الخاصية صعوبة و مشقة، و عُدت لهذا الغرض تحقيق المنطلقات العلمية في مختلف العلوم مسألة ضرورية تهدف إلى التوجيه في عملية بناء الإنسان، من خلال بناء المجتمع على أسس سليمة و في هذا يقول: "إن العلوم الأخلاقية و الاجتماعية و النفسية، تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية، فهذه تعد خطرا في مجتمع مازال الناس يجهلون فيه حقائق أنفسهم، و معرفة إنسان الحضارة و إعدادة، أشق كثيرا من صنع محرك أو ترويض قرد على استخدام رباط العنق".¹

و يفهم من كلامه قياسا على المجتمع الذي كان يقصده و هو العالم الإسلامي و العربي، إن هذه المسألة، أي بناء الإنسان بناء أخلاقيا متكاملا لا تزال بعيدة المنال بحكم عدة اعتبارات أهمها بنظره جهل الإنسان في هذه المجتمعات بحقيقة نفسه، و لا يكون الحكم عاما طبعا، مما جعله يؤكد على علاج هذه الحالة، بضرورة الاتجاه للتمكّن من العلوم الأخلاقية و الاجتماعية و النفسية بهذا التخصيص، لأن هذه العلوم من شأنها أن تقضي على جهل الإنسان نفسه، و يجعله يعرف قدراته الذاتية و يدرك حقيقتها، و بالتالي يتسنى له السير في طريق إعداد هذا الإنسان إعدادا أخلاقيا و اجتماعيا و نفسيا يقوى به على بناء المجتمع بنفس ما بنيت عليه نفسه. و يعتبر أن الإنسان أهم عنصر يعول عليه كثيرا في عملية التغيير الاجتماعي التي تدخل في صلب البناء الحضاري، و ما دام كذلك فلا بد أن تكون القيم الأخلاقية ممتدة من إعدادة و بنائه، و يرى " بأن الذي يرد إلى العالم شبابه لا بد أن يكون إنسانا جديدا قادرا على حمل مسؤوليات ماديا و روحيا،

¹ . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 38.

ممثلا و شاهدا ... و لكن العالم الإسلامي لديه قدر كبير من الشباب الضروري، و الواقع أنه بالرغم من قابليته للاستعمار فقد احتفظ بمعنى جوهرى هو معنى (القيمة الخلقية)، و هو ما ينقص الفكر الحديث الشائخ.¹ و هذه القيمة الخلقية التي بقي العالم الإسلامي محتفظا بها، هي التي يعول عليها في أن ترجع لمجتمع قوته و تماسكه، و من بناء حاضره و مستقبله: " لكن هذا يقتضى . كما أسلفنا . معرفة متعمقة للإنسان و إمكانياته و نقائصه، و تقصيا واعيا للقيم الاجتماعية في الإسلام، فعلم النفس و علم الاجتماع ضروريات إذن للكشف عن القيم الجديدة في النهضة الإسلامية.² و لهذا نجده يتكلم عن بناء الإنسان في سياق بناء المجتمع، و يتناول ذلك في إطار الأخلاق المستوحاة من الدين الذي يدين به و هو الإسلام.

ينظر للإنسان المتكامل كعنصر مهم في الحضارة، و بأنه يجتهد في التوفيق بين قيمه و أخلاقه و مبادئه، و بين حاجاته و مطامحه، من خلالها يبني الإنسان نفسه من وحي الفكرة الدينية التي تغرس فيه قيما قرآنية جديدة، ليحدد دورها و رسالته تماشيا مع تعليمات المثل الأعلى فيقول: " نحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية و توجيهها، و أول ما يصادفنا في هذا السبيل هو أنه يجب تنظيم تعليم (القرآن) تنظيما (يوحي) معه من جديد إلى الضمير المسلم (الحقيقة) القرآنية، كما لو كانت جديدة، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير. و ثاني ما يصادفنا هو أنه يجب تحديد رسالة المسلم الجديدة في العالم. فبهذا يستطيع المسلم منذ البداية أن يحتفظ باستقلاله الأخلاقي حتى و لو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى و مبادئه، كما أنه يستطيع أن يواجهه . على الرغم من فقره أو ثرائه . مسؤولياته مهما يكن قدر الظروف الخارجية الأخلاقية أو المادية".³ و يضيف فيقول بشأن صناعة التاريخ فالتاريخ عنده " يبدأ بالإنسان الذي يطابق دائما بين جهده و بين مثله الأعلى، و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا و شاهدا، و ينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل، بالجزئي المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو أساسا ماديا، فليس أمامه

1. _____ ، المرجع السابق، ص 169 .

2. _____ ، المرجع السابق، ص ص 153.154 .

3. _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 114 .

حينئذ إلا أن يفر إلى صوامع المرابطين أو إلى أي مستقر آخر، و هذا الفرار صورة فردية للتمزق الاجتماعي".¹

1. 1. 5: دور القيم في البناء الحضاري: و يرى ابن نبي لا بد من مراعاة العناصر الآتية، حتى يتم رد الاعتبار للأهمية الأساسية للأخلاق في البناء الحضاري: أولاً: إدماج العنصر الأخلاقي في ثقافة البناء الحضاري.

ثانياً: تنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية بإسناده للقيم و الأخلاق.

ثالثاً: السعي لإيجاد إطار أخلاقي للحضارة، من أولوياته الاهتمام بالقيم الأخلاقية و توظيفها. و في ما يلي تفصيل هذه العناصر:

1. 1. 1. 5: العنصر الأخلاقي و دوره في ثقافة البناء الحضاري: فيرى أنه لكي يكون مفيداً للحضارة إدماج و توظيف القيم في عملية البناء الحضاري، و في هذا الشأن يقول: " و الحقيقة الأولى التي تباد إلى أذهاننا، هي أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين، إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبط بهذا الأسلوب و إذا دققنا النظر في هذا العنصر فإننا نرى أنه لا بد أن يكون خلقياً".² كما يرى أن الرصيد الثقافي الذي تمتلكه الأمة لا بد أن يجد طريقة إلى العمل و التطبيق، مدفوعة بالإرادة و مكتسبة للفعالية الضرورية، و في هذا يقول: " إلا أن المشكلة بالنسبة إلينا تمثل قضية ذات نسق عملي، فنحن نزيد اكتساب الفعالية الضرورية لنا و التخلص من وجوه عدم فعاليتنا الحالية، والمشكلة تطرح علينا تحت المظهر الإيجابي و المظهر السلبي معا حيث يتعين علينا أن نكون رصيدنا الثقافي الفعال و نصفى راسبنا السلبي".³

و لهذا فإن فعالية القيم، إضافة إلى ضرورة التسليم بمبدأ توظيفها و إدماجها . لأهميتها في البناء الحضاري . يشكل بداية الحل لمشكلة الحضارة. و في التاريخ عبرة و عظة من خلال قوله: " فقد أسست الشعوب السامية ثقافتها على احترام القاعدة المتبعة، أي على القيم الأخلاقية، أما الشعوب الآرية فقد أقامت حضارتها على القيم الجمالية"⁴. و يضرب مثالا حيا على إدماج العمل كقيمة أخلاقية في بناء المجتمع، فيرى أنه: " إذا كان

1. _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 32.33 .

2. _____ ، تأملات، ط1، مرجع سابق، ص 148 .

3. _____ ، المرجع السابق، ص 72

4. _____ ، المرجع سابق، ص 85

العمل قيمة أخلاقية عليا، فإن القيام به واجب مقترن بتعليه الأخلاقي و الاجتماعي، كما يجب أن يتخذ شكلا معينا، و أن يكون ملبيا لبعض المقاييس الجمالية المعينة، و هذا يمثل شرطا من شروط فعاليته".¹ و بهذا المعنى فإنه يرى أنه لا يكفي إدماج القيم في البناء الحضاري، بل ينبغي أن نحسن استغلال الرصيد الأخلاقي في هذا البناء، وذلك من خلال ترسيخ ثقافة الواجب و التأكيد على أهميته في بناء الحضارة.

5. 1. 1. 2: دور شبكة العلاقات الاجتماعية في تفعيل القيم الأخلاقية الحضارية: يرى

مالك أن توظيف القيم الأخلاقية هو المقياس الأساسي لتنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع، هذا التنظيم مهم مراعاته في بناء الحضارة: "و لو أننا اتخذنا الآن هذا المبدأ أساسا... فسوف نجد مثلا أن العلاقات الشخصية لا تقوم في أي مجتمع على غير أساس أخلاقي، و لما كانت عليه شبكة الصلات الثقافية عبارة عن تعبير للعلاقات الشخصية في مستوى معين، فإن هذه الشبكة لا يمكنها أن تتكون دون مبدأ أخلاقي".² و يصل من خلال تحليله هذا إلى النتيجة الآتية و هي حقيقة أساسية ماثلة في شبكة العلاقات الاجتماعية: "فإن شبكة الصلات الثقافية تخنل حتما في بلد ما إذا اخلت فيه المبدأ الأخلاقي. و إن هذه الحقيقة هي وحدها التي تفسر لنا كيف أن فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص".³

و يؤكد أن علم الأخلاق يكون ببناء عالم الأشخاص، و لا يمكن تصور هذا البناء دون مراعاة العلاقات التي تربط بين عالم الأشخاص و عالم الأشياء و عالم الأفكار. و لذلك نجده يقرر بأن وظيفة الأخلاق في بناء الحضارة لا يخفي أمر ضرورتها على كل ذي بال ذلك أن: " المبدأ الأخلاقي يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء، و لا عالم المفاهيم. و من هنا كانت أهميته الكبرى في تحديد الثقافة في مجتمع ما ".⁴ و منه فإن أي إلغاء أو إنقاص من دون المبدأ الأخلاقي في بناء الحضارة من شأنه أن يحلل شبكة العلاقات، و هو أمر غير ممكن ذلك لأن: "المبدأ الأخلاقي يقر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع و الغايات".⁵ و لا يتعلق الأمر بشبكة

1. _____ ، المرجع سابق، ص 88

2. _____ ، المرجع سابق، ص 148

3. _____ ، المرجع سابق، ص 148

4. _____ ، المرجع سابق، ص 148.

5. _____ ، المرجع سابق، ص 149 .

العلاقات في المجتمع بشبكة الصلات الشخصية أو الاجتماعية فحسب، بل نجده يرى أن الأخلاق تتدخل حتى في العلاقات الدولية و تسهر على تنظيمها. " فالعلم إذا تجرد من الأخلاق، فإنه حتما يجر إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق، سواء كان ذلك في الإطار الوطني أو في الإطار الدولي" و من خلال طرح مالك للقيم التي تحكم شبكة العلاقات في المجتمع و تنظيمها، فإنه يسعى بذلك لجعل الأخلاق إطارا للحضارة.

يثير ابن نبي مسألة في غاية الأهمية بالنسبة للحضارة، و تتمثل في جعل الأخلاق إطارا عاما للحضارة. فحينما يتناول مفهوم الحضارة . و قد أشرنا إلى ذلك . فإنه يضيف للمظهر المادي لحضارة مظهرا معنويا و روحيا، و عماد هذا المظهر هو القيم و الأخلاق، و لما يتحدث عن هذا المظهر فإنه يسميه (إطارا)، و هو يرى بأنه لا بد من وضع إطار أخلاقي تتكون فيه الدول و المجتمعات، و من أولويات هذا الإطار توظيف القيم الأخلاقية العليا في بناء الحضارة، " أما الإطار الروحي فهو يتمثل في نهضة روحية"¹ و من شأن هذا الإطار أن ينقص من مشاكل التخلف، و يضرب لذلك مثلا بقوله: " فقد توصلت اليابان إلى الإنفاص من جميع مشاكل التخلف بفعل تنظيم معين للمجتمع على قواعد أخلاقية "².

5 . 2: معالجة الباثولوجيا الاجتماعية: دعا إلى بناء القيم في الإنسان و إعداده في لتحمل مسؤولياته في البناء الاجتماعي و الحضاري، كما يستجلي أسباب المرض الاجتماعي الذي أصاب حياة الإنسان و تراه يحلل هذه الأسباب و يركز في تحليله لها على أهمية العنصر الأخلاقي في إمكانية تجاوز هذا المرض، و من ثم ضرورة الاعتماد على توظيف القيم و الأخلاق في حياتنا الفردية و الجماعية.

5 . 2 . 1: اليقظة: و تتعلق بالضمير الذي هو مسألة أخلاقية يجب أن يستشعر حجم المشكلة الأخلاقية، وهذا ضروري في بناء الحضارة و حفظ بقائها، و عدم إحساسه و غفلته من شأنه أن يعجل السقوط و الانحطاط للمجتمع ككل و عندما تخبو تلك الحساسية الأخلاقية و الجمالية فإن مقدار فنائها يدل على مقدار عدم تماسك عالك الأفكار و على انحطاط اجتماعي بصفة عامة.³ و لا بُد برأيه من يقظة الضمير في عملية البناء الحضاري، إن سباته و عدم يقظته مؤثر سلبي مباشر في حياة الفرد و المجتمع،

¹ . _____ ، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 162

² . _____ ، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 53

³ . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 53 .

هذا التأثير يضر الحضارة أكثر مما ينفعها، و في هذا يقول: "و ربما من الضروري على الأقل أن تقوم ألوان النشاط الدالة على يقظة الضمير الإسلامي في مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية على أساس دراسة علمية للعوامل السلبية، و أسباب العطل الضارب بطنبه في حياتنا".¹

و لقد عُدَّ الضمير سببا دافعا لأن يكون لعمل الإنسان معنى تاريخي و حضاري، و من ثم لا ينبغي التقاعس عن حمايته من الغفلة و السبات، و يؤكد هذا بقوله: "فإن ضميره . يقصد الإنسان . هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخا و أخلاقيا ".² كما يضرب أمثلة عن عمل الضمير من الناحية الأخلاقية، و منها على الخصوص مثال التجانس بين عمل الدولة و عمل الفرد، في إطار التعاون باعتباره خلق يساهم و يؤثر في واقع المجتمع، و في هذا الصدد يقول: "إن التعاون بين الدولة و الفرد على الصعيد الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي هو العامل الرئيسي في تكوين سياسة تؤثر حقيقة في واقع الوطن".³ هذا التعاون من شأنه أن يحقق التجانس المطلوب بين الأفراد و بين عمل الدولة: "و لا يفوتنا أن نضيف هنا أن التجانس بين عمل الدولة و عمل الفرد في نطاق التعاون الذي أشرنا إليه، يتحقق في ضمير الفرد، و يجعل هذا الضمير في نطاق التعاون الذي أشرنا إليه، يتحقق في ضمير الفرد، و يجعل هذا الضمير موضوعا من ناحية، و حكما من ناحية أخرى".⁴

و يفهم من كلامه عن الضمير أهميته في بناء الأخلاق، و أهميته في بناء الحضارة أيضا، فإن كان الضمير يقظا فإن أسباب العطل في الحياة تنقلص و تتضاءل أمام قدراته على تحقيق الانضباط في السلوك، و إذا كان غير ذلك فينبغي البحث بجد في دواعي و بواعث يقظته إذا ما أردنا بناء حاضرننا على أساس قوي و متماسك، و لكي يكون مفيدا للحضارة إدماج و توظيف القيم في عملية بنائها " ذلك لأن الحاجة لا تكون فعالة خلاقة إلا حين يمنحه الضمير من روحه ما يحيلها عملا ملزما، و هذا العمل الملزم هو الذي

1. _____ ، المرجع السابق، ص 38 .

2. _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 70 .

3. _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 82

4. كمال بن قوية، مرجع سابق. ص 120.

يُسَيَّر للمجتمع الإسلامي أن تحيل أفكاره و حاجاته إلى منتجات حضارة".¹ و بهذه الصيغة كانت رؤيته لصناعة التاريخ من خلال يقظة الضمير و بعث عمله الأخلاقي.

5 . 2 . 2 : الخط بين الحقوق و الواجبات: و يتجلى هذا الخط بين مجال الحقوق و مجال الواجبات في كونه السبب المباشر في الفوضى التي تشهدها الحياة، و هذا الخط مؤداه عدم التمييز بين ما هو حق و ما هو واجب. و تكمن أهمية الأخلاق في هذا من خلال تزويدنا بالقدرة على التمييز بينهما، بالاتجاه إلى أداء الواجبات و لو على حساب الحقوق، و في هذا المعنى يقول: " و من الجميل حقا أن يحصل المرء على (حقوقه) التي يطالب بها، و لكن من المؤسف حقا أن نقلب نظام القيم فنقدم (الحقوق) على (الواجبات)، فذلك يزيد نسبة التخطيط و القلق و الفوضى في حياتنا".²

و يرى أن صناعة التاريخ أو بناء الحضارة مرهون بدرجة مراعاة المبادئ و القيم الدافعة في البناء فيقول: " و ليس يكفي مجتمعا لكي يصنع تاريخه أن تكون له حاجات بل ينبغي أن تكون له مبادئ و وسائل تساعد على الخلق و الإبداع، و من هنا كان الربط بين أخذ الحقوق و القيام بالواجبات أمرا حتميا حتى يتم بناء الحضارة وفق نظام التمييز بين ما هو حق و ما هو واجب، فلسنا إذا بحاجة إلى نظرية تهتم (بالحق) على حده، أو (بالواجب) على حده، فإن الواقع الاجتماعي لا يفصلها، بل يقرنها و يربط بينها في صورة منطقية أساسية هي التي تسير ركب التاريخ".³ إن هذا الخط بين الحق و الواجب، لا يكون على أساس التساوي بين كل منهما حسب رأيه، بل لا بد من أن يكون الواجب دوما متفوقا على الحق. ذلك أن عملية بناء الحضارة لا تحتاج إلى الأخذ بقدر ما تحتاج إلى البذل و العطاء. و يبين ذلك فيقول: " و مع ذلك فينبغي إلّا يغيب عن نظرنا أن (الواجب) يجب أن يتفوق على (الحق) في كل تطور صاعد. إذ يتحتم أن يكون لدينا محصول وافر أو بلغة الاقتصاد السياسي (فائض القيمة) هذا (الواجب الفائض) هو إمارة التقدم الخلقي و المادي في كل مجتمع يشق طريقه إلى المجد".⁴ كما نجده يحدد عمل الواجب و يبين الفرق بينه و بين عمل الحق، و أهمية ذلك كله في بناء الحضارة فيقول: " إن التاريخ

1. _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 117 .

2. _____ ، المرجع السابق، ص ص 141.142.

3. _____ ، المرجع سابق، ص 142 .

4. _____ ، المرجع السابق، ص 143.

لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة، الواجبات الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعقده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء و شعارات كاذبة ، يعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبيرة".¹ ويضرب مثالا حيا عن عمل واجب من الواجبات، و أهميته من الناحية التاريخية الحضارية، فنراه يدعو توظيف الواجب المرتبط بالكتابة و التأليف مبديا آثاره و انعكاساته الممتدة للجميع: " إن على من يكتب واجبا إزاء الكلمات التي يكتبها، يجب أن يتبعها خارج مكتبه في معركة الحياة، و الصراع الفكري أن يتبع عملها في المجتمع".² و هذه الكتابة هي التي ينشأ عنها واجب آخر له علاقة مباشرة بتغيير السلوك، و يضيف: " و من هنا ينشأ واجب آخر لمن يكتب، هو أن تكون له فكرة صحيحة بقدر الإمكان عن شخصية القارئ، الذي يقوم بدور رئيسي في تقرير الأفكار الاجتماعية، لأنه العامل المحول الذي يحول فكرة فيصيرها واقعا محسوسا في سلوكه، أو سيء ملموسا في محيطه"³ و بهذا المنطق يكون الواجب و الحق بحاجة إلى فقه و إدراك لتأثيره المباشر على فكرة التقدم في المجتمع و تحقيق التنمية له.

5 . 2 . 3 : الفجوة بين العلم و الضمير: إن الفصل بين العلم و الدين، و الفصل بين العلم و الأخلاق، و بين الأخلاق و الدين، و الأخذ بالفلسفة العلمانية و اللادينية الفلسفية التي تدعي بأن " الله قد مات" و تدعو للابتعاد عن الدين و نسيان الله هي العامل الرئيسي في هذه الفوضى في القيم الأخلاقية في عالم اليوم... و لكن سيطرة الغرب على المسلمين عن طريق الاستعمار، ثم تقليد الغرب في فلسفته و أخلاقه الصالح منها و الطالح و النافع و الضار جعل العديد من المثقفين المسلمين كريشة في مهب الريح.⁴

من الأسباب الداعية إلى ضعف الأداء الحضاري، حصول فجوة بين العلم و الضمير، هذا السبب يبرر مدى الحاجة إلى الأخلاق لتضييق هذه الفجوة و جعل العلم يتكامل مع الضمير لا يتصارع معه، و يتجهان معا لبناء الحضارة. و يعزو سبب الانفصال الذي

1 . _____ ، في مهب المعركة ، مرجع سابق، ص 88 .

2 . _____ ، المرجع السابق، ص 153 .

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 153 .

4 . محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص124

حدث في العالم الإسلامي، إلى عدم توظيف القيم توظيفاً متناسباً مع الحركة التي شهدتها العلم، و يقول: " هذا التخلف بين الضمير و العلم، كان هو السبب المباشر في الانفصال الذي حدث في العالم الإسلامي".¹ و يبين الطريق إلى حل المشكلة العويصة بحركة واعية على مستوى الضمير معززا بالقيم من أجل تدارك التخلف الملحوظ: " فإن صح هذا أن الانحطاط منحصر بين هذين الطرفين من بعد . يقصد الضمير و العلم . و هو صحيح ، فإن النهضة تكون فيما يبذله العالم الإسلامي من جهد في الميدان النفسي. هي حركة ضميره ليتدارك تخلفه عن الفكر القرآني و عن ركب الفكر العلمي الحديث".² و بهذا التفسير يكون الضمير في العالم الإسلامي بعيداً عن روح الدين الإسلامي ممثلاً في هدي القرآن الكريم. و بعيداً عن روح العصر ممثلاً في ركب الحضارة الراهنة. و هو في ذلك في حالة عدم يقظة، و في سبات، و هو ما يستوجب إعادة بعثه من جديد. و هذا الحل يطرحه على مستوى العالم الإسلامي، أما على مستوى أوربا بحضارتها فنجده يقول: "ونستطيع أن نلاحظ أن الحركة ذاتها في تاريخ أوربا، حيث يفسر البعد بين العلم و الضمي، ما شاع فيها من فوضى، بوصفها نهاية محتومة لما أصابها من انفصالات متتابعة، حدث الانفصال الأول في مجال أخلاقها باسم الإصلاح".³

و هكذا فحالة اتساع الفجوة بين العلم و الضمير، هي حالة مرضية مهيمنة على الحياة، سواء في العالم الإسلامي أو في أوروبا، و لو كانت الفجوة بين العلم و الضمير تمتاز بالضيق و السطحية، لكان أمر علاجها ميسوراً ، لكن الفجوة كانت كبيرة مما جعل أمر علاجها يتطلب جهوداً مضنية، و في هذا يقول: " لو كانت الفجوة بين هذا العلم الذي قلب الأوضاع و بين الضمير التقليدي الناكص تزداد اتساعاً و عمقا، كلما جد جديد، أو حدث اكتشاف في ميدان العلوم، و غرق ذلك الضمير الذي طأطأ رأسه منذ نهاية القرن الثامن عشر أمام إله العلم، فغمره فيضان حقيقي في بداية القرن العشرين".⁴

و اهتمام ابن نبي بمسألة الفجوة بين العلم و الضمير إن كان له دلالة فإنه يدل على مدى اهتمامه بقضية الأخلاق في بناء الحضارة، هذا الاهتمام تجسده دعوته للقضاء

1. _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 124.

2. _____ ، المرجع السابق، ص 125.

3. _____ ، المرجع السابق، ص 125.

4. _____ ، المرجع سابق، ص 127.

على الفجوة القائمة بين العلم و الضمير، و ثم إشراك الضمير بعودته و يقظته، مع العلم في بناء الحضارة. حتى تعود للأخلاق رسالتها في بعث هذه الحضارة، و حمايتها من مخاطر و الانحراف و التمزق.

استخلاصات:

إن مفهوم التربية الأخلاقية في المنظومة الفكرية عند مالك بن نبي هي أرحب مفهوماً وأكثر اتساعاً مما جاء في كتابات مفكري الغرب و فلاسفتهم، حيث أن الأخلاق يدخل في إطارها كل العلاقات و التفاعلات الإنسانية، حتى في علاقة الإنسان ببقية المخلوقات الأخرى كالحيوان و النبات، و السلوك الأخلاقي في نظر الإسلام هو كل سلوك خير يقوم به الإنسان بإرادة خيرة و لغاية خيرة، و الإنسان الأخلاقي هو الإنسان الخير في حياته الظاهرة و الباطنة، لنفسه و لغيره على حدّ السواء، كما أن المبادئ الأخلاقية التي جاء بها الإسلام و التي ينظم بها الحياة الأخلاقية تشمل شتى السلوك الإنسان، لحياته الخاصة و لحياته مع غيره معاً، تلك المبادئ الأخلاقية التي تحمل قيماً مختلفة، فنجد هناك قيماً اجتماعية و علمية و إنسانية و سياسية و اقتصادية و ما إلى ذلك. تلك القيم ليست نسبية، و إنما هي ثابتة لا تتغير.

و من جملة النتائج التي وصلنا إليها نذكر:

1. إن مساهمة الأخلاق فعلياً في بناء الإنسان، وإعداده للقيام بمهامه الحضارية، يعد خطوة في الاتجاه الصحيح. إذ تناول مالك بن نبي فكرة الأخلاق في إطار الدين أو ما يسميه " الفكرة الدينية " و دورها في الحضارة، فهو ينظر إلى الأخلاق لا من الناحية الفكرية النظرية الفلسفية، بقدر ما ينظر إليها من الناحية العملية الوظيفية. و يعتبر الدين من القوى التربوية الرئيسية في المجتمع، فهو المقنن الأول للقيم، و للمعايير الأخلاقية في المجتمع، و من هذه الزاوية يعتبر الدين مصدراً هاماً و مورداً رئيسياً للمحتوى التربوي و الأخلاقي الذي تنشئ المجتمعات عليها أبنائها، و لذلك فإن جانباً هاماً من جوانب الفكر التربوي و ركناً أساسياً من أركان الممارسات التربوية يكون مصدرها الدين في المجتمع.

2. الارتباط الوثيق بين التنمية و الحضارة، فالتنمية كما يراها مالك بن نبي هي متطابقة مع فكرة الحضارة، ذلك أن النمو حضارة و التخلف انحطاط. و الحضارة في جوهرها عند مالك بن نبي: " هي مجموعة الشروط المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم كل فرد، في كل طور من أطوار وجوده، من الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه " أي أن التنمية عند مالك بن نبي تأخذ الثقافة كمحتوى و كوعاء لها لكي تضمن المشاركة الاجتماعية الكلية لها.

3 . وجود علاقة و صلة قوية بين الأخلاق و الحضارة، كان لا بد من توظيف القيم و الأخلاق في بناء الحضارة و اعتبارها عاملا جوهريا يسهم في بقائها و نمائها. فإن وراء كل تقدّم و مدنية قيم أخلاقية و روحية من شأنها أن تشدّ قوام هذا التقدم و تجعله متماسكا وتحفظه من الزيغ و الانحراف. فالأخلاق عنده هي سلوك يتفاعل فيه الضمير و الفكر و العاطفة و الإرادة و التنفيذ و العادة، فكل هذه تتحد فتكوّن وحدة سلوكية أخلاقية نعيشها في واقع الحياة اليومية، و طبيعة اختيارات الأفراد و الأمم لأنماط السلوك هي ما تكون القيم لتلك الأفراد و الأمم. و هي ما تعطي كل أمة طابعها الأخلاقي الخاص بها، الطابع الذي يميزها عن غيرها من الأمم.

4. فقد أبرز تدخل الأخلاق حيث وظيفتها في المجتمع ، كونها تعين الحضارة على أداء وظيفتها أداء كاملا، و تجلت في جانب ما سمّاه بالعوامل المعنوية في مقابل العوامل المادية، و كما تجلت الأخلاق في كونها ضمنت ما يسمى بالشروط الأخلاقية التي تتيح للمجتمع فرص التطور و النمو ، بالإضافة إلى ذلك يرى أنه لولا تدخل العنصر الأخلاقي في تكوين معنى الحضارة، لأصبح معنى الحضارة مجردا من كل العوامل المعنوية و مقتصرًا على العوامل المادية ، و هو ما يخل إخلالا واضحا بالمعنى الحقيقي للحضارة . و تؤثر الأخلاق في السياسة و الاقتصاد و المجتمع. و دعا إلى أخلاق الحياة الاجتماعية عموما.

5 . يرى أن توظيف القيم الأخلاقية هو المقياس الأساسي لتنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع، هذا التنظيم مهم مراعاته في بناء الحضارة، و يؤكد أن علم الأخلاق يكون بيناء عالم الأشخاص، و لا يمكن تصور هذا البناء دون مراعاة العلاقات التي تربط بين عالم الأشخاص و عالم الأشياء و عالم الأفكار.

الفصل الثامن

البعد التربوي للمشروع التنموي عند مالك بن نبي

المحتويات:

تمهيد

1. أسباب التخلف في فكر مالك بن نبي.
2. مظاهر التخلف.
3. مقومات النهوض التنموي.
4. ركائز التنمية عند مالك بن نبي.
5. رهانات التنمية.

استخلاصات

تمهيد

يجمع أغلب المنظرين في علم الاجتماع و الاقتصاد على أن التنمية هي عملية تغيير موجهة و معقدة و شاملة تضم كافة جوانب الحياة الاقتصادية و السياسية و الثقافية و الاجتماعية و الإيديولوجية، وتستهدف إحداث تغييرات بنائية و وظيفية في المجتمع، و سعيًا لتحقيق أكبر قدر من الرفاهية للإنسان. فقد أفلحت في استقطاب اهتمام المفكرين و العلماء و الفلاسفة منذ عصور قديمة لدراستها و تحليلها بهدف الكشف عن آليات التغيير و أساليب التنمية . و كانت هاته التصورات رؤى و وجهات نظر شخصية لتناول مشكل التنمية و معرفة مداخلها العلمية والمنهجية بغية استثمارها في واقع المجتمعات مواصلة لعملية التقدم و التطور أو استنهاضًا للواقع المتخلف.

و نحاول في هذه الدراسة أن نقدم وجهة نظر أحد مفكري العالم العربي و الإسلامي الذي حُضي فكره بالدراسة في كافة جوانبه، إلا أن الجانب التنموي منه بقي مجهولاً لدى الدارسين على مستوى التخصيص و التدقيق، نقصد بذلك المفكر " مالك بن نبي " الذي عالج مشكلة العالم العربي و الإسلامي في إطار (مشكلات الحضارة) انطلاقاً من تشخيص فكرة التخلف و ربطها بالاستعمار، وصولاً إلى بناء الحضارة متأصلة في مرجعياتها، وأسسها، ومكتسبة لمناعة ضد التغريب أو المسخ، ومنبثقة عن محفز ديني يتوافق والطموحات الاجتماعية والمساعي ذات الأبعاد الإنسانية في صياغها الحضاري الناشئ والمنتظر، هي مشهد آخر مختلف، و متألق ذو خاصية إسلامية مطبوعة ومنتقحة على حضارات أخرى في نطاق التبادل الإيجابي دون الانصهار فيها، أو محاولة تقليدها، والانسلاخ عن هويتنا، ومرجعياتنا.

1 . أسباب التخلف في فكر مالك بن نبي:

تحاول طائفة من الباحثين معالجة قضايا التنمية و التخلف من المنظور الاقتصادي الخالص، من خلال تحديد متغيرات التطور و التقدم في الدول المتقدمة، لكن المقاربة التي قدّمها المفكر (مالك بن نبي) في هذا الموضوع أضافت إلى الطرح التي قدّمته نظرية التنمية في العالم المتقدم التي ركّزت على الجانب المالي إلى دراسة و تحليل الإنسان نفسه، و قد أرجع ابن نبي أسباب التخلف إلى العوامل التالية :

1 . 1: القابلية للاستعمار: أشار إلى مفهوم " القابلية للاستعمار " كمفهوم تحليلي لواقع المسلمين ما بعد الموحدين عموماً و ذلك بسبب التخلف الذي عمّ في بلاد. فقد استكان المجتمع إلى الراحة و الدعة، و لا ترجع هذه الحالة الانهزامية إلى الاستعمار بل هناك كما يقول: " معامل آخر ينبعث من داخل الفرد، الذي يقبل على نفسه تلك الصبغة، و السير في تلك الحدود الضيقة التي رسمها الاستعمار و حدّد له فيها حركاته و أفكاره و حياته " و يضيف في معرض تحليله أن انحطاط الأمة منذ عهد الموحّدين هو الذي أدّى إلى بـ "القابلية للاستعمار، ليس من شك بأن تلك الأفعال الاستعمارية من اقتلاع و تدمير و تغيير و تغريب كانت لها الآثار السلبية والتخريبية على المجتمع والإنسان الجزائريين في مختلف الأبعاد الأخلاقية و النفسية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية... الخ

1 . 2 . عدم الفعالية: وكان من نتائج هذا الانقسام الأخلاقي،¹ أن المسلم يحمل أفكاراً صحيحة و لكنه لا يستطيع تطبيقها في دنيا الواقع، بفعل الخمول لأن البيئة التي تحيط به و تغذيه بثقافتها أصبح مثلها الأعلى هو الزهد والصوفية، ولا يتمثلون بعمر بن الخطاب أو بعبد الله بن المبارك أو الإمام مالك، (و المسلم في هذه الحالة إنما يغالط نفسه، فيهرب إلى هذه التعليقات الصوفية الكاذبة . وفي المقابل، نجد عند الغربيين أفكاراً قد لا تثبت أمام النقد الموجه لها ولكنهم² استخدموها إلى أقصى ما يستطيعون، مثل: (فكرة التقدم)، والمسلم يحمل القرآن ولكنه لا يستفيد منه كثيراً في التخطيط لنهضة قادمة، فعقلية ما بعد الموحدين تشله عن الإبداع، لأنه لم يكن على المستوى الثقافي الذي يحيط الاختراع بالرعاية، أمثلة على هذا الخل:

1. _____، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 65

2 - _____، المرجع السابق، ص 73

أولاً: زهان السهولة (مرض السهولة): يميل المسلم في تقويمه للأشياء إما للغلو فيها أو للحط من قيمتها، ويتمثل هذا في نوعين من الأمراض: فإما أن الأمور سهلة جداً ولا تحتاج إلى تعب وكد فكر، والحل بسيط وإما أن الأمور مستحيلة وأبرز مثال على مرض (السهولة). وهناك من يظن أنه بخطبة رنانة تحل مشاكل المسلمين،¹ و بعضهم يكره أن تدعوه إلى تفكير عميق في موضوع ما من الموضوعات لأنه يؤثر السهولة و يكتفي بتفسير سطحي، وعندما تخطط السياسة طبقاً لمبدأ السهولة فإنها سوف تجتذب إلى تيارها كثيراً من الناس ذوي النوايا الطيبة، الذين يقدرّون الأشياء بناء على سهولة الحاضر لا على صعوبات المستقبل.² أيسر طريق لأصحاب السياسات الانتهازية أن يستخدموا كلمات مثل: الاستعمار والإمبريالية والوطنية؛ للتغريب بالشعوب، هذه الكلمات التي " تليق جداً لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه نحو السهولة ميسوراً جداً".³

ثانياً - زهان الاستحالة (مرض الاستحالة): وقد يحدث العكس، فيرى المسلم أن الأمور مستحيلة و يقف أمامها عاجزاً، وهي في الحقيقة غير مستحيلة ولكن ربما يضخمها عمداً حتى لا يتعب نفسه في الحل، أو أنه يشعر بضالة نفسه وصغر همته فيحكم عليها بالاستحالة، وقد مرت فترة كانت بعض الشعوب تنظر إلى صعوبة إخراج المستعمر من بلادها.⁴ وقد تجد اليوم بعض المسلمين الذين ينتظرون (معجزة الرجل الوحيد) كأن يأتي صلاح الدين آخر ليوحد المسلمين من جديد، ويعتقدون استحالة أية محاولة لاستئناف حياة إسلامية.

1 . 3: عدم توازن آليات التبادل التجاري: تعمل الدول الرأسمالية على استغلال الدول المتخلفة من خلال ربط اقتصاد الثانية بالأولى، حيث تحاول الإمبريالية و الطبقات الحاكمة المحافظة على اقتصاديات بلدان العالم الثالث، و استمرارية الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية الراهنة في البلدان النامية. و ذلك حتى تبقى هذه الدول مستمرة في القيام بدورها كمنتج للمواد الخام اللازمة للصناعات الغربية، كما تعترض الدول المتقدمة

3 . _____ ، آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص 23.

2 . _____ ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص 27.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص 27.

4 . _____ ، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 80.

أن تتحول الدول النامية إلى مصنعة و تنمية نفسها ذاتيا، لأن ذلك يقلل اعتماد الدول النامية على الدول المتقدمة في تصريف المواد الخام التي تنتجها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يؤدي إلى تقلص دور البلدان النامية كسوق لتصريف المنتجات الأجنبية. و في ذلك يقول مالك بن نبي: " فمثلا ليس هناك أي سبب ظاهر لأن يكون سعر الحلفا الجزائرية أقل ثلاثين أو أكثر من سعر منتجاتها _ عجينة السليلوز و الورق _ المصنوعة في انكلترا ".¹

1 . 4: الميل إلى التكديس: يعترى الإنسان العاجز مرض نفسي يتمثل في التكديس، ذلك أن إنسان الكتلة يعتقد أن المخرج من الأزمة الممتدة في ضميره تكمن في نقص الأشياء، لذا لجأ إلى تكديس أغلب الأشياء، والذي هو ظاهرة عامة في العالم الإسلامي، فكم من ورشة ومؤسسة تعمل على جلب الوسائل الحديثة، لكن بدل استغلالها في مشاريع تنموية، تقبع في مستودعات ومخازن، تفقد قيمتها يوما بعد يوم.

ولقد حذر "فرانسيس بيكون (Francis Bacon)" المجتمع البريطاني من داء التجميع والتكديس واعتبره أحد أوهام العقل، وأبرز سمة مرضية في نفسية إنسان العصور الوسطى، ولقد شبه بيكون العملية التكديسية بالتجميع النملي، ذلك أن النمل يعمل على تكديس المواد دون بنائها في حين أن النحل يبني ثم يكس. والتكديس كسلوك مرضي لا يحل المشكل بقدر ما يزيد في عمق التخلف، وتدهور قيمة الإنسان مهما كانت منزلته الاجتماعية.

1 . 5 : الذرية: هي نزوع العقل إلى التجزئة والذرذرة الفكرية، وتصبح المشكلات العامة مجرد أجزاء مفككة، كل جزء قائم بذاته في تصورات العقل، وبالتالي تغدو مجرد أكوام، تفقد صورة التكامل وتبتعد عن منهج التركيب المتآلف. إن الذرية علامة من علامات عجز العقل أو أزمته، والعجز أدق من الأزمة، لأن الأزمة قد تكون حاضرة حتى في مرحلة قوة العقل وشموليته، لكن العجز مرتبط بالانحطاط.

ويذكر مالك بن نبي أن المستشرق الإنجليزي "هاملتون جب" أستاذ بأكسفورد، اتهم العقل الإسلامي بالذرية في كتابه (LES TENDANCES MODERNES DE L'ISLAM) ومالك

¹ . _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص 36 .

لا يوافق جب في جوهرية الذرية في العقل الإسلامي، لأن الذرية حالة من حالات كل عقلي، تتجلى في مرحلة البداوة والبداية التي تصيب الكائن الحضاري وفق مبدأ الحتمية التاريخية. ولم تستطع النهضة تعديل العقل أو إصلاحه، بل العكس تماما وقع العقل الإصلاحي في الذرية، كما نلاحظ ذلك عند محمد عبده ومحاولة الاستنجاد بالعقل الكلامي لفهم قضايا عصرنا. والذرية رغم كونها مجرد عرض إلا أن الفكر الإسلامي لم يستطع التحرر منها، قياسا بالعقل الياباني الذي عدلها في غضون نصف قرن من عمره الحضاري، يقول مالك بن نبي: " فلن يكون هذا العجز سوى عارض خاص بعقل ما بعد الموحدين، ولم تستطع - الاستطاعة عند ابن نبي تكمن في التفعيل - الحركة الحديثة أو حركة الإصلاح تعديل الاستعداد العقلي في هذه الناحية تعديلا جوهريا".

1. 6 : الاغتراب و الانبهار بالغرب: تعمل النظريات الغربية في مجال الفكر التنموي ذات العلاقة بالظاهرة الاستعمارية على تكريس الاغتراب و الانبهار بمنتجاته و فتوحاته الثقافية، فتذهب من خلال نظرية الانتشار الثقافي أن التنمية يمكن أن تحقيقها من خلال العناصر المادية و الثقافية السائدة في الدول المتقدمة إلى الدول النامية. و تنمية القدرة على التقمص العاطفي التي يقترحها " دانييل لرنر Daniel Lerner " تلك القدرة التي تمكنه من اكتساب كل ما هو جديد، كما أن وسائل الاتصال و انتشارها في المجتمع و تعرض الأفراد لها يعد مؤشرا منت مؤشرات التحديث. يرى ابن نبي أنّ كل من دعاة الإصلاح والتحديث اتفقا على تجاهل واقع أمتهم كنقطة انطلاق أساسي لبناء مشروعيهما النهضويين، فعاد دعاة الإصلاح بأفكارهم إلى الماضي للتشبث به والدفاع عنه من دون تمحيص ولا نقد، وتمثل دعاة التحديث مذاهب فكرية غربية لها واقعها الخاص الذي نشأت فيه. وهو ما أدى إلى التلفيق والفوضى أحيانا وإلى اصطدام الجهود أحيين أخرى مما عرقل السير في طريق النهوض.

2 . مظاهر التخلف: و قد حدّد مالك بن نبي مظاهر التخلف التي اتسم بها إنسان ما بعد الموحدين و الانحدار الحضاري إلى مجموعة من الأعراض نذكر منها :

1. 2: غياب عالم الأفكار: حين يصاب المجتمع بحالة التخلف و الركود يكون في ذلك الوقت عالم الأفكار منعدما أو طغيان أفكار دخيلة عن النسق الاجتماعي الأصيل، فلا يستطيع الإنسان القيام بعمل مثمر حين يكون عالم الأفكار لا يساعد على النشاط و الابتكار

و الفاعلية، فيسكن الإنسان في ماضيه بعيدا عن مقارعة الواقع ومناكفته. و يرى مالك بن نبي أن أهمية الأفكار في حياة مجتمع تتجلى في صورتين فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، و إما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة، تجعل النمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا.¹ ذلك أن النشاط الإنساني داخل المجتمع هو انعكاس لعالم الأفكار، و عملية التنمية متوقفة على طبيعة الأفكار التي يحملها الأفراد، فإن يرى أن ما يسود العالم الإسلامي من اختلاط و فوضى في الميادين الفكرية و الخلقية أو في ميادين السياسة، إنما هو نتيجة ذلك الخلط من الأفكار الميتة، تلك البقايا غير المصفاة، من الأفكار المستعارة التي يتعاضم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي و العقلي في أوروبا.²

2 . 2: تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية: و هي حالة تنتج عن سيادة النزعة الفردانية التي عكست معيار القيم، وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها الذي أحدث الاصطدام الداخلي وقضى على العمل التكاملي الجاد وأدى إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية و صرفها فيما لا جدوى منه. و حين ترتخي شبكة العلاقات الاجتماعية في مرحلة الانحطاط الحضاري، و تكون بذلك عرضا من أعراض التخلف الذي يسود المجتمعات المتخلفة و تدوب فيه الأفكار البناءة و الفاعلة.

2 . 3: فوضى الأفكار والتكديس: فالمجتمعات النامية هي التي تحقق الانسجام و التوازن بين عالم الأفكار و الأشياء و الأشخاص، لكن فوضى التكديس والنزعة الذرية والخلط في عالم الأفكار هو ميزة البلدان المتخلفة. والتكديس ظاهرة اجتماعية تظهر في المجتمعات في مراحل تخلفها، لأنها في هذه المرحلة لا تفكر و لا تنظم أعمالها طبقا لأفكار و قوانين، وإنما تكدس الأشياء.³ فالمجتمعات التي دخلت في مراحل التخلف الحضاري، تختل الموازين عندها و تحصل الفوضى، فتسيطر الأشياء على الإنسان، و يرتد المجتمع إلى المرحلة الطفولية، فتستمرئ السهولة و ينزلق الإنسان نحو الشهوات و الأشياء، فيغرق بذلك المجتمع في فوضى الأشياء و الأفكار و التكديس.

1. _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق ص 14.

2. _____ ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 153.

3. _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 166.

2 . 4 : الشيئية: للشيء حضور قوي وسحر في الذات، لتعلقه باللذات والشهوات، وسد الحاجات الملحة، كما يعد عند الشعوب ذات البعد الواحد معيار القوة والحضارة، والسلوك الاجتماعي عندما يطغى عليه الشيء ترى جميع الممارسات تحاول أن تركز عليه كمطلب وقاعدة. وغاية الشيء بكل ما يحمله من أبعاد يعود سلباً أحياناً على الإنسان وخاصة إذا أصبح محور تفاعلات الذات، والإنسان الجاهلي كان غارقاً في عالم الأشياء فتحول سلوكه إلى مادي ولم يخرج نمودجه عن نطاق الشيء (فرس، امرأة، سيف، رمح، الخ). و عندما يفقد الإنسان السيطرة على الشيء يتحول فكره وسلوكه إلى النزعة التشتيتية، يصبح الكم اللغة السائدة والمعيار الناقد. ومثل **جمال الدين الأفغاني** في تصوراتهِ النزعة الشيئية حين انزلق فكره في عالم الأشياء، وأعتقد أن حل المشكلات الحضارية يكمن في الشيء.

وإبن نبي يحاول من خلال إبراز الشيئية كنزعة مرضية أن يلفت الانتباه أن الإنسان ليس كما ولا مادة، بل الإنسان جوهر روحي مادي. إن الإنسان ليس في نظر المسلم (الكم) الذي تجري عليه تجارب المخبر، وعمليات المصنع وحاجات الجيش، فالإنسان ليس (الكم) بل (الصفة).

2 . 5: الحرمان الاجتماعي: للتخلف مظاهر كثيرة و عديدة، و في شقها الاجتماعي نلاحظ ظاهرة الحرمان الاجتماعي و الذي يتمثل في عدم قدرة الفرد على التكيف مع الواقع من جهة، و من جهة أخرى في عدم قدرة المجتمع على توفير الضمانات الاجتماعية للأفراد، و يتقرر على أساس كيفية تلبية الحاجة كل أسلوب الاقتصاد، و إنما طبقاً لطبيعة المال الذي يقضي نظماً خاصة بتوزيع محدود يحدّه الإمكان المالي، أو طبقاً لإرادة حضارية تفرض شبكة توزيع شاملة تشمل السكان كلهم منذ اللحظة الأولى. فإذا تقرر هذا النوع الأخير لتلبية الحاجة، دون إخضاعها لشرط الإمكان المالي، نستطيع مبدئياً رسم شروط الديناميكا الاقتصادية في صورة مسلمتين :

أولاً: لقمة العيش حق لكل فم .

ثانياً: العمل واجب على كل ساعد.

و بالتالي فإن الفرد في المجتمعات المتخلفة ما زال بعيد عن هذه المسلمة، المتأرجحة بين الحق و الواجب في إطاره الاجتماعي ذو البعد الاقتصادي.¹

2 . 6: النزعة السياسية و فئة الانتقاليين وسلوك الاستبداد: إن احتدام الصراع بين مجموع الأفراد والسياسة منذ القدم، ولم يستقم العمل السياسي والممارسة السياسية إلا من خلال الدساتير والمواثيق فقط، لكن عندما يكون الشعب في ذروة الحضارة. ولعل أبرز مؤشر لمعالم الانهيار يكمن في السياسة، أن مشكلة العالم الإسلامي بدأت حين وقع الشرخ في كيان المجتمع من حادثة السقيفة وصفين. إذ بدأت النزعة الاستبدادية تتجذر في أذهان الحكام ونفسياتهم، بل أصبحت الصورة النمطية للعلاقة بين الراعي والرعية يشوبها الغموض. ومجتمع ما بعد الموحدين، مارس ساسته أشنع صور الاستبداد وغلبت المصالح الشخصية القيم الأخلاقية والإنسانية، وغدا المجتمع مذرذرا مفككا، تسوده الطبقية. وإذا ما تعذر هذا العامل، فإن القطيعة المعنوية سوف تعزل الدولة عن المواطن وتشل الطاقات الاجتماعية، أو تشتتها تشتيتا تكون نتائجه: عدم الانسجام وعدم التناغم. وعندما بدأت الشعوب تخرج من نطاق الأمية وتتخطى أوهام العقل رويدا رويدا، بدأت الحرياء السياسية تتلون من جديد بألوان الإغراء والوعد، والشعارات البراقة، خصوصا حين ترفع شعارات خلافة وتصرح بوعود مغرية.

3 . مقومات النهوض التنموي: بعد أن شخّص مالك بن نبي أسباب التخلف و مظاهره التي تمحورت حول طبيعة الإنسان من جهة، عدم التحكم في آليات و متغيرات التنمية الحديثة من جهة أخرى، قدّم مالك بن نبي أسباب النهوض و مقومات المشروع التنموي التي لخصها في النقاط التالية :

3 . 1: الاستثمار الاجتماعي مقابل الاستثمار المالي: و هي خاصية تتميز بها دول العالم الثالث المتخلف التي وجدت أنظمتها نفسها تعيش في بحبوحة من العيش بعد أن شكلت اقتصاد ريعي يعتمد على المال دون الاستثمار في الموارد البشرية التي أصبحت ميزة خاصة في دول المحور الآخر (واشنطن . موسكو) التي تحاول دوما أن تنمي الإنسان و تستثمر فيه، و أكثر من ذلك فهي تحاول أن تستقطب الكفاءات في الدول الأخرى من أجل

¹ . _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص70.

تطوير ذاتها و اقتصادياتها. لأن المال وحده لا يبني الدول بقدر ما يبنيه المجتمع بما يملكه من استعدادات ذهنية و عقلية، و هنا يتبادر الى أذهاننا أمران :

أولاً: إن أمريكا لا تستطيع بإمكانها المالي أن تشتري مدينة نيويورك.

ثانياً: بينما تستطيع بإمكانها الاجتماعي بناء أو إعادة بناء مئات مدن مثل نيويورك.¹

بل أن المثل الأعلى الذي يقدمه مالك بن نبي في هذا المجال هو كيف خرج المجتمع الألماني من نكسة الحرب العالمية الثانية التي دمرت البنية الفوقية للأمة الألمانية، لكن لما كان عالم الأفكار ومصدر ابتعاث القيم فيه مازال ينبض، فإن عملية الإحياء و إعادة الابتعاث في ألمانيا لم يدم طويلاً.²

و اعتمدت الصين على إمكانياتها البشرية في بناء الأمة الصينية، و استفادت من التجارب الفاشلة (تجربة التعدين)، حيث لم تقم بتفتيت التنظيم الاجتماعي السائد فيها منذ الكونفوشيوسية و هو (النمط الزراعي) الشيء الذي جعلها تتقدم بنسب متسارعة في اقتصادها مطبقة في ذلك خطط تنموية تعتمد على الذات وتستثمر في الإنسان الصيني و التراب الصيني و الزمن المتوفر في كل أرض.³

3 . 2 : أخلة عمليتي الإنتاج و التوزيع : انطلق ابن نبي في نقد النظام الرأسمالي من خلال الأساس المذهبي لـ (آدم سميث) القائم على إرادة المال و فتح الباب على مصراعيه للرأسمالية المتوحشة على حساب المصلحة العامة في المجال السياسي و المصالح الخاصة بالمنتجين و المستهلكين، وتفكيك المجتمع و تقسيمه طبقياً باسم الحرية المالية من خلال مبدأ (دعه يعمل دعه يسير). جُبل الإنسان فطرياً على حب السهولة و إتباع المنحدر إذا لم يكن له مدفوعاً الى الأعلى بالقوة الضاغطة، فالمسلم حين دخل المعتزك السياسي لم يكن ليؤسس نظرة إستراتيجية شاملة لما بعد الاستقلال، فقد كان يطالب بحقوقه السياسية دون عمل واجباته الأخلاقية حينما كان يركض وراء استقلال لا تؤيده مقومات السيادة الحقيقية للشعوب. هذا العور و القصور تحدد معالمه الأساسية في الجانب

¹ . _____ ، المرجع السابق، ص74.

² . _____ ، المرجع السابق، ص74.

³ . _____ ، المرجع السابق، ص77.

الثقافي و في الأساس الأخلاقي . فالسياسة التيتبني على أساس المطالبة بالحقوق دون العمل على تمكين المجتمع من القيام بواجباته هو انتحار حقيقي للمجتمع .



شكل يوضح : طبيعة العلاقة بين الأخلاق و الاقتصاد في مجال الاستهلاك و الإنتاج،
المصدر : الباحث .

فيقول مالك في هذا الشأن فلو اصطالحنا على المدلول العام للمفهومين أن " الواجب " هو ما نعطيه مثلا للمجتمع، و أم "الحق" هو ما نأخذ، و أنها يمثلان على محور القيم الجبرية قيمتين مختلفتي العلاقة على طرفي الصفر، لو اصطالحنا على ذلك لجاءت صياغة العلاقة بينهما في صورة معادلة : واجب + حق = 0 .

و كذلك بالنسبة للاستهلاك و الإنتاج: الإنتاج + الاستهلاك = 0

فهذه التجربة الإنسانية يجب أن تعيد للاقتصاد أخلاقياته و تتلافى الانحرافات الإباحية المتمثلة في الرأسمالية و ورطة الماركسية المادية التي سلبت الإنسان ما يميزه عن الآلات و الأشياء.¹ إن هذه المعادلة الرياضية ذات الطابع الثقافي بين الإنتاج والاستهلاك، هي علاقة أخلاقية اقتصادية تدل على حالات يحقق المجتمع إحداها حسب اتجاهه الثقافي.

3 . 3 : الأخذ بالمعادلة الاجتماعية للمجتمع: ركّز مالك بن نبي كثيرا على التفريق بين الإنسان و الفرد، في المثال الذي قدّمه عن الإنسان الألماني و الإنسان الاندونيسي من خلال مشروع (الدكتور شاخت) الذي نجح في المجتمع الأول و فشل في الثاني، ذلك

¹ . عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1984، ص53.

لأن المخطط مستمد أساساً من تراب ألمانيا من جهة، لاستعدادات الشعب الألماني الذهنية والثقافية ومن جهة ثانية. فنجاح الخطة في ألمانيا بسبب الأخذ بالمعادلة الاجتماعية التي تختلف عن غيرها من المعادلات الاجتماعية الأخرى من حيث الزمان والمكان والتراب. فتعثر التجربة الاندونيسية كان بسبب الخطأ في تقدير المعطيات البشرية في المجال الاقتصادي التي حاول فيها (شاخت) أن يسقط التجربة الألمانية على الواقع الاندونيسي، بينما الواقع الإنساني لا يفسر على أساس معادلة و بعد واحدة بل حسب المعادلتين :

أولاً: معادلة اجتماعية: تختلف من مجتمع إلى آخر، و في مجتمع واحد تختلف من عصر إلى آخر حسب الاختلاف في درجة النمو و التخلف.

ثانياً: معادلة بيولوجية : تسوي بين الإنسان و أخيه في كل مكان ليستطيع هذا كل ما يستطيع الآخر، إلا فيما فضل فيه بعض الأفراد عن الآخرين.¹

و كحل لهاته المعضلة يطرح هذه المعادلة الاجتماعية في صيرورة تاريخية ليستنتج أن التجارب الشخصية و استثمار المنجز الإنساني في الحضارات الأخرى هو العامل الوحيد لإنجاح الخطط الاقتصادية. فيرى أن المجتمع الغربي عموماً قد صاغ معادلته الاجتماعية . و مازال . بتدرج الأيام والسنين، بينما المجتمع الصيني فإنه يصنعه اليوم بيده، تحت إشراف إدارة متوترة تحت ظروف قاسية، كما هو الحال في المجتمع الياباني. أما المجتمع الإسلامي فهو في حيرة بين أمرين:

أولاً: إما أن يترك الأيام تصوغ معادلته الاجتماعية أو تعيد صياغتها لتمكينه من مواجهة التحدي الذي يوجهه له عالم اقتصادي غريب عنه، و هذا طريق طويل تعبده تجارب و محن المجتمعات الأخرى.

ثانياً: إما أن تطرح المشكلة صورة منهجية مثلما فعلت اليابان و الصين، أو مثلما فعل (تايلور) و مدرسته في الغرب الذي اكتملت معادلته الاجتماعية في صورة النظرية التاييلورية.²

3 . 4: ضرورة الاكتفاء الذاتي: إن التكتل في إطار محور (طنجة . جاكرتا) ضرورة يملئها المصير المشترك لهاته الدول، فالإكتفاء الذاتي يتحقق في إطار أمة واسعة عربية أو

1 . _____ ، المرجع سابق، ص 91.

2 . _____، المرجع سابق، ص 96.

إسلامية، و هو نفسه الشعور الذي كان تهدف إليه أوروبا من خلال السوق الأوروبية المشتركة أو الإتحاد الأوروبي الذي استمدته من (شارلمان) أو ما يسمى " بالإمبراطورية المقدسة"، أو كما كانت عليه دول أوروبا الشرقية في إتحادها مع الإتحاد السوفياتي سابقا، لكن على المجتمع العربي الإسلامي أن يأخذ في عين الاعتبار ضرورة الاستقلال الفكري عن الغير .مع الأخذ في الحسبان حدود الإمكانيات الفردية لمواجهة الضرورات الداخلية و الخارجية .و الأخذ بالتجارب الأخرى للمجتمعات، فنحن لا نملك شروط (الاقتصاد التكاملي) أي أن نستهلك ما ننتج دون الحاجة الى الغير كما هو الحال في أمريكا و الصين و روسيا بدرجة أقل، فمالك يرى أنه من الواجب تنظيم حياتنا الاقتصادية، على شروط تحقيق حلقة اقتصادية كاملة داخل حدودها، متخذة أساسا شروطا الاستثمار الاجتماعي التي قدمناها في صورة مسلمتين ربما يكون تطبيقهما في حدود الوطن الواحد، على درجة الصعوبة، و لكنها تتخفف بمقدار ما تتسع رقعة التطبيق.

3 . 5: بناء شبكة العلاقات الاجتماعية: تعرّف بأنها: مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية التي توفر الصلات الضرورية داخل العوالم الثلاث: الأشخاص والأفكار و الأشياء.¹

و يعد بناء شبكة العلاقات الاجتماعية أول عمل تاريخي يقوم به مجتمع، إذ أن ميلاده مرهون باكتمال و تلاحم هاته الشبكة داخل النسق الاجتماعي في إطارها الاقتصادي و السياسي و الثقافي. و تخضع فاعلية الأفكار في أي مجتمع . لشبكة العلاقات الاجتماعية، فكما كانت أكثر متانة بين الأفراد، كان العمل فعالا مؤثرا.²

و يستنتج مالك بن نبي فاعلية النشاط المشترك بين الأشخاص في المجتمع، و العلاقة بين هذه الشبكة و بين المجتمع " فإذا ما تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كما و كيفا في شبكة علاقاته الاجتماعية في صورة توتر أو ارتخاء في التوت، أو في تفكك الشبكة نهائيا عند مرحلة أفول المجتمع.³ و يعد تشكيل هذه العلاقة أول عمل يؤديه المجتمع من أجل قيام بمشروع تنمية أصيل تكون فيه طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع

1 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص27.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص38.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص42.

اللبنة الأولى في الاستئناف الحضاري، و لهذا يخلق الدين الإسلامي نظاما اجتماعيا يصير فيه الفرد الى أفراد كثيرين، و تعد شبكة العلاقات الاجتماعية الأداة الجامعة لكل الطاقات الحية في المجتمع، و يتجلى هذا التماسك في صورة نشاط مشترك يقوم به المجتمع وظيفته تجميع هذه الطاقات الفردية لمصلحته بفضل هذه الشبكة.

3 . 6 : التنمية السياسية : وهذا يستدعي ضرورة مراجعتنا لتصوراتنا النظرية وسلوكياتنا العملية، اتجاه مسألتى الحق والواجب، بحيث يجب أن نؤسس فلسفة نهوضنا على أساس القيام بالواجب عن قناعة والمصحوبة بالشعور بروح المسؤولية.

و تحقيق انسجام عمل الفرد مع عمل الدولة من خلال العمل على رأب الصدع وتقليص الهوة الموجودة بين الحاكم والمحكوم بتوجيه نشاطات كل منهما إلى اتجاه موحد تتجانس فيه جهودهما وتتكامل، فالفعل السياسي لن يحقق نجاحه إلا إذا تبناه أفراد المجتمع، في إطار تعاون وتفاعل إيجابي بين عمل كل من الدولة والفرد. كما يجب ربط السياسة بالأخلاق والعلم، وذلك باستبعاد التحايل والخداع والمكر من الممارسة السياسية، وربطها بقواعدها العلمية التي تراعي الجوانب الفكرية والنفسية والاجتماعية المعبرة عن خصوصيات الأمة. وبالموازاة مع ذلك يجب العمل على توفير الوقاية والحماية للمنجزات المحققة.

3 . 7 : إعادة الدور الاجتماعي للدين : يبنى المشروع التغييرى النهضوي عند مالك على فكرة الدينية التي هي أساس كل تنمية في أي مجتمع، فالتنمية التي تستهدف تغيير الفرد من الداخل يجب أن تحتوي على روح دينية، و قد اهتم ابن نبي بالدين من حيث وظيفته الاجتماعية في صياغة الإنسان الحضاري، و بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، وفي تكوين اللحمة بين عالم الأشخاص و الأفكار و الأشياء.

و من هنا نجد أن الوظيفة الاجتماعية لدين تحقق في شكل تركيب يهدف الى تشكيل قيم تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني ينطبق على مرحلة معينة للحضارة، و هذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، و يجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات، تمرّ وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل، و من التراب الذي يقدم في صورة فردية مطلقة غذاء إنسان في صورة استهلاك بسيط، مجالا مجهزة مكيفا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج . و تكمن قيمة

الفكرة الدينية عند مالك بن نبي في وظيفتها الاجتماعية، لا في أصالتها الذاتية، و من هذا المنطلق فرّق بين صدق الفكرة الدينية و فاعليتها، فالدين و إن كان صحيحاً فإنه يفقد فاعليته الاجتماعية بسبب الإنسان، و على العكس من ذلك يرى أن الدين . و إن كان باطلاً . فإن فاعليته تظهر حسب الإنسان الذي يحمله. ويدعو إلى ضرورة إرجاع الفاعلية الاجتماعية للعقيدة من خلال معالجة ظاهرة الانقسام المرضي الذي يعيشه المسلم المعاصر، ولعل الحل يكمن في تأسيس علم جديد يسميه ابن نبي "علم تجديد الصلة بالله" وظيفته أن يُشعر المسلم بوجود الله وليس أن يُبرهن له على وجوده.

3 . 8 : بناء الإنسان الجديد غير القابل للاستعمار: و تكمن وظيفة هذا الإنسان الجديد في التعرف على ذاته من دون نكران لها ولا تمجيد، وإنما بعقلانية الناقد الموضوعي، كما يجب عليه أيضاً أن يتعرف على الآخر من دون عقدة رفض ولا عقدة انبهار، وإنما بمعرفة موضوعية تُظهر حقيقة الآخر بإيجابياته وسلبياته. ليجد بذلك مكانه المناسب في خريطة التطور الحضاري للمجتمعات والأمم. وبعدها يسعى لتعريف الآخر بنفسه، من خلال البحث عن آليات التواصل معه، ومحاولة معرفة حاجات الإنسانية لغرض خدمتها.

3 . 9 : تحقيق الفعالية: و ذلك من خلال ربط الفكر بالعمل، فعلاج الجدل العقيم والخطابة الجوفاء يكون بالجمع بين العلم النظري والعمل التطبيقي أي ربط العلم بأهداف عملية معبرة عن متطلبات الواقع. لقد ركّز مالك على بناء الإنسان الجديد القوي بمعرفته لذاته ولغيره والمدرّك لدوره والمؤمن بأهمية رسالته، ولا يكون هذا إلا بالتركيز على التجديد والتغيير فيما يتعلق بالجانب النفسي لأنّ معجزة التغيير مستوطنة في نفسية الفرد لا فيما يحيط به من وسائل مادية. و طريق النهضة حسب ابن نبي يمر عبر شارع الواجبات المقدسة في ضمير كل فرد من أبناء الأمة، فالشعب الذي يريد التحضر يعمل ويجتهد في كل يوم وفي كل دقيقة وفي مختلف مجالات حياته. ودخولنا للمجتمع العالمي وضمان مكانة محترمة بين الأمم يفرض علينا أن نسلك طريقاً جديداً لم يسلكه غيرنا وأن نقدم للإنسانية بعض الحاجات التي افتقدتها في عصر العلم والمادة رغم أنّها في أمس الحاجة إليها. كما يجب أن ندرك أن كل فكرة تودع في التربة ستتحول إلى مشروع ثقافي مجسد في الميدان إن هي وجدت الأرضية الملائمة واللحظة التاريخية المناسبة.

4 . ركائز التنمية عند مالك بن نبي:

يؤسس ابن نبي لفكرة التنمية من مدخل متكامل يأخذ بالنظرة الكلية للمجتمع، و رفضا للتفسيرات التجزيئية والتبضيعية لها. و ذلك أن المجتمع وحدة كلية تتربط أجزاءها، و تتساند فيما بينها، ولا يمكن أن تفهم إلاّ من خلال علاقتها مع بالأعضاء الآخرين. أي أن فهم أي نظام أو ظاهرة اجتماعية إلاّ في ضوء علاقتها بالسياق الاجتماعي العام الذي توجد في إطاره، أي أننا عند دراسة ظاهرة التخلف لا بد من مراعاة كافة مكونات البناء الاجتماعي مثل البناء الديمغرافي، والنسق الإيكولوجي، والنسق الاقتصادي، والنسق السياسي، النسق التعليمي، و النسق القرابي والبناء الطبقي... إلخ¹

و قد نقد المقاربات النظرية التي تأسست في أعقاب الحرب العالمية الثانية و ما قبلها، التي أنتجت المنظومة الغربية مفسرة و يحل واقع غربي يبحث عن أسواق تارة، و يبرر استعمارات تارة أخرى. هذا و قد حاول تحليل أسباب إخفاق المداخل التنموية التي تبنتها الدول العربية والتي أرجعها إلى الأسباب التالية:

أولاً: عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة .

ثانياً: عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصاً صحيحاً.

ثالثاً: عدم تحديد الوسائل تحديداً يناسب الغاية المنشودة و الإمكانيات.

و يحدد شروط التنمية من خلال عوالمه الثلاث، فهي حجر الزاوية لإرادة التغيير، فلا طريقة سوى: الإنسان، والتراب، والوقت، وإرادته لتلك الحركة، فهذه هي رأسمال المبدئي وكل ما عدا ذلك: من القصور الشامخات، والجامعات والطائرات، ما هي إلا مكتسبات النهضة، وليست عناصر أولية لعملية النهضة.² و يضيف قائلاً: " وليس من الضروري و لا من الممكن أن تكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه من الإنسان والتراب والوقت"³

و التنمية رهن بمدى فعالية الإنسان وحركته من أجل إنجازها، وليست المادة وحدها العاملة على التغيير بل التركيبية الثلاثية بقيادة الإنسان، فإن " القضية ليست قضية أدوات

¹ . كمال التابعي، مرجع سابق ص151

² . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص67.

³ . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص60.

ولا إمكانيات إن القضية في أنفسنا، إن علينا أن ندرس أولاً الإنسان، فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن؛ سكن المجتمع والتاريخ، ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ، فنرى المجتمع حيناً يزخر بوجود النشاط، وأحياناً نراه ساكناً لا يتحرك يسوده الكساد وتغمره الظلمات، وهل هذه المظاهر غير تعبير عن حركة الإنسان أو ركوده.¹

4 . 1: الإنسان: لقد بين ابن نبي أهمية الإنسان في التنمية، بكونه المحرك لعناصر النهضة الأخرى ولكن كيف تتحقق فعالية الإنسان في الحركة التغييرية، إنه يرى ذلك من خلال توجيهه في ثلاث نواح هي:

أولاً: توجيه الثقافة.

ثانياً: توجيه العمل.

ثالثاً: توجيه الرأسمال.

ثم يبين مفهوم فكرة التوجيه بأنها " قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم، لأننا لا نعرف كيف نستخدمها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها، حين زحمتها قوى أخرى، صادرة عن نفس المصدر متجهة إلى نفس الهدف، فالتوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة، والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل، المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية، والإنتاجية، المناسبة لكل عضو من أعضائه، وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساساً فكرة توجيه الإنسان.²

ويذكر ابن نبي أن النهضة في العالم الإسلامي بها منعطفات خطيرة، وأول شرط من شروط تحقيقها هو الإنسان الذي يتمثل فيه مفهوم التغيير قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³ وأول ما يراد تغييره هو منهجية التفكير وطريقته، وذلك عن طريق توجيهه الثقافي؛ لأن الثقافة: " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها

1. _____ ، تأملات، مرجع سابق، ص 125

2. _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 78.

3. سورة الرعد، الآية: 11.

منذ ولادته كرسمال في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته " ¹.

و لكن كيف تعود الثقافة إلى العمل ضمن وظيفتها في التنمية ؟ يرى أنه لكي تعود لذلك فلا بد من تنظيفها من الانحراف، وذلك بتصفية العادات والحياة مما يشوبها من معوقات للنهضة، المتمثلة في المتعالمين و يرى أن التوجيه مرتبط بالمفاهيم الفكرية المؤسسة على أصول ثقافية، والثقافة الإسلامية هي الأساس في كل تغيير، فلا بد من التوجيه لأنه " ينبغي أن يكون المهمة الأولى في خطة النهضة الإسلامية، لأن تحقيقه هو الذي يوجد الشرط الأول لتحويل الجهود في نطاق هذه النهضة إلى جهود فعّالة " ².

4 . 1 . 1 : توجيه الثقافة: في حديث مالك بن نبي عن تكوين الإنسان، و تحت عنوان (توجيه الثقافة)، يتعرض لمدلولها فيقول... و الثقافة من الأشياء الأساسية التي تتطلب بإلحاح تعريفا بل تعريفين :

الأول : يحددها في ضوء حالتنا الراهنة .

الثاني: يحددها حسب مصيرها.

لأن جيلنا هذا حدّ فاصل بين عهدين: عهد الكساد و الخمول، و عهد النشاط و المدنية. ³ لذا نرى مالك بن نبي يبحث عن أسس أية ثقافة من الثقافات، و ينتهي به المطاف إلى أن يحصر عناصر الثقافة في المبادئ التالية :

4 . 1 . 1 . 1 : التوجيه الأخلاقي: إن المقصود من التوجيه الأخلاقي هو تأثير العقيدة الدينية في مجال السلوك البشري إذ هي عنصر أساسي في الثقافة، من خلال تأصل غريزة الحياة في جماعة، بحيث يستخدم هذه الغريزة ويهديها ويوظفها بروح خلقية سامية، هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الدين، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضها ببعض. ⁴

1 . _____ ، المرجع السابق، ص 83.

2 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 101.

3 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 89.

4 . _____ ، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 79.

إنه يرى أن الدين هو الأساس الأخلاقي الضروري لعمل التنمية، لأنه منهج تغيير يوجد من المتفرقات تآلف يعمل على بناء النهضة، وهذا واضح في الإسلام حيث عمل على تجميع الأنصار والمهاجرين، وتم ميلاد أول مجتمع إسلامي، أصبح كجسد واحد، وظهر ذلك من خلال اكتساب قيم جديدة. فهو يرى أن التغيير التنموي مرتبط بالتغيير الفكري، الذي له ارتباط بالمنحى الثقافي، المؤسس على أصول العقيدة الإسلامية .

4 . 1 . 1 . 2 : التوجيه السلوكي العملي: ويقصد به العقل التطبيقي الذي يجسد الفعالية في النشاط سواء على صعيد الفكر أو العمل، فالمجتمع الإسلامي الأول كان يعيش طبقاً لمبادئ القرآن، أما اليوم فهو يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن، وذلك لعدم وجود المنطق العملي السلوكي.¹ فإن العقيدة الإسلامية لم يعد لها فعالية في سلوك الفرد ما كان لها من فعالية على عهد النبي (ص)، حيث يوجد انفصام بين العقيدة والسلوك " لا يحتفظ المسلم باستقلاله ابتداء من اللحظة التي يغادر فيها المسجد، فهو يسقط تحت سطوة قانون العدد، وبدلاً من أن يؤثر في الوسط طبقاً لمثله الأعلى ومبادئه، نجد أن الوسط هو الذي يؤثر عليه ".²

و يرى مالك أن أساس النهضة هو تمثل العقيدة الإسلامية، وذلك بتحديدتها من خلال كونها مصدراً للثقافة الإسلامية، من خلال ربطها بالمفاهيم المنطلقة من الأساس العقائدي وتحويلها إلى منطق عملي لا عمل منطقي، فإنه في هذه الحالة نكون قد سرنا في الاتجاه الصحيح، وهو يرى أن من أسس و شروط التنمية: الإنسان والوقت والتراب ولكن لا بد من ربطها بالعقيدة الإسلامية فهو يرى " أن السبب في ذلك أن هذه العوامل الثلاث تتطلب إلى جانبها عاملاً آخر لا غنى عنه، وهو العامل النفسي، هذا العامل الذي يصطلح على تسميته بالعقيدة، فنحن إذن أمام قضية واضحة وضوحاً كاملاً، إن الشروط اللازمة لتكون النهضة موجودة بين أيدينا فعندنا أكرم العناصر الموجودة في العالم، وعندنا أخصب المساحات الترابية وعندنا الساعات الزمنية الكافية للإبداع والابتكار".³

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 96.

2 . _____ ، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 105.

3 . _____ ،المرجع السابق، ص 17.

فالمسلم يقتل الوقت، و العلم، و المال، فكيف ينفق العلم ويستغل المال؟ ينفقها في وجوه غير فعّالة، حيث العبثية و اللافعالية متجذرة في نواتنا فالعالم الإسلامي اليوم يفتقد الضابط الذي يربط بين العمل وهدفه، و بين السياسة ووسائلها، و بين الثقافة و مآثلها، و بين الفكرة و تحقيقها و السياسة تجهل الوسائل، و الثقافة لا تعرف المثل العليا، و عندما أراد المجتمع أن يسير طبقاً لمبادئ القرآن فقد سار في الاتجاه المعاكس، حيث بدأ يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن و ذلك لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي، فليس الذي ينقص المسلم منطق الفكرة بل الذي ينقصه منطق العمل، فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاماً مجرداً، فنحن نعيش في أحلام التغيير و ينقصنا المنطق العملي.¹

4 . 1 . 1 . 3 : توجيه العمل : يقصد ابن نبي بتوجيه العمل: سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد الراعي، و الحرفي، و التاجر، و الطالب، و المثقف و الفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء، فهو تأليف لكل هذه الجهود لتغيير وضع الإنسان و إيجاد بيئة جديدة فإن العمل مهم في تحقيق مصير الأشياء. و توجيه العمل ليس عنصراً أساسياً في المجال التنموي، ولكنه متولد من شروط النهضة الثلاث، فالخطب و المواعظ لا تأتي ثمارها ما لم تتوج بالعمل، فالمسلمون بدأوا يشيدون مسجدهم الأول بالمدينة حيث كانت أول ساحة للعمل، و هذا التوجيه المنهجي للعمل هو شرط عام أولاً، ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك، لأنه كلما تقدم التوجيه المثلث . توجيه الثقافة و العمل و رأس المال . للإنسان المسلم تغير وجه الحياة حتماً فيكتمل و يحتل مستوى أرفع.²

4 . 1 . 2 : توجيه رأس المال: يرى أن العالم الإسلامي غني في المجال المادي من حيث التراب و المال حيث البترول الذي هو عصب أي تنمية، ولكن كل ذلك لا يمكن أن يركب عوامل النهضة إذا لم يوجه توجيهها نابعاً من فكرة دينية تربط بين الفكر و العمل، و هو يرى أن العالم الإسلامي يملك ثروة ولكنه لا يملك رأسمال، لأنه يرى أنه هو الذي يتحرك، و من ثم يوجه على أساس المنهج الثقافي المنتج، فهو يرى ارتباطاً بين توجيه رأس المال و النهج الثقافي، فالمقصود من توجيه رأس المال هو إنه " لا يتصل بالكم، بل بالكيف، لتصبح كل

1 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص، ص96، 95.

2 . _____ ، المرجع السابق، ص108.

قطعة مالية متحركة متنقلة توجد معها العمل والنشاط، أما الكم فإن ذلك الدور الثاني دور التوسع والشمول.¹ إذن فلا بد من تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمة البسيطة، وذلك بتحويلها من ثروة مكدسة إلى رأس مال متحرك، ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد، فلا بد من منهاج يحدد تخطيطاً مناسباً نبني عليه حياتنا الاقتصادية.

4 . 2 : التراب: عندما يضع هذا العنصر لا يقصد منه دراسة خصائص التراب وطبيعته ولكنه يدرسه من خلال قيمته الاجتماعية، حيث نتحقق من خلال قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة يكون التراب غالي القيمة، وعندما تكون الأمة متخلفة يكون التراب رخيص، ثم يضرب مثلاً من الجزائر، حيث موت الأرض الخضراء، وانتشار الصحاري وعدم فعالية الإنسان في مواجهتها؛ لتقاعسه عن العمل، ولذلك فهو يوجه الإنسان إلى العمل مع هذا العنصر الأساسي فيقول: "ومهما يكن من بدائية وسائلنا فإن علينا أن نعمل، فالعمل لازم لزوم دراسة طبيعة الأرض والمناخ، فإننا لن نستطيع أن ننقذ ذريتنا من الأجيال القادمة إلا بالعمل الشاق، وعندما تتحقق تلك المعجزة بانتصارنا على أنفسنا وعلى أهوال الطبيعة فإننا سوف نرى أية رسالة في التاريخ نحن منتدبون إليها، لأننا نكون قد شرعنا في بناء حياة جديدة، ابتدأت بالجهود الجماعية بدل الجهود الفردية، ولسوف تظهر أمامنا بعد ذلك أعمال جليلة خطيرة، ولكنها سوف لا تخيفنا، لأن شعبنا أخضع التراب، ومهد فيه لحضارته، ولم يعد شعباً يخاف نواب الزمن."²

4 . 3: الوقت: يريد من خلال هذا العنصر أن تعود الأمة عملياً لإدراك قيمة الوقت وكيفية استغلاله، فالوقت " يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد ولكنه في مجال ما يصير ثروة، وفي مجال آخر يتحول عدماً."³ فالعالم الإسلامي يعرف شيئاً يسمى الوقت الذي ينتهي إلى العدم؛ لعدم إدراك معنى الوقت ومعنى الزمن، لأن إدراك معنى الزمن يحدد معنى التأثير والإنتاج إذا دخل في تكوين الفكرة والنشاط، فالحياة والتاريخ الخاضعان للتوقيت الذي كان وما يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق،

1 . _____ ، المرجع سابق، ص112.

2 . _____ ، شروط النهضة، مرجع سابق، ص، ص135، 136.

3 . _____ ، المرجع سابق، ص، 135.

وخطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا.¹ و ذلك إذا حاول كل فرد منا " تخصيص نصف ساعة يومياً لأداء واجب معين فإذا خصص كل فرد هذا الجزء من يومه في تنفيذ مهمة منتظمة وفعالة فسوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هائلة من ساعات العمل لمصلحة النهضة الإسلامية في جميع أشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية، وسيثبت نصف الساعة هنا عملياً فكرة الزمن في العقل الإسلامي، أي في أسلوب الحياة في المجتمع، وفي سلوك أفرادها، فإذا استغل الوقت هكذا فلم يضع سدى ولم يمر كسولاً في حقلنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي".² وبذلك تتحقق النهضة و التنمية المطلوبة. وفي نفس الوقت الذي يؤكد فيه مالك بن نبي على أهمية عنصر الزمن في حركة التنمية وصعودها فإنه يحذر من الاستغراق في العمل والجهد من أجل الإنتاج، حتى لا ننسى الجوانب النفسية في حياتنا كالغرب الصناعي.

5. رهانات التنمية :

تراهن التنمية في الوطن العربي عموماً على شقين أساسيين لا بد من توفيرهما من تحقيق بعد إستراتيجي يضمن للأجيال صيرورتها و التحكم في متغيرات المستقبل:

5.1: التنمية على الصعيد الداخلي : يذهب مالك بن نبي في تشخيصه للتنمية و رهاناتها في الدول المتخلفة أنه يجب توفير أسباب الوثبة الاقتصادية التي تحقق أهداف المجتمع في تكريس سياسة تنموية تبعد بها عن خاثة المجتمعات المتخلفة، و تتمثل هذه الرهانات . بإيجاز .في:

5.1.1: فلاحته و هي تزيد أو تنقص بدرجة وسائله البدائية: إن تحقيق الاكتفاء الذاتي يبدأ بالدرجة الأولى بالرجوع بالمجتمع الى النمط الاقتصادي السائد في المجتمع من القدم، و الراجح أن الجزائر . و المغرب العربي عموماً . كانت تعتمد بالدرجة الأولى الزراعة التي هي عصب الاقتصاد، و أن أية نهضة تستهدفها هاته الدول لا بد أن تأخذ بالزراعة في حساباتها. و قد كان القضاء على النمط الزراعي الشائع في الجزائر عن قصد بغية تحطيم النظام الزراعي السائد، و تعويضه بالجانب الصناعي الذي أخذت منه الدول

1 . _____ ، المرجع سابق، ص140.

2 . _____ ، المرجع سابق، ص، ص140،141.

المتخلفة جانب استخراج المواد الخام، و تركيز الصناعة في المدن من أجل تفريغ القرى من سكانها، و القضاء المبرم على المجتمع، و تحويله من مجتمع يتضامن تضامن آلي إلى مجتمع يتضامن عضوي، و بالتالي تتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية. و بالتالي فقدان التماسك الاجتماعي. و كان اهتمام مالك بن نبي بالفلاحة كمن أجل ضمان لقمة العيش الكريم لكافة أفراد المجتمع.

5 . 1 . 2 : ما يملك من مواد خام في السوق و في باطن الأرض: إن التخلص من الهيمنة الأوروبية و دول المركز باستغلال المواد الخام الموجودة و تخليصها من السيطرة الاستعمارية سواء كان ذلك بدأ بعملية التنقيب أو التحويل أو التصدير، و يرى أن من الواجب على دول العالم الثالث أن تحسن استغلال مواردها الخام ليس أن تعمل على تصديرها خاما من الباب، و تستورده مصنعا من النافذة. "...كل منتج نصدره إلى الخارج كما تنتجه الطبيعة يكون تصديره بالنسبة إلى الحالة الاجتماعية في بلد معين خسارة تحدد اقتصاديا ما يسمى (بلد متخلف).¹

5 . 1 . 3: العمل المتوقع الذي يمكن أن نحوله إلى واقع يعد بساعات العمل: تولى النظرية الاجتماعية في أدبيات التنظيم المؤسسة الحديثة جانب الاستثمار في الموارد البشرية عناية كبيرة لما له من دور فعال في تحديد نسبة نجاح المؤسسة اقتصاديا، لأن الاستثمار المالي وحده غير كاف لإنجاح التنمية دون الاهتمام بالجانب الاجتماعي، فقد نوفر لقمة العيش لفئة من المجتمع و نترك البقية أفواها تفرغ أفواها بحثا عن لقمة العيش، تتوكأ على ما تمنحه فئة "العمل المتوقع" و هي العمال الذين يشتغلون فعلا، مما تؤدي بها إلى الهجرة و تركه من نزيف في طاقاته العاملة أو القدرة على العمل حين تهاجر بحثا عن العمل، و هي غالبا ما تكون ذات كفاءة عالية.²

أما المجتمعات التي تلجأ منذ البداية إلى الاستثمار الاجتماعي للإنسان و محاولة تطوير ذاته من خلال الإمكانيات المتاحة و الطاقات الموجودة من خلال معادلة (الإنسان والتراب والزمن)، و يخلص مالك بن نبي إلى ضرورة أن تعي البلدان المتخلفة أن القدرة المالية وحدها لا يبني اقتصادا متينا، بل أن الاستثمار الحقيقي هو الذي يهتم بالجانب الاجتماعي،

¹ . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 188.

² . _____ ، المرجع سابق، ص 194.

أن ليس لها للخروج من مأزق التخلف إلاّ عن طريق الاستثمار الاجتماعي الذي يتيح لكل السواعد و لكل الأفواه أن تجد قوتها.¹

5 . 1 . 4: أولوية الإنتاج على الاستهلاك: إن معادلتني (الحقوق و الواجبات) و (الإنتاج و الاستهلاك) من الأمور التي شغلت فكر مالك بن نبي الاقتصادي. و يوضح تأثيرهما على نمط و حياة المجتمع من خلال الصيغة الرياضية التالية:

$$\text{حق} + \text{واجب} = \text{صفر} . \text{إنتاج} + \text{استهلاك} = \text{صفر}$$

إن التخلص من التخلف و تبعاته السوسيواقتصادية يجب أن يبدأ من نبذ ذهان السهولة و الاستكانة الى الراحة والدعة، الى التشمير عن سواعد الجد و مضاعفة الجهد، و الاهتمام بالإنتاج على حساب الاستهلاك.

5 . 2 : التنمية على الصعيد الخارجي :

5 . 2 . 1: مراجعة أسعار المادة الخام في السوق العالمية: و هذا لأن الاستعمار من البداية ربط اقتصاديات الدول النامية باقتصاده، من خلال النزج بالمواد الخام الموجودة في هاته الدول في البورصات العالمية، أي سوف يؤدي حتما الى انهيار الميزان التجاري في هاته الدول، لأن قيمة المبيعات لا تساوي شيئاً من قيمة المقتنيات التي تفرضها الدول المصنعة. لذا نجده يحاول أن يفك العلاقة بين المواد الخام التي تملكها الدول النامية، و بين العملة المتداولة في السوق العالمية، و التفكير بجد و وضع آليات و تدابير جديدة تتماشى مع مكانزمات السوق لأنه من غير المعقول أن يشتري الغرب المواد الخام بالسعر الذي يراه، و يبيع سلعته كيفما يريد، لذا يقترح "مصرف المادة الخام " عوضاً عن مصرف "العملة الصعبة" من خلال وضع تشريعات و قوانين يحمي أسعار المواد الخام من المضاربة، و ذلك بتوحيد الجهود بين كافة الأطراف و تنسيق بينها في استراتيجيات التنمية لكي تتماشى مع هذا الطرح الجديد.

5 . 2 . 2: التكتل الاقتصادي بين دول العالم الثالث: إن التكتل الاقتصادي بين الدول هو ميزة العصر الحديث كما هو موجود في أوروبا في صيغة(الاتحاد الأوروبي) و (الآسيان) بين دول آسيا، و يبقى الاتحاد هو صمام الأمان للدول الصغيرة لكي لا تلتهم

¹ . _____ ، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص62 .

من قبل التكتلات الكبيرة، و تعمل هذه الأخيرة على التفرقة بين الدول، و التعامل معها فرادى من أجل فرض شروطها على الآخر. و قد تظن المفكر مالك بن نبي الى قيمة التكتل و ما ينجر عنه فائدة على المجتمعات المتخلفة. و قد تعرض الى فكرة (كومنولث إسلامي) باعتبارها موضوع بحث يرمي الى تخطيط وحدة جغرافية سياسية معينة أو الى مجرد معرفة نظرية للوقوف على معلومات أوسع بشأن هذه الوحدة يوجب أن يتضمن هذا البحث بعض الحقائق الأساسية و المقننات التي تميز موضوع البحث و تبرر الحل الذي يراه إيجاداً.

ومن جملة الحقائق الأساسية هي احتفاظ العالم الإسلامي في المرحلة التي يجتازها الآن بـ (وحدته الروحية) التي تعد عاملاً جامعاً أساسياً ومبدأً موحداً يجب أن يطبق، في أي مرحلة لتخطيطه تطبيقاً يناسب تجانس المشروع من الناحية السيكولوجية و تناسق عناصره من الناحية الفنية.¹ لذا يدعو مالك بن نبي الدول العربية الى توحيد الرؤية الاقتصادية تنظيراً و تطبيقاً و الدخول في الفضاء الاقتصادي العالمي ككتلة موحدة في شكل (السوق العربية المشتركة).

¹ . - ، فكرة كومنولث إسلامي مرجع سابق، ص12.

استخلاصات:

قدّم مالك بن نبي إسهاماً يدخل ضمن إطار الفكر الحضاري عموماً، الذي يقدم للإنسانية جمعاء فكراً تكرع من معينه أجيالاً يتعقبها الزمن، إذ أن سننية الطرح و عمقه لا يعدو أن يكون طرحاً متحيزاً لجهة دون أخرى، فهو فكر إذا ما تناولته أي جهة مهما موقعها و أيديولوجيتها فحليفها النجاح. ومن النقاط التي نوجزها في الخلاصة حول عملية التنمية عند ابن نبي ما يلي:

1. الارتباط الوثيق بين التنمية و الحضارة، فالتنمية كما يراها مالك بن نبي هي متطابقة مع فكرة الحضارة، ذلك أن النمو حضارة و التخلف انحطاط. و الحضارة في جوهرها عند مالك بن نبي : " هي مجموعة الشروط المعنوية و المادية التي تتيسر لمجتمع معين أن يقدم كل فرد، في كل طور من أطوار وجوده، من الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه " أي أن التنمية عند مالك بن نبي تأخذ الثقافة كمحتوى و كوعاء لها لكي تضمن المشاركة الاجتماعية الكلية لها .

2. إن التنمية هي عملية تغيير شاملة تستهدف الظروف البنائية و الوظيفية للمجتمع، فإن ذلك لا يكون إلا بالتكامل و التكتل مع جهات أخرى، أو داخل النسق نفسه في إطار التكامل بين أعضاء البلدان بين محور طنجة . جاكرتا . و تقوم الاقتصاديات الحديثة على فكرة التكامل و التبادل بين الدولة إذ لا تقوم مشاريع التنمية الكبرى على اقتصاد محلي بل تقوم على أسس علمية متينة، وعليه فإن التكامل بين دول العالم الإسلامي لإرساء ما يسميه مالك بن نبي بـ " الاقتصاد المشترك أو الموحد " صار ضرورة إستراتيجية لتحقيق الهبة الاقتصادية المطلوبة لتحقيق على الأقل الاكتفاء الذاتي، أي الحلقة الاقتصادية التي تستطيع الانغلاق على نفسها إذا اقتضت الضرورة الداخلية ذلك.¹

3. ارتباط الجانب التنموي بالجانب الديني الذي يريد التطور و التقدم، إذ أن من شروط هذا الإقلاع أن يربط المخطط و المنظر للتنمية بين عقائد و ثقافة المجتمع المخطط له، و هي نفس القناعات التي انطلق منها المجتمع السوفياتي و الصيني في تمثّل التنمية كآلية للخروج من التخلف. و قد ضرب مالك بن نبي مثالا عن بناء المسجد النبوي فقد كان

¹ . -، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص107.

الصحابية يحملون حجرا واحدا، و كان عمار بن ياسر يحمل على كتفيه حجرتين، فرآه الرسول . ص . فقال له : " لكل هؤلاء نصيب في الجنة و أنت لك نصيبان " فقد كان العامل الديني دورا محورا في دفع الصحابي الجليل الى حمل حجرتين مرة واحدة .

و الجانب الروحي و استثمار الطاقة الروحية الكامنة في نفسية الإنسان المسلم لتحقيق الفعالية التي تعد أهم محور ركّز عليه مالك بن نبي في الدفع بالتنمية قدما صوب تحقيق غاياتها القصوى، و عكس ذلك ما أصاب الأمة من ذهان السهولة و الصعوبة على حد سواء في تعطيل هذا المشروع الاقتصادي في محور طنجة . جاكرتا، هذا الجانب الروحي هو الذي أسس لحضارة الإسلام في قرونها الأولى، حيث فتحت الأمصار و شيدت دول و حضارات انطلاقا من الجانب الروحي القوي التي تتمتع بها دولة الإسلام.

4 . يرى مالك بن نبي أن وعي الجانب الاقتصادي لا يتم إلا من خلال وضع خطة تربوية في إطارها الثقافي يعيد من خلاله الى الإنسان دوره الطبيعي في الحياة و يزوده بالأفكار الحية، الذي هو حجر الزاوية بالنسبة لأي إقلاع حضاري و تنموي يبقى في حاجة ماسة الى إطار تربوي يخلق من خلاله ثقافة تنموية تكون فيها الأفكار الحية و النافعة دورا فعالا في خلق فرص التنمية و النهوض.

5 . الاهتمام بالجانب الفكري إذ يتجه هذا الجانب الى تأطير عملية التنمية بآراء و تصورات فكرية تأخذ على عاتقها تمحيص و نقد المداخل و المذاهب الاقتصادية الكبرى و استثمارها في الواقع العربي والإسلامي، لتأخذ بمستويات الوعي الاقتصادي لتنمية المجتمعات المتخلفة و إعادة صياغة النماذج الإنتاجية و الاستهلاكية و التبادلية و التوزيعية و تحسين المواقف تجاه ركائز الاقتصاد و على رأسها المال . و يكمن إعادة الوعي التنموي للأمة في النقاط التالية :

أ/ التثمين الحقيقي لدور الكميات و الأرقام في تحديد مجال التنمية مقابل الطاقات النفسية و الاجتماعية الكامنة والتي تظل في مرحلة حبيسة الاحتمال في حين تصير عند الإقلاع من عناصر الإمكان الاقتصادي.

ب/ إعادة الاعتبار للاستثمار الاجتماعي مقابل الاستثمار المالي و المادي .

ج / إعادة الاعتبار لوظيفة الادخار مقابل وظيفة الاستهلاك .

د / الوعي بعدم عدالة أنماط التبادل القائمة مما يستدعي أنماطاً جديدة أو على الأقل التفكير في أنماط جديدة نابعة من التصور السليم للقيمة مادامت المذاهب الاقتصادية هي التي تصنع أنماط تبادلها.

6 . مراعاة الجانب الاجتماعي و المعيشي، إذ يؤكد مالك بن نبي على المستوى الاجتماعي أن توازن المجتمع بين الحق و الواجب، بين الإنتاج و الاستهلاك، هي المعادلة التي يستقيم من خلالها المجتمع و يحقق المعادلة الاجتماعية المطلوبة التي هي شرطاً أساسياً من شروط النهوض التنموي .

و يقصد مالك بن نبي بالجانب المعيشي عن الحق في التأمين الاجتماعي، الذي ينطلق في تأمين حد الكفاف من العيش، فإن توفير لقمة العيش لحفظ النوع يعد طرفاً حاسماً فيما يسميه مالك بن نبي " بتحقيق الديناميكا الاقتصادية " إذ لا يمكن تصور اقتصاد تنموية بطريقة مستقلة عن اقتصاد متين لتحقيق القوت.¹

و الشعب الذي يقوم بعملية التنمية هو الشعب الذي يملك الحد الأدنى من قوته ليفعل آليات التعمير و سبل النهوض.

7 . الجانب السيكولوجي: أثر بُعد الإنسان المسلم عن دينه في مجال التشريع للمجتمع على الناحية النفسية للإنسان التي تتطلب نفسية مرتفعة تعلق من خلالها هم الأفراد و الجماعات داخل المجتمع، و تركز المداخل الحديثة في التنمية على الجانب السيكولوجي كثيراً لما له من أثر على المردود التنموي كما يوضح ذلك (دافيد ماكيلاند)، و (دانييل لرنر) و (وافرت هيجن) في المدخل السيكولوجي للتنمية الذين يذهبون إلى أن درجة الدافعية أو الحاجة إلى الإنجاز هي الدعامة الأساسية للتنمية الاقتصادية، وأن تغيير الاتجاهات و القيم و السلوكيات تعد شرطاً أساسياً لخلق مجتمع حديث.

8 . التأكيد على الجانب التخطيطي، فإذا كان التخطيط يعرف بأنه الموازنة بين ما هو مطلوب و ما هو متاح عملياً، و هو يعني تعبئة و تنسيق و توجيه الموارد و الطاقات و القوى البشرية المتاحة لتحقيق أهداف اقتصادية أو اجتماعية متفق عليها . ومنه لا يمكن قيام عمل تنموي في غياب تخطيط علمي يسمح بتطبيق الخبرات و التجارب على الصورة

¹ . _____ ، بين الرشاد و التيه، مرجع سابق، ص 161.

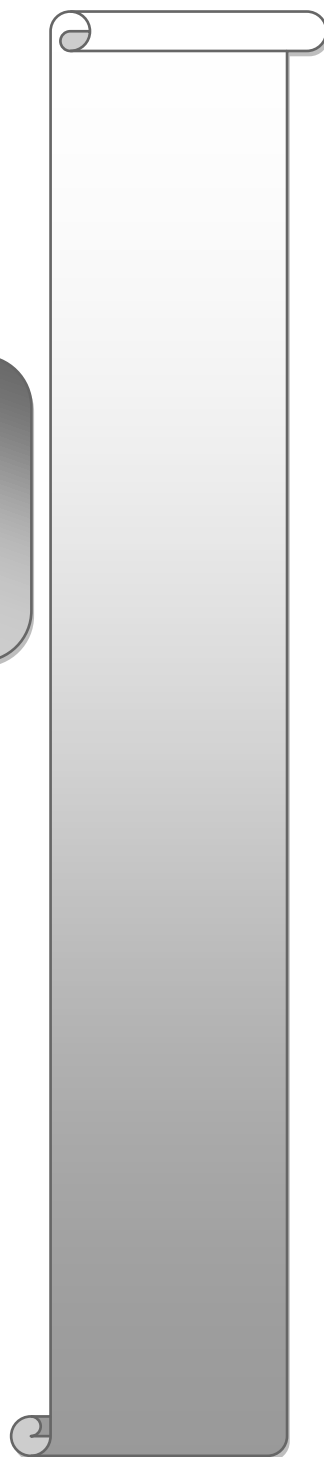
المرجوة. لذا يؤكد مالك بن نبي على ضرورة الأخذ في الحسبان الإنعاش الزراعي و الموازنة مع المتطلبات الصناعية و المتطلبات الزراعية بما يتماشى و الإمكانيات المتوفرة في العالم الإسلامي، و بما يقتضيه سلم الأولويات في التنمية . و في هذا المستوى يتحدث مالك بن نبي عن تخطيط التنمية بتحديد الأهداف النهائية و المرحلية و إحصاء الإمكانيات المتوفرة و اللازمة بالطرق العلمية لا التخمينية، و وضع حسابات دقيقة للمراحل التي يجب أن تجتازها المرحلة، و تكييف ظروف الإسكان و المواصلات و التموين لمتطلبات التنمية.

9 . البعد الثقافي للتنمية عند مالك بن نبي، و هو طرح جديد بالنسبة لنظرية التنمية، إذ أن التكامل بين الإنسان و التراب و الزمن، في تلاحم هاته الأعضاء بالدين، يؤدي إلى إيجاد الشروط المادية للحضارة، و التي تتمثل في إيجاد صيغة أخلاقية للحقوق و الواجبات في المجتمع .

10 . توفير الإرادة للتنمية، فهي عكس الركود و التكديس و الذرية و الشبيئية، إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه، و هذا بمقتضى قوله تعالى: (إن الله لا يغيروا ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . و إرادة التنمية هي محور الابتعاث و مكن القوة التغييرية لدى أي شعب. لأن الاقتصاد في عرف مالك بن نبي ما هو إلا إسقاط البعد السياسي على نشاط إنساني معين، فبقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ أخلاقية معينة، يبقى الاقتصاد وفاقاً للمبادئ ذاتها .

11 . ضرورة الاتحاد و التكتل من أجل بناء الحضارة بين الدول الإسلامية أو بين الدول العربية، فقد طرح مالك بن نبي فكرة " محور طنجة _ جاكرتا "، و فكرة " كومنولث إسلامي " و الذي اهدت إليه دول آسيا في ما يعرف بـ (دول الآسيان) أو طريقة (طيور الأوز)، فيما ما بقي المشروع يراوح مكانه بين الدول العربية كـ (مجلس التعاون الخليجي) أو (اتحاد المغرب العربي) .

خاتمة وتقييم النتائج



خاتمة و تقييم نتائج الدراسة:

بعد هذا العرض يكون الباحث قد أنهى البحث في كتابات المفكر مالك بن نبي، حيث ألفت الدراسة الضوء على أهم أفكار مالك بن نبي وآرائه التربوية، كما استعرضت بعض القضايا التربوية الهامة التي تعرض لها مثل قضية طبيعة الفكر التربوي عند مالك بن نبي، قضية ماهية التربية عند ابن نبي، أبعادها أهدافها و التربية الاجتماعية مفهومها وخصائصها و أبعادها المجتمعية، التربية الأخلاقية و علاقتها بالبناء الحضاري و البعد التربوي لنظرية الحضارة عند مالك بن نبي، التنمية وفق رؤية إنسانية تربوية. ولعل هذه الدراسة تعد مساهمة اجتماعية وفق رؤية منهجية تربوية لموضوع الفكر التربوي، و ذلك من خلال عرض لأهم أفكاره و أطروحاته، من خلال تقديم أحد نماذج الفكر التربوي، النابع من تراثنا و رؤيتنا الحضارية، والذي يمكن اعتباره أحد البدائل المتاحة أمام المهتمين بمجال التربية في العالم الإسلامي، وذلك بدلا من التطلع شرقا وغربا ومحاولة الاستعانة بالآراء والأفكار التربوية الغربية عن ثقافتنا، والتي لا تتناسب مع قيمنا ومجتمعنا. إنطلق البحث في هذه الدراسة من إشكالية مركزية تتمحور حول مضامين الفكر التربوي عند مالك بن نبي .

1 . إرتباط الفكر التربوي بالبيئة الثقافية و الاجتماعية و السياسية التي ساهمت في بلورة التوجه الفكري لهذه المشاريع، و صياغة منهجها و مضمونها العملي. فقد كانت حياة مالك بن نبي (الصدّيق) حياة حافلة بالتضحية مليئة بالمآسي، كابد فيها ويلات المستعمر و دسائسه و خبثه و مكره، لكن كل هذه العراقيل لم تتل من عزمته، ولم تضعف فيها إرادته، بل كان له ذلك تحدي يفرضه الواقع ليتجاوز حدا ما كان ليأتي لولا الغزيمة والإرادة الفولاذية التي تحلى بها. فكانت العمل في الجزائر ثم التوقف، ثم الهجرة إلى فرنسا ثم الرجوع منها، ثم محاولة الكرة من جديد ليتم له ذلك، و منعه من بعض التخصصات لتثبيطه، لكن المجهود و الإرادة تجاوز واقع العقلة.

2 . ما يمكن أن نلاحظه عن ابن نبي . و هي ميزة فقدت الكثير من واقعه في الأجيال الحالية . و هي كثرة قراءة الكتب، و المطالعة المستمرة لأمّهات الكتب الغربية التي شكّلت وعي جيل من الأوروبيين هم الآن ينظرون لأوطانهم وفق رؤى استراتيجية، فمفكرنا استطاع

أن يكون نفسه تكويناً عصامياً في العلوم الإنسانية عموماً من خلال من أُتيح له في المكتبات الأوروبية، وأن يكتب و يحاضر

في وقت كان الهجرة إلى فرنسا تكون في العدة من أجل العمل، فظروف الإقامة في الحي اللاتيني لم تجعل منه إنساناً يهتم بقوت يومه فقط، و هجره لألمانيا لم تؤثر في مسار حياته الفكري.

3 . يتضح مفهوم التربية بشكل جلي و واضح في كتاباته، إلا أننا استنتجنا مجموعة من الأفكار التربوية و المضامين ذات العلاقة من خلال مؤلفاته لما تتضمنه من قيم تربوية ذات أبعاد فكرية و سوسولوجية. و إن تداخل معناها في كثير من الأحيان مع مفهوم الثقافة التي يعد مفهوماً محورياً في فكر مالك بن نبي في بناء الإنسان و تغييره.

4 . أخذ مفهوم التربية عند مالك معنى التثقيف، أنها "عملية تثقيف متواصلة"، وأخذ صيغ و دلالات و معاني و مضامين مختلفة و متباينة، عبرت في مرة عن وضع اجتماعي تكيفه مع سياقاته ودلالاته المتجددة، فقد أخذت التربية معنى (العملية، المشكلة، المفهوم، منهج، تمثل للقيم و انتظامها في سلوك الفرد، تنشئة اجتماعية، ظاهرة إنسانية، عملية تطبيع اجتماعي، عملية إكتساب خبرات، وسيلة للضبط اجتماعي، عملية تحضّر، نمو للفرد، عملية إدماج اجتماعي، عملية تعلم، عملية دمج ثقافي).

5 . تعتبر مقارنة مالك بن نبي التنموية واحدة من أفضل المداخل النظرية التي عالجت التنمية من كل جوانبها الإنسانية و الاجتماعية و الثقافية و النفسية، و عملية تشخيص لواقع متخلف، بدأ مالك بن نبي في تفكيك آليات العجز و القصور على المستوى النفسي والاجتماعي متجاوزاً في ذلك الكثير من الدراسات الغربية . و حتى العربية المتخصصة . لذا نجده في الكثير من المرات يعطينا قراءات متميزة و جديدة على الساحة العربية، فقد أرجع فشل المشاريع الاقتصادية إلى (القابلية للاستعمار)، عدم الفعالية، ذهان السهولة، ذهان الاستحالة، عدم توازن آليات التبادل التجاري، الميل إلى التكديس، الذرية، الاغتراب)

6 . قدّم حلولاً لمشكلة التنمية من خلال استقصاء دقيق لأسبابها، و تمثل هذه الحلول في (الاستثمار الاجتماعي مقابل الاستثمار المالي، أخلاقية عمليتي الإنتاج و التوزيع، الأخذ بالمعادلة الاجتماعية للمجتمع، ضرورة الاكتفاء الذاتي، بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، التنمية السياسية، إعادة الدور الاجتماعي للدين، بناء الإنسان غير القابل للاستعمار،).

7 . الارتباط الوثيق بين التنمية و الحضارة، فالتنمية كما يراها مالك بن نبي هي متطابقة مع فكرة الحضارة، ذلك أن النمو حضارة و التخلف انحطاط. و الحضارة في جوهرها عند مالك بن نبي: " هي مجموعة الشروط المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم كل فرد، في كل طور من أطوار وجوده، من الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه" أي أن التنمية عند مالك بن نبي تأخذ الثقافة كمحتوى و كوعاء لها لكي تضمن المشاركة الاجتماعية الكلية لها .

8 . إن التنمية هي عملية تغيير شاملة تستهدف الظروف البنائية و الوظيفية للمجتمع، فإن ذلك لا يكون إلا بالتكامل و التكتل مع جهات أخرى، أو داخل النسق نفسه في إطار التكامل بين أعضاء البلدان بين محور طنجة . جاكرتا. و تقوم الاقتصاديات الحديثة على فكرة التكامل و التبادل بين الدولة إذ لا تقوم مشاريع التنمية الكبرى على اقتصاد محلي بل تقوم على أسس علمية متينة، وعليه فإن التكامل بين دول العالم الإسلامي لإرساء ما يسميه مالك بن نبي بـ "الاقتصاد المشترك أو الموحد" صار ضرورة إستراتيجية لتحقيق الهبة الاقتصادية المطلوبة لتحقيق على الأقل الاكتفاء الذاتي، أي الحلقة الاقتصادية التي تستطيع الانغلاق على نفسها إذا اقتضت الضرورة الداخلية ذلك.

9 . الارتباط الوثيق والمرجعيات الإسلامية الأصيلة بوصفها المنهل التي استقت منه هذه المشاريع منهجها ومضمونها التغييري. فقد كان مالك بن نبي قارئاً متميزاً للتاريخ الإسلامي، و مستخلصاً لقيم من تاريخ حضارات سابقة، فحين تقسيمه للحضارة أو الإنسان، فيذكر (إنسان ما بعد الموحدين)، و يذكر حادثة صفيين، و غيرها من المنعرجات التاريخية التي تمشّدت في الصيرورة التاريخية للمجتمع الإسلامي. فيركز على الدين أو (الفكرة الدينية) كمحور أساس في بناء الحضارة و زوالها. بل يربطها بكامل البناء الاجتماعي للمجتمع، السياسي، الاقتصادي، و الاجتماعي، و الثقافي و التنموي.

10. يرى مالك بن نبي أن وعي الجانب الاقتصادي لا يتم إلا من خلال وضع خطة تربية في إطارها الثقافي يعيد من خلاله إلى الإنسان دوره الطبيعي في الحياة و يزوده بالأفكار الحية، الذي هو حجر الزاوية بالنسبة لأي إقلاع حضاري و تنموي يبقى في حاجة ماسة إلى إطار تربوي يخلق من خلاله ثقافة تنموية تكون فيها الأفكار الحية و النافعة دوراً فعالاً في خلق فرص التنمية و النهوض.

11 . الاهتمام بالجانب الفكري إذ يتجه هذا الجانب الى تأطير عملية التنمية بآراء و تصورات فكرية تأخذ على عاتقها تمحيص و نقد المداخل و المذاهب الاقتصادية الكبرى و استثمارها في الواقع العربي والإسلامي، لناخذ بمستويات الوعي الاقتصادي لتنمية المجتمعات المتخلفة و إعادة صياغة النماذج الإنتاجية و الاستهلاكية و التبادلية و التوزيعية و تحسين المواقف تجاه ركائز الاقتصاد و على رأسها المال . و يكمن إعادة الوعي التنموي للأمة في النقاط التالية :

أ/ التثمين الحقيقي لدور الكميات و الأرقام في تحديد مجال التنمية مقابل الطاقات النفسية و الاجتماعية الكامنة والتي تظل في مرحلة حبيسة الاحتمال في حين تصير عند الإقلاع من عناصر الإمكان الاقتصادي.

ب/ إعادة الاعتبار للاستثمار الاجتماعي مقابل الاستثمار المالي و المادي .

ج / إعادة الاعتبار لوظيفة الادخار مقابل وظيفة الاستهلاك .

د / الوعي بعدم عدالة أنماط التبادل القائمة مما يستدعي أنماطا جديدة أو على الأقل التفكير في أنماط جديدة نابعة من التصور السليم للقيمة مادامت المذاهب الاقتصادية هي التي تصنع أنماط تبادلها.

12 . مراعاة الجانب الاجتماعي و المعيشي، إذ يؤكد مالك بن نبي على المستوى الاجتماعي أن توازن المجتمع بين الحق و الواجب، بين الإنتاج و الاستهلاك، هي المعادلة التي يستقيم من خلالها المجتمع و يحقق المعادلة الاجتماعية المطلوبة التي هي شرطا أساسيا من شروط النهوض التنموي . و يقصد مالك بن نبي بالجانب المعيشي عن الحق في التأمين الاجتماعي، الذي ينطلق في تأمين حد الكفاف من العيش، فإن توفير لقمة العيش لحفظ النوع يعد طرفا حاسما فيما يسميه مالك بن نبي " بتحقيق الديناميكا الاقتصادية " إذ لا يمكن تصور اقتصاد تنمية بطريقة مستقلة عن اقتصاد متين لتحقيق القوت.

13 . غياب الفكرة التأسيسية في الجهود الإصلاحية لهذه المشاريع التربوية، إذ تولدت معظم تنظيراتهم للواقع الإسلامي من رد فعل انفعالي و حماسي أملت الظروف و المستجدات التي طرأت على الساحة. فيرى مالك أن هذه المشاريع قد اقتصرت على بعدين رئيسيين، كان لغيابهما الأثر السلبي على مضمونها التصحيحي، و هما:

أولاً : البعد التاريخي في الأزمة التربوية، بمعنى توظيف الرؤية التي تتقّب و تغوص في الجذور التاريخية لتدهور الفكر التربوي بصفة عامة، و التربية بصفة خاصة، و ذلك بتتبع مسار التربية منذ ميلاد المجتمع الجديد وحتى انهيارها و نكوصها، و من ذلك كشف العلل و المطبات التي حالت دون تأثيرها في واقع المجتمع.

ثانياً : البعد الفكري في الأزمة التربوية، و نقصد به رصد المظاهر المرضية التي يعاني منها العقل المسلم، والكشف عن العلل الخفية، و تتمثل أهم الإختلالات التي يعاني منها العقل المسلم في افتقاره لخاصية السننية و السببية في تفاعله مع محيطه الاجتماعي و الكوني.

14. يؤكد الباحث على مركزية نظرية الدورة الحضارة في المشروع التربوي عند مالك بن نبي بوصفها الإطار الكلي المفسر لظاهرة البناء و السقوط الحضاري، فقد شكّلت هذه النظرية منظورا حضاريا متميزا حاول سبر غور الظاهرة الحضارية، و من ثم اكتشاف السنن التي تتحكم في ظاهرة الحضارات نهوضا و نكوصا. و نرصد من خلال تتبع هذه النظرية الحضارية عند مالك بن نبي حضورا مركزيا لمجموعة من العوامل، تشكل . من منظورها . العناصر الجوهرية في نشأة الحضارات، و التي تتمثل في الفكرة الدينية و النفس الإنسانية، إضافة إلى الشروط النفسية و الاجتماعية التي تكفل تحقيق التفاعل بينها. و بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ حضورا قويا لمنهج استعابي متميز، يمتلك القدرة على تجاوز إشكالية التوفيق بين المرجعية الفكرية للأمة و المرجعيات الفكرية الغربية.

15. ارتباط الجانب التنموي بالجانب الديني الذي يريد التطور و التقدم، إذ أن من شروط هذا الإقلاع أن يربط المخطط و المنظر للتنمية بين عقائد و ثقافة المجتمع المخطط له، و هي نفس القناعات التي انطلق منها المجتمع السوفيياتي و الصيني في تمثّل التنمية كآلية للخروج من التخلف. و قد ضرب مالك بن نبي مثلا عن بناء المسجد النبوي فقد كان الصحابة يحملون حجرا واحدا، و كان عمار بن ياسر يحمل على كتفيه حجرتين، فرآه الرسول . ص . فقال له : " لكل هؤلاء نصيب في الجنة و أنت لك نصيبان " فقد كان العامل الديني دورا محورا في دفع الصحابي الجليل الى حمل حجرتين مرة واحدة،

و الجانب الروحي و استثمار الطاقة الروحية الكامنة في نفسية الإنسان المسلم لتحقيق الفعالية التي تعد أهم محور ركّز عليه مالك بن نبي في الدفع بالتنمية قدما صوب تحقيق غاياتها القصوى، و عكس ذلك ما أصاب الأمة من ذهان السهولة و الصعوبة على حد

السواء في تعطيل هذا المشروع الاقتصادي في محور طنجة . جاكرتا، هذا الجانب الروحي هو الذي أسس لحضارة الإسلام في قرونها الأولى، حيث فتحت الأمصار و شيدت دول و حضارات انطلقا من الجانب الروحي القوي التي تتمتع بها دولة الإسلام.

16 . تمكّن هذا المشروع من صياغة رؤية كلية مفسرة للظواهر الحضارية، و بذلك أكّدت هذه النظرية بشكل صريح على شمولية و ثبات السنن الكونية، بمعنى خضوع كل التجارب الحضارية لنواميس ثابتة. بالإضافة إلى ذلك، كرّست هذه الرؤية شمولية نظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي للدائرة الإنسانية عموما، حيث انطلقت هذه النظرية من استقراء الواقع التاريخي، و هذا من خلال التتبع التفصيلي لمجموعة من التجارب الحضارية. و وظّف مجموعة من الآليات و الوسائل تكفل من منظوره تجسيد البديل الحضاري، انطلقا من الصياغة الروحية و التربوية و الفكرية للإنسان و المجتمع في إطار المشروع الثقافي، ثم بناء المنظومة المفاهيمية، و انتهاء بالبناء السياسي و الاقتصادي و الثقافي.

17 . انضبط المشروع الحضاري عند مالك بن نبي بخطوات منهجية دقيقة و صارمة، واضحة الأبعاد و الخطوات، في إطار منظومة تغييرية شكّلت في محصلتها النهائية وحدة عضوية متكاملة، إذ انطلق مشروعه من استقراء الواقع التاريخي؛ بغرض كشف العلل التي أثّرت في الأداء الحضاري للأمة، ثم اتجه إلى تشخيص الواقع الراهن؛ بهدف الإحاطة الكلية بالأسباب التي تعطلّ الأمة الإسلامية عن الاستئناف الحضاري، و من ثم قدرّ هذا المشروع بديلا حضاريا متجددا توخى من خلاله تجاوز حالة الخلل الحضاري الذي تعاني منه الأمة. و نفى مالك بن نبي من خلال توظيفه لدورة الحضارية الطابع الإلزامي لها، حيث يرى بإمكانية تعديل مسار الدورة الحضارية إن انحرفت عن الطريق المرسوم، و هذا لا يعني إلغاء لقانون الدورة الحضارية ؛ بل هو عملية تسخير للسنن التي تتحكم في حركة الحضارات صعودا و هبوطا.

18 . رصد في هذا المشروع قراءة متميزة للواقع الإسلامي تشخيصا و تصحيحا، سواء من حيث المنهج أو من حيث المضمون نقلة جديدة للأفكار النهضوية الإسلامية نحو التعمق و التجذر و التجدد و الفاعلية، و قد شمل هذا التميز الأهداف التالية:

أولا : البعد التاريخي: و يعد المنطلق الأساس الذي ارتكز في قراءته للواقع الإسلامي تشخيصا و تصحيحا، و يبدو تميز هذا البعد جليا من خلال توظيفه لنظرية الدورة الحضارية كإطار كلي مفسر للحركة التاريخية صعودا و نكوصا، حيث غاص في أعماق الظاهرة

الحضارية، موظفاً فقهاً سننياً فاعلاً، كشف من خلاله البنية التفصيلية لهذه الظاهرة، و هو ما مكّنه من الإحاطة الكلية بالعوامل التي تتحكم في تداول الحضارات.

ثانياً : البعد التشخيصي: تميز تشخيصه لأزمة الانحصار الحضاري بالعمق و دقة التحليل، يتجلى هذا في فصله الدقيق بين مظاهر الانحراف و عللها الخفية و تركيزه الكبير على البعد الفكري في الأزمة، و هو ما مكّنه من الرصد الدقيق للعوائق التي تشل الأمة عن النهوض، و هو ما يعد مدخلاً ضرورياً لعملية البناء الحضاري.

ثالثاً : البعد التصحيحي: استطاع مالك بن نبي أن ينظر بديلاً حضارياً متميزاً، راعى فيه القيم الذاتية للإسلام، و الخيرة الإسلامية التاريخية، و أثبت من جانب آخر قدرة فاعلة على التفاعل المعرفي مع الخبرات الإنسانية على اختلاف مشاربها غي إطار منهج استيعابي متميز.

و أهم ما نرصده في البعد التصحيحي هو الحضور المركزي :

- ✓ المسألة الثقافية كإطار للتنشئة الروحية و التربوية و الفكرية للفرد و المجتمع.
- ✓ الفاعلية كعنصر ضروري في الأداء الحضاري.
- ✓ مركزية الإصلاح الفكري في منظومته التغييرية.
- ✓ المنحى التأسيسي في العمل التغييرية.

19 . و جود علاقة و صلة قوية بين الأخلاق و الحضارة، كان لا بد من توظيف القيم و الأخلاق في بناء الحضارة و اعتبارها عاملاً جوهرياً يسهم في بقائها و نمائها. فإن وراء كل تقدّم و مدنية قيم أخلاقية و روحية من شأنها أن تشدّ قوام هذا التقدم و تجعله متماسكاً وتحفظه من الزيغ و الانحراف. فالأخلاق عند مالك بن نبي هي سلوك يتفاعل فيه الضمير و الفكر و العاطفة و الإرادة و التنفيذ و العادة، فكل هذه تتحد فتكوّن وحدة سلوكية أخلاقية نعيشها في واقع الحياة اليومية، و طبيعة اختيارات الأفراد و الأمم لأنماط السلوك هي ما تكون القيم لتلك الأفراد و الأمم. و هي ما تعطي كل أمة طابعها الأخلاقي الخاص بها، الطابع الذي يميزها عن غيرها من الأمم.

20. إن مساهمة الأخلاق فعلياً في بناء الإنسان، وإعداده للقيام بمهامه الحضارية، يعد خطوة في الاتجاه الصحيح. إذ تناول مالك بن نبي فكرة الأخلاق في إطار الدين أو ما يسميه " الفكرة الدينية " و دورها في الحضارة، فهو ينظر إلى الأخلاق لا من الناحية الفكرية النظرية الفلسفية، بقدر ما ينظر إليها من الناحية العملية الوظيفية. و يعتبر الدين من القوى

التربوية الرئيسية في المجتمع، فهو المقنن الأول للقيم، و للمعايير الأخلاقية في المجتمع، و من هذه الزاوية يعتبر الدين مصدرا هاما و موردا رئيسيا للمحتوى التربوي و الأخلاقي الذي تنشئ المجتمعات عليها أبناءها، و لذلك فإن جانبا هاما من جوانب الفكر التربوي و ركنا أساسيا من أركان الممارسات التربوية يكون مصدرها الدين في المجتمع.

21. درس مالك بن نبي الحضارة من حيث وظيفتها في المجتمع، فقد أبرز تدخل الأخلاق من هذه الزاوية، كونها تعين الحضارة على أداء وظيفتها أداء كاملا، و تجلت في جانب ما سمّاه بالعوامل المعنوية في مقابل العوامل المادية، و كما تجلت الأخلاق في كونها ضمنت ما يسمى بالشروط الأخلاقية التي تتيح للمجتمع فرص التطور و النمو، بالإضافة إلى ذلك يرى أنه لولا تدخل العنصر الأخلاقي في تكوين معنى الحضارة، لأصبح معنى الحضارة مجردا من كل العوامل المعنوية و مقتصرًا على العوامل المادية، و هو ما يخل إخلالا واضحا بالمعنى الحقيقي للحضارة . و تؤثر الأخلاق في السياسة و الاقتصاد و المجتمع. و دعا إلى أخلاق الحياة الاجتماعية عموما.

22. يرى مالك بن نبي أن توظيف القيم الأخلاقية هو المقياس الأساسي لتنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع، هذا التنظيم مهم مراعاته في بناء الحضارة، و يؤكد أن علم الأخلاق يكون ببناء عالم الأشخاص، و لا يمكن تصور هذا البناء دون مراعاة العلاقات التي تربط بين عالم الأشخاص و عالم الأشياء و عالم الأفكار. ولذلك نجده يقرر بأن وظيفة الأخلاق في بناء الحضارة لا يخفي أمر ضرورتها على كل ذي بال .

23. تتأسس قواعد التربية الاجتماعية على مجموعة من القواعد منها القاعدة التاريخية التي تتحد من خلال استقرار تاريخه و صيرورته التي شكّلت بنائه الاجتماعي، و قامت بتشكيل التنظيم الاجتماعي من خلال " الفكرة " الجديدة التي بثت الروح في أوصاله و أحيتها من جديد، و قاعدة اجتماعية تشكل الحياة الاجتماعية القاعدة الصلبة التي تجري عليها التربية الاجتماعية، لأنها تهدف بالأساس إلى بناء و تنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية، لكي يمكن للمجتمع أن يسجل حضوره في التاريخ، و تأخذ طابع الثقافة من خلال تجسيد بعض المبادئ كسلوكات اجتماعية، لذلك نجد أن مالك بن نبي قد أكد أن الثقافة هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة. و قاعدة شخصية ترى أن التربية الأصلية الفعالة، هي باستمرار تلك التربية التي تتجح في بناء وعي تكاملي متوازن لدى الفرد و المجتمع، و لا تبتسر هذا الوعي بحصره في جوانب أو أجزاء من منظومات الوعي

الخلقى أو التسخيري أو الإستخلافى، بل تتجاوز ذلك إلى استيعاب شمولي تكاملي لكل المنظومات

24. تتشكل التربية الاجتماعية من مجموعة من المفاهيم و الصيغ لإعادة البناء الاجتماعي. أولاً: **على مستوى الفرد:** و تتمثل في : (الأخلاق، الفعالية، التكيف، التوازن، الحرية، النزاهة و الكفاءة و الملاءمة، النقد الذاتي، حسن المعاملة، الطاعة).

ثانياً: **على مستوى المجتمع:** و تتمثل في (الواجب فوق الحق، مدرسة العمل المشترك، مبدأ المؤاخاة، مبدأ التبادل، مبدأ التعاون، مبدأ السلام، الزمن التربوي، فكرة التخطيط، تصفية القابلية للاستعمار، البعد التربوي للتراث، تكوين الثقة بالنفس، تصفية العادات والتقاليد).

ثالثاً : **على المستوى الاجتماعي النوعي:** (مشكلة المرأة، مشكلة اللباس و الزي) على مستوى الثقافة و تتمثل في : (اللفظية، الفخر و المديح، الجدل و التبرير، الشيبية والتكديس، الرومانسية، الاضطراب الفكري والسلوكي، الذرية، إعادة توجيه الثقافة تربوياً، التوجيه الأخلاقي، التوجيه العلمي و التقني).

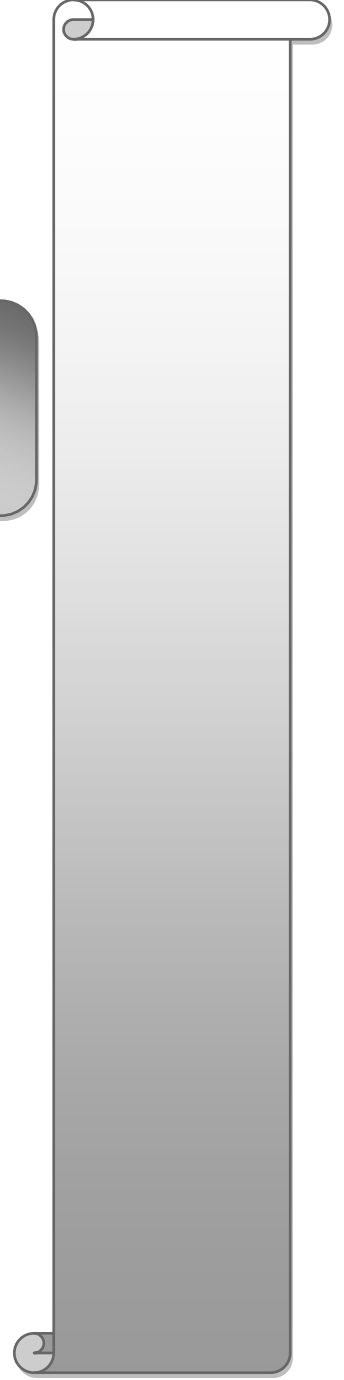
25. وفي الأخير يؤكد الباحث على أن المجال يبقى مفتوحاً للدراسات التي تتناول فكر هذه الشخصية، و عليه يقترح دراسة تعالج آفاق المشروع الحضاري الإسلامي لما بعد مالك بن نبي، تتضمن تأصيلاً و استشرافاً للمشروع الحضاري الإسلامي في القرن الواحد والعشرين.

وبعد استعراض أهم نتائج الدراسة، يخلص الباحث إلى أن المفكر مالك بن نبي صاحب رؤية حضارية شاملة، فهو ينظر للحضارية من الإنسان إلى التربية إلى الثقافة التي بدورها تنتج مجتمعا حضارياً، و يرجع أسباب التخلف الذى أصاب المجتمع فى كل الميادين إلى اختلال التوازن بين العوامل الثلاثة، فالتخلف الحضاري والعلمي والمادي، والجمود الفكري، كلها رواسب مجتمع خارج لتوه من الحضارة ترجع أسبابه لعوامل شخصية ذاتية متعلقة بإنسان ما بعد الموحدين، ذلك الإنسان الذي فقد خلق التوتر و لم يعد قادراً على بناء شبكة علاقات اجتماعية متينة، تؤدي دورها التاريخي

و أوضح مالك بن نبي أن المجتمع الإسلامي هو مجتمع يفتقد للأفكار، و المفاهيم لتحقيق التجديد في بنية المجتمع، فالبناء الحضاري يتطلب أفكاراً لا أشياء، والحديث عن الأفكار يجرنا حتماً إلى الثقافة ليس بمدلولها الفلسفي، و إنما بمفهومها البراغماتي . العملي،

لأن المشكلة لا تنحصر في فهم الثقافة، بل في تحقيقها عمليا. و أوضح أن الحضارة هي في حقيقتها ذات مضمون تربوي ذو طابع تغييري يأخذ من الآية 11 من سورة الرعد منهج حياة كامل يشمل العمل و السلوك الواقعي، و الجانب العقدي قائل تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ صدق الله العظيم.

قائمة المراجع



قائمة المراجع :

المراجع و المصادر المعتمدة في البحث :	
مراجع البحث :	
أولا : كتب سماوية و مصادر و القواميس	
01	القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
02	أبو عثمان الجاحظ، تهذيب الأخلاق، دار الصحابة للتراث في مصر، ط1، 1410هـ/1989م
03	أبو عثمان الجاحظ، تهذيب الأخلاق، دار الصحابة للتراث في مصر، ط1، 1410هـ/1989م
04	إبن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط10، الجزء الخامس، دار صادر، تونس، 2003
05	إبن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، الدار التونسية للنشر، (ب ط) 1984.
06	حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط5، دار السلام للطباعة و النشر، 2010.
07	عبد القادر الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408 هـ .
08	ريمون بودون، المعجم النقدي في علم الاجتماع.تر:سليم حداد، ط1، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
09	لمجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط،تح:مكتب التراث في مؤسسة الرسالة في بيروت، ط1، 1986م.
10	مدكور، أحمد، معجم العلوم الإجتماعية، دار الفكر، ط3، بيروت، لبنان، 1979.
ثانيا: كتب مالك بن نبي (مصادر)	
	مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000
11	_____، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسّام بركة و أحمد شعبو، دار

	الفكر، دمشق، سوريا، 2000	
12	_____ ، شروط النهضة، ترجمة كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000.	
13	_____ ، مذكرات شاهد القرن، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر ، دمشق، ط2، 1984.	
14	_____ ، في مهب المعركة. إرهابات الثورة، الطبعة 3، دار الفكر، 1981.	
15	_____ ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. (ب ط) دار الفكر، 2000	
16	_____ ، وجهة العالم الإسلامي. تر: عبد الصبور شاهين، ط5، دار الفكر، 1986.	
17	_____ ، تأملات. تر: عمر كامل مسقاوي، ط9، دار الفكر ، دمشق، 2009.	
18	_____ ، دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، 1978.	
19	_____ ، القضايا الكبرى، ط1، دار الفكر، دمشق، 1991.	
20	_____ ، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000.	
21	_____ ، من أجل التغيير. تر: نورالدين بوكروح وعمر كامل مسقاوي، (ب ط) دار الفكر، دمشق، 1998.	
22	_____ ، بين الرشاد و التيه، ط2، دار الفكر دمشق، 1998.	
23	_____ ، الفكرة الإفريقية الآسيوية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1981.	
24	_____ ، المسلم في عالم الاقتصاد. ط3، دار الفكر، دمشق، 1987.	
25	_____ ، حديث في البناء الجديد، ترجمة عمر مسقاوي، (ب ط) المكتبة العصرية للطباعة ، بيروت، (ب س).	
26	_____ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: سام بركة و أحمد شعبو تقديم كامل مسقاوي، دار الفكر، 2000.	
27	_____ ، آفاق جزائرية، ترجمة: الطيب شريف، (ب ط)، مكتبة النهضة الجزائرية، (ب س) الجزائر.	
28	_____ ، فكرة كومونولث إسلامي، ط6، دار الفكر ، دمشق، سوريا، 2006،	
	كتب متخصصة حول مالك بن نبي	ثالثا :

29	أسعد، السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، دار النفائس بيروت، ط2، لبنان، 1986.
30	باي، محمد بغداد، التربية و الحضارة . بحث في مفهوم التربية و طبيعة علاقتها . عالم الأفكار، ط1، الجزائر، 2006.
31	بريون، فوزية، مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 2010.
32	بدران بن مسعود بن حسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " أنموذج مالك بن نبي" ط1، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، 1999).
33	برغوث، عبدالعزيز، مداخل التجديد الحضاري و آفاقه العالمية(دراسة في فكرين نبي، دار التجديد للطباعة و النشر، ط1 ماليزيا، 2005
34	برغوث، الطيب، موقع المسألة الثقافية في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينايع للنشر و الإعلام، ط1، الجزائر، 93.
35	برغوث، الطيب ، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، دار قرطبة للنشر و التوزيع، المحمدية، ط1، الجزائر، 2004.
36	تشيكو، آمنة، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أرنولد توينبي. المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1989.
37	جيلالي، بوبكر، استراتيجية البناء الحضاري. دار قرطبة لنشر و التوزيع، ط1، المحمدية الجزائر، 2011،
38	— ، الإصلاح والتجديد الحضاري لدى "محمد إقبال" و "مالك بن نبي" بين النظرة الصوفية و التفسير العلمي، الطبعة الأولى، (برج البحري، الجزائر، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، 2010) .
39	الخطيب، سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، ط1، بيروت، 1993.
40	السعد، نورة خالد، التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي . دراسة في بناء نظرية التربية ،الدارالسعودية للنشر و التوزيع، ط1، 1997، 1.
41	سعيد، جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم. تقديم مالك بن نبي، دار الفكر العربي، ط3، دمشق، 1977.
42	العبدية، محمد ، مالك بن نبي مفكر اجتماعي و رائد إصلاحي، دار القلم، ط1، دمشق ،

	سوريا .
43	عكاشة، شايف، الصراع الحضارة في العالم الإسلامي: مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 1986.
44	عمر نقيب، مقومات بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي، نحو نظرية تربية جديدة للعالم الإسلامي المعاصر، الشركة الجزائرية البنانية، ط1، الجزائر، 2009.
45	عبادة، عبد اللطيف، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، (باتنة، الجزائر) دار الشهاب للطباعة و النشر، (1984).
46	محمد عاطف، معوقات النهضة و مقوماتها في فكر مالك بن نبي، الطبعة الأولى (المحمدية، الجزائر، دار قرطبة للنشر، 2009).
47	عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته و فكره_ الشبكة العربية للأبحاث و النشر، ط1، بيروت 2012.
48	عدوان، محمد عدوان، مشكلات العالم الإسلامي و معالجتها في فكر مالك بن نبي، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 2010.
49	قريشي، علي، التغيير الإجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، ط1، القاهرة، مصر، 1989
50	لمشيبي، مولاي الخليفة ، مالك بن نبي - دراسة استقرائية مقارنة ، معالم المنهج في تأصيل العلوم الانسانية لمشروع " مشكلات الحضارة " دار النايا، دار محاكاة، ط1، دمشق، سوريا، 2012.
51	الميلاد، زكي، مالك بن نبي و مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، لبنان، 1998.
52	مسقاوي، عمر كامل، مقاربات حول فكر مالك بن نبي - من على منبر الجزائر - دار الفكر العربي، ط1، دمشق، سوريا، 2008.
53	_____ ، نظرات في الفكر الإسلامي و مالك بن نبي، (دمشق، دار الفكر، 1997) .
54	_____ ، حول فكر مالك بن نبي، الطبعة الأولى، (دمشق، دار الفكر، 1985) .
55	عبد القادر بوعرفة، الحضارة و مكر التاريخ " تأملات في فكر مالك بن نبي"، ط1، (الحراش، الجزائر، رياض العلوم، 2006)
56	عويمر، مولود ، مالك بن نبي رجل حضارة، الطبعة الأولى، (تيزي وزو، الجزائر، دار

	الأمل للطباعة و النشر و التوزيع،2007) .	
57	موسى الأعرش، إستراتيجية إستئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مخبر التربية و الإنحراف و الجريمة في المجتمع، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر،2006.	
58	محمد البنيادي، من ذكرياتي مع مالك بن نبي " حواراً/د عبد السلام الهراس، الطبعة الأولى،(واد القبة، عنابة، الجزائر، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، 2010)	
المراجع العامة		رابعاً:
59	أزوالد، اشبنجلر، تدهور حضارة الغرب.تر: أحمد الشيباني، ج1،لبنان،بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ.	
60	الأخرس،محمدصفوح،نموذج لاستراتيجية الضبط الاجتماعي في الدول العربية،أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ط1، الرياض، 1997.	
61	البهي، محمد ، الفكر الإسلامي في تطوره، دار الفكر، ط1، مصر الجديدة، 1971.	
62	_____ ، الدين و الحضارة الإنسانية، الشركة الجزائرية لنشر والتوزيع، ط1،الجزائر (ب س).	
63	البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ،دار الفكر، ط3، دمشق،1998.	
64	البشر، محمد بن مسعود، السقوط من الداخل، دار العاصمة، ط1، 1415 هـ	
65	التابعي،كمال، تغريب العالم الثالث،دراسة نقدية في علم الاجتماع التنموية.دار المعرفة الجامعية، القاهرة،ط1، مصر، 1995.	
66	توينبي، أنولدا، الحضارة في الميزان.تر: أمين محمود الشريف، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1948.	
67	جون فريمون، تلاقي الثقافات و العلاقات الدولية، بيروت : مجلة الفكر العربي المعاصر،العدد 29، 1983.	
68	جرار، بسام ،الفكر الإسلامي، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، ط 2، البيرة، فلسطين، 2006.	
69	الجمالي، محمد فاضل، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي.الدار التونسية للنشر، ط1،تونس، 1972.	

70	حنفي، حسن، التراث و التجديد . موقفنا من التراث القديم . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 4 بيروت، لبنان، 1992.
71	خالد عبدالرحمن السالم، الضبط الاجتماعي والتماسك الأسري، الطبعة الأولى، الكويت، 2000.
72	ديورانت، ول، قصة الحضارة: نشأت الحضارة، ج1، تر: زكي نجيب محمود، القاهرة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، (ب ط) 1956.
73	ديوي، جون، المدرسة و المجمع.تر: أحمد حسن الرحيم، منشورات دار مكتبة الحياة، ط3، بيروت، 1978.
74	دوركايم، إميل، التربية و المجتمع. تر: علي وطفة، دار وسيم للخدمات الطباعية ط1، بيروت، 1992.
75	رضا، محمد جواد، العرب و التربية والحضارة . الخيار الصعب .. (مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت ، لبنان، 1993.
76	روسو، جون جاك، إميل . أو تربية الطفل من المهد إلى اللحد . تر: نظميلوقا. الشركة العربية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 1985.
77	زقزوق، محود حمدي، مقدمة في علم الأخلاق. ، دار القلم، ط1، الكويت، 1974.
78	سلطان، محمود السيد ،مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ، دار المعارف، (ب ط)، القاهرة، مصر، 1979
79	سلطان محمود السيد، بحوث في التربية الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ط1، مصر، 1979.
80	محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة : عبد الصبور شاهين، ب ط، دار البحوث العربية.
81	محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان. دار القلم، الكويت، مصر، 1990.
82	شيباني، عمر محمد التومي، الإتجاهات الحديثة في مفهوم التربية، سلسلة كتاب الشعب، النشأة الشعبية، للنشر و التوزيع، ط1، 1997.
83	شفقي، محمد عبد الله ، آرنولد توينبي، (ب ط)الدار القومية، القاهرة، 1960.
84	شفيتزر، ألبرت ، فلسفة الحضارة، مطبعة مصر (ب ط)، القاهرة، (ب س).

85	عبد الجليل الطاهر، مسيرة المجتمع. بحث في نظرية التقدم الاجتماعي، بيروت، ط1، لبنان، 1966.
86	عفيفي، محمد الهادي، التربية و التغيير الثقافي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، القاهرة، مصر، 1964
87	عبد الحميد، محسن، تجديد الفكر الإسلامي، ط1، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2006.
88	عبد الدائم، عبد الله، نحو فلسفة تربوية عربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، لبنان، 2000.
89	عباس محجوب، أصول الفكر التربوي في الإسلام، دار لإين كثير، دمشق، عجمان، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1987.
90	محمد لبيب النجحي، الأسس الاجتماعية للتربية. دار القلم، ط2، الكويت 1962.
91	علي أحمد مدكور، منهج التربية في التصور الإسلامي، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1991.
92	عاصي إبراهيم، الحقيقة و المآل، آخر حوار لمالك بن نبي، ط1، دار عالم الأفكار، بيروت، لبنان، 2003،
93	غي أفانزيني، الجمود و التجديد في التربية المدرسية، تر: عبد الله عبد الدائم، بيروت، دار العلم للملايين، (ب ط)
94	فريد، وجدي محمد، دائرة معارف القرن العشرين، ط3، بيروت، دار المعارف، المجلد الثامن.
95	فوزية نياح، القيم و العادات الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ط1، مصر 2003.
96	قطب، سيد، معالم في الطريق، دار الشروق، (ب ط)، بيروت، (ب ت).
97	قطب سيد، الإسلام و مشكلات الحضارة، دار الشروق، ط1، (ب ت) بيروت.
98	قطب، سيد، المستقبل لهذا الدين، دار الشروق، ط1 الكويت (ب ت).
99	محمد قطب، واقعا المعاصر، مكتبة رحاب، ط2، الجزائر، 1989
100	لوبون، غوستاف، السنن النفسية لتطور الأمم. تر: عادل زعتر، دار المعارف، ط2، مصر، 1957.

101	محمد عمارة، المشروع الحضاري الإسلامي، دار السلام، ط1، مصر، 2008.
102	الميلاد، زكي، الفكر الإسلامي، تطورات ومساراته المعاصرة، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2001.
103	الميلاد، زكي ، المسألة الثقافية . من أجل بناء نظرية في الثقافة . مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط2، بيروت، 2010.
104	المودودي، أبو الأعلى، الحضارة الإسلامية أسسها مبادئها. دار الأنصار، ط1، القاهرة (ب ت).
105	وهبة، نخلة، رعب السؤال، أزمة الفكر التربوي " أنا أسأل..إذا..أنا أفكر، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، ط1، بيروت، لبنان، 2001.
خامسا: المجالات و الدوريات	
106	عويس، عبدالحليم ، "الوظيفة الحضارية لأفكار مالك بن نبي"، مجلة الفيصل، العدد 96، دار الفيصل الثقافية، الرياض شوال 1413هـ - ابريل (نيسان) 1993م.
107	أحمد محمد سالم البربري، "تحو مفهوم جديد للحضارة عند مالك بن نبي"، مجلة الفكر العربي، العدد السادس والسبعون، معهد الإنماء العربي، بيروت، السنة الخامسة عشرة (2)، ربيع 1994م.
108	يوسف، حسين، "واقع المسلمين و سبيل النهوض بهم في فكر مالك بن نبي"، مجلة موافقات، عن المعهد الوطني للأصول الدين. المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد 3، 1994، الخروبة، الجزائر.
109	محمد شاويش، "مالك بن نبي وشروط النهضة"، مجلة التبیین عدد19، جمعية الحاحضية، الجزائر، (ب س).
110	محمد البشير مغلي، "مالك بن نبي كان أمة واحدة براعة فكرية و مهارة تحليلية"، مجلة الموافقات، مجلة دورية أكاديمية تصدر عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد الثالث، جوان 1994، الخروبة، الجزائر.
111	خليل، أبو دف محمود، "معالم الفكر التربوي عند السيد قطب من خلال تفسيره في ضلال القرآن" مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، مجلة محكمة تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، يونيو، 2003.

112	الصافي، علوي طه، تعريف الثقافة ومفهومها،مجلة الفيصل ،العدد 143، ديسمبر 1988. يناير 1989.
سادسا: مذكرات و أطروحات دكتوراه	
113	سعيدى، حمودة، "مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي"، رسالة ماجستير في الفلسفة، غير منشورة، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، 1984، 1985.
114	حسن موسى محمد العقبي،مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة،رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة،:،2005، 2006.
115	محمد لعطاف، معوقات النهضة و طرق علاجها في فكر مالك بن نبي ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية،جامعة الجزائر، 2007 . 2008 .
116	كمال بن قوية، الأخلاق و أهميتها في بناء الحضارة عند كل من مالك بن نبي و ألبرت أشفيتزر، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر، 2001 . 2002.